سيرة خليفة قادم

قراءة عقائدية في بيان الولادة





د. أحمد خيري العمري

سيرة خليفة قادم

قراءة عقائدية في بيان الولادة

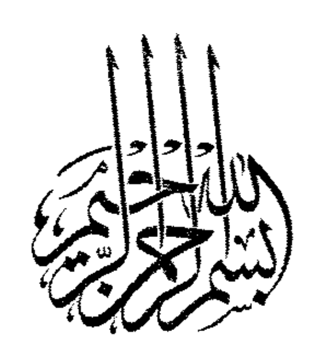
د. أحمد خيري العمري

ⓒ أحمد خيري العمري، ١٤٣٤هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العمري، أحمد خيري
سيرة خليفة قادم / أحمد خيري العمري - جدة، ١٤٣٤هـ
٤٦٠ ص، ١٦,٤ X ٢٣,٨ سم
ردمك: ٢ - ١٧٤٨ - ٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١- الخلافة ٢- العقيدة الإسلامية ٣- الإسلام والمجتمع
أ العنوان
ديوي ٢٤٠ ١٤٣٤/٢٧٦٣

رقم الإيداع: ١٤٣٤/٢٧٦٣
ردمك: ٢ - ١٧٤٨ - ٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨
تصميم: صالح أحمد.
تصوير: زين العابدين أحمد العمري.

يطلب حصرياً داخل جمهورية مصر العربية من دار أجيال للنشر والتوزيع.
هاتف: 01224242437 (+2)
www.dar-ajial.com


الطبعة الأولى
١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م



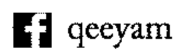


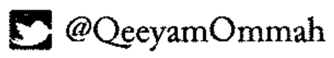
القرآن.. لأمة قائمة

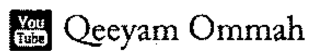
www.qeeyam.com

info@qeeyam.com

www.quran4nahda.com


qeeyam


@QeeyamOmmah


Qeeyam Ommah

الفهرس

إهداء

أهدي هذا الكتاب إلى أول جامع تفتحت عليه ذاكرتي..

"جامع الخلفاء" في وسط بغداد.. الذي يعود للقرن الثالث الهجري، عندما كانت بغداد عاصمة الخلافة.. عندما كانت بغداد "بغدادا" حقا..

إلى صلاة عصر لا منسية أخذني والدي إليه فيها، وحملتها كوشم في شراييني.. رغم أن الذكرى اليوم تبدو بعيدة كما لو أنها قد حدثت في القرن الثالث الهجري!...

أهدي الكتاب إلى "جامع الخلفاء".. إلى أساساته التي تبدو اليوم آيلة للسقوط.. إلى رائحة التاريخ التي تقود إلى المستقبل في ثناياه..

آملا أن يكون في الكتاب ما يقويه..

أو يساهم في بنائه.. على أسس جديدة..

وآملا في أن تعود بغداد إلى ذاتها..

أن تعود بغداد إلى "بغداد"..

أحمد

مقدمة، تقريباً

يهدف هذا الكتاب، ببساطة، إلى أن يكون جزءاً من سيرة حياتك.

ليس أقل من هذا.

وليس أكثر أيضا!..

كل الكتب، وكل الكتّاب يهدفون إلى ذلك بالمناسبة.. بطريقة أو بأخرى..

ربما نادرا ما يحدث إقرار بهذا في مقدمات الكتب..

لكني أشعر بحاجة إلى أن اكون صريحا..

نعم.

يهدف هذا الكتاب إلى أن يكون جزءا من سيرة حياة كل من يقرأه.

ليس هذا هدفا سهلا على الإطلاق.

أعرف هذا.

وأعرف أيضا أن نسبة النجاح في هذا ضئيلة جدا.

لكني لا أستطيع أن أفتتح كتابا كهذا إلا بهذه الصراحة..

يهدف هذا الكتاب إلى أن يكون جزءا من سيرتك الذاتية.. ليس أقل..

إن كنت تعتقد أن ذلك لا يمكن له أن يحدث، فلا تُضيِّعْ وقتك ومالك في هذا الكتاب..

◆◆◆

وإذا كنت أيضا تعتقد أن الأمور بخير، فلا حاجة لك في هذا الكتاب.. لا أنصحك بإضاعة مالك، ووقتك، معي.. ومعه..

إذا كنتَ من هؤلاء الذين لا يزالون يعتقدون ذلك، أقول لك: لا تُضيِّعْ وقتَك هنا.

لا أقول هذا لأن الكتاب سيزعجك، فهذا أحياناً مفيد جداً حسب رأيي، وأحياناً يكون هدفي أن أزعج!..

ولا أقول: إنك لن تفهمه، فليس من حقي اتهامك بهذا..

ولكن فلنقل إن هذا الكتاب يبثُّ على موجة مختلفة جداً عن تلك التي تعودتَ استقبالها.

إذا كنتَ لم تعرف بعدُ أن الأمور ليست بخير، فهذا يعني أنك لم تفهم لِمَ كُتِب هذا الكتاب أصلاً..

إذا كنت تعتقد أن كل شيء بخير، فهذا يعني ضمناً عدم رغبتك بحدوث تغيير.. عدم رؤيتِك لضرورة أن يحدث التغيير.. وعدم استعدادك لدفع ضريبة "التغيير"..

عدم رؤيتك كم هو سيئ.. هذا الواقع الذي تعيشه الأمة.. هو برأيي مشكلة في طريقة "النظر".. تصحيح هذا الأمر لن يكون سهلاً بكتاب.. ليس هذا الكتاب على أيَّة حال.

وهذا، كله، برأيي، فراقٌ بينك وبين الكتاب..

إذا كنت تعتقد أن الأمور ليست بخير، لكن هذا لا يعنيك.. ما دامت "أمورك الشخصية" المباشرة بخير، فيمكنك أن تقرأ الكتاب، ويمكن من خلال ذلك أن ترى أن فكرة الفصل بين "الشخصي" و"العام" ستتغير..

◆◆◆

إذا كنت تعتقد أن الأمور ليست بخير، ولكن ذلك يعود فقط إلى "سوء تطبيق" لا أكثر، وأن "الخطة النظرية" جاهزة وكاملة، وكل ما حدث هو أننا لم نلتزم بها، فلا بأس من القراءة، ولكن عليك أن تعلم مسبقاً أن الكتاب لا يتحدث عن **سوء تطبيق، بل عن سوء فهم متراكم أدى إلى تطبيق منحرف تماماً..**

ليس لدينا خطة نظرية جاهزة، لدينا نصوص شرعية محكمة نعم.. لدينا كتاب منزل محكم نعم.. لكنَّ الخطةَ التي تَستمدُّ أصولَها وقواعدَها وأسسَها ومنطلقاتِها وأهدافَها غيرُ جاهزة بعد.

الخطة التي نعتقد غالباً أنها موجودة، هي مجرد فهم بشري تراكم عبر العقود، واختلط بالنص المقدس المنزل، حتى تصورنا (واهمين) أنهما واحد، والحقيقة أنهما منفصلان تماماً، وأن النص المقدس لا يأتيه الباطل، أما الفهم البشري فهو معرض للخطأ والانحراف، وجزء كبير من الفهم الذي نعامله اليوم كما لو كان مقدساً هو فَهمٌ وُلد ونشأ في قرون التدهور وتكرس وتراكم، ولا يرتبط بفهم الجيل الأول الذي حقق القفزة النهضوية الأكبر في التاريخ.

الكتاب لا يزعم تقديم خطة بديلة، لكنه بالتأكيد يلتزم بالنص الديني، بمعزل عن فهمه المتراكم، ليتلمس طريقاً آخر نحو الخروج مما نحن فيه، بغض النظر عن تسمية طريق الخروج..

وهو بهذا يحاول الحفر في **مفاهيم "مفتاحية" أساسية ومهمة** وردت في النص القرآني، وكان لها أثرها الكبير في السُّنة النبوية، دون أن يمر إليها من خلال "الفهم السائد" لهذه المصطلحات، بل من خلال **طريقة تقديمها في النص القرآني، وأثرها الذي وصلنا من الثابت والصحيح من الحديث الشريف..**

إنه محاولة للتنقيب في منجم مفاهيم قرآنية أؤمن شخصياً أنها أُهملت وتراكم عليها الصدأ بسبب اكتفائنا المريض بما وجده آخرون في ظروف زمنية مختلفة.

◆◆◆

الكتاب يبحث في موضوع "الاستخلاف".

موضوع وظيفتنا بوصفنا **خلفاء** في الأرض.

وهو موضوع "مفتاحي"، بمعنى أنه يشكل "مفتاحاً" لأساسات مهمة في فهم النص الديني، وفهم وظيفته، وبالتالي فهم "المطلوب" منا..

كما أن البحث في موضوع الاستخلاف قد أدى إلى فتح "مفاهيم مفتاحية أخرى" لا تقلُّ أهميةً ومركزيةً عن الاستخلاف، وهي متضمنة فيه، مثل مفهوم "الإيمان والعمل الصالح" وارتباطهما الوثيق قرآنياً، وكذلك مفاهيم "الدنيا"، "القضاء والقدر"، "التقوى"، و"أولي الأمر".. وكلها مفاهيم ليست مفاهيم "فاعلة" في حياتنا اليومية فحسب، ولا تملك تأثيراً مباشراً على ما نتخذه من قرارات في مفترقات الطرق الموجودة في حياتنا فحسب، بل هي - كما سنرى لاحقاً - تشكل عناصر أساسية في معادلة الاستخلاف.. والخلل الذي أصابها أصاب معادلة الاستخلاف في مقتل..

◆◆◆

مشكلتنا مع مفهوم "الاستخلاف" أو "الخلافة" معقدة.

فهي قد قُزِّمتْ وحُجِّرتْ لتكون محصورةً على "دولة الخلافة".

ودولة الخلافة بدورها قُزِّمتْ وشُوِّهتْ صورُها لتكون قاصرة على "تطبيق حد السرقة" أو "الخليفة المستبد".. أو.. أو..

لذلك صار الحديث عن الاستخلاف قريباً جداً عند البعض من كونه بياناً سياسياً عن "دولة الخلافة" المرتقبة، ويؤدِّي ذلك عند البعض الآخر إلى إصدار "تهم جاهزة"، مثل الدعوة إلى "دولة إسلامية" (يا للهول!).. أو تطبيق الشريعة.. (يا للجريمة!).. أو العودة إلى الوراء... إلخ.

بعيداً عن هذا وذاك، فإن الاستخلاف – قرآنياً - أكبر بكثير من المفهوم الضيق الذي يحصرها في التحزُّب والسياسة..

الاستخلاف – قرآنياً - يساهم في تأسيس القيم المؤسسة للحضارة الإسلامية وتشكيل هذه القيم، والحضارة الإسلامية أكبر من الدولة حتماً، وإن كانت قد تتمثَّل فيها، لكنها تتمثَّل أولا في الأفراد والجماعات وأهدافهم وسلوكهم وطرق تفكيرهم..

الاستخلاف - قرآنياً - **هو مفهوم عامٌّ "تغطس" فيه حياتنا كلُّها، بكل مفرداتها وتفاصيلها، من أَلِفِها إلى يائها، ومن خلاله نكوِّن كثيراً مما يجب أن نكونه..**

اجتزاء هذا المفهوم، وتحويله إلى حديث "سياسي" يفرغه من معناه الحقيقي، بل يشلُّ كل جوانب تفعيله.. فلا معنى في الحديث عن "دولة الخلافة" إذا لم يكن هناك قبلها قيم الاستخلاف، تعيش مع الناس أو يعيشون بها..

بل إن تقزيم الاستخلاف لِيكون مجرد حديث عن "دولة خلافة"، هو جزء من معوقات نشوء وتقبُّل الاستخلاف أصلاً.. إذ هو يقسره على بيئة هجينة عنه، بيئة لا يمكن أن تتقبلها حقيقة، وإن حدث و"جربته" فستفشل حتماً في التعامل معها والنهوض عبرها.. ويكون رد فعل الفشل انعكاسياً على الاستخلاف كلِّه، لا على "الاجتزاء" الذي كان سبباً في هذا الفشل.

يزيد الأمر تعقيدا أن البعض ممن ينادون بدولة الخلافة، عندما تتاح لهم فرصة تقديم نموذج، فإنهم يقدمون نموذجا ليس بعيدا فحسب عن كل قيم الاستخلاف، بل "مناقضا" لكل هذه القيم، وهذا يسهم في ربط ما قدموه بالاستخلاف، والاستخلاف بريئ منه براءة الذئب من دم يوسف.

❖ ❖ ❖

الحديث عن الاستخلاف والخلافة يرتبط مباشرة، وبالتعريف، بدورنا "المنشود" في هذه الحياة.. وهو دور أؤمن شخصياً أنه أبعد بكثير من مجرد **"رفع معدلات التنمية"، أو مضاهاة بقية الأمم التي سبقتنا.**

هذا الدور عندما نؤمن به حقاً، يكون جزءاً منا، من تلافيف أدمغتنا، يكون كالوشم

على عقولنا، على نمط تفكيرنا، على رؤيتنا للأشياء.. على تعاملنا مع الأشياء والحوادث.. من أبسطها، كرمي ورقة مهملة في الشارع، إلى أضخمها، كالتحديات الكبرى التي تواجه الأوطان والأمم.. مروراً بما لا يقلُّ عن ذلك أهمية، من تربية الأبناء، إلى سبر أغوار العلوم، إلى نشر الوعي.. وكل هذا مجرد أمثلة.

الاستخلاف برنامج كامل، مثل نظام الحواسيب (الويندوز windows)، يتم تنصيبه فيعمل الحاسوب وكل البرامج المنصبة فيه من خلال هذا النظام (الويندوز windows)..

كذلك الاستخلاف.. **إنه برنامج كامل، منظومة كاملة، عندما تفهمها، وتؤمن بها حقاً، فإنك "تنصّب" لتأدية دورك.**

الاستخلاف يقوم بإعادة تنصيبك.. بل يقوم بإلغاء كل نظام سابق عمل فيك..

يلغي كل البرامج السابقة التي تم تنصيبها من قِبَلِ "منظومات حضارية أخرى"، والتي كنت تعمل بموجبها.. يرميها حيث يجب أن ترمى..

كل تلك البرامج كانت، على الرغم من بهرجتها وإتقان تسويقها، تصطدم بعدم توافقها معك.. دوماً كان يظهر عطب ما نتيجة ذلك.. دوماً كانت هناك مشاكل ناتجة عن ذلك.. ودوماً كان المسوِّقون لتلك البرامج يجدون علاجاً مؤقَّتاً ما، أو يجدون برنامجاً جديداً ما..

لكن لا، الاستخلاف برنامج مختلف، لا يمكن له أن يتصادم، أو لا يتوافق معك، لأنه إصدار نفس الذي أصدرك شخصياً..

خالقك..

◆◆◆

الاستخلاف، في هذا الكتاب، بعيد تماماً عن النظرة التقليدية التي تحول "الخلافة" إلى ديكور تاريخي يراد قسره على واقع معاصر، وبعيد أيضاً عن النظرة التقليدية التي تريد استبعاد الاستخلاف فقط لأنها تتصوره ديكوراً تاريخياً لم يعد صالحاً للاستعمال.

بين هذين التطرفين، ثمة درب واسع، قد يبدو ضيقاً في البداية فقط بسبب قلة من طرقه، لكنه الدرب الذي يوصلنا إلى قيم الاستخلاف الحقيقية، إلى معانيها العميقة، بعيدا عن الديكورات الزائلة والمتغيرة فعلاً، والتي انتهت صلاحيتها فعلاً، وبعيداً أيضاً عن النظرة التي تستبعد أي شيء فقط لأننا لم نعتده في حياتنا

المعاصرة، غريبة الملامح والأدوات.

ثمة درب ثالث، يمر بالقيم والمبادئ والمنطلقات التي تأسس عليها الاستخلاف، لا بمظاهره التاريخية منتهية الصلاحية.

درب ثالث، يمر بهذه القيم والمنطلقات، فإذا به يقدم لنا فهماً جديداً مختلفاً للكثير مما تعودنا فهمه على نحو تقليدي.

درب ثالث يقود إلى خريطة جديدة، "خريطة جينية"• جديدة، لكل ما يعيد تشكيلنا من قيم ومفاهيم.

"خريطة جينية " نعيد من خلالها فهم وتشكيل ذواتنا أولا ."خريطة جينية " لا بد من المرور بها كي يكون لنا موقع حقيقي على خريطة العالم، كي نساهم في صنع خريطة العالم.

كي نجعلها أفضل.

◆◆◆

يهدف هذا الكتاب إذاً أن يكون جزءاً من خريطتك الجينية، خريطة القيم والمفاهيم التي تشكلك.

أي أن يكون جزءاً من سيرة حياتك.

ليس هدفاً سهلاً بالتأكيد.

لكن خريطة جينية، تشكلت بين "وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا" و "سلوا الله الفردوس (الأعلى)" تقول أن هذا مهما كان صعباً، فهو يستحق على الأقل المحاولة.

على الأقل..!

أحمد

• الخريطة الجينية: الخريطة التي تظهر مواقع كل جين (مورث) على الكروموسوم وعلاقته بالجين الذي يليه ويسبقه وكذلك فك الشفرة الخاصة بكل جين. وقد نتجت هذه الخريطة الجينية عن مشروع الجينوم العالمي الذي بدأ في العقد الأخير من القرن الماضي وأنجز في بداية الألفية، ولم يشارك فيه المسلمون للأسف، ربما لأن عليهم المرور بخريطتهم الجينية - خريطة القيم والمفاهيم التي تشكلهم-قبل أن يسهموا حقا بما يساهم في صنع عالم أفضل.

النهوض على طريق الاستخلاف القرآني

د. وليد أحمد فتيحي

باحث عن النهوض

بهذا الكتاب غير المسبوق في طبيعة موضوعه ونتائجه التي خلص إليها والتي تعد صادمة إلى حد كبير مع كثير من موروثاتنا ومفاهيمنا التي نفاجأ - وللأسف - أنها تختلف جذرياً مع مقاصد قرآنية راسخة، يضيف كاتبنا - المتألق دوماً - الدكتور أحمد خيري العمري فصلاً جديداً في كتاب النهوض الموسوعي الذي قطع به شوطاً كبيراً ولا يزال يَسطُر ببراعة صفحاتِه المضيئة، ويضع لبنة أخرى تضاف إلى لبنات سابقات، تكاد بمجموعها ترسم معالم مستقبل أمة تضع أقدامها - بإذن الله - على طريق النهوض.

ويصدر (سيرة خليفة قادم) في وقت متزامن مع كتاب آخر على نفس القدر من الأهمية (استرداد عمر من السيرة إلى المسيرة)، ليشكلا معا منظومةً متجانسةً تصب في هدفٍ نهائيٍ واحدٍ وإن اختلفا في مسارات البحث، متطرقةً للعديد من المفاهيم البالية التي ترسخت في أذهاننا عبر قرون لتشكل حالةً عامةً من غياب الوعي والانهزامية والسلبية والتخلي عن الأمانة التي حملناها.

وهو يعزز مسيرة فكر النهوض بهذا الكتاب الفريد، يحاول الدكتور العمري التنقيب في منجم مفاهيمَ قرآنيةٍ أُهملت وتراكم عليها الصدأ بسبب اكتفائنا بما وجده آخرون في ظروف زمنيةٍ مختلفةٍ.

والنهوض كما سنرى عمليةٌ شاملةٌ تنبع من البنية الفكرية لأمة ما، تقوم فيها هذه الأمة بتحقيق مقومات وجودها كأمةٍ متمايزةٍ عما سواها.. تجد هذه الأمة منطلقات وجودها وأهدافها في هذا الوجود وتعمل لتحقيقها وتسخير كل طاقاتها لذلك. كما أن النهوض تهتم أكثر بالقواعد السليمة.. وبنمط ومواد البناء وبكونها ملائمةً للإنسان أكثر.

النهوض مرحلةٌ من مراحل الاستخلاف، لذا جاء هذا الكتاب عن (الاستخلاف) وباحثاً عن (الخليفة الحقيقي) الذي أراده الله "إني جاعلٌ في الأرض خليفة"، والذي يمكن أن يكون داخل كل واحدٍ منا إذا ما التزمنا طريق الاستخلاف.

مفهوم "الاستخلاف" أو "الخلافة" الذي تتبعه الدكتور العمري باستفاضة وبمهارة الباحث المتمرس، يوضح أن مشكلتنا معه معقدة، فهذا المفهوم قد قُزِّم وحُجِّر ليكون محصوراً على "دولة الخلافة" أو "الخليفة" بمعنى "الحاكم"، لذلك صار الحديث عن الاستخلاف قريباً جداً عند البعض من كونه بياناً سياسياً عن "دولة الخلافة"، رغم أن الاستخلاف – قرآنياً - أكبر بكثير من المفهوم الضيق الذي حصر في السياسة.

الاستخلاف – قرآنياً – كما يعرضه الكتاب يساهم في تأسيس القيم المؤسسة للحضارة الإسلامية وتشكيل هذه القيم، والحضارة الإسلامية أكبر من الدولة حتماً، ولكنها تتمثَّل فيها، كما تتمثَّل في الأفراد والجماعات وأهدافهم وسلوكهم وطرق تفكيرهم.

الاستخلاف - قرآنياً - أيضا هو مفهومٌ عامٌ تتكون فيه شخصيتنا وتصبغ به حياتنا كلُّها، بكل مفرداتها وتفاصيلها، من أَلِفِها إلى يائها، ومن خلاله نكوِّن كثيراً مما يجب أن نكونه، واجتزاء هذا المفهوم، وتحويله إلى حديث "سياسي" يفرغه من معناه الحقيقي.

وها هو الدكتور العمري يبين أن الحديث عن الاستخلاف والخلافة يرتبط مباشرةً، وبالتعريف، بدورنا "المنشود" في هذه الحياة.. وهو دور عندما نؤمن به حقاً، يكون جزءاً منا، من تلافيف أدمغتنا، يكون كالوشم على عقولنا، على نمط تفكيرنا، على رؤيتنا للأشياء.. على تعاملنا مع الأشياء والحوادث.

ومع ما تقوم به مبادرة (القرآن من أجل أمةٍ قائمةٍ) المظلة الرسمية الراعية لأعمال الدكتور العمري، تجاه دعم فقه النهوض القرآني، نأمل أن تكون مخرجات مثل هذه المبادرات رواحل لإعمال الفكر وإذكاء القلب والمساهمة في تشكيل جيلٍ من الشباب المفكر والباحث القرآني وإثراء الأعمال ذات المرجعية القرآنية في التأصيل لفكرٍ وفقه النهوض المستند لمنظومة قيم القرآن العظيم.

الفصل الأول

خطوط طول وعرض "قرآنية"..

خطوط طول وعرض "قرآنية"..

شُغلتِ البشرية بأسئلة كثيرة منذ بزوغ الوعي الإنساني، وبحث مفكِّروها وفلاسفتها طويلاً عن أجوبة لهذه الأسئلة، لكن من المهم أن نتذكر هنا أن البحث عن سؤال صحيح لطرحه قد يكون أهم بكثير من إيجاد الجواب الصحيح لأسئلة غير مهمة.

لذلك فمن المهم جداً، أن نطرح السؤال الصحيح أولا، من أجل الوصول لاحقاً إلى الجواب الصحيح..

لماذا نحن هنا، على هذا الكوكب؟

سؤال مهم، مع أن البعض قد لا يفكر فيه، والبعض يحاول تجاهله، يطرده من باله كما يطرد وسواساً شريراً..

لكن السؤال المهم إذا لم يكن له رؤية واضحة، من أجل الحصول على جواب واضح، فإن كل جواب سيكون بلا معنى..

هذا السؤال ليس مهماً فحسب، بل هو الأهم، فالأسئلة الأخرى التي شغلت بال الإنسانية ومفكِّريها طويلاً، من نوع: كيف جئنا إلى هنا؟ وإلى أين سنذهب؟ أسئلة مهمة أيضاً، لكن فلنعترف أنها أقل أهمية من هذا السؤال، لأنها ببساطة ترتبط بما «قبل وجودنا»، وما «بعده»، ومن ثَمَّ فهي لا ترتبط بنا بشكل مباشر..

أما سؤال «**لماذا نحن هنا؟**» فهو يرتبط بوجودنا المباشر على سطح الأرض.. وبالتالي يرتبط بما نفعله على هذه الأرض، ولهذه الأرض.. إنه سؤال وجودي تماماً؛ لأنه يرتبط بماهية وجودك، بكل ما هو أنت، بكل ما أنت من أجله..

لا أنكر هنا أن سؤال (الماقبل)، وسؤال (المابعد) مهمان أيضاً في السياق نفسه، وأن سؤال «الآن» يرتبط بهما ارتباطاً جوهرياً، لكن بالنسبة للإنسان، ومن الناحية العملية على الأقل، فإن السؤال **الذي يحدد لِمَ هو هنا، سيبقى هو الأهم..**

جواب صحيح واحد فقط

الأمر المهم في هذا النوع من الأسئلة أن **الجواب فيها لا يمكن أن يتعدد**، إنه إما أن يكون صحيحاً، أو أن يكون خاطئاً، لا مجال هنا - وفي هذه الأسئلة بالذات - **لأجوبة مختلفة تكون كلها صائبة بطريقة ما.**

هناك بعض الأسئلة تتحمل ذلك، تتحمل النسبية، تتحمل شَرطَي الزمان والمكان.. لكن هناك أسئلة لا يمكن لأجوبتها إلا أن تكون مطلقة.. لأنها ببساطة أسئلة تنصبُّ على أمور لن تتغير بتغير المكان والزمان..

بعبارة أخرى: **النوع الإنساني وُجِدَ على هذه الأرض لهدف محدد**، (هذا بالنسبة لمن يؤمن طبعاً بوجود هدف، وليسَ للعبثيين والمؤمنين بآلة الصدفة طبعاً).

لا يمكن أن يؤمن أحد حقاً، أن الإنسان في الصين خُلِق لهدف آخر غير الذي خُلِق لأجله في أفريقية.. **ما دام النوع الإنساني قد وُجِد مرة واحدة، في زمن هو بدء الزمن الإنساني حقاً، فلا بد أن يكون الهدف واحداً..**

ولهذا، فإن الهدف من وجودنا، **هو قضية «عقائدية» بطريقة ما، أي أنه يدخل في صميم عقيدتنا وإيماننا.. فلفظ العقيدة الذي اشتُق من الفعل «عقد» تنطبق تماماً على إيماننا بما خُلِقنا من أجله.. الذي هو «عقدة الأمر».. فحياتُنا كلُّها على كوكب الأرض تقوم على ما ستفعله فيها، وما سنفعله فيها يعتمد بشكل أو بآخر على إيماننا بوظيفتنا فيها..**

الأمر إذن ليس قضية نسبية، ليس مجرد «وجهة نظر».. ليس رأيا قد يحتمل الصواب والخطأ.. لا.. الأمر يتعلق بالعقيدة.. **والعقيدة ليست رأياً عابراً في قضية عابرة..**

إنها تتعلق بكل ما هو أنت.. بكل ما يجب أن تكون عليه..

ليست «وجهة نظر» على الإطلاق..

لم يقولوها، لأنهم "تنفسوها"..

وقد يقول قائل: لِمَ إذن لم ينتبه أجدادنا إلى ذلك، وهم الذين حملوا الرسالة، وحقَّقوا أعظم نهضة في تاريخ البشرية؟ لماذا لم يضعوا «الهدف من وجود النوع

الإنساني» فيما وصلنا من كتب العقائد؟..

بيساطة، **لأنهم عاشوا الفكرة حتى النخاع**، حتى إنه لم يعد هناك مجال للتصور أن هناك أصلاً حاجة لذكرها.. بالضبط كما لو لم يتصوروا، وكما لا يتصور أحد اليوم، **أنه يحتاج إلى أن يقول: إنه يتنفس.. ولن يتصور أنه بحاجة إلى ذلك إلا عندما تطرأ مشكلة في تنفسه..**

كذلك كان ذلك الجيل وذريته، الجيل الأول الذي قدم للعالم أعدل وأعظم حضاراته، لقد اعتنق الفكرة حتى تنفسها.. وعندما تتنفس شيئاً فإنك لا تذكره.. لأنك تعيشه، لأنه يصير بديهة لا تحتاج إلى برهان..

وكذلك كان الهدف الذي خُلِقنا من أجله بالنسبة لمن عرف لِمَ خُلقنا، وطبق الهدف في حياته.. كان بديهة، لا تحتاج إلى برهان.. بديهة خارج الجدل وخارج التشكيك..

ولقد كان ذلك جزءاً من الأسباب التي جعلتهم ينجزون..

إن إيمانهم بالهدف كان وراء إنجازهم، كان عقيدة، ولم يكن وجهة نظر..

◆◆◆

والحقيقة هي أنك عندما لا تؤمن بوجود هدف من أجل وجودك فإنك غالباً ستأخذ واحداً من طريقين:

إما أن تعيش بلا هدف، أو **على الأقل بلا هدف بعيد المدى**، فقط أهداف آنية لكل خطوة، يقودك الطريق، ولا تشقه أنت بنفسك.. تخوض مع الخائضين في حياة بلا معنى حقيقي، أو حتى غير حقيقي.. حياة بلا معنى على الإطلاق، حقيقي أو مزيف..

أو أن يكون لك هدف، لكنه ليس «الهدف» الأصلي، بل هدف آخر ابتكرتَه بنفسك، أو ابتكروه لك، ووضعوه في عقلك بهذه الطريقة أو تلك، حتى بدا أنه هو الهدف الذي خُلقت من أجله..

ولأن الأمر ليس وجهة نظر - كما أسلفنا - بل هو عقيدة، وفي العقائد لا مجال إلا لهدف واحد خُلقنا من أجله جميعاً.. إما أن نصيب فيه.. أو أن نخطئ..

◆◆◆

والمؤمنون بالأديان يبحثون عن عقيدتهم في النص الديني المؤسِّس لهذا الدين، ربما يتغير تفاعلُهم مع هذا النص عبر تغيُّر واقعهم، لكن هذا التفاعل ينتج آفاقاً جديدة لا تلغي المعاني السابقة، بل تحتويها وتجعلها أكثر إثماراً وتفاعلاً..

فما دمنا نؤمن **بالنص الديني، بتعاليه عن الزمان والمكان، فإننا نؤمن بأن العقل الذي وهبه الله تعالى للإنسان قادر على التفاعل مع هذا النص**، وإيجاد الأجوبة المتجددة دوماً، **أجوبة قادرة على أن تقودنا للطريق**، تُعبِّده لنا، وتساعدنا في أن نكون أنفسنا، نكون ما خُلقنا من أجله..

◆◆◆

والنص القرآني لم يبدأ بطرح الأجوبة، لكنه استدرجنا إلى طرح السؤال أولاً، ثم جعلنا نتلمس الجواب بالتدريج، ولم يحسم الأمر بجواب فوري.. بل جعلنا نفكر، ونبحث بأنفسنا، ثم جاء الجواب ليزرعه في أرضٍ قد تهيأت لاستلامه عبر ذلك البحث..

أين حدث ذلك؟.. في أي سورة؟

القيامة: في البدء كان الهدف!

في مرحلة مبكرة من الفترة المكية، نزل القرآن الكريم ليوجه الإنسان المسلم الذي كان في طور التشكل والتكوين، نحو هذا الأمر..

كان ذلك في السورة التي اتخذت اسماً يرتبط بالأمر كلِّه بشكل مباشر..

سورة القيامة..

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى ﴿٣١﴾ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴿٣٣﴾ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة:٣١-٤٠].

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ ؟ ..

تعودنا على لفظ (أن يُترك سدى) دون أن نفهم ماذا كان يعني في لسان العرب، وكيف فُهمت هذه الآية عند نزولها للمرة الأولى..

قال القرطبي في تفسيره: (أن يُترك سدى) أي أن يخلى مهملاً، فلا يُؤمر ولا يُنهى، قاله ابن زيد ومجاهد، ومنه إبل سدى: ترعى بلا راع.[1]

[1] تفسير القرطبي، سورة القيامة ج ١٩ ص ١١٦، الجامع لأحكام القرآن دار الكتب العلمية ٢٠٠٥

إبل مهملة!..

أتحسب أيها الإنسان أن تترك كإبل بلا راعٍ؟..

ليس أن تترك كإبل فقط!..

بل كإبل بلا راعٍ!..

أي أن ترعى، تبحث عن الكلأ.. والماء، دون أن يكون لك ضابط أو راعٍ أو قيد..

مجرد إبل تركت، تسرح على غير هدى !..

لماذا كان العرب يفعلون ذلك؟.. لماذا يترك صاحب الإبل إبله وهي رأس ماله؟

لأنها تكون قد كبرت.. شاخت، ولم يعد بإمكانها لا أن تُنجِب ولا أن تنتج، حتى لحمها سيكون قد جفَّ وصار غير قابل للأكل..

إبل سائبة إذن. سائبة ليس سهواً من راعيها أو صاحبها، بل **سائبة مهملة عمداً لأنها لا فائدة مرجوة منها.**

لا فائدة ترجى منها لأي كان.. لذا فهي تترك..

هل حسب الإنسان أن يترك كإبل مهملة؟

هل يُتصوَّر أن ذلك ممكن أصلاً؟

هل يريد ذلك؟!

ألا يشعر أن ذلك لا يناسبه؟

وأنه خلق لشيء أكثر جدوى وأهمية من أن يكون كإبل مهملة.. لا فائدة منها ولا نفع يرتجى..؟

السؤال يُطرح على الإنسان الذي يُعاد تشكيلُه عبر القرآن.. صيغة السؤال توحي ضمناً بالجواب..

ليس (سدى) بالتأكيد.

لكن لن يكون هنا، في هذه المرحلة، **تحديدٌ واضحٌ لما يجب أن يكون عليه الإنسان.**

شأنه أكبر بالتأكيد من أن يكون إبلاً تسير على غير هدى..

لكن..

الجواب كاملاً سيتأخر قليلاً.. إلى مرحلة أكثر تأخراً ضمن الفترة المكية.. بالضبط بعد سورة الإسراء، أي في السنوات الثلاث الأخيرة من المرحلة المكية..

بعد عشر سنوات.. من الدعوة..

ولهذا دلالة ولا بد.

إلا ليعبدون:

عندما أصبحت الأرض مهيأة لاستقبال البذرة

الآية التي تجيب عن هذا السؤال المزمن لم تنزل إلا بعد مرحلة معينة تنزلت خلالها كثير من السور التي جعلت قواعد الإيمان تترسخ في قلوب المؤمنين وعقولهم..

كما لو أن الآية نزلت في هذه المرحلة، وبعد كل المعاناة التي مر بها المؤمنون وهم يحملون إيمانهم، نزلت لتقول لهم: إن كل ما مروا به هو بالذات ما خُلقوا من أجله، إنه سبب وجودهم، لذا فلا فضل لهم إلا أنهم يقومون بوظائفهم..

بل إن نزول الآية، بعد مرحلة الإسراء (التي فرضت الصلاة فيها)، **يشير ضمناً إلى الالتحام بين البعد الشعائري للعبادة والبعد الاجتماعي لها..**

فالعبادة تملك أشكالاً متعددة، **بعضها محدَّد ومعيَّن في هيئات محددة (وكان المسلمون قد تعلموا قالباً من أهم قوالبها للتو)**، وبعضها غير قابل للقولبة أو للوضع في شكل معيَّن، النوع الأول لا يلغي النوع الثاني، بل يتكاملان معاً، الشكل المحدد الذي عرفناه عن الصلاة (وهي جزء من العبادة) من ركوع وسجود وقيام، **لا يلغي الشكل الآخر من العبادة، ولا يغني عنه، بل هو بمثابة تدريب عليه وتمرين مستمر من أجل القيام به..**

في الوقت نفسه، فإن القيام بالمعنى الآخر «الأوسع» للعبادة، دون القيام بشكلها المحدد (أي دون أداء الصلاة) **سيَقتل الأمر..** ولن يكون (عبادة).. قد يصير الأمر «عملاً خيرياً».[٢]

.. قد يكون فيه نفع للناس، هذا ما لا يمكن الجدال فيه، ولكنه لا يصير «عبادة».. **إلا إذا اتحدَّ مع الشكل المحدد للعبادة - الصلاة..**

٢ المزيد المفصل عن هذا سيكون في فصول لاحقة.

نزول هذه الآية في هذه المرحلة، بعد مرور عشر سنوات تقريباً من بدء البعثة، بعد أن قطع المؤمنون الأوائل شوطاً كبيراً في عملية النضوج، وتحديدا بعد أن نزل الأمر بالصلاة، يجعل الآية كلّها ذات معانٍ أعمق بكثير من ذلك المعنى الذي تحصله القراءة المتعجلة السطحية..

نتحدث طبعا عن آية: **﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾..**

الآية التي تحدد لنا خط العرض..

فلنتأمل في الآية من زاوية أبعد قليلاً.. أعني فلنخرج من سياق الآية المنفرد إلى سياق الآيات التي قبلها وبعدها..

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥] هي الآية التي تسبق **﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾** [الذاريات:٥٦].

والتذكير هنا يعني أن المؤمنين يعرفون هذا مسبقاً، يعرفونه حتى قبل أن تنزل الآية الكريمة، المعرفة **هنا نوع من الإدراك الذي يمزج بين الوعي واللاوعي**، يدرك المؤمنون، ربما دون أن يعرفوا كيف بالضبط، دون أن يدركوا كيف أدركوا هذا، **يدركون أنهم خُلقوا من أجل العبادة بمعناها الشامل، من أجل هدف هامٍّ وسامٍ**، وأنهم عندما يفعلون ذلك فإنما يفعلون ببساطة ما خُلقوا من أجله.. ويأتي النص هنا **ليذكرهم، ليؤكد لهم بالحرف، بالكلمة الواضحة البينة، ما عرفوه، وأدركوه دون كلام مسبق.. لعشر سنوات سابقة قبل نزول هذه الآية..**

كأنما خلقنا جميعاً ونحن نحمل ذلك الإدراك، بشكل غامض وفطري، ولكن مع الوقت ننسى، ليس لأن ذاكرتنا ضعيفة فحسب (وهي ضعيفة فعلاً، غالباً) ولكن لأنه لا شيء يذكرنا بهذا الأمر، ننمو ونكبر ولا نكاد نجد ما يذكرنا حقاً بتلك الذكرى المغروسة بعمق في فطرتنا، تتراكم الأشياء، الشعارات، الأهداف، تتراكم أحلامنا التي تغرسها بيئتنا فينا، وشيئاً فشيئاً، لا يعود لتلك الفطرة أثر، على الأقل ليس على السطح، ولا يمكن انتزاع ذلك الإدراك، لا يمكن تفعيله حقاً، ونقله إلى مستوى الفعل، إلا عبر التذكير، **وحتى التذكير لن ينفع إلا المؤمنين..** الذكرى موجودة عند الجميع في مكان ما في أعماقهم، لكن ذلك لا يعني أن التذكير سينفع الجميع، وأن مجرد التذكير سيفعِّل تلك الذاكرة، ويخرجها من عمقها إلى سطح الفعل والإدراك..

وحده الإيمان، الإيمان الواعي، يمكنه أن يحول الذاكرة إلى فعل، وحده الإيمان يمكنه أن يستثمر تلك الفطرة، أن يحولها من مجرد كم مهمل خلف التراكمات

إلى رصيد يمكن الانتفاع به..

لذا فالذكرى تنفع المؤمنين حصراً، كما توضح الآية السابقة بالذات قبل أن تذكر وتحدد وتوضح..

﴿وَما خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]..

أي بعبارة أخرى: **ما خَلقنا إلا لكي نعبده..**

◆◆◆

المنطق البشري في التعامل مع الأشياء يحتم أن من يطلب شيئاً، يجني منفعة من وراء طلبه..

لكن هذا المنطق لو صح، فإنه يصح فقط بين البشر، أما الله عز وجل، فالتعامل معه خارج منطق التعامل البشري..

ولذا، فعبادتنا له عز وجل هي له، لكنها لنا أيضاً، بطريقة ما..

هو يطلب منا أن «نعبده»..

لكننا نحن من سينتفع بذلك..

أعني أن العبادة توجه له، لكن فائدتها لن تطاله عز وجل.. لأنه الغني عن العالمين، ونحن الفقراء إليه، نحن من نحتاج إليه..

لذلك تأتي الآية التي تلي الآية موضوع البحث ﴿وَما خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] لتوضح أن **منطق العلاقة بين البشر ملغى في العلاقة معه عز وجل..**

﴿ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات:٥٧]... خلقهم ليعبدوه..

لكنه غني عنهم، وعن عبادتهم، بل أكثر من هذا ﴿إِنَّ اللّهَ هُوَ الرَّزّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨]..

كما لو أن **العبادة هنا**، التي خلقنا الله من أجلها، **هي جزء من الإمداد بالقوة، جزء من الرزق الذي يرزقنا الله إياه..**

كما لو أنه خلقنا لنعبده، ولتكون عبادتُنا قوةً لنا، في الوقت نفسه..

هل في هذا تناقض؟.. هل فيه إشكال؟..

فقط لو نظرنا إلى الأمر من زاوية فهمنا **التقليدي** للعبادة، أي **الفهم الشعائري المجرد عن المعاني..** والمنفصل عن أثر هذه الشعائر على الواقع المحيط بها.. أما لو حاولنا فهم العبادة، من خلال النص «المحيط» بالآية لرأينا شيئاً آخر حقاً..

لكن لا يمكن لنا أن نفهم معنى العبادة حقا، معناها كما أرادها الله عز وجل، إلا عندما نقرأ السورة التي وردت فيها هذه الآية ككل..

سورة الذريات: إحداثيات لموقعنا من الإعراب

تقدِّم سورة الذاريات سياقات عديدة تختلف في أزمنتها وأماكنها، وتتشارك في نقاط داخلية محورية ترتبط كلُّها بمقدمة السورة، كما لو كانت المقدمة هي «مركز الثقل».. تقدم لنا خطوط العرض للموقع الذي يجب أن نكون فيه في الحياة، ليس موقعاً واحداً في الحقيقة، بل عدة مواقع، يمكن أن نكون في أي منها، ويتكامل كل منها مع بقية المواقع..

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات:١-٤].

هذه مقدمة ستكون مرتبطة بالسورة وما تطرحه ككل، بأكثر مما تفسره الرؤية التقليدية المباشرة للسورة التي لا تقدم ربطاً واضحاً بين هذه المقدمة والمحاور التالية التي اختُزلت كما لو كانت مجرد حكايات تقليدية منفصلة ومستقلة عن بعضها وعن مقدمة السورة.

مع تتابع الآيات في السورة سنرى أن **الذاريات، والحاملات، والجاريات، والمقسمات، كلُّها «أطوار» أو «أدوار» في مشروع عمل مشترك،** وهي ترتبط مباشرة بمحاور السورة، كما سنوضح لاحقاً..

فلنركز في المحاور..

هناك أولاً محور **إبراهيم - زوجته - الملائكة، وهناك محور قوم لوط، وهو محور متداخل مع هذا المحور.**

وهناك محور **فرعون وموسى..**

ومن ثم تأتي محاور أخرى: **عاد، ثمود، وقوم نوح وهي تقدَّم كما لو كانت محوراً واحداً..**

للوهلة الأولى - وعندما نتعامل برؤية سطحية للآيات الكريمة سنتصور أن الآيات تقدِّم مجرد وعظ تقليدي لمصائر الأمم التي تحيد عن أمر الله تعالى..

لكن هناك دوماً ما هو أكثر وأعمق من هذا..

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات:٢٤-٣٠].

فلنتنبه هنا إلى هذه المحاور تبدأ بإبراهيم، أبي الأنبياء - المسلم الأول..

والبدء به له معنى كبير ولا شك[٣]، وهو معنى أعمق من مجرد «القِدَم التاريخي»، ذلك أن نوحاً مثلاً أقدم تاريخياً من إبراهيم، لكن ذكره يتأخر في السورة.. الأمر هو أن محور إبراهيم هنا، يمتلك **نقطة أساسية**.. ستكون أساسية في كل المحاور التالية، وبالتالي في السورة ككل، في **مفهوم العبادة الذي يبحث عنه، العبادة التي خلقنا عز وجل لنؤديها..**

الأمر الأساسي في محور إبراهيم في سياق سورة الذاريات، هو **تلك البشارة التي حملتها له الملائكة.. بشارة «الغلام العليم»..**

فلنتنبه هنا إلى ثلاثة أمور:

الأمر الأول: أن الغلام حدد بكونه «**عليماً**»، أي أن الأمر لا يرتبط بمجرد غلام، يأتي بعد طول انتظار.. بل يرتبط بكون هذا الغلام سيكون عليماً، **أي أنه سيكون إضافة نوعية وكمية في الوقت نفسه، إلى الجيل الذي سبقه.. جيل والديه..**

الأمر الثاني: هو أن الأوضاع كلَّها كانت تشي **باستحالة مجيء هذا الغلام، بسبب كون والديه قد تجاوزا العمر الذي يُتوقع فيه الإنجاب..**

الأمر الثالث: أن هذه البشارة جاءت **متزامنة مع خبر عاجل آخر** حملتهاالملائكة أيضاً:﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الذاريات:٣٢-٣٣]..

◆◆◆

٣ المزيد المفصل عن هذا سيكون في فصول لاحقة.

لنقرأ هذا المحور مرة أخرى بعد أن نجرده أولاً من تفاصيله - التاريخية - ومن نظرتنا التقليدية..

الغلام هو **جيل جديد طال انتظاره**، بعد أن تبدو كل الدلائل كما لو أنها تشير إلى استحالة مجيء هذا الجيل، بعد أن بدا أن **كل شيء عقيم، وأنه لا فائدة حتى من المحاولة.. (هل يمكن لذلك إلا أن يذكرنا بشيء؟؟).**

إنه **الجيل الذي يخرج من عمق اليأس، من أقاصي اليأس، يولد ويولد معه الأمل، لا، بل يولد الأمل أولاً، ويمهد الدرب لمجيء ذلك الجيل..**

فلنتنبه هنا، إلى أن الصفة الأساسية لهذا الجيل الذي يمثله الغلام البشارة لإبراهيم وزوجته، الصفة الأساسية لهذا الجيل كانت (**العلم**)..

كذلك هذه هي الصفة الأساسية، لذلك الجيل الذي سينتشل هذه الأمة من سباتها، من يأسها، من كل إحباطها..

«العلم» هو مفتاح ذلك الجيل، جيل النهوض والقيام، وليس الانفتاح مثلاً، ليس قبول الآخر، ليس أية صفة أخرى يروجُ لها اليوم من أجل ذلك الجيل المنشود.. بل العلم..

هكذا فإن الغلام لم يوصف بكونه «عالماً» بل بكونه عليماً، وهي صيغة تفيد الاستدامة.. تفيد الاستمرار واللزوم.. وليس العلم على نحو عابر أو مؤقت.. وليس العلم بمعنى المعرفة غير الشمولية..

جيل النهوض والقيام القادم من أقاصي اليأس سيمتلك هذا النوع من العلم، لكن الآيات ستقول لنا المزيد..

إسقاط معاصر على موضوع غير معاصر

لا أستطيع هنا أن أغادر هذه الملاحظة دون أن أشير إلى أمر أراه مرتبطاً جداً **بالغلام العليم، وبشارته للخروج من اليأس..**

على الرغم مما قد يبدو من عدم ترابط للوهلة الأولى.

بعد الحرب الكورية، وتقسيم كورية إلى دولتين، خرجت كورية الجنوبية واحدةً من أفقر دول العالم، أفقر من أغلب دول أفريقية، بمعدل دخل لا يزيد عن مائة دولار في السنة للفرد، مع بنية تحتية محطمة تماماً، ودون مصادر ثروة طبيعية،

مع نسبة سكان عالية تعد واحدة من الأعلى في العالم، كانت كورية الجنوبية تعيش على المساعدات تماماً.. في مرتبة موازية لأفغانستان.

لكن خلال بضعة عقود، تمكنت هذه الدولة الفقيرة، التي لم يتوقع لها أحد مستقبلاً مبهراً في مطلع الستينات من القرن الماضي، أن تتحول إلى عملاق اقتصادي ينافس بل يتفوق على الدول التي كانت تمنحها المساعدات، باقتصاد هو الثاني عشر في العالم من ناحية القدرة الشرائية، الخامس عشر من ناحية الدخل القومي، والسابع من ناحية التصدير..

يكاد يكون هناك إجماع من قبل الباحثين في تفسير «المعجزة الكورية» على إرجاعها إلى «التعليم»..

التعليم هو الذي أخرج كورية من قدر الدول «التي يسمونها نامية» لتكون واحدة من أهم اقتصادات العالم وأكثرها نمواً وقوةً..

ليس التعليم كما نعرفه، بل الهوس به، «حمى التعليم»، بالضبط هذه هي الكلمة التي عرفت عن اهتمام الكوريين الجنوبيين بالتعليم.. منذ أن يدخل الطفل في التعليم الابتدائي، ينخرط في هوس التفوق الذي يتمثل في «جحيم من الامتحانات المتتالية» والتنافس فيها إلى الحد الذي يتحول فيه التلميذ إلى آلة همها التنافس مع الأقران والحصول على درجات أعلى.. التعليم «التلقيني» الذي يستهلك وقت الطالب، ويستغرق منه الساعات في الحفظ، والتعليم غير التلقيني إلى أقصى أحد ممكن.

التعليم يجعل طلاب الابتدائية في كورية يدرسون حتى الساعة الحادية عشر ليلاً، منذ أن ينخرط الطالب في المؤسسات التعليمية الأولية يكون قد خطط لدخول الجامعة وكرّس نفسه لتحقيق ذلك.

٩٥٪ من كل الطلاب في كورية ينهون الدراسة الثانوية، و٨٦٪ منهم يدخلون الجامعات والتعليم العالي، وهي من أعلى النسب في العالم، وهم يحصدون المركز الأول بين الطلاب من ١٩ دولة ممن يتقدمون لامتحانات International Assesment of Educational Progress الخاصة بالرياضيات والعلوم.[٤]

هذا النظام التعليمي الصارم، الذي يُدار مركزياً بواسطة الحكومة، هو ما رفع كورية من قدر الدول الأقل نمواً إلى مصافّ الدول الأقوى اقتصادياً، لم يكن ذلك بلا ثمن على أي حال، فالضغط الاجتماعي الشديد على الطلاب للتفوق جعلهم الأكثر إقداماً على الانتحار أيضاً، وصارت كورية الجنوبية تحتل المرتبة الأولى في

٤ http://faculty.washington.edu/sangok/education.PDF

الانتحار، وهو انتحار مختلف عن ذلك الذي نتج عن نمط حياة مترفة وكسولة في بعض الدول الأوروبية في الستينات، أي انتحار من الضجر والشعور باللاجدوى.. بل انتحار ناتج عن الضغط الاجتماعي الدافع للركض واللهاث لإثبات الذات.[٥]

لكن كيف تمكنت الحكومات الكورية، (بالذات مع بارك جنغ هي ١٩٦١) من استثمار التعليم، وتحويله ليكون شرارة تنمية عملاقة؟

الدين من أجل التعليم!

سُنتْ قوانين إلزامية التعليم في كورية، ولكنها كذلك سُنتْ في معظم الدول الأخرى، ومن ضمنها دولنا العربية التي لم تحقق أي تقدم يذكر في مستويات التنمية..

لكن التجربة الكورية **استثمرت الموروث «الديني» لربط التعليم بالتنمية**، استخدمت أقصى استخدام «الموروث الكونفوشيوسي» الذي يقدس «التعليم» و«المتعلمين» حسب المعنى الكونفوشيوسي للعلم، ولكنها **وظفت هذا التقديس من أجل التعليم المعاصر، أي التعليم المادي**، الذي ربما لم يكن كونفوشيوس يوليه كبير اهتمام، لكن تم مع ذلك ربط «تعاليمه» التي ركزت على الارتقاء الأخلاقي للإنسان بموضوع الحصول على القدر الأكبر من التعليم بالمعنى الدراسي المجرد..[٦]

وكانت النتيجة إيجابيةً جداً..

من المؤلم أن نصوصنا الدينية حافلة بما يمكن أن يجعل الحصول على العلم «هوسا» وحمى حميدة.. من ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ إلى «العلماء ورثة الأنبياء».. مروراً بالحقيقة المركزية التي تهيمن على كل النصوص، وهي أن أول ما نزل من القرآن كان ﴿اقرأ﴾...

لكن قراءة معينة، لأسباب واضحة، تخدم مباشرة من كرس هذه القراءة وروّج لها، حصرت مفهوم العلم في معنى ضيق مرتبط بتلقين النصوص وعزلها عن مجال فاعليتها الحقيقي، أي العالم بكل ما فيه..

النصوص لا تزال كما هي، تراكم عليها الفهم السلبي نعم.

لكنها لا تزال كما هي..

ولكي ننهض، لكي يولد ذلك الغلام العليم، طفل البشارة، لا بد من أن نزيل

---

٥ http://en.wikipedia.org/wiki/Suicide_in_South_Korea

٦ http://faculty.washington.edu/sangok/education.PDF

تلك التراكمات، لا بد من أن نربط «العلم» بكل ما ورثناه من نصوص...

والتجربة الكورية - في خطوطها العامة، هي مما نراه عندما نطبق قوله تعالى: ﴿قل سيروا في الأرض﴾..

البشارة في سورة الذاريات

ليس من قبيل المصادفة على الإطلاق أن يكون الوصف الذي وصف به الله عز وجل نفسه في الآيات التالية، وفي المحور الإبراهيمي نفسه - محور البشارة - هو نفس ما وصف به الغلام..

﴿قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات:٣٠]..

ثلاثة أمور تلفت النظر هنا في استخدام الصفة نفسها للغلام البشارة، وهو رمز الجيل المنشود، الجيل البشارة، واستخدامها نفسها لله عز وجل..

الأمر الأول: يأتي من صفة العلم ذاتها، فالأمر أبعد ما يكون عن تشابه الأسماء.. **بل علم الغلام مرتبط هنا بعلم الله، ليس بعلم الغيب، بل بالعلم المنضبط بضوابط يحددها الإله العليم الحكيم..** وهو بذلك ليس فقط «علم» القوانين والسنن الإلهية كما قد يتبادر إلى الذهن عادة.. **العلم أيضاً هو إدراك الواقع وفهمه وفهم تفصيلاته وظروفه، والخروج من رحمه على الرغم من كل ثقله وصعوبته..**

الأمر الثاني: يرتبط بالعلاقة بين **العلم والحكمة التي وردت في وصفه عز وجل في هذا السياق**، هذه العلاقة هنا تذكرنا بضرورة **التزام العلم بالحكمة**، أي ألا يكون مجرداً من القيم الأخلاقية، مرتبطاً بالربح والمزيد من الربح كما حدث للحضارة الغربية وامتداداتها، بل **أن يبقى هذا العلم مرتبطاً بالحكمة، بمقاصد أخلاقية واضحة وثابتة..** أي أن **علم الجيل المنشود، جيل النهوض، لن يكون علماً بلا ضوابط**، بل سيكون مرتبطاً بالحكمة، بالمقاصد الأخلاقية التي تجعل العلم في خدمة الإنسان وأهدافه، وليس العكس، حيث يكون الإنسان والعلم في خدمة المزيد من الربح..

الأمر الثالث: الذي لا مفر من الانتباه له، هو أن التحام العلم بالحكمة في وصفه عز وجل، وارتباط ذلك في سياق البشارة بالغلام العليم، يضعنا مباشرة أمام معنى الحكمة في الفقه الإسلامي، الذي فهم دوماً، ارتباط **(الكتاب والحكمة) في الآيات**

(في سبعة مواضع في القرآن الكريم) بمعنى القرآن والسنة.. أي أن المعنى هنا يحيلنا إلى التجربة النبوية (الإنسانية) في التطبيق للعلم الذي أنزله الله.. **وهي التجربة التي يؤمن كل مسلم أنها الأكثر اكتمالاً في تاريخ البشرية.**

المعنى هنا أن جيل النهوض سيعتمد على خُطَى تلك التجربة النبوية التي يكون فيها العلم محتكماً إلى الحكمة ليحقق نهوضاً شاملاً يخرج الأمة من سباتها العميق..

إنه جيل النهوض، يخرج من قعر اليأس وعمق الجدب، سلاحه العلم بالمواصفات أعلاه: **علم محكوم بالحكمة..**

العلم شامل..

والحكمة «نبوية»..

◆◆◆

هل يبدو الأمر بعيداً عن الآية - المحور التي نتحدث عنها..؟

- نعم، هو بعيد إذا حكمنا الأمور برؤيتنا التقليدية التجزيئية..

- ولا، إذا قررنا أن تتشكل رؤيتنا بالتدريج، خطوة خطوة، عبر القرآن، الذي تنزل لهذا السبب بالذات، ليعيد بناء مفاهيمنا، لكي نكون قادرين على بناء عالمنا، من جديد..

◆◆◆

فلنتذكر هنا، أن الغلام البشارة أو (الجيل، البشارة)، الخارج من أقاصي اليأس كما الأمل، كما النور الوليد بعد العاصفة، قد تداخل ذِكره مع خبر آخر حملته الملائكة لإبراهيم..

وهو الخبر الذي ينقلنا إلى المحور الثاني، **لوط وقومه..**

◆◆◆

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣١-٣٧].

المحور الثاني يقدم لنا ثلاثة نماذج جديرة بالانتباه هنا - وفي كل:

المجرمون: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ [الذاريات:٣٢].

المؤمنون: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٣٥].

المسلمون: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات:٣٦]..

فالقرآن الكريم لا يصف الكفار بكفرهم هنا، بل بجرمهم، **وهو لا يذكر الجريمة تحديداً، لكنه يصفهم بالمجرمين، وسنفهم لاحقاً جريمتهم بالضبط..**

ويضع أمامهم، في الجهة الثانية، تصنيفين متداخلين: المؤمنين، والمسلمين، والتداخل مقصود حتماً بين المؤمنين والمسلمين في الآية، وليس مثل ذلك الفرز الذي جاء في سورة الحجرات ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤]. فالأمر هنا ليس أن تقول: إنك «آمنت»، أو «أسلمت»، بل أن يكون ذلك **صفة مستديمة** لك، قلتها أم لم تقلها، أن يتطابق **فعلك مع إيمانك، وسلوكك مع أفكارك**، وبذلك **يكون بيت المسلمين هو ذلك البيت الذي تمكَّن أصحابه من عبور تلك الهوة، بين الفكر والسلوك، وهم - وحدهم - الجديرون بالخروج من ذلك المجتمع الذي سيسقط في الهاوية..**

بيت المسلمين هنا هو **«البيت» الذي تجسد فيه الإيمان مثالاً عملياً تطبيقياً..**

ملاحظتان جديرتان بالانتباه هنا:

الأولى - أن الخروج، **خروج بيت المسلمين هنا، يتوازى مع خروج الغلام البشارة من واقع اليأس والجدب، وأن الخروج الأول كان لفرد، غلام، والثاني لعائلة..**

أي أن البشارة ابتدأت بفرد.. لكنها صارت مع المحور الثاني «عائلة»، عائلة تشكلت بالقيم الإيمانية.. وسنرى كيف يتطور الأمر في المحور الثالث.

الثانية - أن الوسيلة التي **عوقبت فيها القرية، كانت الوسيلة نفسها التي بنت وتطاولت فيها، الحجارة،** ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ [الذاريات:٣٣]، **الحجارة التي هي وسيلة للبناء، صارت هنا وسيلة للهدم**، كما لو أن القرآن الكريم ينبهنا هنا إلى أن العبرة دوماً هي **بالاستخدام، وأن ما نركز عليه أحياناً لا يعدو أن يكون وسيلة، قد تؤدي للصعود، وقد تؤدي للهاوية، قد تؤدي للنجاة، وقد تؤدي للغرق..**

كان الطين هنا نقطة بداية، وسيلة يمكن أن تؤدي إلى الخصب والإثمار

والنماء والبناء المتوازن، ولكن يمكن أن تؤدي أيضاً إلى الهدم، إلى الدمار، إلى الانهيار التام..

وهكذا، فإن حجراً ما كان أداة بناء المدينة، وحجراً آخر كان أداة تدميرها..

◆◆◆

المحور الثالث يرتبط بسيدنا موسى، وتحديه المعروف لفرعون.. فلنتذكر هنا أن الأمر بدأ مع الغلام، ووصل إلى الأسرة.

المحور الثالث يصل إلى **«القوم»، المجتمع، الأمة.. ذلك أن موسى خرج بقومه، بأمته، من الهاوية التي انهار إليها المجتمع الفرعوني..**

﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [الذاريات:٣٨]

سيذكرنا السلطان المبين هنا، الذي كان أداة التحدي الذي استخدمه موسى بوجه فرعون بالعلم الذي كان صفة غلام البشارة..

ومرة أخرى، **العلم هنا مثل الحجر، مجرد أداة، مجرد وسيلة، يمكن لها أن تكون وسيلة للنهوض، أو وسيلة للانهيار..**

والمعيار الوحيد الذي يمكن التفريق به بين هذا وذاك، هو «الحكمة».. الحكمة التي جاءت فيما وصف به عز وجل نفسه ﴿الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾..

عندما تهيمن الحكمة على العلم، وتحكمه بمعاييرها الأخلاقية يكون العلم وسيلة نهوض وبناء.. أما إذا تجرد العلم عن الحكمة، وبنى معاييره بنفسه، فإنه سيصبح وسيلة للدمار والانهيار.. هل نحتاج إلى أمثلة؟..

أم أن العالم اليوم بتناقضاته، بفقره المدقع وثرائه الفاحش، بوجود من يموت فيه جوعاً ومن يموت فيه تخمة، ومن ينفق ثروة على عملية تجميل، ومن يحتاج إلى مبلغ تافه فقط ليعيش..

هذا العالم يدل على أن العلم السائد حالياً، والذي لا يمكن إنكار تفوقه، منفصل حالياً عن الحكمة..

◆◆◆

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ

كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ [الذاريات:٤١-٤٦].

المحور الرابع سيجتمع فيه عاد وثمود وقوم نوح.. سنرى «الريح العقيم» مرسلة إلى قوم عاد، سنتذكر العجوز العقيم في المحور الأول، وسنتساءل: هل هناك ريح عقيم وأخرى غير ذلك؟.. نفهم عقم الزوجة أو الزوج، ولكن الريح؟..

لكن لا، العقم لا يصيب البشر فقط، فكل ما في الطبيعة يمكن أن يكون منتجاً في سياق، وغير منتج في سياق آخر.. والرياح يمكنها أن تنقل البذور، وتحرك السفن، وتكون طاقة للنماء والازدهار.. فتكون ريحاً طيبة..

ويمكنها أن تكون عقيمة، عاصفة هوجاء لا تبقي ولا تذر.. لا تنتج غير الدمار والرماد..

وكذلك البشر، يمكنهم أن يكونوا كتلك الريح، عقيمين بلا أمل، أو مثمرين منتجين، أو مدمرين، مليئين علماً وحكمة، أو يحملون الهباء كله..

كل يمكنهم أن يكونوا كذلك الحجر، مرة في البناء المتماسك، ومرة في الآيل للسقوط.. في البناء المتداعي..

كذلك سنرى قوم عاد وهم «ينحتون « متمتعين، دون أن يؤخِّر ذلك انهيارهم، ودون أن يكون نحتهم هذا دليلاً على عافية مجتمعهم، ربما تكون بقية المجتمعات والقرى **تنظر إليهم بحسد**، وربما تكون هذه النظرة محكومة بعقدة نقص تشعرها تلك القرى تجاه تلك القرية المتمتعة المتطاولة، بل ربما كانوا يعتبرونها مثالاً يجب أن يُحتذى، وربما كانوا يقتبسون منها نمط حياتها وفلسفتها في قضاء الوقت الممتع، غير مدركين أن **صخب المتعة قد يطغى على صوت تكّات القنبلة الموقوتة في عمق بناء هذه القرية، لكنه لن يؤخِّر انفجارها..**

ثم نرى سفينة نوح تخرج من عمق الطوفان، الطوفان الذي طغى أولاً على القيم والمبادئ، وظل يغلي تحت السطح إلى أن فار التنور.. وجاء انهمار الماء ليمثل الانهيار في شكله الأخير..

◆◆◆

وكل هذه المحاور تملك أكثر من عامل مشترك..

هناك أولاً ذلك المجتمع الموشك على الانهيار..

وهناك ثانياً - تلك الفئة المؤمنة التي تعمل على منع هذا الانهيار.. أو بالأحرى تحارب أسبابه..

وهناك ثالثاً - ذلك الخروج المضيء - المفعم بالأمل - لهذه الفئة من تلك المجتمعات.. ليس من أجل النجاة الشخصية، فهذا [illegible] أ[illegible]راً سهلاً منذ اليوم الأول الذي أدركوا فيه أنها منهارة حتماً، لكنهم [illegible]ذ والإصلاح، وكان خروجهم من أجل وضع أسس جديدة لمجتمع جديد، بنة جديدة لبناء أقوى وأكثر تماسكاً، حتى لو كان أقل إمتاعاً، وبوسائل لهوٍ أقل، ونمط حياة قد يبدو أقل جاذبية..

فلنتذكر أن ذلك كله قد بدأ بالغلام القادم على الرغم من اليأس.. ذلك الغلام الذي بدا مجيئه مستحيلاً حسب الفهم السائد..

لكنه جاء..!

فلنتذكر أن صفته الأساسية كانت العلم، العلم المرتبط بالحكمة..

ولنتذكر أن ذلك ينعكس فوراً على كل النماذج في المحاور التالية..

المقدمة والنتيجة:

العبادة بمفهومها الواسع، العبادة بمعناها الحقيقي

لكل هذا علاقة حتمية بما تحدثنا عنه ابتداء، أي بآية ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]..

ولكن قبل ذلك، فلننتبه إلى أن تلك المحاور كلَّها تنتهي لتُدخلنا في محور آخر، كما لو كانت تفتح لنا الباب بالتدريج، نحو الفهم الأكمل..

﴿وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَإِنّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالأَرض فَرَشْناها فَنِعْمَ الْماهِدُونَ﴾ [الذاريات:٤٧-٤٨]

هذا المحور لم يأت اعتباطاً، حاشا لله أن يكون في كتابه العزيز ما جاء في موضع محدد دون حكمة ومقصد..

هذا المحور **يذكرنا بالنظام الكوني الذي وضعه الله عز وجل؛ ليجعل هذا الكون بأسره مسيراً وفقه..**

ما علاقة هذا بما سبق؟

علاقته بسيطة وأساسية، **كما أن لهذا الكون نظاماً سينهار لو خرج عن مساره، فإن المجتمعات أيضا ستنهار لو خرجت عن النظام الذي وضعه لها الخالق القدير..**

ودور هؤلاء الذين ذكرَتْهم السورة في محاورها المتتابعة هو **وضع المجتمعات في داخل النظام الذي وضعه من خلق الكون كله**، ذلك أن كل ما في الكون ينساق بطبيعته داخل هذا الكون، **إلا «الإنسان»، فقد شرّفه خالقه بمسؤولية الاختيار، مسؤولية أن يتمسك بهذا النظام ويصب نفسه ومجتمعه فيه..** أو، أن يكون على النقيض من ذلك، وأن يختار أن يضع نفسه - ومجتمعه - في اللانظام، أو في نظام آخر اخترعه لنفسه، أو في نظام آخر اخترعه آخرون، نظام يشبه نظام التمتع الذي ساد في قوم عاد مثلاً، أو أي مجتمع آخر معاصر أو قديم عُرف بقضاء الوقت الممتع، أو أي نظام آخر عُرف بالتطاول في العمران والتهاوي في القيم..

وهذا كله يدخلنا إلى الآية - المقصد - الآية التي كان كل ما سبق تمهيداً لها.. الآية التي تمثل- المحور الأساسي - ليس في السورة فحسب، بل في حياتنا كلها..

﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]..

فالعبادة هنا تختلف عن مفهومنا التقليدي الذي قصرها على الشعائر.. المفهوم البديل الذي تركبه السورة في عقولنا بالتدريج، وحسب المحاور المتتالية التي رأيناها، هذا المفهوم البديل يتمثّل في منهج الأنبياء والدعاة وأتباعهم، الذين كانوا النموذج الذي يمثل العبادة بمفهومها القرآني، مفهومها الذي يجب أن يكون.. مفهومها البديل..

هذه النماذج الإنسانية التي اختارتها السورة للوصول إلى الآية التي تكشف لنا عن الهدف من خَلْقِنا، لم تقدم **العبادة على أنها محض شعائر تؤديها لغرض النجاة من العقوبة، أو لأنها مجرد فريضة، كما أنها لم تقدم الصلاح بأكثر معانيه قرباً من أضعف الإيمان (أي بكونه الامتناع عن النواهي فحسب)..**

لم يقتصر أداء هؤلاء للشعائر على مفهوم ﴿كانوا قليلا من الليل يهجعون، وبالأسحار هم يستغفرون﴾ الذي لا شك في وجوده، ولكن العبادة ليست هنا فقط، بل هي تأخذ من «هنا» - قيام الليل والاستغفار في الأسحار- الطاقة للعمل لاحقاً، في الصباح وتحت ضوء الشمس..

العبادة الشعائرية عندما تفهم حسب مقاصدها «النهضوية» - مقاصدها التي وضعت لأجلها، تكون بمثابة دورة تدريبية مستمرة ومستدامة، لا غنى عنها.

هذه النماذج لم تفصل التزامها بالشعائر عن دورها في بناء المجتمع، لم تعتبر قط أنها يمكنها أن تكتفي بالشعائر وتقول: إنها ستنجو من الخراب الاجتماعي، كما أنها لم تفر من المجتمع عند أول مواجهة، بل اعتبرت أن دورها هو محاولة الإصلاح وإعادة البناء حتى النهاية، ولم يكن خروجها من المجتمع فراراً من المواجهة بقدر ما كانت فراراً إلى الله عز وجل كما بينت السورة الكريمة نفسها ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[الذاريات:٥٠] فالفرار هنا لا علاقة مباشرة له بالخروج والهجرة، بل بالفرار إلى «ظروف أفضل» يمكن تطبيق أوامره ونظامه فيها، بعد أن يتم استنفاد كل المحاولات مع المجتمع.

لذلك فهم لم يفارقوا مجتمعاتهم حتى دنت ساعة الصفر، ساعة الانهيار الذي لم يقصروا في محاولة تأجيله بل وإلغائه.. لكن أقوامهم قاوموا ذلك، بل وعجلوا في الانهيار..

العبادة هنا، وكما توضحها مقدمات السورة وصولاً إلى الآية - الذروة، **هي أداء ما خلقنا الله من أجله..**

كيف؟..

النظام الكوني يلف كل شيء ويحتويه، كل ما في الكون من مجرات وكواكب ونجوم وحياة مجهرية - كلُّها مسيَّرة بهذا القانون، الاستثناء الوحيد الذي قد يبدو أنه مناقض لهذه الصورة هو **الإنسان..**

الإنسان الذي يمكن له أن يتمرد على النظام الإلهي، كما يمكن له أن يلتزم به.. هو الاستثناء الطوعي، في هذا النظام..

إنه يملك حريته في الاختيار..

لكن هذا الاستثناء ليس تناقضاً..

على العكس، إنه الاستثناء الذي يثبت القاعدة.. **الاستثناء الذي يمنح الجدوى، والذي يضع الحجر الأخير الذي يحل الأحجية ويكملها..**

هذا الاستثناء **هو الذي يجعل لوجودنا معنى، لقد خُلقنا من أجل أن نثبت أن الإنسان أيضاً داخل ضمن ذلك النظام كله..**

والعبادة هي الشكل الأكمل والأقصى لذلك، **ليس بشكلها الشعائري فقط، وأيضاً ليس من دون شكلها الشعائري،** بل **بالتلاحم الأكيد بين الشعيرة وكل معانيها وامتداداتها الاجتماعية،** ذلك التلاحم الضروري الذي يجعل من هؤلاء المصلحين

النموذج الأعلى الذي قدمت له السورة، النموذج الأعلى ليس للعبادة فحسب، بل للعبادة بصفتها ما خُلقنا من أجلها.. العبادة حسب ما أرادها الله أن تكون، وليس حسب فهم قاصر سلبي حجّم مفهوم العبادة إلى «شعائر» فقط بعزلها عن أهدافها الاجتماعية..

فلننتبه هنا، إلى أن النظام الكوني حسبما يقدم في سورة الذاريات يتصف بصفتين:

أولها: الاتساع المستمر ﴿وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَإِنّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧]..

وثانيها: التمهيد ﴿وَالأرض فَرَشْناها فَنِعْمَ الْماهِدُونَ﴾ [الذاريات:٤٨]..

الاتساع المستمر يعني أن هذا النظام ليس منغلقاً ولا متحجراً، لكنه بالوقت نفسه يحتفظ بمركزه ومحوره، ويمتد بكل الاتجاهات..

ما الذي يعنيه هذا بالضبط..؟ إنه يعني أن هناك ثوابت في هذا النظام، **ولكن هناك اتساعاً وتمدداً، وهذا الاتساع والتمدد لن يلغي الثوابت، بل سيعززها، ويحصنها ويحميها، وهو لن يمتد ليلغي الحدود ويتجاوزها، لأن ذلك سيمس الثوابت، لكنه سيحافظ على الأبعاد البؤرية المتداخلة، بينما يستمر في الاتساع..** (وهذا كله لم يُذكر إلا لكي نفهم انطباق هذا الشيء على النظام الاجتماعي الذي يجب أن يبنيه الإنسان من خلال ممارسته لعبادته)..

أما صفة التمهيد التي توضح في النظام الكوني بفرش الأرض وت[illegible] فتعني عند انعكاسها على النظام الاجتماعي **أن هذا النظام مهيأ ومصنوع لكي يكون هو النظام الأسهل والأكثر يسراً على الإنسان..**

قد تمر علينا لحظات صعبة نعتقد فيها أن هذا النظام صعب، وأن التمسك به صعب، وأنه كان يمكن أن يكون أسهل، وأن أنظمة أخرى ستكون أكثر سهولة وأقل تكليفاً، قد يحدث ذلك حتى مع المتمسكين بالنظام..

لكن هذا جزء صغير من الصورة، ولا يمكن أن نجعلها حكماً على الصورة ككل، فعندما سنرى الصورة الكبيرة المتكاملة، الصورة التي لا تأخذ عمر الفرد، بل عمر المجتمع ككل..

عندها سنرى أنه ما كان يبدو أسهل جرَّ لاحقاً على المجتمع مصاعب شتى..

(مثلاً، قد تبدو العلاقات الجنسية الحرة أمراً هيناً لا إشكال فيه، ما دامت لا تؤدي إلى انتقال الأمراض، وستبدو أنها تنتهي بنهاية العلاقة، ولن تبدو آثارها واضحة بعد الاغتسال، لكن بعد مرور عقود، سنرى الأثر النهائي للأمر، الأثر الإحصائي – الاجتماعي

لما بدا أنه أمر لا تأثير له على مستوى الفرد، سنرى انهيار الأسرة، وانتشار اللقطاء، وانتشار الأسر التي لا يوجد فيها أب، ومن ثم انتشار الشذوذ النفسي والجنسي الناتج عن النشوء في أسر مختلفة كهذه..).

لعل ذلك كان ممتعاً لحظة حدوثه، لكن ذلك كان إلى حين.. فحسب..

أما النظام الآخر - الإلهي المنشأ والمصدر- الذي نؤمن بأنه الامتداد الطبيعي للنظام الكوني، فهو يحمل التمهيد.. إنه قد يبدو على المدى القصير صعباً وشاقاً في بعض تفاصيله، لكن على المدى البعيد سيكون ذلك أكثر ضمانة لسلامة المجتمع وتماسكه..

حسناً..

القرآن يقدم لنا نماذج معينة للعبّاد، وبعدها يقول لنا: إن هدف وجودنا كله هو هذا، هو **وضع المجتمع داخل هذا النظام الأصلح..**

لكن، هذه النماذج ترتبط بقامات عالية، بأنبياء.. لا نفكر حتى في الوصول إليهم، فكيف نجد لنا مكاناً في هذا النموذج..؟ بل هل هناك إمكانية أصلاً لكي نجد لنا مكاناً..؟ وهل سيكون عند استحالة ذلك كل ما مر مجرد شعار آخر ينضم إلى رفّ الشعارات الجميلة مستحيلة التطبيق..

النص القرآني يردُّ بنفسه على هذا التساؤل الموسوس الذي يثير الوهن..

وهو يرد على هذا عبر شقَّين متوازيَين..

الأول: عبر تجريد هؤلاء الأنبياء الكبار من كل ما يذكر بأنهم أنبياء في سياق المحاور الأربعة..

لم يأت ما يبين أنهم أنبياء في هذا السياق، ولو أننا قرأنا المحاور بمعزل عن معرفتنا بهم، لكان يمكن أن يكونوا مجرد قادة مصلحين، مع الأخذ بنظر الاعتبار أن السياق قد ذكر عن موسى أنه قد أرسل ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [الذاريات:٣٨]، لكن علينا ألا ننسى أن "السلطان المبين" قد يكون أيضا "العلم" – وهو الذي ابتدأت به المحاور كلُّها، مع الغلام، البشارة (أم نقول: الجيل – البشارة..؟).

كل ما عدا ذلك سيذكر بأن هؤلاء **الأنبياء كانوا بشراً قبل كل شيء، وأتباعهم وأنصارهم كانوا بشراً أيضاً، وهذا كله سيجعل من فكرة أن تكون أنت أيضاً على خطاهم في عبادتك أمراً ممكناً**، على الأقل ستحاول ذلك، وسيؤنبك ضميرك إن وجدت نفسك تفصل الشعيرة عن نتائجها، بالضبط كما تفعل عندما يفوت وقتها دون أن تؤديها..

العبادة، مشروعاً للحياة

لكن الشق الثاني الذي يبيِّن لنا كيف يمكن السير على خطى الأنبياء في «العبادة الحقيقية».. هو الذي يهيمن على السورة بأسرها، وهو الذي إذا فهمناه حقاً فإنه لا **يرسخ فقط إيماننا بأن العبادة تشغل إصلاح المجتمع بالإضافة إلى الشعائر فحسب، بل ستقول لنا أيضاً الكيفية التي يمكن لنا أن نفعل ذلك.. إنها تلك الآيات الأربع الأوائل في السورة، والتي أخذ منها اسم السورة ككل..**

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً ۝١ فَالْحَامِلاتِ وِقْراً ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً﴾ [الذاريات:١-٤]..

التفسير السائد الذي نشدد على أن ما نضيفه لا يتعارض بالضرورة معه، بل يوسع معناه فحسب، التفسير السائد يجعل من الذاريات هي «الرياح» التي تذرُّ التراب والبذور، والحاملات وقراً هي «السحاب» التي تحمل المطر، والجاريات يسراً هي السفن، والمقسمات أمراً هي الملائكة التي تقسم الأرزاق..

والصورة التي ترسمها هذه الآيات مترابطة جداً، فالرياح تنشر ضمن ما تنشر البذور واللقاح، ثم تأتي السحب بالمطر فتساهم في نمو البذرة وجعلها ثمرة، ثم تأتي السفن فتنقل الحصاد ليأكل منه القاصي عبر البحار.. ثم يكون ذلك كلّه جزءاً من تقسيم الرزق.. فلننتبه هنا إلى أن الآيات لم تقل ذلك تحديداً، لكن التفسير هو الذي قدم هذه الصورة التي نؤكد هنا على عدم ضرورة المساس بها.. بل نحاول أن نفهمها بشكل يوسع من الصورة، ويحتفظ بخطوطها الرئيسية في الوقت نفسه..

السورة تفتتح بهذه الخطوط الأربعة: **النثر، أو النشر** (الرياح في التفسير السائد)، **الإنماء والرعاية** (الغيوم التي تحمل النماء الذي سيقوم بهذا)، **والنقل والإيصال** (السفن التي تجري بواسطة الرياح)، وأخيراً **التقسيم** (الملائكة التي تقدم النتائج)..

هذه الخطوط الأربعة موجودة في **كل مشروع عمل حقيقي، لا يمكن أن نجد مشروعاً لا يتضمن هذه الخطوط..**

كل المشاريع تحتوي بداية على «فكرة» ما، قد تكون في البداية مثل حلم، مثل هدف أعلى، مثل صورة لبناء شامخ، مجرد تصور «عام» عنه.. دون تفاصيل، ودون معرفة بكيفية الوصول إلى تحقيق هذه الفكرة وتطبيقها..

هذه هي مرحلة «**الذاريات ذرواً**».. يكون فيها المشروع مجرد بذرة بعيدة عن

موسم الحصاد، مجرد فكرة بعيدة عن التطبيق..

إنها مرحلة أساسية، ومن المهم فيها أن تنتشر الفكرة، أن يؤمن بها، مهما بدت صعبة، وبدا الدرب إلى تحقيقها وعراً وموحشاً..

كل منا يمكن له أن يساهم في تلك المرحلة الأولى التي قدمت لها سورة الذاريات..

يمكن لامرأة ما، متواضعة وفقيرة، أن تكون من «الذاريات»، أن تنشر بذور ذلك المشروع، بذور تلك العبادة، في أطفالها الصغار..

كما يمكن لمعلم مبتدئ أن ينشر تلك البذور في قرية نائية، أو ينقشها في قلوب وعقول الصغار الذين قد لا يعونها بالضبط وهم صغار، ولكنها ستكبر فيهم بالتدريج، وتجعل من سلوكهم ضوءاً للعبادة بهذا المعنى، المعنى الذي خُلقنا من أجله..

يمكن لفنان مبدع، أو أديب بارع، أو خطيب بروح زعامية، أن يملك زمام «النشر» و«النثر».. أن يقوم بدور تلك المرحلة - الأولى والأساسية في ذلك المشروع..

إنه الترويج الذي لا بد منه لكل مشروع في كل مرحلة من مراحله..

لكن هذه الفكرة - البذرة لكي تنمو وتزدهر، ستحتاج إلى خط آخر من العمل، غير عمل «الذاريات ذرواً»، غير «النشر والنثر».. **فكل بذرة كي تنمو تحتاج إلى عملية إعداد وإمداد، إعداد للأرض، بالحرث والعزق والتسميد، وإمداد النبتة الناشئة بكل ما يحميها ويغذيها..**

وهذا هو دور (الحاملات وقراً) هنا، التي اختُصرت بالغيوم والسحاب، **لكنها أيضاً كل ما يساهم في إنماء البذرة وفي تنشئتها**، فلنتذكر أن الوقر في لسان العرب أيضاً يعني الثبات، ويعني الحاجز، والأمر هنا يشبه أن تعطي هذه البذرة **ما يثبتها، ما يكرس قوتها، وفي الوقت نفسه، تمنحها أسواراً وحواجز لحمايتها.. لحماية نموها..**

حاملات الوقر هذه تمثل كل ما يقوي البذرة وينميها، يحولها **من مجرد فكرة إلى بذرة منفردة، إلى نواة لمشروع**، أو يمكن أن تكون كل المؤسسات التي يجب أن تتوفر لكي توفر الحماية والإنماء لتلك البذرة التي نثرناها في المرحلة الأولى، أي بذرة تنثر، دون أن توفر لها مراحل الإنماء والحماية لاحقاً، قد تموت، قد تجهض..

لكي تكبر البذرة وتنمو، وتتوفر لها الحماية، لا بد من وجود «الدعم».. سواء أكان هذا الدعم **فكرياً (يقوي الفكرة الأساسية بإمدادها بإطار نظري يشرح ما تحويه ويحدد ثوابتها وأهدافها ومنطلقاتها ومبادئها ويفند النظريات المضادة والطروحات المناقضة..)**.. أو كان دعماً **مادياً، يساهم بالمال في تطوير**

مؤسسات تنشر الفكرة (إعلامية أو تعليمية أكاديمية).. أو مشروعات عمل (خيري، تطوعي، أو حتى ربحي) لكنها تلتزم بثوابت الفكرة ومبادئها، وتقدم البديل الذي يشد المزيد من الناس المؤمنين بالفكرة..

حاملات الوقر هي المرحلة الثانية المهمة والضرورية لكل مشروع، تنتقل فيها البذرة إلى مرحلة النمو من جهتين:

الجهة السفلى: حيث تنمو جذورها، وتمتد في التربة..

والجهة العليا: حيث تنمو إلى الأعلى، من جهة الساق..

النمو السفلي هو كل ما يقوّي النظرية عبر تأصيلها، عبر ربطها بكل ما يزيدها متانة، ويزيد من اقتناع المؤمنين بها بكونها قابلة للتطبيق، وبكونهم قادرين على تحقيقها.. هنا تكف النظرية عن كونها **«وجهة نظر» يتعاطف معها المتعاطفون، بل تصبح «قضية حياتهم»** التي يطبقونها - أو يحاولون تطبيقها - في كل تفصيل من تفاصيل حياتهم..

النمو السفلي هو الذي يجعل الفكرة - النظرية تلتحم بالبنية التحتية للمجتمع، تستخرج أفضل ما في هذا المجتمع من قيم وأمثال وتجارب تاريخية، وتعيد صياغتها وتدويرها وإنتاجها عبر الفكرة، حتى تتعمق الفكرة، وتصير جزءاً من النسيج الاجتماعي، حتى لو كانت جديدة فعلاً على هذا النسيج، لكن كل فكرة إنسانية يمكن أن تجد لها شواهد حضارية مشابهة في أمم مختلفة، أما الفكرة المستندة على نص مقدس إلهي، فهي ستجد حتماً شواهد أكثر، ما دام هذا النص قد أُنزل «للعالمين»، وليس لقبيلة محددة أو لأمة بعينها..

أما النمو العلوي، فهو الانتقال بالفكرة - البذرة إلى أطر جديدة من التطبيق الذي قد يكون تجريبياً في هذه المرحلة، بمعنى أنه يعد ويمهد للتطبيق الحقيقي لاحقاً، لكنه بطريقة ما قد خرج من الإطار النظري المحض (الذي أُشدد شخصياً على أهميته وأهمية عدم الاقتصار عليه فحسب).. إلى إطار العمل والتطبيق، حتى وإن كان هذا العمل يركز على التمهيد لما هو قادم، أكثر مما يقدم الهدف النهائي..

التمكين، بدلاً من التطبيق

بعبارة أخرى: يكثر الحديث عن «تطبيق الشريعة» على سبيل المثال، وهو أمر مرتبط بموضوع الكتاب شئنا أم أبينا، ويكون الحديث أحياناً بطريقة فجّة وخارجة

عن السياق.. ربما يمكن لنا أن نقول: إن تطبيق الشريعة بمعنى شامل وواسع، وليس بالفهم الضيق المجتزأ الذي ابتلي به البعض، هذا الفهم الواسع الشمولي هو مما لا يمكن لأي «مسلم» أن يكون ضده، وإلا كان ذلك قدحاً في إسلامه..

لكن الحديث عن التطبيق أحياناً، فضلاً عن الدعوة له، يشبه **مطالبة البذرة أن تتحول إلى شجرة مثمرة دون أن تمر بمرحلة وسيطة**، يشبه أن تكون الثمار مدفونة تحت الأرض دون أن تجد من يحصدها..

إذن الحديث عن «تطبيق الشريعة»، أو عن الثمار الجاهزة للحصاد، أمر لا يمكن أن يكون منطقياً **إلا في سياقه التراكمي التدريجي**، وأي دعوة مبكرة للتطبيق «الكامل» قد تؤدي إلى إجهاض الثمرة والمشروع بأكمله..

ولتبسيط المثال، وربطه بسياق سنن المشاريع الإنسانية عموماً نقول: إن أي مشروع صناعي قد يهدف إلى أن يضع ضمن خططه أن يغزو الأسواق العالمية، وينافس منتجات لشركات عملاقة، لكن أن يحدث ذلك فوراً هو ضرب من الخيال، **لذلك فعلى المنتِج أولاً أن يتمتع بمقاييس تتفوق على المقاييس العالمية، وأن يتمكن من فرض نفسه محلياً، كي يتمكن من القدرة على التنافس عالمياً..**

ما البديل المرحلي عن الدعوة إلى «التطبيق»؟

البديل المرحلي هو **الدعوة إلى «التمكين»..**

تمكين الشريعة يعني منح **الخيار الشرعي فرصةً ليكون موجوداً ومطروحاً**.. لقد همش الخيار لعقود، وتعرض لتراكم سلبي في الفهم من قبل «مؤيديه» - لقرون خلت - و«معارضيه» على حد سواء.. ومن المنطقي أن يكون تطبيقه في هذه الظروف بمثابة عملية إعدام للخيار برمته..

التمكين يعني تقوية الخيار، وجَعْلَه أيسر فهماً على الناس، وبالتالي أيسر تطبيقاً، ومنحه فرصةً ليكون موجوداً لا في أذهان الناس فقط، بل في حياتهم اليومية أيضاً..

من حق الناس أن يكون أولادهم في مدارس تكون مناهجها التدريسية متناسبة مع إيمانهم، لا يعني هذا زيادة «حصص» الحفظ التلقيني للقرآن، أو إضافة حصص فقه وعقيدة، كما جرت العادة في الفهم عندما نتحدث عن نوع التدريس الذي يحتاجه أولادنا.. (أم أننا كففنا حتى عن ذلك ؟!).. بل يعني أن يكون الدين موجوداً في كل شيء.. في حصة العلوم والصحة والرياضيات والجغرافية والتاريخ، ليس بمعنى الإعجاز العلمي على الإطلاق كما سطحنا كل شيء للأسف، بل بمعنى أن تكون آيات السَّيْر في الأرض، والتبحُّر في سنن الله تعالى جزءاً من كل معلومة تمرُّ على

الطالب، أو نظرية في تفسير هذه المعلومة.. وأن يكون الحث على العلم والتفكر والتبحر جزءاً من حصة الدين، ولكنها موزعة على كل الحصص.. أن يغرس ذلك غرساً، ولو عبر الآليات التي تسمى «غسيلاً» للدماغ.. أن يغرس معه أيضاً الشعور بالعار (نعم، العار!) من أن صرح أغلب المكتشفات العلمية حالياً لم يُبْنَ من قِبل من نزل عليهم هذا الدين..

من حق من يؤمن بهذا أن يجد في مؤسسات التعليم ما يجعل أولاده يتشربون بهذا، يتنفسونه، يجري منهم مجرى الدم، فيغير حياتهم، ويجعل عقولهم تنصبُّ لا على تحصيل الدرجات من أجل الدرجات والشهادات والوظائف، بل من أجل العلم، من أجل أن ينهضوا بمجتمعهم..

من حق الشريعة علينا أن «نمكنها» لتقدم بديلاً «جاذباً».. لتكون نموذجاً يجمع بين النظرية والتطبيق.. من حق المؤمنين بهذا أن يجدوا تشريعات تناسب «خياراتهم»... أن يجدوا مطاعم وفنادق وشركات طيران لا تقدم الكحول.. من حق الشريعة أن «تُمكَّن» بحيث يكون تطبيقها تطبيقاً قائماً على سنن التراتب والتراكم، لا على إلغاء المراحل التي تقسر الشريعة على بيئة غير مؤهلة لها..

كل ما يقدم من تثبيت وتمهيد للشريعة.. وكل من يساهم فيه، هو جزء من «مرحلة حاملات الوقر».. مثل ماذا؟..

حاملات الوقر في التاريخ

عبر تاريخ المشروع الإسلامي، أو على الأقل في بدايته، عندما نجح المشروع في تحويل النظرية إلى واقع، وتمكن من إنجاز معجزة تغيير العالم خلال عقود فقط.. كانت هناك حاملات وقر مهمة تمكنت من أداء دورها على أكمل وجه..

من أهم حاملات الوقر في تلك الفترة (وأي فترة لاحقاً أيضاً عندما يتم استخدامها على النحو الصحيح) هو **الشعائر..** وعلينا أن نميز بينها وبين العبادات، فالشعائر جزء من العبادات، أما العبادات فهي تشمل الشعائر، ولكن تشمل أيضاً أشياء أخرى..

الشعائر - خصوصاً الشعائر ذات الطابع الجماعي، وبخاصة عندما تؤدى في إطار **يُذكِّر بمعانيها وقيمها وأهدافها، ويكرر ذلك باستمرار،** فإنها تكون قالباً يشد من البذور، ويقويها، ويمنحها مقومات الاستمرار والرسوخ.. وقد قامت الشعائر بهذا الدور التقويمي في فترة مهمة وحاسمة من نشوء المشروع الإسلامي، فقد

كانت تشد المجتمع، وتضخ فيه طاقة للعمل تساهم في توحيد رؤيته للمستقبل..

وهناك أيضاً الإعلام، وهو أمر ليس جديداً تماماً، فقد كان دوماً هناك إعلام ما، لكن دوره تضخَّم في العقود الأخيرة، حتى صارت أذرعه تمتد حتى إلى غرف النوم، بل إلى خبايا النفوس، صار الإعلام لا يضع الآراء والأفكار، بل يقولب أنماط التفكير، ويقولب الإنسان نفسه.. لكن منذ أن كان هناك «تواصل» بين البشر، ومهارات للتواصل بينهم متفاوتة من شخص لآخر، فقد كان هناك إعلام قادر على «توجيه أفكار» الناس.. سواء تمثل ذلك في «خطب» على المنابر، أو قصائد، أو قول صِيغَ بطريقة مؤثرة وهو يحمل «توجهاً» معيناً.. كل هذا إعلام، كما الوسائل المرئية والسمعية اليوم إعلام.. وإن كانت اليوم تمتلك القدرة على التوجيه والتدخل أكثر من قبل..

والإعلام في النهاية «وسيلة»، حاله حال الحجر الذي يمكن أن يكون **وسيلة للبناء ووسيلة للانهيار**، وإذا كنا نرى اليوم من الإعلام قوالبَ جاهزة تجعل من الإنسان جزءاً من قطيع استهلاكي، كل قيمته تتمثل في قدرته على المزيد من الشراء كي ينتفع الملأ العالمي، فإن الوسيلة نفسها يمكن أن تجعل من الإنسان نفسه إنساناً آخر يؤدي ما خُلق من أجله، قد يقال: إن ذلك أيضاً قالب آخر، وهذا صحيح إلى حد ما..

لكن هناك فارقا مهما..

فهذا القالب على مقاسنا بالضبط، إنه القالب الذي خُلقنا من أجل أن نكون في داخله..

إنه القالب الذي يمكن لنا - من خلاله - أن نكون ما يجب أن نكونه..

"القائد" حاملاً للوقر

ومن أهم «حاملات الوقر» اللازمة لكل مشروع وجود «الشخصية القيادية»..

المفكر مهم حتماً.. إنه صاحب الرؤية - البذرة، وهو وسواه من المفكرين يقدمون الإطار النظري اللازم لكل مشروع.

لكن شخصية المفكر تحتوي من الصفات على ما لا يجعلها بالضرورة شعبية في عيون الجماهير.. ليس تعالياً، فمفكر المشروع يجب أن يتفاعل مع هموم الجماهير، ويستمد منها ما يحفز فكره.. لكن لا يشترط أن يَبثَّ نتاجه على تردد موجي يمكن لعموم الجماهير أن تستقبله.. بل قد يبث على تردد يستقبله من هو قادر على التواصل مع الجماهير أكثر..

أما القائد فهو مختلف.. وهو مهم كما أي جزء من المشروع، لكن الأضواء تسلط عليه أكثر..

القائد يتمتع بشخصية زعامية «تجمع» الناس.. وتبثُّ فيهم الحماسة والرغبة في العمل والتغيير، إنه يوصل الأفكار بأسهل الطرق وأكثرها تأثيراً من خلال التحام هذه الأفكار مع «شخص» حقيقي.. أن تكون هذه الأفكار «لسان حاله».. وأن يكون هو لسان ما يجب أن يكون عليه حال الناس.. أن يقنعهم عبر مواصفاته الجذابة بما لا يمكن للمفكر أن يفعل..

كل مشروع يحتاج إلى قائد.. إلى شخصية مركزية لا تسيطر بشكل مهيمن، لكنها تكون الأكثر فاعلية وجاذبية.. والأكثر قدرة على اتخاذ القرارات الصعبة.

عدم وجود القائد يمكن أن يكون خطراً محدقاً بأي مشروع.. خطراً يهدد المشروع بالتفتت والضياع..

ووجوده يمنح الثبات والمركزية للمشروع..

القائد، والشخصيات القيادية عموماً، بالتأكيد من أهم «حاملات الوقر»..

ومن المهم أن نفهم ذلك دون تحويل القائد إلى وثن، ودون اختصار كل المراحل فيه.

إذن حاملات الوقر هي كل ما **يمكّن البذرة من النمو..** فالمطر الذي تحمله السحابة، سيحمل النمو لكل البذور، خيرها وشرها، كل البذور ستستفيد من المطر، بذور الحنطة والغذاء، كما بذور الحشيش والأفيون والسم القاتل..

الأمر في حاملات الوقر هو ارتباطه بما سبقه، هو وجود بذرة العمل الصالح والعبادة بمفهومها الحقيقي الذي يحتاج إلى تأصيل وتثبيت وأيضا عبر مؤسسات تملك الوسائل والآليات القادرة على ذلك.. إنشاء هذه المؤسسات، والعمل فيها، وتطوير آلياتها.. هو بالتأكيد جزء من «حاملات الوقر»، وهو بالتأكيد أيضاً جزء أساسي من آرائنا لمهمتنا على هذه الأرض.. **العبادة..**

الجري "يسراً" على الطريق الصعب

فماذا عن «الجاريات يسراً» إذن؟..

التفسير السائد يشير إلى كونها السفن التي تجري بيسر بسبب الرياح، وهذا يعني،

عندما ننظر إلى ترابط المرحلة مع ما سبقها، أن الحصاد قد اكتمل، وأن السفن تقوم بنقله عبر البحار والأنهار.. والصفتان الأساسيتان لهذا هما الجريان، واليسر..

والجريان في لسان العرب[٧] يعني **السير إلى هدف محدد،** فليس كل سير - مهما كان مسرعاً - يكون جرياناً، ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ [يس: ٣٨] فنقطة النهاية تكون محددة سلفاً منذ أن يبدأ الانطلاق، إنها لا تشير فحسب، بل تسير من أجل الوصول **إلى هدف محدد مسبقاً..**

و«اليسر» في لسان العرب هو الخضوع والانقياد..

ما الذي ينتج عن الربط بين الجري واليسر؟

ينتج شيء مهم للغاية في كل مشروع: «التنفيذ»!.

التنفيذ الذي لا بد منه من أجل نجاح أي مشروع، فكل مشروع مهما كان مصمموه مبدعين، ومهما كان واقعياً ومتقناً... فإنه لن يتمكن من مغادرة الأوراق والرفوف، **إلا عبر «المنفِّذين».. قد يكون «المنفِّذ» غير مدرك لكل تفاصيل المشروع، لكنه يحمل عبء المشروع على أكتافه، وينقله - بعرقه، بجهده، ربما بلا تصعيد لفظي - من حيز الخيال والنظرية، إلى واقع التطبيق العملي.. وهو الجزء الأهم من أي مشروع.. لأنه يحوله من المشروع إلى الإنجاز..**

وهؤلاء المنفِّذون هم الذين يحملون ذلك المشروع إلى مرحلة تطبيقه، كالسفن التي تحمل الثمرة إلى الأصقاع البعيدة، ربما كانت السفينة نفسها، بخشبها وساريتها وشراعها وملاحيها، لم تشارك في صنع الثمرة نفسها، إلا أن جهودها أسهمت في إيصال الثمرة إلى كل مكان..

إن المنفِّذين هم الجنود المجهولون الذين ينفذون المشروع وأهدافه بيسر، بخضوع وانقياد، دون أن يحاول كل منهم أن يكون قائداً، دون أن يظهر كل منهم كما لو كان فيلسوفاً ومفكراً.. ودون أن ينقص ذلك أيضاً من أهمية جهودهم.. جهودهم لا تقل أهمية عن دور المفكر أو القائد، ليس ذلك مجاملة لهم أو «مواساة».. بل لأنه ببساطة لا يمكن للقائد أو للمفكر أن يكون له أي أثر حقيقي لولا أولئك المنفذين، فهم الجنود المجهولون، المنطلقون إلى **هدف محدد، بيسر، كما الجاريات يسراً..**

مبدئياً، مواصفات المنفذ ومهاراته يجب ألا تكون ضمن قالب واحد؛ لأن المشروع ليس مشروعاً تقنياً محدداً كصناعة حرفية مثلاً، حيث يجب أن تكون نوعية المهارات

٧ لسان العرب: مادة جرى

موحدة بين العاملين، لكنها مواصفات عامة تصنف غالباً بين سياقي العقيدة والأخلاق، يمكن لها أن تكون بين المواصفات العامة المطلوبة في كل تفاصيل هذا المشروع العام الشامل..

أما المهارات والخبرات التي تميز كل فرد، وتجعله جزءاً من هذا المشروع، فيجب أن تكون مختلفة..

مجالات «التنفيذ» يجب أن تكون مختلفة..

يجب أن تكون في كل مجال من مجالات الحياة، لأن المشروع هو مشروع «حياة» بكل تفصيلاتها..

مهما كان المفكر بارعاً حاذقاً عميقاً، مهما كان القائد متَّصفاً بالخبرة والحكمة والمصداقية.. مهما كانت خطة المشروع موضوعة بإبداع ومتقنة..

كل ذلك لن يكون مهماً دون «التنفيذ».. دون «المنفذين»..

كل ذلك لن يقدم خطوة واحدة في المشروع، ما لم يكن هناك منفذون.. وما لم يكن المنفذون على مستوى عالٍ من الأداء..

ربما يكونون في الظل، ربما الأضواء تسلط على أفراد في المقدمة.. لكن هذا يجب ألا يكون سبباً في كبح أدائهم، يجب أن يكون فهمهم للأمر جزءاً من عقيدتهم..

الظل قد يكون موحشاً قليلاً في الحياة الدنيا، لكنهم عقائدياً يؤمنون، أنهم قد يحصلون على كل الأضواء في يوم آخر.. يوم الآخرة..

فهذا المشروع يمتد إلى هناك..

المقسِّمات أمراً: "حبة البركة" في التوزيع

وذلك كله يجعل من «المقسِّمات أمراً» آلية تحتِّم تقسيم المهام وتوزعها على الأفراد، والتي لولاها لما كان يمكن لأي مشروع أن ينجح..

لا يمكن للكل أن يكونوا قادة، أو أن يكونوا مفكِّرين، ولا يفترض أن يكون الكل منفذين..

تقسيم المهام وتوزيعها أمر أساسي لنجاح أي مشروع، ولولا هذا التقسيم، لبقي أي مشروع مجرد مشروع، مجرد حبر على ورق، يتخبط بين تعدد الآراء والقيادات

وضياع الهدف الواضح..

لولا هذا التقسيم لصارت تلك البذور التي رأيناها أول السورة محض هباء منثور..

ولما وصلت قط إلى أن تكون ثمرة تنتشر عبر الأصقاع..

الأمر لا يتعلق فقط بمعرفة «الرجل المناسب» ووضعه في المكان المناسب..

بل يتعلق بالمرحلة المناسبة.. مرحلة الذاريات، مرحلة الحاملات وقراً، مرحلة الجاريات..

المراحل تتداخل فيما بينها، ومن المهم أن يكون هناك تحديد للمراحل، كما الأدوار..

من المهم أن يكون هناك من يقرأ الواقع ويطبقه على النظرية..

ويجعل «الخطة» جسراً واصلاً بينهما..

هل يسمى ذلك بلغة اليوم «الإستراتيجية»؟

ربما، التسميات ليست مهمة قدر المضمون.

«والمقسِّمات أمراً» تشير بوضوح إلى ذلك.. إلى أهمية التوزيع والتقسيم والتكامل بين الأدوار.. إنها مرحلة «التخطيط» التي تكون منبثة في كل المراحل.. وترتب علاقة كل مرحلة بالتي تسبقها والتي تليها..

إنها المرحلة التي تلتقي عندها المراحل، المرحلة التي تنظم سير المراحل جميعاً، الصمام الذي ينظم علاقة المراحل..

تخطيط؟ إستراتيجية؟ استشراف للمستقبل؟

لا بأس، إنها «المقسِّمات أمراً»..

◆ ◆ ◆

هذه المراحل المتتابعة هي جزء من السنن الإلهية التي تسيِّر الكون، والتي يمكننا أن نكون جزءاً منها فنحقق ما خلقنا الله من أجله..

أو أن يستخدم الآخرون هذه السنن نفسها لتحقيق غير ما يريد الله.. ونكون نحن غالباً "ضحايا" في هذا.. (تركنا لهم السنن، فأخذوها واستخدموها في غير ما يريد الله)..

هذه المراحل المتتابعة بتكاملها، من الذاريات إلى الجاريات، هي التي تجعل النتائج حتمية..

هي التي تحقق.. ﴿إنما توعدون لواقع﴾...

◆◆◆

عندما يكون مشروع عمرك فردياً يتعلق بتحقيق مكاسب شخصية، يمكن لك أن تختصر كل هذه المراحل في شخصك: أنت صاحب الفكرة، وأنت المخطط لها، وأنت المنفذ..

تقرر أن تكون طبيباً ناجحاً، فتكرس حياتك للدرس والتحصيل، وتطوي مرحلة تلو الأخرى من مراحل عمرك وأنت تسعى لتحقيق هذا الهدف.. إلى أن تصل إلى هذا الهدف.

هذا المشروع فردي، يكفي أن يقوم به «شخص واحد» يقوم هو بالأدوار كلِّها..

لكن عندما يكون المشروع أكبر من ذلك، عندما يتعلق بما هو أكبر من وظيفة أو منصب أو مكانة اجتماعية.. لا أتحدث هنا عن «مشاريع» نهضة الأمة فحسب.. بل حتى عن مشاريع النجاح المادي، في مثل هذه المشاريع كلما كبرت قليلاً، خضعت لقانون المراحل وتكاملها، وصار لا بد من تقسيم في الأدوار..

صاحب الاختراع لا يكون بالضرورة قادراً على تسويقه، أو على إدارة عملية تحويله إلى سلعة تصل إلى كل الناس.. بل سيحتاج إلى تمويل، وإلى مخطط ومعلن مروج، وإلى خبير تسويق مدرك لاحتياجات السوق.. وإلى منفذين في كل حلقة من حلقات الإنتاج يتفننون في الإتقان، وإلى مدير «منفِّذ» يشرف على كل ذلك.. (بعض المخترعين، مثل أديسون كان قادراً على أن يكون المخترع والاستراتيجي والمدير في الوقت ذاته، لكن مخترعين آخرين كُثُر، بل هم الغالبية من المخترعين، لم يكونوا قادرين على ذلك.. وكان لا بد لاختراعاتهم من أن تجد مؤسسة تحتويها وتوصلها إلى هدفها، أو أن تضيع تماماً)..

كلما كبر المشروع خارج نطاق الفرد والشخص، وكلما كفَّ عن أن يكون الفرد هو محور هذا المشروع، صار لا بد من هذا التقسيم.. لا بد من هذا التوزيع، لا بد من الذاريات، والحاملات، والجاريات..

مشروع الحياة الإنسانية: العبادة في كل أشكالها

الحياة الإنسانية - في جوهرها - هي مثل أي مشروع آخر، بل هي المشروع الأول.. وهي مشروع يمكن للجميع أن يشارك فيه، بل يجب أن يشارك به الجميع،

وإن كان بعض الناس يتهربون من ذلك..

الحياة الإنسانية - كما يريد لها خالقها أن تكون - هي مشروع يشارك فيه كل من يعبد هذا الخالق، بل إن المشاركة في هذا المشروع هي جوهر عبادته لهذا الخالق، هي جوهر وجوده كلِّه..

إنها مشروعٌ جوهرُه العبادةُ، العبادة بالطريقة التي قدمتها لنا سورة الذاريات، العبادة التي خُلقنا من أجلها، والتي محورها إصلاح العالم ولو بإعادة بنائه، لكي يكون كما أراده الله أن يكون، لكي يردم تلك الهوة بين ما هو واقع، وما يجب أن يكون.. يضع المجتمع الإنساني في سياق العبودية نفسه الذي وضع فيه النظام الكوني كلّه، وهي المهمة – الامتحان التي كان للإنسان شرف الاضطلاع بها..

الإنسان وحده..

◆◆◆

فلنتذكر هنا، قبل أن نغادر سورة الذاريات، ما مرّ علينا في تقديمها..

فكل ما تضمنت سورة الذاريات، وبالأخص الآية المحورية في حياة كل إنسان منا ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ تنزلت في مرحلة مفصلية دقيقة من مراحل الدعوة.. **وهي المرحلة التي تلت سورةَ الإسراء، وفَرْضَ الصلاة بوصفها شعيرة ذات قالب وشكل واضحين.. (أي إن هذه الآية لم تنزل ولم يعرف المسلمون أنهم إنما خلقوا «ليعبدوا»الله، إلا بعد أن تعلموا الصلاة بشكلها الشعائري).**

كما لو أن العبادة بمعناها الواسع الشامل، **يجب أن ترتبط بالشعيرة بمعناها الدقيق، لكي تثمر حقاً..**

كما لو أن تلك العبادة لا يمكن أن تكون حقاً كما يجب دون أن ترتبط **بالشعائر التي سترفد هذه العبادة بالقيم والمعاني، وستضبط إيقاعها، وحركتها، وبوصلتها..**

◆◆◆

في تلك المرحلة المفصلية، التي كان الوعي المسلم قد تراكم ونضج فيها بما فيه الكفاية، جاء ذلك الجواب الإلهي الحاسم، للسؤال الذي لا بد أن يكون قد دار في أذهان الأجيال المتتالية، كما سيبقى يدور في أذهان الأجيال المتتالية بأسرها..

جاء الجواب الحاسم: **ليعبدون..**

◆◆◆

هيئات الجواب الحاسم وتفاصيله ستتوضح أكثر لاحقاً في آية قد تبدو بعيدة عن آية ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾، لكنها في الواقع تلتحم معها، وترسخ المفهوم الذي سبرناه للعبادة عبر محمل سورة الذاريات.. العبادة بمعنى إصلاح المنظومة الاجتماعية ككل..

بل إن هذه الآية - الثانية - **ستبرهن على صحة ما ذهبنا إليه من المعنى الشامل للعبادة في آية ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ المتولد من فهم السورة ككل، وليس من آية نستلها من السورة، ونسقط عليها فهمنا القاصر عن العبادة..**

خطوط عامة للعبادة..

فلنتذكر هنا أن هذه الآية ونزولها في هذا السياق الذي يقسم «مشروع الحياة» وأطواره وأدواره، قد جاءت أيضاً ضمن خطوط عامة لا يمكن الفكاك منها أو عنها.. مررنا عليها سابقاً، ولا بد من التذكير بها..

الخط الأول: العلم والحكمة (الغلام الذي جاء كالمعجزة ليحقق الأمل، وكانت صفته العلم أولاً) وربط السياق بالحكمة صفة الله عز وجل، كما مر..

الخط الثاني: الانتقال من الفرد إلى الأسرة، وصولاً إلى القوم إلى الأمة.. المشروع ليس فردياً إلا بوصفه مدخلاً لما هو أكبر.

الخط الثالث: الهدم والبناء عملية متلازمة في المشروع، لا يمكن لمشروع أن يقتصر على البناء فحسب، بل يجب أن يكون الهدم جزءاً من المشروع، كما البناء.. (لذا تلازم هدم مجتمع لوط، مع بشارة الغلام العليم).

لا يمكن لنا أن نحقق دورنا في المشروع، أيا كان دورنا وحجمه، دون أن نفهم هذه الخطوط الثلاثة..

في الأرض خليفة

السؤال الذي لم يفارق البشر هو: لماذا خلقنا؟ لماذا نحن هنا؟..

الجواب جاء على مرحلتين ﴿ليعبدون﴾ مرة، و﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ مرة ثانية..

لا تناقض هنا، إلا مع العبادة بالمعنى الذي تعودنا عليه، المعنى الشعائري

الضيق الذي يفصل الشعيرة عن الحياة، أما مع العبادة بمعناها الشامل، فالآيتان تتكاملان..

خُلقنا لنعبده، وخُلقنا لنكون خلفاء..

العبادة والاستخلاف هما وجهان لعملة واحدة.. اسمان لمسمى واحد..

لأننا لن نفهم العبادة حقاً بشموليتها، بسعة معانيها، ما لم ترتبط بالاستخلاف..

ولن نفهم الخلافة والاستخلاف حقاً، لن نفهمها بوصفها مسؤولية قيمية عقائدية، ما لم ترتبط بالعبادة..

الآيتان إذن تتكاملان، تلتحمان، لتقدما لنا معنى وجودنا على هذا الكوكب..

الآيتان، تقدمان الإحداثيات، خط الطول وخط العرض، للموقع الذي يفترض أن نكون فيه.

◆◆◆

وكما كان لتوقيت نزول ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ معنى معين في سياق بناء الوعي التراكمي للجيل الأول، فقد كان لتوقيت نزول ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ معنى مهم، وسيرتبط حتماً بفهمنا للخلافة، وللعبادة، ولمعنى وجودنا في هذه الحياة..

فالآية الكريمة نزلت في سورة البقرة، وهي كما هو معلوم أول ما أنزل من القرآن الكريم في المدينة المنورة، بعد هجرته عليه الصلاة والسلام إليها ولهذا دلالات لا تخفى.. لكننا نشير إلى هذا الآن، ونؤجل البحث فيه، إذ إن لهذا مكانا آخر في إبحارنا.[8]

العلاقة التكاملية بين الآيتين تجعلنا نبحث عن المعاني الشاملة لمعنى الاستخلاف..

لن نفهم العبادة حقاً إلا إذا فهمنا الاستخلاف..

ولن نفهم الاستخلاف قط إلا إن ولجناه من مفهوم العبادة..

ولن نتمكن من تحقيق الاثنين، أو أياً منهما، العبادة أو الاستخلاف.. ما لم نفهمهما معاً كما يجب.. كما أراد لنا خالقنا أن نفهمهما..

◆◆◆

لكي نفهم ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ حقاً.. ونفهم علاقتها بـ ﴿إني جاعل

٨ الفصل الثالث: لقاء في المدينة.

في الأرض خليفة﴾.. علينا أن نغوص في القرآن الكريم، أن نبحث في السياقات التي طُرحت من خلالها معاني الاستخلاف في الأرض.. أن نترك كل ما تراكم في رؤوسنا من قالب يحصر العبادة في شكل معين فقط، ويحصر «الاستخلاف» في قالب محدد مسبقاً.. ويضع بينهما حواجز وموانع بحيث لا يبغي أحدهما على الآخر..

في القرآن الكريم سنجد التوصيف الوظيفي لنا نحن كبشر..

نحن هنا، على هذا الكوكب، في هذه الحياة، وُجِدْنا لمهمة محددة، وُجِدْنا لغرض خُلقنا من أجله..

(هل هناك من يتصوَّر أننا وُجدنا هنا بلا هدف؟ إن كان هناك من يقرأ الآن هذا الكتاب، وهو غير مؤمن بوجود هدف، فهذا يعني ببساطة أنه قد اختار الكتاب الخطأ للقراءة، وغريب جداً استمراره في القراءة، أحترم تماما أنه قد يحتاج إلى أن يؤمن بوجود هدف، لكن ببساطة ليس هذا هو الكتاب المناسب له..).

نحن هنا على هذا الكوكب لهدف معين.

سيكون من العبث التصوُّر أننا سنُترك هنا لنكتشف هذا الهدف دون «إشارات» لذلك.

سيكون من العبث أن نتصور أن خالقنا يخاطبنا، دون أن يتحدث عن ذلك..

سيكون من العبث التصور أن القرآن لن يكون فيه «توصيفنا الوظيفي»..

وهو عبث يتنزَّه أي مسلم عن الإيمان به..

عن التوصيف الوظيفي، في سياقات الاستخلاف، سنبحث في القرآن الكريم..

آية سورة الذاريات تحدد لنا خط العرض..

أما آية سورة البقرة فتحدد لنا خط الطول..

وعلى خطي الطول والعرض يتحدد موقعنا من الإعراب في هذه الحياة..

البقرة ٣٠..

الذاريات ٥٦..

إن كنا على هاتين النقطتين.. في تقاطعهما وتلاحمهما.. إن جعلنا العبادة استخلافاً والاستخلاف عبادة، فنحن في الموقع الصواب..

للوصل بينهما علينا أن نبحر في عمق القرآن، كي نعرف الدرب حقاً إلى نقطة الالتقاء..

البقرة ٣٠ طولاً، الذاريات ٥٦ عرضاً.. هناك، وهناك فقط «نكون» حقاً..

كل «كينونة» أخرى خارج هاتين النقطتين.. تكون مثل كينونة الإبل المهملة عمداً التي لا فائدة منها ولا فيها..

السدى..

◆◆◆

أبرز ما جاء في الفصل الأول "خطوط طول وعرض قرآنية"

أولاً - لم يخلقنا الله لتكون حياتنا عبثاً، وكل من يعتقد ذلك ينزل نفسه منزلة الإبل التي كفت عن النتاج، وأهملها أصحابها عمداً، لأن ذبحها صار مكلفاً أكثر من إهمالها.

ثانياً - بعد عشر سنوات من الفترة المكية، جاء القرآن ليوضح أن **الله خلقنا لنعبده،** وذلك في سورة الذاريات، كما لو أن الفترة السابقة كلها بكل ما فيها من آيات ومفاهيم قد جاءت لتمهد لهذه الآية.. **للفهم الحقيقي المتكامل للعبادة.. التي خُلقنا من أجلها.**

ثالثاً - نزول السورة بعد الإسراء والمعراج التي نزل فيها الأمر بالصلاة **يجعل من العبادة مفهوما أوسع من الشعائر، يضمها حتماً ولكن لا يقتصر عليها.**

رابعاً - سياق سورة الذاريات جعل **العبادة تركز على بناء وتغيير المجتمع** أكثر مما تركز على أداء الشعائر.

خامساً - مقدمة السورة تقدم **العبادة** كما لو كانت **مشروعاً للحياة..** وهذا المشروع فيه **خمسة أطراف تشارك فيه،** لا يمكن لطرف أن يلغي الآخر، ولا يمكن للمشروع أن يسير دون كل الأطراف.

الذاريات، الحاملات وقراً، الجاريات يسراً، المقسمات أمراً، كلها أطوار من أطوار مشروع العبادة.. **وكل طور منها يقوم به طرف لا يمكن الاستغناء عنه في هذا المشروع.**

سادساً - الشعائر لا يمكن إقصاؤها من هذا المفهوم، فهي جزء منه، وهي شرط أساس لتحسين الأداء وتطويره.

سابعاً - بالربط مع الآية رقم ٣٠ في سورة البقرة، فإن **العلاقة الرياضية بين العبادة** بصفتها مشروعا للحياة **وبين الاستخلاف هي علاقة المساواة.**

◆◆◆

الفصل الثاني

في المنجم المكي:
الاستخلاف ثروة "خام"..

في المنجم المكي:
الاستخلاف ثروة "خام"..

عندما تنزل القرآن تباعاً كان يقوم بعملية إعادة تشكيل للإنسان..

لم يكن الإنسان الذي نشأ في الجاهلية مثل ورقة بيضاء.

كان هناك كثير من المفاهيم التي شكلت هذا الإنسان الجاهلي.. ليس فقط أوثان الجاهلية وأصنامها، بل أيضاً كثير من المفاهيم المرتبطة بهذه الأوثان، عادات، تقاليد، نمط تفكير، علاقات إنتاج سائدة، طبقية... الخ.

وكان القرآن يعيد تشكيل الإنسان الذي يؤمن به..

كانت شهادة التوحيد «لا إله إلا الله».. تعني - ضمن ما تعنيه - **نسفاً لذلك الإنسان القديم الذي نشأ وتكون في الجاهلية..** وتعني أيضاً **إعادة تكوينه من جديد** على مفاهيم جديدة ورؤية جديدة للعالم ولنفسه ولدوره في هذا العالم.

من السهل جداً أن نقول ذلك أو نكتبه، لكن التحدي الحقيقي هو ما كان يحدث في معترك التغيير في داخل كل شخص، في داخل كل فرد كان ينضم لفصيل المؤمنين كما لو كان يسلخ انتماءه عن فصيل سابق وجد نفسه فيه، ويلتحم بفصيل آخر قيد التكوين..

لم تكن عملية الانسلاخ والالتحام هذه سهلة، كان العقل الجمعي[٩] حاجزاً منيعاً ضد أية عملية تحول، **وكان الانفجار الذي يحدث في الداخل مثل الانفجار الذي يحدث عندما تنفصل النواة عن ذرتها.. انفجار ذرّي..**

إنه انفجار يحرر طاقة كبيرة، يمكن أن تكون للهدم كما للبناء..

وقد كانت في هذه المرة لهدم ما يجب هدمه، وبناء ما يجب بناؤه..

---

٩ العقل الجمعي : مصطلح معروف في علم الاجتماع يعبر عن مجموعة القيم والمفاهيم السائدة التي تنتشر عند مجموعة من البشر يرتبطون فيما بينهم برابطة دينية أو إثنية أو جغرافية. تتحكم هذه المفاهيم في لاوعي هذه المجموعة من البشر وتحدد لهم رؤيتهم، وهي لا تنفي وجود خصائص فردية عند كل فرد، لكن قوة هذه الخصائص الفردية لا يمكن لها عكس مفاهيم العقل الجمعي في حالة تصادمهما إلا عند أفراد قلائل.

وقد حدث كل ذلك في داخل الإنسان الجديد أولاً..

ثم انتقل الأمر بالتدريج على يد هذا الإنسان الجديد.. إلى واقع أعيد تشكيله..

كان القرآن هو وسيلة هذا التحول - المعجزة..

كان القرآن بخطابه المبين هو جسر العبور المضيء الملتهب من الجاهلية إلى الإيمان، كان أداة الانسلاخ، وأداة الالتحام في آن واحد..

كان القرآن هو **معول الهدم، وهو أداة البناء.**

كان يهدم المفاهيم، يستأصلها من جذورها، ويضع مكانها مفاهيم جديدة، يرسخها في عقل الإنسان الجديد..

كل لفظ استخدمه القرآن الكريم كان له معنى في لسان العرب.. ولكنه فُهم من جديد في سياق مختلف عندما طُرح في القرآن الكريم..

كلمة «خلف» - وربما مشتقاتها - كانت معروفة عند العرب..

كانت تعني شيئاً مرتبطاً بـ «**جعل أحدهم مكانه**»[10]..

ثم جاء القرآن..

فصار كل شيء له معنى مختلف.. معنى أكثر توهجاً..

وكان من ضمن ذلك كل ما اشتق من الفعل «خلف»..

خليفة.. خلائف.. خلفاء..

تعرف على الخليفة

كانت المرة الأولى التي تعرف عليها الفرد المسلم على لفظ «الخليفة «- الذي سيصير لاحقاً لقباً له - عبر مناسبة شديدة الأهمية والتأثير والتفرد، ويمكن أن نقول: إنها احتلت دوراً مهماً في تكوين الوعي الجماعي للجيل الأول، ليس لكونها الإشارة الأولى فحسب، أو لتفردها، بل لأنها ستكون المدخل الأساسي الذي يدلف منه الفرد الجديد إلى مفهوم الخلافة والاستخلاف، وسيكون ذلك المدخل أساساً لفهم كل ما ستطرحه الآيات الأخرى عن الاستخلاف.

◆◆◆

١٠ لسان العرب: مادة خلف.

عن أي آية أتحدث؟

عن الآية الأولى[١١] التي ذكرت لفظ الاستخلاف أو أي لفظ مشتق منه، والتي ستكون أيضاً الآية الوحيدة في ذات الفترة (المكية) التي تحدثت عن الخليفة بصيغة المفرد..

سيأتي لفظ «الخليفة» أولاً كأول ما يفتتح به المعنى.

ثم لن يأتيَ قط بعدها بهذه الصيغة في الفترة المكية..

بل سيكون في صيغ أخرى..

ولا بد أن لهذا أسبابا كثيرة..

◆◆◆

﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ [ص:٢٦].

وقبل أن ننقب في معاني هذه الآية وما تقدمه، علينا أن نفهم السياق الذي جاءت فيه لكي تكون رؤيتنا أكثر شمولية وعمقاً..

أولاً: هناك السياق التاريخي الذي نزلت فيه السورة ككل.. وفهم ذلك لا يحصر الآية الكريمة في هذا السياق، بل يجعلنا أكثر فهماً لأثرها على عقول أفراد الجيل الأول ونفوسهم.

نزلت سورة (ص) **في قلب الفترة المكية**، لا يمكن معرفة الوقت المحدد بالضبط لهذا النزول.. لكن يمكن تخمين أنها نزلت في منتصف هذه الفترة تقريباً، بالاعتماد على مجمل ما يلي:

أولاً: ربط نزول السورة بواقعة حدثت بعد إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث شعر مشركو مكة بالخطر الذي يتهددهم بعد إسلام عمر (وقبله حمزة بن عبد المطلب) فعمدوا إلى محاولة الضغط على أبي طالب، وإسلام عمر كان في السنة السادسة للبعثة.

ونقل القرطبي[١٢] والنيسابوري[١٣]: (لما أسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه شق على قريش إسلامه، فاجتمعوا إلى أبي طالب، وقالوا: اقض بيننا وبين ابن أخيك.

فأرسل أبو طالب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا ابن أخي، هؤلاء قومك

١١ تم الاعتماد على رواية ابن عباس ورواية جابر بن زيد في ترتيب نزول السور في الكتاب.
١٢ القرطبي، سورة ص، مصدر سابق.
١٣ تفسير النيسابوري. موقع التفاسير. سورة ص

يسألونك السواء، فلا تمل كل الميل على قومك.

قال: «وماذا يسألوني؟»

قالوا: ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أتعطونني كلمة واحدة، وتملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم؟»

فقال أبو جهل: لله أبوك لنعطينكها وعشر أمثالها.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «قولوا: لا إله إلا الله».

فنفروا من ذلك وقاموا، فقالوا: «أجعل الآلهة إلهاً واحداً» فكيف يسع الخلق كلَّهم إله واحد؟

فأنزل الله فيهم هذه الآيات إلى قوله: «كذبت قبلهم قوم نوح»).

ثانياً: قول السيدة عائشة: أنزل على محمد بمكة، وإني لجارية ألعب ﴿**بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر**﴾. (من سورة القمر، وهي التي سبقت سورة ص مباشرة)[14] وكانت عقد عليها في شوال قبل الهجرة بثلاث سنين، أي في أواخر سنة أربع قبل الهجرة بمكة، وعائشة يومئذ بنت ست سنين، وذكر بعض المفسرين أن انشقاق القمر كان سنة خمس قبل الهجرة، وعن **ابن عباس** : كان بين نزول آية ﴿**سيهزم الجمع ويولون الدبر**﴾ وبين بدر سبع سنين.

ثالثاً: ما رواه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن محاولات قريش استمالة الرسول الكريم عن طريق عمه أبو طالب قال: مرِضَ أبو طالبٍ فجاءتْهُ قريشٌ، وجاءه النبي صلى الله عليه وسلم، وعند أبي طالبٍ مجلسُ رجُلٍ فقام أبو جهلٍ كي يمنَعه من الجلوس فيه، قال:.. وشكَوْه إلى أبي طالبٍ. فقال: يا ابن أخي، ما تُريدُ من قومِكَ؟ قال: «أُريدُ منهم كلمة تدينُ لهم بها العربُ، وتُؤدِّي إليهم العجمُ الجِزيةَ». قال: كلمة واحدة؟ فقال: «يا عمِّ، قولوا: لا إله إلا الله». فقالوا: إلهاً واحداً؟ ما سمعنا بهذا في المِلَّة الآخرة، إنْ هذا إلا اختلاقٌ. قال: فنزل فيهم القرآن ﴿ص، والقرآنِ ذي الذِّكْر ﴿١﴾ بل الذين كفروا في عِزَّةٍ وشقاقٍ ﴿٢﴾ كم أهلكنا من قبلِهم من قَرْنٍ فنادَوْا ولاتَ حين مناص ﴿٣﴾ وعجبوا أنْ جاءهم منذِرٌ منهم وقال الكافرون: هذا ساحر كذَّاب ﴿٤﴾ أجعلَ الآلهة إلهاً واحداً؟ إنَّ هذا لشيءٌ عُجاب ﴿٥﴾ وانطلقَ الملأُ منهم: أن امْشُوا واصبروا على آلهتِكم، إن هذا لشيءٌ يُراد ﴿٦﴾ ما سمعنا بهذا في المِلَّةِ الآخِرة، إنْ هذا إلا اختلاق﴾ [ص:١-٧].[15]

١٤ صحيح البخاري ٤٨٧٦.
١٥ أخرجه الترمذي ٣٥٣٩.

ومحاولة الاستمالة هذه لا بد من أن تكون قد حدثت بعد ظهور المسلمين، ودخولهم الحرم المكي وإظهارهم الصلاة فيه (**بعد إسلام عمر تحديداً**)، إذ لا معنى في أن يساوم الملأ القرشي هذه المساومة، ويعرضوا التنازل، **لولا أنهم أحسوا بالتحدي المجاهر الذي مثله المسلمون في هذه المرحلة.**

رابعاً: ترتيب نزولها هو (٣٨) من أصل (٨٦) سورة نزلت في مكة، وهو أمر لا يمكن أن يحسب بالضبط، ولكن مع حساب **وجود مدة من فتور الوحي**، فإن توقيت نزول السورة كان يتوافق مع ما سبق من شواهد، بعد السنة الخامسة (إشارة سورة القمر) وإسلام عمر (السنة السادسة)، وقبل وفاة أبي طالب بالتأكيد (السنة العاشرة).

فلننتبه هنا إلى أن سورة (ص) هي أول سورة طويلة نسبياً (٨٨ آية) مقارنة بما سبقها من سور قصيرة (أطول سورة سبقتها كانت القمر التي سبقتها مباشرة، وكانت ٥٥ آية).. وستليها سورة الأعراف التي هي من «السبع الطوال» في تغير جذري.

كما لو **أن الخطاب القرآني، في هذه المرحلة بالذات، قد تغير أسلوبه، ليساهم في تشكيل المرحلة الجديدة..**

مرحلة تبيّن لنا أن «**المسلم الجديد**» - **قيد التشكيل والتكوين - قد تذوّق فيها طعم القوة والمنعة بعد طول استضعاف..**

مرحلة ظهور الدعوة، مرحلة «**ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر**» كما قال عبد الله بن مسعود في الحديث الصحيح[16]..

في هذه المرحلة، وبينما المسلمون يتذوقون «العزة والمنعة» لأول مرة، سيتعرفون أيضا على «الخليفة» لأول مرة..

لا عجب!

◆◆◆

﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ

[16] صحيح البخاري ٣٦٨٤

عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص:١٧-٢٥].

أولاً سنتنبه هنا إلى أن سيدنا داود قد وصف بأنه ﴿ذا الأيد﴾..

كم يداً كان يمتلك سيدنا داود يا ترى؟

مثلنا جميعاً، كان يمتلك على الأغلب يدين فقط..

لكنه على الخلاف من أغلبنا، كان يمتلك أيادي أخرى، لا تتصل بجسمه بالضبط، ولكنها تؤدي غرض الأيدي نفسه..

فاليد في النهاية هي وسيلة تنفيذية، شاءت الحكمة الإلهية أن تربطها بأجسامنا كي نتمكن من أداء وتنفيذ ما يجعل أهدافنا أسهل في التطبيق[١٧]..

كل المخترعات البشرية والمنجزات التي تحققت في تاريخ الإنسانية كانت بطريقة ما تضيف «يداً» أو «رجلاً»، إلى الجذع البشري.. كانت تضيف أداة تسهل الإنجاز والتحقيق.. وهكذا كان سيدنا داود «ذا الأيد».. كان يسخّر كل ما حوله من معارف وقوانين لتكون وسيلة لتحقيق الهدف، لم يكتف بيدين اثنتين، بل بكل ما حوله من أيدٍ بالمعنى المذكور.. لكي تنضم إلى تحقيق هدفه.. تميز داود بتحويله كل ما يمكن إلى «وسائل تنفيذية» مُسخَّرة لخدمة هدف معين..

فلنتنبه هنا إلى أن المعنى لا يتضمن فقط استخدام كل السنن والقوانين التي سخرت له ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ **بل يتضمن أيضاً وجود أيدي المجتمع من حوله، إنها اليد الجماعية التي تنصهر مع اليد القائدة لأنها تؤمن بأهدافها..**

وفق كل ما سبق، نعم، إنه «ذا الأيد»..

◆◆◆

لكن هذا ليس كل شيء..

وسيكون في منتهى الظلم أن نعتقد أن كل ما ميّز داود هو تلك الأيدي.. أي الوسائل

---

١٧ التفسير السائد للأيد هنا هو القوة، وليس جمع كلمة يد، وقد ربط ابن عاشور بين هذا المعنى وكلمة يد فقال (والأيد: القوة. وأصله جمع يد، ثم كثر إطلاقه حتى صار اسماً للقوة) وكذلك اشار الرازي إلى ذلك، والربط بين القوة والقدرة واليد واضح في رأيي.

المتعددة، إذ إن هذا ما تتصف به **مدنيات الاستعلاء والعلو أيضاً.. فهي تملك الوسائل أيضاً..**

لكن«أيادي» داود مختلفة..

لا ننسى أن **وسائله كانت محكومة بعبوديتها لله..**

فوَصْفُ داود بكونه «عبداً لله» سبق وَصْفَه بأنه «ذو الأيدي».. ولحق ذلك وَصْفُه بأنه أواب..

أي إن كل وسائل داود - أو أيديه المتعددة - كانت منسجمة مع **أهدافه ومنطلقاته، خاضعة لعبوديته لله..**

أي إن الهدف والوسيلة كانا يتكاملان، يتحدان.. يخضعان معاً لمنظومة هي منظومة العبودية لله..

وهذا ضوء مسلط على معنى مركزي من معاني الاستخلاف، **يميزه عن مدنيات تمتلك الوسائل المتقدمة، والأهداف غير المتقدمة..**

◆◆◆

الحكمة ليست ضالة المؤمن.. بل هي فهمه الذي لا يفارقه [١٨]

اتحاد الوسائل والأهداف هو جزء من الحكمة التي يشير إليها الخطاب القرآني باعتباره ما يعزز قوة هذا الاستخلاف ويشد ساعده..

﴿وشددنا ملكه وأتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾.. [ص:٢٠].

الحكمة ترتبط هنا بالخليفة، في السياق الذي جاء فيه للمرة الأولى لفظ الخليفة في القرآن، وهذا يجعل العلاقة بينهما حتمية، ويجعل **الحكمة جزءاً من الاستخلاف والخلافة..** (فلنتذكر الإشارة المهمة إلى العلم المرتبط بالحكمة في سورة الذاريات ومحور غلام البشارة في الفصل الأول)..

دون الحكمة **تسكر الأمم بقوتها ووسائلها (كذلك الأفراد)..** وتخرج من أهدافها إلى أهداف أخرى تتجاوز فيه حدودها وتطغى، ويكون ذلك نذيراً مبكراً على انهيار حتمي، فكل تجاوز إلى حدود الخارج، يؤدي حتماً إلى ضعف في الداخل..

بينما عامل الحكمة يكون عنصر **توازن** دوماً في علاقة الأمة بنفسها وبالأمم الأخرى..

---

١٨ الحديث المتداول عن "الحكمة ضالة المؤمن" حديث ضعيف، قال الألباني: (ضعيف جدا) انظر حديث رقم : ٤٣٠١ في ضعيف الجامع

الحكمة تشد الحكم، تشد أمر الأمة.. تطيل عمرها، وتؤجل تدهورها، **وتدهور الأمم وانهيارها أمر حتمي، لكن الحكمة ترياق يؤخر هذه الحتمية، يعيد الشباب لها، يزيح عنها مزالق تعجل انهيارها..**

وحري بنا هنا أن نتنبه إلى أن الحكمة في هذا السياق القرآني لا علاقة لها بما لصق بمفهوم الحكمة، وجعلها عرضة لأن تكون مجرد أقوال مأثورة، وأمثال سائرة متناثرة من هنا وهناك، قد تمثل خلاصة تجربة زعيم وثني أو رجل أعمال ناجح أو سياسي قاد بلده في ظروف صعبة، وهذه «حكمة» بالنسبة لمن يتبع هؤلاء أو يريد السير على خطاهم ومنهجهم.. أما **الحكمة في سياقها القرآني فهي لا تمت بصلة لكل ذلك الحشد الهائل من التجارب التي خاضتها الإنسانية في تيهها وضياعها..**

الحكمة في السياق القرآني مرتبطة في أكثر من نصف مواضعها في القرآن بالكتاب (١١ من ٢٠ موضعاً) كما في ﴿يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم﴾ [البقرة:١٢٩]..

في بقية المواضع ارتبطت ضمناً بالكتاب كما في ارتباطها بالوحي ﴿ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾ [الإسراء:١٧].

أو ارتباطها ببيت النبوة ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾ [الأحزاب:٣٣].

أو ارتباطها بنبي دون أن يذكر الكتاب معه، كما مع داود ﴿وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة﴾ [البقرة:٢٥١].

أو داود أيضاً كما في مثالنا الذي نتحدث عنه ﴿وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ [ص:٢٠].

أو أن تكون حديثاً على لسان نبي ﴿قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه﴾ [الزخرف:٤٣].

أو أن تكون وصفاً عاماً لآيات سابقة ﴿حكمة بالغة فما تغن النذر﴾ [القمر:٥٤].

وهذا كلُّه يزيد من ارتباط مفردة الحكمة (في استخدامها القرآني الذي يعنينا هنا) مع الكتاب (القرآن) والنبوة عامة..

أي إن لفظ الحكمة المستخدم في القرآن الكريم يعني تلك المرتبطة بالكتاب والنبوات..

◆◆◆

في موضعين تحديداً هناك ذِكْر للحكمة بمعزل عن ذلك كله..

﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ [البقرة:٢٦٩] والحديث عن لقمان الذي لم يثبت أنه كان نبياً ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر الله﴾ [لقمان:٣١]..

يمكن لأصحاب الأهواء أن يستخدموا الفهم التجزيئي للآيتين السابقتين لكي يروجوا لمفهوم مطاط للحكمة يمكن حشر كل المفاهيم فيه بدعوى نجاحها وباستخدام حديث ضعيف (الحكمة ضالة المؤمن).. أي أنهم يفترضون أنها حكمة (بمعزل عن استخدام الحكمة في السياق القرآني) ثم يروجون لها باستخدام حديث ضعيف، ناهيك عن بطلان **محتمل لمقياس النجاح الذي يستخدمونه لتقييم هذه التجربة أو سواها**، فتجربة ما قد تكون ناجحة بمقاييس أصحابها الذين كان هدفهم في الأساس باطلاً أو مخالفاً على الأقل لثوابت شرعية معينة، قد يكون هدفهم مثلاً الربح والثراء.. بغض النظر عن أي شيء آخر، حتى لو تسبب ذلك في ظلم أو ضرر، وقد يتمكنون من تحقيق هذا الهدف، **لكن الحكمة التي هي عصارة هذه التجربة «الناجحة» لا علاقة لها بالحكمة في سياقها القرآني أو في سياق الأحاديث النبوية الشريفة**.. فالحكمة في سياق القرآن وبالتالي في سياق السنة ترتبط بالكتاب والنبوة كما رأينا، والآيتان اللتان لم تحددا ذلك لا يمكن فهمها بمعزل عن الآيات الأخرى، فالفهم المتضافر المتكامل الذي يجمع كل الآيات مع بعضها هو الذي يمنحنا الصورة الأدق والأكثر شمولية لمعنى الآيات..

والفهم المتضافر لآيات الحكمة لن ينفي أن الحكمة يمكن أن تؤتى لغير الأنبياء (يؤتي الحكمة من يشاء) لكن هذه الحكمة ستبقى **مرتبطة بالكتاب والنبوة، إنها هنا الفهم الدقيق للكتاب ولخطوطه العامة والخاصة، وترتيب أولوياته، وتحديد ثوابته، واستقراء مستمر لكل ذلك، وقراءة الواقع من خلال هذا كلّه (وليس العكس، أي ليس قراءة الكتاب بعيون شكّلها الواقع)..**

ما الحكمة إذن؟

من خلال هذا كلّه، **لا تعود «الحكمة» مفردة مطاطة تضم كل ما يمكن إدراجه حقاً فيها، ولا تعود «إحجاماً عن الفعل» بحكمة مزيفة هي في حقيقتها شرعنة للتثبيط والقعود..**

عندما ترتبط الحكمة بالكتاب والنبوة، **فإنها ستكوّن الفهم الإيجابي لكل نص مقدس، سواء كان في الكتاب أو السنة.. مع الحكمة لا يعود الكتاب «حمّال أوجه» نتردد في أي وجه نأخذ به، بل نأخذ دوماً بالوجه الذي توجهنا له الحكمة.. بالوجه الفعّال الذي يتجه دوماً نحو النهوض والبناء والمحافظة على هذا البناء..**

بعض التجارب الحضارية والتي تسربت بعض ملامحها إلى الموروث الإسلامي قدمت الحكمة في وجه سلبي لا يمت للحكمة في مفهومها القرآني، فارتبطت الحكمة في أذهان الكثيرين بذلك المتأمل «الدرويش» الهائم على وجهه المنعزل عن الدنيا وما فيها، والذي تكون حكمته نتيجة **لمراقبة أكثر مما تكون نتيجة لفعل..**

يقدم الخطاب القرآني نموذجاً للحكمة مناقضاً لتلك الصورة السلبية العالقة في أذهاننا.. إنها صورة داود - الملك، الذي لم تكن حكمته نتيجة لانعزال عن الفعل والأداء، بل كانت نتيجة مباشرة لأداء ما يجب أداؤه.. كانت الحكمة جزءاً أساسياً من الفعل بالنسبة لداود «ذي الأيد».. وربما كانت هذه الحكمة هي السبب في أن فعاليته كانت إلى درجة أنه وصف بـ «ذي الأيد»..

لهذا كلّه لا غرابة إطلاقاً أن يرتبط ملك داود بالحكمة.. أي بعبارة أخرى أن يرتبط **«الاستخلاف» - كما سنرى بعد قليل - بالحكمة في هذا المفهوم..**

الحكمة لا تعني التعدد دوماً، بل هي "فصل الخطاب" أحياناً

أمر آخر لا يجب أن يغيب عن أذهاننا هنا، وهو أن الحكمة ارتبطت أيضاً في هذا السياق تحديداً - سياق **شددنا ملكه - بفصل الخطاب..**

وفصل الخطاب هو **القول الحاسم الفاصل، القول النهائي الذي لا تراجع عنه ولا تردد في الإفصاح عنه، إنه الحق الذي لا يحتمل المشاركة، الصواب الذي لا يحتمل التعدد، فإما هو وإما الباطل..**

التفسيرات السائدة لفصل الخطاب دارت حول محور «القضاء» أو «إصابة القضاء».. والمعنى قريب مما نقول، فحكم القضاء يفصل بين الحق والباطل، يضع حداً حاسماً ونهائياً بين أمرين، ولا يعود هناك قنوات مشتركة بينهما..

لكن الأمر لا يخص القضاء وحده، فالقضاء يختص بالقضايا التي تصله، لكن حياتنا أحياناً تكون مليئة بأمور تحتاج إلى الحسم، تحتاج إلى القول الفاصل، **تحتاج إلى كلام واضح يقول: «نعم.. نعم» أو «لا.. لا»**، حياتنا تكون مليئة أحياناً بمفترقات طرق تحتاج إلى إشارة واضحة حاسمة، فإما الحق وإما الباطل.. وليس من خيار ثالث يجمع بينهما..

هذا هو فصل الخطاب، ليس مجرد الحكم بين خصمين رفعا أمر خصومتهما إلى

القضاء، بل الحكم بين **رؤيتين للحياة، منهجين للحكم على الأشياء، واحد منهما هو الحق بعينه، هو عين الصواب الذي لا حق بعده، وآخر هو الباطل، هو الخطأ الذي لا يحتمل التسويغ..**

لا أقول هنا: إن كل الأمور في حياتنا تكون إما هنا أو هناك، فهناك أمور متشابهة حتماً، وهناك اختلاطات لا تُنكر، لكن هناك أيضاً ما لا يمكن إنكارُه من فصل الخطاب، بل من الحاجة الشديدة إلى فصل خطاب.. إلى خطاب فاصل.

قد يبدو هذا الأمر من البديهيات التي لا تحتاج إلى برهان، لكننا نعيش اليوم في عصر صار فيه الهجوم على هذه البديهيات بديهة لا يمكن مجادلتها، حيث يقال اليوم كلام مطاط وفضفاض عن «التعددية» في الآراء، وقبول الرأي الآخر، ويذم فيه الرأي الواحد و«الأحادية»، وتنسب لها كل مشاكل الأمة والمجتمع..

وهذا الكلام صحيح أحياناً، ولكن لا يصح فيه الإطلاق والتعميم، الصواب متعدد أحياناً، لكنه في أحيان أخرى لا يقبل التعدد.. **والإصرار على تعدد الصواب قد يصيب الصواب في مقتل،** قد يحول الصواب إلى مجرد وجهة نظر بين وجهات نظر متعددة، وهذا يجردها فوراً من صلاحيتها، يجردها من فاعليتها ومن قدرتها على تحديد الطريق الصواب..

فصل الخطاب، وارتباطه بالملك، بل بـ «شددنا ملكه» وبالخلافة من بعد، ينبهنا إلى أن **الأمم حينما تنهض** تضع أولوياتها على نحو مختلف عما إذا كانت في مرحلة لاحقة..

الأمم عندما تنهض يجب أن تملك فصل خطاب واضح وحاسم تستند عليه في نهوضها هذا دون صواب متعدد، أو مجال واسع لآراء متعددة في كل ما يخطر أو لا يخطر على بال..

لاحقاً وبعد أن تدخل في مرحلة أخرى، وبعد أن يكون فصل الخطاب قد تأسس ودخل في العقل الجمعي للأمة كما في مؤسساتها وتشريعاتها، **أي بعد أن يكون فصل الخطاب قد صار من بديهيات هذه الأمة، ومن مناطقها التي ليست بحاجة إلى مراجعة** يمكن **معها للصواب أن يتعدد، ما دام منتمياً إلى منظومة فصل الخطاب،** ويتحرك ضمن محدداتها الأساسية، أما أن أمة ما تستورد تعددات صواب أمة أخرى، دون أن تحدد فصل خطابها، وتدرجه في عقلها الجمعي وبدهياتها غير القابلة للنقاش، أمة كهذه لن تستطيع أن تنهض حقاً، **لأن تعدد الصواب سيجعلها لا تحدد هدفاً واضحاً محدداً، سيعرضها للتخبط، ولتبديل الطريق والاتجاه بين الحين والآخر، قبل أن تنجز ما كان يجب أن تنجزه أصلاً..**

يمكن أن يكون لفصل الخطاب تسميات متعددة ومختلفة، وقد يكون بعضها معاصراً، **قد يسمى دستوراً كتبته أمة ما في أثناء مرحلة مفصلية في نشوئها، وصارت مواده جزءاً من عقلها الجمعي بالتراكم، جزءاً من ثوابتها التي لا يمكن أن تُخترق أو تُمس**، سيكون هناك «صواب متعدد»، لكن تعدده سيكون ضمن المنظومة الرئيسية التي حددت «فصل الخطاب».. حددت ثوابت هذه الأمة ومرتكزاتها..

تاريخ الأمم يثبت ذلك، **لا تنطلق أمة من صواب متعدد، بل تحدد ثوابتها وتنطلق منها، تنهض وهي تتوكأ على هذه الثوابت**، لاحقاً، وعندما يستقيم أمرها، ويشتد عودها، يمكن للصواب أن يتعدد دون أن يتجاوز ما تم اعتمادُه كخطاب فاصل، كثوابت..

الدستور الأمريكي مثلاً حدد بمواده ثوابت صارت بمكانة النص الديني المقدس التي لا تناقش إلا من باب التأويل والتفسير، أي أن الصواب المتعدد في المنظومة الثقافية الأمريكية لا يمكن أن يخرج – بل ولا يُسمح له أصلاً أن يخرج - عن ثوابت الدستور ومواده، وإلا جُوبِهَ بالازدراء والرفض والتهميش.. الدستور هنا هو فصل خطاب بطريقة ما، لكنه فصل خطاب كُتب بتجربة إنسانية محكومة بظروفها ومؤثراتها المحددة بزمان التجربة ومكانها، وبالتالي فإن حسمها نسبي، وقد لا يصلح لزمان تجربة أخرى ومكانها، حتى لو عومل على أنه غير ذلك..

أما **فصل الخطاب الحقيقي، فهو ذلك الذي يُحدَّد مِنْ قِبل مَنْ هو خارج الزمان والمكان، الإله الحق المتعالي عن الزمان والمكان.. الذي خلق الخلق ويعرف ما يحتاجون، وما يصلح لهم عبر تبدلات الزمان والمكان..**

فصل الخطاب الحاسم حقاً والفاصل حقاً هو ذاك الذي يأتي من مصدر مطلق لا يتأثر بالزمان والمكان ومقاييسهما العابرة والنسبية.. **فصل الخطاب الذي يجب أن يدرج في العقل الجمعي هو ذاك الذي يستند على مرتكزات ثابتة وقادمة من مصدر مؤهل للتشريع**، بعدها يمكن للصواب أن يتعدد وأن يكون هذا التعدد – جنباً إلى جنب مع الحكمة وفصل الخطاب - مصدراً لقوة الأمة وثباتها..

◆◆◆

هذه هي مفردات السياق الذي تعرَّف من خلاله الفردُ المسلم – قيد التكوين- على «الخليفة» للمرة الأولى على الإطلاق..

عبودية..

أيدٍ كثيرة.. (وسائل، وأهداف)..

حكمة، وفصل خطاب..(قيم ومنطلقات، وحسم..).

لحظة العزة التي تذوَّقها المسلمون في الفترة المكية، قادهم القرآن من خلالها إلى أن يعرفوا ما يميز القوى المتجبرة عن الخليفة..

لم يكونوا قد تعرفوا على الخليفة بعد..

لكنهم تعرفوا بالتدريج على ما يجعله «الخليفة»..

◆◆◆

تأخذنا الآيات التالية إلى ما سيبدو للوهلة الأولى كما لو كان حدثاً من الأحداث اليومية التي يمكن أن تمر بأي حاكم أو صاحب سلطة قضائية..

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾ [ص:٢١-٢٤].

عن أسوار يجب أن تهدم

قد لا يستوقفنا هنا كثيراً ما توقف عنده المفسرون من كون الخصمين بشراً عاديين، أو ملائكة مرسلين، لكن يجب أن يستوقفنا في هذا السياق أمران اثنان..

الأول: تسور المحراب، فاضطرار خصمين إلى تسلُّق السور للوصول إلى داود في المحراب يدل على وجود **فصل مزدوج..**

أولاً: بين **السلطة والناس،** وهو الفصل الذي يدفع الناس إلى التسلل أو التسور لإيصال شكوى معينة إلى السلطة..

ثانيا: **وجود فصل بين العبادة والشعائر (المحراب) من جهة، وبين مشاكل الناس وهمومهم اليومية من جهة أخرى،** إنه فصل مماثل لما نسمع عنه وما يُرَوَّج له اليوم من فصل للدين عن الدولة (أو عن الحياة بالأحرى..) صحيح أن الفصل هنا

في هذا السياق كان مختلفاً من ناحية أن الدين ارتبط بالحكم، لكنه (عملياً) عزل للنفس والحكم عن الحياة، عن مشاكل الناس، عن همومهم وحياتهم اليومية، **بالضبط كما يراد للدين اليوم من عزل عن قيم الناس، ومشاكلها، وهمومها، وبالتالي عن تقديم الحلول لها للخروج من هذه المشاكل..**

في الحالتين، كلما كان هناك «**سور» يفصل الدين عن الحياة**، وكلما كان هناك «محراب» يُقصى فيه الدين، ويختزل إلى مجرد شعائر منفصلة، اضطر الناس إلى التسلق ليحملوا مشاكلهم إلى من هو قادر على حلها، **دل ذلك على وجود خلل كبير في العلاقة بين الأشياء..** ودل ذلك على أن الناس قد حُرموا من أهم ما يمكن أن يساعدهم على بناء واقع أفضل، عالم أفضل.. حرموا من دينهم.. دينهم بالمعنى الحقيقي..

لا خلافة بلا عدالة "اجتماعية"..

الأمر الثاني الذي تسلط الآيات الكريمة الضوء عليه هو أن الاستخلاف والخلافة **يجب أن يرتبطا بالعدالة الاجتماعية، وتقليص الهوة بين الفقراء والأغنياء في مجتمع الاستخلاف**، بالتأكيد لا يمكن جعل الجميع في مستوى اقتصادي واحد، ولكن يمكن حتماً، وبسابق إرادة وتصميم، جعل الفارق ليس كبيراً بينهم، عبر رفع مستوى الفقراء، وضمان حصولهم على حقوق أساسية تجعل من حياتهم كريمة، وتسدُّ متطلباتهم الأساسية من مسكن وملبس وغذاء وتعليم..

فلنتنبه هنا إلى أن الآيات الكريمة في هذا السياق تضع داود أمام نتيجة نهائية لوضع السور بين المحراب والناس، لم يكن هناك حد لطمع الأثرياء وجشعهم، حتى النعجة الوحيدة المتبقية التي يملكها الفرد الفقير يريد الغني ضمها إلى ممتلكاته، فلنتذكر هنا أن النعاج كانت آنذاك «أداة إنتاجية» و«رأس مال» وليست مجرد ملك شخصي لسلعة ما.. أي أن الخلاف هنا كان بين **رغبة الملأ الغني في احتكار أدوات الإنتاج، ورغبة الجمهور الصامد بالحفاظ على ما لديه..**

وجود السور الفاصل بين المحراب، أي بين الشعائر، بين الدين، وبين الناس وبين همومهم ومشاكلهم هو الذي يؤدي إلى هذه النتيجة، إلى هذه الدرجة التي يبدو معها الاحتكار والاستئثار حقاً مشروعاً تطالب به هذه الفئات، وتعدُّه حقَّها الطبيعي الذي لا يُناقش ولا يستحق المراجعة..

السور الفاصل أدى إلى تحييد القيم الدينية الثابتة عن الحياة اليومية، إلى جعلها محصورة في شعائر وعبادات **دون امتدادها الاجتماعي**، وهذا بدوره أدى إلى خلق

فراغ لا بد أن يستغله الملأ الثري ليملأها بقيم بديلة، قيم تخدمهم وتخدم مصالحهم على النحو الذي يزيد من أرباحهم..

قد يكون ذلك أحياناً مطالبة بما سيبدو أنه مجرد عنزة واحدة، وقد يبدو في أحيان أخرى أنه استئثار بثروات البلاد والعباد، قد يكون أحياناً اسمه «عزني في الخطاب»، وقد يسمى ببساطة «الخصخصة».. لكنها ببساطة أسماء مختلفة لمسمى واحد: حيث يحاول الملأ دوماً أن يستغلوا تحييد الثوابت والقيم الدينية لكسب المزيد من الأرباح..

إنهم ملأ كل زمان ومكان.. في مكة زمن البعثة.. وفي بيت المقدس زمن داود.. وفي جنة أمريكة المعاصرة.. حيث تملك نسبة ١٪ أكثر مما يملكه ٩٠٪ من الناس..

ويعود ذلك كلُّه إلى وجود ذلك السور الذي قد يتخذ أشكالاً متعددة، أهونها هو السور المادي، وليس أقل منه السور القانوني الذي يشرع الفصل بين الأمرين، بين القيم الثابتة والقوانين السارية المعمول بها..

السور في "الداخل"

أخطر من كل ذلك هو سور ثالث وهمي، لكن تأثيره أكبر بكثير من كل الأسوار المادية، إنه ذلك الحاجز الذي يستقر في نفس الإنسان ليكون أقوى من أي حاجز آخر خارج نفسه، ذلك الحاجز الذي نضعه أحياناً بلا وعي بين ما نؤمن به، وما نؤديه فعلاً، بين مثلنا العليا، وإيماننا، وقيمنا الدينية من جهة، وبين واقعنا السلوكي الفعلي من جهة أخرى.. إنه ذلك الحاجز الذي يجعل عبادتنا في وادٍ، وسلوكنا في وادٍ آخر..

وهذا الحاجز لا يعني قطعاً ضرورة وجود تطابق تام بين المثل والسلوك، فالخطأ والسهو طبيعتان بشريتان، والتطابق التام أمر لا يقدر عليه إلا الأنبياء.. لكن في الوقت ذاته ذلك الفرق **يجب ألا يتطوَّر ليكون هوة واسعة أولاً، ويجب ألا يكون جزءاً من عادة ثابتة ثانياً**، كما يجب ألا تتخذ الشعائر وسيلة للتعويض عن تلك الهوة، كما هو حاصل للأسف مع كثير من العبادات التي تُتخَذ للتكفير عما يحدث في الأوقات ما بين هذه العبادات..

هذا **الحاجز أو السور الوهمي في دواخلنا الذي يفصل الدين عن الحياة هو أخطر من أي قانون يحلل الحرام أو يحرم الحلال**، وأخطر من أي أيديولوجية تنظر للفصل بين الدين والسلطة.. **بل إن هذا السور هو الذي يمنح الأيديولوجية والقوانين القوة للتنفيذ**، نادرة هي **القوانين التي تجبرك على فعل المحرم، لكن**

كثيرة جداً هي الحالات التي نسقط فيها في حرام ما، نعرفه ونعيه وندرك حرمته، ونفعله على الرغم من ذلك تحت هذه الحجة أو تلك، أو بلا حجة سوى ذلك السور الوهمي الراسخ في أعماقنا والذي يفصل بين عباداتنا وشعائرنا وبين حياتنا..

ذلك السور الذي لا نحتاج إلى تسلقه فحسب، بل نحتاج إلى نسفه من جذوره..

نحتاج إلى أن نخر راكعين ونستغفر، كما فعل داود، لنجتث ذلك السور من أعماقنا..

حطِم سورك بنفسك

ونحن هنا لا نتَّهم داود - عليه السلام - بما نتَّهم به أنفسنا بلا تردد.. فللأنبياء منزلتهم الأكيدة، وقد سبق القول: إنهم الوحيدون الذين ردموا الهوة بين الفكر والسلوك..

لكننا نشدد على أهمية دور الأنبياء بوصفهم قدوات بشرية يمكن الاقتداء بها، **أي إن إلغاءهم للهوة لم يكن نتيجة لتدخل إلهي مباشر**، وإلا ما كان لهم فضل فيه، لقد بذلوا جهوداً إنسانية استثنائية في التغلب على تلك الهوة، وما كان لهم أن يصلوا إلى مكانتهم لولا تلك الجهود.. وهي جهود نحن أحق ببذلها، بل إننا مأمورون ببذلها حتى لو كنا نعرف مسبقاً أننا لن نبلغ المكانة التي بلغوها..

الأمر المهم هنا أن ذلك كلَّه (السور الثلاثي ونسفه) يمهد لآية في السياق ذاته، وهي الآية التي توضح ارتباط كل ما سبق بموضوعنا..

إنها الآية الأولى في الفترة المكية التي ذُكر فيها لفظ الخليفة..

أو أي اشتقاق لها..

والآن: آن لكم أن تتعرفوا على الخليفة

السياق القرآني الذي قدَّم الخليفة ارتبط بهذه العلامات المميزة، ثم توّجها بثلاثة مفاتيح أساسية لا يمكن فهم الاستخلاف، ولا فهم العلامات الخمسة السابقة دونها..

إنها مفاتيح: **الحكم، الحق، الابتعاد عن الأهواء..**

«يا داود إنا جعلناك **خليفة** في الأرض **فاحكم** بين الناس **بالحق** ولا تتبع **الهوى..**».

هذه المفاتيح الثلاثة، اثنان منها إيجابيان يؤديان إلى الفتح، والثالث سلبي يُستخدم

للإغلاق، جاء ذكرها نتيجة لكون داود خليفة..

أي إنها جزء من متطلبات الخلافة.. ومن استحقاقاتها..

◆◆◆

تعوَّدنا أن يكون للفظة «**الحكم**» صورة ذهنية مرتبطة بالسلطة وسدة الرئاسة، ولا يمكن إنكار أن هذا الجانب مهم وأساسي، ولكن لا يمكن أيضاً إنكار أن الاقتصار عليه يشوه المعنى والمفهوم العام للحكم، ويحجزه داخل فهم جزئي وقاصر..

الحكم في الحقيقة هو **اتخاذ الموقف الصائب والقرار المناسب تجاه كل مفترق طريق يمر به أي فرد في حياته**، كون هذا القرار والموقف صواباً أو مناسباً فهو أمر يعتمد على **المرجعية التي يعتمدها هذا الفرد** التي تختلف من فرد لآخر، قد تكون مرجعية أخلاقية عامة، أو دينية تستمد أخلاقياتها من نصوص دينية، وقد تكون أيضاً مرجعية فردية ذات طابع شخصي، المهم أنها بكل الأحوال ستنتج موقفاً من شيء، ستحدد طريقاً من اثنين أو من عدد أكبر بكثير من الطرق..

الحكم هو **تحكيم مرجعية معينة** إزاء مختلف التحديات والمواقف التي يواجهها كل فرد منا، إنه تطبيق الرؤية النظرية على محك الواقع وإفرازاته.. قد يكون هذا الفرد أمّاً تحكّم مرجعيتها الدينية في تربية أبنائها، وقد يكون مهندساً معمارياً يعبر عن هذه المرجعية في تصميم هندسي، أو موظفاً يحكّم نفس المرجعية في الإتقان والأمانة في أصغر التفاصيل، كما أنها قد تكون في شخص يتصدر سدة الرئاسة والسلطة وتؤثر قراراته وأحكامه في الملايين من أبناء شعبه..

الأمر هو أن الحكم ليس قاصراً على هذا الأخير..

كلُّنا حكام بطريقة ما.. كلُّنا نحكم على الأشياء سلباً أو إيجاباً ونتخذ موقفاً منها تابعاً لهذا الحكم، ويكون هذا الموقف حكماً صادراً منا، من كل ما نؤمن به حقاً، لا الشعارات التي نتحدث عنها..

لا يحتاج الأمر إلى أن يصدر في الجريدة الرسمية ليكون حكماً..

الحكم هو ما تقرر أن تفعله في كل ما يستوقفك في حياتك، كل ما يتطلب تحكيماً، رجوعاً، لمنظومة فكرية ما..

بالذات عندما تترك المنظومة الفكرية الرؤوس، وتحل في السلوك..

في الواقع العملي..

◆◆◆

وهكذا فإن القرآن الكريم عندما خاطب مشركي مكة ﴿ما لكم كيف تحكمون﴾[الصافات:١٥٤]، ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾[القلم:٦٨]. ﴿أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون﴾[النحل:٥٩] فإنه لم يكن يناقش أحكاماً صادرة عن سلطة رئاسية ما بقدر ما كان يناقش **حكماً اجتماعياً سلوكياً أملته البنية الثقافية لمجتمع ما**، وحولته إلى سلوك معين (كراهية الإناث مثلاً وتفضيل الذكور عليهن).. وهو حكم يقوم به الأفراد والمجتمع على حد سواء.. الفرد الجاهلي العادي كان يحكم هذا الحكم، وكذلك رئيس عشيرته الذي يمثل السلطة بطريقة أو بأخرى..

الحكم مرة أخرى ليس مقتصراً على قرار سياسي يصدر من جهة متنفذة تملك قوة أكثر من غيرها..

الحكم قبل ذلك مسألة شخصية وفردية أيضاً.. وهو بعد ذلك حكم اجتماعي تصدره مؤسسة ما..

كلُّنا نحكم بطريقة ما، بعضنا يحكم بالخضوع لحكم اجتماعي أعلى.. وبعضنا الآخر يحكم على نحو مختلف.. قد يكون حكمه ناتجا لمعطيات مجتمعه، بالاستلاب أو بالتمرد..

كلُّنا حاكم ومحكوم بطريقة ما..

ولكن الله هو الوحيد الحاكم الذي لا معقب لحكمه، الذي لا يحاكم حكمه..

وحده هو ﴿خير الحاكمين﴾..

الحكم بالحق، ليس بأي شيء آخر

لكن «الحكم» هنا، في سياق الاستخلاف لا يتحدث عن أي حكم، لا يتحدث عن الحكم باعتباره وجهة نظر أو رؤية نسبية للحياة.. بل هو يتحدث عن **«حكم» خاص جداً.. حكم يكون هو «الحكم الصواب»... «حكم» يكون جزءاً من فصل الخطاب..**

فلنتذكر هنا أن مفهوم «الحكم» هنا كان تابعاً للاستخلاف..

وداود الذي جعله الله عز وجل خليفة في الأرض قد أُمِر أيضاً، **كجزء من مستحقات خلافته أو مسوغاتها** أن يحكم بين الناس...
وأن يكون ذلك **بالحق..**

◆◆◆

«الحكم بالحق» هو الحكم الذي أمر الله عبده داود أن يحكم به، وهذا يقودنا إلى مفهوم الحق، **فالحق مفتاح آخر من ثلاثة مفاتيح لا يمكن فهم مفهوم الخلافة إلا بها جميعاً، وبهذا التتابع..**

والحق لغة نقيض الباطل، ولكن هذا التعريف بالتضاد لا يخدمنا كثيراً في فهم ماهية الحق؛ لأنه يستوجب أيضاً تعريف الباطل، وهذا يُدخلنا في ثنائيات متداخلة لا تعرف نفسها إلا بالآخر..

لكن الاستطراد في التعريف اللغوي[١٩] سيقدم لنا تفاصيل أخرى: «حَقَّ الأَمرُ يَحِقُّ ويَحُقُّ حَقّاً وحُقوقاً، صار **حَقّاً وثَبت**، قال الأزهري: معناه **وجَب يَجِب وجُوباً**، وحَقَّ عليه القولُ، وأحْقَقْتُه أنا، وفي التنزيل: ﴿أولئك الذين حَقَّ عليهم القولُ في أمم قد خلت...﴾ أي **ثبت**، قال الزَّجَّاج: هم الجنُّ والشياطين، وقوله تعالى: ﴿ولكن حقَّت كلمة العذاب على الكافرين﴾ أي **وجبت وثبتت**، وكذلك: ﴿لقد حقَّ القول على أكثرهم﴾ وحَقَّه يَحُقُّه حقّاً وأحَقَّه كلاهما أثبته، وصار عنده حقّاً لا يُشكُّ فيه، وأحقَّه صيره حقّاً، وحقَّه وحَقَّقه صدَّقه، وقال ابن دريد: صدَّق قائلَه، وحقَّق الرجلُ إذا قال: هذا الشيء هو الحقُّ، كقولك: صدَّق، ويقال: أحقَقْت الأَمر إحقاقاً إذا **أحكمته وصَحَّحته**»..

فالمعنى هنا لا يتجاوز «نقض الباطل»، بل يقدم لنا إضاءات على الكيفية التي يتم فيها نقض الباطل..

بما هو ثابت، بما هو واجب، بما هو محكم..

والآيات القرآنية ستقدم لنا هذه الإضاءات مكثفة ومركزة..

الحق ليس نسبياً كما يدّعون

لفظة الحق لفظة فضفاضة واسعة.. أو بالأحرى إنها قد تبدو كذلك فقط.. من السهل جداً على أي إنسان أن يفعل ما يريد، وأن يقدم لفعله هذا بكونه الحق.

لكن هذا هو نتاج مباشر لرؤية اجتزائية تأخذ مفردة «الحق» في بضع آيات، وتعزلها عن الآيات المعينة التي تحدد وبوضوح معنى هذا «الحق» وتنسخ إمكانية المعنى الفضفاض الذي قد يشوش على فهم الناس للحق ويجعلهم يتصورونه مجرد شعار آخر من الشعارات التي تستنزف آمال الناس، وتصب أرباحاً في جيوب مطلقيها..

◆◆◆

١٩ لسان العرب: مادة حق

مفردة الحق جاءت في (٢٢٧) موضعاً في القرآن الكريم، بعضها لا يقدم معنى محدداً بقدر ما يقدم تأكيداً لقول صحيح، أو تثبيتاً لوعد إلهي أكيد التحقيق..

﴿ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ [القصص: ١٣].

﴿بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون﴾ [المؤمنون: ٩٠].

﴿إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ [لقمان: ٣٣].

ولكن بين كل هذه المواضع هناك ما يشير إلى أن الاستخدام السابق كان مجرد توصيف لا يتحدد معناه إلا بآيات أخرى..

هناك أولاً آيات تشير إلى أن هذا الحق هو أساس من الأسس التي بُني عليها هذا الكون بأسره..

﴿ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى﴾ [الروم: ٨].

﴿خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار...﴾ [الزمر: ٥].

﴿ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [الدخان: ٣٩].

﴿وخلق الله السموات والأرض بالحق﴾ [الجاثية: ٢٢].

﴿ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ [الأحقاف: ٣].

﴿وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق﴾ [الأنعام: ٧٣].

﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ [الحجر: ٨٥].

﴿خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون﴾ [النحل: ٣].

وهذه الآيات لا تحتمل على الإطلاق أن يكون معناها مرتبطاً بمعنى «التأكيد» و«التحقق» الذي تعارفنا على فهمه عن لفظة الحق، أي أنها لا تشبه الآيات التي تتحدث عن تحقق وعد إلهي، أو عن مصداقية خبر، أو قصة أكَّدها الوحي.. بل هي تتحدث عن معنى أعمق للحق، خاصة أن سياق الآيات لا يجادل المشركين والكفار فيمن خلق الكون، بل عن كون **هذا الخلق قد خلق بالحق**، وبالإشارة إلى آيات كونية في هذا الخلق بالحق (تكوير الليل والنهار... إلخ)..

ما الذي يعنيه «**الخلق بالحق**» هنا؟

إنه يعني **النظام**، فنحن نعرف الآن أكثر من أي وقت مضى كم هو دقيق ومتوازن

هذا البناء الذي بُني عليه الكون، ولا يمكن لأي مجادل أن يجادل في هذا، يمكن لمن شاء أن يكفر أن يشكك في كون الله عز وجل هو خالق هذا النظام، لكن لا يمكن على الإطلاق القول: إن هذا النظام الذي بُني عليه الكون - بغض النظر عمن بناه - يفتقر إلى الدقة والتوازن، أو إلى النظام..

إذن الله خلق السموات والأرض بالحق كما أشارت الآيات الكريمة..

والحق هنا لا يمكن إلا أن يكون هذا النظام المتوازن المتداخل الذي يشكل حجر الأساس في الخليقة بأسرها..

وهذا المعنى ما دام يرتبط بالخليقة، فإنه يسبق كل المعاني اللاحقة التي تشكلت بالتدريج..

لكن السؤال هو: هل يمكن مطابقة هذا المعنى واستثماره في مجال بحثنا.. في سياق الحكم بالحق؟..

في الحقيقة إن الأمرين مرتبطان حتماً، فلا يمكن حقيقة **لحكم (بالحق) أن يكون حكماً صواباً إلا إذا كان معبراً عن نظام دقيق متوازن، عن قانون شامل، وهذا هو بالذات الضمانة الوحيدة التي تحمي هذا الحق من أن يتحول ليصير مجرد شعار فضفاض، مجرد كلمة أخرى يتاجر فيها المتاجرون لأغراض شتى..**

الكتاب هو دليلنا إلى "الحق"

هل نرى من الآيات ما يدعم هذه الرؤية الدقيقة **للحق**؟..

بالتأكيد.. ففي مواضع كثيرة من القرآن يتم إرشادنا وبوضوح إلى هذا المعنى للحق، بل يدلنا إلى موضع هذا الحق تحديداً..

﴿ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق﴾ [البقرة: ١٧٦].

﴿وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ [البقرة: ٢١٣].

﴿نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه﴾ [آل عمران: ٣].

﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ [النساء: ١٠٥].

﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق﴾ [الزمر: ٤١].

﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان﴾ [الشورى: ١٧].

فالحق هنا مرتبط كما هو **واضح بالكتاب، أي بمنظومة كتابية منزلة من الخالق سبحانه وتعالى**، وهذا هنا يفتح خطاً موازياً **بين سياق الآيات التي تتحدث عن (خلق الكون بالحق)، أي عن مجموعة السنن الإلهية التي بُني عليها الكون المادي، وبين تنظيم المجتمع الإنساني بالحق.. أي بقوانين ونظم اجتماعية يمكن لها أن تجعل المجتمع الإنساني منظماً كتنظيم الكون المادي (السموات والأرض)..**

وتكون **صادرة عن المصدر نفسه..**

الحق هنا في السياقين يمتلك مشتركاً أساسياً وأصيلاً، وهو كونه صادراً من المصدر الإلهي نفسه، من الخالق الذي خلق الكون وخلق الإنسان..

الفرق بين السياقين أن الكون **لا يملك إلا الانصياع والخضوع للنظام الذي بُني عليه**، أما الإنسان - وتلك من ميزاته - فالخضوع أو التمرد من خياراته..

يمكنه أن يخضع للحق، أن يكون جزءاً متناغماً مع منظومة الحق الكونية التي بُني عليها الكون..

أو أن يكون **متمرداً عليها، شارداً عنها، ملتحقاً بنظام جزئي خاص به، أنشأه هو، وهو يعتقد أنه أصلح من النظام الذي بُني عليه هذا الكون بأسره..**

وخيارا الخضوع والتمرد يرتبطان بالكتاب.. إما برفضه أو بقبوله، ولأننا نتحدث هنا عن الخضوع وليس عن التبجيل والتكريم فإن للرفض أشكالاً متعددة تتراوح بين الإنكار والجحود، وبين الوضع على الرف بهذه الحجة أو تلك..

أما القبول فله شكل واحد فقط..

◆◆◆

ويتكرّس ارتباط الحق بالكتاب في مواضع عديدة، ليس بالضرورة فيها لفظ الكتاب، بل ترتبط بما جاء به الرسل عموماً..

﴿لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ [الأعراف: ٤٣].

﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾ [الإسراء: ١٠٥].

﴿بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك﴾ [السجدة: ٣].

﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً﴾ [فاطر: ٢٤].

﴿لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون﴾ [الزخرف: ٧٨].

أي إن هذه الآيات تشير إلى أن جوهر ما حمله الرسل إلى البشرية كان هذا الحق، وهو الحق الذي **لن يكون له فائدة إذا كان فضفاضاً واسعاً يتحمل كل ما يمكن أن يقصد ويقال، كما يحاول البعض أن يوهمنا اليوم..**

إنه الحق الذي يرتبط بمنظومة قانونية سننية، هي كل ما بُنيت عليه الخليقة في جانبها المادي، وهي «الكتاب» في امتداد هذه المنظومة في الجانب الإنساني الاجتماعي..

الحق والكتاب.. خطان متوازيان.. بل معنيان مترادفان، في هذا السياق على الأقل..

فلنتذكر هنا أن السياق الذي فتح لنا كل هذا هو سياق الاستخلاف في الأرض واستحقاقاته، سياق ﴿إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق﴾..

وهذا كله يقودنا إلى استنتاج «حتمي وقاطع»، لا يمكننا أن نهرب منه مهما حاول بعضنا، هو أن **الحكم بالحق هو الحكم بالكتاب..**

لكن فلنتذكر أيضاً هنا أن لفظ «الحكم» أوسع بكثير مما لصق في أذهاننا، وأنه يمثل **الرؤية الكاملة للحياة**، يمثل التحكيم في كل القيم والمبادئ والمنطلقات والأهداف والحوافز والكوابح التي تتحكم وتؤثر في الحياة.. الحكم بالمعنى الشامل العام الذي لا يصل إلى المعنى الخاص الذي تعودنا عليه إلا بعدما يكون قد تغلغل ورسخ وصار محض تحصيل حاصل..

قتل "بحق" = حياة "بحق"

وليس أدل على كون هذا الحق هو **القانون** الذي **ينظم** المجتمع الإنساني، **ويضع** له قواعده وحدوده الثابتة من تلك الآيات التي تتحدث عن «القتل بغير الحق»..

﴿ولا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

﴿لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ آثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨].

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا

يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

فالقتل بغير حق الذي نهت عنه الآيات الكريمة يعني بوضوح أن هناك «قتلاً» آخر يكون بحق.. (ويكون أيضاً محكوماً بضوابط عديدة، أهمها أنه لا يوكل للأفراد، وليس هذا هو مجال بحث هذه الضوابط).. ومجرد أن يكون هناك **قتل بحق**، فهذا يعني وجود منظومة قانونية ثابتة هي «الحق»، والحكم بهذا الحق هو جزء من مستحقات الاستخلاف في الأرض..

ولكن إذا كان الأفراد لا يمكنهم «تنفيذ» الحق عندما يتعلق الأمر بأمثلة من النوع السابق، فما أهمية الإيمان المجرد بذلك؟ **بل ألا يكون ذلك مصدراً خطراً لزعزعة استقرار المجتمع عبر تطوع أفراد لتنفيذ حكم القتل - الحق، عندما تحجم السلطات عن ذلك لسبب أو لآخر، أو عندما تكون جزءاً من ذلك؟..**

الحقيقة أن هذا الخطر قائم، ولكن لا يمكن النظر إلى هذه الجزئية بعزلها عن شمولية رؤية ومعنى «الحكم» كما أوردناه.. فمن يؤمن **بأن الحكم هو رؤية شاملة للحياة عليه أن يؤمن أيضاً أن إقصار هذه الرؤية أو تنفيذها بشكل فردي لن يساهم في تحويلها إلى «رؤية اجتماعية عامة»، كما أن** ذات رؤيته للحياة ستتضمن إيمانه بالجماعة، أي بالمجتمع، وبدور المجتمع في التغيير، لا بدور الأفراد الذين يجب أن يقتصر دورهم عند اختلال الرؤى على عملية قيادة الوعي من خلال توزيع الأدوار في «المشروع» كما مر في قراءة سورة الذاريات..

لكن الأمر لا يتوقف هنا، ويجب ألا نتصور أن حكماً كهذا هو حكم مع وقف التنفيذ بانتظار وجود سلطة تنفذه، ذلك أن الإيمان بأن عقوبة جريمة معينة هي القتل - الحق - تسهم في تكوين كابح لهذه الجريمة داخل النفس الإنسانية، تسهم في استئصال جذور هذه الجريمة عبر زرع مضادات لها، مضادات تشكل الوعي الفردي والجماعي على أن من يقوم بجريمة معينة ما سيستحق أقصى عقوبة ممكنة لها.. القتل الحق..

مخاوف اختطاف الكتاب

لكن ما الذي يضمن ألا يُختطَف «الكتاب» وقيمه ونصوصه على يد جماعة تحتكر فهماً معيناً مناسباً لأهوائها التي تشكلت وفق ظروف عابرة أو شاذة؟ ما الذي يمنع أن يتسيد رأي هؤلاء، ويصل إلى السلطة، ويؤدي إلى ما يؤدي إليه؟..

مبدئياً ونظرياً، هذا ممكن، وهو ممكن ليس مع «كتاب الإسلام» فحسب **الذي**

هو «الحق» حسب إيماننا، وليس أيضاً مع كل الكتب السماوية التي قد تتعرض لخطف مماثل يأخذها من جوهر قيمها تحت شعارات قيمها تحديداً..

لكن هذا يحدث مع كل المناهج والدساتير والنظريات الإنسانية أيضاً، ولا أدري لِمَ يُستهوَل ذلك عندما يحدث مع الكتب السماوية والقيم الدينية فقط؟!..

يمكن جداً لدعاة الحرية والتحرر أن يستخدموا شعارات الحرية وحمايتها لكي يقوموا بكل ما هو ضد هذه الحرية (أمريكا في احتلالها العراق مثال صارخ، سجن أبو غريب...).. كذلك يمكن لدعاة الاشتراكية والعدالة الاجتماعية أن ينشئوا طبقات جديدة من الأثرياء الجدد في ذات الوقت الذي يتشدقون فيه بقيم العدالة والمساواة ومحاربة الاحتكار..

ببساطة **لا ضمانة هناك عند التنفيذ**، ولا يخص الأمر كتابا سماويا أو دستورا وضعيا، بل كل نص مكتوب على الإطلاق، وما يُتهَم به القرآن على سبيل المثال من كون نصوصه عامة، يصح أكثر بالنسبة للدساتير الوضعية، الدستور الأمريكي اليوم مثلاً، نصوصه أكثر عمومية من أي كتاب سماوي، ونحن هنا لا نقصد المقارنة بين دستور وضعي كتبه بشر في ظروف تاريخية محددة الملامح والتوجهات، وبين الكتاب السماوي الخاتم الذي يصلح لكل زمان ومكان، لكن الحديث المتكرر من قِبَل البعض عن عمومية النص القرآني وما يتداول عن كونه «حمّال أوجه» هو مجرد مبالغة يقصد بها تخويفنا من الاعتماد على الكتاب العملاق الذي يمكن له أن يكون أساساً وموجهاً في نهوض أي أمة حتى لو كانت في الدرك الأسفل بين الأمم..

بعبارة أخرى، **كل نص، إلهياً مطلقاً كان أو وضعياً، وبلا تشبيه مرة أخرى، يحتاج إلى قراءة وتفسير محددين ليضع هذا النص موضع التطبيق**، وقد يحدث أن تكون هذه القراءة خاضعة لمصالح طبقة معينة توظف هذا النص وتجيّره لصالحها (كما يحدث دوماً مع المحامين وألاعيبهم القانونية في قراءة الدستور الأمريكي، فنص الحرية الفردية الأساسي في الدستور يمكن أن يفسر لصالح حرية الشركات التي ستعدّ أفراداً لها الحق في عمل ما تشاء[٢٠]، ونص حرية التعبير يمكن أن يوظف لصالح «تصوير الأفلام الإباحية»... إلخ).

هل نقول هنا: إن الأمر سواء؟..

بالطبع لا.. فالفرق الأساسي بين كتاب إلهي خاتم ودستور وضعي هو أن النصوص في الأول **مهما كانت عامة إلا أنها ستتضمن كل ما يحتاجه البشر في كل زمان ومكان..**

٢٠ الويكيبيديا نقاش الشركات والشخصنة http://www.en.wikipedia.org/wiki/Corporate_personhood_debate

بينما النصوص في الثاني **ستظل محكومة برؤى بشرية تشكلت وفق معطيات تاريخية عابرة وبالتالي ستركز على تحديات واجهت مجتمعا أو أمة ما في تلك الفترة تحديداً**، دون أن يقلل ذلك من جهود بعض كتاب هذه الدساتير وعبقريتهم..

الفرق الأساسي الآخر الذي أراه مهماً هنا عند اعتماد الكتاب وسيلة للحكم هو **أن الكتاب نفسه قد حذر مراراً من هذا الأمر، بل إن السياق نفسه الذي يتحدث عن استحقاقات استخلاف داود عليه السلام، يحذر ويتوعد داود نفسه من أن يتبع الأهواء في تفسير الحق..**

﴿فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾ [ص: ٢٦].

فلننتبه هنا إلى أن الخطاب لا يتحدث عن مؤمن عادي يمكن أن تخالط الأهواء رؤيته وحكمه على الأشياء، وتلبسها لبوس قراءة النص الديني، بل الخطاب موجه إلى نبي من أنبياء الله، وبالتالي **فإن الجميع مندرج في الخطاب والتحذير من باب أولى..**

اختطاف الكتاب من أهل الكتاب

ليس هذا فحسب، بل إن تجربة أهل الكتاب بأسرها، في شقيها اليهودي والنصراني، يمكن أن تعد بمثابة **تحذير واضح لأمة الكتاب الخاتم من تكرار الأخطاء والمزالق نفسها التي سبقتهم** بها الأمم السابقة، ولا أتحدث هنا عن **التحريف بمعنى اختلاق نص ونسبته إلى القرآن، فهذا مما حُفظ الكتاب الخاتم منه حتماً**، ولكن أشير إلى «**تحريف الكلم عن مواضعه**» **أي إلى تقديم قراءة وتفسير مغايرين لروح النص ومقصده، أو معارضين لنصوص أخرى ومناقضين لها، والإصرار على أن هذا هو الفهم الصواب**، وقد حدث هذا مراراً وتكراراً في كل الأمم الكتابية، بما فيها أمتنا، ويمكن أن يحدث باستمرار إذا لم ننتبه إلى هذا التحذير وإلى أهميته في **تكوين رؤية ناقدة باستمرار تصوب المسار وتصححه، وتمنع الهوى من أن يتحكم بطريقة قراءة النص**، وبالتالي تمنعه من أن يصير حكماً بدلاً من الحق الذي أنزله عز وجل (الكتاب)..

كيف يمكن تكوين الرؤية النقدية "الحامية"؟

أزعم أن الإشارة لها في هذا السياق الذي يتحدث مع نبي بمكانة داود يمنحها الحصانة والمنعة، ويجعلها جزءاً من الرؤية ككل، وليست هامشاً إضافياً للاستدراك، بعبارة أخرى: التحذير من اتباع الهوى، وخلطه بالحكم **ليس مجرد ملاحظة صغيرة تقال على الهامش، بل هي عنصر أساسي من العناصر** التي تتكون من خلالها تركيبة

الاستخلاف في الأرض، تحديداً عندما تطرح بالصبغة الفردية لأول مرة: **الحكم، الحق، وعدم اتباع الهوى..**

لا يمكن حذف أي من هذه العناصر أو تصغيرها أو الاقتصار على واحدة منها فحسب.. الحكم وحده لا يعني شيئاً، إنه مجرد رؤية، يمكن أن تكون رؤية للباطل، ولكل الشر في هذا العالم، والحق لا يمكن أن يقدَّم بمعزل عن تكوينه لرؤية تساهم في تشكيل هذا العالم، أي لا بد له من أن يكون أساساً لرؤية نظرية قابلة للتطبيق..

ولكن التحام الاثنين معاً **(الحكم والحق)** يعرضهما معاً لخطر الاختطاف على يد أهواء ومصالح طبقة معينة تفرض قراءة معينة للحق- أي للكتاب - تكون موافقة لمصالحها..

وهذا يجعل الأمر كله بحاجة إلى ضمانة داخلية تمنع ذلك..

ضمانة تكون جزءاً من الرؤية نفسها.. داخلة في البنية الأساسية، لا مجرد توصية على الهامش..

الضامن هو "القراءة" بعين مختلفة

ما هذه الضمانة؟ وهل يمكن أن يكون هناك ضمانة حقاً في ظل تجارب مؤسفة سواء كانت هذه التجارب «كتابية» أو تابعة للتاريخ الإسلامي (لا يمكن أبداً إنكارها وإنكار وجودها وإنكار أن البعض قد «سخَّر» قراءة معينة للنصوص الدينية لغرض تسويغها)؟

الضمانة هنا، على أهميتها، ليست حلاً سحرياً، أو كلمة سر يمكن النطق بها لتحل المشكلة، **بل هي جزء من المنهج الذي ينبغي أن يكون من بديهيات التفكير، من مسلمات العقل الجمعي.. جزء من الآليات التي يفكر الناس من خلالها وبها..**

إنها **الرؤية الشمولية**، طريقة التعامل مع «الكتاب» التي لا تهمل نصاً معيناً، وتركز على نص معين، طريقة التعامل التي ترتب العلاقة بين النصوص كلِّها على نحو لا «يكتم» نصاً معيناً لغاية معينة..

الرؤية التجزيئية أو التبعيضية، وهي الرؤية التي تنتقي نصاً معيناً من الكتاب، وتغفل نصوصاً أخرى، أو تفسرها بطريقة تجعلها تابعة للنص الأول، هي المعين الأساسي لكل أصحاب الأهواء، وهي منهجهم الذي يتوصلون من خلاله إلى شرعنة أهوائهم وإلباسها لبوس الحق، والحكم بها على هذا الأساس..

سواء كان هذا الهوى واعياً، أي أن أصحابه يدركون أنهم يزيفون الحق ولا يبالون بذلك، أو أن الأمر اختلط عندهم على نحو أكثر تعقيداً، وصاروا يؤمنون فعلاً أنه الحق، في الحالتين، وبغض النظر عن طبيعة الهوى، فإن الآلية ستكون متشابهة جداً، وستعتمد على **الرؤية التبعيضية** التي تنتقي نصاً معيناً يوافق هذا الهوى، وتتجاوز نصوصاً أخرى تنظم النص الأول، وتضعه في موضع استخدامه الأساسي..

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٨٥].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٤].

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١].

هذه الآيات موجهة في عمومها إلى أهل الكتاب كما هو واضح، ولكن هذا لا يعني أن تجربة بعض المسلمين في التعامل مع القرآن الكريم تختلف كثيراً في خطوطها العامة عن تجربة أهل الكتاب، **فهناك تبعيض واضح عند البعض**، أي إيمان بجزء من الكتاب ونصوصه، وإيقاف لجزء آخر من الكتاب، هناك أيضاً تركيز على نص معين وإهمال - يصل لحد التجاهل - لنصوص أخرى، وهو أمر موازٍ تماماً للكتمان الذي تحدثت عنه الآيات الكريمة..

صحيح أن الكتمان في التجربة الكتابية كان **يضم كتماناً حرفياً** هو بمثابة الإخفاء لنص ديني في عصور كان الأحبار ورجال الدين فيها يحتكرون الوصول إلى الكتب الدينية، وهو أمر لم يحدث مع الإسلام وكتابه الخاتم لأسباب لا مجال للخوض فيها، ويمكن أن تختصر بالقول: إنها جزء من السنن التي تكفَّل رب العزة من خلالها بحفظ كتابه الخاتم..

لكن هذا الحفظ يخص **نص الكتاب** فحسب، أي أن النص تحصَّن من أي تغيير تعرضت له الكتب السابقة لهذا السبب أو ذاك.. لكن طريقة التعامل البشرية مع هذا النص غير مشمولة بقانون الحفظ الإلهي؛ **لأنها جزء من المسؤولية البشرية في التعامل مع الكتاب،** وهكذا فهناك أشكال أخرى من التعامل التي تشبه في خطوطها العامة تعامل أهل الكتاب، لكن دون أن تتمكن من إحداث تغييرات في

النص المقدس، فبدلاً من «التحريف» الذي يشمل تزوير نص والادعاء أنه من عند الله، يقتصر الأمر هنا على «تحريف الكلم عن مواضعه»، أي تقديم تفسير معين للنص القرآني يخرجه عن المقصد من نزوله..

وبدلاً من الكتمان الذي تمثل سابقاً في كتمان مباشر وإخفاء لنصوص معينة، صار هناك إهمال وتجاوز لنصوص معينة دون التجرؤ على حذفها بطبيعة الحال، ولكن تكرار نصوص معينة يؤدي هذا الدور في لاوعي المتلقي..

وبدلاً من كفر صريح ببعض النصوص (أي إنكار كون هذا نص معين من الله عز وجل) هناك وضع للآيات في **موضع التعطيل عن الفاعلية، وسحب أي دور لها في المجتمع، هناك فهم مبالغ به للناسخ والمنسوخ، وهناك ما هو أسوأ منه، وهو وضع الآيات في إطار «التاريخية» الذي يجعلها خارج إطار التفاعل مع هموم الإنسان المعاصر ومشاكله.. وهو أمر لا يخرج عن الكفر ببعض آيات الكتاب إلا من ناحية التسمية فقط..**

هذا الفهم التبعيضي- التجزيئي لا يمكن له إلا أن يكون ممرّاً لأصحاب الأهواء، وبالتالي فهو لا ينسجم مع الخلافة الحقة بمعناها الصحيح الذي حدده السياق لداود عليه السلام، ولكل قارئ متفاعل مع القرآن لاحقاً..

مع القراءة التبعيضية يمكن لحاكم ما أن يستغل **آية «طاعة ولي الأمر»، ويعزلها عن سياقها الذي يُلزمه بطاعة الله ورسوله أولاً، ويترك أيضاً آيات العدل والإحسان وكل موارد العدالة الاجتماعية..**

مع القراءة التبعيضية يمكن **لدعاة القتل** أن **يستغلوا آيات معينة مثل ﴿واقتلوهم﴾ ليكرسوا رؤيتهم التي تستسهل القتل وهدر الدماء**، تاركين آيات أخرى **تقنن استخدام القوة، وتضعها ضمن شروط وضوابط محددة..**

ومع القراءة التبعيضية يمكن أيضاً لدعاة اللاعنف أن يستغلوا آيات معينة تحض على **الجنوح إلى السلم، ويتجاوزون بذلك آيات أخرى تحض على الجهاد وقت الحاجة لذلك..**

ونشدد هنا على أن هذا كلَّه لا يعني اتهام أي طرف من هؤلاء في إخلاصه، وفي كونه مدركاً لحقيقة أن هواه قد تمكن من فكره، فكثير من هؤلاء مخلص في نيته وفي رغبته في خدمة دين الله تعالى، والله أعلم، **وإنما العلة الأساسية هي في فهم تبعيضي، وفي رؤية تبعيضية لا يمكن إنكار وجودها بل وانتشارها على كافة الأصعدة،** وهذه الآلية هي التي تمرر هذه الأهواء، وتلبسها لبوس الحكم والحق..

وهي الآلية التي يجب حذفها واستئصالها من العقل الجمعي لأمة القرآن، واستبدالها بآلية تفكير واستنباط جمعية تأخذ القرآن جملةً وتفصيلاً، وتجعل من هذه الرؤية المتوازنة أساساً في بنائها وبنيتها..

دون هذا الاستئصال سيبقى اختطاف الحق، الكتاب أمراً ممكناً..

عندها ستكون الخلافة مجرد شعار آخر مفرغ من المعاني ومن القيم الحقيقية..

انظر إلى صورتك في المستقبل

لكن ما تأثير هذه الآيات في الوعي المسلم قيد التشكيل؟.. أي وعي الجيل الأول الذي كان يتشكل تباعاً مع نزول الآيات القرآنية الكريمة.. ووعي أي جيل آخر يريد أن يتشكل عبر القرآن؟

الحقيقة أن تأثير سياق آيات سورة (ص) كان ولا بد حاسماً، فللمرة الأولى في الفترة المكية يتواجه الفرد المسلم مع مفهوم «الخليفة في الأرض»، السياق تحدث عن «خليفة فرد»، وعن شروط لهذا الاستخلاف، عن عدالة اجتماعية، وعن إلغاء للحواجز الوهمية التي تَفصِل الدين عن الحياة..

وكان هذا كلُّه شيئاً جديداً ولا بد، لم يكن هناك أي ذكر للخلافة أو الاستخلاف قبل هذا السياق الصادم، كل السور المكية التي سبقت سورة (ص) تحدثت على نحوٍ عامٍّ عن الإيمان بالله عز وجل والآخرة..

لكن سورة (ص) جعلت هناك **خليفة على الأرض.. خليفة يحقق قيم العدالة والحق، ويحكم بالكتاب..**

وكان المسلمون في مكة آنذاك لا يزالون في مرحلة الاستضعاف، صحيح أن وضعهم بإسلام عمر وحمزة تحسَّن عما قبل، لكن لعل بعضهم لم يكن يأمل سوى أن يأمن على عبادته وتوحيده لله دون أن يناله الأذى من مشركي قريش.. (وكان لا يزال أمامهم مرحلة أخرى لاحقة سيتعرضون فيها للحصار القاسي لسنين)..

لكن جاءت سورة (ص) لترفع سقف طموحاتهم وتوقعاتهم، صار **هناك رؤية جديدة لشيء لم يكن بالحسبان، ذلك الشيء هو أن يكون الإنسان خليفة لله على الأرض، لأن يطبق أحكامه ويصنع مجتمعاً مبنياً كما يريده الخالق أن يكون.. لا بد أنه بدا كالحلم بعيد المنال، بل لعله كان فوق مستوى الحلم والتخيل..**

ولعل التساؤلات تفجَّرت عندها في ذهن هذا المسلم قيد التشكيل..

كيف؟ كيف يمكن أن نصل إلى هذه المرحلة؟ كيف يمكن أن نعيش في ظل الاستخلاف على الأرض وننعم بكل ما جاء في ذلك السياق؟..

والسؤال الأهم: كيف يمكن أن نساهم في ذلك؟

خاطب القرآن ذلك الجيل (وكل جيل من بعده)، فقال دون أن يقول: **صورة داود الخليفة في الأرض يمكن أن تكون صورتك في مستقبل تصنعه بنفسك..**

هذه الصورة يمكن أن تكون مرآة ترتسم فيها ملامحك بالتدريج..

(لا يمكن تخيل أن البعض قد استبدت به الحماسة، وحاول أن يحرق المراحل باتجاه ذلك عبر حماقة ما.. ليس لأن ذلك الجيل كان قد تشرف بوجوده عليه أفضل الصلاة والسلام فحسب، بل إن «الفكر الانقلابي» كان غريباً عنهم وعن المبادئ القرآنية التي كانوا يتشربون بها بالتدريج..

على كل حال، كان سؤال الـ«كيف» وارداً جداً.. بل كان منطقياً تماماً، ولعل السياق القرآني تعمد صدمة الوعي المسلم من أجل أسئلة كهذه، أسئلة تدرك الجواب وتلتقطه عندما يأتي لاحقاً في سياقات قرآنية..).

◆◆◆

لا يمكنني هنا أن أهرب من محاولة تصور ذلك المسلم الجديد، وهو يتفاعل مع تلك الآيات..

لا يمكنني أن أهرب من تصور تأثيرها فيه، تفاعله معها.. لا يمكنني أن أهرب من متابعة نتائج تفاعله معها.. كيف ساهمت هذه الآيات في زيادة تسخير كل ما في داخله من طاقة للعمل..

أتحدث عن عمر بن الخطاب، الذي نزلت السورة في وقت مقارب لإسلامه..

لا أقول قط: إن الآيات نزلت بسببه.. على العكس.. **أقول: إن الآيات صارت سبباً فيما صار له عمر لاحقاً..**

أقول: إنها ربما تكون قد فتحت آفاقه على كل الإمكانات.. ربما جندت كل «مواهبه» ليكون الحد الأقصى من «الخليفة»..

لا يمكنني أن أهرب من تخيل وقع الآيات عليه، ذلك الرجل الذي كان يبدو للوهلة الأولى «ليس سوى عضلات» وشدة وبأس.. الذي ينتمي لبطن فقير من بطون

قريش، والذي صار عبر القرآن ذلك العملاق الذي ساهم في تغيير العالم..

تراه رأى لمحة من نفسه في تلك الآيات.. وقال في نفسه: **لِمَ لا؟..**

لا يمكنني أن أهرب من ذلك.. كما لا يمكنني أن أهرب من أن «الجيل الأول» قد رأى الشيء نفسه بدرجات متفاوتة..

ولا يمكنني أن أهرب من منظر شاب لا أعرفه ولا أعرف اسمه، يقرأ هذه الكلمات، ويقول في نفسه: لِمَ لا؟

والأهم من ذلك كله..

جيل يقول: نعم.. بالتأكيد..

التراكم والجماعة

أمران في غاية الأهمية لا بد أن الجيل الأول قد أدركهما، ولا بد لكل جيل ينوي أن يتتبع خطى الجيل الأول أن يدركهما أيضاً..

الأمر الأول: أن «داود» - الذي قُدِّم في السياق بصفته «خليفة في الأرض» - لم يأتِ من فراغ، ولم يكن منفصلاً عن سلسلة من الأنبياء والرسل ومن التجارب النبوية التي سبقته ومهّدت له، وكانت في المحصلة جزءاً أساسياً من تكوينه ومن بنيته..

ولهذا فإن فهم كيفية وصول داود لتلك المرحلة يستلزم أيضاً فهم سلسلة التجارب التي سبقته كلها، وهنا نفهم أهمية أن السياق قَدَّم داود تحديداً، وليس نوح أو موسى على سبيل المثال (على أهميتهما التي قد تفوق مكانة داود) **ولكن كون تجربتيهما مبكرةً بالقياس لداود، فإن حصيلة التراكم في العقل الجمعي في عهد داود كانت أكثر من الحصيلة في عهد موسى، على الرغم من أن إسهام موسى كان حاسماً ومؤثراً في حصيلة داود..**

الأمر الثاني: هو أن الجواب على تساؤلات المسلم قيد التكوين جاء منبثاً عبر سياقات قرآنية عديدة لاحقاً كما سنرى، وهي السياقات التي ستترك تماما صيغة «المفرد»، وتلزم صيغة الجمع..

لن نرى مرة أخرى في الفترة المكية بأسرها لفظة خليفة.. بل سنرى مشتقات عديدة للفظ بصيغة الجماعة.. مثل خلفاء، خلائف، يستخلفكم..

والمعنى واضح: **لا مرور إلى «الخلافة في الأرض»، إلى ذلك المجتمع الذي داعب**

خيال المؤمنين وعقولهم في سياق سورة (ص)، من دون المرور بالجماعة، أي بإحداث تغيير أساسي في مفاهيم الجماعة وفي تحملها لمسؤوليتها ولدورها.

لا مجال هنا للبدء من قمة الهرم، يمكننا أن **نفكر في قمة الهرم**، أن يكون ذلك نموذجاً نحتذيه، وهدفاً أعلى نرسمه، وتكون ثوابته أساساً لما يجب أن نصل إليه، **لكن لا وصول لذلك من دون المرور في القاعدة أولاً، بل ببناء هذه القاعدة حجراً حجراً** – أو فرداً فرداً -، بإسقاط كل قيم قمة الهرم (المتمثلة فيما أسلفنا شَرْحه في سياق سورة ص) لتكون جزءاً من تفكير ورؤية كل فرد في قاعدة هذا الهرم.. لتكون جزءاً من «عقل جمعي» يتحكم في الجميع، سواء وعى هذا الجميع ذلك أم لم يعيه..

وبالتدريج، طبقة بعد أخرى، سيتشكل الهرم وفقاً لتفاعلات العقل الجمعي، مع معطيات الواقع ومواجهاته ومشاكله.. وسيصل التفاعل حتماً إلى قمة الهرم..

سيستغرق الأمر ولا بد وقتاً طويلاً، ولا يمكن أن نتوقع الوصول بسهولة إلى نتيجة كتلك التي وضعها سياق سورة «ص» على قمة الهرم.. دون المرور بكل السياقات الأخرى التي سنتعرف عليها لاحقا.

المسافة بين القاعدة والقمة هي مساوية للمسافة التي نستطيع فيها أن نجعل تلك الأفكار والمفاهيم تصير أساساً في مفاهيم الناس.. تصير بديهية مُسلَّمة بالنسبة لهم..

الأمر صعب وطويل حتماً، لكنه «أكيد».. على الأقل هو أكثر تأكيداً من أي محاولات انقلابية لقسر قمة الهرم على التغيير..

ومع كل سياق لاحق في القرآن الكريم بمرحلته المكية سنرى أهمية ذلك..

أهمية الجماعة..

لا وصول للفرد على القمة، إلا من خلالها..

على الأعراف رجال..

سورة الأعراف هي ثاني سورة مكية جاء فيها ذكر الاستخلاف.

لقد تعرف المسلم قيد التكوين على الخليفة أولاً ممثلاً في داود عبر سورة ص.. وفي سورة الأعراف سيتعرف **على أولى خطوات الدرب نحو الوصول إلى تحقيق**

النموذج الاستخلافي الذي كان داود قمة هرمه..

من المهم أن ننتبه هنا إلى أن «قمة الهرم» كان فرداً.

لكن الطريق إلى القمة سيكون جماعياً..

◆◆◆

تنفرد سورة الأعراف بين كل سور القرآن بوجود **تذكيرين متقاربين لوظيفتنا في الأرض**، وهنا لا أقصد بالتذكيرين مجرد وجود لآية مذَكِّرة بهذا الأمر.. بل أعني بالتذكير «التذكير الحرفي».. التذكير بمعنى **استفزاز خلايا الذاكرة..**

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩].

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:٧٤].

إنه التذكير إذن، وهو تذكير يعني ضمناً أن الحقيقة «المذكَّر» بها هي حقيقة منسية.. وأنها تحتاج إلى «التذكير»..

الأمر هنا لا يخص قوماً بعينهم (هم الخلفاء بعد قوم نوح أو عاد).. **بل يخص الإنسانية جمعاء..** الإنسانية التي تتابعت في دخول امتحان الخلافة جيلاً بعد آخر.. حضارة بعد أخرى..

لكن هل أمر «الخلافة» وامتحانها يتعلق بمعلومة (مهمة جداً) نعرفها ونتعرف عليها بالتدريج.. **أم أنه يتعلق بأمر مخزون في ذاكرتنا،** بأمر نعرفه فعلاً، ولكننا نحتاج إلى تذكره.. التذكير الذي جاء في سياق سورة الأعراف يجعلنا نفكر بأن الأمر قد يكون أكثر عمقاً من مجرد معلومة تم نقلها لنا عبر نص ديني أو تعليمات دينية..

التذكير هنا، ونحن في أول الدرب، يجعلنا نفكر بأن الأمر قد يكون له تفاصيل أخرى..

التذكير ضد النسيان..

وعندما يتم تذكيرك بشيء، فإن ذلك يعني ضمناً وقطعاً أنك تعرفه..

لا يمكن أن يذكرك أحد بكلمة في لغة لا تعرفها ولم تسمعها من قبل، لا يمكن أن يذكرك أحد بمعلومة لم تعرفها من قبل، بنظرية مستقبلية، أو بحدث لم يحدث بعد..

التذكير - بالتعريف - يعني أن الأمر موجود في ذاكرتك.. لكنك لسبب أو لآخر نسيته..

أن تنسى أنك الخليفة!

لكن البشر ينسون لأسباب كثيرة..

أحيانا ينسون أشياء صغيرة تافهة.. لا ضرر من نسيانها، ولا مفر من نسيانها أيضاً..

ولكنهم - لكننا جميعاً - ننسى أحياناً أشياء مهمة جداً.. أشياء قد نعرف أهميتها على مستويات عديدة، ولكننا في لحظة معينة ننساها..

يتراوح الأمر بين أمور يومية معاشة، قد تنسى مفتاح الغاز على الرغم من أنك تعرف أن أولادك قد يختنقون، أو قد تنسى أنك أغلقته، وتعود من طريق طويل فقط لتكتشف أنك أغلقته بإحكام كالمعتاد..

قد تنسى حبة دواء طفلك.. وأنت تعلم خطورة ذلك، بل قد تنساه ينتظر على باب المدرسة.. وأنت تعلم أيضاً عواقب ذلك..

قد تنسى أن تصلي، على الرغم من أنك «مؤمن» بأنك تكون على شفا حفرة من النار بذلك النسيان، لكنك تنهض متأخراً وقد فاتتك الصلاة، وتهرع وأنت متعثر بعجلتك وبقايا نومك، وتجد نفسك في الشارع وقد نسيت أن تصليها..

يحدث ذلك كثيراً، حتى قيل - تجاوزاً -: إن الإنسان سمي كذلك لأنه كثير النسيان.. وعلى الرغم من أننا لا نؤمن بذلك حقاً، إلا إننا نؤمن أن النسيان سهل.. وأنه كان علامة ثابتة وصفة مميزة للإنسان تحديداً؛ لأننا لا نعرف بالضبط إن كانت بقية المخلوقات «تنسى».

◆◆◆

كيف ينسى الإنسان معلومة مهمة جداً؟ ما الآلية التي تجعله ينسى شيئاً مهماً (مثل نسيانه أنه الخليفة)؟

يحدث ذلك عبر آليات متعددة، وقد يحدث عبر تداخل هذه الآليات، **لكن الأمر يشبه وجود كتاب مهم جداً في مكتبة كبيرة جداً، الكتاب موجود، وكل ما فيه من معلومات موجود، لكنك لا تملك بطاقة المعلومات التي توصل إلى الرف الموجود عليه هذا الكتاب وتسلسله ضمن هذا الرف، لذا فإن الوصول إلى الكتاب سيكون شبه مستحيل وسط أكوام من الكتب التي تبدو جميعاً من الخارج متشابهة..**

بطاقة المعلومات هذه هي بمثابة الشيفرة التي يمكن الوصول عبرها إلى «المعلومة المخزونة في الذاكرة».. وبالنسبة للخلافة، وبما أن الآية تذكرنا بها، فهذا يعني أنها مخزونة في ذاكرتنا، في وعينا الجمعي، **لكننا فقدنا بطاقة المعلومات التي توصل لها..**

بطاقة معلومات الخلافة

ما بطاقة المعلومات هذه بالنسبة للخلافة؟.. إنها رؤيتك التي تحول الواقع إلى وسيلة لاستفزاز تلك الذكرى من الذاكرة..

بعبارة أخرى: يمكنك عندما تملك رؤية محددة واضحة **أن تحول كل ما حولك مما قد يبدو عادياً وبليداً، تحوله ليستفز في داخلك أهم ما في ذاكرتك..** وهكذا فإن ورقة ملقاة على الأرض قد يلقيها البعض، لا ينتبه لها البعض، وقد تزعج البعض من أجل «المظهر الحضاري» أو الواجهة السياحية أو أي شيء آخر.. **لكنها بالنسبة لمن يمتلك بطاقة المعلومات الصحيحة التي تربط الواقع ومعطياته بمترادفاتها الصحيحة في الذاكرة، هي استفزاز لتلك المعلومة الراسخة في وعيه وذاكرته، أنه الخليفة**، وأنه المسؤول عن تصحيح ما هو خطأ على هذا الكوكب.. لقد خلق من أجل ذلك..

و(ما هو خطأ) لا يشمل الورقة المهملة الملقاة على الأرض، **بل يشمل كل ما هو (في غير محله)، الشخص الذي لا يلتزم بالنظام، ويحاول التحايل على الصف (عند بائع الخبز مثلاً) هو ورقة ملقاة أيضاً.. هو (في غير محله) أيضاً..** ويجب أن يستفز تلك الذكرى المخزون فيه.. **أي ظلم، أي تمييز، أي تطفيف، أي إثم لو فكرنا فيه من هذه الناحية هو وضع لشيء في غير محله.. ربما وضعك أنت في غير المحل الذي يجب أن تكون فيه..**

وما حدث معنا هو أننا فقدنا تلك الشيفرة، تلك الرؤية التي ترى العالم كما يجب

أن يكون، والتي ستدق صفارة الإنذار كلما رأت شيئاً في غير محله، ورقة مهملة أو شخصا يخرق النظام، أو ظلما ما، وتراكمت الأشياء في غير محلها، حتى لم نعد نعرف ما هو «محلها»، وتبلد إحساسنا تماماً وتساوى كل شيء..

هذا باختصار هو جزء مما يحدث عندما نكون قد نسينا شيئاً مهماً جداً..

مثل كوننا خلفاء في الأرض..

وهو ما تذكرنا به الآيتان في سورة الأعراف..

فقدان الذاكرة أم إفقادها؟

لكن النسيان أيضاً يحدث بالتضافر مع سبب آخر لا يقل أهمية..

فالذاكرة لها قدرة محددة، وما لا يستعمل من خلاياها يضمر بالتدريج، مثل أي شيء آخر لا يستعمل فيصدأ ويفقد فاعليته بالتدريج، مثل أي عضلة لا تستعمل فتعاني من الضمور والانحلال مع الوقت، ويحدث ذلك خاصة عندما تراكم «ذكريات أخرى» تشحن باستمرار، وتستخدم باستمرار، وتشحذ وتستفز من الواقع المحيط باستمرار.. وهكذا تتضخم وتنمو عضلات معينة، أو ذكريات محددة، ويكون ذلك على حساب ذكرى معينة قد تكون أهم بكثير، لكنها تضمر حتى تكاد تندثر وسط زحام التضخم المصطنع..

ولقد نجح الإنسان دوماً في اختراع تفاهات صغيرة يرعاها وينميها حتى تملأ عليه حياته.. وهي تملأ خلايا الذاكرة مثلها مثل أي شيء آخر، لكنها تتعرض لشحن مستمر بحيث لا تضمر إطلاقا.. قد تكون أموراً صارت تبدو اليوم عادية، لكن لو تأملنا فيها لوجدنا فيها إهداراً للإنسان في داخلك، ووضعه في غير محله.. خذ مثلاً هواية جمع الطوابع.. أو صيد الفراشات، أو تنسيق الزهور.. أو «تنزيه» الكلاب والترفيه عنها، كما هو منتشر في الغرب، وكما بدأ ينتشر عندنا من باب الاستيراد بلا التصدير..

كانت كل هذه، وسواها كثير، من ضمن أكثر النجاحات غير المتحدث عنها للإنسان، نجاحه في اختراع وظائف صغيرة وتافهة والانشغال بها عن وظيفته الأصلية.. ما كان الإنسان سينسى «ما خلق من أجله، وظيفته الأصلية» **لولا أنه اخترع عشرات الوظائف الصغيرة التي أثقل بها ذاكرته ووعيه، حتى غطت على «ذكرى الوظيفة الأصل»..**

هل يمكن لأي أحد أن يتذكر أنه الخليفة في الأرض، إذا كان تقليم أظافره يحتل مرتبة متقدمة في اهتماماته؟

.. بدلاً من تقليم «الأرض» وتشذيبها..

لكن هذا أيضاً ليس كل «آليات النسيان».. فهناك أيضاً آلية خطيرة ينزلق عبرها البعض للنسيان، من أجل التخلص من عبء مهمة ثقيلة..

البعض يهرب من مواجهة الحقيقة، يهرب من الألم أو المصاعب التي سيتحملها لو واجه هذه الحقيقة، فيكون النسيان وسيلة لا واعية للدفاع ضد هذا الألم المحتمل..

ولقد كُلِّفنا أن نكون خلفاءه، كُلِّفنا أن نعيد بناء العالم ليكون كما أراده، لكن هذا سيتطلب منا أن نقوم، أن نتصدى، أن نواجه أحياناً عقبات كثيرة..

لذا فإننا نختار، بطريقة ما، أن ننسى..

إذن التذكير يأتي بأمر نعرفه ولكننا ننساه.. أحياناً نختار أن ننساه..

فهمنا كيف نسيناه.. لكن هل عرفنا متى عرفناه..؟ أعني متى عرفنا أصلاً أننا خلفاء؟ متى عرف النوع الإنساني أنه الخليفة.. ثم نسي ذلك؟

من ناحية النص الديني الصريح والمباشر، **فإن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي ذكر تلك الحقيقة..**

لا يوجد أي نص ديني «معروف» ومتداول إلى اليوم، يذكر أمر الخلافة كما هي في النص القرآني..

هناك في التوراة في سفر التكوين (الإصحاح:٢٦) نص يذكر شيئاً عن «التسلط»: **(وقال الله: نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر، وعلى طير السماء، وعلى البهائم، وعلى كل الأرض، وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض...).**

وعلى الرغم من إقرارنا المبدئي أن الترجمات المتتالية قد تكون حرفت «المعنى» - ربما بلا قصد - فإن التسلط يمنح معنى مختلفاً جداً عن معنى الخلافة.. **التسلط يمنح معنى السيطرة والتجبر والاستغلال والقهر.. والخلافة تتضمن معنى الرعاية والإنماء والحرص.. والمعاني هنا ليست مختلفة فحسب، بل هي متضادة..**

ولا يمكن هنا أن نتجاهل أن الحضارة الغربية التي هضمت النص التوراتي وما

يتضمنه من الإشارة إلى التسلط قد بذلت كل ما في وسعها لإثبات «تسلطها».. ليس على الشعوب المقهورة المهزومة فحسب، بل على كل ما في الطبيعة من موارد وثروات، وأنها حرصت على استنفاد تلك الثروات بشكل أخل بتوازن الطبيعة المستمر منذ أن وجدت هذه الطبيعة.. **هل يمكن أن يكون هذا مجرد صدفة؟.. أم أن منطق الربح ومعياره قد تزاوج واتحد مع الإشارات العميقة في العهد القديم ليكون بمثابة تسويغ لما سيحدث لاحقاً؟**

ولا يمكن أن نتجاهل هنا أن دورتنا الحضارية التي لم تأتِ بعد، **وأشدد على أنها لم تأتِ بعد**[21]، يجب أن تبنى منطلقاتها على **معنى الخلافة لا التسلط**، لأن هناك خلطا كبيرا بين المفهومين حالياً لأسباب بعضها تاريخي ويتعلق بأخطاء في التطبيق في مرحلة من مراحل الدولة الإسلامية، وأخرى تتعلق بمحاولة استيراد أساليب ومناهج الحضارة الغربية وأسلمتها كيفما اتفق.

الذِكر: كي تستعيد ذاكرتك

وهذا كلُّه يجب أن يقودنا إلى أمر آخر هو في الحقيقة مفتاح لفهم كثير من المفاهيم الأساسية في هذا الدين الذي هو طريقة للحياة، ورؤية للعالم أكثر مما هو مجرد تعليمات أخلاقية وشعائر تعبدية..

أعني أن التذكير في القرآن لم يأتِ فقط مرتبطاً بكوننا خلفاء في الأرض.. بل جاء بأمور كثيرة منها نعم الله وآياته وفضله على العالمين..

بل إن القرآن نفسه سمي «الذكر» في أكثر من موضع منه..

﴿وما هو إلا ذكر للعالمين﴾ [القلم:٥٢].

﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ [التكوير:٢٧].

﴿إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾ [يس:٦٩].

وهذا يجعلنا نفكر بما احتواه وتضمنه القرآن ككل، **..هل كل ما في هذا القرآن من خطوط وتعليمات وإرشادات وحلال وحرام، هل كل هذا يمكن أن يكون من المعلوم بالضرورة، بالبديهية، بالمنطق الإنساني البسيط، بالفطرة الإنسانية قبل أن تشوبها الشوائب وتغرس فيها ما هو معاكس لها..؟**

---

٢١ بمعنى أن الدورة الحضارية الأولى جاءت وأثمرت حتما، لكن الدورة الثانية لم تأت بعد.

كل ما أحله الله، وكل ما حرمه، حتى تلك الغرائز الأصيلة في النفس الإنسانية، كلها ستكون واضحة التحليل والتحريم لو أن **المجتمع الإنساني استخدم ذاكرته جيداً، ذاكرة التجارب الإنسانية في نجاحاتها وفشلها.. في سموها وسقوطها..**

معطيات هذه الذاكرة ستضع علامات حمراء على كل ما حرمه الله، وستضع حتماً علامات «تشجيع» أمام كل ما أمر به الله..

لكن ذلك مرهون بذاكرة كثيرة العطب للأسف، فالإنسانية تنسى دائماً وللأسباب سالفة الذكر..

إنها تحتاج إلى تذكير مستمر..

وبعبارة أخرى: هي تحتاج إلى«ذِكْر» دائماً..

ولذلك كان ذلك الكتاب الخاتم فرصة أخيرة للبشرية لكي تتذكر.. لكي تتخلص من نسيانها.. لكي تواجه ما يجب أن تواجهه..

ذكر للعالمين..

◆◆◆

وخلافة الإنسان في الأرض هي **تحصيل حاصل** لو تُرك الإنسان ليفكر دون تدخل من مؤسسات ومكرسات تحاول إفهامه عكس ذلك.. بمجرد أن ينتبه الإنسان إلى اختلافه الجوهري عن كل مخلوقات الله، بل عن كل ما هو على سطح الأرض، فإنه سيفهم فوراً **أن دوره على هذه الأرض هو أهم بكثير من تلك التفاصيل الصغيرة الجزئية التي يهتم بها..**

كل ما في الإنسان، **من كونه المخلوق الوحيد المنتصب على رجلين، إلى عقله، إلى كل إبداعاته وإنجازاته ، كلها ستقول له: إنه مختلف، وإنه خليفة خالقه في هذه الأرض..**

لكن لهذا السبب أو ذاك إنه ينسى..

وكان لا بد أن يتم تذكيره بذلك الكتاب الخاتم.. الذي كان لذلك هو الكتاب الوحيد الذي صرّح بأمر الخلافة من بين كل الكتب الأخرى..

إنها فرصة البشرية الأخيرة لتؤدي دورها الذي خلقت من أجله.

الأعراف: إطلالة على الحقيقة من منظور النتائج النهائية

في سورة الأعراف، وبعد أن تم تذكيرنا مرتين بالخلافة، تأتي الخلافة مجدداً في حوار بين موسى وقومه..

وقوم موسى هنا وفي أي مكان آخر في القرآن الكريم هم أمة لها تجارب يمكن أن تتكرر مع أي أمة أخرى، وبالذات مع الأمة المخاطبة في القرآن، خاصة أن هذه الأمة المخاطبة غير محددة بعِرق أو لون أو زمان ومكان.. ويشمل ذلك التجارب السلبية كما الإيجابية كما هو بين..

وفي هذا الحوار بالذات نرى خطوطاً عامة وأساسية يمكن أن تصلح لكل أمة، بالذات للأمة التي تستهدي بهدي هذا الكتاب.

أربعة خطوط أساسية تتحدد في هذا الحوار، كل منها يفتح الباب نحو مفهوم أساسي نحو الخلافة والاستخلاف.. كل منها يضع علامة مهمة في خارطة الطريق نحو الخلافة..

لكن قبل المضي في هذه الخطوط الأربعة، فلنحاول أن نستوضح علاقة هذه الخطوط بعنوان السورة..

الأعراف..

الأعراف - كما اتفق أغلب المفسرين - **سُوْرٌ مرتفع يفصل بين الجنة والنار، يقف عليه من لم تدخله سيئاته النار، ولم تدخله حسناته الجنة أيضاً..**

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأعراف: ٤٦-٤٧].

والعرف، في لسان العرب، هو كل **مرتفع من الأرض.** [٢٢]

لذا يسمى «عرف الديك» عرفاً.. لارتفاعه عما سواه من جسده.

المعنى هنا واضح، **المكان المرتفع عن الأرض يهيئ لمن يعتليه أن يرى أوضح، أن يرى ما لا يراه الباقون في مستوى الأرض.**

الارتفاع عن الأرض يمنحك الفرصة أن ترى «مآلات» الأمور.. نهاياتها.. نتائجها.. أن ترى ما لا تراه عندما تكون ملتصقاً بالحدث..

٢٢ لسان العرب، مادة عرف.

ولأن السياق يتحدث هنا، ليس عن موقع جغرافي فحسب، بل عن موقع «زماني-مكاني».. فإن «الأعراف» هنا **هي موقع يتيح لمن اعتلوه أن يعرفوا لِمَ دخل أهل الجنة الجنة، ولِمَ دخل أهل النار النار..**

في سورة الأعراف، نحن في مواجهة النتائج..

وننظر إلى أبعد قليلاً **من المرتفع، لنعرف الأسباب التي أوصلت لهذه النتائج..**

خارطة الطريق إلى الاستخلاف..

أربع علامات أساسية سنجدها في حوار موسى مع قومه وهو يدلُّهم على الدرب إلى الاستخلاف..

﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبرُوا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾ [الأعراف: ١٢٨].

نقطة الانطلاق إذن تبدأ من **الاستعانة بالله..**

والاستعانة هنا - وفي كل موضع في القرآن الكريم - ليست مجرد طلب «شفوي» للعون منه عز وجل.. **بعبارة أخرى إنها ليست طلباً سلبياً من كسول لا يعمل، طلب العون يعني أنك عملت فعلاً، ولكنك تريد «العون»..**

والعون في لسان العرب **الظهير على أمر واحد**[٢٣]، و(العرب تقول إذا جاءَتْ السَّنة: جاء معها أَعْوانها، يَعْنون بالسنة الجَدْبَ، وبالأَعوان الجراد والذِّئاب والأَمراض)، أي أن العون هنا ما يتَّحد مع «حدث أساسي» ليصل إلى نتائج ما كانت ستكون لولا هذا «العون»..

ولكن الظهير الذي هو العون و«الفاعل» الذي يطلبه يجب أن يمتلكا «مبدئياً» ما هو مشترك لكي يصلا إلى «النتيجة».. وإلا تفكك تعاونهما قبل الوصول إلى الهدف.. أي وإلا كان هناك «تضارب في المصالح»..

وفي الحالة التي نحن بصدد شرحها، فإن طلب العون منه عز وجل سيتطلب حتماً وقطعاً أن يكون عملك موافقاً لما يريده ويرضاه.. فلا معنى في طلب العون في أمر مخالف لشرعه وللمنهج الذي اختاره، مخالف لأوامره ونواهيه.. وإلا كان هناك تناقض سيمنع تحقيق الهدف، ويمنع العون أصلاً من أن يكون

٢٣ لسان العرب : مادة عون.

عوناً حقيقياً..

الاستعانة إذن - وهي العلامة الأولى في خارطة الطريق التي رسمها موسى لقومه نحو الاستخلاف - حددت أمرين.. **الأول:**

العمل (وإلا فلا معنى لطلب العون إلا إن كنت تقوم بشيء ما..) **والثاني أن يكون العمل منسجماً ومتفقاً مع من تطلب العون منه..**

والأمران يستحقان أن نضع تحتهما ألف خط وألف علامة، يستحقان أن نفتح رؤوسنا -ولو بالسكين- وننقشهما في تلافيف أدمغتنا.. العمل قبل طلب العون، ولكنه العمل الذي يكون حسب مواصفات حددها من سيقدم العون..

ونحن اليوم لدينا ثلاثة نماذج من الناس:

فئة تطلب العون منه عز وجل دون أن تعمل، وطلبها باطل حتماً..

وفئة **تطلب العون وتعمل، لكن عملها مخالف لشرعه ولأوامره ونواهيه**، لذا فلا عجب إن لم يكن هناك «عون»..

وفئة **ثالثة لا تعمل، ولا تطلب العون**، بل تستورد أعمال الآخرين، وتحاول غرسها بالقوة في بيئة مختلفة تماماً، وهي تعدُّ طلب العون تخلفاً ودليلاً على «أنه لا أمل يرجى»..

◆◆◆

لكن ذلك كله لا يمكن أن يستمر..

وسيكون هناك – حتماً - جيل آخر[٢٤] ينتمي إلى فئة رابعة (موجودة حتماً لكنها ليست ظاهرة بعد).. وهو جيل سيجمع بين العمل حسب الضوابط وطلب العون..

إنه الجيل الذي سيكتب سيرة مختلفة عن كل السِّير التي أوصلتنا إلى ما وصلنا إليه.. ومن ضمنها «سير» الفئات الثلاث آنفة الذكر..

الصبر "على" العمل

العلامة الثانية على خارطة الطريق لا تقل أهمية عن الأولى، وتتكامل معها في الوقت ذاته، وأهميتها تتجلى بالذات في كونها جاءت بعد العلامة الأولى، ولو

٢٤ عندما كتبت ما سبق لم يكن الربيع العربي قد أزهر بعد، والآن صار هذا الاحتمال واقعاً محسوساً، لا يزال دربه طويلاً، لكنه لم يعد حلماً..

جاءت قبلها لتغير المعنى كله..

العلامة الثانية هي الصبر..

ومجيئها بعد الاستعانة (التي تتضمن معنى **العمل حسب الضوابط**).. يعني **أن هذا الصبر هو صبر على العمل وليس عن العمل، إنه الصبر الإيجابي الفاعل العامل، وليس صبر المفعول بهم، ليس الصبر السلبي الذي تكرس في مفاهيمنا عبر عصور الانحطاط..**

إنه الصبر الذي يتمثل في تلك النبتة الصحراوية التي تقاوم العطش والجدب، وتقتنص الحياة من بين براثن الموت.. لو كان الصبر انتظاراً لفرج ما، لغيمة ماطرة في فصل قادم، لمات الصبّار عطشاً.. لكنه بدلاً من ذلك يمد جذوره بكل الاتجاهات بحثاً عن كل ما يمكن أن يمده بالحياة..

إنه الصبر الذي يعني الاستمرار في العمل والدأب عليه..[٢٥]

والأمر مهم هنا أيضاً؛ لأن انتفاء هذا المفهوم قد يطيح بالعلامة السابقة، فقد ينتظر بعض العاملين (حسب المواصفات) نتائج فورية أو سريعة.. وقد يصابون بالإحباط والغطب السريع إن لم يروا نتائج واضحة في الأفق.. وقد يؤدي هذا إلى تبني مفاهيم جديدة من هنا وهناك لتسريع «النتيجة»، لكن بعض هذه المفاهيم قد تكون إخلالاً بمواصفات «العمل» التي تمت الإشارة إليها.. وبذلك ستزيد من التناقضات في داخل مشروع العمل..

مفهوم الصبر عندما يلتحم مع العلامة السابقة، يمنحها الحصانة ضد الإحباط واليأس، وبالتالي يمنحها ديمومة واستمرارية وبُعْدَ نظر يتعدى النتائج السريعة المباشرة والاستعجال القاتل إلى الأفق الأبعد للنتائج المضمونة بالعمل الدؤوب المستمر..

هل نحتاج إلى أمثلة لمشاريع قتلها وأحبطها فقدانها للصبر؟..

كل الأمثلة الانقلابية التي عرفناها في تاريخنا، كانت نموذجاً على ذلك.

عمل دون خطة صبر..

الصبر يجب ألا يؤخر الانفجار.. أو ينزع فتيله عندما يأتي..

ولكنه يجب أن يكون من صفات من يعدون العدة له...

يجب أن يضعوا مواده وأسبابه (الوعي من أهمها) بهدوء وصبر.. يزرعونها في عقول

٢٥ للمزيد عن مفهوم الصبر وعلاقته بالإيجابية، انظر: البوصلة القرآنية، للمؤلف.

الناس بصبر..

وسيحدث حتماً..!

الإرث المستحق

العلامة الثالثة في خارطة الطريق نحو الاستخلاف تتمثل في «**أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده**»..

وهذه العلامة تتضمن حقائق قد تكون بديهيات عقائدية، لكنها ككثير من البديهيات تكون منسية، ولا يمكن معرفة إن كان نسيانها سبباً في التدهور والانحطاط الذي وصلنا إليه، أو نتيجة له.. بالضبط مثل إشكالية البيضة والدجاجة..

البديهة الأولى هي أن **الأرض لله**..

وهي حقيقة منسية للأسف.. ولكنها تقودنا إلى تذكر حقيقة أخرى مرتبطة بها، وهي أنه ما دامت الأرض لله، **فإن الوصول إلى «مفاتيح» هذه الأرض يجب أن يكون كما يريد الله عز وجل..**

ماذا أقصد **بمفاتيح الأرض؟.. أقصد الطريق الشرعي للأرض، من أبوابها العريضة، وليس من الشبابيك أو من الأبواب الخلفية..**

أقصد الطريق الشرعي لحيازة هذه الأرض..

كل حيازة - ولا أقول: امتلاك - لأي شيء يمكن أن تكون بوسيلة شرعية أو غير شرعية..

يمكنك أن تكد وتكدح وتعرق وتمتلك بعرقك هذا «سلعة» أو سيارة أو بيتاً.. ويمكن أيضاً أن تغتصب بيتاً أو سيارةً..

في الحالتين حققت **حيازة** للسيارة.. أو للبيت.

لكن التشابه يبتدئ عند الحيازة وينتهي بها.. لا مجال للمقارنة بين امتلاك شرعي، امتلاك دخل البيوت من أبوابها، وبين سرقة أو اغتصاب.. حتى لو تصرف السارق أو المغتصب كما لو أنه صاحب الحق الشرعي، ربما بتقادم عهد الاغتصاب.. أو بافتراض أن الحيازة تمنحه شرعية ما..

ما علاقة هذا كله بما نقول؟

علاقته أن القرآن الكريم استخدم لفظ «**يورث**» تحديداً.

والإرث بالذات **يعني نوعا محددا من الحيازة التي لا تأتي إلا بطريق شرعي**.. كل الحيازات الأخرى تأتي بطرق يمكن أن يخالطها غش ما، لكن الإرث تحديداً، جاء بطريق محدد، **بقسّام شرعي**، لا يمكن الطعن فيه بسهولة..

بعبارة أخرى: عندما يسكن أحدهم بناءً جديداً ما، يحق للجميع أن يسأله عن كيفية «حيازته» له.. هل اشتراه؟ ما مصدر الأموال التي ابتاع البناء بها؟ من أين لك هذا..؟ هل استأجره؟ هل اغتصبه ودخله عنوة؟

أما عندما يرث الشخص نفسه البناء نفسه، فإن أحداً لا يسأله عن ذلك إذا كانت علاقته واضحة بمن ورثه، وإذا كان من الورثة المعروفين.. (قد يكون الأصل قد اغتصب البناء وهذا موضوع آخر)..

الإرث **علاقة واضحة ومحددة لحيازة شيء ما..**

وهنا عندما يتعلق الأمر بحيازة الأرض، بخلافتها، فإن الحيازة الشرعية لا تأتي إلا عن طريق واحد تحدده الآية، وهو الإرث.. وهو لا يأتي إلا للعباد..

﴿إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده﴾...

عباد الله فقط يرثون الأرض.. العباد فقط لهم الحق في هذه الحيازة الشرعية..

ليس كل من "حاز" ورث..

ماذا عما نراه إذن رأي العين من تطاول في الأرض، واستغلال لخيراتها إلى الحد الأقصى؟ ماذا نسمي تلك الحضارات الإنسانية التي لا يمكن إنكار منجزاتها، ولا الادعاء ببساطة أنها غير موجودة؟

لكن الآية لم تنكر إمكانية ذلك، ولا توجد آية أخرى تنكر ذلك..

الآية تحصر **الإرث** بالعباد..

والحيازة ليست إرثاً فقط..

الحيازة قد تكون اغتصاباً أو سرقة أو احتلالاً.. أو أية صيغة من صيغ الاحتيال والنصب..

وعندما نرى حضارة **استعلت في الأرض وامتلكتها**، ونحن نعلم علم اليقين أنها ليست ضمن «العباد».. لأن كل مقومات انطلاقها وقوتها قامت منذ البداية على نفي العبودية لله، **عندما نرى هذه الحضارة ونرى «حيازتها» للأرض.. فإن علينا أن ندرك أنه لا إرث هنا، ولا علاقة شرعية تربطهم بالأرض موضع الإرث..**

وبالتالي فإن حيازتهم ليست شرعية، **مجرد اغتصاب للأرض وما فيها**.. الأرض التي هي لله وهو يورثها لعباده حصراً..

وهذا الاغتصاب يكون غالباً **نتيجة لتهاون أصحاب الحق الأصليين، العباد الذين ما فهموا ولا طبقوا عبوديتهم كما يجب أن تكون**، ربما ضيقوا معناها في حركات الشعائر فحسب، دون أن يفهموا أن في الحركات معاني ممتدة تهدف إلى بناء عالم أفضل، بل ربما قصّروا حتى في أداء الحركات، واختزلوا عبوديتهم إلى مجرد إقرار لفظي بها لا يغير شيئاً، ولا يلتزم بأمر ولا ينتهي عن نهي..

تَهاوُنُ هؤلاء في أداء ما كُلِّفوا به هو سبب من أسباب تمكن «غير العباد» من السيطرة على الأرض، وتطاولهم في العلوم والأسباب، واستخدام هذا التطاول في مجالات شتى..

وهذا يعني أن العباد يكونون «شركاء في الجريمة» عندما يتركون أمماً أخرى، أو مجتمعات أخرى ليست من العباد تحوز الأرض، وتغتصب مفاتيحها عنوة، دون أن يكون لها حق في «الإرث»..

عندما ترى بيتاً يتعرض للنهب، دون أن تفعل شيئاً، دون أن تبلّغ عن السارق على أقل تقدير، دون أن تحاول منع الجريمة.. **فأنت متواطئ بطريقة ما**.. وبطريقة ما أنت مشترك في الجريمة.. ولن يخفف من جرمهم أو اشتراكهم في الجرم كون الحق المغتصب هو حقك أصلاً! **بعض الحقوق، تكون تكليفاً، وليس من حقك التنازل عنها..**

أجيال متتالية من العباد الذين أضاعوا إرثهم كانت مسؤولة عن استيلاء الآخرين على هذا الإرث، الإرث الذي هو ليس قطعة أرض متنازع عليها هنا أو هناك.. **بل هو الأرض بأسرها.. كوكب الأرض الذي سجله النص القرآني حقاً إرثاً حصرياً للعباد..**

هل نسمي الأمر قابلية الاستعمار أو الاستعباد أو الاستضعاف؟.. لا يوجد فرق كبير في التسميات، المهم أن المعنى واحد، وأن السبب الأساسي لهذا هو سوء فهم متراكم للعبادة - بمعناها الشامل - جعلنا شركاء في الجريمة بحق أنفسنا.. جريمة تضييع الإرث - الأرض.

المعنى غير الصالح لمصطلح العباد الصالحين

وهذه الآية تجرنا جراً إلى آية أخرى..

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

فالإرث هنا قد حدد للعباد الصالحين..

وقد فهمنا خطأ عبر قرون متطاولة أن «العبد الصالح» هو شخص يكاد يكون درويشاً، هو شخص منكفئ لأداء العبادات والشعائر.. وربما لا وقت له أصلاً إلا للشعائر والتسبيح..

لكن هذه هي الصورة الذهنية للعبد الصالح التي كانت سبباً من أسباب ما وصلنا إليه..

العبد الصالح في الحقيقة هو الذي تؤهله عبوديته لإصلاح الأرض..

فيستحق بذلك إرثها..

◆◆◆

لكن خارطة الطريق التي ترسمها الآيات القرآنية لا تكتفي بتسجيل الأرض إرثاً حصرياً للعباد، بل هي تلغي أيضاً اللبس الحاصل بين العباد الذين ضيعوا إرثهم، وأولئك الذين حافظوا عليه..

كيف؟

ببساطة..

﴿والعاقبة للمتقين﴾..

العاقبة ليست في الآخرة حتمياً

من المهم هنا أن ننتبه إلى أن المعنى الذي يتبادر إلى أذهاننا فوراً عندما نتذكر «العاقبة للمتقين» تجيَّر فوراً لصالح معنى معين للعاقبة، ومعنى معين للتقوى، وهما معنيان – لا نقول: إنهما خاطئان بالمطلق- ولكنهما **مجتزآن** حتماً.. **وعندما يتم التركيز على جزء معين من كل أشمل فإن ذلك يكون خطأً شبه مطلق..**

الاجتزاء الخاطئ الأساسي الذي تركبت أفهامنا عليه هو جعل **مفهوم «العاقبة» مرتبطاً بالآخرة حصراً بطريقة تعزلها عن أية نتيجة دنيوية..**

والعاقبة الأخروية مهمة حتماً، بل هي أهم حتماً من نتائج دنيوية عابرة.. لكن هذا يجب ألا يصرف أنظارنا عن حقيقة أخرى مهمة، وهي أن العاقبة الأخروية مرتبطة بعمل دنيوي، ومترتبة على عمل دنيوي، وبالتالي على عاقبة دنيوية لهذا العمل.. **أي على نتيجة دنيوية مادية لهذا العمل الذي سيؤدي لاحقاً إلى عاقبة أخروية..**

فصل مفهوم العاقبة عن الدنيا وقصرها على الآخرة (وهو ما حدث بطريقة أو بأخرى ربما غير مقصودة) كان له نتائج وخيمة لعلنا نعيش في عصر ازدهارها وسيادتها..

من هذه النتائج التي لا يمكن إنكار وجودها حالياً في مفاهيمنا الإيحاء الصريح أو الضمني أن نتائج الآخرة (أي الجزاء والحساب - الثواب خاصة) **لا ترتبط بسنن واضحة**، وهذا يجعل الحكمة الإلهية في موضع اتهام بالعبث.. فكل شيء سيرتبط في هذا الفصام (بين العاقبة والدنيا) إما **عبر مفهوم غامض للنية ودون الاكتراث لوجود نتائج محسوسة لهذه النية لها أثرها الإيجابي على حياة الفرد والمجتمع والأمة.. أو بالاقتصار على مفهوم مجتزأ لعمل الفرد (التقوى) وسنأتي عليه لاحقاً..**

والتركيز على النية هنا فضلاً عن العمل المصاحب لها يؤدي إلى **إحباط إرادة العمل نفسه**، ويؤدي إلى ما هو أخطر من ذلك من قتل التخطيط لهذا العمل.. **وهكذا لم نعد ننتظر العاقبة الدنيوية، لأننا لا نضعها في حسابنا، ونعول على عاقبة أخروية نعتقد أنها منفصلة عن الدنيا، أو مرتبطة ببعض الأعمال الشعائرية أو النية فحسب..**

ولا يعني هذا أن على الفرد أن يشترط رؤية نتائج أعماله في الدنيا لكي يتوقع عاقبة أخروية، فهذا سيؤدي حتماً إلى الاستعجال والتخبط، وربما اقتراف مخالفات شرعية من أجل التعجيل، وهذا كلّه مناقض لمفهوم الصبر الذي كان علامة على خارطة الطريق..

إذن ما الذي يعنيه هذا؟..

إنه يقودنا إلى إحدى السور المبكرة التي قادتنا إلى فهم معنى العبادة على النحو الذي يجب أن يكون، إنها سورة الذاريات التي تضمنت ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ والتي قدمت لهذا بتقسيم للأدوار التي يمكن من خلالها الوصول إلى هذا المفهوم: **الذاريات، الحاملات، الجاريات، المقسمات..**

هذا التوزيع للأدوار والتنسيق بينها والأطوار المتتابعة هو ما يجعل «**الوعد صادقاً**».. ﴿إنما توعدون لصادق﴾ [الذاريات: ٥] وهو ما يجعل العاقبة الدنيوية والأخروية تلتحمان بلا تناقض ولا استعجال يحبط العمل برمته.. **إنه أن يعلم كل فرد أنه جزء من أمة أكبر، وأن وظيفته هي وظيفة «متفاوتة الحجم» من دور أكبر لا يصل لحجمه النهائي إلا بتكامل وتلاحم الأدوار التي قد يبدو كل منها صغيراً..**

العاقبة الدنيوية قد لا يراها كثيرون ممن أوصلوا إليها، وساهموا فيها في أدوارهم المجتزأة، ولا يقلل ذلك من العاقبة الأخروية إطلاقاً، بالضبط كما لن يقلل من أجر الفلاح الذي حرث الأرض لمجرد أنه لم أو لن يحضر الحصاد.. على العكس: إنه

يحكم العلاقة الحتمية الرابطة بين النية والتخطيط والعمل..

وهذا كلُّه ليس كل شيء بخصوص «العاقبة» الدنيوية..

انزع رأسك القديم، وانظر إلى العاقبة بعدسة القرآن..

على الرغم من أن مفاهيمنا تركبت وتشكلت على النظر إلى العاقبة باعتبارها الأخروي فحسب، إلا أن ذلك التشكُّل لم يستمد جذوره وروافده من القرآن حتماً..

كيف؟

ببساطة، مفردة العاقبة استخدمت في القرآن الكريم **بالاتجاهين الدنيوي والأخروي**، وهما اتجاهان يتَّحدان قرآنياً كأنهما جانبان لطريق واحد بلا انفصال.. (لأنهما فعلا بلا انفصال!)..

بل إن استخدام مفردة العاقبة كان أكثر في الجانب الدنيوي.. فمن بين إحدى وثلاثين مرة جاء فيها اللفظ في القرآن ارتبط بأكثر من عشرين منها بلفظ «**النظر**»..

﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾ [الصافات: ٧٣].

﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم﴾ [غافر: ٨٢].

﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ [النمل: ١٤]..

أكثر من عشرين مرة ارتبطت العاقبة بالنظر إليها، بالبحث عنها، ما الذي يعنيه هذا؟

هذا يعني فوراً أنها شيء يمكن النظر إليه ومشاهدته، نتيجة مادية متحسسة على أرض الواقع، أي أنها دنيوية في هذا السياق على الأقل.. إذ **إن العاقبة الأخروية هي مما لا يمكن مشاهدته دنيوياً، والآيات القرآنية صريحة في التحدي عبر النظر..**

لا يتناقض ذلك مع مفهوم العاقبة الأخروي، **بل يتكامل معه..** فالدنيا مزرعة الآخرة، لكن ما نزرعه هنا في الدنيا **قد يُحصد على مراحل**، وبعض الثمار تمر في مراحل وأطوار متعاقبة مختلفة، وبعضها تكون دنيوية حتماً، ولا يناقض ذلك أن تقييمها النهائي سيكون أخروياً..

كيف إذن تسرب إلينا وإلى وعينا بأن العاقبة هي أخروية حصراً، وأنه بإمكان غير

المؤمنين وغير العباد أن يستحوذوا على الأرض وما فيها، **ونصبر نحن خلال ذلك، ولنا الآخرة اللانهائية، وكل ما فيها من خيرات وما لم يخطر على قلب بشر.. و«يضحك كثيراً من يضحك أخيراً»... إلخ؟**

كيف وصلنا إلى هذه الفهم ؟..

الفهم الذي لو كان موجوداً عند الجيل الأول لكان هذا الجيل هو الأول والأخير في الوقت ذاته، ولما فعل شيئاً على الإطلاق بانتظار العاقبة التي هي أخروية حصراً.. ولتغير التاريخ كله، ولحذف من تاريخ الإنسانية أهم وأكثر فصولها عدلاً وتوازناً..

لكن الجيل الأول، جيل الفتح، **استمد فهمه من القرآن مباشرة**، فكانت العاقبة بالنسبة إليه نتيجة حتمية للعمل وللتخطيط للعمل، كانوا يفكرون بالآخرة وبجنانها وبكل نعيمها، لكنهم كانوا يعلمون أيضاً أن **الطريق إلى ذلك يمر بالدنيا.. بعمل يُنجز في الدنيا، ومعايير إنجازه تكون بمقاييس أخروية..**

لكن فهماً تعايَش مع الهزيمة والانحطاط والكسل وجد أنه سيكون من الأسهل **لو ركَّب مفاهيمه بطريقة أقل إثارة للألم وتحملاً للمسؤولية**.. إنه الفهم الذي وجد أن التعايش مع واقع الانحطاط والهزيمة أسهل من محاولة تغييره، فقرر أن يغير مفاهيمه ليكون احتمال الواقع أسهل، وليتخلص من تأنيب الضمير، أو ثقل الشعور بالمسؤولية..

وهكذا تم تجيير مفهوم العاقبة لكي تكون أخروية فقط، بهذا لن نتمكن قط من معرفة نتائج عملنا وعاقبته دنيوياً وبالتالي لن نتمكن من تقييمه أو تقويمه..

وهكذا وصلنا إلى هنا.. **إلى النقطة التي هي بالضد من كل مفاهيم القرآن..**

◆◆◆

ولكن العاقبة (التي تبين لنا أنها دنيوية - أخروية) ارتبطت في سياق الآيات الكريمة بالتقوى..

والعاقبة للمتقين.. وهذا الارتباط تكرر أكثر من مرة في القرآن الكريم..

﴿لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى﴾ [طه: ١٣٢].

﴿فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ [هود: ٤٩]..

وهذا الربط بين العاقبة والتقوى - خاصة بعدما تبين لنا أن العاقبة دنيوية -

سيجعلنا نفكر من جديد بمفهوم التقوى..

عن "قوة" التقوى

ومفهوم **التقوى** تعرض إلى مثل ما تعرض له مفهوم العاقبة.. فالصورة الذهنية التي ارتسمت في عقولنا عن التقوى هي صورة بأبعاد سطحية.. فالتقي - كما رسم في أذهاننا - هو ذلك الشخص الذي **يتجنب كثيراً من الأمور**، بالذات الشخص الذي تتركز قابليته وإنجازاته على «عدم ارتكاب المنهيات».. **وربما عدم ارتكاب بعض من المحللات خوفاً من السقوط في المنهيات «المحتملة».**

أي أن المنجز الأساسي له في هذه الصورة - التي أُصر على أنها مجتزئة - هو «**عدم الفعل**»..

وهذا صحيح أحياناً، فعدم ارتكاب المحرم ومقاومته، هو فعل أيضاً..

لكن هذا ليس كل شيء.. **فالتقوى أيضاً فعل قوة، وفعل إنجاز، وفعل تحدٍّ..**

دعونا لا ننسى أن القرآن قال لنا على لسان موسى: إن **التقوى هي التي تجلب العاقبة.. العاقبة التي رأينا تلاحمها الدنيوي - الأخروي..**

لكن التقوى في أذهاننا ليست عن العاقبة، بل إنها ليست عن الفعل أصلاً، إنها في فعل الامتناع فحسب، في الاجتناب.. في اللا فعل غالباً..

ومرة أخرى: هذا المفهوم المجتزأ للتقوى هو الناتج الطبيعي المتراكم لعصور من التعايش مع وضع كرّس السلبية، وأخرج الإيمان من دائرة الفعل والفاعلية..

لكن التقوى – قرآنياً - شيء آخر أعمق وأوسع من هذا المعنى، وإن كانت تتضمنه حتماً..

◆◆◆

الجذر اللغوي لفعل "وقى" الذي من مشتقاته "التقوى" يعني "الصيانة"[٢٦].. تقول العرب في لسانها: وقاهُ اللهُ وَقْياً وَوِقايةً وواقِيةً صانَه.

ولهذا فالتقوى تعني بطريقة ما الوقاية والصيانة، وعندما تتقي شيئاً ما فإنك تتوقاه، تطلب الصيانة منه..

وهذا مفهوم تماماً عندما يكون المعنى اتقاء النار، أو اتقاء يوم لا ينفع فيه مال

---

٢٦ لسان العرب: مادة (وقى).

ولا بنون..

ولكن مع اتقاء الله في الآيات التي تقول: ﴿واتقوا الله﴾.. فإن المعنى يختلف، لأننا نعي تماماً أن الوقاية هنا لها طبيعة مختلفة، مهما اتخذت من أساليب للوقاية والتوقي، **فالحل الوحيد هنا هو أن تتبع أوامره، أن تكون كما يريد، كما خلقك**..

وهذا ليس فقط باجتناب المنهيات.. بل أيضاً بشيء آخر.. ستفتحه لنا الآية التالية.. التي ستكون **مفتاحاً لفهم أشمل وأعمق للتقوى بمعناها الكامل**.. بمعناها الذي يجلب العاقبة..

خير ما تأخذه في سفرك

﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ [البقرة: ١٩٧].

للوهلة الأولى، قد يبدو الحديث هنا عن الزاد من قبيل المجاز أو التشبيه.. أي من قبيل تشبيه حاجياتنا وضرورياتنا بالزاد الذي يتزود به المسافرون في رحلة ما..

لكن الحقيقة هي أن الآية تنزلت فعلاً لتشير إلى الزاد الذي يتزود به المسافرون، فقد جاء في صحيح البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَحُجُّونَ وَلاَ يَتَزَوَّدُونَ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ، فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾..[٢٧]

خير ما يتزود به الإنسان في رحلة الحج إذن هو التقوى..

لكن التقوى هنا ليست فعل الامتناع عن المحرمات واجتناب المنهيات.. إنها تتضمن ذلك حتماً، لكنها أيضا تتضمن – كما هو واضح - **الأخذ بالأسباب**.. فهؤلاء - الذين نزلت فيهم الآية الكريمة - **كانوا يريدون الحج دون أخذ الزاد بدعوى التوكل.. وكانوا ينتهون إلى سؤال الناس والتسول**.. لذلك نزلت الآية، لا لتأمر بالتزود فحسب، بل للتنبيه إلى أن **مفهوم التقوى يتضمن حتماً الأخذ بالأسباب من أجل الوصول إلى الهدف..**

المعنى واضح حتى من المعنى المعجمي المباشر..

أن تتخذ الأسباب هو جوهر الوقاية..

---

٢٧ صحيح البخاري، ١٥٤١.

تزودك بالطعام يقيك من الجوع..

تزودك بالأسباب يقيك من السقوط والتدهور..

أي فعل تتقي غضب الله فيه عبر تجنب نواهيه يقيك حتماً من عاقبة سيئة في الدنيا والآخرة..

وأي اتخاذ للأسباب هو حتماً من ضمن "التقوى".. ما دامت هذه الأسباب هي من خلق مسبب الأسباب وواضع السنن.

ليس الحج فقط

خطئ من يتصور أن أولئك الحجيج من اليمن قد اختفوا، فالفهم السلبي للدين يتربص دوماً ويستغل أية فرصة للدخول؛ لأنه ببساطة أسهل وأقل كلفة.. ونكاد اليوم نكون أمة من أولئك الحجيج الذين يتصورون أنهم سيصلون إلى مبتغاهم دون الأخذ بالأسباب..

الحج هنا ليس شعيرة فقط، بل إنه يتمدد ليصير أي هدف تريده الأمة، نهوض طال انتظاره، أو نصر على أعداء ظلمة، أو واقع أفضل يحررها من نير الاستعباد والاستغلال.. ولكنها تتصور أن الوصول إلى ذلك ممكن فقط عبر أداء الشعائر والعبادات والامتناع عن بعض المنهيات..

تُمسكُنا الآية متلبسين بجرم الفهم السلبي الذي مر به البعض وقت نزول القرآن..

وتمنحنا فهماً مضيئاً لخير زاد يمكن أن نتزود به في حياتنا التي هي في جوهرها رحلة وسفر طويلين..

خير الزاد في هذه الرحلة هو التقوى، لكنها التقوى الحقيقية التي تدلنا عليها مفاهيم القرآن، وليس ذلك الفهم الجزئي الذي وَصَلَنا عبر عصور الانحطاط والهزيمة..

إنها التقوى التي تتضمن الشعائر والعبادات وقيمها، وتتضمن أيضاً الأخذ بالأسباب دون أي تفريط في أي من الشقين، بل دون أن تجد تناقضاً في ذلك..

فالاقتصار على العبادات وعلى ما تمثله من قيم نظرية (دون الأخذ بالأسباب) لن يجعل الرحلة تسير أصلاً.. لن نتقدم خطوة إلى الهدف..

والأخذ بالأسباب **دون الاحتفاظ بالعبادة وكل ما تمثله من معانٍ وقيم قد يجعل الرحلة تسير، ولكنه سيجعل من اتجاهها يتغير..**

ستصبح الأسباب أهدافاً بحد ذاتها، وستأخذها في دوامة من المزيد من الأسباب والأسباب..

الحضارة الغربية يمكن أن تُعد نموذجاً عن ذلك..

أما "الوضع اللا حضاري" الذي نعيشه فهو نموذج لترك الأخذ بالأسباب..

الحضارة الإسلامية التي حمل شعلتها وشرارة انطلاقها الجيل الأول جمعت بين الأمرين.. وكان هذا سر تفوقها وإعجازها وعبقريتها.. إلى أن أضاعت هذا التوازن فأضاعت الحضارة برمتها..

والنهضة التي نأمل أن نقدح شرارتها ونحمل شعلتها يجب أن تحمل ذلك التوازن بين الأمرين، إذا أرادت أن تكفَّ عن أن تكون مجرد شعار.. إذا أرادت أن تكفَّ عن أن تكون كلاماً تتداوله النخب في المجالس والصالونات..

◆◆◆

التقوى إذن هي أن تجعل وقاء بينك وبين كل ما يحول بينك وبين الوصول إلى هدفك، الهدف الذي خُلقت من أجله..

قد يكون هذا شهوة عابرة ستلهيك عن هدفك، وتكون التقوى عندها فعل يتحداها ويمتنع عنها..

وقد يكون هذا عقبة تتحدى طريقك، ولا سبيل لإزالتها والتوقي منها إلا باتخاذ الأسباب وسبر أغوارها، الأسباب التي خلقها الله كما خلقك..

هذه هي التقوى التي هي خير زاد تتزود به في رحلة حياتك، ليس أي زاد، **فالزاد العادي قد يسد جوعك وعطشك، قد يمنع موتك من الجوع والعطش ويسد رمقك، لكن خير الزاد شيء آخر، إنه الزاد الذي يشمل الأكمل والأنضج من المواد الغذائية التي تمدك بالطاقة والحيوية، وتمنع عنك الأمراض بمنحك الحصانة..**

هذه هي التقوى بمعناها القرآني الحقيقي، **التقوى التي تؤدي إلى العاقبة..**

العاقبة التي كانت في آخر خارطة الطريق التي رسمها موسى لقومه، والتي تصلح أن تكون لكل أمة مرت وتمر بما مر به قوم موسى من استضعاف وذلة وانحطاط..

التقوى: أن تزيح كل ما يؤدي إلى ضعفك..

تقوى الله إذن - بهذا المعنى القرآني - **هي أن تحول بينك وبين كل ما يضعفك، ما يمنعك من أداء هدفك.. من أن تكون كما أمرك الله أن تكون.. من أن تكون نفسك..**

إنها أن تأخذ كل احتياطاتك بشكل مسبق، وعن سابق إصرار وترصد، **لكي تحافظ على قوتك وطاقتك، تخزنها لكي تؤدي حصراً ما خلقت من أجله..**

إنها **التقوى التي تمنحك القوة، التي يمكن لها أن تكون أساساً قوياً تستند عليه، مثل خير زاد.. أن تكون أساسا لبناء قوي شامخ مثل** ﴿لمسجد أسس على التقوى﴾ **...**

عبر عصور الانحطاط غُرست في أذهاننا صورة للتقوى ترتبط **بشخص يخاف المواجهة، يتقي عواقبها، ويفضل دوماً أن يسير قرب الحائط.. يحني ظهره تواضعاً.. ويتنازل عن حقوقه..**

لكن التقوى القرآنية، التقوى التي يمكن أن تؤدي للعاقبة، التقوى **التي امتلكها الجيل الأول** هي تقوى مختلفة جداً..

إنها تقوى **القوي القادر، الذي تمنحه تقواه قوة إضافية يركز فيها على وظيفته الأساسية..**

تقوى القوي الذي يمكن له أن يعفو، وأن يصفح، ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾.. لا تقوى الضعيف خائر العزيمة الذي سيتذرع بالعفو وهو لا يملك خياراً آخر أصلاً..

إنها تقوى من لا يخاف المواجهة، ويمضي إلى أبعد الطرق وأوعرها في سبيل الوصول إلى هدفه، ولكنه يأخذ كل احتياطاته، كل أساليب الوقاية، كل تقواه..

بعبارة أخرى: **يأخذ خير الزاد..**

الاستخلاف تحصيل حاصل

وسيكون من الطبيعي جداً أن تتوج هذه العلامات الأربع التي شكلت خارطة الطريق في حوار موسى مع قومه (وحوار القرآن مع أمة القرآن).. أن تتوج بالخلافة.. بالاستخلاف..

﴿قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ [الأعراف: ١٢٩].

فالاستخلاف هنا **هو جزء من العاقبة التي وعد** المتقون بها، والتقوى - حسب ما أشرنا إليه - تشمل الالتزام بالعلامات السابقة.. والاستخلاف سيكون مرحلة أخرى يتم فيها اختبار هذه التقوى ﴿ويستخلفكم في الأرض **فينظر** كيف تعملون﴾..

وهكذا تتداخل المعاني والعلامات، فلا يعود الوصول إلى مرحلة الاستخلاف هدفاً نهائياً بقدر ما يكون هدفاً مرحلياً نحو المزيد من العمل.. **وبالذات من تقوى العمل..**

◆◆◆

أمران لا بد من الإشارة إليهما هنا في هذا السياق الذي تؤدي إليه الآيات..

الأمر الأول أن موقف بني إسرائيل مما يقوله موسى ومن خريطة الطريق لا يخصهم وحدهم، بل هو يمثل **موقفاً سلبياً يواجه أي مصلح وداعية للنهوض** ﴿قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾ [الأعراف: ١٢٩].

إنهم أولئك الذين يضعون العراقيل دوماً، **دعاة الرخاء والازدهار والعيش الرغد التافه، إنهم المثبطون الذي يزيدون الطريق وعورة عبر محاولتهم إقناع الناس بلا جدوى المضي فيه،** وأولوية الاهتمام بالتفاصيل اليومية الصغيرة على الأهداف الكبيرة والمضي لتحقيقها..

إنهم موجودون في كل مكان وزمان، **وقد يكون بنو إسرائيل المعاصرون قد استفادوا تقنياً من الأمر،** وابتعدوا عن التفاصيل لصالح هدف أكبر (لا نشك للحظة أنه هدف سيئ ومخالف لكل الشرائع).. لكنْ **هناك امتدادا مستمرا لبني إسرائيل القدامى،** حتى في الأمم الأخرى، حيث يتصرف البعض كما لو كان قوم موسى هم قدوتهم.. **ابتداءً من** ﴿**فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون**﴾، **إلى** ﴿**وأشربوا في قلوبهم العجل**﴾ **مروراً بـ** ﴿**أوذينا من قبل أن تأتينا...**﴾.

بعض هؤلاء يقولون الأقوال نفسها بصراحة، وبعضهم يغلفها بشعارات برّاقة قد تبدو مقنعة للبعض، لكنها ليست سوى سلوكيات قوم موسى، وقد غلفت بألوان وشعارات زاهية ، بل إن بعضها قد يكون كلمة حق يراد بها باطل.. مثل «ديننا دين يسر ورحمة».. بل قد يستعمل البعض آيات قرآنية كريمة ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ لتمرير ذلك أو تسويغه.

لكننا يجب أن نتجه دوماً إلى **القرآن ككل، بتضافر آياته، بالصورة الكاملة التي تقدمها النصوص، وليس بذلك الاجتزاء المدفوع بالهوى،** لندرك يقيناً أن الطريق طويل، وأن هؤلاء مجرد أعراض طارئة علينا ألا نأخذ الفتاوى منهم..

◆◆◆

الأمر الآخر يتعلق بارتباط الاستخلاف في ذات الآية الكريمة **بهلاك العدو..**

﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ [الأعراف: ١٢٩].

فهلاك العدو هنا ارتبط بالاستخلاف، لكنه ارتبط قبلها بمنظومة كاملة تمهد لأخذ دور الاستخلاف، ارتبط بتلك المراحل والعلامات التي مررنا بها في خريطة الطريق..

عدم المرور بتلك المراحل، أو المرور بها بشكل **عابر دون أن تكون جزءاً من إعادة تكوينك النفسي**، لن يؤخر هلاك العدو أو يؤثر فيه، **فالعدو قد يهلك بك أو بسواك أو بمشاكل داخلية..** لكن عدم المرور بتلك المراحل لن يجعلك مؤهَّلاً لاستثمار فرصة هلاك العدو، وستكون غالباً ضحية لعدو جديد تمكن من استغلال هلاك العدو الأول..

وهكذا فإن الدعاء بهلاك أمم ما لا يعني أبداً أن الداعي سيتمكن من أخذ مكانة الأمم الهالكة فور هلاكها، أو حتى بعد فترة من الزمن، فكما أن للهلاك أسبابه الموضوعية، فكذلك الانتصار والاستخلاف له أسبابه الموضوعية..

أي أن الدعاء بهلاك الأمم الأخرى دون الأخذ بالأسباب الموضوعية، ودون المرور بمراحل خريطة الطريق، لن يكون سوى دعاء بأن تستبدل أمة بأمة أخرى، وعدو بعدو آخر، قد يتضح لاحقاً أنه أسوأ!!!

العدو حقيقة كونية!

أمر ثالث تُنبِّهنا إليه الآية الكريمة هنا، وهو حتمية وجود «العدو»..

إذا كنت تهدف للوصول إلى القمة، إلى الاستخلاف، إلى الهدف الذي خلقت من أجله، فلا بد من وجود العدو..

لا شيء سيغير من ذلك!

قد تتغير طبيعة العداء، قد تكفُّ عن كونها مواجهة عسكرية مباشرة في بعض الأحيان..

لكن العداء في جوهره سيبقى..

سيبقى ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ [الأعراف: ٢٤].

يمكن أن يكون ذلك من أجل المزيد من الاستغلال، من أجل نهب الثروات،

والسيطرة على موارد الطاقة..

ولكن هذه الحتمية يمكن أن تكون أيضاً من أجل القيم.. من أجل تحقيق ما يجب تحقيقه.. من أجل عالم أفضل..

يستطيع بعض الناس أن يخرجوا من هذه الحتمية بالخروج من دائرة التنافس، والخلود إلى تبعية خاضعة للمنتصر، لكن ذلك موضوع آخر.. وهو قد يمنح هذا التابع سلاماً مزيفاً مؤقتاً، لكن تبعات ذلك كله ستأتي ولو بعد حين..

حتمية وجود العدو تذكرنا بأن أولئك الذين ينكرون ذلك لا ينكرون فقط حقائق أثبتها القرآن، بل هم يثبتون أنهم يشيحون بوجوههم عن التاريخ والجغرافية..

بل حتى عن نشرات الأخبار..

من السهل أن نزيف رؤيتنا العالم عبر وضع نظارات وردية تجمل الواقع المليء بالتناقضات والظلم..

لكن ذلك لن يجعل العالم أفضل..

إنه سيجعلنا فقط ضحايا أقل صخباً، وأكثر طاعة..

لا أكثر ولا أقل..

جنة بلا نصب ولا لغوب، لمن كانت حياته مليئة بهما

تبدأ آية سورة فاطر التي تذكر «الاستخلاف» بمقدمة عن الجنة والنار (فاطر ٣٣-٣٧) والجنة هنا توصف بأنها ﴿لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾..

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ

الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾ [فاطر:٣٢-٣٩].

من بين كل ما يمكن أن توصف به الجنة، فإن السياق الذي يمهد للحديث عن الاستخلاف، **سيختص هذه الصفة على لسان من فازوا بها: لا نصب ولا لغوب..**

هل هذا منطقي؟.. أعني أنه قد يبدو غريباً للوهلة الأولى، أن تترك كل ما في الجنة مما لا يخطر على قلب بشر، وتصفها بأنك لا تشعر بالتعب فيها..

غريب فقط للوهلة الأولى، لكن أولئك الذين فازوا بها، أولئك الذين تحدث القرآن على لسانهم، كانوا يصفون انطباعهم هذا؛ **لأن حياتهم الأرضية كانت مليئة بالجهد والتعب، حياتهم الأرضية كان فيها «نصب» وفيها «لغوب»..** لكنه نصب لم يذهب هدراً.. وجهد لم يَضِعْ هباء منثوراً.. لم تكن حياتهم سهلة على الإطلاق (لِمَ يتصور أي أحد أنها يجب أن تكون كذلك؟).. وهل تكون سهلةً حياةُ من يتصدى للتغيير ولبناء العالم؟ هل تكون سهلةً حياةُ من يتصدى ليقوم بما خُلق من أجله؟

لا طبعا. وكل من يتصور أن حياة المؤمنين يجب أن تكون سهلة فهو مخطئ، قد لا يهمهم التعب، بل قد يستمتعون فيه، لكنه «التعب» بكل الأحوال، الجهد، جهاد الصباح والمساء، وسيرتهم الذاتية التي يعيشونها كل يوم..

لذا سيكون من الطبيعي جداً أن يقولوا، بعد أن كانت حياتهم الدنيا رحلة صعبة ومليئة بالجهد المثمر، أن يقولوا: إن الجنة لا تعب فيها.. **لن يُستغرب ذلك أصلاً إلا من كانت حياته سهلة لينة، لا جهد حقيقياً فيها ولا نصب ولا لغوب..**

ولا علاقة لذلك بالفقر أو الثراء، فبعض الفقراء يستسلمون لفقرهم، ويتآلفون معه بلا نصب ولا لغوب، بل يتخذون الفقر ذريعة للكسل والدعة، وبعض الأثرياء ثراؤهم لم يورثهم الكسل والتراخي..

ولكن فلنتذكر هنا أن الأمر كما لا علاقة له بالفقر والثراء، فإنه لا يرتبط أيضا بمجرد التعب واللغوب الذي قد يهدر أيضاً كما لو أنه لم يكن..

فالبعض يهدر عمره فيما سيضيع هباء، في جمع مزيد من المال، في البحث عن سعادة وهمية، في توفير المزيد من السلع و«الكماليات» لأسرته، في اعتبار أن السعادة هي في الحصول على هذا المزيد، والمزيد من هذا المزيد.. أو حتى في

سبيل «عقيدة» و«قضية»، ولكنها ليست القضية التي خُلق من أجلها..

الجهد الذي سيبقى ليس هذا بالتأكيد، بل إن هذا سيكون حجة عليهم..

أما الجهد الذي سيبقى فهو ذلك الذي يساهم في جعل عالمنا أفضل، بالضبط أفضل كما يريد له خالقه أن يكون.. «العالم الأفضل» الذي هو الدرب الوحيد «لآخرة» أفضل..

بالضبط في «إعمار» هذا العالم وصياغته على النحو الذي أراده له خالقه.. بالذات في كون هذا هو امتحاننا في هذه الأرض..

أَوَلَم نُعمركم؟

ولن يكون مصادفة أن يكون الحوار مع الطرف الآخر الذين لم يذهبوا إلى «دار المقامة» متضمناً تلك العبارة ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ ؟..

وبين الإعمار الذي هو طول «العمر»، والإعمار الذي هو عمارة الأرض علاقة وثيقة، فالثاني هو ما نفعله، والأول هو ما تمنحه لنا المشيئة الإلهية.. والاثنان يرتبطان بشبه معادلة محكومة: **الإعمار مقابل الإعمار..**

إعمار الله لنا في الأرض مقابل إعمارنا لها..

وإلا فإن المقام هو نار جهنم..!

◆◆◆

ما يلفت النظر هنا أن أولئك الكفار الذين حلوا في جهنم، في حيثيات حوارهم، قالوا: **﴿أرجعنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل﴾..**

كما لو أنهم عملوا «صالحاً» فعلاً، لكنه لم يكن العمل الصالح الذي يدخلهم الجنة.. إنهم يريدون الرجوع ليعملوا «صالحاً» غير الذي عملوه..

إذن هل هناك عمل صالح لكنه لا يكفي؟ أم أن هناك عملاً تصوروا هم أنه «صالح»، وبدا لهم ولسواهم أنه كذلك، لكن «تبين» لاحقاً، وعند الحسم، أنه ببساطة لا يكفي..

هل كان هذا العمل الصالح شعائر لم تنعكس على حياتهم، ولم تغيرها، ولم

تكن تدريباً لصناعة عالم أفضل؟..

أم أنه كان عملاً صالحاً لم تصاحبه الشعائر والإيمان؟

ربما سنعرف ذلك بالتدريج، لكن فلنثبت هنا هذه الإشارة: ي**بدو أنه كان هناك عمل صالح لم ينفع أصحابه..**

عمل صالح غير مكتمل الشروط..

والأهم من هذا.. أن هذا كله جاء **تمهيداً للحديث عن الخلافة في الأرض..**

صدفة؟

حاشا لله..

ضوابط وشروط للنصب واللغوب

ترتبط آية الخلافة في هذا السياق بأمرين:

الأول أن هذا الاستخلاف وما استلزمه من «نصب» و«لغوب» يرتبط بسياق «إرث الكتاب».. **﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر:٣٢].**

فالكتاب (أي الكتاب الثابت الذي لم يمسه تحريف) **من شرع الله هو الذي يحدد «طرق الاستخلاف» ومساراتها**، سباق الخيرات في إرث الكتاب هو ما يتحقق «عملياً» من هذا الاستخلاف.

السياق يربط الاستخلاف في الأرض بإرث الكتاب، وطبيعة التعامل مع هذا الإرث تختلف، فقد يكون فيها كثير من **التقديس الشكلي دون الاتباع والطاعة**، كما هو حاصل فعلاً (قراءة الختمات تلو الختمات مثالاً)، وقد يكون فيها تحريف عن مواضعها، كما هو حاصل فعلاً في مواضع كثيرة من القراءة التبعيضية.

لكنه يمكن أن يكون سبقاً بإخراج كنوز الخيرات من هذا الكتاب.. تعاملاً يفترض على نحو مسبق **أن كل ما في الكتاب يجب - لو قُرِئ وفُهِم على نحو صحيح - أن يقود إلى العمل والفعل والفاعلية..**

والسياق الثاني يسبق الآيات مباشرة، ويصف الله بكونه عالم غيب السموات والأرض وبأنه عليم بذات الصدور..

ثم تكمل الآية.. ﴿هو الذي جعلكم خلفاء في الأرض﴾..

أمر استخلافنا في الأرض إذن يرتبط **بالغيب، بالإيمان، بما في الصدور.. إنه قضية عقائدية إيمانية..**

بالذات قضية فاصلة بين الكفر والإيمان..

لذا فإن السياق المباشر الذي يلي هذا هو ﴿فمن كفر فعليه كفره﴾..

كما لو أن الكفر هنا هو ليس الكفر التقليدي فقط الذي يرفض الإيمان بالله تعالى وكتبه ورسله..

بل هو **أيضاً رفضُ استلام المهمة التي أوكلها إلينا..**

رفضٌ لما «جُعلنا إياه».. **ربما بحجة عدم الاستطاعة، أو بحجة عدم الإمكان أفضل مما كان، أو ماذا بوسع رجل واحد أن يفعل؟..**

لكنه رفض لوظيفتنا في الأرض..

كلام خطير حتماً..

ولكن، ولأنه خطير، فإنه يجب أن يقال..

في سورة النمل: سنة الاستخلاف

في سورة النمل سيأتي سياق الاستخلاف على نحو مختلف، وسيسلط هذا الاختلاف الضوء على جوانب عميقة من الأمر قد لا تبدو ظاهرة للعيان للوهلة الأولى، لكن ذلك لا يزيدها إلا أهمية وتأثيراً..

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [النمل:٦٠-٦٣].

والسياق كما هو واضح يسلط الضوء على آيات كونية ونعم من أنعم الله علينا..

وتأتي ضمناً، ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾..

بالضبط كما ﴿جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي﴾ إلى آخر الآيات..

بالضبط كإرسال الرياح، وإنزال الماء من السماء، وإنبات الحدائق بهذا الماء..

هل الأمران متشابهان إذن؟

هل جعل الاستخلاف، جعل الخلفاء في الأرض، أمرا مشابها لإنزال المطر من السماء وبقية الأمثلة..؟

نعم ولا..

نعم، كما يشير السياق بوضوح، على الأقل هناك تشابه بين تلك الأمثلة، تشابه يجعلهم على الأقل في خانة واحدة..

ولا.. لأن السياق أيضاً وفي الوقت ذاته يشير ضمناً إلى اختلاف جوهري ضمن هذا التشابه..

التشابه يشير إلى أن **الاستخلاف خاضع حتماً لسنن إلهية، مثل كل السنن التي تتحكم في الأمثلة التي وردت في السياق: خلق الأرض، الجبال واستقرارها، نزول المطر، عملية الإنبات... الخ.**

إنها سُنَّة أيضاً، **بل مجموعة سُنن،** فكل مثال من أمثلة السياق لا ينتج عن سُنة واحدة، بل عن تداخل مجموعة من السنن، صرنا نعرف اليوم جزءاً ليس باليسير منها، ونسميها "قوانين" - فيزياء أو كيمياء أو جيولوجية أو أحياء...الخ - وهي لا تنتج حتماً عن "قانون" واحد.. بل عن سلسلة تفاعلات تربط مجموعة من القوانين بمجموعة أخرى، وهكذا، **إلى أن يصل التفاعل المتسلسل إلى نتيجته النهائية.**

وكذلك الاستخلاف، إنه يرتبط **بمجموعة متداخلة من القوانين، بالذات من استثمار هذه القوانين، ومن جعلها تدخل في سياق يجعل نتائجها تصب لصالح هذا الاستخلاف..** بعض هذه القوانين والسنن ستكون الفيزياء والكيمياء وعلوم أخرى متداخلة.. فليس هناك من سبيل إلى الاستخلاف إلا عبر ولوج هذه القوانين واستثمارها..

◆◆◆

لكن هذا ليس كل شيء فيما يخص السنن وعلاقتها بالاستخلاف..

بعبارة أخرى: **الاستخلاف ليس استثماراً في قوانين الفيزياء والكيمياء فحسب**، بل يرتبط أيضاً **بسنن من نوع آخر.. سنن لا يمكن التعبير عنها بقوانين ومعادلات رياضية جامدة**، لكنها لا تقل أهمية، بل ربما تكون هي **السنن التي تحول «القوانين» إلى سنن..** أي تنقلها من **حالة المعادلات الرياضية الجامدة، إلى الصورة الأكبر، إلى مفهوم السنن الإلهية، أي ربط القوانين الجزئية بخالقها، بالمقاصد الكلية لها، وهو الربط الذي يحول القوانين إلى سنن..**

السنن: نقاط أساسية

علينا من أجل ذلك أن نقرر بعض النقاط الأساسية:

أولها - أن «السنن» ليست هي القوانين بالضبط، بل إن الأخيرة هي جزء فقط من الأولى..

ثانيها - علينا أن نعي أن المعرفة البشرية على حجمها المتزايد لا تزال قاصرة عن إيجاد فهم «آني» لكل القوانين، وبالتالي عاجزة عن فهم كل السنن، فاكتشاف قانون الجاذبية مثلاً لم يحدث إلا في القرون الأخيرة، لكنه كان مبثوثاً في الطبيعة وعلاقاتها منذ أن كانت هذه الطبيعة، وهذا يجب أن يجعلنا متواضعين أمام مفهوم السنن، ويدعونا إلى عدم التعجل في مساواتها بقوانين مادية لا يزال فهمنا لها قاصراً.

ثالثها - بناء على ما سبق، **يجب أن نقرَّ بوجود بُعد غير منظور في السنن**، ولم يوجد له - حتى الآن على الأقل - تمثيل واضح في معادلات رياضية، وقد لا يكون له معادل رياضي على الإطلاق..

هذا البُعد **هو البعد الإنساني، المتمثل ليس في فهم القوانين وتطبيقها فحسب، بل في بُعد غير خاضع للمقاييس، وهو أيضا البُعد الإيماني، البعد الذي يتكامل مع القوانين ويتفاعل معها**، فيزيدها توهجاً وأثراً، ويثري العطاء الإنساني ويوصله إلى مراتب عليا في الإنجاز والفعل والتألق..

إنه التفاعل الذي يجعل «فئة قليلة تغلب فئة كثيرة»..

التفاعل الذي يجعل﴿وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله﴾..

لكن هذا البعد الإيماني **لكي يكون عاملاً حاسماً** في معادلة الاستخلاف لا يمكنه أن يكون مستقلاً على الإطلاق، **يجب أن يلتحم بالقوانين لكي يثمر فعلاً..**

(والقوانين أيضاً يجب أن تلتحم به لكي تصبح سنناً..).

البُعد الإيماني بمفرده لا يحقق استخلافاً، ولا يحقق إنجازاً حقاً..

والقوانين بلا هذا البُعد لا تؤدي إلى الاستخلاف، بل إلى العلو والاستعلاء فقط..

الدليل؟

حالنا..

وحالهم..

و "كشف السوء" سُنّة..

وهكذا فإن سياق الاستخلاف في الآيات الكريمة هنا يأتي ضمن الحديث عن السنن، ثم يخصص ببيان البُعد الإيماني في سنة الاستخلاف..

﴿أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض﴾.

ها هو المضطر يدعوه، وسبحانه وتعالى يستجيب لدعائه.. ها هو «السوء» يُزال ويُكشف بلا سابق إنذار.. وإنما فقط **استجابة لدعاء المضطر..**

هل تفسر القوانين المادية الجامدة ذلك؟ هل بإمكانها اختراق ذلك وكشف أسراره؟

كلا بالتأكيد.. **لن تستطيع القوانين أبداً شرح ذلك، شرح كيف يمكن لدعاء أمٍّ صادقة - مثلاً - أن يحرس الله ابنها وينجيه من خطر أو شر محدق؟..**

لكن يبدو أنه في عالم السنن المتداخلة **هناك سُنّة إلهية تتعلق باستجابة الدعاء على الرغم من كل ما يبدو من استحالة حدوثه وفق القوانين المادية الظاهرة..**

هل اسمها يا ترى «**دعاء المضطر**»؟

ربما..

سنة الاضطرار

فلنتنبه هنا إلى أن هذا السياق يحدد «**الاضطرار**» وصفاً لهذا الداعي الذي استجيبت دعوته، وقد جاء توصيفٌ أكثر تحديداً وفي ثلاث مرات في الخطاب القرآني للاضطرار..

﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد﴾ [البقرة:١٧٢، الأنعام:١٤٥، النحل:١١٥]..

قد يتبادر إلى الذهن اختلاف الاضطرار في هذه السياقات عن السياق الأصلي الذي نتحدث عنه (السياقات الأخرى تتحدث عن الاضطرار لأكل ما هو محرم) لكن الأساس في الاضطرار واحد، **إنه بذل كل الجهود للالتزام بالقانون الأصلي**، عندها فقط تفتح مساحة للاضطرار الذي يسمح بتجاوز القانون **﴿غير باغ ولا عاد﴾**..

وكذلك الأمر هو مع دعاء المضطر..

لو كان هذا الداعي قد قضى وقته **في النوم والتثاؤب والثرثرة**، ثم قرر أن يدعو الله أن ينصره أو يغير له حاله، **لما دخل أصلاً في هذه السُنَّة، سُنَّة استجابة الدعاء..**

لكن يجب عليه أن يكون قد كرَّس كل جهوده لهذا الهدف، يجب أن يكون قد بذل أقصى ما يمكنه لكي يدخل في مساحة الاضطرار التي يُستجاب الدعاء من خلالها..

إنها السُّنَّة التي لا تتفعَّل إلا عبر الالتزام بكل السنن الأخرى.. ومحاولتها إلى الحد الأقصى.. ثم يأتي بعدها نصر الله.. وتوفيقه..

كشف السوء: الفهم أولاً..

أمر آخر يخص«كشف السوء» الذي جاء في السياق نفسه..

فعلى الرغم من أن التفسيرات تقدم الأمر على أنه إزالة السوء باعتباره جزءاً من الاستجابة لدعاء المضطر، وعلى الرغم من الاتفاق على صحة هذا المعنى، إلا أنه لا شيء يمنع وجود معنى إضافي لا يتناقض مع هذا المعنى، بل يمنحه أبعاداً أخرى..

فكشف السوء يعني أيضاً **تحري مساوئ تجربة ما، وكشف سلبياتها، والإفادة من هذا الكشف في أي مشروع بشكل عام، سواء أكان شخصياً، أم جزءاً من مشروع مجتمعي عام.. إنه النقد الداخلي المستمر لمشروع الاستخلاف**، وأعني **بالنقد الداخلي النقد الذي ينبثق من ثوابت المشروع نفسه**، من متابعة أهدافه ومنطلقاتها.. وليس ذلك **النقد الذي ينطلق من ثوابت المشاريع الأخرى**

المغايرة، ويحاول أن يجعل مشروع الاستخلاف نسخة أخرى منها..

«**كشف السوء**» **خطوة خطوة** هو جزء من السنن التي تؤدي إلى الاستخلاف..

وكشف السوء في مفاهيمنا المتراكمة حول دورنا في هذه الحياة هو خطوة مهمة في ذلك، بل هو جزء من سنة آن لنا أن نقوم بدورنا فيها..

◆◆◆

جزء من سنة الاستخلاف هذه، أنها لا تقف عند قوم بعينهم أو مدة زمنية معينة، فكما أن هناك استخلافاً مرتبطاً بسنن مررنا عليها، هناك أيضاً «**إذهاب**» **مرتبط بإهمال تلك السنن أو التراخي عنها..**

﴿وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾ [الأنعام:١٣٣].

فالإذهاب هنا مرتبط بكل ما هو عكس السنن، بالضبط هو **مرتبط بفقدان الإيمان بالسنن التي تؤدي إلى الاستخلاف، وبالتالي بعدم تطبيقها..**

لكن في الوقت نفسه، فلننتبه هنا إلى أن «إذهاب قوم ما» لا **يعني بشكل فوري ومباشر استخلاف قوم آخرين..**

فالآية تحدد ﴿كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾..

والإنشاء[٢٨] **في لسان العرب هو بداية الخلق، أي أن الأمر سيكون مثل إعادة كرة منذ البدء.. إعادة تأسيس وتكوين من نقطة البداية.. وهو أمر يتطلب ولا بد وقتاً طويلاً..**

والإشارة إلى الذرية تتضمن أيضاً أن ذلك قد يكون عبر أجيال متطاولة.. جيل يحمل البذرة، وجيل يحتضنها، وجيل ينميها.. إلى أن يأتي الجيل الذي يستخلف مجدداً..

بعبارة أخرى..

الإذهاب لا يعني أنه ستأتي أمة أخرى على الفور، وتنال دور الاستخلاف..

قد تأتي أمم أخرى وتقوم **بالاستعلاء..**

لكن الاستخلاف لن يأتي إلا إلى **أمة لها شروطها الخاصة..**

---

٢٨ لسان العرب: مادة (نشأ).

تمركزها الجغرافي غير مهم على الإطلاق، فالأرض كلُّها موقع استخلاف..

لونها غير مهم..

قرابتها بنا نسباً غير مهمة على الإطلاق..

لسانها غير مهم..

المهم هو تمكنها من تحقيق «شروط» الاستخلاف..

وسنأتي على ذلك لاحقاً..

الخروج من بطن الحوت إلى الخلافة..

على الرغم من أن سورة يونس **لا تعرض لموقف سيدنا يونس وأزمته ودخوله بطن الحوت**، وقد مر ذكرها في سور سابقة بترتيب النزول، إلا أن حملها لاسم يونس، الذي نتج عن إشارة لقوم يونس، يبقى مهيمناً على المتلقي..

وهكذا عندما تأتي إشارة قرآنية إلى «التعرض للضر» - في سورة يونس - فإننا سنتذكر حتماً، ولو بشكل غير واعٍ، تعرض سيدنا «يونس» إلى الضر..

التعرض للضر مسألة شخصية جداً، لكن تعرض يونس للضر لم يكن لأمر شخصي، بل كان من أجل أمر أكبر بكثير..

السياق القرآني يعمل على الربط بين ما هو شخصي وما هو عام.. على نحو ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤)﴾ [يونس:١٢-١٤].

يبدأ سياق الآيات فردياً، يتعرض لموقف لا يمكن إلا أن يتعرض له كل إنسان: الضر والنفع..

ثم ينتقل إلى موضوع الاستخلاف، وهذا الانتقال مقصود، فأنت بوصفك فرداً قد لا تشعر بربط كبير بالقضايا الكبيرة، إنك قد تهتم بها، قد تكون عندك معلومات عنها، وقد يكون لك رأي فيها، **لكنك نادراً ما تشعر أنك جزء من الموضوع،**

بالضبط نادراً ما تشعر أنك يمكن أن تؤثر فيه، لذا فالسياق القرآني المعجز يأخذك أولاً إلى ما لا يمكن إلا أن تهتم فيه، أي ضرك ونفعك الشخصيين، قد لا تهتم كثيراً بالحديث عن النهضة والتنمية وانهيار المجتمعات.. قد يبدو ذلك «كلاماً كبيراً» ليس من شأنك على نحو مباشر، لكن ما يضرك وينفعك سيمسك مباشرة، **الضرر يصيبك في صحة أولادك، في مستقبلهم، في عملك ومهنتك، وهذا يحصد اهتمامك فوراً.. لذا فالسياق يدخل من هذا الجانب، ويأخذك من يدك إلى «المستوى الأعلى».. إلى مستوى الاهتمام بالقضايا الكبرى التي قد لا تهمك لو دخلت إليها مباشرة..**

لكن السياق القرآني يدخلك إليها من مشاكلك الشخصية، هلاك الأمم قد لا يهمك، لكن هلاك أولادك أو هلاكك يهمك بالتأكيد.. وهلاك الأمم أو انهيارها، يضم هلاك أفرادها أيضاً، لكن هؤلاء الأفراد غالباً ما يتبلد شعورهم بالأمر بغريزة القطيع، أو بمفهوم "حَشْرٌ مع الناس عيد".. **لذا فهم لا يفعلون شيئاً.. حتى لو كانت هناك إشارات إنذار مبكرة، لقد استسلمت الأمة عندما استسلم أفرادها لذلك الأمان المزيف.. وكل القضايا الكبرى ستبدو بعيدة وليست من اختصاص الفرد..**

لكن السياق القرآني المعجز يمزج بين الخاص والعام، ويمحو الحدود الوهمية الفاصلة بينهما، لا حدود **هناك بين الفرد والجماعة، ولا حدود أيضاً بين العام والخاص، فكل شيء ينعكس على كل شيء**، ما يغلي في أعماق فرد ما يستمد حطبه ووقوده من المجتمع، وينعكس أيضاً على المجتمع في سلسلة تفاعلات لا نهائية بين الفرد والمجتمع.. لكن "الفرد" أحياناً، يعيش داخل حدوده الخاصة، لا يستطيع أن يرى تفاصيل حياته أبعد من طرف أنفه، ربما لأنها الطبيعة البشرية، وربما لأن المجتمع الذي يعيشون فيه قد قولبهم على ذلك لأسباب معينة..

لكن لو أن هلاك الأمم فُهم أولاً على أنه هلاكك الشخصي أيضاً، أو هلاك أفراد عائلتك، فإن هذا بالتأكيد **سيجعلك طرفاً**.. سيجعلك متحفزاً لأن تكون فاعلاً.. ستكون "النهضة" مفردة من مفردات حياتك اليومية، وليست حكراً على النخب في صالوناتها..

القرآن يقول لك: إن كل مشاكلك الشخصية تجد جذورها في مشاكل اجتماعية عامة، ولذلك فإن علاجاتها غالباً غير مجدية فعلياً على نحو فردي، بل يجب أن تكون "العلاجات" موجهة لجذر المشكلة الاجتماعي..

الضر والنفع لن يعودا مشكلة شخصية..

وهنا سيكون للقضية العامة أثر شخصي..

الإيمان بالإمكان

الآية القرآنية تكرس فكرة "الامتحان".. ﴿لننظر كيف تعملون﴾.. وذلك بعد أن جَعَلَنا ﴿خلائف في الأرض﴾.. وبين الجملتين رابط هو (لام التعليل) ﴿ثم جعلناكم خلائف في الأرض لننظر كيف تعملون﴾.. لننظر كيف تعملون.. **جعلنا خلائف، لينظر كيف نعمل، كيف نتحمل مسؤولية الاستخلاف..**

وكان مسلمو مكة يوم نزلت تلك الآية فئة مستضعفة، بل كان العرب كلُّهم أمة على الهامش آنذاك.. **لكن الآية تكرس فيهم أنهم "خلفاء".. وأنهم "البديل الكامن المحتمل" لقوى عظمى منهارة ومتهالكة،** ربما بدا الأمر بعيداً ساعتها، وربما بدا لهم أن تلك الأمم قد سبقتهم بقرون عديدة، وأنه لا سبيل – مهما كان- إلى اختصار تلك المسافة وتجاوزها.. لكن النقطة الأولى في تجاوز تلك المسافة هي في ذلك **الإيمان بالإمكان**.. أي الإيمان بإمكانية أن تكون الخليفة، أن تنجز ما يؤهلك لتكون مؤهلاً للدور الذي خُلقت أصلاً لأجله.. **هذا الإيمان الذي يلغي عقيدة النقص في داخل الأقوام والأمم هو النقطة الأولى في درب الاستخلاف الطويل..** وهكذا عمل الخطاب القرآني في نفوس الجيل الأول وعقولهم.. لقد هزم فيهم شعور الاستضعاف والهوان والذلة، هزم في داخلهم ذلك الشعور المألوف عندنا ولا عجب بأننا لا شيء، وأنهم سبقونا بقرون، وأنه لا سبيل هناك للحاق بهم، عدا عن سبيل للتفوق عليهم..

استأصل القرآن ذلك منهم من الجذور، لكنه لم يضع بدلاً عن ذلك محض **بذور للإعجاب الفارغ بالذات والعصبية المجردة عن أسبابها الموضوعية، بل وضع تجربة القرون السابقة على المحك، وحدد علامات "هلاكها" وعدولها عن دور الاستخلاف**.. وهي علامات يمكن أن تشوب أي جهد بشري، **فإذا زادت وصارت هي الأساس وهي القاعدة**.. كان ذلك علامة نهائية على وجود موعد لهلاك هذه التجربة..

اللا - إيمان

ما هذه العلامات؟..

إنهما علامتان أساسيتان.. سنراهما دوما في هلاك الأمم، ونرى أضدادهما في الاستخلاف، كلما تعمقنا في فهم آيات الخلافة.. والآية الكريمة تحددهما بوضوح شديد: **إنهما الظلم، واللا إيمان..**

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس:١٣].

فلنتنبه هنا إلى أن الآية لا تقول: "الكفر"، بل تحدد "اللا إيمان"..

هل هناك من فرق بين الأمرين؟

عملياً لا.

نظرياً الفرق قائم!..

فالكفر يتضمن معنى الرفض المبني على سبق قصد وإصرار، **أما "اللا - إيمان".. فهو تلك الحالة السلبية التي لا تبالي بالإيمان، ولا تبالي حتى بالكفر، إنها لا تتخذ موقفاً ضد الإيمان، لكنها لا تتخذ موقفاً ضد الكفر أيضاً، إنها تدعي الحياد، وتدعي أنها تفصل بين الإيمان وما سواه، وإنها تدعي أنه (ما لقيصر لقيصر، وما لله لله)، وأن دُوْرَ العبادة موجودة، وكذلك دُوْرُ الدعارة، وهي تدعي أن هذا الحياد هو ضمان لاستمرار ازدهارها، وقد يبدو ذلك مقنعاً للبعض على المدى القصير، ووفقاً لنظرة لا تتجاوز معدل عمر الفرد..**

لكن هذا اللا - إيمان هو عنصر آخر من عناصر معادلة الهلاك.. ونتائجه قد تكون أبطأ نسبياً.. وهو **بطء يغري البعض ممن تشكلت رؤيتهم ضمن المدى القصير على الإيمان بهذا النمط من الكفر المبطن..** لكنه "الهلاك".. على كل حال..

الظلم: أن تظلم نفسك أيضاً..

ماذا عن الظلم؟..

الآية لا تحدد هنا تفاصيله.. والظلم أنواع حتماً.. وأول ما يتبادر إلى أذهاننا (وكل

ما يتبادر إلى ذهن البعض) **هو ظلم الإنسان للإنسان..** لكن الظلم أنواع، أحياناً يكون الظلم لنفسه، أحياناً يكون الظلم **منبثاً في منظومة من القيم المتفق عليها والمقبولة اجتماعياً وقانونياً، وتعتبر منتهى العدل.. لكنها أيضا ظلم..**

فالظلم والعدل يعتمدان على المقاييس التي نحتكم إليها في تعريفهما.. كل المنظومات الإنسانية الوضعية للقيم والشرائع التي أنشاها الإنسان اعتمدت على معايير معينة ابتدعها الإنسان بنفسه، **لن ندعي هنا أنها خاطئة بالمطلق، لكن سيكون من التبجح الادعاء بأنها صحيحة بالمطلق،** على الرغم من أن دعاتها ومنظريها يجدون في أنفسهم ما يكفي من الجرأة للادعاء بذلك فعلاً.. لكنها في النهاية جهد بشري، والجهد البشري محكوم بنسبيته طالما أن الرؤية التي يحتكم إليها هي رؤية بشرية محدودة الزمان والمكان.. **أما ما نؤمن به نحن (أو ما يجب أن نؤمن به!)، فمعاييره قائمة من ذلك المصدر المتجاوز للزمان والمكان،** ولذلك نؤمن بأن **مفهومنا للعدل والظلم يتجاوز ذلك المفهوم النسبي العابر للعدل وللظلم..**

بعبارة أوضح: بعض المجتمعات التزمت بقيم معينة للعدل، يكون فيها من حق أي مواطن أن يتقدم ليكون رئيساً، أو أن يقاضي رئيسه أو حكومته... إلخ، وهذا عدل بلا شك، لكن دعونا لا ننسى **جانباً آخر للعدل تنساه تلك المجتمعات، إنها تسمح لذلك المواطن مثلاً أن يظلم نفسه،** أن يقضي حياته في شيء آخر غير الذي خُلق من أجله، في أن يكون له شركاء (أو شريكات!) جنسيين بقدر ما يشتهي أو بقدر ما يلقى القبول من الطرف الآخر.. أن يكون كل هدفه هو التسوق وتكديس المزيد من السلع.. **أن لا يكون ما خلق لأجله.**

هذا النمط من العدل يركز على جانب «السماح للفرد بالفعل».. **لكن العدل في حقيقته له جانب آخر، جانب يمنع الإنسان من أن يظلم نفسه، من أن يهدر إنسانيته..**

العدل هو أن تعمل ما يجب عمله، وأن تتجنب ما يجب أن تجتنبه..

وسياق الآيات يحدد الظلم بوضوح، **الناس يظلمون أنفسهم بأنفسهم، يتظالمون فيما بينهم، ويظلمون أنفسهم أيضاً..**

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس:٤٤].

والسياق يحدد الظلم الأقصى الذي يشمل كل أنواع الظلم، أن تفتري على الله الكذب، أو أن تكذب بآياته..

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس:١٧].

كل أنواع المظالم المتخيلة، والتي عانت منها البشرية، تجد جذورها هنا، في هذا الظلم الأقصى كما تحدده الآية، وهو أن تفتري على الله الكذب، أو أن تكذب بآياته، ولا يعني «الافتراء» على الله، مجرد تحريف آياته أو «تقويله» ما لم يقل صراحة..

لكن الافتراء على الله يكون أيضاً بادعاء أن أي نظرية وضعية وضعها الإنسان مستقلاً عن خالقه هي الحق أو الحقيقة.. ما دام هناك أي تصادم أو تناقض مع «قول الله»..

كل ما اقترفه البشر من مظالم كان ناتجا عن هذا، **إما تكذيب صريح لقول الله، عبر الإعراض عنه، أو عبر تحريف ما قاله..**

لا نتحدث عن «المجازر» و«الاستبداد» فحسب.. بل نتحدث أيضاً عن ذلك النوع من الحياة التي قد لا يكون فيها مجازر أو ظلم من النوع الذي تعودنا على اعتباره ظلماً..

بل أيضاً ظلم الإنسان لنفسه، ولنوعه الإنساني ككل.. ظلمه لنفسه بإنزاله موضعاً لم يقرره خالقه له.. ظلمه لنفسه بفراره من الوظيفة التي عيّنه الله فيها..

كل ذلك ظلم.

وكله يؤدي إلى «هلاك الأمم»..

لا ندعي هنا أن مجتمعاتنا - بوضعها الحالي - قد أنجزت أياً من الجانبين، لكن هذا لا يعني أن علينا أن نتغاضى عن ظلم الإنسان لنفسه تحت شعار العدل أو سواه..

مع آيات الخلافة والاستخلاف، سنفهم هذا المعنى أكثر.. وأكثر..

فلنتذكر هنا أنه يمكننا دوماً من معرفة **أسباب الهلاك أن نعرف أسباب البناء**، بالضد والتضاد من أسباب الهلاك..

وإذا كان الظلم من أسباب الهلاك، **فالعدل هو من أسباب النهوض.**

وإذا كان اللا إيمان هو من أسباب الهلاك، فالإيمان هو من أسباب النهوض..

فلنتذكر ما مر بنا في سورة (ص)، من ﴿احكم بالحق﴾.. فالعدل هنا هو ما يستمد من الحق حصراً، وليس ما يستمد من مسطرة موازين وقيم وضعية.

والحق هو ما بني عليه الكون.

وأيضاً: الكتاب..

أما الإيمان فسنتطرق إليه بالتفصيل.. لاحقاً.

◆◆◆

دعونا لا ننسى قبل الانتقال إلى آية أخرى أن الجيل الأول تقبل هذه الآيات وهو في مكة، وكان وضع عرب الجاهلية لا يقلُّ سوءاً - بكل المعايير - عن سوء أوضاعنا اليوم.. وكانت الأمم الأخرى الهالكة تتفوق في جوانب كثيرة على العرب ومجتمعاتهم..

على الرغم من ذلك، لم يكن هذا سبباً في أن تتجه كل الأنظار إلى «الداخل» فقط، إلى إعادة بناء المجتمع دون فهم نقاط ضعف المجتمعات الأخرى ونقاط قوتهم..

عليك **أن تفهم «منجزات» الآخرين بسلبياتها وإيجابياتها، حتى لو لم تكن قد أنجزت بعد..**

ربما في الحقيقة **لن يمكنك أن تنجز فعلاً إن لم تفعل ذلك..**

أو سيكون إنجازك مجرد نسخة مقلدة ومشوهة مما فعلوه، **ربما بسلبيات مضخمة وإيجابيات منكمشة..**

أما نحن فما إن نقوم بنقد ما في المجتمعات الأخرى، حتى دون أن نسقط في فخ الدفاع عما هو كائن من بناء متصدع نعيش فيه، فإنهم سرعان ما سيقولون: **ما لنا ولهم؟.. فلنركز في أمراضنا..**

جاهلين أنه لكي **نعالج أمراضنا علينا أن نفهم أمراضهم أيضاً.**

تعدد الغرق، والهلاك واحد..

سورة يونس ذاتها تعطينا لاحقاً نموذجاً مزدوجاً عن الهلاك، وعن الاستخلاف الذي عقبه..

وهو نموذج مهم تاريخياً لأن كل الحضارات الإنسانية، حتى تلك التي لا ترتبط بكتاب سماوي، تملك أثراً في موروثها يدل على وجود هذه الحادثة..

إذن الهلاك هنا لم يكن هلاكاً لمجتمع واحد، أو امة واحدة، بل كانت الإنسانية تمر بأزمة عامة انتهت بها إلى هلاك عام..

النموذج في هذه الآية يذكرنا بقصة سيدنا نوح..

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس:٧١-٧٣].

الهلاك كان هنا بالغرق كما هو معروف، وقد يقول قائل: إن الحالة نادرة الحدوث، لكن الحقيقة أنها متكررة جداً، **وإن أغلب الأمم الهالكة تهلك بغرقها.. حتى لو هلكت بشيء آخر..**

كيف؟..

لفظة «غرق»[٢٩] في لسان العرب لا تعني فقط «الغرق في الماء»، **وإنما تعني أيضاً ما نقوله عن الغرق في البلايا أو الديون، إنها تعني «أن تسقط في أمر سيئ» من المصائب أو الذنوب، وأن يكون هذا سقوطاً لا يغطي جزءاً واحداً منك، بل يغطيك كلَّك، من رأسك إلى أخمص قدميك، وبالتالي يكون يشبه الغرق في الماء..**

لا أدعي هنا أن غرق قوم نوح كان رمزياً، فذلك مدحوض بالنص القرآني نفسه، وبكل ما ذكرنا من الشواهد التاريخية في موروث الحضارات الإنسانية، لكني أذكر هنا أن النص القرآني المعجز ضم دوماً زوايا متسعة باستمرار تفتح أذهاننا على معانٍ متجددة وغير متناقضة مع النص القرآني..

فلنتذكر هنا أن **الغرق يختلف عن الصاعقة مثلاً أو الريح التي أهلكت أقواماً وأمماً أخرى**، فلكل أمة هالكة ولكل «نمط» هلاك أسبابه الموضوعية، لكن الغرق يتصف بكونه **يحدث بالتدريج، ببطء**، حتى لو كان فوران التنور مفاجئاً للبعض، **فإن الغرق بطبيعته يحتاج إلى «الوقت».. وهو أمر مفهوم خاصة مع الفترة الزمنية الطويلة لتجربة نوح.**

الصاعقة لها أسبابها الموضوعية أيضاً، لكنها مثل حدث «قاصم» يأتي على مجتمع منخور أصلاً، مثل أزمة اقتصادية يمكن أن تعبر على مجتمع قوي ومتماسك، لكنها

---

٢٩ لسان العرب: مادة (غرق)

عندما تأتي على مجتمع منخور فإنها تجهز عليه فعلاً..

أما الغرق فالناس تنتبه لأسبابه، لبعضها على الأقل من البداية، وتكون واضحةً جليةً للعيان، لكنهم لا يعتبرونه خطراً، إلا عندما يصل إلى أنوفهم ويحرمهم من التنفس.. **أما قبلها فإنهم يحاولون التعايش مع الخطر المتزايد باعتباره أمراً عادياً أو ضريبة «التقدم» و«الحياة المعاصرة»..** لذلك فهم يبحثون عن حلول جزئية تمكنهم التعايش مع هذه الحالة، ربما بالاقتناع بكونها أمراً لا بأس به، أو عبر الحبوب المهدئة أو المساعدة على النوم مثلاً..

وهكذا فإن الهلاك بالغرق، هو الشكل الأكثر «معاصرة» وانتشاراً في وقتنا الحالي، **ولأن الهلاك يستغرق وقتاً طويلاً فإن البعض لا ينتبه للماء المتسرب، أو بالأحرى لسبب الغرق،** لتلك المشاكل التي تزيد بالتدريج، وسيظل **يروج لذلك النموذج ولتلك الأمة «الغارقة» ومبادئها، وهو لا يدرك أنه إنما يروج للطوفان القادم ولو بعد حين..**

الفُلك: الدوران حول محور مختلف وثابت

هذا عن الغرق، فماذا عن الفُلك؟

مرة أخرى، اللفظ القرآني يفتح الأبواب على معانٍ ممتدة وغير متناقضة، وقد تعودنا أن معنى الفُلك هو «السفينة»، وهذا ثابت ومؤكد بخصوص قصة سيدنا نوح، لكن لفظ الفلك **أيضاً يعطي معنى الدوران حول محور معين،** وهذا يعني **أن للسفينة الخارجة من الأمة الغارقة ثوابت مختلفة تدور حولها، منظومة قيمية مختلفة تدور حولها، منظومة مضادة ومغايرة لمنظومة الأمة الهالكة..** وهكذا بينما يدور محور تلك الأمة حول دوامة تأخذها إلى الأسفل.. فإن محور السفينة، محور أولئك الخارجين من المجتمع الهالك، أولئك الناجين.. يكون حول منظومة قيمية مختلفة جداً، منظومة تؤهلهم لأن يقدموا البديل.. بالضبط تؤهلهم ليكونوا «الخلفاء»..

فلنتذكر أن الإصلاح هنا أمر غير وارد، فبعض المجتمعات تصل لدرجة لا يجدي فيها الإصلاح، لأن الأساسات التي بُني عليه المجتمع هي خاطئة أصلاً..

لذا فالهدم.. (الغرق) هو بطريقة ما الحل الوحيد المؤدي إلى إعادة البناء على أسس جديدة..

فلنتنبه هنا إلى **أن الإيمان هو الشرط الأساسي** في ركوب تلك السفينة، لكنه لا يشبه ذلك الإيمان السائد حاليا، أي **الإيمان اللامبالي، إيمان هو أقرب للحياد منه إلى أي شيء آخر، إنه إيمان فاعل، إيمان يبحث عن البديل، بل يصنع البديل، إيمان يجعل خروج أصحابه ليس هروباً من الغرق بقدر ما هو من أجل إنقاذ الإنسانية من الغرق، من أجل أن يقوموا بأداء ما خلقوا من أجله..**

ما يلفت النظر هنا أن قصة نوح كانت ترتكز في بدايتها، بل وحتى الطوفان بشكل كبير، **على فرد واحد هو نوح نفسه..**

لكنها تنتهي هنا.. وقد صار الكل خلفاء.. ﴿وجعلناهم خلائف﴾.

نفهم أن نوحاً هنا كان الخليفة.. والنص القرآني لم يقل ذلك طبعاً، لكن ذلك مفهوم ضمناً..

لكن ما معنى أن يكون الكل خلفاء؟..

ما معنى ﴿وجعلناهم خلائف﴾ بالجملة؟.. كيف صاروا خلفاء بالجملة بعد الطوفان، ونحن لا نراهم قبله يقومون بدور ما؟

بـ «الجملة» سنراهم بعد الطوفان خلائف، ولكن بالتفصيل **سنرى نوحاً وهو يقوم بذلك، نوح الفرد - الخليفة، عبر بهم من الغرق إلى البر، ومن الهلاك إلى النجاة، ومن اللا فعل إلى الفعل كله، إلى الفعل الأقصى..**

نوح لم يبنِ السفينة فقط، **بل بنى «الإنسان - الخليفة».. بل إن بناء الإنسان الخليفة كان جزءاً لا يتجزأ من بناء السفينة، كما أن بناء السفينة كان جزءاً لا يتجزأ من بناء الإنسان.. كان الأمران عنصرين أساسيين من معادلة الخروج والنهوض..**

أولئك الذين كان الإيمان بطاقة صعودهم إلى تلك السفينة، لم يكن الإيمان بالنسبة لهم «وجهة نظر».. لم يكن رأياً اعتنقوه بين الآراء، بل كان وسيلة أعادوا من خلالها بناء أنفسهم.. لوحاً بعد آخر، ودسراً بعد أخرى.. وكانت **المشاركة في بناء السفينة، في الفلك الذي يدور حول منظومة قيمية مختلفة تماماً، في مشروع لحياة من نوع مختلف جداً، جزءاً لا يتجزأ من عملية بناء الذات، لا بناء السفينة فحسب أو المجتمع القادم**، لكن تلك الذات قيد البناء كانت جزءاً من بناء السفينة والمجتمع، كانت ذاتاً تُستخدم مواد أولية في البناء هي نفسها التي سيبنى عليها المجتمع الجديد والسفينة التي ستبحر له..

فلنتذكر تلك الإشارات الهامة التي تؤدي دوماً إلى الهلاك وانهيار الأمم، والتي مرت علينا في الآية السابقة من سورة يونس: الظلم واللا إيمان (وليس حتى الكفر كما مر سابقاً)..

ولا ريب أن المواد الأولية التي استُخدمت في البناء المغاير **كانت «العكس» من المواد الأولية للانهيار..**

الإيمان الذي هو أكبر بكثير من مجرد اعتناق رأي أو فكرة معينة..

والعدل الذي سنفهمه أكثر وأكثر.. كلما أبحرنا مع الآيات..

الفرد والجماعة: بيضة ودجاجة؟

لكن ما يلفت انتباهنا هنا هو تلك العلاقة بين الفرد (نوح عليه السلام) وبين الجماعة.. فالعلاقة بين **الفرد** - القائد أو البطل عموماً و**الجماعة** لا تخلو من التباس في الأذهان، فمن قائل: **إن الجماعة تفرز قائدها، أو أنه ينشأ بسبب ظروف اجتماعية معينة..** ومن قائل: إنه يكون استثناء يغير السياقات التي يدخلها..

علاقة الفرد بالتاريخ وتأثيره فيه أيضاً لا تخلو من التباس.. هل يستطيع فرد واحد حقاً أن يغير التاريخ؟.. أم أن الأمر أعقد من ذلك، **وأن التاريخ يفرز تغييرات تنتقي أبطالاً معينين؟**

لا أحب - شخصياً - أن أكرس الفردية في شيء، لكن النص القرآني واضح في أن أفراداً استثنائيين (الرسل والأنبياء تحديداً) **استطاعوا تغيير التاريخ والعالم**، وتركوا أثراً تجاوز حجمهم بوصفهم بشراً، بعبارة أخرى يمكن القول، **إن العالم ما كان سيكون بالشكل ذاته لو أنهم لم يكونوا..**

هناك بطريقة أكثر انتشاراً زعماء وقادة لا شك في مهاراتهم ومنجزاتهم، **لكن حذفهم من التاريخ لن يحذف بالضرورة ما أنجزوه**، لأن غيرهم كان سينجزها بكل الأحوال، **هؤلاء الأشخاص يسدُّون حاجة ما، يكونون استجابة لتحدٍّ واضح تواجهه مجتمعاتهم، وهذا التحدي يفرز «رد فعل» وينتج قيادات وزعامات قد تختلف في إدارتها للتحدي وفي بعض التفاصيل، قد يكون بعضهم متهوراً وبعضهم حكيماً**، وقد يعبر عن تهور يعتبره مجتمعه حكمة أو العكس، بكل الأحوال، هذه القيادات هي نتيجة تحدٍّ خارجي أو داخلي تعيشه هذه المجتمعات.. وإن لم يكن هذا الزعيم فسيكون سواه.. (إلا إذا كانت المجتمعات قد أجدبت تماماً وفسد حتى الملح فيها..).

لكن الأنبياء والرسل الذين يتم انتقاؤهم من الله عز وجل لا يدخلون قائمة التحدي والاستجابة، إنهم أشخاص استثنائيون على الأقل من ناحية أنهم لو لم

يأتوا لما جاء سواهم، لتغير العالم الذي نعرفه اليوم بشكل لا يمكن تصوره..

وسيقودنا هذا إلى أمرين:

أولهما أن البشرية تتحمل **مسؤولية كبيرة** منذ ختم النبوة، إذ لم يعد هناك أشخاص تنتقيهم وتنقيهم الإرادة الإلهية المباشرة، بل صار **هناك زعماء وقادة حسب التحديات وحسب أشياء أخرى منها الأهواء ومنها المصالح..**

وهذا يجعل العبء أكبر على من يقتفي خطى الأنبياء.. لأن مسؤوليتهم تصبح أكبر، (إرث النبوة) يتضمن حتماً جزءاً من هذه المسؤولية الكبيرة التي تحملها البشرية على عاتقها منذ ختم النبوة، **لقد انتهت الفرص الإضافية، وآن للبشرية أن تحمل رسالتها، وتؤدي ما عليها دون شخص «رسول أو نبي» مباشر، بل بتعليماته وخطاه على الدرب..**

الأمر الثاني الذي علينا أن نفرق فيه بين «الرسل والأنبياء» ومن يقتفي خطاهم من جهة، وبين القادة والزعماء الذين يشكلون الاستجابة للتحديات، والذين تنتجهم ظروفهم، من جهة ثانية، هو أن **هؤلاء الزعماء - أي الطرف الثاني في المقارنة - يهدفون غالباً إلى «جمع الجماهير أو استقطابهم» من أجل أهداف واضحة سياسية أو اقتصادية تمس مستقبل الجماهير بشكل منظور..** وهم من أجل ذلك يضطرون إلى مداعبة عواطف الجماهير، وربما تملقها، بدعاوى قد لا تخلو من تعصب لعرق أو لون، أو بأمنيات قد لا تكون واقعية لرخاء وازدهار قادمين، وبغض النظر عن كونهم يصدقون في هذا أو لا **فإنهم يضطرون في عملية الاستقطاب هذه إلى استثمار ما هو موجود أصلاً في نفسية الجماهير وعقلها الجمعي..**

التحديات المباشرة والأهداف المنظورة - التي يواجهها ويتصدى لها هؤلاء الزعماء - لا تتحمل خطط نهوض بعيدة المدى، لأن النهوض بعيد المدى، النهوض المنشود قد يتطلب أن تتخلص هذه الجماهير من بعض مكرسات عقلها الجمعي ومقدساته، وعملية التخلص هذه قد تؤلب الجماهير لأنها تمسها في «عقلها الجمعي» المحاط عادةً بالألغام، وهذا بدوره قد ينفر الجماهير، مما يعطل عملية الجمع والاستقطاب التي هي أولوية بالنسبة للقادة والزعماء المرحليين..

لكن دور الأنبياء والرسل **ومن يقتفي خطاهم مختلف جداً، «الاستقطاب والجمع» ليس هدفاً بحد ذاته، بل عملية تغيير الوعي، عملية هدم ما يجب هدمه، واستئصال ما يجب استئصاله، ومن ثم البناء والبذار..**

إنها عملية زرع لرؤية جديدة للعالم، ونزع الرؤية السابقة، **ولأن هذه الرؤية السابقة تكون تراثاً وإرثاً مما يعتز به الناس**، مما تعودوه وألفوه طيلة حياتهم، ولأنها كانت جزءاً من عالمهم القديم، لذا فإنهم **يقاومون الأنبياء، ويصدون عنهم**، بأكثر بكثير مما يفعلون مع القادة حتى لو طلبوا منهم تضحيات، كما أنهم يقاومون عملية التغيير الجذري، عملية الهدم بِنِيَّة البناء، بينما يتقبلون **أكثر عملية إصلاح جزئية، عمليات ترميم لن تمس الأسس المنخورة للبناء الآيل للسقوط.. خاصة أن الإصلاح الجزئي نتائجه أسرع ظهوراً، حتى لو كانت عابرة وقليلة التأثير على المدى البعيد.**

وهكذا كانت دعوة نوح وكل الأنبياء والرسل **وكل قادة التغيير الحقيقي** ممن يسيرون على خطاهم من مفكرين وكتاب ودعاة، **دعوة جذرية، دعوة شاملة، دعوة تعيد ترتيب الطريقة التي يرى فيها الإنسان العالم، ومن ثم تعيد ترسيمه وتنصيب دوره في هذا العالم، تعيده إلى وظيفته التي خلق من أجلها..**

وهكذا كانت دعوة نوح وكل الأنبياء والرسل وكل قادة التغيير الحقيقي ممن يسيرون على خطاهم من مفكرين وكتاب ودعاة، دعوة جذرية، دعوة شاملة، دعوة تعيد ترتيب الطريقة التي يرى فيها الإنسان العالم، ومن ثم تعيد ترسيمه وتنصيب دوره في هذا العالم، تعيده إلى وظيفته التي خلق من أجلها..

سيواجه قادة هذا النوع من التغيير الحقيقي **مقاومة كبيرة من الشعب المستهدف في التغيير نفسه**، وقد تبقى أفكارهم حبيسة الأدراج أو النخب والدوائر الضيقة..

لكن في مرحلة ما ستواجه المجتمعات **حقيقة أن الغرق آتٍ لا محالة، وأنه لا بد من تغيير جوهري عميق في أساليب الإنقاذ والنجاة..**

هنا سيأتي **دور القادة الجماهيريين**، سيأتون ليستخدموا **"المواد البديلة" التي قدمها "قادة الوعي البديل"** والتي صارت مقبولة أكثر بالتدريج بالنسبة للناس..

كان الأنبياء والرسل فيما مضى يجمعون بين المهمتين..

لكن هذا انتهى مع ختم النبوة..

❖❖❖

من المهم هنا أن نحاول أن نجمع ما قد يبدو أنه شتات في سورة يونس..

أولاً- الإشارة إلى الضُر قد مهدت إلى الإشارة إلى الاستخلاف، كما لو أنه لا يمكن حقاً

الوصول إلى الاستخلاف دون المرور بالضُر، والخروج منه بعقيدة أقوى وعزيمة أكثر متانة.. كما لو أن "الضُر" هو امتحان آخر علينا أن نتعامل معه لكي نصل إلى مبتغانا، بل كما لو كان الضُر "دورة تدريبية"..

ثانياً - على طول السورة لم تكن هناك إشارة إلا إلى ثلاث تجارب رسولية فقط، يونس ونوح وموسى..

الإشارة إلى تجربتي نوح وموسى تتكرر كثيراً في القرآن، فلا غرابة في جمعهما في هذه السورة أو سواها، لكن جمعهما مع الإشارة إلى يونس هو ما يستوقفنا..

الحقيقة أن هناك مشتركاً مهماً في التجارب الثلاث قد يميزها عن سواها ويجمعها في هذا السياق.

هذا المشترك هو "الغرق".

مع يونس كان الغرق قاب قوسين أو أدنى منه.. كان قد "أُلقي في البحر"، عندما حاول الهرب من مسؤوليته بتبليغ قومه، والتقمه الحوت..

من الخارج كان قد "غرق" فعلاً..

لكن خروجه من الحوت عبر تغيير رؤيته ووعيه بأنه كان ظالماً فقط لتخليه عن مسؤوليته ﴿لا إله إلا أنت سبحانك أني كنت من الظالمين﴾[30] أدى إلى تجنيبه وقومه مصير الغرق..

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

مع نوح الأمر أوضح..

الغرق كان عاماً للمجتمع.. الاستثناء كان لمن آمن فقط.. مجتمع يونس كان قابلاً للإصلاح، لذا فقد تمكن يونس بمروره بالغرق العابر وخروجه بعزيمة أقوى أن يصلحه، وأن يجنبه الغرق.. أو يؤجله إلى حين..

مع موسى الغرق مجدداً، لكنه كان من نصيب فرعون ومن معه..

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ

[30] للمزيد عن تجربة يونس: (البوصلة القرآنية) للمؤلف.

قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

أي أنه إما أن يغرق الجميع إلا من آمن وركب "الفلك"..

أو أن يغرق الظالمون فقط، فرعون وأتباعه..

أو أن يمر قادة المجتمع بتجربة "غرق" يدركون فيها أن عليهم مواجهة مسؤولياتهم في تغيير ما يجب تغييره..

فأي من هذه الخيارات سنرتضي لحياتنا ومجتمعاتنا؟

سورة الأنعام: نعمة أن تكتشف أنك إنسان

ليست سورة الأنعام أول سورة ذكرت فيها كلمة خليفة أو لفظ مشتق من الفعل خلف.. لكن الإشارة إلى «الخلافة» في خاتمتها تجعلها في موضع مهم، إذ إن كل ما في السورة - وهي من (السبع الطوال) - ينتهي ليصب في خاتمتها.. وهو ما يجعل هذه الخاتمة - التي تتحدث عن الخلافة- مرتبطة بكل ما جاء في هذه السورة، التي تتحدث - مثل أغلب السور المكية - عن عقيدة الإيمان بالله عز وجل..

وهذا ما يجعل **العقيدة مرتبطة بمفهوم الخلافة والاستخلاف..**

الآية الخاتمة في السورة، هي..

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأرض وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقبلها مائة وأربع وستون آية **تصب كلها في هذه الآية**، في كونه تعالى جعلنا ﴿خَلَائِفَ الأرض﴾.. كما أنه ﴿خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور﴾ [الأنعام: ١]، كما أنه ﴿خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون﴾ [الأنعام: ٢] كما أنه ﴿كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ [الأنعام: ١٢]..

وأنه ﴿فالق الحب والنوى﴾ [الأنعام: ٩٥].

وأنه ﴿هو الذي أنشأكم من نفس واحدة﴾ [الأنعام: ٩٨].

كل ما جاء في سورة الأنعام مما يعدُّ اليوم جزءاً من عقيدتنا في الله، يصب في تلك الآية الخاتمة التي تقول لنا: إنه سبحانه وتعالى جعلنا ﴿خَلَائِفَ الأرض﴾..

إنها عقيدة أيضاً.

مثلما أنه كتب على نفسه الرحمة.

ومثلما أنه خلق السموات والأرض.. وأنه خلقنا من نفس واحدة.. وأنه لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار..

كلُّها عقائد لا جدال فيها..

كلُّها مما نؤمن به، وإيماننا به يجعلنا مسلمين..

كذلك أنه جعلنا «خلائف»..

هذه أيضاً عقيدة..

كل ما في الأمر «**أنهم**» **لم يدرجوها في كتب العقائد التي درَّسونا إياها..**

لكنها **بقيت في القرآن..**

وهذا هو المهم..

◆◆◆

ترتبط سورة الأنعام بموقف إبراهيمي مميز شديد الأهمية في الطرح القرآني لقصة إبراهيم، لا لأنه مما يتميَّز به إبراهيم كما نؤمن به عن إبراهيم، وكما يقدم في العهد القديم الحالي، بل لأن هذا الموقف يميز «**إسلامنا**» كله عن بقية الأديان..

كيف؟

إبراهيم هو المسلم الأول.. على الأقل هو من سمّانا مسلمين ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨].

وإليه انتسب الرسول الكريم ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وملته هي التي حددها القرآن بكونها الأعلى من أي ديانة أخرى ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

هذه المكانة «المميزة» لإبراهيم تجعل من **قصة إيمانه قصةً لإيماننا أيضاً**.. أو لما يجب أن يكون عليه الإيمان بالأحرى.. تجعل من إسلامه قصة للإسلام ككل..

فكيف كان إيمان إبراهيم؟

الجواب جاء حصرياً في القرآن.. جاء بشيء لم يأت في التوراة على الرغم من أنها أفرزت لإبراهيم مساحة واسعة.. كما لو أن هذا «المسكوت عنه» توراتياً كان لا يناسب الطبيعة النهائية للدين الذي سيستند على «التوراة»..

ويتفق تماماً مع «الإسلام الحقيقي»..

إيمان إبراهيم: التساؤل من أجل اليقين

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)﴾ [الأنعام:٧٦-٧٩].

تفردت سورة الأنعام بتقديم ذلك المشهد الإبراهيمي المتوتِّر الباحث عن الحق والحقيقة بين مكرسات قومه ومعبوداتهم..

استخدم إبراهيم رأسه ليحطم مكرسات تقولبت عليها الرؤوس، وصارت لا تفكر إلا من خلالها.. اكتشف منفرداً هشاشة منطقهم وتناقضه، **اكتشف هشاشة أي منطق يضم تناقضاً في داخله، اكتشف أن كل ما يُبنى على التناقض يحمل معولاً يهدمه في أعماقه..** لكن قليلاً فقط من الناس من يجرأ على البحث عن هذا المعول.. **وأقل منهم من يجرأ على استخدامه..**

لكن إبراهيم فعلها!..

في تلك الليلة فعلها..

واكتشف بنفسه بطلان كل ما يعبده قومه من دون الله..

وصار بهذا «مؤهَّلاً» لاستلام «الوحي»..

النبوة لم تأتِ اعتباطاً أو صدفة، ولم تكن فقط لسمو أو رفعة أخلاقية.. بل كانت أيضاً تتويجاً «لعقل» رفض الرضوخ لمكرسات المجتمع دون أن يقوم بفرزها وتفنيدها..

هذا هو أبو الأنبياء.. كما يقدمه القرآن..

هذا هو المسلم الأول.. وهذه هي ملته التي انتمى إليها نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام..

لم يبدأ إيمانها من **وحي نزل بلا مقدمات.. ولم تكن النبوة فيها ناتجة عن قوى خارقة قدمها عز وجل لأنبيائه تعصمهم مسبقاً..**

بل كانت نتيجة جهد فكري وأخلاقي، جعلت النبوة مستحقة في عصر النبوات..

هذا عن المكانة المميزة لإبراهيم في القرآن، بالتحديد تُقدم في سورة الأنعام..

كيف يمكن ربطها بخاتمة السورة التي دارت حول الاستخلاف؟

لم يكن ذلك عبر وجود الموقف فحسب في سورة تنتهي عند الاستخلاف..

بل جاءت الإشارة في الآيات الأخيرة من السورة، قبل أن تنتهي السورة بالضبط، **كما لو أنها كانت لتحكم العلاقة بين تلك الليلة التي أشرق فيها العقل[31] وبني الاستخلاف..**

كما لو أنها كانت تقول لنا: إن إبراهيم لم **يتمرد على أصنام قومه ليتفرغ لتأدية شعائر وطقوس العبادة كما نفهمها اليوم..**

بل فعل ذلك ليقدم العبادة في معناها الشامل الكامل، معناها الذي لا يقف عند «الشعائر»، ولا يتجاوزها أيضاً، بل لم يكن يوجد أصلاً هذا الفصل المفترض (الذي تعودنا عليه حتى اعتبرناه بديهة لا تناقش) بين العبادة بشكلها الشعائري

[31] العقل المقصود هنا هو العقل الذي يتشكل حسب القرآن، وليس العقل بالمطلق، فضلًا عن عدم وجود عقل بالمطلق حسبما أعتقد.. ولعل الله ييسر لنا أن ننتج بحثاً مستقلاً فيه.

والعبادة بمعناها الحياتي اليومي.. بمعنى مشروع الاستخلاف في الأرض..

إبراهيم لم يحطم أوثان قومه «الفكرية»، **لينزوي بعدها في مكان منعزل يتعبد..**

ولم يحطم أصنامهم بمعوله ليجلس على ركامها ويسترخي..

بل فعل **ذلك ليساهم في بناء جديد..** في مشروع لا يقتصر على الهدم، ولكن لا يستثنيه..

مشروع الاستخلاف..

لقد حطم **أصنامهم لأن الشرك بكل ألوانه وأنواعه، فكراً كان أو مظاهر شعائرية، هو عقبة في مشروع الاستخلاف..**

لا يمكن لمشروع الاستخلاف أن يمضي قُدُماً دون أن «يهدم» ما يجب هدمه.. ويستأصل ما يجب استئصاله..

حطم أصنامهم، لكنه لم يكتفِ بذلك.. بل مضى على درب الاستخلاف..

ذلك الدرب الذي سار عليه بقية الأنبياء من بعده، وأكمله محمد عليه الصلاة والسلام..

درب الاستخلاف..

أم نقول: «صراطه»؟..

صراط الاستخلاف: من العقل نبدأ

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥)﴾ [الأنعام: ١٦١- ١٦٥].

هكذا أمر الله عز وجل رسوله الخاتم أن يؤكد أنه على صراط إبراهيم، على ذلك الدرب الذي ابتدأه منطلقاً من الحق في التساؤل، **من الإيمان المبني على الوعي، من الإيمان الذي يرفض التناقض في منظومته، ولا يتردد في رفض ونسف كل ما**

يمكن أن يعكر نقاء هذا الإيمان عبر الركون إلى أي مرجعية أخرى غير مرجعية النص الإلهي..

هذا الإيمان الواعي الذي يعد «العقل» شريكاً في الوصول، لا عقبة يجب تجاهلها أو الالتفاف حولها كما في أغلب الديانات المعروفة بصيغتها «الحالية».. **هو الذي يمكن أن يوصل إلى الاستخلاف..**

لا يمكن لمن يرفض أن يصدق أن إبراهيم تساءل، وأن إيمانه بُني على بحثه عن الحقيقة، لا يمكن لمن يرفض ذلك أن يساهم خطوة واحدة في صراط الاستخلاف، لأنه ببساطة يفارقه منذ البداية، ما دام يرفض أن يُقر بأن الإيمان - كما طرحه الإسلام عبر «المسلم الأول» الذي سمّانا مسلمين - كان إيماناً مستنداً على العقل ليصل إلى «التأهل للوحي»..

إيمان إبراهيم الذي هو في الحقيقة الإيمان كما يجب أن يكون، إيمان الملة الحنيفية التي آمن بها كل الأنبياء، هو الذي يوصل إلى الاستخلاف..

وليس الإيمان الذي يحاولون أن يوهمونا به، من أن إبراهيم كان يناظر قومه عبر تلك الآيات فقط ليدفعوا عنه ما يتصورونه تهمة، وهو ما يستحق الاعتزاز والفخر..

ذلك الصراط الموصل إلى الاستخلاف يبدأ بذلك الاندماج بالتصالح بين العقل والإيمان، بتوحيد نقي وخال من الشوائب، يمر عبر مصفاة العقل.. ليكون قادراً على فهم نصوص الوحي والتفاعل معها بأكبر قدر ممكن من الاستقلالية عن أي مفهوم «وثني» - وضعي عابر.

وقد شاءت الحكمة الإلهية أن يتم التأكيد على العلاقة بين سيدنا «إبراهيم» وهذه الآيات الخاتمة لسورة الأنعام لا عبر ذكر اسمه والانتساب لملته فحسب، بل في صيغة دعاء مأثور جمع بين هذه الآيات والآيات التي قيلت على لسان إبراهيم في القرآن الكريم..

إنه الدعاء الذي نُقل أن الرسول الكريم كان يفتتح به الصلاة، دعاء الاستفتاح، وهو قوله: **(وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً [مسلماً] وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين)**[٣٢]..

هذا **الدعاء الذي كان الرسول صلى الله عليه وسلم يفتتح به الصلاة، يجمع بين ما قاله إبراهيم فور أن أنهى تحطيم مكرسات قومه، وبين الآيات الخاتمة في**

٣٢ صحيح مسلم ١٨٤٨

سورة الأنعام، كما لو يربط عليه الصلاة والسلام بين الموقفين[٣٣]

«وجهت وجهي» هنا تعني أكثر **من مجرد «تحديد القبلة».. إنها تمنح ذلك الشعور بأنك تمضي في طريقك، تنصرف عن كل ما سواه، وتتوجه له ماضياً في الدرب حتى نهايته..**

درب الاستخلاف.

كل ما في حياتي..

فالآيات التي تتحدث عن «صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي»، تتحدث **بصيغة فردية شخصية وحميمية جداً..**

وهي تتحدث عن «مشروع حياة»..

عن كل ما يمكن أن يكون مؤثراً في حياتك، كمشروع..

ابتدأ الأمر بالصلاة، فهي **الشكل الذي يضم المعنى، ودون الشكل لن يكون هناك معنى، مهما حاول المنفلتون من إيهامنا بأن المهم هو ما في القلب..** وأن المهم هو ما نفعله، بغض النظر عن صلاتنا أو عدم صلاتنا..

الصلاة ليست مجرد **قالب شعائري، بل هي أيضاً المعاني العميقة التي ترتبط خطوة بخطوة بكل ركن وهيئة من أركان الصلاة وهيئاتها، من التكبير إلى التسليم**، بمشروع القيام، الذي هو «الاستخلاف» في جوهره أو في مرحلة من مراحله على الأقل..[٣٤]

والنسك - الذي يعرف عادة بالذبيحة - **هو أيضاً كل تضحية تقدمها في حياتك على مذبح التقرب من الله عز وجل.. بعضهم يقدم كل وقته، كل مواهبه، كل جهده وإمكاناته، كل ماله، ليكون لله خالصاً..**

والمحيا غير «الحياة»، محياي هو ما أحيا من أجله، ما يجعلني أستيقظ في الصباح وأواصل حياتي.. إنه ما أحيا لأجله.. ما يجعل لحياتي معنى..

ومماتي هو ما أموت لأجله.. ما أتوج به حياتي عندما لا يكون هناك حل آخر، فأنهيها بما يصبُّ في قضيتي، أنهيها عندما يكون «موتي» أكثر جدوى من «حياتي»..

---

٣٣ للمزيد عن دعاء الاستفتاح والمعاني النهضوية المتضمنة فيه، انظر: كيمياء الصلاة، للمؤلف ، الجزء الثاني: ملكوت الواقع.

٣٤ سلسلة (كيمياء الصلاة) بأجزائها الخمسة تتحدث عن ذلك.

هذا هو ملخص للحياة عندما يكون في حياتك «قضية»..

والحياة في نهاية الأمر قضية..

لكل منا قضية، شئنا أم أبينا، بعضنا يجعلها قضية تافهة، يقضي حياته في الخوض مع الخائضين.. في اللاشيء..

وبعضنا الآخر يجعلها القضية التي خُلق لأجلها..

قضية حياة.. قضية «استخلاف».

◆◆◆

المهم هنا هو هذه الصيغة الشخصية الحميمة التي تتحدث عن كل منا بصيغة المتكلم، بصيغة المفرد..

وهذه الصيغة هي **ما تجعل كل منا يشعر عندما يقولها أنها يجب أن تمسه، أنها تخصه، حتى لو كانت قيلت على لسان الرسول الكريم،** أو على لسان سيدنا إبراهيم.. إنه يشعر أنه «متورط» بقولها بهذه الصيغة، وأن عليه بطريقة ما أن يثبت أيضاً أنه كما تقول الآية..

«الصيغة» وحدها تجبرك على أن تكون جزءاً من هذا المشروع..

ما دمت تقرأها بوعي، فإن مجرد قراءتها، مهما كانت حياتك، ستشعرك بأنه يجب أن تغير مسار حياتك ليصب في هذا..

ستشعرك بأنك يجب أن تكون «الأول».. الأول في شيء ما.. تقول لك الآية: إنك يجب أن تجرّب الريادة في شيء ما.. أن تكون أول مسلم يكتشف نظرية تساهم في فهم السنن الكونية، في جعل مهمة الإنسان على الأرض أيسر وأدق، أن تكون أول مسلم يدخل قرى في مجاهل لم يدخلها مسلم من قبل لينشر رسالة الإسلام فيها.. أن تكون أول مسلم يبتكر شيئاً جديداً، أو يبني مركزاً صحياً في قرية تفتقر إليه.. أن تكون أول مسلم في أي مجال لم يدخله أحد من قبل، ويصب في خدمة رسالة الإسلام..

إنها دعوة للريادة، ضمن قضية حياة.. كلها لله..

لكل منا ما يحمله على ظهره

الإشارة الموجودة في الآيات إلى ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾، تعيد إلى أذهاننا توزيع الأدوار التي مرت بنا في «سورة الذاريات»..

لكل منا دور في هذا المشروع الكبير الذي خُلقنا من أجله، عندما نؤديه فإننا نكسبه.. وعندما نتخلى عن أدائه، فإننا نحمل وزر ذلك تحديداً..

لكل منا دور في هذه الحياة.. التخلف عنه سيجعل ظهرنا ينوء تحته.. وأداؤه فقط هو ما سيرفعه عن ظهرنا..

الـ (أنا) في الـ (نحن)

ما هو جوهري هنا أن هذه الصيغة التي بدأت فيها الآيات الخاتمة، ستتحول لتكون صيغة تتحدث عن الجماعة.. المعنى الفردي الذي ابتدأ فيه السياق يتصاعد ليتخذ شكلاً جماعياً لا لبس فيه.. فالآيات في خاتمتها تتحدث بصيغة الجماعة، وهذا يصهر الفرد في الجماعة، والـ (أنا) في الـ (نحن)، ويذيب الحدود الوهمية (التي تكرست كثيراً عبر انتشار مفاهيم الحضارة الغربية التي تقدس قيم الفردية، وتعدها أساساً للتشريع، التي تسربت لمفاهيمنا بالتدريج في ظل ظروف الانحطاط والبعد عن القرآن..).

السياق في خاتمته يتحدث بصفة جماعية كما أسلفنا.. هي صفة لا تلغي الفرد، ولكنها تقدم الأمة.. الأمة التي تتكون من أفراد، وتُبنى من قبل أفراد، وتقاد من قبل أفراد، وتقدم كل عبقريتها من خلال أفراد، لكنهم أفراد يؤمنون بأمتهم وبمفهوم الجماعة فيها أكثر مما يؤمنون بفرديتهم وبأحلامهم الشخصية، طموحاتهم وأولوياتهم تترتب حول أمتهم أكثر مما تكون حول رصيدهم الشخصي.. إنهم لا يحلمون «بمنزل الأحلام» والحديقة الواسعة التي يلعب فيها أطفالهم.. بل يحلمون **بمجتمع الأحلام، بأمة الأحلام التي ينشأ فيها أولادهم وأولاد أولادهم.. ولا يكتفون بالحلم.. بل يعملون على بناء ذلك..**

الدخول إلى الجماعة لن يكون مباشرة وبلا تمهيد إذن، بل سيكون عبر **فرد «ينزع» فرديته، ويجعل من «مشروعه» الشخصي مشروعاً يصب في داخل «المشروع الجماعي»..**

لا جدوى من «مشروع جماعي» لا يبدأ من الفرد، ولا ينطلق من أدق خصوصياته،

ومن إيمانه العميق الحميم، ولا جدوى أيضاً من «مشروع فردي» يبدأ بالفرد وينتهي عنده، دون أن يصب في «الجماعة»..

أول ذكر لكلمة الخليفة أو أي لفظ مشتق من الفعل «خلف» كانت بصيغة المفرد، لكن ذلك المفرد لم يكن أي فرد، كان نبياً بقامة داود..

لكي يفهم الفرد المتلقي - قيد التشكيل- أنه يمكن له أن يكون «خليفة» على الوجه الكامل كان لا بد له أن يعي أن ذلك لا يمكن أن يكون إلا من خلال «مجتمع استخلاف».. أي عبر مجتمع أو أمة تقوم بدورها.. بعض الأفراد يمكن لهم أن يُسهموا في تقريب الدرب إلى مجتمع «الاستخلاف».. لكن حتى هؤلاء الأفراد ستكون «الجماعة» في أذهانهم وهم يعملون ويقدمون «مشروعاتهم»..

هذه الآيات هنا، التي تربط التجربة الإبراهيمية بتجربة الرسول الكريم، وتضعها على ألسنتنا، تجعلنا ننساب بسهولة ويسر نحو «المصب» الحتمي.. نحو الجماعة..

إنها تجعل ذوبان الـ «أنا» في الـ «نحن» عملية تلقائية، دون تصعيدات خطابية أو أيديولوجية..

ليبلوكم فيما آتاكم..

هذه الآيات تقول لنا: إن جوهر الاستخلاف هنا هو أن «يختبرهم» فيما آتاهم.. أن يرى كيف فعلوا، وكيف استثمروا ما منحهم من «مواهب» و«طاقات» في اختبار «الإثمار».. في أن يضعوا ما أوتوا فيما يجب أن يوضع..

ليس الأفراد وحدهم في امتحان الاستخلاف إذن، وأعني بذلك أمراً مزدوجاً: **أي أن جوهر استخلافهم ليس فردياً حتى لو كان الأفراد هم من ينأون بحمله.. لكن الأمم أيضاً في امتحان استخلاف، والأمم أيضاً داخلة في ذلك الامتحان الشامل العام الذي ينطلق من درجات مختلفة وضعها الله فيها، و«يبلو» فيها كل ما أتى هذه الأمم..**

ولفظ (يبلو)[٣٥] في لسان العرب يعني **الاختبار والتجربة**، ويشمل ذلك الخير والشر، فيقال: ابْتَلَيته بلاءً حسناً، وبَلاءً سيِّئاً، والله تعالى يُبْلي العبدَ بَلاءً حسناً ويُبْلِيه بلاءً سيِّئاً.. وفيما «آتاهم» يعني كل ما آتانا الله..

٣٥ لسان العرب: مادة (بلي).

على المستوى الفردي الله يبلونا فيما آتانا وشرفنا به من مكانة تجعلنا فوق كل مخلوقات الله.. بما آتانا من **حرية اختيار وإرادة.. من مواهب وطاقات، من عقل وقدرات على الابتكار وسبر أغوار المجهول..**

الله يختبرنا في كل هذا، كل ما آتانا الله مما نفتخر به أحياناً، ونضعه في غير موضعه أحياناً أخرى، ونهدرها تمام الهدر في أحيان أخرى..

كل ذلك سيكون موضع امتحان.. مواهبنا التي نتميز بها عن سوانا، هل استخدمناها لتزيد من نرجسيتنا وذوباننا في فرديتنا أم جعلناها في خدمة ما خلقنا لأجله؟

كل ما وضعه الله فينا من **طاقات ومواهب وقدرات..**

هي موضع مساءلة..

يوماً ما، في موقف لن يفلت منه أحد..

سيكون السؤال مفصلاً..

هل وضعت ذلك في خدمة «مشروع» حياتك الذي خلقت من أجله؟!..

هل سنقول يومها: وما هو الهدف الذي خلقنا من أجله؟!..

الأمم أيضاً.. كما الأفراد

والأمم معرضة للامتحان نفسه فيما وهبه الله لها..

وهي كالأفراد يكون لها درجات متفاوتة **في الثروة، في الموقع، في الإرث الحضاري والعلمي.. لكن وكما الأمر مع الأفراد الدرجة العليا ليست بالضرورة لصالح السباق، لصالح الصورة الكاملة والنتيجة النهائية السباق ككل،** أحياناً تكون الثروة نقمة، وكم من أمم نهضت وهي لا تملك الثروات، بل كان فقرها تحدياً لها محفزاً على الإبداع والنهوض، اليابان مثلاً لا تملك ثروات في باطن الأرض، ولكن ذلك لم يمنعها من أن تنمو وتحقق نهضتها، **بينما هناك شعوب لها كل الثروات التي يمكن تخيلها، ولكن هذه الشعوب تصرفت مع «ما آتاها» على نحو سلبي، فصارت النعمة نقمة، وأورثتها الثروات الكسل والدعة، وجعلتها فريسة أطماع الآخرين..**

قد تكون الثروة المقصودة غابات تمنح الثمر بلا جهد، وقد تكون أرضاً خصبة، أو

مياهٍ وفيرةً، وقد تكون موقعاً مهماً يطل على طرق العالم التجارية.. وقد يكون كل ذلك دفعة واحدة.. ولعلنا لا نحتاج إلى التذكير بأمم امتلكت كل مقومات النهوض - المادية - ولكنها فشلت في النهوض، بل صارت فريسة لأطماع أمم أخرى..

النص الديني ثروة أيضاً..

فلنتذكر هنا أن «ما آتاها» لا يشمل الثروات فحسب بالنسبة للأمم والأفراد على حد سواء.. ولا المواهب والطاقات فحسب.. **ولكنه يشمل أيضاً «نصوصاً» كهذا النص الديني الذي نتعامل معه الآن..**

الأمم التي امتلكت نصاً دينياً – كتاباً سماوياً - يحملها مسؤولية الاستخلاف.. تكون قد وضعت في درجة معينة عليها أن تكون على قدرها.. **إنها تمتحن بالنيابة عن الإنسانية كلها، ولذلك امتحانها - أو ابتلاؤها - يكون بمعايير مختلفة.. وفشلها يكون أصعب..**

مجرد معرفتها للأمر، لكونها معدة للاستخلاف في الأرض يجعلها في درجة معينة قد تكون أعلى وأرقى، لكنها تكون محملة بأعباء أكبر.. الدرجة الأعلى هي مسؤولية أكبر.. والفشل في هذا سيجعلها في درك أسفل.. ربما في أسفل سافلين.. كما لو أن الأمم التي تمتلك عبء الاستخلاف **لا تملك «ترف» أن تكون في الوسط.. «بين بين»..** فإما أن تكون مؤدية لدورها، أو أن تكون في الدرك الأسفل، في الحضيض..

هل أحتاج هنا إلى أن أُذكِّر أن ذلك كلَّه يذكرنا بأمة ما؟

أمة هي الأمة الوحيدة – حصرياً - التي أمرها كتابها السماوي أن تكون أمة الاستخلاف..

وهي التي يذكرنا واقعها بحقيقة أنها إما أن تكون أو لا تكون..

لا نحتاج هنا إلى ذكر هذه الأمة.. أم أننا نحتاج؟!!!

◆◆◆

وقبل أن نغادر الآية الكريمة التي كانت ركنا مكياً مهماً لفهمنا للاستخلاف.. وخاصة عبر مزجها بين الفرد والجماعة، والعام والخاص.. فلنتذكر هنا ما مر بنا آنفاً في سورة الذاريات.. في مطلعها الذي مهد للآية التي حددت وظيفتنا في الحياة، **تلك الرباعية التي وزعت الأدوار، بين البذر والنشر والجري والتقسيم..**

ما الرابط بين الأمرين؟

الربط واضح جداً.. **فما سنمتحن فيه، "ما آتانا"، يجد حتماً مكاناً في تلك الرباعية، في ضلع من أضلاعها التي لا معنى لأي ضلع فيها دون الأضلاع الأخرى..**

وكذلك كل فرد يحمل عبء الاستخلاف، إنه جزء من تلك الرباعية التي لا تنجز إلا بتكاملها، لن يكون كل فرد "بطلاً" لذلك الاستخلاف، ولن يكون الكل قادة أو منظّرين.. لكن تلك مجرد تفاصيل، **فالبطولة الحقيقية في الأمة - الخليفة هي بطولة جماعية..** ولذلك فالقائد - الفرد، أو المفكر - الفرد.. **لن يكون لهما محل من الإعراب، مهما كانت مواهبهما، إلا داخل "جملة" يشارك الجميع بصنعها.. وسيكون بعض هذا الجميع "شبه مجهول".. لكن ذلك لن يقلل من أهمية دوره على المدى البعيد، وخاصة عند من لا يضيع عنده "عمل عامل..".**

هذا ما تقوله لنا سورة الأنعام عندما نقرؤها بعين البحث عن معاني الاستخلاف..

تقول لنا: إن الاستخلاف جزء من عقيدتنا، نؤمن بها (أو **يجب** أن نؤمن بها بالأحرى!) كما نؤمن بقدرة الله وعظمته ووحدانيته..

تقول لنا: إن ذلك الدرب الذي بدأه إبراهيم، وسار عليه كل الأنبياء من بعده هدفه الوصول إلى الاستخلاف..

تقول لنا: **إن "صلاتنا ونسكنا ومحيانا ومماتنا" يجب أن تصب في المشروع الذي خلقنا من أجله..**

مشروع الاستخلاف..

الذي يميزك تماماً عن كل مخلوقات الله الأخرى.. الذي يقول لك: إنك لست من الأنعام.. إنك لست إبلاً مهملاً.. لست "سدى"..!

منجم الاستخلاف المكي لا ينتهي حقاً..

لمن أراد أن ينقب بحثاً عن خارطته الجينية، خارطته التي تراكم عليها الصدأ، والتي يمكن استعادتها عبر إزالة الصدأ، وتفعيل ما في هذا المنجم من معادن واستثمار ما فيه من طاقات..

منجم الاستخلاف المكي من سورة ص، حيث نزلت أول إشارة إلى «الخليفة»، إلى سورة الأنعام، آخر سورة مكية كانت فيها إشارة إلى الاستخلاف، هذا المنجم بكل

ما فيه من ثروات خام هائلة هي ما يجب أن ننقب عنه، أن نستثمره إذا أردنا حقاً استرجاع الخريطة الجينية..

لقد حمل المسلمون معهم هذه المفاهيم التي استخرجوها من هذا المنجم المكي، فكانت زادهم في رحلة الهجرة إلى المدينة..

إذا أردنا «الهجرة».. إلى المدينة..

إذا أردنا أن نبني «المدينة»..

إذا أردنا استرجاع الخليفة فينا..

.. لا بد من أن ننقب في هذا المنجم.. ونستثمر ما فيه..

أبرز ما جاء في المنجم المكي

قبل أن نترك المنجم المكي من سورة ص إلى سورة الأنعام يمكن لنا أن نلخص أهم ما وجدنا في كل سورة من القرآن المكي..

سورة (ص) حصل فيها اللقاء الأول بين الفرد المسلم قيد التكوين، وبين النموذج - الفرد للخليفة.. داود.. خلال السياق تعرفنا على ما يلي..

أولاً - تسخيرٌ أقصى لكل الموارد والطاقات والوسائل ﴿ذا الأيد﴾.. مع الاحتفاظ **بالعبودية** بوصفها صفة سابقة لهذا التسخير ﴿عبدنا داود﴾.

ثانياً - التمسك بالحكمة بمعناها القرآني (أي فهم المقاصد النبوية وارتباطها الدائم بالرسالة والكتاب).

ثالثاً - وجود **ثوابت لا حياد عنها، ولا تكون قابلة للتفاوض أو المساومة**، وبذلك يكون **فصل الخطاب جزءاً من مسلمات العقل الجمعي وبديهياته**، لا يمكن لأمة أن تنهض إن كانت تؤمن بنسبية كل شيء، وخضوع كل شيء للرأي والرأي الآخر، كل ما يتحدثون عنه من قبول الآخر يحدث لاحقاً، وفي مراحل لاحقة من نضوج الأمم بعد مرورها بمراحل تطورها، استيراد هذه المرحلة قبل وقتها لن يكون إلا قتلاً للمرحلة الأساسية في النهوض.

رابعاً - تحطيم الأسوار الفاصلة بين الحكم والناس، بين الدين والشعائر من

جهة وبين الواقع من جهة أخرى، بين القيم المفترضة والواقع العملي المعاش.

خامساً - العدالة الاجتماعية وتقليص الهوة بين الطبقات، ومنع احتكار الثروة من قِبَل الملأ الغني..

سادساً - الحكم بالحق، وهو **كتاب الله الموازي للحق الذي بنيت عليه السموات والأرض..**

سابعاً - أن يكون **الحذر من اتباع الأهواء واختطاف الحق أمراً أساسياً**، يجعل العقل المسلم في حالة مراجعة دائمة.

ثامناً - أن يُقرَأ كتاب الله على **نحو «شمولي» لا يُغفل آية، ولا يجتزئ آية من سياقها**، على نحو يخفف من خطر اختطاف الكتاب لصالح فئة تتوافق مصلحتها مع قراءة انتقائية ما.

◆◆◆

أهم ما نقلته لنا سورة الأعراف:

خارطة الطريق إلى "قمة الهرم" - الاستخلاف - تمر بعلامات مهمة:

أولاً - الاستعانة بالله (طلب العون منه يعني أنك تعمل، لن تطلب العون إن لم تكن تعمل.. وتعمل حسب الشروط التي ارتضاها عز وجل).

ثانياً - الصبر: بالمعنى الإيجابي القرآني، الصبر هو الثبات على العمل، الصبر على اللاعمل ليس صبراً قرآنياً. الصبر القرآني يرتبط بنبتة "الصبّار" التي تتحدى جدب الصحراء وتقتنص قطرة ماء شاردة لكي تستمر في الحياة.. إنها إرادة الحياة بوجه الموت.. هذا هو الصبر كما يقدمه لنا القرآن.. وهو خطوة مهمة في الدرب إلى الاستخلاف.

ثالثاً - الأرض إرث لمن يستحق.. والاستحقاق للعباد فقط.. من يحوز الأرض دون أن يكون من "العباد" يكون قد "استولى عليها فحسب".

رابعاً - العاقبة الدنيوية نتيجة حتمية لما سبق.. وهي لا تأتي إلا عبر التقوى.

خامساً - التقوى أيضاً هي الأخذ بالاسباب.. والامتناع عن كل ما يؤخر طريق الوصول إلى الهدف.

سادساً - العدو "سُنّة" إلهية.. وهلاكه أيضاً.. لكن هلاكه لا يعني بالضرورة انتصارك.. إن لم يكن قد حدث على يديك.. قد يتسلط عليك عدو آخر.

سابعاً - فكرة المآلات النهائية والنظر إليها (= الأعراف) تهيمن على خارطة الطريق إلى الاستخلاف.

ولكنها يجب أن تكون موجودة منذ بداية الرحلة.

سورة فاطر:

أولاً - الإعمار مقابل الإعمار: أَوَلَم نُعمركم؟.. طول أعمارنا في الأرض يهدف إلى منحنا فرصة لإعمار الأرض.

ثانياً - الكتاب إرث أيضاً.. والسباق يكون استباق الخيرات منه.. يتفاوت وارثو الكتاب في الحصول على الكنوز (الفهم الإيجابي الفاعل الدافع للعمل)، فمنهم مقتصد قد لا ينال من الكنز إلا "أجر التلاوة"، ومنهم من يحول هذا الكنز إلى منجم يستخرج منه "الطاقة البنّاءة".

ثالثاً - سياق استخراج الكنوز من هذا الإرث تصب في الاستخلاف.

رابعاً - من كفر فعليه كفره.. من يرفض هذه الوظيفة عليه تحمل نتائجها: دنيا وآخرة..

◆◆◆

أهم ما جاء في سورة النمل:

أولاً - يرتبط الاستخلاف بمجموعة من السنن التي يتحقق عبرها.

ثانياً - جزء من هذه السنن يكون أقرب إلى ما نسميه اليوم بالقوانين المادية، ولكن هناك جزءا آخر يرتبط ببعد إنساني - إيماني، ربما لا نستطيع فهمه أو حساب نتائجه تماماً - حتى الآن على الأقل - مثل قوانين الفيزياء والكيمياء، لكنه موجود بوضوح.

ثالثاً - يجب ألا نتجاهل وجود سنة «الاضطرار»، حيث يستنفد «الإنسان العامل» كل إمكانات العمل وما يراه من «السنن الظاهرة» والأسباب المادية، ويطلب هنا التدخل الإلهي المباشر، وتحدث استجابة غير متسقة مع مفاهيم القوانين المادية الجامدة.

رابعاً - يجب ألا نتجاهل أهمية سنة «كشف السوء» أيضاً، والتي لا تعني فقط إزالة السوء، بل تعني أيضاً إجراء عملية نقد ذاتي - داخلي مستمرة لمشروع الاستخلاف

بمنظار ثوابت **هذا المشروع**، وهذا **النقد هو ضمانة** من ضمانات استمرار هذا المشروع في حيويته **وتأجيل** شيخوخته.

❖❖❖

ومما جاء في سورة يونس:

أولاً - الربط بين الضُر الشخصي والضُر العام.. الطريق إلى الاهتمام بالقضايا العامة يبدأ من جزئية ربط ما هو شخصي وخاص بما هو عام وشامل.. كل مشاكلنا الشخصية لها جذور في مشاكلنا العامة، والنتيجة أننا نتعامل مع كل منها على نحو منفصل، فلا نجد الحل حقاً لما هو شخصي، ولا نكترث كما يجب بالعام.

القرآن يعلمنا أن كل القضايا العامة هي شخصية أيضاً، وأن هذا هو الطريق الوحيد للتعامل مع كل القضايا، فردية كانت أو عامة.

ثانياً - هلاك الأمم غالباً لا يكون عبر صاعقة أو دمار مفاجئ (على الرغم من أن ذلك حدث ويحدث)، فالهلاك غالباً ما يحدث عبر "الغرق" الذي هو "سقوط تدريجي" فيما يغمر الحضارات والمدنيات ببطء.. تتسلل أسباب الانهيار ببطء، قد لا يلتفت إليها كثيرون في البداية.. وقد يتعايشون معها.. لكن ذلك لن يقلل من كونها السبب في الانهيار اللاحق.

ثالثاً - للأفراد دور مهم في تغيير وإصلاح أو إعادة بناء مجتمعاتهم، ليس عبر "الزعامات" والقيادات السياسية التقليدية التي غالباً ما ما تؤثر الاستقطاب والجمع، بل عبر عملية تغيير الوعي واستئصال أجزاء سلبية مهمة من العقل الجمعي وتأصيل ما هو إيجابي وفاعل فيه.

أهم ما جاء من مفاتيح **في سورة الأنعام** وهي آخر ما تضمن إشارة إلى الاستخلاف في مكة:

أولاً - ربط مشروع الاستخلاف بسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، الذي سمّانا مسلمين.. والذي بدأ رحلة الاستخلاف كلها.

ثانيا - التأكيد على أن هذه الرحلة تبدأ من الوعي، من العقل، من هدم المجتمع القائم على الباطل والمكرس أولاً في العقل الجمعي للناس في هذا المجتمع.. المكرس عبر الخرافة والتناقض والأوهام.

ثالثاً - مشروع الاستخلاف مشروع شخصي أولاً، يرتبط بـ ﴿قل إن صلاتي ونسكي

ومحياي ومماتي﴾.. كل ما في حياتنا، بدءاً من شعائرنا، التي هي مثل دورة تدريبية ستكون جزءاً من مشروع الاستخلاف.

◆◆◆

الفصل الثالث

اللقاء في المدينة

اللقاء في المدينة

كان لقاء المسلمين مع لفظ الخليفة أول مرة في مكة، وفي مرحلة مبكرة منها نسبياً، وقبل أن يتعرفوا على أي لفظ آخر مقارب، وذلك في سياق سورة (ص) كما سبق، في الآيات التي تحدثت عن نبي الله داود عليه السلام.

بعدها لم يحدث أي لقاء مع لفظ الخليفة - الفرد (أي في صيغة المفرد) في الفترة المكية، بل تم التركيز على السياق الاجتماعي.. على المجتمع الخليفة.

لكن كان هناك موعد مهم ومؤجل - لأسباب وجيهة جداً - مع «الخليفة بصيغة المفرد».., مع «الخليفة الفرد».

وكان ذلك الموعد يستلزمُ أن يكون المجتمع المسلم الوليد قد قطع شوطاً في نضوجه، وفي مسيرته نحو التحقق والنشوء..

ليس هذا فقط..

في الحقيقة تطلب أن يأخذ المسلمون الأوائل طريقهم في الصحراء شمالاً نحو يثرب (التي سيتغير اسمها من الآن فصاعداً ليكون المدينة في دلالة واضحة على البناء الاجتماعي - المدني الجديد)..

لقد تطلب الأمر ذلك الحدث الذي غيّر مجرى التاريخ، ليُثبت الجيل الأول أنه أهلٌ لتلك المسؤولية التي يحتمها لقاؤه الثاني مع لفظ الخليفة الفرد..

وكما كانت «الهجرة» - بطريقة ما - ثمرة لتلك الفترة المكية التي تم فيها بناء مجتمع الاستخلاف.. فإن ذلك اللقاء الثاني في المدينة سيتمخض - ضمن أشياء أخرى كثيرة - عن المعجزة الاستثنائية في تاريخ البشرية، **عندما انتقلت مجموعة من القبائل من هامش التاريخ، من الدرجة الأدنى بين أمم العالم، لتكون الأمة**

القائدة الرائدة بين الأمم، وفي غضون عقود قليلة..

لن ندّعي هنا أن كلَّ ذلك نتج عن ذلك اللقاء الثاني، فالأمور العظيمة نادراً ما تنتج عن حدث واحد، بل تتضافر فيها الأسباب وتتراكم وتقود التفاعل إلى نتيجته النهائية، إلى ثمرته المرجوة..

على الرغم من ذلك، فإن بعض الأسباب تكون أكثر حسماً في مسيرة التفاعل، في تسريعه.. في صيرورته..

ولا نشك لحظة واحدة أن ذلك اللقاء لعب دوراً حاسماً..

عن أي لقاء أتحدث؟

عن آية واحدة فقط، تنزلت في سورة البقرة، أول ما أنزل من القرآن الكريم في المدينة..

آية واحدة فقط..!

نبش الماضي.. للتخلص منه

لعل المسلمين كانوا لا يزالون يبنون المسجد النبوي (الذي أُسِّس على التقوى) عندما تنزلت تلك الآية..

لعلهم كانوا يوزعون الأدوار فيما بينهم، بين جلب الطين، وتحويله إلى لبن، وحمله «لبنة لبنة»، وجرد النخيل، وجلب جذوع النخيل لتكون أعمدة المسجد.. أو الحجر ليكون دعامة المسجد..

أو لعلهم كانوا لا يزالون في تحضير الأرض وتهيئتها، قبل أن يبدؤوا في أي عمل آخر..

لعلهم كانوا يقومون **بما هو أهم من ذلك كله:..**

نبش قبور المشركين التي كانت في الأرض التي تم اختيارها لتكون المسجد[٣٦]..

عجبا. هل هذا هو العمل الأهم؟

نعم، ذلك أنه لم يكن ممكناً أن يقوم المسجد على قبور المشركين، ليس فقط لأنه لا يقام مسجد على قبر كما هو معروف فقهياً وعقائديا.. **بل لأن إرث الجاهلية**

٣٦ صحيح البخاري: ٤٢٨ (.. وَأَنَّهُ أَمَرَ بِبِنَاءِ الْمَسْجِدِ، فَأَرْسَلَ إِلَى مَلإٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ فَقَالَ «يَا بَنِي النَّجَّارِ ثَامِنُونِي بِحَائِطِكُمْ هَذَا». قَالُوا لا وَاللَّهِ، لا نَطْلُبُ ثَمَنَهُ إِلَّا إِلَى اللَّهِ. فَقَالَ أَنَسٌ فَكَانَ فِيهِ مَا أَقُولُ لَكُمْ، قُبُورُ الْمُشْرِكِينَ وَفِيهِ خَرِبٌ، وَفِيهِ نَخْلٌ. فَأَمَرَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وسلم - بِقُبُورِ الْمُشْرِكِينَ فَنُبِشَتْ، ثُمَّ بِالْخَرِبِ فَسُوِّيَتْ، وَبِالنَّخْلِ فَقُطِعَ، فَصَفُّوا النَّخْلَ قِبْلَةَ الْمَسْجِدِ، وَجَعَلُوا عِضَادَتَيْهِ الْحِجَارَةَ، وَجَعَلُوا يَنْقُلُونَ الصَّخْرَ..) اتفقت المذاهب الأربعة على ذلك، بين الكراهة والتحريم.

كله يجب أن ينبش، أن يُستأصل، أن يُجتَث من جذوره، قبل أن تقام أسسٌ جديدةٌ للبناء الجديد.. وإلا فستكون بمنزلة ثغرات تعوق أي بناء جديد وتهدد أساساته في العمق..

كذلك هو العمل الأهم في بداية أي مشروع نهوض..

إنه استئصال الإرث السلبي، الإرث الذي أودى بنا إلى ما وصلنا إليه، اجتثاثه بلا هوادة وبلا رأفة.. بالضبط كما كان نبش قبور المشركين قبل بناء المسجد..

ولن يكون ذلك كل شيء، بل سيكون مجرد تمهيد لما يجب القيام به من ضرب لأسس جديدة تقوم على أرض صلبة..

في خضم ذلك، وبينما يواجه بناء المجتمع ومؤسساته الجديدة تلك المراحل الأساسية في أي مشروع، كانت الآيات القرآنية توازي ذلك وتتكامل معه في بناء العقل الجمعي للجيل الأول..

كانت المرحلة المكية قد أسهمت وبشكل حاسم **فيما يشبه «نبش قبور المشركين»، أي في استئصال المفاهيم الجاهلية من عقل المجتمع الوليد، ليس الشرك فقط، بل كل ما يمتّ إلى المنظومة الجاهلية بصلة..**

وكانت الهجرة **مثالاً عملياً على ذلك الاستئصال النظري، لم يترك المهاجرون بيوتهم ومدينتهم وأموالهم فحسب، بل تركوا منظومة العشيرة والقبيلة التي كانت توفر لهم الحماية والوجود في ذلك المجتمع، ولم يكن من المفكَّر فيه الخروج عنها..**

هجرتهم كانت لمنظومة جديدة لم تتوضح أمثلتها، ولم تنشأ مؤسساتها بعد..

لكنهم فعلوا ذلك، على الرغم من صعوبته، على الرغم من وعورة الدرب إليه..

وعلى الرغم من وحشة هذا الدرب.. وخلوّه من السالكين.

◆◆◆

كانت **الآية رقم (٣٠) من سورة البقرة** التي تنزلت في مرحلةٍ ما لا نعرفها تحديداً، ولكن نعرف قربها من بناء المسجد، كانت هذه الآية **تُشبه حفر أساس جديد للبناء الجديد، أو رفعا لقواعد من قواعده..**

هكذا كان أثرها يومها..

وهكذا يمكن أن يكون أثرها اليوم أيضاً، لو أننا استثمرناها كما يجب، في سياق مماثل..

مفاجأة عند منعطف الآية رقم (٣٠).

ماذا قالت الآية رقم (٣٠) للمسلمين يومها؟

قالت: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ [البقرة: ٣٠].

قد يهز أحدنا رأسه متعجباً.. كلّ هذه المقدمة من أجل هذه الآية التي نعرفها جيداً ونحفظها عن ظهر قلب..؟!

أليس هذا من قبيل المبالغة وتحميل الكلام ما لا يحتمل؟..

سيبدو كذلك فعلاً بالنسبة للكثيرين، ذلك أن العقل الجمعي السائد، عندما يرى هذه الآية، ويقرؤها، ويتعامل معها، سيتعامل عبر ما تراكم في هذا العقل، وأدخل عليه من مفاهيم سلبية، وهكذا فإنه لن يجد في تلك **الآية أكثر من سرد تقليدي لما حدث، مجرد خبر من أخبار خلق أبينا آدم، ولا أثر حقيقيا لا في الجيل الأول لهذه القصة، ولا في أي جيل لاحق..**

مع فهم كهذا سيبدو كل ما قلناه مجرد مبالغة لفظية..

ولهذا يجب أن نخلع هذه المفاهيم المتراكمة، ونحاول أن نضع أنفسنا في سياق النزول، لكي نفهم الأثر الحقيقي لهذه الآية..

السبق القرآني: الاستخلاف

لم يكن هناك قبل الآية الثلاثين من سورة البقرة **أي نص ديني لأي دين كتابي سابق ينصُّ على أن الإنسان هو «خليفة» لله في الأرض**.. كما سبق وأشرنا إلى ذلك..

لا يوجد أي دين قبل الإسلام جاء بذلك، على الأقل فيما صمد من نصوص الأديان السابقة وكتبها..

الإسلام - عبر القرآن - **هو أول من صرّح بذلك..**

وكان لا بد لذلك أن **يكون طفرة حضارية كبيرة في رؤية الإنسان لنفسه، وبالتالي في توقعاته عن الإنجازات التي يمكن أن يحققها.. لم يكن إنسان ما قبل القرآن، حتى الإنسان المؤمن، إنسان الكتب السماوية، لم يكن يرى أنه يستحق أن يأخذ هذه المكانة، مكانة أن يكون خليفة الله عز وجل في الأرض.. وبالتالي لم يكن من الممكن عملياً تحقيق إنجاز حضاري كبير يستند على الدين..**

لا يعني هذا أن الكتب السماوية السابقة للقرآن لم تحقق قيماً أخلاقية مهمة، ولا يعني أيضاً أن مدنيات وحضارات مختلفة لم تحقق منجزات مهمة وضمت الدين في كيانها وبنائها..

لكن أن يكون الدين هو المحرك الأساسي لأمة ما، كان يستلزم أن يكون هذا الدين يحتوي على عوامل إيجابية «قائدة» بالذات في رؤية الإنسان لنفسه ولدوره في هذه الحياة، وهو ما أزعم أنه لم يكن متوفراً في الأديان السابقة، بين خطيئة أصلية دمغت عقول المؤمنين في عقيدة، وانغلاق على الذات في عقيدة سادية ومازوشية في آن واحد.. وتحييد كامل للعقيدة نحو جانب التعامل بين الناس والتعبد فحسب.

كان شأن الإنسان في تلك الأديان مهيناً، ثانوياً، تُسخَّر جهوده لخدمة آلهة ما، أو لخدمة كهنتها وسدنة المعبد فيها، أو يتسلط عليه حاكم أو قائد يعقد تحالفاً مع الكهنة والسدنة، ويسخِّرها لخدمته وخدمة جيوشه وسلطانه..

وكان الدين له دور في هذا، **لكنه دور يسد حاجة روحية للإنسان، أكثر مما يسير بقيادته ومجتمعه نحو الأمام، كان يساعده في تحمل أعباء الرحلة.. لكنه لم يكن يوجه هذه الرحلة أو يحدد هدفها..**

وهكذا قامت دول وممالك وإمبراطوريات، كان لها نتاج حضاري بلا شك، وكان لها أيضاً دينها – سواء أكان وثنياً أم كتابياً - **لكن هذا الدين لم يكن هو الموجه، لم يكن هو القائد في عملية بناء تلك الإمبراطوريات، بل كان يُحمل ضمن عدّتها الثقافية فحسب..**

ثم جاء الإسلام، لينسخ ذلك كله..

جاء ليقدم **أول حضارة إنسانية، قامت على الدين**، لتكون ذلك النموذج الحضاري الشامخ الشامل الذي ينطلق من «العقيدة» أولاً..

ولقد جعلناك خليفة..

وكانت الآية (٣٠) من سورة البقرة جزءاً حاسماً جداً من عملية النسخ تلك.. صحيح أن الآيات المكية لعبت دوراً مهماً في ذلك، سواء عبر آيات الاستخلاف الاجتماعي أم غيرها من المفاهيم التي غرست عبر القرآن.. لكن هذه الآية كان ولا بد لها وقع مختلف، ذلك أن المعاني حُددت ووُضحت على نحو أكثر تكريساً لدور الفرد، كل

فرد، في عملية الاستخلاف، وعلى أكثر من صعيد..

كان هناك ما يلي..

أولاً: ذلك الفارق الشاسع بين **أن تكون كَمّاً مهملاً، صفراً على الشمال لا وزن له، وأن تكون طرفاً فاعلاً في المعادلة، أن تكون عنصراً أساسياً في التفاعل كلّه..**

وهذا ما حدث مع تلك الطفرة، وجد الإنسان الجديد - قيد التكوين، وقيد الولادة - نفسه وقد صار له دور أساسي، لقد صار مسؤولاً عن هذا العالم، بل صار «بطريقة ما» ينوب عنه عز وجل في تسيير شؤون الأرض وسياستها..

وهذا يعني، **ثانياً: أنه في الأساس مؤهل لذلك..** إنه يعني أن الخالق وضع فيه الإمكانات الكامنة التي تجعله مؤهلاً ليكون خليفته في الأرض..

قد تكون هذه الإمكانات مهملة ومهدورة، وقد توضع في غير ما خُلقت من أجله، لكن كذلك يحدث دوماً مع كل الوسائل عندما تقع في أيدٍ لا تدرك أهمية هذه الوسائل (الأيدي.. هل تذكرون داود ذا الأيد؟)..

قد تكون هذه الإمكانات أيضاً مهملة؛ لأن من «احتواها» لم يدرك وجودها يوماً، كما لم يدرك أصلاً أنه «الخليفة» في هذه الأرض.. فهو إما أنه وضعها في غير ما خُلقِت من أجله، وربما في عكس ما خُلِقت من أجله.. أو أنه لم يستخدمها أصلاً، لا في خير ولا في شر، ومرَّ كما تمر الدواب على هذه الأرض..

ثالثاً: صار الآن **هناك هدف أكثر وضوحاً وتحديداً لهذا الخلق**، لقد ألغى القرآن منذ البدء **ذلك العبث الكامن في كثير من العقائد اللا أدرية**[٢٧] **أو عقائد الوثنيين التي لا تضع هدفاً واضحاً لقصة الخلق، كما في العقائد الكتابية التي لم تهتم بهذا الجانب..**

القرآن الكريم **حدد سبباً وهدفاً للخلق منذ البداية المبكرة**، فقال: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.. وسأل الإنسان إن كان يعتقد أنه «سيُترَك سدىً»، وسألنا جميعاً ذلك السؤال الاستفزازي ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً﴾..

وكل ذلك تضافر وتكامل في الفترة المكية؛ ليغرس عند الإنسان الجديد - قيد التكوين - إحساساً عاماً بالهدف والجدوى..

وجاءت الآية رقم (٣٠) لتتوج ذلك كلّه، وتضعه في إطار أكثر فاعلية، قد يظن من

---

٢٧ اللاأدرية: توجه فلسفي يقول إن القيمة الحقيقية للقضايا الدينية أو الغيبية غير محددة ولا يمكن لأحد تحديدها. إن قضايا وجود الله أو الذات الإلهية بالنسبة لهم موضوع غامض كلية ولا يمكن تحديده في الحياة الطبيعية للإنسان. فاللاأدرية أو الأغنوستية فلسفة أو مذهب لا ديني يؤمن أصحابه باستحالة التعرف على وجود الله والتوصل لهذا الإيمان ضمن شروط الحياة الإنسانية.

يظن أن هناك تناقضاً بين آية: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ وآية: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾.. لكن هذا الفهم قاصر للمعاني في الآيتين.. ويمكن إزالته ببساطة **بالقول: إن الاستخلاف نفسه عبادة..**

لقد امتزج المعنى من ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ مع معنى ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾.. **وصار معنى العبادة (للنوع الإنساني على الأقل) مرتبطاً بالاستخلاف في الأرض، كما لو أن عبادة الاستخلاف صارت جزءاً أساسياً من عبادات هذا الإنسان الجديد..** لم تعد العبادة محض شعائر وطقوس تؤدى لله عز وجل.. بل **صارت عملاً يؤدى لهدف، ويقصد «خلافة» لله على أرضه..** ولا يقلل ذلك من شأن العبادات الشعائرية المفروضة، بل يضعها في سياقها الأساس الذي لا يمكن من دونه صقل قدرات الإنسان على أداء ما خُلق من أجله، أي أن يكون «الخليفة»..

رابعاً: إن السياق في هذه الآية يجعل «الاستخلاف» المنصب الوظيفي الذي وُكِّل للنوع الإنساني، **وهو المنصب الذي من الواضح أنه «أرق» وأكثر تميزاً من منصب الملائكة** (سبب الخلق في الحالتين واحد، عبادة الله، لكنه يتخذ مظاهر ومساقات مختلفة..).

وهكذا فإن الإنسان لم يعد مكرماً فحسب، **بل صار أكرم وأهم من الملائكة أنفسهم (وظيفيا على الأقل)، وهو تطور لم تشهده أي عقيدة من العقائد الدينية السابقة على الإسلام، أو على الأقل لم تحتفظ بعقيدة كهذه في كتبها السماوية..** إما لأن العقل البشري كان قاصراً عن فهم تلك المكانة، أو لأن **يد الفهم السلبي قد امتدت إلى هذه الكتب، وأزالت هذه العقيدة**، وكرست العكس من ذلك من جعل الملائكة في مكانة أعلى من مكانة بني آدم.

السجود للخليفة

ويمكن أن نفهم كيف كان وقع ذلك المشهد على العقل المسلم، المشهد اللاحق لهذا الإعلان، عندما أمر الله عز وجل ملائكته بالسجود لآدم، وهو مشهد من الواضح أنه **متمم لحقيقة كون آدم خليفة، وهو في الوقت نفسه غير مسبوق في أي من الأديان السابقة**، لا سماوية ولا وثنية ولا أي عقائد تنتمي لقصص الشعوب وتراثها..

هذا السجود غير المسبوق أحدث ولا بد "قفزة" للوعي المسلم بدوره في هذا العالم، لم تكن تلك القفزة قفزةً في الفراغ، بل كانت تحليقاً في فضاء الإنجاز والتحقيق.. وكانت ارتفاعاً لم تشهده الإنسانية من قبل ولا من بعد!، فاليوم

يقال للإنسان: إنه ابن الصدفة ووليد العبث، وكان ذلك مرتبطاً بمنصب الخليفة، وبالمؤهلات التي لا بد امتلكها الإنسان ليكون مناسباً لهذا المنصب..

كل ذلك كان مهماً جداً لكي يتمكن الإنسان من استلام منصبه، وليباشر في تحمله مهامِّه ومسؤولياتِه.. **أن يؤمن بأهميته، بجدواه، بأنه خُلق من أجل أن يُحدث فرقاً.. أنه خُلق لينوب مكان الخالق في الأرض..**

ومن دون ذلك ما كان يمكن له أن يحقق شيئاً مهماً، ما كان له أن يحقق تلك المعجزة التي حققها المسلمون في الانتقال من الدرك الأسفل إلى المرتبة العليا بين الأمم..

خامساً: لكن سياق الآية اللاحق يبين لنا تساؤل الملائكة، فيما يشبه الاعتراض: **﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾**، وهذا يشير إلى أكثر مما هو مجرد "**إساءة في استخدام المنصب**"، كما قد يبدو للوهلة الأولى في تساؤل الملائكة، لكن هناك وجهاً إيجابيّاً في هذا التساؤل، إذ إنه يعني أن هذا المخلوق الجديد الذي استحق منصب الخلافة دوناً عنهم **له حرية الإرادة والمسؤولية**، يمكن له من خلال هذه الحرية **أن يسيء استخدام منصبه وإمكاناته**، ويحقق ما قالته الملائكة، كما يمكن له أن يمنح هذا المنصب والمؤهلات حقهما، ويساهم في صنع العالم كما أراد له خالقه أن يكون..

وحرية الإرادة التي تطلُّ من بين سطور السياق هي أمر أساسي ومهم في تحقيق ما سيحققه هذا الإنسان الجديد، لا يمكن لأيٍّ كان أن يحقق شيئاً، أن ينجز شيئاً، ما لم يكن مؤمناً بإرادته في أن يحقق ذلك.. لا يمكن لأيٍّ كان أن ينجز شيئاً إذا كانت إرادته مستلبة، أو إذا كان لا يؤمن أصلاً بامتلاكه الإرادة..

ولا يمكن هنا غض النظر عن كون المعرفة ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾[٣٨] **ستكون مقياساً أساسياً في هذا التفوق «الإنساني» على الملائكة، وهو تفوق داخل بكل الأحوال في نطاق الإرادة البشرية**، أي أن هذه المعرفة مثل أية وسيلة أخرى منحنا الله إياها، يمكن أن نستخدمها في ما يحقق الهدف من خلقنا، ويمكن أيضاً أن تُستخدم في إثبات ما تحدثت عنه الملائكة من إفساد وسفك للدماء (أليس هذا ما نراه فعلا اليوم؟! ألم تُسخَّر أجزاء كبيرة من المعرفة لأغراض سفك الدم وقهر الشعوب والإفساد في الأرض؟!)..

وأكثر من هذا فإن السياق العام نفسه الذي جاءت فيه الآية رقم (٣٠) يدلنا على روافد مهمة تصب في الآية نفسها، وتزيد في توقد المعاني فيها، فالآية التي سبقت الآية (٣٠) كانت هي الآية الوحيدة في القرآن الكريم بأسره التي صرّحت بأن كل ما في

٣٨ للمزيد عن هذه الآية، يمكن مراجعة الجزء الأول من سلسلة كيمياء الصلاة - المهمة غير المستحيلة..

السموات والأرض قد خُلق لنا، للإنسان تحديداً ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

وهذا يجعل كل ما الأرض من ثروات وموارد، بل من مخلوقات وكائنات حية، كل ذلك بلا استثناء قد خلق من «أجلنا».. بالضبط من أجل أن نُستخلف فيه.. ليس ما في الأرض فقط، بل الأمر يتعدى ذلك إلى ﴿ما في السموات والأرض﴾، أي إلى الكون كلّه بمجراته ومجموعاته، وكل ما عرفناه، وكل ما لم نعرفه بعد.. كل هذا، خُلق من أجل أن نُستخلف فيه، ليكون جزءاً من امتحان الاستخلاف الذي أعده الله عز وجل لنا..

هل في هذا عودة إلى عقيدة أن الأرض هي مركز الكون التي دحضها العلم الحديث منذ غاليلو وكوبرنيكوس[٣٩] ..؟

لا طبعاً، **بل هي تأصيل وتكريس لعقيدة أن الإنسان هو مركز هذا الكون،** الإنسان وليس الأرض، على الأقل الإنسان المؤمن وقيمه وثوابته، حيث يكون هذا الإنسان قيمةً عليا، ومقصداً بحد ذاته، وليس عبثاً نشأ من رحم الصدفة، وألقته ماكينة عمياء إلى دوامة الاستهلاك اللانهائية التي لا يمكن له أن يحقق ذاته إلا من خلالها..

تفقأ عيوننا هذه الآية، بالأحرى تفقأ عيون الرؤية السائدة سواء أكانت تلك المستندة إلى فهم سلبي لنصوص دينية يجعل الإنسان تافهاً حقيراً لا شأن له، أو إلى رؤية مادية تجعل الإنسان كمّاً مهملاً في كون يتمدد باستمرار..

كيف فهم الصحابة الأمر

لكنها بالمقابل تفتح أعيننا على عالم آخر، عالم يقوم فيه الإنسان بدور مركزي.. ويكون هو، مركز الكون، بطريقة أو بأخرى.

إلا أنه من المهم هنا أن نفهم كيف فهم الجيل الأول، جيل الصحابة، الجيل الذي أعاد بناء العالم، كيف فهم هذه الآية؟ وكيف فهم تحديداً أمر الخلافة، وآية ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾؟

لكن لِمَ هذا السؤال أصلاً؟.. هل هناك من فهم الأمر بشكل مختلف؟..

---

٣٩ جاليليو جاليلي، ١٥فبراير ٨ - ١٥٦٤ يناير ١٦٤٢ عالِم فلكي وفيلسوف وفيزيائي إيطالي .نيكولاس كوبرنيكوس بالبولندية تورون، ١٩فبراير - ١٤٧٣ فرومبورك، ٢٤ مايو ١٥٤٣ كان فلكياً بولندياً، يُعتبر أول من صاغ نظرية مركزية الشمس، وكون الأرض جرماً يدور في فلكها، في كتابه "في ثورات الأجواء السماوية".

بالتأكيد.

فقد ساد في التفاسير الرائجة مجموعة من الأقوال التي لا دليل عليها، التي تُسطِّح المعنى وتخرجه من سياقه، وتجعل من الخليفة هنا هو من يخلف الجن الذين يُفترض أنهم كانوا يسيطرون على الأرض قبل آدم، وأن آدم - لأنه جاء بعدهم - فقد صار خليفة لهم، وكذلك انسحب هذا المفهوم على معنى الخلائف الذي مر ذكره في آيات قرآنية أخرى، فصار المعنى أن بني آدم يخلف بعضهم بعضاً، وأن هذا هو المعنى في الآية ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾[40]..

أما الجيل الأول - جيل الصحابة الذين كانوا المعجزة الحقيقية - فقد كانت قراءتهم هي القراءة الحقيقية لتلك الآية، القراءة التي تفهم أن الإنسان هو خليفة الله في الأرض، كما ذهب إلى ذلك ابن عباس وابن مسعود في تأويل الآية ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]: حيث نقل عنهما الطَّبري» **فكان تأويل الآية على هذه الرواية التي ذكرناها عن ابن مسعود وابن عباس: إني جاعل في الأرض خليفةً منّي يخلفني في الحكم بين خلقي. وذلك الخليفة هو آدمُ ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه.**[41]

وكما نقل ابن أبي حاتم في تفسيره عن خالد الحذاء قال: سألت الحسن البصري فقلت: **يا أبا سعيد، آدم للسماء خُلق أم الأرض؟ قال: أما تقرأ القرآن؟ ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ لا بل للأرض خُلق.**[42]

ولا يجب أن نستغرب من هذه القراءة إطلاقاً، فقد كان الجيل الأول متشرباً بمعاني الخلافة - والعبادة الحقيقية - لكن أجيالاً لاحقة نشأت في عصور انكسار وتدهور، صارت تملك رؤية شديدة السلبية لذاتها، وصارت لا تتصور أن يكون الإنسان هو خليفة الله، لذا نحتت مفاهيم بديلة، يكون فيها آدم خليفة للجن، ويكون أولاده خلفاء بعضهم لبعض، وهي المفاهيم التي لا دليل عليها أصلاً لا من قرآن ولا من سنة، بل إنها ستبدو خارج السياق التكريمي الذي وردت فيه الآيات القرآنية.. بل خارج أي معنى مفيد أصلاً، **فلماذا يقال للملائكة هذا الخبر العظيم إن كان يقتصر على كون أن الخلق الجديد سيخلف «الجن»؟!.. أو سيخلف بعضه بعضاً؟!**

ولماذا ستبدي الملائكة هذا التخوف من القتل وسفك الدماء، إلا في حالة كون هذا المنصب سيتضمن خيارات واسعة ومسؤوليات تتيح للإنسان - الخليفة أن

---

٤٠ تنتشر هذه الأقوال في أغلب كتب التفسير الرائجة.
٤١ جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري ج ١ ص ٤٥٢ ، مؤسسة الرسالة ط ١ ، ١٤٢٠ - ٢٠٠٠م.
٤٢ تفسير ابن أبي حاتم (تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين) - الناشر مكتبة نزار مصطفى الباز الطبعة الأولى - ١٩٩٧ تحقيق أسعد محمد الطيب ج ١ ص ٧٦.

يسيء التصرف..

أما التقزيم الذي حدث لفهم الآية، **بما تسرب من إسرائيليات، وتكرَّس عبر عصور الانحطاط والبعد عن الاستخلاف، فهو مما لا يستطيع أن يجعلنا في حالة إقصاء إلى الأبد من الآية رقم (٣٠)..**

الآية لا تزال كما هي..

ونحن لا نزال مشمولين بها..

بكوننا «خلفاء في الأرض»..

الحياة في أقصى معانيها

السياق القرآني السابق لآية الاستخلاف أيضاً يضعنا في مواجهة مع ثنائية الموت والحياة ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]..

فالحياة هي النعمة الكبرى التي أنعم الله بها علينا، النعمة التي من خلالها نتعرف على عظمته وجلاله وسموه - عز وجل..

لكن الآية التي تستنكر الكفر ممن لم يكن له وجود لولا أن خلقه الله عز وجل، تكمل الدرب وتأخذنا إلى ذلك المشهد الذي أعلن فيه رب العزة لملائكته أنه سيخرجنا من عدمنا، من موتنا الأول كما في الآية، إلى الوجود، أو إلى الحياة الأولى..

لكنه عز وجل في ذلك المشهد الحاسم اختار لحكمة لا تخفى أن يعلن للملائكة أنه ﴿جاعل في الأرض خليفة﴾.. **كما لو أن في هذا الجعل المعنى الأقصى والأكثر عمقاً للحياة.. كما لو أن حياتنا لا تتحقق حقاً إلا عندما نتحمل مسؤوليتنا، وننفذ ما خُلقنا من أجله، ونكون** ﴿خلفاء في الأرض﴾.. وبغير ذلك تكون حياتنا مجرد مظهر بيولوجي فارغ من المعنى والهدف، محض تنفس وهضم وتناسل عقيم حتى لو ملأ الأرض ذرية.. ما دام لم يحقق "الهدف" من الخلق أصلاً..

أحياكم، ثم جعلكم خلفاء.. ويمكن لبعضكم أن ينكص، فيموت.. أو يعيش حياة هي للموت أقرب..

تأخذنا الآيات بتضافرها وسياقها إلى هذا المعنى الذي يجعل من الحياة والاستخلاف

توأمان لا يمكن الفصل بينهما.. فترسخ فينا، - كما فعلت حتماً في الجيل الأول، وفي كل جيل يريد أن يتشكل بالقرآن - تلك العلاقة المثمرة التي توصل بين الحياة التي نحياها، والحياة كما يجب أن تكون، الحياة بمعناها الأقصى: الاستخلاف..

الاستخلاف من البعوضة فما فوقها

والوصل بين المعنيين سيجرنا جرّاً إلى آية أخرى في السياق نفسه ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧].

هذه الآية تصف الفاسقين ﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾ [البقرة: ٢٦].

أو قد يبدو هنا أن السياق قد اختلف، لكن فلنتذكر «تساؤل الملائكة» عندما أخبرهم عز وجل عن «جعل» الإنسان خليفة..

لقد **قالوا: إن الإنسان قد يُسيء استخدام سلطانه، وقد يفسد في الأرض، ويسفك الدماء..**

وهو قد يفعل ذلك فعلاً كما نعرف جيداً.. ولا يُعقل أن تكون تلك مجرد صدفة، خاصة أن «**الفسوق**» – **وهو لغة العصيان والترك - قد وصم إبليس** قبل أن يصم هؤلاء بالفسوق..

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

والموقف الذي ترتب عليه وصم إبليس بالفسوق هو موقف مرتبط بموقف تعيين آدم خليفة في الأرض، أي عندما أمر الله عز وجل الملائكة بالسجود، و«**فسق**» **إبليس عندما أبى واستكبر**، وأقسم أنه سيضل كل من يتبعه من بني آدم (أي كل من يخرج عن الطريق الذي رسمه عز وجل وينحاز إلى إبليس..).

وهذا **يجعل الفسق صفة ناتجة عن موقف إنساني منحاز لإبليس ولأدوات إبليس (الجدل، الاستكبار، الشهوات، كل ذلك في حزمة واحدة)..**

هل يمكن أن نرى أثراً لمشهد الاستخلاف في تكملة وصف الفاسقين في الآية؟

بالتأكيد، إنه **نقض الميثاق الإلهي!**

هل هناك ميثاق أكبر وأشد من الميثاق الذي تحدد من خلاله سبب وجودك في الحياة؟

أليس ترك ما خُلقت من أجله نقض للميثاق الذي أوجدك أساساً؟

ماذا عن قطع ما أمر به الله أن يوصل؟

كل ما أمرنا الله به هو بطريقة ما **وصل بيننا وبين ما يجب أن نكونه، وصل بين نياتنا وحوافزنا وأهدافنا، وبين ما يجب أن نحققه، وصل بين إمكاناتنا وكل الأدوات التي وضعها عز وجل تحت تصرفنا وفي داخلنا، وبين ما يجب أن ننجزه..**

كل مثل - مهما بدا صغيراً - **يمكن أن يجد مكاناً مثمراً** داخل المشهد الذي أُعلن فيه أننا «الخلفاء».. كل مثل يمكن أن يصب داخل هذا المشهد ليصبح أكثر تألقاً وإشعاعاً..

لهذا كلِّه..

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وهكذا نجد أن السياق كله، بتكامله وتضافره، كان يمهد ليصب في داخل الوعي المسلم -قيد التكوين **روافد توازي عملية حفر الأساسات وبناء المسجد في تلك الفترة..** روافد تحفر الأساسات، وترفع القواعد داخل هذا الوعي، وتجعل **عبادة «الاستخلاف» محور وجوده**، كل ما **يقوم به وينجزه بوصفه فرداً أو مجتمعاً، سيعرض على امتحان الاستخلاف..** وستحدد أهميته ومكانته بناء على هذا الامتحان..

بناء شاهق مثلاً أو تحفة معمارية، قد لا يكون لهما قيمة إيجابية إطلاقاً بمعايير الاستخلاف بل قد يكون سلبياً..

بينما مشروع بسيط ومتواضع، بلا بهرج ولا أبّهة، قد يكون موافقاً لمعايير الاستخلاف وقيمه، وقد يمثل تحقيقاً للهدف من الخلق والوجود.. حتى لو لم يبقِ له أثر مادي واضح عند انتهائه.

لكن القيم العليا التي ركزتها الآية (٣٠) لم تقتصر على كل ما سبق على أهميته، بل

كانت هناك قيمة مركزية أنتجها التفاعل المتسلسل مع هذه الآية.. وهي قيمة تربط كل ما سبق من بذور ومعانٍ في الفترة المكية، وتضعها في **سياق التطبيق والعمل والفاعلية في فترة البناء المدني..**

الآية (٣٠) تربط سياق سورة (ص): ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦] بكل ما تلاها من آيات تحدثت عن الاستخلاف بصيغة جماعية..

آية سورة (ص) تحدثت كما أسلفنا عن الخليفة بصفته **قمة الهرم، قمة المجتمع، بصفته الناتج النهائي والأعلى الذي يتمكن فيه مجتمع ما من تحقيق قيم الاستخلاف بصيغتها الكاملة التي تشمل ضمن ما تشمل الوصول إلى «قمة الهرم»..**

كانت هذه هي الإشارة الأولى للاستخلاف في القرآن حسب ترتيب النزول.. ولقد بيّنا مراراً أن هذه الإشارة المبكرة كان هدفها **وضع نموذج عالٍ أمام مسلمي الجيل الأول على نحو يحفزهم ويشد هممهم**، وبعدها جاءت السياقات المتتالية ترسخ في الوعي الجمعي المتكون بالتدريج فكرة الاستخلاف الجمعي..

أهمية الآية رقم (٣٠) **أنها قامت بذلك الربط بين الأمرين، بين قمة الهرم (داود - الخليفة الفرد) وقاعدة الهرم (الجماعة، المجتمع)..**

قبل الآية رقم (٣٠) كانت **الجماعة المسلمة هي المستخلفة**، وكان وجوده عليه الصلاة والسلام بينهم يسهل الأمر بطريقة أو بأخرى، فالقائد واضح، والجماعة هي المستخلفة بالعموم، دون تخصيص لأحد بعينه، **وهذا يجعل دور الفرد - في هذه المرحلة- غير واضح على الرغم من كون هذا الفرد جزءاً من الجماعة.. لكن المسؤولية الفردية فيه غير واضحة، لأنها تتوزع على الجميع على نحو لا يشعر كل فرد بالعبء على عاتقه وحده**، بل يمكنه أن يشعر أن العبء يجب أن يُلقى على عاتق شخص آخر، على عاتق أي شخص آخر دوماً، ودون تحديد، المهم هو أن هذا الشخص ليس «أنا»..

لا نتهم هنا الجيل الأول بذلك على الإطلاق، بل نشير إلى أن **الطبيعة البشرية تميل إلى ذلك غالباً**، وأن هذه حقيقة بشرية لا تستحق التجريم ابتداء بقدر ما **تستحق التحوير**، والتحوير لا يمكن أن يحدث دون أن **نقر بوجود الأمر وبضرورة معالجته - أو نسفه..**

معالجة هذا الأمر أو نسفه من جذوره لا يتم إلا بما فعله القرآن مع الجيل الأول الذي تشكل بالقرآن، والذي كان لا بد له - أو لبعض أفراده على الأقل - نفس ما

يشعر به كثيرون منا اليوم..

الاستخلاف فرض عين لا فرض كفاية

لتوضيح ذلك بمثال: يُستخدم اليوم كثيراً **مصطلحا فرض العين وفرض الكفاية**، والناس عموماً تفهم فرض العين على أنه ما يجب أن يقوم به كل فرد (كالصلاة مثلاً)، أما فرض الكفاية فهو ما «يكفي» أن يقوم به فرد واحد من الجماعة، فإن لم يفعل، كان الكل معرضين للعقوبة (مثل الأذان للصلاة)[٤٣]..

والحقيقة أن هذه التقسيمات الفقهية فاعلة حتماً عندما تستخدم في سياق أمثلتها الجزئية (أي مثل الأذان للصلاة أو صلاة الجنازة).. ولكن فاعلية هذه التقسيمات (التي نشأت في فترة لاحقة، في فترات ازدهار الأمة بطبيعة الحال) **تقلُّ كلما صار الأمر المشار إليه بفرض الكفاية أكثر عمومية وأقل تفصيلا، مثل: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطلب العلوم** (التي يقسمونها إلى دنيوية وغير دنيوية).. خاصة عندما **تصطدم** هذه التقسيمات بحالة من **انعدام الوعي الجمعي الذي يكرس هذه الفروض، أو سيادة وعي جمعي مناقض لها ولأهميتها..**

وهكذا نرى اليوم حالة من اللامبالاة إزاء ما يفترض أنه «فرض كفاية»، الناس تعلم أن عدم قيام «أحد ما» بهذا الفرض يجعل **الكل معرضين للعقوبة** كما يقول العلماء دوماً، **لكن أمر العقوبة الجماعية المؤجلة هنا لا يكون له الأثر المرجو نفسه عندما لا يجد تربة الوعي الملائمة للتفاعل مع تقسيمات كهذه**، وهي التربة التي نزعم أنها كانت لا تزال موجودة عندما أنشئت هذه التقسيمات الفقهية الاصطلاحية..

أما اليوم، ولغياب هذا الوعي، فإن الأمر الكفائي (مثل الحديث عن نهضة الأمة أو العلم الدنيوي!) **يصطدم بذلك الميل الفطري للفرد إلى التنصل من المسؤولية الملقاة على الجماعة**، هناك **دوماً شخص آخر عليه أن يقوم بذلك نيابة عن الجميع وأصالة عن نفسه**.. هناك دوماً تلك الكتف التي ترتفع في تعبير تعودناه عن اللامبالاة، كما لو أن هذه الكتف تزيح العبء الملقى ليسقط أرضاً.. هناك دوماً **ثقافة فردية تتمثل في سؤال: «لماذا أنا بالذات عليّ أن أفعل ذلك؟»..**

وكل ذلك طبيعي جداً، ضمن السياقات السابقة..

٤٣ الموسوعة الفقهية الكويتية مادة فرض، www.islam.gov.kw
وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - وأغلب الكتب الفقهية في شرحها للمصطلحين.

ولكنه لا يؤدي إلى أي حراك، لا يمكن لمجتمع أن يحدث نهضة ما، تغييراً ما، إذا بقيت **النسبة الغالبة فيه تهز كتفيها وتقول: «لماذا أنا؟»..**

لا نقول هنا: إن الجيل الأول كان كذلك..

لكنهم كانوا بشراً، وكان الخطاب القرآني يعاملهم على هذا الأساس أولاً..

وعلى أساس أنهم مَثّل لنا.. وأننا لاحقاً سندرس تجربتهم من أجل أن نحقق تجربتنا..

ولهذا علينا أن ننتبه إلى الكيفية التي تم من خلالها **جعل تلك الكتف تحمل العبء بعد أن كانت تلقيه بلا مبالاة..**

◆◆◆

الآية رقم (٣٠) هي التي ساهمت بذلك، **لقد حولت فكرة العمل الجماعي من شكلها العام الذي يحتاج إلى تحديد وتوضيح، إلى حقيقة واقعية، إلى عبء يشترك كل فرد في حمله**، لا ينوب أحد عن أحد، ولا يسقط قيام أحد بدوره واجب الباقين في أدائهم دورهم.. بل يجهض «عدم قيامهم بأدوارهم» حتى ذلك الدور الذي قام به ذلك الفرد..

الآية رقم (٣٠) ألغت ذلك **الفارق الوهمي بين فرض العين وفرض الكفاية، صار العبء الإنساني عبأً ملقى على كل فرد بعينه..** لم يعد «الخليفة» نبياً أو رسولاً أو ملكاً أو قائداً زعيماً بالضرورة، **بل صار «الخليفة» كل فرد، صار النوع الإنساني، صار لكل نصيبه من استخلاف لن تتحقق نتائجه النهائية إلا بعد أن يمر بهذه المرحلة التي يكون فيها كل فرد هو الخليفة شخصياً..**

لا مجال هنا، وبعد هذه الآية، أن تكون هذه المهمة مهمة رجل آخر أو فرد آخر، **صار الكل شركاء بشكل محدد، شركاء في العمل، وشركاء في الإنجاز، وبالتالي شركاء في الثواب، كما أنهم أيضاً شركاء في الجريمة، جريمة اللاعمل، وشركاء في النتيجة المترتبة على ذلك، شركاء في العقوبة، دنيوية عاجلة، أو أخروية آجلة..**

هذه الآية تسد منافذ الفرار التي دأب الإنسان على استخدامها للتهرب من مسؤوليته، منافذ العجز والكسل والفردية الخانقة التي تحجز الإنسان عن أداء دوره..

لكل فرد حمله الذي يحمله على ظهره، والحمل النهائي هنا هو حمل الجميع، لن ينوب أحد في حمل ما يجب أن يكون على ظهر أحد آخر، **لا تزر وازرة وزر أخرى، لكن الوزر الجماعي يُوزع على الجميع..**

وكما يحدث حتى مع الأثقال المادية التي يتشارك عدة أشخاص في حملها، فإن تخلي بعض الأفراد عن دورهم لهذا السبب أو ذاك، سيؤدي عملياً إلى **عدم توازن الحمل**، وربما إلى عدم إنجاز المهمة.. **الأشخاص الذين تحملوا مسؤوليتهم، وحملوا حملهم لن يتمكنوا من إنجاز المهمة، ليس لأن العبء المتبقي سيكون أكثر من طاقتهم على الاحتمال والتحمل فحسب، بل لأن زاوية حملهم لن تحتوي هذا العبء..** وسيؤدي ذلك كله إلى فشل العملية بأسرها، أو إلى سقوط الحمل وإصابته بأضرار..

كذلك يحدث مع الأحمال الاجتماعية الضخمة التي لا يمكن حملها إلا بشكل جماعي، عندما يتخلى البعض عن دورهم، فإن هذا الحمل المتروك سيؤثر حتماً على من استمر في أداء مهمته، ليس لجهة تزايد المهام عليهم فقط، بل بسبب أن التخصص اللازم للقيام بعمل ما ضمن هذا الحمل الاجتماعي، قد لا يكون متوافراً عند الجميع..

لذلك، وفي تلك المرحلة الحساسة من بناء المجتمع، وفي طور انتقال النظرية إلى التطبيق (التطبيق الذي يمنح المصداقية للنظرية، ويزيدها تألقاً).. كان لا بد أن تأتي الآيات لتحسم هذا التردد الفردي الذي يمنع الإنسان من أن يؤدي ما خُلق لأجله.

علامة على الدرب: كلكم خليفة!

السنة النبوية تمثل على الدوام انعكاساً للخطاب القرآني على مرآة التطبيق العملي في أرض الواقع، ولقد حفظتْ لنا انعكاساً شديدَ الأهمية لمعنى المسؤولية الفردية وكونها جزءاً من مسؤولية اجتماعية أكبر، بلا فصل حقيقي بين الفرد والجماعة، أو ما هو فرض عين وفرض كفاية..

الحديث معروف جداً للأسف، وسنبين لاحقاً سبب هذا الأسف..

يَقُولُ عليه أفضل الصلاة والسلام في هذا الحديث: **«كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ رَاعٍ، وَهْوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ، وَهْوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهْيَ مَسْؤولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ، وَهْوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ». قَالَ: فَسَمِعْتُ هَؤُلاَءِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَأَحْسِبُ النبي صلى الله عليه وسلم قَالَ: «وَالرَّجُلُ فِي مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ، وَهْوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ».**[٤٤]

والحديث صحيح، ومتفق عليه، وقد رواه من الصحابة عبد الله بن عمر، وعبد الله

٤٤ صحيح البخاري ٣٩٨، صحيح مسلم ٨٢٨٤، أبو داود ٣٩٢، سنن الترمذي ٦٠٨١

بن عمرو، والسيدة عائشة، وأنس بن مالك، وأبو موسى، وأبو لبابة بن عبد المنذر، وأبو سعيد الخدري، وهذا عدد كبير من الصحابة، صحيح أنه لا يرتفع ليجعل الحديث متواتراً، إلا أنه من الضروري الانتباه إلى أن هذا العدد من الصحابة يعني أن الحديث كان متداولاً، وأنه عليه الصلاة والسلام كان يكثر من الإشارة إليه بهذا اللفظ المحدد.. خاصة أن الصحابة الذين رووا الحديث كانوا في أعمار مختلفة، بل إنهم أسلموا في فترات مختلفة (مثل عبد الله بن عمرو بن العاص)..

والحديث ينقل لنا **انعكاساً نبوياً في غاية الأهمية لمعنى الاستخلاف في الأرض والمسؤولية الإنسانية**، وبالتحديد في أن هذه المسؤولية الإنسانية توزع على **جميع أفراد المجتمع بالتساوي** دون أن يعني ذلك تساويهم في أداء المهام، ودون أن يعني أن مهامهم واحدة أصلاً..

العنوان العريض لمهمة كل منهم واحد، أنه الراعي، أو الخليفة - لا فرق كبير هنا بين الاثنين - لكن **التوصيف الوظيفي سيختلف في التفصيل بعد أن تشابه في العنوان الرئيسي، سيكون لكل مكانه ومكانته**، وتفاصيل عمله المُناط به، لكن كل ذلك سيكون «رعيا».. الإمام والخادم والرجل وامرأته.. **كلهم سيكونون رعاة، عملهم الأساسي سيكون الرعي، وإن اختلفت رعية كل منهم وتفاصيل رعيه..**

ستبرز هنا خاصية واضحة جداً لعلها غير مسبوقة في نهضات الأمم وبنائها، **إنها توزيع المهام على جميع أفراد المجتمع، المجتمع الوليد هنا كان يبدو كأوركسترا متناغمة مع ذاتها ومع الهدف الذي أنشئت من أجله**، كل منهم يستخدم أداة مختلفة، كل منهم تدرب عليها، وصارت خبرته مرتبطة بهذه الأداة، لكن كل ذلك سيصب في أداء لحن متناغم سيختل كله لو أن فرداً واحداً أخلّ بمهمته..

لماذا أقول: إن ذلك غير مسبوق بين الأمم..

لسبب بسيط وهو أن هذا النوع من الفهم والأداء **يطيح تماماً بمفهوم التراتبية والطبقية التي قامت عليها المجتمعات التقليدية، بل حتى أغلب المجتمعات الحديثة في بداية نشوئها..**

هنا لم يعد مفهوم العرق أو الجنس أو الانتماء لعشيرة أو قبيلة هو المعيار الأساسي الذي تتحدد من خلاله مكانة الفرد ومهمته، بل صار الجميع مشمولين **بمعيار واحد هو قيامهم بمهامهم وواجباتهم، بغض النظر عن الجنس أو العرق**، وفي ذلك امتداد نبوي تطبيقي لمفهوم قرآني أصيل وأساسي **يجعل التقوى (أي الالتزام بقوانين الله) هي المعيار الذي يحدد كرامة فرد ما ومجتمع ما ﴿إن أكرمكم عند الله اتقاكم﴾..**

لكن هذا الامتداد التطبيقي يحدد ويوضح مفهوم التقوى، ويزيح عنه الغبش العالق في أذهاننا جراء فهم جزئي يحبس التقوى في شعائر مجردة عن معانيها وسياقها.. إنه يوضح **أن التقوى هي فعل مسؤولية أيضاً**، هي فعل التزام تجاه المجتمع، هي تفكير بالواجب قبل المطالبة بالحقوق.. إنه يوضح أن **التقوى هي فعل رعي ورعاية** يقوم به كل فرد تجاه المجتمع، وسيجعل هذا المجتمع أيضاً يقوم بفعل الرعي والرعاية تجاه كل فرد فيه..

هذه العلاقة التفاعلية المتبادلة **هي العقد الاجتماعي الذي أقيم عليه المجتمع المدني(نسبةً إلى المدينة)، المسؤولية والواجب قبل الحق والحقوق، والمسؤولية موزعة على الجميع بالتساوي، وبالتالي فإن استحصال الحقوق سيكون بالتساوي أيضاً.. بغض النظر عن عشيرة أقوى أو سيد وعبد أو امرأة ورجل..**

أزعم أن هذا التطبيق وجذوره القرآنية الواضحة سواء في آية ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ أو في ﴿إن أكرمكم عند الله اتقاكم﴾ هو الذي حقق **الثورة الأعظم في التاريخ،** الثورة التي أطاحت بمفاهيم الطبقية الزائفة، وجعلت ابن السوداء يطأ بقدمه ابن الأكابر، والمولى يتزوج من القرشية، وجعلت الخليفة يقول: (قوموني)، والخليفة الآخر يقر: (أخطأ عمر وأصابت امرأة)..

لن ندعي أن ذلك كله استمر عبر تاريخنا كله، لكننا نزعم أن **المرحلة التأسيسية التي يقر الجميع بأنها الأفضل حتماً كانت تمثل نموذجاً مثالياً لكل ذلك، وأن مجرد حدوث ذلك، وفي فترة صارت بمثابة المرجع والمصدر الذي تُستقى منه النماذج، مجرد ذلك كفيل بأن نؤمن أن حدوث ذلك كلّه مجدداً ليس أمراً مستحيلاً، بل هو أمر نحن مأمورون به.**

شكل آخر من الرعي

سيقول البعض هنا: إن حديث «كلكم راع» لا يحتمل كل ذلك، وإن فهمه الحقيقي هو في سياق المجتمع الرعوي الذي كان لا يزال قائماً في شبه جزيرة العرب عندما جاء الإسلام، وسيكون قولهم هذا مدخلاً لما يصرح به البعض، ويلمح إليه البعض الآخر، من أن انتهاء تلك المراحل الاجتماعية تاريخياً يستلزم أن نغض النظر عن أحاديث كهذه ومفاهيم كهذه (وأحيانا عن آيات قرآنية أيضاً..).

والحقيقة أنه عليه الصلاة والسلام كان يتحدث بلغة قومه ولسانهم، **وهذا جزء**

أساسي من شروط التغيير الاجتماعي.. أما هؤلاء فهم يشترطون أن يكون حديثه صلى الله عليه وسلم بمثابة ألغاز ومصطلحات حداثية لكي يؤمنوا به، وهو أمر ما كان أدى إلى أي تغيير لو أنه حدث آنذاك، **كما أن هؤلاء سيظلون عاجزين عن إحداث أي تغيير لأنهم عاجزون عن التواصل مع أقوامهم بلغة مفهومة..**

على العكس من ذلك، فإنه عليه الصلاة والسلام استخدم لغة يفهمها قومه لكي يقوم بتنزيل مفهوم جديد عليهم، ومن ثم تفعيله..

كلهم كانوا يعرفون معنى «الرعي».. لكنه كان رعي الأغنام والإبل والبقر، كان مجرد مصدرٍ سهلٍ للربح دون كثير من العمل، ودون امتدادات تطبيقية خارج هذا المفهوم..

الحكمة النبوية أخذت اللفظة من سياقها ومفهومها الخاص، وفعّلتها ضمن فضاء رحب يغطي المجتمع كلَّه، وبالتالي فإن المصطلح الذي يتضمن **الفهم الجديد للرعي يلغي أية إمكانية لتوظيف الحديث في سياقات المجتمع الرعوي..**

على العكس من ذلك، فإن الحديث بهذا السياق يساهم في إرساء أسس لمجتمع جديد هو أبعد ما يكون عن المجتمع الرعوي البدائي، بل إني **أزعم أن كل فضائل مجتمع المواطنة ودولة المواطنة التي يروَّج أنها نتاج العصر الحديث وأفكاره، هذه الفضائل تملك بذورها الأساسية داخل هذا الحديث وجذوره القرآنية المؤسسة له..**

المجتمعات الرعوية التقليدية تقوم على استئناس الحيوان وتربيته والاستثمار في منتجاته المختلفة، وهذا مفهوم بالتعريف، وقد لا يحتاج إلى أمثلة..

أما مجتمع «كلكم راع» **فهو يركز على استثمار الإنسان، إنه يقوم أصلاً على رعاية إنسانية الإنسان وشعوره بمسؤوليته**، أكثر مما يقوم على تدجين حيوانات معينة من أجل الانتفاع منها.

الفرق كبير وجوهري بين مجتمعين: مجتمع الرعي التقليدي، القائم على وتيرة بطيئة وغير متحركة، إذ لا شيء سيتغير حقاً في معطيات مجتمع كهذا.. حتى العمل الذي يرتزق منه الأفراد هو عمل يشبه إلى حد بعيد البطالة وإن تقنعت بعمل ما..

وبين مجتمع «كلكم راع» الذي كان يشهد مخاضه الجليل، حيث كل فرد هو راع ومسؤول من **أعلى سلطة في قمة الهرم** - ممثلة في الإمام - إلى أبسط فرد في قاعدة الهرم ذاته - ممثلة في الخادم - **وبين القمة والقاعدة مجتمع كامل خاضع لنفس**

مفهوم «الرعي» والمسؤولية.

مجتمع الرعي التقليدي ينتظر ربحاً محدوداً ربما لا يتجاوز قصعة فيها القليل من اللحم والدسم، أو بعض ما سيتبادله الراعي من وبر وصوف مقابل سلع أخرى..

أما مجتمع كلكم راع، **فربحه قد يتأخر قليلاً، ولكنه بالتأكيد أثبت وأهم، في الحقيقة إن معايير الربح والخسارة في مجتمع كهذا تكون مختلفة، وتترفع عن أن تبقى حبيسة في ربح عابر بسيط..**

وهذا بالذات ما يُنتج الفرق الأهم بين المجتمعين..

المجتمع الأول، مجتمع الرعي والبداوة والبطالة المقنعة، يبقى على هامش التاريخ.. عابراً كما لو أنه لم يكن..

والمجتمع الثاني، مجتمع «كلكم راع، كلكم خليفة» هو **المجتمع الذي أنجز أهم معجزة في تاريخ البشرية، عبر ذلك الانتقال المضيء من مجتمع الرعي البدوي التقليدي، إلى حضارة العدل والحق التي فتحت مغاليق العالم القديم، وخلال ثلاثة عقود فحسب..**

لم يحدث ذلك طبعاً بسبب حديث واحد فقط، مهما كان منتشراً وسائداً في المجتمع الوليد.. بل كان ذلك **الحديث مثل قمة طافية وظاهرة لجبل من المفاهيم التي غرست عبر القرآن داخل وعي الجيل الأول..**

ما كان يمكن لحديث «كلكم راع» أن يُفهم كما يجب، وأن يكون له أثر على المجتمع، إلا بعد أن دخلت تلك المفاهيم القرآنية في صلب كل فرد مسلم وبنيته، **إلا بعد أن صارت جزءاً من بديهياته ومسلماته التي لا نقاش فيها..** ليس لأن النقاش في حد ذاته محرم، بل لأن لا أحد يمكن له أن يناقش «**التنفس**» **للبقاء على قيد الحياة..** وكانت هذه المفاهيم **القرآنية تمثل الأوكسجين للإنسان والمجتمع الجديد.. كانت قد صارت جزءاً من أسباب وجوده في هذا العالم.. بل صارت كل أسباب وجوده.. وأي مساس بها كان سيطيح بوجوده شخصياً، أي مساس بها كان سيهدد الهواء الذي يستنشقه..** هذا هو معنى أن تكون تلك المفاهيم القرآنية قد صارت بديهيات ومسلمات، **أن لا يكون من الممكن التفكير خارجها،** ليس لأن التفكير حرام أو كفر كما قد يفهم البعض، وكما يحلو للبعض الآخر أن يتهم به الدين، بل لأن التفكير في ذلك سيكون **تفكيراً يلغي هذا الإنسان، يلغي أسباب وجوده والحوافز على فاعليته..** يسلب منه الحياة ويتركه

ميتاً وإن تنفس وتناسل وأكل وشرب.. يأخذ منه البوصلة ويتركه هائماً على وجهه في عرض صحراء قاحلة خالية..

هذه هي البديهيات التي غرستها المفاهيم القرآنية..

وأزعم هنا أن مفهوم **الاستخلاف في الأرض** الذي تم تنزيله بالتدريج داخل الوعي المسلم، وتم **تفعيله وإطلاقه في العهد المدني خاصة، كان من هذه المفاهيم التي صارت بديهيات بالنسبة لكل فرد مسلم..**

وأزعم أيضاً أن هذا المفهوم هو الذي جعل لحديث «كلكم راع» **وقعه التطبيقي في فترة البناء الأولى** على نحو مختلف جداً عن الواقع الذي يمكن أن يحدث لو أنه عزل عن هذه المفاهيم والبديهيات..

وهذا هو ما حدث معنا بالضبط اليوم..

فقدنا بداهة المفاهيم، فقدنا البنية التحتية التي تجعل هذه المفاهيم فاعلة في حياتنا..

لهذا كلّه يمكن أن يمر حديث مثل هذا، دون أن ترمش أعين البعض.. دون أن يتصوروا أنهم معنيون من قريب أو بعيد بالأمر..

دون أن ينتبهوا حتى إلى أهميته، وإلى أنه يتحدث عن كل فرد منا..

لكن لا غرابة، إذ إن المفهوم القرآني الذي جعل حديثاً كهذا يبدو مفهوماً وفاعلاً، المفهوم نفسه نُزع وأُبطلت فاعليته من عقول كان يجب أن تتشكل عبر هذا المفهوم وسواه..

لذا كان لا بد أن يمر علينا حديث كهذا، ثم لا يحدث شيء..

ولهذا قلنا عن الحديث: منتشر جداً.. للأسف..

عندما يكون المرعى هو العالم

لكن كل ذلك يجب ألا يجعلنا ننسى أن الرعي لغةً كان يتضمن أكثر مما هو في استخدامهم المباشر لمهنة الرعي.. ولا ريب أن المجتمع الجديد، قد أخذ حزمة المعاني الممتدة معه ليجعل من مفهوم «كلكم راع» جزءاً من عملية بناء المجتمع

الجديد.. بل ليصير مفهوم «كلكم راع» علامة على درب هذا البناء..

الرعاية لغة تعني **الحفظ والإحاطة والحماية**[٤٥]، وهذا المعنى واضح في مهنة الرعي.. وهو المعنى الذي ترسخ في أذهاننا للأسف، إذ نفهم أن الرعاية لها معنى يشبه «الحراسة».. وهي معانٍ مرتبطة بالإحاطة والحفظ والحماية، فوظيفة الراعي في أذهاننا هي في المحافظة على القطيع من الذئاب، أو من السرقة، أو من الضياع، ويتركه خلال الحماية وهو يأكل ويشرب ما يتيسر له..

لكن الرعي في لسان العرب يشمل أكثر من ذلك، إنه يشمل **الإنماء، ويشمل الإنبات، ويشمل المراقبة والتأمل..**

وكل هذه المعاني متضمنة في حديثه عليه أفضل الصلاة والسلام «كلكم راع»..

فالرعي هنا ليس مجرد «حفظ وحماية».. والراعي الذي هو كل فرد في المجتمع الجديد ليس مكلفاً بالحفظ والحماية فحسب.. بل هو مكلف بالإنماء.. بجعل ما هو مسؤول عنه متنامياً على كافة الأصعدة.. بالضبط الكلمة التي تستخدم في لسان العرب للدلالة على ذلك هي الارتفاع.. والارتفاع يعني أشياء كثيرة بحسب السياق الذي يستعمل فيه، لكن الرفعة دوماً إيجابية، وهي تختلف حتماً عن التطاول الفارغ الذي قد يؤدي إلى الهاوية، بل هي تعني **في سياق كهذا الزيادة والنماء..**

كذلك يعني الرعي **المراقبة والتأمل**، كما في قول الخنساء..

أَرْعى النُّجوم وما كُلِّفْت رِعْيَتَها   وتارةً أَتَـغَشَّى فَـضْلَ أَطْمارِي

وهذا هو الرعي في سياقه الحضاري الذي له مكان من الإعراب في مجتمع «كلكم راع».. وليس الحفظ والحماية فقط، ليس أن تحرس ما أؤتمنت عليه وترده كما كان إلى صاحبه، بل أن **تنميه.. أن تزيد ما فيه من خير، أن تختار له البيئة التي توفر له هذا النماء..**

فالراعي لا يمكن له أن يرعى بقطيعه في أرض جرداء لا زرع فيها، وإلا كان خائناً لتوصيفه الوظيفي ومضيعاً للأمانة.. بل إن **اختيار البيئة المناسبة للرعي هو من صلب هذا التوصيف، قد يكون الطريق إلى المرعى المطلوب طويلاً ووعراً.. وقد يكون محفوفاً بالمخاطر.. لكن عند عدم توفر البديل، فإن الرعي في المنطقة الجرداء ليس خياراً أصلاً..**

---

٤٥ لسان العرب : مادة (رعى)

بل أكثر من هذا، **فقد يستلزم الأمر أن تصنع له البيئة المناسبة لكي ينمو و«يرعى»..** أي أن الرعي هنا صار يستلزم أحياناً **أن تعيد ترتيب المرعى، أن تعيد صنعه، أن تبنيه من جديد ليكون ملائماً لأفضل النتائج الممكنة في إطار مسؤوليتك..**

كما أن مفهوم المراقبة والتأمل - الذي هو من معاني لفظة (رعى) في لسان العرب - هو من صلب هذه الوظيفة بمعناها الأشمل.. لا يمكن حقاً أن ترعى دون **أن «تدرس» المرعى والرعية..** أن تتأمل وتراقب كل جزئية فيهما، في البيئة التي يرعى فيها رعيك وينمو، وتأثير ذلك على هذا الرعي.. لا يمكن أن تختار المرعى، أو أن تصنع المرعى الأفضل لرعيك ما لم تراقب وتتأمل بدقة كلاً من المرعى والرعية.. والعلاقة المتبادلة بينهما..

صار الرعي بهذا المفهوم **مَعبَراً إلى البحث عن مرعى أفضل (أي إلى عالم أفضل)** بل إلى إعادة بناء العالم - ولو جزئياً -.. **لكي تجعله «مرعىً» أفضل..** (مع التأكيد أن إعادة بناء جزئية للعالم هي خطوة لا بد منها نحو بناء شامل، وأن الأمر عندما يُقدم من قِبل مجتمع «كلكم راع» فإنه يسهم في هذا الأمر بشكل جذري وواضح..).

صار الرعي بهذا المفهوم بمثابة كلمة سر تفتح الأبواب إلى مفاهيم متداخلة هي من صلب ممارسة الإنسان الجديد لإنسانيته ووجوده في هذا العالم..

لقد ابتعدنا جداً عن ذلك المعنى التقليدي للرعي، الذي يقع في منطقة ما بين البطالة المقنعة ومحض الحراسة..

صار الرعي مثل خطة تملك خطوطاً عامة لنهضة مجتمع.. وجزءاً أساسيا من ميلاد أمة.. أمةٌ كل فرد فيها راعٍ..

كلكم راع في العصر الحديث!

لا يمكن هنا أن نتهرب من ضرب مثالٍ لا أشك في كونه نموذجياً لموضوع الرعاية بأعمق معانيها..

كلُّنا نؤمن بأن أولادنا هم أمانة في أعناقنا.. ونص الحديث يلمح إلى ذلك في إشارة إلى (المرأة راعية في بيت زوجها) دون أن يعني ذلك أن مسؤولية رعيهم تقع عليها وحدها..

المهم أن مثال الأولاد هو مثال يمكن فهمه من قِبل أغلب الناس عندما نطبق عليه

مفهوم «كلكم راع»..

أغلب الناس يفهم العلاقة بالأولاد على أنها علاقة **«رعاية» أكثر منها علاقة «رعي»..**

وعلاقة الرعاية تشمل توفير مستلزمات أساسية للأولاد بالإضافة إلى ما يفهم من العناية المباشرة التي تشبه معنى الحراسة والحماية (من الأمراض، من المخاطر عموماً... الخ).

أما علاقة الرعي فتشمل مفهوماً أكبر وأعمق من ذلك، تشمل النماء والارتفاع، تشمل وجود هدف من ذلك الرعي.. وتشمل حتماً اختيار المرعى الجيد المناسب لهذا الهدف.. الذي قد لا يكون المرعى الأقرب بالضرورة، بل قد يكون المرعى الأبعد والأوعر طريقاً، ولكنه الأكثر خصوبة وثراء.. كما قد يستلزم الأمر - كما تقدم - إنشاء المرعى الملائم..

كيف يمكن تطبيق ذلك على علاقتنا بأولادنا؟

لا شك أن الرعاية متوفرة، وتصب عليها أغلب جهود الآباء..

لكن ماذا عن الرعي؟.. ماذا عن توفير «المرعى» المناسب لنموهم ونمائهم؟.. المرعى الذي يهيئهم ليكونوا كما أراد لهم خالقهم أن يكونوا..

ما يحدث الآن هو أحد أمرين:

إما أننا نختار المرعى الأسهل، الأقرب، الأكثر انتشاراً، الذي يقصده أغلب الناس، لا لشيء إلا لأنه يوفر حدّاً أدنى من المستلزمات الضرورية، مستلزمات الرعاية، وليس الرعي بطبيعة الحال.. ولكنه لا يوفر النماء الذي يجعل من هذه البيئة المرعى الملائم..

أو أننا نتجشم عناء مرعى بعيد ومكلف، **لكن «الكلأ» فيه يحمل سُمّاً زعافاً يجعل المرعى السابق أفضل بكثير بالمقارنة..**

هذا السم الزعاف يملك ظاهراً لطيفاً **مغلفاً بشعارات «التقدم» و«المعاصرة» و«مواكبة الحياة الحديثة»، وكلُها أسماء حركية تُخفي خلفها قيماً مغايرة بالكلية لكل ما أُمرنا أن نكونه ونكوّنه ونكون جزءاً منه..**

لا أتحدث هنا عن مدارس خاصة تدرس المناهج باللغة الإنجليزية فحسب، **وتقطع قنوات الاتصال مع لغة القرآن** (على خطورة ذلك)..

بل أتحدث عن مدارس خاصة تغرس منهج حياة آخر، ليس مختلفاً فحسب، بل مضادٌ أحياناً، لكل ما جاء به القرآن من قيم..

قد يكون هناك **بعض الشعائر في مراعي السم الزعاف هذه،** فنمط الحياة الحديثة **ليس ضد شعائر الدين،** لكنه **يفصلها عن معانيها، ويوظفها لتكون في سياق خدمته،** أولاً: لكي **تخفي ذلك التعارض الواضح** لكل من يحاول أن يتعمق أو يبحث عما هو خلف الظاهر من الأمور.. وثانياً: لكي تعمل **بوصفها وسيلة روحية لتخفيف الضغط الناتج عن هذه الحياة الحديثة ومتاعبها..**

ليست المدارس الخاصة وحدها هي التي تقدم كلأ السم الزعاف، فالإعلام أيضاً يقدم سمومه في تكامل وتناغم لا شك فيه، لكن الأمر أن الإعلام يدخل بلا استئذان وبالمجّان، أما هذه المدارس فالرعاة - أو الذين يُفترض أنهم رعاة بتعبير أدق - فهم يتسابقون ويتحملون تكاليف باهظة أحياناً من أجل التباهي بمقدراتهم المادية أحياناً، ومن أجل ما يتصورنه أنه مصلحة أبنائهم أيضاً (يتطلب الأمر هنا أن نعرّف بدقة المصلحة..)..

لا شك أن جدب المراعي (أو المدارس) التقليدية يجعل الرعاة يهربون منها، لكن إقبالهم على مراعٍ تقدم السم الزعاف لرعيتهم هو ما يستوجب التوقف للفهم والتأمل..

العودة إلى المراعي التقليدية المجدبة قد لا تكون مجدية، **لكن العمل يجب أن يكون على توفير مرعىً حقيقيٍّ بديل، بأشكال مختلفة قد لا تتقيد في قالب متوقع من قوالب المدرسة المعروفة، المهم أنها تمنحهم النماء والحصانة والمناعة.**

ربما لا يكون هذا عملاً يسهل القيام به على نحو فردي، لكن كل راعٍ مسؤول عن رعيته، ومن ضمن هذه المسؤولية **أن يزيل ذلك الفرق الوهمي بين فرض العين وفرض الكفاية..**

وكل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.. وإذا كان الواجب صعباً على الأفراد إلى حد بعيد، فمن ضمن مسؤولية كل فرد - كل راعٍ أن يعمل على جعل أداء هذه المسؤولية يسير على نحو جماعي..

لا يتطلب الأمر أبنية بديلة فحسب، ولا مناهج بديلة فحسب، ولا أموال للإنفاق على المشروع فحسب، بل يتطلب قبل كل ذلك وأهم من كل ذلك **الوعي بالمشكلة، وبالمسؤولية تجاهها.. والإرادة لتغيير ذلك من جذره..**

يمكن تعميم هذا المثال على كثير **من التفاصيل في حياتنا اليومية التي تحتاج إلى نموذج بديل نتمكن من خلاله من أداء واجب الرعي تجاه ما أؤتمننا على رعيه..**

المصطلح المفترى عليه

لا يمكن أن ننهي موضوع «كلكم راعٍ» دون أن نشير إلى سوء فهم متراكم، وقد لا يخلو من سوء نية تجاه علاقة **الإمامِ بالرعية** في الإسلام..

لن ينكر أحد أن أخطاء ضخمة حصلت في التجربة التاريخية للإسلام، ولن ننكر أيضاً أن هناك من يحاول تضخيمها لغاية في نفسه أو نفس المستفيد من ذلك..

في كل الأحوال..

التجربة التاريخية للإسلام لا ترقى - فيما بعد الخلافة الراشدة - للمثال الإسلامي الحقيقي وللتجربة النبوية والتجربة الراشدة لاحقاً، لكنها ستظل نموذجية بالمقارنة مع تجارب الشعوب والحضارات الأخرى.. **كل ما ندينه ونجرمه بلا تردد في تاريخنا - لأن مقاييسنا قرآنية ونبوية - سيكون بالمقارنة مع فظائع التجارب الأخرى محض هفوات، بل قد يعدُّ منتهى العدل والإنصاف..**

هذا ليس تسويغاً لما لا يمكن تسويغه، لكنه إشارة لا بد منها إلى حقيقة لا بد من توضيحها؛ إذ إن كثيرين ممن يخوضون في هذا الأمر **لا يرومون إلغاء سلبيات التجربة التاريخية بقدر ما يرغبون في نسف التاريخ برمته..**

من ضمن تلك السلبيات التي لا ننكرها ما أثّر في صورة **علاقة الإمام بالرعية**، وجعل البعض يتصورون أن تلك العلاقة المتسلطة من قبل السلطان على رعيته هي من أساسيات العلاقة أصلاً، وتصور العلاقة كما لو أنها بين **«قطيع خراف مستسلم»، والراعي والعصا بيده..** وهو أمر كان من الممكن أن يكون منطقياً لو أن الحديث الذي أسس للمصطلح تحدث عن الإمام والرعية فقط، لكن الحديث أشار إلى ذلك ضمن مفهوم أوسع هو «كلكم راعٍ»، فليس الإمام وحده راعياً هنا، **بل الجميع هنا رعاة بحسب مسؤولياتهم.. أي أن «الرعية» بمجموعها هي أيضاً راعية للإمام..** فالكل يؤدي دوره في الرعي، الكل راعٍ، والكل رعية في الوقت نفسه، والإمام مشمول بذلك ككل فرد، قد لا يبدو ذلك واضحاً للبعض، لكن أهمية كونه «رعية» لا تقل أبداً عن كونه راعياً.. ذلك أن دوره بوصفه راعياً سيُقوَّم ويصلح باستمرار عندما تكون رعيته راعيةً أيضاً، تمارس دورها المزدوج – المتناسق مع

ازدواجيته - في أن تكون الراعي والرعية في آن واحد.. **رعية كهذه، وبمفهوم «كلكم راع»، تجد نفسها أيضا راعــية** للإمـام..**«راعية» بمعنى المراقبة والتأمل وتخيُّر المرعى الأفضل الذي يمكنه من ممارسة دوره الأنسب..** رعية كهذه ستكون مؤهلة للعب دورها في الاعتراض والتصحيح عندما يبدو أن الإمام يحتاج لذلك..

رعية الإمام ليس من حقها فقط أن تكون راعية له، بل **هو واجبها..** واجبها ومسؤوليتها أن تقوم بذلك، أي **خلل في عمل أي من الطرفين سيؤدي تلقائيا إلى خلل عمل الطرف الثاني..**[٤٦]

قد يبدو ذلك كله مثاليا أكثر من المعتاد، لكنه **كان المعتاد بالضبط في وقت من الأوقات**، لقد جاء حينٌ من الدهر كانت الرعية راعية أيضا وتقوم بهذا الدور تجاه راعيها - إمامها.. وجاء حينٌ من الدهر، كان الإمام متقبلا فيه لأن يكون أيضا رعيةً لجمهوره وناسه.. جاء حينٌ من الدهر كان الإمام يخطب ويقول: «قوموني».. أو يقول: «أصابت امرأة وأخطأ رجل، هو الخليفة».

وما دام ذلك قد تحقق مرة، وفي الفترة التأسيسية في تاريخنا، فإنه يمكن أن يتحقق مجددا، ذلك أنه ليس ضربا من الخيال - ليس مدينة فاضلة يحلم بها فلاسفة لم يخرجوا يوما من أبراجهم العاجية العالية.

علاقة كهذه بين راعٍ هو الرعية في الوقت نفسه، ورعية هي الراعي في الوقت نفسه - في تبادل أدوارٍ يحفظ للطرفين فاعليتهما ونتاجهما، علاقة كهذه كانت من المقومات الأساسية التي جعلت ذلك المجتمع يحقق ذاته، هذه المفاهيم التي أنتجت مجتمع» كلكم راع» والمفاهيم التي جعلت وجوده ممكنا، هي ذاتها المفاهيم التي يمكن لها أن تقيِّم أود مجتمع الاستخلاف مجددا.. بل إني أزعم هنا أن هذه المفاهيم - **مفاهيم «كلكم راع» هي الحلقة المفقودة التي طال البحث عنها، بل والتي ربما تم البحث عنها في أماكن خاطئة تماما، في الدرب نحو التحول إلى ما يسمونه مجتمع المواطنة..**

أود أن أؤكد أن لا إشكال هنا في المصطلح، لكن مصطلح المواطنة - المتداول حاليا، من دون جذور تاريخية تسهل تقبله، هذا المصطلح لا يمتلك «معاني داخلية» أو دلالات إيجابية في اللفظ بحد ذاته، بمعزل عن التجربة الغربية التي كرست في المصطلح معاني إيجابية.

على العكس من ذلك، فإن مصطلح **الرعية** عندما يُردّ إلى مفهومه الأصلي،

---

٤٦ لا يغيب عن بالنا هنا حديثه عليه الصلاة والسلام عَنْ تَمِيم الدَّارِيُّ أَنَّ النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا لِمَنْ قَالَ « لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ ». متفق عليه.

مفهوم **«كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته»**، يمتلك الدلالة الإيجابية في داخل اللفظ، إضافةً إلى عمق - بل قدسية - التجربة التاريخية المرتبطة به، لذلك فاللفظ والمفاهيم المحتواة فيه، يملك **قابلية أكثر للتأثير في الناس ليكونوا فاعلين ومسؤولين في مجتمعهم.. ليصيروا «مواطنين» حقاً بالتعبير المتداول حالياً.. و»رعية ورعاة» في الوقت نفسه بالمصطلح الذي شهد نجاحاً غير مسبوقٍ في صدر الإسلام.**

نقول ذلك، ونأسف على أن المصطلح صار يستدعي معانيَ مضادةً تماماً، بعضها بسبب سوء تطبيق في فترة لاحقة كرّست معانيَ استبداديةً **مضادة تماما لمفهوم «قوموني»..**

وبعضها بسبب أن البعض - ولأسباب لا تخفى - قد عمد إلى المبالغة في هذه الأخطاء وإخفاء أي جوانب إيجابية سابقة، وانتهى إلى مهاجمة المصطلح نفسه على أساس أنه يضم معنى استسلام القطيع لراعيه، وهو معنى مجتزأ ولا دلالة عليه في النص المؤصل للمفهوم (كلكم راعٍ... إلخ)..

وكما لا يخفى على أحد، كان هذا الهجوم لصالح مصطلح «المواطنة» بكل تجاربه التي إن لم نختلف على إيجابياتها إلا أنها في النهاية تخصّ منظومات حضارية مختلفة.. **على الرغم من أن مفهوم الراعي - الرعية لا يحتوي فقط على إيجابيات المواطنة، بل يفوقها أيضاً.**

◆◆◆

فلنتذكر ما أشرنا إليه من تداخل بين النص التأسيسي ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ والنص التطبيقي النبوي (كلكم راعٍ..) وبين تزامن كل ذلك مع الفترة التأسيسية للمجتمع المدني.. فترة بناء المسجد، حفر الأساسات - النفسية والاجتماعية والمادية - داخل المجتمع الوليد..

لن ندعي هنا أننا يمكن أن نحدد بالضبط أن وقت نزول الآية كان نفس وقت «الحديث».. ولكن يمكننا أن نجزم أن تداخل السياقات حتمي، وأن ذلك التداخل كله كان مناسباً جداً للفترة المدنية، فترة العمل والتطبيق، فترة البناء ونزول النظرية والأفكار إلى الواقع والمحكّ العملي، أي إلى المضمار الذي تثبت فيه هذه الأفكار مصداقيتها وقدرتها على النجاح، أو تثبت أنها ليست أكثر من أحلام وأوهام، وأن مكانها هو في رؤوس معتنقيها فحسب.

لن نقول عن تداخل السياقات هنا: إن حديث «كلكم راعٍ» كان تفسيراً منه عليه

الصلاة والسلام لآية ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾.. **لكنها كانت بطريقة ما انعكاساً لذلك..**

كان الأمر أكبر من سؤال مباشر طرحه الصحابة على الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام عن معنى أن يكون كلٌ منهم «خليفة في الأرض».. فجاء الجواب يقرب لهم الأمر، ويقدم لهم أمثلة عملية تطبيقية..

لا، لعل الأمر لم يكن كذلك، لكنه كان بطريقة ما امتداداً لذلك.. **التحاماً بالآية الكريمة، وتنزيلاً لها على أرض الواقع وتداعياته المتنوعة.**

كان مفهوم «الراعي - الرعية» الذي يشمل الجميع من قمة الهرم إلى كل فرد في القاعدة، هو الأقرب لمعنى الخليفة في الأرض آنذاك..

ولا يزال المعنى قريباً جداً حتى اليوم..

لكن هذا ليس كل شيء..

الاستخلاف يتدفق من النور..

الإشارة الثانية إلى الاستخلاف في الفترة المدنية كانت لا تقل أهمية ولا تقل "مفتاحية" أو تأسيساً عن الآية رقم (٣٠) من سورة البقرة، أي من ذلك اللقاء الأول في المدينة..

الآية التي أشارت إلى ذلك ربطت الاستخلاف بمفهوم شائع ركز عليه القرآن الكريم في الفترة المكية والمدنية على حد سواء.

لكن قبل أن نبحر في ذلك، علينا أولاً أن نفهم السياق العام للسورة، فذلك سيجعل الإشارة أكثر وضوحاً، ويُبرز معناها في إطار نزولها العام.

◆◆◆

سورة النور هي سورة تفاصيل الحياة اليومية..

إنها سورة الدخول في معترك الحياة ودقائقها، في مطحنة تفاصيلها، في مشاكلها اليومية العادية التي يمكن أن تحدث في كل يوم، في كل عصر، في كل زمان ومكان..

بينما كانت الإشارة الأولى في السورة الأولى التي نزلت بينما الأسس تشق للمجتمع المدني.. فإن الإشارة الثانية تنزلت في مرحلة لاحقة.. فالأحداث التي تذكر في عمومها

حدثت حوالي السنة السادسة للهجرة.. وهي السنة التي شهدت حادثة الإفك..

إنها مرحلة مختلفة تماماً عن مرحلة سورة البقرة، مرت بالمجتمع الوليد خلال هذه السنوات الست مراحل متعددة، مروا بانتصارات وانكسارات، تعرضوا لخطر الاستئصال التام، وتحالف ضدهم كل من سواهم، وكان هناك بينهم من هو ضدهم أيضاً.. وعلى الرغم من ذلك، على الرغم من شدة كل ذلك، إلا أنهم تمكنوا من النجاة، وكان مجرد ذلك، مجرد البقاء والصمود، يعد انتصاراً بكل المقاييس..

صحيح أنه لم يكن الانتصار اللاحق - الفتح - الذي تحقق لهم فيما بعد.. لكنه كان انتصاراً مشهوداً..

لكن هذا كان في **الجبهة الخارجية..** الجبهة التي فيها أعداء واضحون، ومخاطر صريحة وعالية..

لكن الجبهة الداخلية لا تقل خطورة عن الجبهة الخارجية، ولا أقصد هنا المنافقين فحسب، بل أقصد **التماسك الذي يبديه المجتمع تجاه الأخطاء والنزوات الإنسانية.. تماسكه الأخلاقي والقيمي تجاه المشاكل اليومية التي تحدث بسبب الطبيعة البشرية**، هل سيترك لها العنان وينحاز إلى بشريته وبشرية أفراده؟ هل سيغض النظر عنها ويدفن رأسه في الرمال ويرفض الاعتراف بوجودها أصلا؟.. هل سيقول: إن هذه الأمور غير موجودة أصلاً، وإنها من اختراع الأعداء الذين فشلوا في جبهة الحرب، ويريدون الانتقام؟.. أم أنه سيقول: إن المجتمع تحمل كثيراً مؤخراً، ويمكن له أن يخفف عنه الضغط الأخلاقي قليلاً..

على العكس من كل ذلك، جاء الخطاب القرآني ليحسم الأمر، **ويقدم المخاطر على قيم المجتمع الناشئ بلا مواربة ولا تهرب، يضعها في «النور»، تحت «النور»..**

علاج المشاكل: وضعها تحت "النور"..

علاج المشاكل يتم دوماً باقتحامها، بوضعها تحت «النور»، وليس بالتغطية والتكتم عليها لهذا السبب أو ذاك، لكن فلننتبه إلى أن **هذا الاقتحام محكوم بالدوافع الداخلية لاستئصال الخلل**، وليس لعرضه **بحياد** بصفته «مشكلة موجودة في المجتمع».. كما يتم أحياناً عرض بعض الظواهر اللا أخلاقية في المجتمع، بحياد ودونما إصدار حكم أخلاقي عليها، وهو حياد يخفي تحيزاً واضحاً لشيوع هذه الظاهرة عبر الكشف عنها، وعدم استئصالها، وهو كشف يعرضها للهواء والشمس،

وبالتالي يجعلها تنمو وتزيد..

الاقتحام القرآني للمشاكل اليومية هو من صميم واقعية الإسلام ورسالته التي نزلت لتكوّن مجتمعاً من بشر عاديين، لا مجتمع المدن الفاضلة..

تتراوح المشاكل التي تقتحمها سورة النور **بين جرائم أخلاقية ستجد لها عقوبة صارمة، ولكن ضمن شروط محددة، مثل الزنا، وبين محض سلوك اجتماعي غير مقبول، سيزاح بالنهي الحازم، لكن بلا عقوبة.. مثل الدخول بلا استئذان..**

وبين هذا وذاك هناك من **يروِّج الشائعات التي تمسّ أعراض المحصنات والمحصنين بقصد أو بلا قصد، وهذا أيضاً يواجه بعقوبة حازمة.. مثل حادثة الإفك، وسواها.**

هناك أيضاً الأمر **بالغض من البصر** للنساء والرجال من المؤمنين والمؤمنات.. وخطوط محددة واضحة للباس النساء ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ وعدم إبداء الزينة، ولمن يبدينها من الأقارب، كما تحدد قواعد للتزاوج (الزاني لا ينكح إلا زانية)... إلخ.

كلها مشاكل اجتماعية، يواجهها القرآن باتجاهين - وهما الاتجاهان اللذان يمكن تطبيقهما دوماً تجاه كل المشاكل - : الاتجاه الأول يتمثل في **العقوبة المشددة لمرتكبي الجريمة بعد وقوعها، والاتجاه الثاني يتمثل في وضع ضوابط اجتماعية، وقواعد سلوكية تصعّب وقوع الجريمة من الأساس..**

وهكذا فالجريمة التي افتتحت السورة بها كانت الزنا، وحددت لها عقوبة مشددة، لكن السورة لاحقاً حددت قوانين وقواعد عامة **تجفف منبع الجريمة، دوافع الزنا الأساسية غريزية، لكن يمكن لها أن تقنن وتضبط، كما يمكن لها أن تفلت لتصير ظاهرة متفشية تنخر في أساسات المجتمع، لذا جاءت هذه القوانين والقواعد لتمنع سيطرة الغريزة وسيادتها في المجتمع**، ويمكن تقصّي ذلك في كل ما جاءت به هذه السورة، هناك أولاً العقوبة العلنية المشددة التي ستكون رادعاً لا يمكن تجاهله قبل وقوع الجريمة، ولكن هذا ليس كل شيء، فهناك إقصاء للزناة والزانيات من المجتمع ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣]، وهناك أيضا في الوقت نفسه تقصٌ لكون هؤلاء زناة أو لا، والكذب في هذا الأمر، أو حتى عدم وجود أربعة شهود سيعرض القائل لعقوبة مشددة تكاد تصل لعقوبة الزنا نفسه.. ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ

﴿الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤]..

وأقلّ من ذلك عندما تكون التهمة بين زوجين، لاعتبارات واضحة، لكن سيضاف إليها شرط أن يلعن الرجل أو المرأة نفسيهما إن كانا يكذبان ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۝ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور: ٦ - ٩].

وخلال ذلك كله هناك قواعد محددة للاختلاط تخفف من **حدة المنبع نفسه** دون أن تجففه تماماً، فهو غريزة فطرية..

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧] فالدخول من غير استئذان يفتح أبواباً للاختلاط، الذي قد لا يكون مشوباً بنية سيئة مبيتة، لكنه قد يؤدي مع الوقت إلى **حدوث مخالفات** قد تنتهي إلى وقوع جريمة الزنا..

كما أن السورة تحدد خطوطاً واضحة للحشمة في اللباس، ولغض البصر، ولمن يمكن التكشف أمامه من الأقارب.. ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

ولا ننسى هنا أن هذه القوانين والقواعد السلوكية التي حددها القرآن كانت تكمل ما هو موجود أساساً من عقيدة في نفوس أفراد هذا المجتمع، أي أنها كانت **تفعّل** إيمانهم لتقويه وتحفظه وتجعل تفاعلهم مع حياتهم اليومية أكثر توازناً وتركيزاً على ما يجب القيام به، ولا تترك المجال للشهوات والغرائز لتفسد عليهم ذلك..

لذا نلاحظ أن النداء خص **المؤمنين والمؤمنات ابتداء وانتهاء** في سياق آية الغض من البصر نفسها، فلا معنى لكل التعليمات والقواعد اللاحقة ما لم يسبقها ذلك الإيمان الذي يميز المؤمن والمؤمنة عمن سواهما، لا معنى لغض البصر، أو الحجاب، أو عدم إبداء الزينة إلا لرتب معينة من الأقارب ما لم يكن هناك إيمان

قبل كل ذلك، **فالإيمان هو الشرط الأساسي الذي يمكّن كل تلك التعليمات من أن تكون فاعلة**.. وإلا فإننا نعرف جيداً أن هناك كثيرين وكثيرات ممن يطبقون بعض تلك التعليمات دون أن يكون إيمانهم جدياً، وهي لا تكون فاعلة في منعهم من السقوط فيما شرعت من أجل منع حدوثه..

بعبارة أخرى: **هذه القواعد والتعليمات لا تكون فاعلة إلا عندما تلتحم بالإيمان، الإيمان هنا هو بمثابة الطاقة الكهربائية التي تجعل الأجهزة الموصولة بها تعمل، ودون الطاقة الكهربائية لن تكون هذه الأجهزة سوى أشكال جامدة لا قيمة لها ولا ضر أو نفع..**

الإيمان شرط الفاعلية

كذلك هو الالتزام ببعض هذه التعليمات، دون أن يكون مصحوباً بذلك الإيمان، إنه لا يغني عن أصحابه شيئاً، لكن ذلك لا يعني أنه على الجميع أن يكفّ عن الالتزام بهذه التعليمات لمجرد أن البعض لا يستخدمها في سياقها الصحيح، بالضبط كما لا يمكن أن يكفّ الجميع عن استخدام الأجهزة الكهربائية لمجرد أن البعض ارتأى أن لا يوصلها بمصدر الطاقة.

ما فائدة الإيمان إذن؟

قد يقول البعض هنا، وبسوء نية مبيتة: ما فائدة الإيمان إذن إذا كان يحتاج إلى هذه القواعد والقوانين والتعليمات ليمنع المؤمنين من السقوط في المغريات؟

وسيقول آخرون: إذن هذا هو المجتمع الذي تعدونه المثل والنموذج؟ هل هذا هو الجيل الأول الذي تتحدثون عنه بإجلال دوماً؟

الحقيقة أن هذه **النظرة التي تروج للمؤمن الكامل الذي لا يمكن أن يقترف الأخطاء أو يتعرض للشهوات هي نظرة ليست غير واقعية فحسب، بل هي سلبية أيضاً**..

غير واقعية أولاً لأنها تتجاهل الطبيعة البشرية والتاريخ البشري، **فأي استقراء يتتبع التزام البشر بقيمهم وأخلاقياتهم دون قانون وتشريع يراقب ذلك، دون وجود حدود واضحة تمنعهم من التمادي، سيكشف عن أن النسبة الغالبة من البشر كانت تنزلق، دون أن ينفي ذلك وجود نسبة أقل يمكن لها أن تتمسك بأخلاقياتها دون الحاجة لذلك..**

لكن ديناً كاملاً جاء لكل البشر، وفي كل زمان ومكان، لا يمكن له أن يتجاهل نتيجة كهذه، ولا يمكن في الوقت نفسه أن يستسلم لها، بل لقد صُمِّم هذا الدين ليناسب الطبيعة البشرية بما فيها من سلبيات وإيجابيات، **لقد صُمِّم ليستثمر تلك الإيجابيات، ويقنن تلك السلبيات**، وما تلك الحدود والقواعد التي وضعها إلا لذلك، لسدّ الذرائع أمام التمادي فيها، لسدّ الأبواب، وتقليل احتمالات السقوط..

وهي نظرة سلبية أيضاً، هذه النظرة التي تفترض أن المؤمن لا يقترف الأخطاء ولا يتعرض للمغريات **وبالتالي لا يحتاج إلى حراسة قانونية مسبقة**، إذ إن ذلك قد يحدث فعلاً بسبب الطبيعة الإنسانية، وعندما يزلّ وهو محكوم بهذه النظرة الحالمة، فإن ذلك سيجعل هذا الزلل يتحول من مجرد كبوة - كما يجب أن تكون - إلى سقوط يصعب القيام منه، **ما دام لن ينضج بما فيه الكفاية ليتخذ تدابير احترازية عملية تحفظ له هذا الإيمان.**

المجتمع الوليد - الذي كان يتشكل بالتدريج - كان لا بد له من أن يمر بذلك، سواء عبر الخطأ الذي هو جزء من طبيعة بشرية، أو عبر المنافقين الذين يظهرون غير ما يبطنون، بل ما كان يمكن لهذا المجتمع أن يكون قدوة ومثلاً قابلاً للاحتذاء لولا أنه مر بهذه المشاكل وخرج منها.

أي مجتمع معقم، خال من هذا النوع من المشاكل لا يمكن أن يكون مثالاً وقدوة.. ليست العبرة أبداً في أن يكون هناك مجتمع خالٍ من هذه المشاكل، المهم هو معرفة كيف تجاوز هذا المجتمع مشاكله.. المجتمع الملائكي المفترض - على فرض وجوده - لن يكون ذا فائدة كبيرة بالنسبة لأجيال لاحقة تريد أن تتعلم كيف تقتدي.

فلنشر هنا إلى أن العلاقة بين الإيمان والتطبيق العملي، أو القاعدة السلوكية التي تحفظه وتصونه، علاقة مهمة جداً، وسيتبين لنا ذلك أكثر في فصل لاحق..

◆◆◆

سيقول البعض أيضاً عن هذه المشاكل: إنها ليست مشاكل أصلاً، بل إنها محض حرية شخصية تكبتها الأديان.. وإن ذلك كله انتهى..

هذا البعض غالباً ينتمي إلى فئة من اثنتين: إما إلى فئة مغرضة تحب أن تشيع الفاحشة بين الناس، ربما لأنها ساقطة وموغلة فيها، وغالباً ما تكون جزءاً من آليات انتشارها..

أو إلى فئة ساذجة مغرَّر بها، تردد ما يقال دون تمحيص، ودون الانتباه إلى حقيقة ساطعة كالشمس، وهي أن العالم ما كان يحتاج إلى علاج نفسي، بقدر ما يحتاجه اليوم، بعدما تخلص من كبته.. ما كان العالم يشعر بالافتقار إلى الأمان، ويشعر بالقلق والاكتئاب، بقدر ما صار بعدما تخلص من "الكبت" والحرمان..

هذه هي أجواء سورة النور.. مخالفات أخلاقية نابعة جزئياً من الطبيعة البشرية، عقوبات مشددة، وسائل لمنع الجريمة قبل وقوعها..

هذا هو السياق العام الذي يسيطر على أكثر من ثلثي السورة.. سياق مليء بتفاصيل لا شك في أهميتها، ولا شك في أنها ستبقى موجودة في كل مجتمع إنساني، لكنها تفاصيل مرهقة في الوقت نفسه، لا يمكن تخيل إمكانية صفاء ذهني، أو تركيز على ما يسمى بالروحانيات في مثل هذه الأجواء..

فجأة، النور..

لكن على الرغم من ذلك، يأتينا فجأة، وبين هذه التفاصيل وتعقيداتها وخطوطها، نص قرآني مذهل، لعله من أجمل الآيات القرآنية على الإطلاق:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

فجأة يتدفق النور من بين السطور، بالضبط عندما لا تتوقعه، في ذلك السياق المزدحم بتفاصيل الحياة اليومية ومشاكلها، يأخذك النص من كل ذلك، يشدك من يديك ويغمرك فجأة، بلا مقدمات - أو هكذا تظن - في النور..

بالضبط كما تنتقل في دقائق قليلة من مشاغلك وأعمالك وكل ما ينوء ظهرك به، ثم تأتي إلى صلاة الظهر، فتخطفك من كل ذلك، وتضعك في سياق آخر تماماً، سياق يعيد لك قوتك، ويجدد حيويتك، وتخرج بعدها وأنت أكثر قدرة على مواجهة أعمالك، يخرج ظهرك وهو أكثر قدرة على التحمل..

تأخذك دقائق الصلاة تلك، تضعك تحت أشعة النور وهي تتدفق من كوة في جدران حياتك، كوة صغيرة كتلك الموجودة في سقوف المساجد، تتدفق

منها أشعة الشمس بشكل عمودي وقت الظهيرة، وتجد نفسك غارقاً فيها بلا مقدمات، وكنت قبلها بدقائق غارقاً في هموم عملك وتفاصيل يومك، ولكن ها هو النور يتدفق من كوة السقف، كما لو أن تلك الكوة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري..

تلك الكوة ستقابلك دوماً في حياتك، بالضبط عندما لا تتوقعها، بالضبط عندما تكون غارقاً في تفاصيل يفترض أن تشتتك عن لقائها، ستفاجئك دوماً في منعطف ما، تسلط عليك الضوء، لا، ليست كلمة «تسلط» هي التي يمكن أن تعبر عن ذلك التفاعل الذي يحدث بين النور وبينك، ربما ليست هناك مفردة تعبر عنه حقاً، **يغمرك النور ولكنه بطريقة ما لا يصدر عن تلك الكوة فحسب، بل يشع منك أيضاً، كما لو أنك تملك مستقبلات خاصة في داخلك، مستقبلات مشفرة، ولا تعمل إلا عندما يغمرها ذلك النور الصادر من ذلك المصباح في الزجاجة..**

بطريقة ما، **تلك الكوة أساسية في أي بناء، مهما كان البناء قوياً، عالياً، متيناً، مهما كانت أساساته راسخة، فإنه لا بد، لكي يصمد حقاً، أن يحتوي على تلك الكوة..** تلك الكوة التي يسمونها **فتحة التهوية أحياناً، والمشكاة أحياناً أخرى،** لا تمد البناء الجامد بالهواء فحسب، بل تمده بمعنى الحياة، **بالنور الذي هو الفيصل الحاد بين الظلمة والنور..**

تلك الكوة، والمصباح الذي فيها، والزجاجة التي كأنها كوكب دري التي فيه، هي ما نحتاجه في رحلة حياتنا اليومية المليئة المرهقة، وذلك النور الذي يتسرب لنا عبرها من ذلك المصباح..

لكن هذا النور المتدفق من هناك لا يهدف حقاً إلى **مجرد إشعارنا بالراحة**، كما هو حاصل فعلاً في بعض الأديان الأخرى خاصة في العالم المعاصر، **حيث ينسحب الدين إلى مساحة ضيقة توفر بعض الهدوء، وتكون بمثابة صمام أمان يخفف من ضغط الحياة المعاصرة**، أي أن الدين هنا، في هذه الحالات الأخرى غير الإسلام، يقوم بحماية الوضع القائم والمؤسسات القائمة عبر تسريب الضغط المتولد من هذه المؤسسات.

اقتحام لا انسحاب

على العكس من ذلك، الكوة التي نتحدث عنها هي كوة **اقتحام**، وليست كوة **انسحاب**، النور يتدفق منها **لتكشف مشاكلك على نحو أدق..** لتتمكن من حلها

وإنهائها.. لا يمكنك أن تتخلص من كل تلك المشاكل عبر تجاهلها، كما لا يمكنك أن تتخلص منها عبر تسليط أية إضاءة عليها.. قد يبدو لك أن الأمر سيان.. لكنه ليس كذلك على الإطلاق، بعض الأضواء التي تسلط على المشاكل لن تزيدها إلا انتشاراً واستفحالاً.. حتى لو قيل عنها في البداية العكس..

أما نور المشكاة **فهو لا يكشف المشكلة فحسب، بل هو يشخص العلة فيها، ويصف الدواء لها.. إنه «أشعة تشخيصية وعلاجية» في الوقت ذاته..**

وهو كالكوكب الدري، والكوكب هو ما نعرفه من كواكب السماء، لكن هذا ليس كل شيء، فلفظ الكوكب مشتق أصلاً من فعل «وكب» والذي يعني السير برفق[47]، ومنه الموكب، وهذا لا يتعارض بالتأكيد مع المعنى السائد للكوكب، فالكوكب **أيضاً يسير في مداره برفق، والكوكب الدري هو الكوكب الذي يبرق، أي يشع نوراً عند سيره..**

النور الصادر من هذا المصباح - في الكوة - له ثلاث مواصفات إذن: **له مدار ثابت، أي أنه ليس جامداً لا يتحرك، لكنه يتحرك وفق مدار خاص ثابت به،** إنه ليس شعاعاً تائهاً، أو نيزكاً هائماً، أو شهاباً ساقطاً خارج المدارات.. (ألا يذكر هذا بما نحتاجه اليوم، بل بما تحتاجه أية أمة من أجل نهضتها، تجديد ملتزم بالثوابت، فلا هو جمود لا يتحرك، ولا هو انفلات من الضوابط والتيه في فضاء رحب).

كما أن هذا الكوكب ليس قمراً يدور في فلك غيره ويتبعه، بل هو خاضع لمدار مسبق لا يعرف الحياد عنه.. ولا يعرف التبعية للغير، مهما كان هذا الغير أكبر، أو مهما حقق إنجازات أكثر.. (ويذكر هذا أيضاً بنور مستورد المعايير والمقاييس، صار مروجوه وتجاره والمؤمنون به لا يعترفون بأي نور آخر سواه، بل صاروا يعدون كل شيء سواه ظلمة دامسة..)..

والسير برفق، يذكرك بحقيقة أن التغيير الحقيقي يحتاج وقتاً طويلاً لكي يثمر، تلك هي طبيعته، يمكن لتغييرات سريعة عاصفة أن تحدث، لكنها لن تكون بعمق وثبات ما يبدأ من الجذور، ويتصعد بالتدريج إلى أن يصل إلى الثمرة..

تلك الشجرة المباركة علينا أن نجلس في ظلها طويلاً طويلاً.. ونتعلم من أفيائها الكثير..

◆◆◆

---

٤٧ لسان العرب: مادة (وكب)

المدارات كثيرة بالمناسبة، لكن بعضاً منها يشبه المدار من الخارج، وهو في **الحقيقة ليس سوى دوامة تأخذك في قعر سحيق،** لا خروج من هذه الدوامة لا بذلك الكوكب الدري ذي المدار الثابت الأصيل، المدار الذي يأخذك من دوامات حياتك ويخرجك إلى النور..

الزجاجة الحامية

الزجاجة التي تحمي المصباح تذكرنا بحقيقة ينساها أو يتناساها البعض، فهذه الزجاجة تحمي النور من المؤثرات الخارجية، تعزله عن ريح قد تهز الشعلة، تبقيه كما هو: يؤثر ولا يتأثر.. يمد بالنور دون أن يستمده من أحد..

ذلك النور الثابت، الذي لا يستقطب شرقاً أو غرباً، لا ريحاً شرقية تأخذه باتجاه الشرق، ولا طوفاناً غربياً يسحبه غرباً.. بل هو ثابت في المركز الذي يشع النور.. ونوره لا شرقي ولا غربي، لا يحتاج من يهتدي بهذا المصباح أن يستنير بنور من الغرب أو من الشرق.. إنه النور الذي يوقد من شجرة مباركة.. أصلها ثابت وفرعها في السماء.

لماذا الشجرة؟.. لماذا اختار الخطاب القرآني الشجرة لتكون موقد هذا النور؟

الشجرة البديلة؟

هل لأنها الشجرة البديلة **عن الشجرة المحرمة التي كانت السبب وراء خروجهم من الجنة؟..** هل لأن هذه الشجرة البديلة هي التي يمكن عبرها بناء المجتمع الإنساني البديل.. الفردوس الأرضي - الحقيقي - الذي طال البحث عنه؟

هل لأن الشجرة بطبيعتها تعلم الإنسان مبادئ العمل الممنهج، **فالجذور تعلِّم الانتماء إلى التربة والبيئة المناسبة، والالتصاق بها، والنهل من مواردها تحديداً، والسيقان تعلِّم الإنسان أن يوصل المستلزمات إلى سواه، ولو كان يعلم أنه لن يصل ليرى ثمرة عمله، والأغصان تستشرف الثمرة، تكاد تصلها، بعضها يصل وبعضها لا يصل..**

والثمرة تقول لنا دوماً: **إن الدرب طويل، ولكنه يؤدي حتما، إلى نتيجة، تقول لنا: إن من هيأ الأرض أولاً، أو من وضع البذرة، لم ير الثمرة على الأغلب.. لكن الثمرة ما كانت لتكون لولا أن وُزعت الأدوار على هذا النحو..**

هل يمكن أن نأخذ درساً ونحن نحاول فهم مشروع الاستخلاف، أكبر من هذا.. من

الجميع يريد أن يرى الثمرة، يريد أن يرى نتيجة عمله، إنها باختصار طبيعة إنسانية، **لكن الثمار القوية، المباركة، المفيدة حقاً، لا يمكنها أن تأتي بسهولة**، لا يمكن لها أن تكون نتيجة لموسم أو موسمين.. كل الأشجار ذات الجذور القوية الراسخة ستحتاج إلى سنين طويلة لكي تثمر.. يمكن لمن يريد أن يرى نتيجة سريعة أن يزرع وردة، قد تكون جميلة وذات عطر فواح.. لكن فائدتها، وبقائها، لا يمكن أن يقارن بثمرة الشجرة ذات الجذور الضاربة في الأرض..

ولهذا كله.. فإن **هذا الكوكب الدري يوقد ليس من أية شجرة، بل من شجرة مباركة، من شجرة ذات ثمار نافعة للناس والمجتمع، شجرة ذات مطاولة على البقاء والنفع، لا تنتهي بقطف في موسم حصاد..**

زيتونة قرآنية..

لكنها ليست أية شجرة مباركة، بل هي فوق ذلك «زيتونة»..

واختيار الزيتونة هنا لا يمكن أن يكون اعتباطاً، حاشا أن يكون في الخطاب القرآني ما لا يلتحم بالمقصد والحكمة..

والزيتونة شجرة معمرة، بل هي من أكثر الأشجار تعميراً في العالم، بعض أشجار الزيتون يبلغ عمرها ١٥٠٠ - ٢٠٠٠ عام..

وفي هذا دلالة لا تخفى، فالشجرة التي اختارها الخطاب القرآني ليشبِّه نوره عز وجل بها، هي شجرة قديمة قدم الحضارة الإنسانية نفسها تقريباً، أي **أنها ليست صرعة عابرة، ليست نظرية حديثة لم يثبت بعدُ صدقُها أو كذبُها على المحك، ليست تجربة خدعت الناس بما يتصورون أنه إيجابياتها فقط، لأن الوقت لم يكن كافياً ليظهر سلبياتها..**

(كم هو مهم أن نتذكر ذلك، في عصر كرست مؤسسات الاستهلاك فيه أن الأحدث هو الأفضل بالضرورة، وأنه يلغي القديم الذي يصير مع الوقت لا قيمة له في عرف هذه المؤسسات..

كم نحتاج إلى أن نخرج من إطار الرؤية الموسمية العابرة، التي تقيس الأفكار والعقائد كما تقيس خطوط الموضة في الملابس والإكسسوارات.. كم نحتاج إلى أن نتذكر أن ما أثبت وجوده لألف سنة لا يمكن أن يوضع بالمقارنة مع ما لن

يذكر بعد عشر سنوات من بزوغه وظهوره..).

لكن الزيتونة ليست وحدها المعمرة بين الأشجار، وإذا كنا أسقطنا عمر الزيتون وعراقته على التجارب الحضارية، فإن ذلك سينسحب على أشجار أخرى معمرة.. ولو كان الأمر كذلك **لكان الحديث يصح بخصوص حضارات قديمة وموغلة في القدم، قدمت منتجات فنية لا تزال تسلب ألباب المهتمين، لكنها كانت حضارات وثنية**، وبالنسبة لنا لا يمكن أن يكون معيار الفن هو معيار تقييمنا لها، **فمعاييرنا القرآنية ترفع عن ذلك، وتركز على جوهر الأمور**، ولا يعني ذلك قطعاً وحتماً هدم منتجاتها، فهي إرث إنساني بكل الأحوال، لكن فلنتذكر **أن الإسهام الأخلاق لهذه الحضارات القديمة في تطور الإنسانية كان محدوداً جداً في وقت ازدهارها - إن كان هناك إسهام أصلاً - فقد كان جلّ إسهامها في نشر العبودية لأوثانها وحكامها، واستعباد شعوبها والشعوب الأخرى.. وهذا يحسم - قرآنيا - الجدل بشأنها.**

لكن نعود لعلاقة **الشجرة بالتجربة الإنسانية**.. كيف يمكن أن يستقيم ذلك مع رمزية كون شجرة الزيتون شجرة معمرة، وما أشرنا إليه من كون ذلك يعني عراقة المشروع الذي يستمد النور منه عز وجل، فليس **الزيتون وحده معمرا**، بل هناك أنواع أخرى من الأشجار تعمر أكثر من الزيتون؟..

الفرق هو أن الزيتون هو الشجرة الوحيدة **التي تبقى تنتج**[٤٨].. الأشجار المعمرة الأخرى تكف عن الإثمار.. تصبح بالتدريج **عالة على البيئة المحيطة بها وعلى المجتمع**، ولا شيء يثير الاهتمام فيها غير كونها قديمة، **بالضبط مثل تلك الحضارات القديمة البائدة، لم يَبقَ فيها إلا ما يجب أن يكون في متحف ما وخلف خزانة زجاجية..**

أما الزيتونة عريقة العطاء والإنتاج فهي تظل مثمرة منتجة مهما تطاولت القرون.. مثلها مثل المشروع الحضاري الذي يستنير بنوره عز وجل.. يبقى فاعلاً وقادراً على أن يكون البوصلة والمنارة للناس..

شجرة واحدة فقط هي تلك التي لا تتقاعد، ومشروع حضاري واحد هو الذي لا يمكن أن يتقاعد، يمكن أن يتقاعس عنه الناس وينصرفوا عنه إلى أوهام الأحدث..

لكن كل الأشجار الباقية، والمشاريع الحضارية الأخرى، تنتهي حتماً إلى التقاعد..

أو المتحف في أحسن الأحوال..

◆◆◆

---

٤٨ http://en.wikipedia.org/wiki/Olive بعض أشجار الزيتون يبلغ عمرها أكثر من ألف سنة ولا تزال منتجة.

وهذا أيضاً ليس كل شيء فيما يخص الزيتونة القرآنية..

لا يكفي أنها معمرة ومنتجة مع طول عمرها.. لكنها أيضاً **دائمة الخضرة..** أوراقها لا تسقط أبداً.. لا تنفضها على الرغم من تغيرات الفصول، فتبقى مثمرة ومفيدة لمحيطها حتى لو لم تكن تحمل الثمر، فعبر أوراقها تمدنا بالأوكسجين، مثلها مثل غيرها من الأشجار، لكنها تفعل ذلك في كل الفصول.. حتى عندما لا تكون مثمرة.. كما لو أن المعنى هنا أن الحضارة التي تستند في مشروعها إلى نور الله، تكون مثمرة بطريقة ما حتى عندما لا تكون مثمرة..

كيف؟

لا شك أن المجتمعات الإسلامية - على سبيل المثال - تركت أوجها الحضاري، بل تركت وظيفتها وبالغت في التفريط والتقصير فيما خُلقت من أجله.. أي أنها - بعبارة مرتبطة برمزية الشجرة المباركة في القرآن الكريم - لم تبلغ ثمرتها.. بل كانت بعيدة حتى عن تحصيل ذلك..

لكن هذه المجتمعات مثل الزيتونة القرآنية دائمة الخضرة.. **حتى لو لم تثمر، إلا أنها تحافظ على التوازن بطريقة ما**، تحافظ **على بعض الخير** الذي فيها..

وهكذا نرى أن مجتمعاتنا التي لا نشك أنها تخلت عن دورها القيادي قد بقيت لفترة طويلة جداً – وعلى الرغم من كل شيء - في طليعة الأمم في نواح أخرى لا تقل أهمية: **التماسك الاجتماعي، الشرف والعفة، احترام الكبير، معاونة الغريب... إلخ.**

فكانت هذه القيم تقوم بدور الورقة الخضراء في تزويد البيئة بالأوكسجين، وإن لم تصل إلى الثمرة التي يجب أن تصل لها..

أقول هذا وأستدرك: ذلك كله يكاد يذهب الآن منذ أن أصبنا بفيروس التغريب (أو سرطانه)، لم نصل لثمرتنا ولا لثمرتهم.. وفقدنا في الوقت نفسه قيمنا الحافظة.

مشروعك مصدر للطاقة

هل يكون غريباً بعد كل هذا أن تكون شجرة الزيتون هي **المصدر الأساسي للطاقة ولعصور طويلة متعاقبة..** فقد كان الزيت المستخرج من زيتونها يستخدم في إنارة المصابيح والقناديل.. وهو الوقود الوحيد الذي عرفته البشرية

مستخرجاً من شجرة..

وهل يكون غريباً أنها اليوم تُعدُّ من أهم مصادر الطاقة البديلة؟

هل يمكن أن نهرب هنا من المعنى الموازي في المشروع الذي يستمد نوره منه عز وجل؟.. ليس فقط في أنه يهدي العالم وينير لهم الدرب حرفياً في ظلمات الحياة.. ولكن لأن هذا المشروع يقدم لهم **مصدر الطاقة الحقيقي الوحيد الذي يمكن الانتفاع به حقاً في هذا العالم**.. مصدر الطاقة الذي أتحدث عنه لا علاقة له بالنفط أو اليورانيوم أو غيرهما من موارد الثروات التي تقوم من أجلها الحروب، وتستعبد الشعوب.. بل هو مصدر الطاقة الذي يمكن له أن يحل كل تلك المصائب.. **مصدر الطاقة الذي يتضمن ضمناً كل الحلول..**

ليس الكلام عن مصدر طاقة يستخدم لتشغيل محرك سيارة أو دبابة أو طائرة نفاثة.. بل **عن مصدر طاقة يشغلك أنت، يحركك أنت، يدفع فيك كل ما يمكن أن يتحرك...**

إنه **الإيمان، ذلك الوقود الذي يمكن له أن يعيد بناء العالم، ذلك الوقود الذي يجعل البعض يتنازلون عن كل شيء في سبيل قضية يؤمنون بها**، تارة بكل لحظة ودقيقة من حياتهم، وتارة بإبداع يشق الطريق، وتارة بحياتهم حرفياً عندما يستلزم الأمر..

هذا هو الوقود الذي **يشتعل فيك فتشتعل في داخلك الحياة، يقدم لك الدافع لكي تفعل، لكي تكون، لكي تتنفس، تشهق وتزفر حياة وحيوية وحركة..**

هذا هو الوقود الذي يقول لك كل يوم: لك شيء في هذه الحياة، فقم.. فينفض عنك الكسل والخمول.

الوقود الذي يمكنه أن ينير لا حياتك فحسب، بل ينير العالم بأسره، كيف لا وهو يستمد جذوته ممن مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة... إلخ.

إنه وقود إيمانك، إيمانك بالله الذي خلقك وخلق الأرض كلها لتكون امتحانك، امتحان استخلافك فيها..

﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾..

وعندما يكون الوقود من شجرة مباركة كهذه، فهل نتوقع شيئاً أقل مما حدث مع الجيل الأول.. جيل المعجزة المباشرة.. ليس الإصلاح فقط، بل الانتقال بمجتمع

ما من هامش التاريخ إلى صدارته..

﴿يكاد زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾..

فلنتنبه هنا: **يكاد يضيء..**

إنه لن يضيء إلا بعد أن تمسه النار.. لكنه - من شدة نقائه - يكاد يضيء قبل أن يباشر الفعل، قبل أن تمسه النار..

وهكذا أيضاً هو وقود الإيمان.. إنه شديد القوة والنقاء لدرجة أنه يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار.. يكاد يضيء ولكنه لا يضيء إلا عندما ينزل إلى الواقع.. إلى ميدان التطبيق والفعل..

وعندها فقط يصير «**نوراً على نور**»..

عندما **يلتحم الوقود بنار التجربة العملية..**

وهذه ستكون نقطة مفتاحية مهمة جداً لما سيلي في بحثنا: الإيمان والعمل الصالح..

❖❖❖

فلنتذكر هنا أمرين:

الأمر الأول: أن آية ﴿مثل نوره كمشكاة﴾ لم تأتِ في سياق المشاكل الاجتماعية **على الرغم من هذه المشاكل، بل جاءت بسببها..**

لا معنى لاستشعار نور الله أو نور الإيمان إذا كنا نعيش منعزلين عن المجتمع ومشاكله اليومية.. **التحدي الحقيقي هو في استشعار ذلك النور في خضم مواجهة تلك المشاكل، بل وفي تعريضها لذلك النور الساطع بلا تردد ولا خوف..**

ذلك النور لن يكشفها فقط، بل سيطهرها.. سيساهم في حلِّها..

الأمر الثاني: أننا ندرس هنا سياق سورة النور ككل، لأن فيها **إشارة مفتاحية مهمة إلى موضوع الاستخلاف،** وهي الإشارة التي سندخل في عوالمها الآن..

الوعد المشروط

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرض كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ

مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

هذه هي الآية التي تبلغ سورة النور فيها ذروتها، والتي تم التمهيد لها كما سبق..

هناك وعد إلهي واضح بثلاثة أمور: **بالاستخلاف في الأرض، والتمكين للدين، وتبديل الخوف بأمن..**

والوعد ليس هبة مجانية تمنح للمسلمين.. بل هو بمثابة **هبة مشروطة..**

الشرط يتكون من بندين عريضين لا ثالث لهما.. **الإيمان والعمل الصالح، كلمة واحدة من ثلاثة مقاطع.**

جاء ذكر الإيمان والعمل الصالح بهذه الصيغة المرتبطة ببعضها أكثر من ستين مرة في التنزيل الحكيم..

هذه النسبة العالية توحي حتماً بارتباط صميمي ما بين الاثنين: الإيمان والعمل الصالح..

ذُكر الإيمان على نحو منفرد في القرآن الكريم، لكن ﴿عملوا الصالحات﴾ **لم تأتِ منفردة عن الفعل «آمنوا» إلا مرة واحدة فقط مرتبطة مع الصبر** ﴿إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات﴾..

وهذا يشير ضمناً إلى أن **العمل الصالح لا استقلالية له حقاً - وفق المنظور القرآني - عن الإيمان..**

تتوزع الآيات الستون التي مثلت الارتباط ما بين الإيمان والعمل الصالح على مختلف السور وفي الفترتين المكية والمدنية على حد سواء..

لكن ما يلفت النظر أن الإشارة الأولى إلى هذا الارتباط جاءت في فترة مبكرة جداً، في سورة العصر التي كان ترتيب نزولها الرقم (١٣) بين سور القرآن الكريم.. وسورة التين التي كان ترتيب نزولها هو (٢٨).

لكن ما الذي يلفت النظر في هذا تحديداً؟

يلفت النظر أننا نتوقع دائماً أن الحديث عن العمل الصالح والحث عليه يأتي في مرحلة لاحقة للإطار النظري.. التنظير أولاً (ولفترة طويلة وربما غير محدودة) ثم التطبيق.. اعتقدنا **دوماً أن الأولوية أولاً للحديث عن التوحيد والبناء العقائدي التي ستكون دعامة يُبنى عليها العمل لاحقاً..**

لكن هذه الإشارة المكية **المبكرة تقلب الطاولة على هذا المفهوم الذي** يعزل الأمرين بخط فاصل وهمي.. **فالعمل الصالح ليس مجرد عمل، إنه قبل ذلك وخلال ذلك «إيمان بالعمل».. دون هذا الإيمان بالعمل لن يكون هناك حافز على العمل أو إرادة مُسَيِّرة له..**

العمل الصالح إذن يدخل في دائرة الإيمان قبل أن يدخل في دائرة التطبيق والفعل، ويظل جزءاً من الإيمان حتى بعدما انتقل إلى التطبيق..

كي نفهم كل ذلك في سياق سورة النور أي من خلال كونه شرطاً للاستخلاف، علينا أن نفهم على الأقل الملامح الأولى التي ولد فيها التوأمان اللصيقان: **الإيمان والعمل الصالح..**

كان ذلك في سورة العصر.. في فترة مبكرة جداً في المرحلة المكية..

عصر من تلك العصور المتعاقبة

سورة العصر هي من أقصر سور القرآن قاطبة، ثلاث آيات فحسب، لكن على الرغم من ذلك فهي تضم معانيَ مفتاحية عملاقة لا بد أنها أزالت جبالاً، وحفرت أنفاقاً داخل العقل المسلم قيد التكوين..

ثلاث آيات فقط، ولكنها تضمنت معانيَ كهذه «العصر.. الخسر.. الحق.. الصبر»..

كان ذلك مبكراً جداً كما أسلفنا، والقرآن لم يكن سوى بضع سور، كل منها كانت تفتح عالما من الوعي والإدراك وتعيد بناء العالم على أسس جديدة عبر ما تقدمه من مفاهيم لعل كل منها كان جديدا تماما بالنسبة للمسلمين الأوائل.. كل مؤمن كان يتلقف الوحي تباعا ويتابعه بلهفة..

كل معنى من هذه المعاني كان ولا بد بمثابة انطلاقة عملاقة.. مفتاح عملاق يفتح الباب أمام مفاهيم وقيم كانت أشبه بالألغاز حتى تلك اللحظة.. أو أنها كانت كلمات عائمة في مستنقع جاهلية حمقاء..

ثم يأتي الوحي.. تأتي سورة جديدة منه..

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣].

سورة قليلة الآيات، تبدو للوهلة الأولى كما لو أنها كانت سطرين أو أقل..

ولكن عندما تتفحصها تكتشف عوالم ممتدة.. مثل كونٍ خَلقَه الله ليتمدد إلى حدود تفوق قدرتنا على التصور والإحاطة.

العصر..!

تداول أصحاب التفاسير عدة أقوال (قال ابن عباس وعلي: العصر هو الدهر، أقسم به تعالى لِما في مروره من أصناف العجائب. وقال قتادة: العصر العشي، أقسم به كما أقسم بالضحى لما فيهما من دلائل القدرة . وقيل: العصر اليوم والليلة..)[٤٩].

وليس بالضرورة أن يكون هناك تضادٌّ بين كل هذه الأقوال.. فما يجمع بينها هو أنها «فترة زمنية».. إما ممتدة وعامة كالدهر.. أو محددة ومحصورة كوقت صلاة العصر..

لكن بين هذا وذاك، ربما يكون هناك شيء مشترك يجمع المعنيين في زاوية قد تكون الرؤية من خلالها أكثر وضوحاً، خاصة فيما يتعلق بسياق السورة..

وقت العصر هو حينما يكون «**كل شيء مثل ظله أو مثليه**».. كما ورد في الحديث الصحيح[٥٠]..

وهو آخر وقت في النهار..

إنه مثل «**الأوج الذي يبلغه**» أي شيء..

مثل المحصلة النهائية لمرحلة ما.. مثل بيان موجز لأهم ما فيها، حيث «تعصر» كل الحوادث والأفعال.. ويصل الأمر لخلاصة ما..

نقول مثلاً عن العهد الذي اكتُشف فيه الحديد «عصر الحديد».. أو عصر الثورة الحديدية، لأن الحديد بعدما اكتُشف غيّر من نمط الحياة الإنسانية.. تمكن الإنسان من قطع الأشجار.. من تجفيف المستنقعات.. من صناعة السفن التي عبرت بهم الأنهار والبحار.. لقد كان اكتشاف الحديد يمثل أهم ما حصل في هذا العصر..

كذلك نقول: عصر العولمة، أو عصر الليبرالية .. دلالة على سيادة قيمها وانتشارها..

---

٤٩ تفسير البحر المحيط: سورة العصر.

٥٠ سنن الترمذي، رقم الحديث ١٤٩، عن ابن عباس أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((أمني جبريل عليه السلام عند البيت مرتين، فصلى الظهر في الأولى منهما حين كان الفيء مثل الشراك، ثم صلى العصر حين كان كل شيء مثل ظله، ثم صلى المغرب حين وجبت الشمس وأفطر الصائم، ثم صلى العشاء حين غاب الشفق، ثم صلى الفجر حين برق الفجر وحرم الطعام على الصائم، وصلى المرة الثانية الظهر حين كان ظل كل شيء مثله لوقت العصر بالأمس، ثم صلى العصر حين كان ظل كل شيء مثليه..الخ)) وكذلك: صحيح أبي داود (٤١٦)، وصحيح النسائي (٥٢٤).

نقول أيضاً: عصر «الرشيد».. دلالة على تمكن هذا الرجل من طبع زمنه ببصمته وتأثيره فيه..

نقول: عصر الإنترنت للدلالة على تمكن هذا الاختراع من الوصول إلى المدى الأبعد في التأثير..

عن كون الظلال الناتجة عنه قد وصلت إلى مداها الأبعد..

◆◆◆

لكن وصول النتائج والآثار إلى **المدى الأقصى ليس إيجابياً بالضرورة..**

إذ إن الأمر المهم هنا هو الاتجاه الذي يتحدد من خلاله الامتداد.. هل هو الاتجاه الصواب أم الاتجاه الخطأ..؟ الاكتشاف الذي يميز العصر قد لا يكون سلبياً بحد ذاته.. كما أنه قد لا يكون إيجابياً أيضاً..

التأثير والتطبيق لهذا الاكتشاف.. هو الذي يحدد السلبيات والإيجابيات، وهو الذي يحدد كون هذه الظلال قد اتجهت الاتجاه الصحيح، أو ذهبت إلى الاتجاه الخطأ..

وهكذا نرى أن بعض العصور قد استخدمت ما ميزها من مكتشفات، لتحوله إلى شر محض في التطبيق.. الحديد استُخدم للقتل والذبح.. والتقدم العلمي استُخدم للقتل الجماعي ولتكريس الفوارق بين الطبقات..

والشعارات استُخدمت لنشر الحروب والاستعباد.. والتقنيات الإعلامية استُخدمت لخداع الناس وجرها لتكون لقمة سائغة في أفواه أصحاب رؤوس الأموال..

قد تكون الصورة الأساسية للمكتشف أو المخترع أو الشعار زاهية وإيجابية، لكن المحصلة النهائية قد تكون سلبية.. السلبيات المتراكمة من التطبيق، تعيد تشكيل المحصلة..

قد تكون المحصلة سالبة..

قد تنقص من الإيجابيات الموجودة أصلاً..

وقد تغير الطريق إلى الاتجاه الخطأ.. إلى الضلال عن الهدف الذي كان الاختراع أو المكتشف أو الشعار الأصلي قد أطلق من أجله..

وقد تؤدي أيضاً إلى الهلاك.. الهلاك الذي ينتج من العامل نفسه الذي كان سبباً

في الصعود (**هل ننسى أن بعض الزعامات التي ترفع أممها تكون سبباً في ضياعها وانهيارها لاحقاً..؟ هل ننسى أن بعض المكتشفات التقنية توفر الرفاهية المادية للإنسان، لكنها بالمقابل تدمِّر البيئة والمحيط الخارجي للعالم كلِّه؟**).

«النقص، الضلال، الهلاك»..

لن يكون من العجب أبداً أن تكون هذه هي المعاني الثلاثة الرئيسية لمفردة «خسر» في لسان العرب..

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾.

عن عصر "الإيمان والعمل الصالح"

الجملة قاطعة وحاسمة.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾.

نقطة. انتهى؟!

لا..

إنها حقيقة تاريخية حدثت عبر التاريخ مراراً وتكراراً..

ولكنها ليست حتمية..

يمكن للإنسان أن يغيّرها، أن يتدخل فيها..

بالضبط يمكنه أن يتفاعل مع «العصر» ليأخذ مسار المحصلة النهائي إلى حيث يجب أن تكون..

وليس هناك من نفاذ إلى «تغيير العصر».. إلا عبر مترابطة «الإيمان والعمل الصالح».. لا نستطيع هنا أن ندعي أن معنى هذه المترابطة كان واضحاً في هذه المرحلة المبكرة.. لكن ثلاث نقاط أساسية لا يمكن أن تغيب عن ذهن من يتفحص هذه السورة في هذا السياق:

الأولى: أن «الإيمان والعمل الصالح» يغرس بوصفه مفهوماً في سياق تحدث أصلاً عن العصر.. **أي عن سياق شمولي لا يخص أفراداً أو مدينة صغيرة أو جماعة صغيرة**.. بل يخص التاريخ الإنساني بأسره.. وهذا يمنح الإيمان والعمل الصالح

عمقاً تاريخياً أكبر بكثير من الجانب الشخصي الفردي.

الثانية: أن التغيير لهذه الحقيقة لا يكون إلا عبر الجماعة، **فالخسر جاء بصيغة فردية (الإنسان)، ولكن «عكس هذه الحقيقة» جاء بصيغة جمعية ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾.**

الثالثة: أن الأمر ارتبط بالحق والصبر، بالذات ارتبط بالتواصي بالحق والصبر.. فالإيمان هنا «حق».. والحق يوحي بمعنى قاطع لا يقبل المساومة أو **المفاصلة.. والتواصي به يوحي كما لو أن المؤمنين يناولونه واحداً للآخر.. كما لو أن كلاً منهم يحمل الحق كشعلة، ويسلمه إلى من بعده كما لو كان أغلى وصية..**

والتواصي بالصبر يوحي أيضاً أن العمل الصالح **مشروع بعيد الأمد، قد يتجاوز «الخطة الخمسية» و«العشرية» ليصير مشروعاً للعمر كله.. مشروعاً لجيل كامل..**

السورة تقول:

كل العصور مهما بدت برّاقة وجذابة.. ستكون في محصلتها خاسرة «إنسانياً»..

إلا عندما..

يتدخل «الإيمان والعمل الصالح»، يتدخل عبر المؤمنين بطبيعة الحال..

التين: قانون الريادة

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ١ - ٨].

سورة التين نزلت بعد سورة العصر بفترة لا يمكن تحديدها، فبينما كانت سورة العصر تحمل الرقم (١٣) حسب النزول، فإن سورة التين تحمل الرقم (٢٨)..

وسورة التين تشارك في تكريس المفهوم السابق نفسه الذي قامت ببذره سورة العصر (مفهوم الدور الإنساني الفاعل الذي يزيح الخسر، ويمنح العصر ظلاله القصوى في الفوز)..

الابتداء بالتين في هذه السورة لا بد أن يمتلك دلالة معينة، وقد جاء في التفاسير الكثير من الفوائد الطبية الكثيرة للتين، كما ورد أيضاً الحديث عن دلالات تاريخية ترتبط بالأرض

التي تنبت التين، وهي أرض بيت المقدس والشام المرتبطة بالنبوات والرسالات..

وكل ذلك لا جدال فيه وفي أهميته وامتلاكه لتأثيرات مهمة، لكن ذلك لا يعني أيضاً عدم وجود أسباب أخرى تجعل **للابتداء بالتين** معنى في سياق ما تدور حوله السورة وندور حوله معها..

التين دوناً عن كل الأشجار المثمرة يمتلك صفة **تميزه، ولا بد أن يكون لها ارتباط** بإيراده في مقدمة هذه السورة...

هذه الصفة هي أنه يثمر قبل أن تكتمل أوراق أغصانه..

تكون الشجرة لا تزال جرداء لم تكون أوراقها..

وإذا بالثمرة تنضج على أطراف الأغصان..[٥١]

لا يمكن أن يكون ذلك عبثاً، حاشا الله أن يكون حرف واحد في كتابه بلا مقصد..

ذكر التين ابتداء في السورة - التي ارتبطت بالتين لأنها أخذت اسمه كما هو واضح - لا بد أن يرتبط بما **كانت السورة تكرسه..** خاصة وأنها سترابط بين **الإيمان والعمل الصالح..**

هل يكون ذلك مرتبطاً بالتضحية؟ بالمسابقة بالخيرات؟

بأولئك الذين ينسون **أنفسهم ويضحون بها من أجل الآخرين**؟.. من أجل مجتمع لم يولد بعد.. وحضارة لم تتضح معالمها بعد؟ لكنهم يساهمون في مخاضها، يساهمون في مجيئها عبر هذه الصفة بالذات والتحديد..

إنهم يقدمون الثمرة ليس قبل أوانها، لا شيء يأتي قبل أوانه، **لكنهم لا يعتمدون على قوانين الأوان الاعتيادية التي قد تتأخر أكثر مما يجب.. بل يتخذون قانوناً آخر هو قانون الريادة، يكونون رواداً في شق الطريق نحو عالم آخر أكثر عدالة..**

التين - **شجرة كانت أو ثمرة** - هي رمز هائل لذلك، رمز للثمرة التي تتحدى الأغصان المجدبة والقحط المسيطر.. التين رمز لما يمكن أن يفعله بعضنا **عندما يقدمون الواجب على الحقوق..** يقدمون الأمة والقضية وهمومها على تفاصيل حياتهم الصغيرة، بل عندما تسكن الأمة والقضية كل التفاصيل، فلا يمكن أن ترى سواها، بل لا تعود ترى شيئاً إلا من خلالها.. لا تعود تفكر بالحصول على حقوقك.. بل تفكر فقط بتقديم ما تعتبره واجبك..

التين درس مهم من دروس الاستخلاف والنهضة بالترابط مع ثنائية الإيمان والعمل

---

٥١ http://www.scienceofcorrespondences.com/fig-tree.htm

الصالح.. إنه التين في المقدمة والبداية، **لأن «الواجب العام» و«المسؤولية تجاه المجتمع» يأتي أولاً في حالات كهذه، المجتمع الذي ربما لم يكن قد ولد بعد،** والنهضة قد تكون مجرد كلمة، حلم.. لم تتحول حتى لتصبح مشروعاً.. والاستخلاف قد يكون كلمة عصية على الفهم.. كلمة عائمة تبدو بعيدة بُعدَ السماوات عن الأرض..

هذا هو العصر الذي يمكن للتين فيه أن يحقق فرقاً عبر ثمرته.. هذا هو **العصر** الذي يمكن لهؤلاء الرواد أن يدفعوا معنى التين فيه إلى الحد الأقصى.. فيحققون بذلك مساهمتهم في تغيير العالم..

لا يتناقض ذلك مع كل ما ذكر سابقاً من أسباب اختيار التين للابتداء في هذه السورة، يمكن أن يكون ذلك إشارة إلى كل ما قيل، ويمكن أيضاً أن يكون هناك ما نعرفه من معانٍ ستدرك لاحقاً.. لكن ذلك كلّه يمكن أن يصب في لوحة متكاملة..

والتين هنا ابتداء، بمعنى الريادة السابقة، المتحدية لجدب الأغصان ولانتظار ما لن يأتي إن بقينا ننتظره.. التين هنا بهذه المعاني هو ما يجب أن نتمثله.. أن نحاول أن نكونه..

قد يتهمه البعض بالتهور، بالاندفاع غير المحسوب، بالمراهقة.. بطيش الشباب..

لكن أولئك الذين يتمثلون التين هم أبعد الناس عن التهور.. **بل إنهم يرون التهور والطيش في الاستمرار فيما لا يمكن الاستمرار فيه..**

إنهم يستشعرون ذلك بطريقة لا يدركها الآخرون.. يستشعرون أنه موسم التين، الموسم الذي سيفتح كل المواسم الأخرى ويسهل مجيئها.. رغما عن أنف القحط والجدب..

تستطيع أن تتخيل أنهم الأوائل في كل حين.. أن تراهم يجتمعون في دار الأرقم بن أبي الأرقم، وكل ما يقولون يبدو مستحيلاً.. كل ما يؤمنون به يبدو خارج السياق.. أي حديث عن أي ثمرة سيكون بعيداً عن كل ما هو مفكَّر فيه..

لكن أولئك الأوائل الذين اجتمعوا في دار الأرقم بن أبي الأرقم كانوا مثل ثمرة تين أوانها يأتي قبل أوان الجميع.. كانوا لها جذوراً تمتص الماء من التربة.. وساقاً تنهض بالفكرة، وأغصاناً جرداء لكنها تمد الثمرة بكل ما يلزمها لتكون..

إنهم الأوائل في كل شيء.. الأوائل في كل ما يجب أن يكون، لولا مجيئهم المبكر لتأخر كل شيء..

إنهم الأوائل في الهجرة، والأوائل في الجهاد، والأوائل في الفتوحات.. إنهم الأوائل الذين زحزحوا عجلة التاريخ عما كان يبدو أنه مسارها الحتمي..

إنهم الأوائل الذين حملوا مشعل الإيمان بما آمنوا به إلى بقاع لم يكن ليصلها الإيمان لولا أنهم غامروا وأبحروا وخاضوا في بحار ومحيطات عذراء لم يبحر فيها أحد قبلهم ممن حملوا إيمانهم نفسه..

قد يكون هؤلاء الأوائل **تجاراً كانت دعوتهم لله أربح تجارة مارسوها**، وكان حسن تعاملهم وتحليهم بأخلاقهم هو آلتهم في الدعوة.. وقد يكونون **مقاتلين أشداء حملوا السيوف لإحقاق الحق وإزالة الباطل في عالم يحتاج إلى التدخل المباشر..**

قد يكون هؤلاء الأوائل **علماء يبحرون في سنن عذراء** لم يفتحها عقل بشري.. ويستثمرونها ليكون هذا الاستثمار منسجما مع ما أراده خالق هذه السنن لهذا العالم..

قد يكونون **دعاة يختبرون أساليب جديدة غير مطروقة في نشر الدعوة**، يحملون فكرة الإيمان إلى رؤوس تجهل كم تحتاج هذا الإيمان..

قد يكونون مفكرين يتحزمون بحزام ناسف ليفجروا هيكل أفكار سلبية تراكمت على النص الديني حتى صار البعض يتصور أنها جزء من هذا النص..

قد يكونون مخططين موهوبين يتمكنون من إيجاد طرق مبتكرة للوصل بين الفكرة والواقع..

بكل الأحوال، إنهم الأوائل **الذين يغيرون التاريخ عبر ريادتهم..** إنهم أولئك الذين يتمثلون التين الذي يضحي وينتج الثمرة قبل أن تورق أغصانه.. قبل أن يحصل على مردود تلك الثمار.. إنهم أولئك الذين يقدمون الواجب على استحصال الحقوق.. **من أجل أن ينال مجتمعهم أو أمتهم ما تستحق..**

ألا يكفي هذا كله لكي يكون التين هو أول ما تبتدئ به هذه السورة؟

خاصة أن هذه السورة ستكرس الربط - الذي نتتبعه - بين الإيمان والعمل الصالح..

والذي قال لنا القرآن: إن الاستخلاف مشروط بهما..

زيتونة مضيئة، للعمل المستمر

بعد مرحلة التين، مرحلة الأوائل والرواد.. مرحلة التضحية وأداء المسؤولية تأتي المرحلة اللاحقة.. مرحلة عبّر عنها الخطاب القرآني بالزيتون..

والزيتون، كما التين، يملك دلالات تاريخية تخص رسالة موسى التي هي في النهاية جزء من رسالة الإسلام.. لكن سياق الآيات وبالذات مجيء الزيتون بعد التين، يجعلنا نؤمن أن ذكر الزيتون هنا له دلالة في سياق «المسؤولية والواجب واستحصال الحق» وبالتالي في الإيمان والعمل الصالح..

لماذا الزيتون..؟

كل ما ذكرناه سابقاً يندرج هنا، كونها دائمة الخضرة، كونها أطول الأشجار عمراً، وبالذات أطول الأشجار عمراً واستمرارية في الإنتاج.. كل ذلك له علاقة حتمية بموقع الزيتون في هذا التسلسل.. التين أولاً للريادة ولشق الطريق الصعب الذي كان يبدو مستحيلاً، لوضع اللبنة الأساس في ذلك البناء..

لكن الزيتون هو **الاستمرار في الطريق، هو العمل الدؤوب الذي يوازن بين الحق والواجب، فلا يتهاون في واجب بينما يطالب في حق مفترض،** لا ينتهي هذا الواجب عند مجرد الحصول على هذا الحق..

مع الزيتون العمل لا ينتهي لحظة القطاف.. بل يؤدي فقط إلى مرحلة أخرى منه يدخل الزيتون في المعصرة.. وبدلاً من القطاف والتشذيب وجمع الثمار فحسب.. سيكون هناك العصر أيضاً.. وبعد العصر سيكون الزيت الذي يضيء الدرب.. ويجعل العمل كل العمل أيسر وأدق..

التكامل بين التين والزيتون هو ما يمنح أي مشروع استمراريته، ويضمن بقاءه.. التين أولاً من أجل الريادة والابتكار..

والزيتون ثانياً من أجل استمرار العمل الدؤوب..

لكن ذلك لا يكفي قط..

أو على الأقل لعله يكفي مع مشاريع محددة الطابع والهدف.. عندما يكون الهدف ربحيا مثلاً أو لتوفير خدمة معينة..

لكن كلما كبر المشروع.. ارتبط بأهداف كبيرة، وزادت الحاجة إلى شيء آخر، بالإضافة إلى التين والزيتون..

فلنتذكر هنا أن ما تنتهي به السورة من الربط بين الإيمان والعمل الصالح سيكون المقدمة التي تحقق ما نتحدث عنه من الاستخلاف.. كما في الآية التي كانت السبب في دخولنا إلى باب الإيمان والعمل الصالح الذي وصلنا إليه عبر تلك الكوة في سورة النور.. ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

أي أن المشروع كبير، والمشاريع الكبيرة عموماً تحتاج إلى ما هو أكبر من مجرد «الريادة» والعمل الدؤوب على أهمية ذلك..

إنها تحتاج إلى شيء يضم ذلك كله ويحتويه ويكون أساساً راسخاً يثبته ويقويه ويرفعه..

سرعان ما ستخبرنا السورة ذاتها، عملاقة المعاني قصيرة الآيات، عن هذا الشيء الذي سيفعل ذلك.

طور سينين

هل هناك شيء يضم ويحتوي ويثبت ويرسخ أكثر من الجبل؟.. الجبل الذي يمنح الثبات للأرض نفسها، يكون بمثابة الوتد الذي يمتص اهتزازاتها، ويوازن حركاتها.. ويكون حتماً كذلك وأكثر لما يكون عليه وفوقه..

التين والزيتون كانا **رمزين للعمل: ريادته واستمراره..**

أما **الجبل فهو رمز لما «يضم ذلك».. لما يحتويه.. لما يجعل وجهة العمل صحيحة، وثمارها تصب حيث يجب أن تصب..**

لأي شيء يرمز الجبل إذن؟.. وما الشيء الذي يمنح للعمل وجهته وصوابه..؟ وما المقياس - المرجع الذي يمكن للعامل من خلاله أن يميز صحة جهده أو خطئه؟

لا بد لكل عمل من منهج يمنحه قوامه.. ودون ذلك سيتعرض لخطر الانحراف الحتمي.. العاجل أو الآجل..

إلامَ يرمز الجبل إذن في هذا السياق؟.. ما هذا المنهج الذي سيحفظ العمل؟..

إنها **الشريعة.. الشريعة بثوابتها وتوازنها وهيمنتها على كل ما سواها وكل ما**

عداها.. الشريعة هي التي تقدم «المحرك» للعمل، وتقدم له الكوابح أيضاً.. والمقاييس.. والأهداف.. ودون هذه الشريعة سيفقد العمل توازنه.. بل سيفقد وجهته.. وسيخطف لصالح هذه الجهة أو تلك.. أو سيخطف لصالح فكرة تجعل «العمل» نفسه ضبابياً مطاطاً تتقاذفه الأهواء والمصالح..

الشريعة بثوابتها وأحكامها ورؤيتها هي «البيئة» الوحيدة الصالحة لنمو العمل واحتضان بذرته وجعلها تنمو وتثمر..

الشريعة هي هذا الجبل الراسخ الذي يحتوى المعاني المهمة المتضمنة في «التين» وفي «الزيتون».. ليس يحتويه ويكوّن بيئته فقط.. بل يرفعه ويعليه أيضاً..

لن يكون غريباً بعد كل هذا أن يأتي ذكر «طور سينين» بعد التين والزيتون في هذه السورة..

ولن يكون غريباً بعد كل هذا أيضاً أن يكون معنى مفردة طور في لسان العرب[٥٢]: **الجبل الذي عليه شجر؟؟!!**

التين إذن يطلق شرارة العمل، والزيتون يمده باستمرارية التيار وإصراره، والجبل يرسخ كل ذلك ويثبته بوصفه الشريعة التي تحتضن كل ذلك، وتقدم له البيئة المناسبة..

لكن ذلك كله ليس هدفاً بحد ذاته.. بل هو مجرد وسيلة للوصول إلى نتيجة..

ما هي النتيجة؟..

السورة لا تترك ذلك مفتوحاً.. ولا تترك لنا مجالاً طويلاً للتأمل والتخمين.. بل هي تقول لنا سريعاً: إن ذلك يجب **أن يؤدي إلى «البلد الأمين»..**

البلد الأمين

لا خلاف عند أغلب المفسرين في كونه مكة.. لكن لا نرى تعارضاً أيضاً مع معنى يجرد المكان من اسمه، ويقوده إلى جوهره وعمقه.. خاصة أننا نتحدث هنا عن حلقات متداخلة تشترك في تفاعل واحد، وتصل إلى نتيجة واحدة.. وليس عن مجرد «أماكن» مستقلة بعضها عن بعض..

---

٥٢ لسان العرب: مادة (طور).

للوهلة الأولى قد يتبادر إلى أذهاننا من كلمتي «البلد الأمين» معنى أنه بلد آمن.. أي أنه بلد يأمن الإنسان فيه من كل ما يخيفه أو يهدده.. وهذا المعنى صحيح، لكنه صحيح ضمنياً وكنتيجة فقط، وليس كسبب أولي..

الأمانة.. ليست بالضبط الأمن والأمان.. هناك مسافة واضحة بينهما، ولا تحتاج إلى تفسير.. وقد جاء في القرآن الكريم في سياق آخر يخص مكة أيضاً:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]..

لكن **البلد الآمن شيء آخر غير البلد الأمين..**

في أغلب المواضع التي جاء فيها لفظ «الأمين» في القرآن الكريم، كان المعنى يتعلق بحفظ المسؤولية والعمل.. وليس مجرد التمتع بالأمان..

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٤٥]
فيوسف كان الأمين الذي تقلد مسؤولية خزائن الأرض..

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٠٦-١٠٧]
وتكرر ذلك في السورة نفسها مع أربعة رسل آخرين.. والرسول الأمين هو الرسول الذي يؤدي رسالته بأقصى وأقسى شروطها، وليس من أمن من شر قومه..

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢١]..

ووصف هذا الرسول الكريم بالأمين يشير إلى **أدائه لمهمته على الوجه الأكمل.. وليس لكونه قد أمن من خوف ما.**

في السياق نفسه فإن «البلد الأمين» لا يعني أبداً أن يكون البلد آمناً فحسب.. بل يعني أنه بلد قد **أدى ما عليه، بلد تمكّن من حمل الأمانة وأدائها..** بلد قد تمكن من أن ينجز واجبه.. يحقق ما قام من أجله.. ما خُلق من أجله..

وهذا البلد قد يكون **آمناً أيضاً، بل هو يجب أن يكون آمناً.. لكن الأمان هنا هو نتيجة لكون البلد قد تحمل أمانته ومسؤوليته وأدى ما عليه..**

الأمن والأمان: السبب والنتيجة

الأمان هنا هو ثمرة متأخرة للأمانة.. والاثنان هنا مثالان مهمان جداً عن علاقة الحق والواجب في نشوء المجتمعات والأمم وتكونها ونهوضها.. والخلط بين

الأمرين وارد جداً، ومربك جداً في الوقت نفسه.. فالبعض منا يخلط بين «الثمرة» التي تتمتع بها بعض المجتمعات، وبين ما بذلته تلك المجتمعات للوصول إلى تلك الثمرة..

البعض يطالب بأن يجد مثل هذه الثمرة في مجتمعه أيضاً.. **متناسياً أن هذه الثمرة (= الحق) قد سبقتها عمليات متصلة ومجهدة (= الواجب) للوصول إلى هذه الثمرة..**

والعلاقة بين الأمن والأمانة هي بالضبط مثل ذلك.. لا يمكنك أن تصل حقيقة للأمن دون أن تؤدي مستحقات الأمر من الأمانة التي كُلِّفتَ بها.. والحديث عن الأمن هنا لا يعني قط جانباً أحادياً يتعلق بأن تأمن على بيتك أو سيارتك أو أفراد أسرتك من جريمة مسلحة..

الأمن أعمق من ذلك بكثير.. ويرتبط أساساً بمجتمع مستقر يتمتع **بعدالة اجتماعية متوازنة تجفف منابع الجريمة،** وتقطع الطريق عليها بأفضل مما يفعل أي نظام أمني صارم، أو أي سجن محاط بأسوار شديدة التحصين..

استقرار هذا المجتمع وأمنه يتجاوز أمر **«العدالة الاجتماعية» و«تقليل الفجوة بين الطبقات»** (على أهمية ذلك وأولويته) إلى **وجود صمامات أمان نفسية تجعل الفرد يعيش حياته لهدف يتجاوز حياته الدنيا إلى ما هو أهم وأبقى.**

بعض المجتمعات الغربية حققت ما لا يمكن إنكاره من تقليل الفوارق بين الطبقات.. وكان ذلك سبباً رئيساً في تقليل الجرائم المسلحة التي تزدهر كلما كان هناك لا مساواة اجتماعية.. لكن هذه المجتمعات لم يسلم أفرادها لاحقاً من مخاطر أخرى لا تقل - إن لم تزد - عن مخاطر الجريمة الاعتيادية.. هناك أعلى نسب انتحار في العالم في هذه المجتمعات نفسها.. هناك أعلى نسبة تعاطي للمخدرات (بعض هذه الدول شرعت بيع المخدرات لتقضي على الاتجار بها.. حتى لو أدى ذلك إلى القضاء على أفراد).

وهكذا فالأمن لا يعني فقط القضاء على الخوف على أولادك من الجريمة، على الرغم من أننا قد نعتقد ذلك أحياناً، لكنه **يعني القضاء على ما يمكن أن يجعلهم أيضاً بلا هدف، يجعلهم عرضة للضياع.. للانتحار.. للخدر الذي يأخذ شكل العقاقير (أو أي شكل آخر)..**

لكن لكي **تحصل على هذا الأمن.. لا بد من أداء «الأمانة» أولاً..**

لكي يكون البلد آمناً.. يجب أن يكون أميناً أولاً..

والمسافة بين الأمن والأمانة.. هي المسافة بين المطالبة بالحقوق وأداء الواجب.. وهي تختصر إلى حد كبير أغلب مشاكلنا..

◆◆◆

قد يتصور أي أحد أن ما مضى كان استطراداً لا علاقة له بموضوع الكتاب..

لكني أعتقد العكس من ذلك..

فالأمانة.. والبلد الأمين.. هي في صلب وجوهر موضوع الاستخلاف.. **والفرد الأمين على أمانته.. هو فرد يقوم بما يجب أن يقوم به.. بمسؤولياته.. بما خُلق لأجله..**

والبلد الأمين هو مجتمع يقوم بواجبه.. بما خُلق لأجل القيام به..

وفي الحالتين الفرد والمجتمع.. يعني ذلك أنهما قد أصبحا «الخليفة»..!

◆◆◆

فلنتذكر هنا نصاً قرآنياً آخر: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأرض وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

حملها الإنسان.. لكنه غالباً ضيعها.. فكان بذلك ظلوماً جهولاً.. **إما لأنه ضيعها بتقصيره.. أو لأنه عندما حاول أن يحملها تصور أن ذلك يمكن أن يحدث على نحو فردي..** وهو أمر مستحيل مهما كانت النيات طيبة..

لذلك جاء القرآن، وفي مرحلة مكية مبكرة ، ليذكر **بالبلد الأمين..**

فالإنسان الأمين المستخلف - الذي يقوم بدوره - هو من يساهم ببناء البلد الأمين..

هو من يجعل مجتمعه يقوم بالأمانة..

عدا ذلك، سيكون كل شيء هباءً وعبثاً..

يبدل خوفهم أمناً..

ليس هذا فقط..

فموضوع الأمن والأمان يرجعنا مجدداً إلى آية مفتاحية في موضوع الاستخلاف.. وهي الآية التي قادتنا أساساً إلى «الإيمان والعمل الصالح».

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]..

العلاقة المتتالية كانت على هذا النحو:

آمنوا وعملوا الصالحات

استخلفهم..

مكّن دينهم..

بدّل خوفهم أمناً..

لقد أدوا ما عليهم (عبر الإيمان والعمل الصالح) وكانت نتيجة ذلك أن حصلوا على مرتبة الاستخلاف والتمكين..

وعندها، عندها فقط، حصلوا على الأمن.. (الأمن بمعناه العام الشامل الذي يتجاوز مخاوف التفاصيل الصغيرة إلى المعاني الوجودية الأوسع..

الأمن الذي لا علاقة لها بالمفهوم السائد عندنا الذي يشبه أمان قطيع الخراف ليلة العيد وهي تجهل أنها ستذبح).

وهذا التراتب يذكرنا بحقيقة أن كل شيء معكوس في الفهم السائد..

أول ما يريده الناس هو الأمن!

وآخر ما يفكرون فيه هو دفع ثمنه..

لذا يكون الأمن غالباً هو أمن الخراف لا أكثر..

الخراف التي تتوهم الأمان ليلة إعدادها للذبح.

عناوين برّاقة لأسفل سافلين

نعود إلى سورة التين..

تذكيره عز وجل لنا بأنه خلقنا ﴿في أحسن تقويم﴾.. ثم أنه ردنا ﴿أسفل سافلين﴾.. ليس خارج السياق السابق الذي يرسخ قيم العمل والواجب والمسؤولية.. بل هو

يذكرنا أن الطريق الأفضل، الطريق إلى القمة التي خُلقنا من أجلها هو **الطريق الذي أُعد لنا أصلاً..** لكن سيرنا في هذا الطريق، واستمرارنا فيه «قرار» شخصي يخص كل منا.. ويمكن لمن أراد أن ينكص على عقبيه ويكون أسفل سافلين أن يفعل.. بالضبط كما في الآية ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾..

بإمكان كل منا أن يختار «التقويم الأحسن».. ليكون تقويماً لحياتنا ولطريقنا ولزماننا الذي نصنعه..

أو أن يختار ﴿أسفل سافلين﴾ ليكون عنوانه الدائم، ومقر إقامته الدائمة.. حتى لو تصور أنه يسكن قمة العالم، وأعلى نجاحاته بمقياس العالم السفلي الذي يعتقد أنه أعلى ما يمكن الحصول عليه..

لا يمكن أن نخدع أنفسنا فنتصور أن الاختيار البشري في عمومه كان منصباً للتقويم الأحسن، وإلا ما كان العالم سيكون بهذا الشكل.. معظم البشر اختاروا أن يكونوا في أسفل سافلين.. لكنهم وضعوا لافتات تشير إلى هذا الموقع باعتبار أنه «أعلى عليين».. **صنع بعضهم فلسفات وأيديولوجيات تكرس ذلك، وتعتبر أن** ﴿أسفل سافلين﴾ **هو الوضع الطبيعي للبشر،** بل هو الوضع الأمثل لهم.. على هذا سيكون «التقويم الأحسن» الذي اختاره لنا من خلقنا جميعاً تقويماً عفا عليه الزمن، وانتهى تاريخ صلاحيته.

الاستثناء الوحيد من العموم البشري الذي اختار ﴿أسفل سافلين﴾ **سيكون في الذين آمنوا وعملوا الصالحات..**

هذه الفئة التي قرنت الإيمان بالعمل الصالح هي الوحيدة التي نجت من وصم الإنسان بالخسر (في سورة العصر) وهي التي نجت من ﴿أسفل سافلين﴾، وتمكنت من أن تكون ضمن «التقويم الأحسن» في سورة التين..

وهي أيضاً - عبر ثنائية الإيمان والعمل الصالح - التي تحوز الوعد بالاستخلاف..

وسنقف مطولاً عند الإيمان والعمل الصالح، وارتباطهما مع بعض، وما يترتب عليهما، فهذا الارتباط والالتحام هو جوهر الاستخلاف على ما يبدو من ظاهر آية سورة النور.

◆◆◆

السورة أيضاً تستدرج العقل الإنساني إلى سؤال مهم.. **﴿فما يكذبك بعد بالدين﴾**؟.. وقد تعودنا أن يكون التكذيب بالدين والدفاع عنه جزءاً من «جدل نظري» أو

المناظرة بين المكذبين به والمؤمنين به..

لكن هذا الجدل لم يُتطرق له في السورة إطلاقاً.. هناك حتماً مواضع أخرى في القرآن الكريم يمكن أن تصب في ذلك، وفي بيان تهافت من يكذب بالدين..

لكن السياق هنا مختلف حتماً..

هنا تين وزيتون وطور سينين.. وبلد أمين..

ثم ﴿فما يكذبك بعد بالدين﴾؟.. كما لو أن هذا جزء من مناظرة مستمرة مع المكذبين بالدين..

الأمر لا تناقض فيه..

فالانتصار الحقيقي على المكذبين بالدين لا يكون دوما عبر «حجة داحضة» و«منطق سليم متماسك يكشف زيف اللا منطق المقابل.. أو طريقة التفكير الخاطئة التي توصل إلى نتائج خاطئة..

الانتصار الحقيقي والحاسم ضد هؤلاء يكون عبر وجود الثمرة التي تخرسهم، الثمرة الصحيحة الصالحة التي تثبت صلاح النظرية وقابليتها للتطبيق..

لذا جاء السياق عن التين.. والزيتون.. أي عن ثمار يتطلب الوصول إليها عمل وجهد ووقت..

وجاء السياق عن جبل شاهق.. شاخص للأبصار.. لا تخطئه عين، ولا يمكن لأحد أن يتجاهل وجوده.. (بلى!.. يمكن للبعض أن ينكر وجود الجبل والشمس بل والوجود برمته!.. ولكن يبقى هؤلاء نسبة ضئيلة.. لقد اختاروا بحسم، وبلا تردد، وعن سابق قصد وتصميم أن يكونوا حطباً لجهنم، ولا أرى سبباً يجعلنا نضيع كثيراً من الوقت معهم)..

جاء السياق ليتحدث عن «بلد أمين».. أي عن مجتمع يقوم بمسؤولياته وواجباته، ويحصل على «النتائج».. **أي أن «النموذج العملي» المتحقق على أرض الواقع كان الحجة الدامغة النهائية ضد أي مكذب بالدين..** لم تكن الحجة الدامغة في القرآن عبر منطق نظري (على أهمية هذا المنطق النظري ابتداء وبلا أي شك).. **لكن الحسم ليس بالتنظير قط.. الحسم هو في بناء المثال الذي يجسد النظرية ويقدمها للناس في أكثر الأبجديات قدرة على الإقناع**، أبجدية **المثال التطبيقي** التي تجعل الناس يتبعون النموذج حتى لو لم يعرفوا **«البناء النظري» الذي كان أساساً للبناء العملي، والذي قد يكونون عاجزين عن فهمه لو أنه قدم لهم كنظرية فقط.**

لست ضد التنظير قط، ولا يروق لي الهجوم الذي يشنه البعض على «التنظير» بسبب أو بلا سبب.. فلا **يستطيع أحد أن يشيد بناءً حقاً دون أن يسبق ذلك خارطة تضع الخطة النظرية على الورق وبدقة.. والأمر أكثر تعقيداً عندما يكون البناء المعني بناء مجتمع وأمة..**

التنظير مهم حتماً، لكنه لا يكفي..

والاكتفاء به يشبه كتابة وصفة دواء لمريض.. دون إعطائه إياها..

النظرية والتطبيق: المسافة صفر

جاء حين من الدهر عندما كان المسلمون يقدمون البناء النظري الأفضل، ويقرنونه بالنموذج العملي الأفضل.. لن ندعي وجود تطابق تام بين الأمرين إلا في حياته عليه الصلاة والسلام، وفترات أخرى متفاوتة من التاريخ الإسلامي.. هذا طبيعي ومتوقَّع ما دام القائمون على التجربة بشر.. لكن المسافة الفاصلة - كمّاً ونوعاً - بين الأمرين لم تكن لتصل حد الفصام.. وكان انعكاس النظرية على الواقع يقدم نموذجاً إيجابياً يجعل الناس يعتنقون الإسلام دون أن يعرفوا كثيراً عن البناء العقائدي النظري للإسلام.. وكانت هذه هي المرحلة الذهبية للإسلام عندما كان في عهد نهضته وازدهاره.. أي عندما تقارب البناء النظري مع النموذج العملي..

لا ينبغي هنا أن نتصور أن الأمر ارتبط فقط بحسن الخلق - على أهمية ذلك - .. بل ارتبط أيضاً وقبل ذلك بمجموعة توازنات دقيقة حققها المجتمع المسلم، وأنتجت إنساناً نموذجاً كان هو «الطعم» الذي من خلاله يؤمن الناس بالإسلام.

لا نتحدث هنا عن «حلم أمريكي» يتجسد في سيارة فارهة، ومنزل كبير، وتسوق بلا حدود، ويستجرُّ الناس تبعاً لذلك إلى منظومة عقائدية مخالفة، ولكن مخالفتها لا تبدو للعيان في «الطعم» الذي تقدمه.

نتحدث عما هو أعمق من ذلك.. عن نموذج يجد القبول في رصيد الفطرة الإنسانية.. **نموذج متوازن يجمع بين الحق والواجب، والفرد والجماعة، والعقل والعاطفة، والروح والمادة.. السيارة الفارهة مغرية حتماً، لكن المجتمع المتوازن الذي يقدم الأمن - بمعناه الشامل - لأفراده مغرٍ أيضاً.. وأفراده الذين يتشكلون في مجتمع كهذا يكونون بمثابة «دعاية متحركة» لقيم مجتمعهم وثوابته ومنطلقاته.**

لن ندعي هنا أن البناء النظري للمجتمع الإسلامي الذي نسعى له تامٌّ ومكتمل حالياً، فالشريعة ثابتة، لكن فهمها متجدد.. على الرغم من ذلك، وعلى الرغم من الإقرار بحاجتنا إلى التنظير، فإن الإسلام من الناحية النظرية يبقى بعقيدته هو الأقوى من بين كل الأديان السماوية والمذاهب الأرضية.. **لكن إخفاقنا الكبير هو في التطبيق العملي.. لقد تجاوز هذا الإخفاق أمر القصور البشري إلى التناقض الحاد مع كل البناء النظري..** لقد أصبح واقعنا يمثل كل ما أمر الإسلام بهجره والانتهاء عنه.. **كما لو أن هذا الواقع هو نموذج دراسي تطبيقي لكل ما يجب ألا نكونه!..**

أسباب ذلك متشعبة، وبعضها قد يجد جذوراً في بناء نظري يحتاج إلى تصحيح وإعادة تركيب وتأهيل.. وربما من أهم هذه **الجذور ابتعاد مفاهيمنا عن الاستخلاف وشروطه ومقوماته..**

فلنتنبه هنا إلى أن السورة تنتهي بسؤال يضعنا جوابه أمام مسؤوليات كبيرة..

﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾؟

والآية تتضمن إقراراً بوجود متعدد للحاكمين.. وهو أمر مشاهد ومعلوم في كل صغيرة وكبيرة في الواقع المعاش.. والحاكم هو ليس صاحب السلطة السياسية فحسب، بل هو كل من يقدم رؤية وحكماً خاصاً به للناس.. ونحن نعيش في عصر تعددت فيه الرؤى والأحكام، حتى صار يمكن لكل من يمتلك القدرة على النطق (وليس التفكير حتى!).. أن يصدر حكمه الخاص على كل شيء..

تعدد مصادر الرؤية والقرار والحكم والحكام أمر طبيعي..

لكن بين كل الحاكمين.. كل مصادر الحكم.. هناك دوماً حكم واحد يكون هو الصواب.. يكون الأكثر حكمة والأكثر إحكاماً..

مصدر هذا الحكم - الأكثر حكمة وإحكاماً - يكون من المصدر الوحيد الذي له حق بإصدار أي حكم على الإطلاق.. منه عز وجل..

فما دام هو الذي خلق، فهو الأحق بإصدار المعايير والمقاييس والأحكام.. قولاً واحداً، وبلا تردد..

لكن لِمَ هذه الإشارة هنا تحديداً في هذا السياق؟

هذه الإشارة تذكرنا بأن هناك بعض الأمور الحاسمة في حياتنا لا تحتمل أن تتعدد فيها الرؤى والأحكام.. بل يجب أن يُفصل فيها بوضوح وبلا تردد..

أحياناً يجب أن يكون هناك حكم واحد، وتشخيص واحد، وعلاج واحد لهذه الأمور.. لأن تعدد العلاجات أحياناً - في بعض الأمراض - قد يجعلها تتضارب.. وقد يؤدي هذا بالتالي إلى إحباطها جميعاً.. وهذا يصح أكثر كلما كانت الحالة المرضية خطرة ودقيقة، وكلما كانت تتعلق بنهضة مجتمع وأمة.

كل معاني النهضة وقيام الأمة بمسؤوليتها - وقد ورد بعضها في هذا السياق مثلاً - قد تفسر وتقرأ ويحكم عليها بطريقة مختلفة عما أراد لها من يحق له أن يحكم..

وهكذا **فإن «الإيمان والعمل الصالح» قد يفسر على نحوٍ يُخرِجه عما أراده له خالقه وقصده به..** يمكن بسهولة عندما نؤمن بأحقية كل من هب ودب في إعطاء الأحكام **أن يتحول الإيمان إلى مجرد اعتقاد محايد بلا لون ولا طعم ولا رائحة.. ويتحول العمل الصالح إلى مجرد طقوس وشعائر.. أو يتحول إلى مجرد عمل خيري بلا جذور ولا خلفية فكرية تربطه بالإيمان..**

من أجل هذا كان مهماً جداً أن يأتي التذكير هنا **بأحكم الحاكمين..**

فوصفته لا يمكن أن تقارن بأي وصفة أخرى..

وَصْفَتُه وحده تجلب الشفاء..

كل الوصفات الأخرى لن تفيد سوى معالجة بعض الأعراض.. في أحسن الأحوال.

كانت هذه هي البيئة القرآنية المبكرة التي قدمت لمتلازمة الإيمان والعمل الصالح..

ولكن السؤال المهم هنا هو..

ما الإيمان.. والعمل الصالح؟

❖❖❖

أبرز ما جاء في القرآن المدني بخصوص الاستخلاف

أولاً - الآية رقم (٣٠) من سورة البقرة التي جعلت من الاستخلاف وظيفة كل فرد مسلم، وفرض عين عليه.. المسلم في المدينة صار بمواجهة ممسؤولياته.. كانت مكة مرحلة النظرية، والآن جاء دور التطبيق.

ثانياً - ارتبط مفهوم الاستخلاف بالرعي في جانبه التطبيقي، حيث توزعت مهام الرعي على كل فرد، ذكراً كان أو أنثى في المجتمع الجديد.

ثالثاً - مفهوم الرعي كان يشكل إعداد المرعى المناسب، وتهيئة التنمية والحفظ والحماية.

رابعاً - الوعد بالاستخلاف لا يتحقق إلا عبر متلازمة الإيمان والعمل الصالح.

خامساً - الاستخلاف ليس نظرية بعيدة عن الواقع ومشاكله، بل على العكس، الاستخلاف هو الحل للمشاكل اليومية.

سادساً - الإيمان والعمل الصالح يرتبطان بقانون الريادة، بقانون الاستمرار، وبالشريعة التي تضم قانوني الريادة والاستمرار.

سابعاً - البلد الأمين هو البلد الذي يحقق شروط الاستخلاف.. الأمانة تحقق الأمان كتحصيل حاصل.

◆◆◆

الفصل الرابع

الإيمان منصة انطلاق..
سداسية الأركان

الإيمان منصة انطلاق.. سداسية الأركان

لكي نفهم المعنى الناتج من التحام "الإيمان بالعمل الصالح" علينا أن نحاول إعادة فهم مصطلحات مثل الإيمان والعمل الصالح بعد أن نزيل التراكمات التي طرأت عليها..

بعض هذه التراكمات ليست خاطئة بالضرورة.. وهي تستند إلى أحاديث نبوية صحيحة ولا شك في معناها ومدلولاتها.. **لكن ينبغي أن نفرق بين أن تكون هذه المفاهيم المتولدة عن الأحاديث النبوية هي الأساس الذي يُبنى عليه معنى الإيمان (كما هو سائد للأسف) وبين أن تكون مكملاً وموضحاً ومقدماً لنماذج تطبيقية لمفاهيم تم غرسها أولاً عبر القرآن الكريم..**

على سبيل المثال حديث: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[٥٣]. حديث صحيح ولا شك فيه، ولكنه يتحدث عن **مرحلة معينة من التفاعل بين المؤمن وأفراد المجتمع..** أي أن الحديث الشريف يوصِّف ويوضِّح مرحلة متقدمة من الإيمان.. وهي مرحلة يجب أن يكون هناك ما قدم وأسس لها قبل الوصول إليها..

كذلك حديث حلاوة الإيمان.. «ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»[٥٤]... الحديث صحيح حتماً، ولكنه يتحدث عن «حلاوة الإيمان».. أي عن مرحلة متقدمة يستطيع المؤمن فيها أن يستشعر حلاوة الإيمان، **بعدما استكمل الإيمان تغذيته وإمداده بالطاقة اللازمة للعمل والحياة..**

٥٣ متفق عليه.
٥٤ متفق عليه.

ما الإيمان في أساسه إذن؟ ما الإيمان الذي نتحدث عنه باعتباره الأساس الذي يجب أن يكون أولاً ويُبنى عليه لاحقاً كل شيء؟..

لا نتحدث هنا عن أي تعريف جاهز وسائد (دون أن نعني هنا أننا نرفض بالضرورة كل ما هو سائد، فقد يكون ما هو سائد صحيحاً وقد لا يكون!).. **لكننا نبحث أولاً عن المعنى في القرآن الكريم، ومن ثم نطابق ذلك مع ما هو سائد أو نكمله معه..**

الذين آمنو وفعلوا..!

أول ما يلاحظه المتفحص لآيات الإيمان في القرآن الكريم هي أن «**الذين آمنوا**» **لا تأتي منفردة ووحدها قط..**

دوماً تأتي مصاحبة لفعل ما..

لا أتحدث هنا عن ثنائية «آمنوا وعملوا الصالحات» التي سنتطرق لها لاحقاً بالتأكيد..

بل أتحدث عن كل فعل لحق الفعل (آمنوا)..

آمنوا وهاجروا.. آمنوا وجاهدوا.. آمنوا واتقوا.. آمنوا وآتوا المال.. آمنوا وأنفقوا..

دوماً هناك «فعل» آخر لحق بالإيمان..

دوماً الإيمان يؤدي إلى فعل آخر.. لا يقف عند حافة «الإيمان» المجرد.. **بل ربما ليس هناك «إيمان مجرد» أصلاً فيما عرضه الخطاب القرآني عن الإيمان وحالات المؤمنين**.. فلنتذكر هنا أنه علينا أن نمسح كل ما علق في أذهاننا عن لفظ الإيمان، ونحاول إعادة تشكيله وتركيبه كما قُدِّم في القرآن الكريم..

مشكلتنا الأساسية قد تكون في أننا قد تعاملنا مع لفظ الإيمان على أنه مرادف حرفي «للتصديق»..

لغوياً، وبمعزل عن المعنى الذي كرَّسه وزرعه القرآن الكريم، الإيمان هو التصديق..

جاء في لسان العرب: **(أَما الإيمان فهو مصدر آمَنَ يُؤْمِنُ إيماناً فهو مُؤْمِنٌ، واتَّفق أَهلُ العلم من اللُّغَويّين وغيرهم أَن الإيمان معناه التصديق، قال الله تعالى:** ﴿قالتِ الأَعرابُ آمَنّا قل لَمْ تُؤْمِنوا ولكن قولوا أَسْلمنا﴾ **الآية. قال: وهذا موضع**

يحتاج الناس إلى تَفْهيمه، وأين يَنْفَصِلُ المؤمِنُ من المُسْلِم، وأَيْنَ يَسْتَويانِ، والإسلام إظهارُ الخضوع والقبول لما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم، وبه يُحْقَنُ الدَّمُ، فإن كان مع ذلك الإظْهارِ اعتِقادٌ وتصديق بالقلب فذلك الإيمان الذي يقال للموصوف به: هو مؤمنٌ مسلمٌ). [55] انتهى.

الفرق بين **تصديق الباطن وإظهار التصديق** مهم حتماً، لكن من الأفضل عدم **الدخول فيه، فمن يظهر التصديق دون أن يصدق فعلياً (المنافق) لا يدخل حتماً في مجال بحثنا واهتمامنا الآن.. إنه ببساطة وبالتعريف "غير مصدق"..**

فلنرجع الآن إلى لفظ "آمن"، لسان العرب يقول: إن اللفظ يعني التصديق.. ونحن لا نجادل في هذا، لكننا نوضح أن **القرآن الكريم استخدم اللفظ في سياق أبعد من مجرد التصديق..** لم يكن الأمر قط كما لو أن المؤمنين قد "صدقوا بوجود الله تعالى" وانتهى الأمر عند تصديقهم..

الفرق بين **الإيمان بصفته محض تصديق، والإيمان كما قدمه القرآن الكريم** هو **كالفرق بين تصديقك بنشرة أنباء جوية عن أحوال الطقس في قارة أخرى وقبل عشر سنوات مثلاً، وتصديقك بنبأ حمله الطبيب عن مرض ولدك الوحيد..**

في الحالتين أنت مصدق لما جاءك من نبأ..

لكن شتان!...

في الحالة الأولى أنت مصدق، ولكن **لا شيء سيُبنى على تصديقك هذا..** لقد صدقت وانتهى الأمر.. يمكنك أن ترفع كتفيك بلا مبالاة..

أما في الحالة الثانية فتصديقك للأمر **سيؤدي إلى عمل فوري تقوم به..** لا يمكن لتصديقك في الحالة الثانية أن يمر عليك دون أن يغير فيك وفي خططك وفي قراراتك.. لا يمكن لك أن تصدق أن ابنك مريض دون أن تهرع بحثاً عن العلاج.. دون أن تبذل كل ما تملك من مالك ووقتك لكي تساهم في إنقاذه..

الإيمان الذي غُرس في القرآن الكريم، والذي كان يصور وضع المؤمنين الحقيقي، المؤمنين كما يريد لهم ربهم أن يكونوا.. كان من الصنف الثاني حتماً.. **كان تصديقاً يؤدي إلى عمل.. لقد تغيرت حياتهم عقب هذا التصديق.. أدى هذا التصديق إلى أن "يفعلوا" شيئاً حياله.. لم يكن مجرد معلومة صدقوها وانتهى الأمر.. بل كان مرحلة جديدة أدت بهم إلى مراحل جديدة متداخلة..**

لذا كان الإيمان مرتبطاً دوماً في القرآن الكريم بفعل ما.. العمل الصالح وتكراره

55 لسان العرب: مادة (أمن).

مثال واضح جداً.. لكن هناك دوماً "فعل" ما لازم هذا الإيمان..

كما لو أن هذا الفعل هو شهادة تصديق تمنح للتصديق نفسه!..

كما لو أن هذا الإيمان لن يكون إيماناً حقاً بالمعنى القرآني، بالمعنى الذي يريده القرآن، ما لم يصاحبه فعل..

كما لو أن هذا التصديق لن يكون تصديقاً لو كان مجرد تصديق لا يؤدي إلى فعل..

لن يكون الإيمان **إيماناً - بالمعنى القرآني - لو كان مجرد تصديق..**

سيكون أي شيء.. أي معلومة أخرى لن تقدم أو تؤخر في حياتك..

وهذا ليس إيماناً..!

أليست الشعائر هي العمل؟

لكن قد يخطر في ذهن أي منا على نحو تلقائي أن الفعل الذي ينتج عن الإيمان في هذه الحالة هي الفرائض.. الشعائر.. مثل الصلاة والصوم والزكاة والحج.. أي ما يُعرف بأركان الإسلام..

هذا الخاطر التلقائي هو جزء من **طبيعة المشكلة التي حجّمت مفهوم العمل (العمل عموماً والعمل الصالح خصوصاً) إلى العمل بأركان الإسلام فحسب وبمعناها الشعائري المجرد..** وهو في حقيقته إسقاط لمفاهيم تكونت تاريخياً وسط تعقيدات سياسية، وبمعزل عن المفاهيم القرآنية، بل حتى بمعزل عن أحاديث نبوية شريفة شديدة الصراحة..

لكن إذا لم تكن الصلاة والصيام وبقية أركان الإسلام جزءاً من الأفعال المصاحبة للإيمان.. **فماذا تكون إذن؟..**

◆◆◆

ميزنا بين الإيمان بمعناه القرآني والإيمان بمعناه اللغوي الذي يعني التصديق المجرد..

لكن هذا التمييز بين الأمرين ليس مجرد اجتهاد ناتج عن استقراء يربط بين ألفاظ الإيمان ومصاحبتها لأفعال في سياقات الخطاب القرآني..

بل هناك في الحقيقة تأكيد قرآني لا يميز فقط بين الإيمان والتصديق، **بل هو يجعل الشعائر من ضمن التصديق وليس الإيمان..** لا يبخس هذا من الشعائر شيئاً.. على العكس.. **إنه يجعل لها السبق والهيمنة، ولكن في موقع «يسبق» الإيمان، وهو التصديق..** لن تكون مؤمناً إن لم تكن مصدقاً - بالتعريف - وهذا يعني أن **التصديق جزء من الإيمان..**

أين موقع الشعائر من ذلك؟

الشعائر جزء من التصديق.. وهي جزء من الإيمان ما دام التصديق مقدمةً حتمية وجزءاً لا يتجزأ من الإيمان..

أي أنها جزء من الإيمان بالاستعاضة.. **بما أنه لا إيمان بلا تصديق..**

كيف يمكن البرهنة على ذلك.. على كون الشعائر جزءا من التصديق، وليس من الإيمان.. أي في المرحلة التي تسبق تحول التصديق إلى الإيمان؟

فسلجة التصديق: دماغك عندما يصدق!

من الناحية الفسلجية عندما تصدق أي معلومة - سواء كانت عن الطقس في أستراليا، أو عن خبر يهمك بشكل شخصي، أو عن حقيقة تاريخية - فإن ذلك سيؤدي **إلى حدوث نشاط دماغي معين.. قد يتخذ هذا النشاط شكل «الموجة الدماغية» إذا أردنا تحليلها..** لكن هذا خارج الصدد تماماً.. المهم أن هناك نشاطا - أو عملا - دماغيا يواكب هذا التصديق ويوازيه..[٥٦]

عدم حدوث هذا النشاط سيعني عدم حدوث «التصديق» أصلاً.. ستكون المعلومة قد مرت كما تمر قطرة مطر على صخرة صماء - أو دماغ أصم - دون أدنى تفاعل..

وذلك يعني عدم حدوث عملية التصديق أصلاً.. لأن المعلومة الأصلية لم تمر بما يجب أن تمر به لكي تصدق.

ما الذي أرمي إليه هنا؟ وما هو بالضبط الربط بين الأمرين؟

ما أقصده بوضوح، وأشدد عليه، وأصرُّ عليه هو أن **«الشعائر» هي المقابل الموضوعي لتلك العمليات والأنشطة الدماغية التي تصاحب عملية التصديق فسلجيا** وتكون جوهرها المادي..

---

٥٦ http://futurehistoryofscience.com/post/3028468573/brain-scans-reveal-interesting-things-about-belief
http://www.scientificamerican.com/article.cfm?id=belief-in-the-brain

بعبارة أخرى: كما أن غياب أو توقف الأنشطة الدماغية تجاه أي معلومة سيؤدي إلى نفي وجود عملية التصديق أصلاً.. **فإن غياب الشعائر يعني عدم وجود التصديق من أساسه، وبالتالي فهو ينفي الإيمان من باب أولى..**

لكن كيف انتقلنا من العمليات الدماغية التي تجري داخل جمجمة مغلقة إلى أفعال محسوسة ومشاهدة يقوم بها الإنسان في حياته اليومية بل يفعلها غالباً بضعة مرات في اليوم الواحد؟

فلنحاول فهم ذلك خطوة خطوة..

كل ما في الكون، من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة، خاضع لقوانين صارمة وضعها خالق هذا الكون.. قد تختلف طبيعة هذه القوانين.. وقد تختلف تجلياتها ونتائجها ومسمياتها.. لكن على الرغم من ذلك هي تشترك ليس فقط في كونها جميعاً من صنع الله.. بل في أنها تتكامل مع بعضها أيضاً.. وأنها أحياناً تتوازى في مسارات كثيرة..

مثال على ذلك: التكاثر سنة من السنن التي أودعها الله في مخلوقاته من أجل أن يستمر نوع كل منها في البقاء.. لكن هذا التكاثر – وإن كان متشابهاً في المقصد والجوهر - ليس قانوناً موحد التفاصيل، تطبقه كل المخلوقات بالسوية نفسها.. إنها جميعاً تتكاثر.. من الكائنات وحيدة الخلية التي لا ترى بالعين المجردة إلى الحيوانات الضخمة التي تحمل لأشهر طويلة.. مروراً بالنباتات والأشجار..

بعضها يتكاثر عبر الانقسام.. وبعضها الآخر عبر حبوب لقاح تنتقل عبر الرياح.. وبعضها يتكاثر جنسياً لكن في هيئات مختلفة، وأحياناً في مواسم محددة..

جوهر التكاثر واحد، إنه سُنَّة وضعها الله عز وجل في كل مخلوقاته.. لكن هذه السُّنَّة تقدم نفسها عبر أشكال مختلفة.

التكاثر هنا مجرد مثال، فالكون كلُّه يمتثل لسنن وضعها الله عز وجل، لكن كل جزء من الكون يختلف في الجزء الخاص به من هذه السنن..

الكون كله في حالة **عبودية لا إرادية** للخالق عز وجل..

هذا كله أولاً..

◆◆◆

الإنسان هو الاستثناء الوحيد من كل ما سبق..

ليس لأنه لا يخضع للسنن والقوانين.. فكل **ما فيه مرتبط بهذه السنن شاء أم**

أبى.. لكن الإنسان – دوناً عن كل المخلوقات - يختلف في **وجود الإرادة عنده**.. إنه كائن لا إرادي في بعض أفعاله وعملياته الحيوية مثله مثل أي مخلوق آخر.. **لكنه أيضاً مخلوق يتفوق على كل هذه المخلوقات بكونه كائنا إراديا أيضاً.. وهذه الإرادة هي التي تجعله مسؤولاً، ومن ثم محاسباً عن أفعاله وأعماله.. وهي ذات الأمانة التي لم تستطع أن تحملها السماوات والأرض.. وحملها الإنسان فكان في الغالب وعبر مجمل مسيرته ظلوماً وجهولاً، ولم يكن على قدر الأمانة.**

وهكذا فإن هذا الإنسان لا يمتلك فقط الإرادة الحرة التي يستطيع من خلالها أن يثبت أهليته أو عدم أهليته لهذه الأمانة.. بل هو أيضاً مُطالَب بأن يقوم طوعاً بما تقوم به بقية المخلوقات قسراً ودون إرادة منها.. وهذا هو جوهر العبودية الحقيقية.. فالكون كله «عبد» لله بطريقة أو بأخرى.. لكن الإنسان هو وحده العبد باختياره وإرادته.

سبق وأعطينا مثالاً عن ذلك بالارتباط بمواقيت الصلاة[٥٧]، الكون كلُّه خاضع لقوانين «تبدل الضوء» وعلاقة ذلك بمصدر الضوء (الشمس).. خضوع الكون يحدث تلقائياً.. بلا إرادة.. لكن الإنسان وحده عليه أن **يثبت خضوعه عبر انخراطه في أوقات الصلاة** التي يسجد من خلالها لخالق الشمس والأرض والكون بأسره.

امتداد ذلك في موضوع "التصديق"

وإذا كانت الخلايا الدماغية تقوم بلا **إرادة مستقلة** منها بما يؤكد **عملية التصديق فسلجياً** .. فإن الإنسان مطالب أن يقوم بما يوازي ذلك بكامل وعيه وإرادته.

هنا **تأتي الشعائر**.. لتكون **مصداقاً عملياً وموضوعياً لعملية التصديق، مصداقا يحدث عن سبق قصد وتصميم.. وهو موازٍ للتغيرات البيولوجية التي تحدث داخل صندوق الدماغ.**

فلننتبه هنا إلى أنني أتحدث عن مجرد **أداء للشعائر**.. وقد يكون محض أداء ميكانيكي روتيني لها.. قد يكون أيضاً من باب العادات المتأصلة بلا استشعار لأي بُعْدٍ خارج حركاتها الظاهرة.

بعبارة أخرى: أتحدث عن **الصلاة - مثلاً - وليس عن إقامة الصلاة.. أي عن حركات الصلاة المجردة.. وأرى أنها تدل على التصديق لا أكثر، وأنها ليست «الإيمان»، وليست من دلالاته ما دامت مجرد صلاة، وليست إقامة لها.**

---

٥٧ سلسلة كيمياء الصلاة، الجزء الثاني، ملكوت الواقع.

وأنها حتماً - ومن باب أولى - ليست العمل الصالح الذي ينتج عن الإيمان..

فهي من متطلبات التصديق الذي **هو قبل الإيمان..**

أما العمل الصالح فهو يأتي في بُعد آخر.. في مرحلة لاحقة.

◆◆◆

فلنكرر هنا أن هذا الفهم لدور الشعائر وعلاقتها بالإيمان لا يقلل من دورها ولا أهميتها، لكنه يخالف حتماً نظرتنا السائدة لها التي تساوي بين **أداء الشعائر والإيمان من جهة..** وبين أداء **الشعائر والعمل الصالح من جهة ثانية.**

هذه النظرة السائدة مستندة أساساً إلى موقف عقائدي توفيقي نتج عن جدل وصراع بين فرق مختلفة في فترة ما بعد صدر الإسلام.

على العكس من النظرة السائدة، هذا الفهم يجعل أداء الشعائر في مرحلة تسبق الإيمان، وبالتالي **لا يمكن أصلاً - في رأيي - «الدخول» إلى الإيمان قبل أداء الشعائر.**

قد نستخفُّ أو نستسهل المبادئ الدراسية التي تعلمناها في المرحلة الابتدائية.. القراءة والكتابة مثلاً، أو العمليات الحسابية البسيطة.. وهي في حقيقتها مبادئ سهلة ولا تستلزم كبير جهد بالمقارنة مع الحصول على تخصص علمي بدرجة الدكتوراه..

لكن الحصول على الدكتوراه **لن يكون ممكناً على الإطلاق دون تعلم هذه المبادئ البسيطة** التي يمكن للجميع أن يتعلمها بجهد متفاوت، ولكن ممكن للجميع..

كذلك الشعائر..

إنها ليست الإيمان.. وليست العمل الصالح.. لكن الوصول إلى الإيمان والعمل الصالح مستحيل من دونها..

لا صدق ولا صلى

فأين إذن ما قلنا: إنه من القرآن الكريم ويسند هذا؟

القرآن الكريم، وفي مرة من المرات النادرة التي استخدم فيها مفردة «صلى» بدلاً من إقامة الصلاة، استخدمها في دلالة واضحة مرتبطة بالتصديق وليس بالإيمان..

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى ﴿٣١﴾ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ [القيامة: ٢٦ - ٣٣].

لم يصدق، وبالتالي لم يُصلِّ.

لو أنه صدق.. لكان صلى على الأقل..!

ولكن لو كان آمن.. لكان أقام الصلاة.. ولكان تغيرت في حياته أشياء كثيرة.. من ضمنها «العمل الصالح»..

لكنه لم **يصدق أصلاً..**

وكان عدم صلاته دليلاً على الكذب والتولي..

ربما لم يكن قد كذب بصريح العبارة، لكن مجرد عدم صلاته هي تكذيب ضمني بما قيل له..

(هل تصدق لو قال لك أحد: إنه سمع هذه الآيات عن الموت، ولم يصل؟ هل تصدق لو قال لك: إنه صدقها، ولكنه اكتفى بالتصديق دون أي فعل موازٍ؟؟!!).

ليس هذا فقط..

فعندما تحدَّث القرآن الكريم عن الأعراب، وفرَّق بين **استسلامهم وإيمانهم** فإنه كان يشير إلى الفرق نفسه بين **إظهار الالتزام بالشعائر وأدائها المجرد..** وبين **الإيمان الذي هو نمط حياة كامل يتضمن الشعائر حتماً،** ودون تقليل من شأنها، لكنه يقيمها لكي تقام الحياة على أساسها..

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤]..

وقد انتبه لهذا الفرق بين التصديق والإيمان مفسر فحل مثل الطبري، فقال في تأويل الآية: **(يقول تعالى ذكره: قالت الأعراب: صدّقنا بالله ورسوله، فنحن مؤمنون، قال الله لنبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قل يا محمد لهم ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ ولستم مؤمنين ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾..**

فهو هنا لا ينفي التصديق عنهم، ولكنه ينفي كون التصديق مرادفاً للإيمان فحسب..

كذلك جاء في تفسير البغوي، والسمرقندي، وتفسير اللباب لابن عادل والخازن.. فكل هؤلاء المفسرين ذكروا – ضمناً - أن **الفهم الأعرابي خلط بين الإيمان والتصديق..**

(هل يذكّرنا هذا بأعراب آخرين يرتدون أحدث الثياب، ويستخدمون أحدث المنتجات، ولكنهم على الهامش، بالضبط كما كان الأعراب من قبل.. وهم أيضاً يخلطون بين التصديق والإيمان، ويتصورون أنهم يجب أن يسمّوا مؤمنين لأنهم صدقوا فحسب؟).

وبين الإيمان والتصديق مسافة شاسعة.. والخلط بينهما كالخلط بين بركة ماء راكد ومحيط هائل فسيح..

دوائر الإسلام والإيمان المتداخلة

ماذا إذن عن الحديث المعروف الذي روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: **كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: مَا الإِيمان؟ قَالَ: «الإيمان أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ». قَالَ: مَا الإِسلام ؟ قَالَ: «الإسلام أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكَ بِهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ». قَالَ: مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».**[٥٨]

هذا الحديث لا يتناقض مع ما أوردناه سابقاً، بل هو في الحقيقة يؤيده تماماً، فهو يضع ثلاث دوائر واحدة ضمن الأخرى، الإسلام فيها هو الدائرة الأوسع، والتي يمكن دخولها من خلال الشعائر والعبادات (وهي الأفعال التي قلنا: إن مجرد أدائها مرادف طبيعي لعملية التصديق المحض).. لا **يمكن دخول دائرة الإيمان - وهي الدائرة المركزية في الحديث - ما لم تمر بالدائرة الأوسع: الإسلام..**

أي أن لدينا هنا قاعدتين: **لا يمكنك أن تكون مؤمناً ما لم تكن مسلماً..** بينما القاعدة الثانية يمكنك فيها أن تكون العكس.. يمكنك **أن تكون مسلماً دون أن تدخل دائرة الإيمان الأدق،** كما في مثال الأعرابي الذي ضربته الآية، وكما في أي مثال آخر من العيش على النمط الأعرابي.. أي على الهامش، مع تصور أن أداءً مجرداً للشعائر سيقود للنجاة..

هاتان القاعدتان، والدائرتان اللتان فيهما تداخل حتمي، أمر مشاهد في حياتنا

٥٨ صحيح البخاري ٥٠، ٤٧٧٧، ٤٤٩٩.

اليومية، وكثير من الخلط يمكن أن يقع بسبب عدم فهم القاعدتين المذكورتين، على سبيل المثال الالتزام باللباس الإسلامي بالنسبة للمرأة يقع حتماً ضمن الدائرة الواسعة، دائرة الالتزام بأداء الأوامر الظاهرة، الجزء الذي يرتبط من اللباس بالدائرة المركزية يتعلق بأمور أعمق حتماً - وقد يعتبرها البعض أكثر أهمية - وهي مرتبطة بالسلوك المحتشم والعفة، وتخص الجميع رجالاً ونساء.. الالتزام بالدائرة الأولى (اللباس الشرعي) لا يدخل بالضرورة في الدائرة الثانية (العفة).. **هناك كثيرات ممن يلتزمن باللباس الشرعي دون أن ينعكس هذا على سلوكهن، وهذا بالضبط موازٍ لفهم الأعرابي الذي تصور أن إظهار بعض الشعائر مساوٍ للإيمان، ويستحق الحصول على تكريم الإيمان.**

في الوقت نفسه، لا يمكن اختراق الدائرة القيمية الثانية (العفة)، والتمثل بها سلوكياً دون المرور بالدائرة الأولى.. فلا يمكن حقيقة أن تدعي العفة من تظهر بلباس يكشف مفاتنها، يمكن أن تكون ممن لا تمارس الفاحشة أو الزنا، لكن هذا جانب أحادي فقط من عملية متعددة الجوانب.. لا يمكن قط عزل جانب كهذا بالملقط عن بقية الجوانب المتصلة به، فالبشر لا يعيشون في أنبوبة مفرغة من الهواء، بل هم يتواصلون عبر شبكة متصلة من الأنابيب التي تتبادل التأثر والتأثير كما في نظرية الأواني المستطرقة.. الماء عندما يرتفع في أنبوبة ما - أو ينخفض - فإنه حتماً يفعل الشيء ذاته في كل الأنابيب.

الحديث الشريف أيضاً لا يتحدث عن كنه الإيمان أو عن تعريفه.. **هو فقط يحدد الإيمان بماذا.. الجهة التي يتوجه إليها الإيمان.. المواد التي تكون محور هذا الإيمان.**

لكن "تعريف هذا الإيمان" لا يدخل ضمن هذا الحديث..

كما لو أن معنى أساسياً ومهماً وجوهرياً مثل معنى الإيمان يجب أن يُحفر في الذهن وفي الوجدان، **لا من تعريف مباشر عبر الحديث النبوي، بل عن طريق كل آية من آيات القرآن الكريم ذكرت لفظ الإيمان**.. وهذا ينسجم تماماً مع ما تم طرحه في بداية الفصل من كون المعنى الأساسي يجب **أن يؤسس عبر القرآن الكريم، ومن ثم تدخل المعاني المتولدة من الحديث الشريف؛ لتبنى على الأساس القرآني الصلب، وهو ما أتصور أنه العلاقة المثلى والنموذجية للعلاقة بين مصدري التشريع: القرآن الكريم والحديث الشريف.**

❖❖❖

لكن هذا كله لا ينفي أن السؤال لا يزال قائماً..

ما الإيمان؟

عرفنا أنه شيء أقوى وأعمق من التصديق، وأن التصديق جزء أولي وابتدائي وحتى سطحي منه.

لكن ما الإيمان إذن؟.. عرفنا أنه التصديق معجمياً وقاموسياً، وأنه **غير ذلك «قرآنياً»..**

فما هو إذن؟..

ما التعريف الذي يجعل من الإيمان شيئاً مختلفاً تماماً عن التصديق؟..

التصديق جزء من الإيمان كما أسلفنا.. لكن ما الذي يضاف إليه حتى يصبح إيماناً؟.. ما الحد الفاصل الذي ينتقل بالتصديق إلى إيمان، ويحوِّل المسلم إلى مؤمن؟..

أدرك أن هذا الحد الفاصل لا يرى بالعين المجردة.. ولا يمكن تحديد موقعه بخريطة أو بمسح جغرافي..

لكن ضرورات الفهم والتطبيق تَفرِض علينا أن نقوم بالتنقيب عن تلك المنطقة اللامرئية التي يتحول فيها **التصديق إلى إيمان.**

الإيمان بصفته دافعاً..

الإيمان هو ذلك النوع من التصديق الذي يتحول ليكون دافعاً للعمل..

التصديق وحده لا يكون دافعاً للعمل، ستصدق ما يقوله لك مذيع نشرة الأخبار، وقد تهزُّ رأسك مستغرباً أو مستنكراً أو موافقاً.. لكن لا عمل.. لا دافع للعمل..

لكن عندما تكون قد صدقت وتولد من صدقك دافع وحافز للعمل - نشدد مرة أخرى على استقلال معنى العمل عن الشعائر - فإن ذلك يكون إيماناً..

وجود هذا **الدافع للعمل هو الخيط الرفيع الذي يفصل بين التصديق والإيمان..**

مع التصديق الأمر ينتهي عند التصديق، لا شيء أكثر من تلك العمليات الدماغية التي أشرنا إليها.. لا شيء أكثر من هزة الرأس بهذا الاتجاه أو ذاك..

التصديق هو نقطة نهاية السطر.. لا شيء ينتج عنه، لا داعيَ أصلاً لأن ينتج شيء عنه.. إنه مجرد تصديق.. مجرد موافقة على معلومة أو مجموعة معلومات..

والإيمان على العكس من ذلك، فهو لا يقف عند نهاية السطر، بل يعمل على فتح صفحات جديدة، آفاق جديدة.. آفاق قد تكون واسعة وممتدة، لكنها في الوقت ذاته مرتبطة ومتداخلة في محور واحد مهما امتدت.. محور الإيمان نفسه.

الإيمان الذي هو التصديق وقد أضيف إليه الدافع أو الحافز للعمل - ابتداء على الأقل - لا يشتت بقدر ما يلم ويجمع على الرغم مما يجوبه من آفاق جديدة.. إنه يجعل لكل شيء معنى في سياق جديد ومختلف.

على سبيل المثال، كلنا نعلم الكثير عن القضية الفلسطينية وتفاصيلها، لكنها لم تتحول لتكون «دافعاً» أو حافزاً للعمل لدى الكثيرين.. بل كانت مجرد معلومات قد قوبلت بالتصديق والإقرار.. (أي أنها هنا مجرد تصديق بمعلومات وتفصيلات).

لكن عندما **يتحول هذا التصديق ليكون حافزاً للعمل في سبيل هذه القضية، في سبيل رفع الظلم أو المعاناة عن منكوبيها، أو الرد على من تسبب بها.. عندها فقط يكون إيماناً بالقضية، بل عندها فقط تكون قد أصبحت «قضية» بالمعنى الشخصي الحقيقي للمفردة.. وليس بالمعنى الإعلامي المتداول للكلمة.**

الأمثلة تضرب ولا تقاس، لكن الإيمان - بالمعنى القرآني للكلمة - يشبه إلى حد كبير المثال السابق.. **فإيمانك يستلزم - بالتعريف - أن تصبح مكوناته «قضية» تحملها معك، قضية تأكل وتشرب وتنام وتستيقظ معك.. وتكون دافعاً وحافزاً للعمل.**

هذا الدافع أو الحافز - لا يوجد فرق كبير هنا - قد يشبه «الهوس» بالنسبة لمن لا يملك هذا الإيمان، أو يملك التصديق فقط.. أي مراقب خارجي لا يملك هذا الدافع سيعتبر حامليه أو المؤمنين به «مهووسين».. أو «متطرفين».. أو أي عبارة تناسبه.. وقد يكون هذا الوصف صحيحاً من وجهة نظره، لأنه يعيش عالماً من القيم والمبادئ المختلفة تماماً عن تلك التي يعيشها المؤمن.

كلمة الهوس قد تعبِّر فعلاً عن نظرة «الآخرين» لما أقصده هنا بوجود دافع مُلحٍّ، دافع «يدفع» كل لحظة وكل دقيقة من كل يوم.

يجب ألا يثبطنا هذا الوصف عندما نواجَه به..

فقد وصف به الأنبياء وأتباعهم من قبل..

لا يعني هذا أن كل من يوصف بالهوس سيكون على سيرة الأنبياء وسنتهم ودربهم

الذي لم يكن يوماً مُعبَّداً بالورود..

لكن الشيء بالشيء يذكر!

دوافعنا تحت المجهر

يبقى السؤال..

كيف ينشأ هذا الدافع أو الحافز للعمل؟..

بصراحة، أجد أن كثيراً من نظريات الدافع النفسي الغربية Motivational Theory [٥٩] تكاد تكون مطابقة لما جاء به القرآن الكريم وحدده بخطوط عريضة.. طبعاً لا نتحدث هنا عن نظرية التحليل النفسي الفرويدي التي اختزلت الإنسان ودوافعه إلى مناطق جنسية، بل نتحدث عن نظريات أخرى قد تكون أقل شهرة على المستوى الشعبي والإعلامي، لكنها ليست أقل قبولاً على الإطلاق من الناحية الأكاديمية.. كما أننا نشدد على أن ما يتوافق مع القرآن الكريم من هذه النظريات هو الخطوط العامة العريضة لها، وليس تطبيقاتها وأمثلتها التي تستمد جذورها من المفاهيم والمبادئ الغربية..

بشكل عام، تقسم الدوافع إلى نوعين: نوع خارجي، ونوع داخلي..

من الأمثلة على النوع الخارجي **الثواب والعقاب والتلويح بهما أي الترهيب والترغيب، كذلك دافع التنافس مع الآخرين، وإثبات التفوق عليهم يعدُّ دافعاً خارجياً ما دام يستمد جزءاً منه من الآخرين.**

الدافع الداخلي أكثر عمقاً وتعقيداً من الدافع الخارجي.. وأمثلته في النظريات الغربية تتمحور حول **شعور الفرد بالاستمتاع أو الاهتمام الشخصي بعمل ما بمعزل عن وجود دافع خارجي من قبيل الثواب والعقاب أو الترهيب والترغيب، وهو أمر يمكن فهمه بشكل أعمق من مجرد الاستمتاع كما سيأتي لاحقاً.**

الدراسات التي ركزت على التفريق بين الدافعين الخارجي والداخلي لم تكن نظرية فحسب، بل ركزت على استبانات **لطلبة مدارس متفوقين ودوافعهم في هذا التفوق، وهكذا فإن البعض يتفوق لأن الدرجات الدراسية الجيدة ستؤمن لهم مستقبلاً أفضل، وآخرون يتفوقون من أجل الحصول على احترام الآخرين،**

---

٥٩ http://en.wikipedia.org/wiki/Motivation
http://mmrg.pbworks.com/f/Ryan.+Deci+00.pdf

وآخرون من أجل الانتصار على الباقين، وآخرون يتفوقون للخلاص من عقوبة ما، أو طمعا في مكسب ما، وكل هذه دوافع خارجية ما دامت تتأثر بمحيط خارجي معين..

لكن هناك فئة من المتفوقين كانت دوافعها **داخلية تماماً، ولم تتأثر بالمحيط ومتغيراته**، نسبة هؤلاء قد تكون أقل أو أكثر.. **لكنهم يقدمون لنا مثالاً تطبيقياً عن الدافع الداخلي الذي من المهم جداً فهمه لكي نفهم الإيمان.**

حوافزنا تتحول من الخارج إلى الداخل

تقدم النظرية الدافعية incentive theory[٦٠] إضافة مهمة للطريقة التي يتكون فيها الدافع الداخلي، إذ تقدم تفسيراً مفاده أن **الفكرة الإيجابية عن سلوك ما - أي الإطراء والثناء أو التقييم الإيجابي عموماً - ستسهم بالتدريج في جعل الحافز داخلياً بمعزل عن استمرار هذا الإطراء أو توقفه..** وهذا أمر مشاهد عند ملاحظة الفروقات السلوكية بين مختلف الشعوب والأمم، فإكرام الضيف - على سبيل المثال - يحصل على الكثير من الإطراء والتقييم الإيجابي في المجتمعات الشرقية، وهو يؤدي إلى تكوين دافع داخلي للمبالغة في إكرام الضيف، واعتباره جزءاً من السلوك الحتمي شبه التلقائي، بينما قد يعدُّ ذلك ضرباً من التخلف والجنون عند شعوب تمتلك قيماً مختلفة. والعكس صحيح بالنسبة لقيم هذه الشعوب.. مثال: المواعدة والعلاقات بين الشباب والشابات مثلاً تعدُّ ظاهرة صحية، وتدل على جاذبية الشخص ومكانته الاجتماعية، وهذا يجعل الحافز لتكوينها "**داخلياً**" بالتدريج عند من ينشأ في رحم هذه الحضارة وقيمها، بينما سيعدُّ السلوك نفسه زنى وفاحشة عند أي شخص استمسك بالكتب السماوية والقيم الأخلاقية في تكوين حوافزه.

المهم في هذه النظرية هو أنها **تجمع بين الدافع الخارجي والدافع الداخلي..**

فالتصور والتقييم الذي يحمله الفرد عن سلوك ما وكونه سلبياً أو إيجابياً يدخل حتماً في ذهن هذا الفرد من المحيط الخارجي (قيم دينية، قيم اجتماعية وضعية، إعلام ينقل أفكاراً من مجتمعات أخرى... إلخ) لكن "اقتناع" هذا الفرد بأي من هذه الأفكار وتبنيه لها – تماهيه معها - يجعلها بالتدريج تصبح "أفكاره" هو.. حتى لو كفَّ المؤثر الخارجي عن التأثير لأي سبب من الأسباب، أو كف عن الوجود في

٦٠

المحيط الخارجي المباشر.. لقد تحول **"الدافع" من الخارج إلى الداخل، وبهذا صار السلوك الناتج عن هذا الدافع أكثر ارتباطاً بالفرد، وصار الفرد أكثر ارتباطاً بسلوكه.. لقد صار نابعاً من أعماقه..**

انتقال الدافع من "الخارج" إلى "الداخل" مهم جداً في موضوعنا..

وهو يرجعنا إلى الدائرتين المتداخلتين..

الدائرتان المتداخلتان هنا هما دائرة الإسلام الواسعة ودائرة الإيمان الأدق.. الدائرة الأولى سبق **أن شبهناها بمرحلة التصديق المحض الذي تصاحبه "الأفعال" التي تدل على التصديق (قلنا: إنها الشعائر)**.. وكما قلنا: إنه لا يمكن الوصول إلى الدائرة الأخرى الأصغر - والأخص والأهم - وهي دائرة الإيمان **إلا بعد المرور بدائرة الإسلام.**

الشيء ذاته ينطبق على الدافع الخارجي والدافع الداخلي، لا نجادل في كون "الدافع الداخلي" - الذي ينبع من ذات الشخص - **يؤدي إلى سلوك أكثر دقة وإتقاناً ودواماً**.. لكننا نشدد على أن الوصول إلى هذا الدافع الداخلي لا **يمكن أن يحدث دون المرور بالدافع الخارجي الذي يقوم فيه المحيط "بغرس" الدافع والهدف داخل الفرد.**

الدائرة الأوسع هنا هي دائرة "الدافع الخارجي"، دائرة الترغيب والترهيب، والثواب والعقاب.. إنها تشبه إلى حد يقرب من التطابق دائرة الإسلام، دائرة الشعائر، دائرة التصديق التي يمكن الدخول فيها بمجرد أداء الشعائر.. ولذلك على سبيل المثال فإن أداء الشعائر يكاد يكون أمراً إجبارياً، ويقترب من حدود القسر (شئنا أم أبينا!).. ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢].. أو كما في قوله عليه الصلاة والسلام: **"مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع".**[٦١]

فاستخدام لفظ **الأمر** - قرآناً وسنة -، ومن ثم الأمر بالضرب إذا وصل الطفل لسن معين دون الالتزام بها، يدخل حتماً في "الدافع الخارجي"، فالطفل الذي سيقوم بالصلاة لأن والده أمره بها، أو لأن والدته ألحت عليه بذلك، أو هددته بغضبها وغضبه عز وجل فيما لو لم يصلِّ، هذا الطفل يصلي **استجابة لدافع خارجي واضح** (سيتضمن حتماً الحديث عن أهمية الصلاة وفوائدها وليس مجرد أمر وإقسار)..

٦١ رواه أبو داود (٤٩٥)، وقال الألباني: حسن صحيح.

لاحقاً، هذا الدافع الخارجي **قد يتحول** ليصبح **دافعاً داخلياً يجعل فعل الشعيرة نابعاً من الفرد نفسه، وبذلك يكون قد تحول إلى الدائرة الأخص والأهم، وهي الدائرة الهدف بالتأكيد..**

قلت: "**قد**" يتحول، لأنه في أحيان كثيرة لا يحدث، بالضبط كما يبقى البعض حبيسي دائرة الإسلام دون ولوج دائرة الإيمان.. سيبقى البعض في دائرة الدافع الخارجي، وسيكون أداؤهم مرتبطاً دوماً بهذا الدافع الخارجي (وقد يجعلهم هذا أشخاصاً متوسطي الأداء فحسب، كما أنه **قد يحيدهم من أداء دور سلبي، كما أنه قد ينجيهم أخروياً حسب ما هو متوفر من المعطيات عبر النصوص).**

لكن الأهم من ذلك هو الانتقال إلى الدائرة الأضيق، **دائرة الدافع الداخلي**، حيث يكون أداء (الشعائر، كما غيرها من الأعمال) **نابعاً بشكل أساسي من دافع داخلي..**

بالنسبة لأي شخص منا، الأهم من كل ذلك هو كيف يحدث هذا الانتقال؟

حسن الظن من سوء الفطن أحياناً !

قبل أن أخوض في ذلك..

أود أن أعرِّج على ما يروجه البعض (بدوافع مختلفة! معظمها خارجي وبعضها داخلي!!) من إلغاء كلي لأهمية الدوافع الخارجية (أو الترهيب والترغيب، ناهيك عن الضرب طبعاً أو حتى التلويح به) في التربية.

على الرغم من أن هذا الرأي له جاذبيته، ويدعم أحياناً بنظريات تربوية ليست لها أهمية أكثر من أهمية الصرعات العابرة، إلا أنه من المهم أن ننبه إلى أن هذا الرأي **يبالغ في «حسن الظن» في الطبيعة البشرية**، ويتجاهل حقائق يمكن الوصول إليها بسهولة عبر استقراء للتجارب الاجتماعية والتربوية، **نعم لا يمكن إنكار أن المبالغة في استخدام التوبيخ والضرب قد يؤدي إلى نتائج عكسية، لكن كذلك هو الأمر مع ترك الأمور للدافع الداخلي فقط.. كل النتائج التطبيقية تربوياً لنظريات الإفراط في حسن الظن تشي بكوارث لا ينكرها إلا مكابر وقح.**

الدافع الخارجي ليس مهماً فقط عندما ينتقل إلى المرحلة الداخلية الأكثر فاعلية، بل هو يبقى مهماً حتى بعد ذلك.. لأنه لا يلغى تماماً، بل هو لا يلغى على الإطلاق.. **لأن الطبيعة البشرية حتى لو وصلت للدافع الداخلي ستبقى بحاجة إلى الدافع الخارجي لكي يحميها من نفسها ومن طبيعتها أحياناً.**

الدائرة الأوسع لا تلغى قط، ولا تنتفي الحاجة لها قط، بل نبقى دوماً ضمنها.. بالضبط كما يبقى حامل أعلى الشهادات العلمية وأكثرها تخصصاً في دائرة الأبجدية التي تعلمها في الصف الأول الابتدائي.. وكما ستبقى الشعائر هي الدائرة الأوسع التي تضم كل المسلمين.

كذلك سيبقى الدافع الخارجي قائماً لا محالة مهما ترسخنا داخل الدافع الخارجي وترسخ فينا..

إنها الطبيعة البشرية التي لا جدوى من الهروب منها، وإنما الجدوى كل الجدوى في معرفة خصائصها والتعامل مع هذه الخصائص بواقعية وبلا تهرب.

عملية نقل الدافع

نعود إلى ما يهم الجميع.. إلى الكيفية التي ينتقل فيها الدافع من دائرة الخارج.. إلى دائرة الداخل..

للأسف الشديد لا يوجد زر نضغط عليه لكي يتم انتقال الدافع من الخارج إلى الداخل.. فالعملية معقدة وتحدث غالباً على مستوى لا يمكن إدراكه بوعي واضح..

لكن النقطة الأساسية فيها هي ما تم تفسيره عبر النظرية الدافعية التي مر ذكرها، **أيُّ وجود تقييم إيجابي عالٍ للسلوك الذي كان يرسخ أولاً عبر الدافع الخارجي هو الذي سيجعل هذا الدافع يتبلور داخلياً بالتدريج.**

وللمزيد من التوضيح، فإن لفظ «التقييم الإيجابي العالي» قد لا يعبر بالضبط عما يلزم للانتقال إلى مرحلة الدافع الداخلي.. الحديث هنا ليس عن وصف سلوك ما بأنه جيد، أو سيكون له أجر عظيم عند رب العالمين.. هذا مجرد تمهيد، ويمكن تصنيفه مرة أخرى بكونه من الدوافع الخارجية.

ما أقصده هنا هو أن الفرد وهو في هذه المرحلة بين المرحلتين عليه **أن يقتنع بأن هذا السلوك أو الحزمة السلوكية بأسرها.. هي ما تمنحه الوجود الحقيقي.. عليه أن يقتنع بأنه قد خُلق من أجل أن يفعل هذا السلوك ولا شيء سواه.. عليه أن يقتنع بأنه قد «وُجد» على هذا الكوكب ليؤدي هذا الفعل حصراً، وأنه لا معنى لوجوده هنا، لا معنى لأي شيء يفعله ما لم يرتبط بهذا السلوك.**

مر سابقاً عند ذكر الدافع الداخلي عن شعور الفرد بالاستمتاع نتيجة لفعل ما أنه سيقود إلى أن يكون هذا الاستمتاع «دافعاً داخلياً» للفعل ذاته.. (ولعل هذا أقرب

إلى الفهم الغربي المرتبط بمبدأ اللذة).

أستبعد وجود ربط كبير بين هذه النقطة وموضوعنا، لا شك أن المؤمن الحقيقي **يستمتع** بأداء ما يجعل إيمانه عملاً تطبيقياً يتقرب فيه من ربه عز وجل.. **لكن هذا الاستمتاع ليس سوى نتيجة لاحقة لعمل متقدم، وهو في رأيي ناتج عن قناعته أن هذا العمل بالذات هو ما يحقق له وجوده وكينونته وذاته.. لذا فإن شعوره بالمتعة وهو يقوم بالعمل سيكون تحصيلَ حاصلٍ لشعوره بأنه من خلال هذا العمل يحقق ما خُلق من أجله.. وليس دافعاً محركاً له.. والفرق كبير بين الأمرين.**

لكن الاستمتاع بالعمل، كدافع إيجابي، هو حتماً أقل تأثيراً من الدافع السلبي الطارد الذي يمكن أن ينشأ نتيجة شعور الفرد ذاته بالتفاهة وبكونه بلا جدوى، بكون وجوده لا معنى له، وحياته لن تُحدث فرقاً فيما لو لم يفعل ما يجب فعله.. **الشخص الذي سيشعر بذلك سيقوده شعوره السلبي الطارد هذا إلى العمل، وسيكون عمله هذا نابعاً من دافع داخلي عميق بُني على كل ما سبق.**

عن "الجلد الإيجابي" للذات

لكي نصل إلى هذا الدافع الداخلي علينا أن نقتنع، أو نقنع الشخص المعني، **أنه إما أن يؤدي هذا العمل - أو كل ما يؤدي إليه - أو أن كل حياته ووجوده سيكون بلا معنى لو أنه لم يقم بهذا العمل.**

علينا أن نزرع فيه أنه خُلق حصراً من أجل ذلك، وأنه إن لم يفعل ذلك **فإنه كالحشرة**، بل أقل، الحشرة تؤدي ما خُلقت لأجله حتماً.. لا تملك خياراً في ألا تؤدي ما خلقت لأجله.. أما أنت، وقد كُرِّمتَ من دون كل المخلوقات بامتلاكك الإرادة، فهل يكون أداؤك أقل من حشرة؟

علينا أن ندرك بلا مساومة وبلا مهادنة وبلا مناورة **أننا بدون الوصول إلى هذا المدى الذي لا مفرَّ من الإقرار بوعورته، فإننا لن نصل إلى الدافع الداخلي.**

الشعور بأنك مهم (أو ما يسمى بتقدير الذات) شعور إيجابي فعلاً ومهم للإنجاز.. لكن هذا كله يجب أن يصب في إطار **«ما خُلقتَ من أجله».. في إطار «خليفة لله في أرضه».. في إطار ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾..**

والأهم منه هو أن تملك شعوراً جامحاً بلوم الذات، بجلدها وصولاً إلى احتقارها

(نعم، احتقارها!).. إن لم تؤدِّ هذا الذي آمنت بأنه السبب في وجودك.

لا شيء أكثر من **لومك وجلدك لذاتك يمكنه أن يدفعك إلى الأفضل..**

لوم الذات هنا لا علاقة له بالنظرة المتدنية للذات Low self esteem بالمعنى الغربي على كرسي التحليل النفسي، فالنظرة المتدنية للذات في هذه الحالة ترتبط غالباً بعدم القدرة على الوصول إلى الصورة المثالية التي قد تركز على الشكل واللون والرشاقة والأناقة.. الجموع تحاول أن تتماهى شكلاً مع الصورة لتكسب رضاها عن ذاتها، لكن النجاح في ذلك أمر متفاوت جداً، وبعض الناس قد خُلقوا على نحو لا يمكنهم معه التماهي مع الصورة الإعلامية مهما حاولوا.. وهذا يُكسب البعض "نظرة متدنية للذات" أو احتقاراً للذات على نحو مختلف جداً عن "احتقار الذات" الذي أتحدث عنه.

النظرة المتدنية للذات بالمعنى الغربي الشائع غالباً ما تنشأ عن جوهر لا يمكن تغييره، الصورة الإعلامية تطلب من كل شخص أن يكون جذاباً وبراقاً وناجحاً بالمعنى الاستهلاكي للنجاح (القدرة على شراء البضائع التي يروج لها الإعلام... إلخ).. وليس الكل قادرين على الانضمام لتلك الصورة ومضامينها.. البعض وُلد على نحو يجعله دميماً بمقاييس الصورة الإعلامية.. البعض ولد على نحو يجعله خارج مقاييس تلك الصورة بكل الأحوال.. وهذا يجعل الشخص يرفض ذاته لأنها لا تتطابق مع الصورة المعلبة المعممة من قبل الإعلام.. هذا اللوم أو الاحتقار غير مجدٍ، **ولا يمكن أن يتحول إلى حافز للعمل، يمكن أن يتحول إلى حافز لإجراء عمليات التجميل، أو الانخراط في برامج الحمية القاسية** أو الركض خلف "طلة جديدة" بين موسم وآخر.. لكنه لن يكون حافزاً لتغيير جذري حقيقي.

اللوم الذي أتحدث عنه مختلف تماماً، إنه لوم وتأنيب يؤمن بالدور الإنساني قبل كل شيء.. يؤمن بأن الإنسان قد وُجد على هذه الأرض ليكون "الخليفة"، وليس أقل من هذا وإن هذا التعيين اشتمل "حتماً" على وجود مؤهلات مناسبة لهذا المنصب.

اللوم الذي أتحدث عنه - والذي يصل لحد الاحتقار - يقتصر فقط على عدم أداء هذا الإنسان لدوره الذي خُلق لأجله.. وليس لأي سبب خارجي سطحي لا سبيل لتغييره.. ولا جدوى حقيقية من تغييره حتى عند تغييره، غير تحسين شعور الفرد تجاه نفسه (أي الاستجابة لاحتقار مزيف غرسته وسائل الإعلام).

أن تلوم ذاتك لأنك لا تؤدي ما خُلقت من أجله لن يؤدي بك إلى الإحباط والمزيد من الاحتقار كلما نظرت إلى المرآة، بل سيدفعك ذلك إلى تغيير سبب اللوم.. إلى

أن تبدأ بالعمل.. إلى تأدية ما خُلقت من أجله..

إنه إذن **اللوم الإيجابي**.. الاحتقار الذي وإن كان احتقاراً.. **إلا أن أثره النهائي يمكن أن يكون إيجابياً.**

◆◆◆

إذن هل نربي أولادنا على أن يلوموا و**يحتقروا أنفسهم إن لم يؤدوا ما خُلقوا لأجله؟**

نعم، بلا مواربة ولا لف ولا دوران.

هذا ما أقوله وما أعتقد أنه سيكون لزاماً علينا فعله تربوياً لكي نخرج من الدرك الذي حبستنا فيه أوهامنا..

اللوم والاحتقار ليس التحقير.. ليس الذل.. ليس أن تجلد ابنك أو بنتك بسياط عقدة ذنب لا سبيل للفكاك منها..

على العكس، إنه وضع كل منهم أمام طريقين لا ثالث لهما..

إما أن تكون.. أو ألا تكون..

وكل شيء ستفعله في حياتك مهما كان لن يصب في كينونتك، إلا عندما يكون ضمن ما خلقك الله من أجله..

أي ضمن توصيفك الوظيفي.

إن آمنت أن "سدى".. لُمت نفسك.. وصولاً إلى احتقارها!

لكن كيف يمكن الترويج لشيء خطر كهذا من دون الاستناد إلى نص ما؟

في الحقيقة إن النصوص القرآنية متضافرة على ترسيخ هذا المعنى بالذات، فأغلب الآيات التي وجهت مع مفردة «الإنسان» - إ ن لم يكن كلها - كانت تتحدث عن صفة سلبية لهذا الإنسان.. إنه ظلوم، جهول، كفور، مناع للخير، عجول.. إلى آخر ما ورد من صفات موجهة لمفردة الإنسان في القرآن الكريم.

لكن هذا التوجيه مصاحب دوماً باستثناء، فبعد أن يذكر السياق هذا التوصيف السلبي للإنسان الذي قد يوحي للبعض بصورة سلبية تحقيرية للذات لا يلبث أن

يعطي المخرج منه، **إنه الإيمان والعمل الصالح، وبسياق جماعي دوماً**، على الضد من السياق السلبي الذي كان يتحدث عن فرد..

نعم هناك تقرير قرآني واضح لصفات سلبية، قد تبدو أصيلة، وقد يتصور البعض أنها حتمية، ويسيئون استخدام النص لتكريس ذلك..

لكنه أيضاً يعطي المخرج من ذلك، والعلاج من هذا الداء.. أنت على شفا حفرة من أن تكون تحمل كل تلك الصفات السلبية، **لكن يمكنك أيضاً الفرار عبر الإيمان والعمل الصالح، ومن خلال «الجماعة».. إلى قدر كامن آخر، قدر إيجابي تختاره بنفسك.. هو قدرك الحقيقي الذي خُلقت من أجله..**

ضمن هذا الإطار القرآني الذي يحدد الداء والدواء معاً يمكن فهم ما عنيته بزرع لوم الذات أو احتقارها بوصفه وسيلة للتحفيز نحو العمل..

إنه أن تؤمن بأنك ستكون كل ما ذكر في القرآن من صفات سلبية، إلا إن تخلصت من ذلك.. عبر «الإيمان والعمل الصالح».

فلنسترجع هنا ما عرفناه عن الإيمان حتى الآن..

إنه تصديق يتحول محوره **ليكون «قضية»** عند الشخص الذي صدق.. **وهذه القضية تدفعه للعمل، ودافع العمل يكون داخلياً بالضرورة، أو أنه انتهى ليكون داخلياً بعد أن ابتدأ خارجياً**، المهم أن هذا **الدافع الداخلي يصير جزءاً من كينونة الشخص المؤمن**، ومن احترامه لذاته ومن رؤيته لذاته.. **بل إنه يصير جزءاً من احتقار هذا الشخص لذاته فيما لو صار إيمانه محض تصديق بلا عمل.. ودون أن يتحول إلى دافع داخلي للعمل.**

إنه تصديق مصحوب بدافع داخلي للعمل يكون من القوة والتماهي بحيث يجعل الشخص يشعر بأنه **لن يكون فعلاً وحقاً** إلا إذا حقق هذا الدافع..

تصديق إذن مع **دافع داخلي** شديد القوة..

لكن ليس هذا فقط..

الإيمان: نحو استقطاب الطاقة

الإيمان، لكي يصبح إيماناً حقاً، لكي يكتمل.. **لابد أن يستقطب الطاقة اللازمة للعمل..**

أي أن التصديق مع الدافع الداخلي يجب أن يقترن أيضاً **باستقطاب طاقة للعمل..**

دون وجود هذه **الطاقة** سيكون **الدافع مقيداً معطلاً**، ليس أكثر من مجرد أمنيات، ليس أكثر من نية طيبة للعمل ضائعة في خضم تفاصيل الحياة اليومية واستنزافها.

لكن من أين تأتي الطاقة؟..

الطاقة أصلاً موجودة ما دام الإنسان حياً، قد تتفاوت من شخص لآخر ومن وقت لآخر.. لكنها موجودة..

تسمى هذه الطاقة بأسماء مختلفة، قد يكون اختلاف الأسماء دلالة على **وجود تجليات مختلفة للطاقة الإنسانية**، تاريخياً استخدم أرسطو العبارة للدلالة على «النشاط الإنساني» على نحو عام، ولاحقاً استخدم تعبير «الطاقة الروحية» ليمثل كل «أهواء الروح ورغباتها»، بينما تعبير الطاقة العقلية Mental Energy يمثل القوة التي تتحكم بالعمليات النفسية psyche سواء كانت هذه العمليات عاطفية أو عقلية.

مدرسة علم النفس التحليلي على يد فرويد[٦٢] أشاعت مصطلح "الأنا" "ID" وعدت "الأنا" مسؤولاً عن كل الرغبات الفردية، وبالتالي مصدراً لكل "القوى المحركة" للفرد، ومن ضمن هذه القوى طاقة الليبدو Libido التي تمثل الطاقة الغريزية اللاواعية (وليس طاقة الدافع الجنسي فحسب كما هو شائع في الاستخدام العام للمصطلح).

لاحقاً تطور المفهوم على يد كارل يونغ Carl Jung[٦٣] لتعرف طاقة الليبيدو **بكونها الطاقة النفسية Psychic Energy التي يمكن أن تكون واعية وتعبر عن نفسها حسب الحاجة** (الأكل، الجنس، التفكير... إلخ).

الليبيدو حسب نظرية يونغ يقترب جداً من مفهوم النشاط الإنساني بشكل عام، ومن مفهوم الطاقة بالمعنى الفيزيائي (المادي)، يمكن لها أن تتجسم في العالم الخارجي كما في أي مجهود عضلي أو أي نشاط جسماني، كما يمكن لها أن تكون "خزيناً" يستخدم في الداخل في عملية التفكير.

مع تطور دراسات الأعصاب ووسائل التشخيص العصبية، صار بالإمكان استخدام "وحدة قياس" للطاقة العقلية، أي الطاقة التي تبذل في "الدماغ" في أثناء القيام

٦٢ سيغموند فرويد (٦ مايو، ١٨٥٦ - ٢٣ سبتمبر، ١٩٣٩)، هو طبيب نمساوي من أصل يهودي، اختص بدراسة الطب العصبي . يعتبر مؤسس علم التحليل النفسي.

٦٣ كارل كوستاف يونج، (٢٦ يوليو ١٨٧٥- ٦ يونيو ١٩٦١) هو عالم نفس سويسري، ومساهم في تأسيس علم النفس التحليلي.

بعملية عقلية.. وبهذا اقتربت الطاقة العقلية من الطاقة بالمعنى الفيزيائي - المادي للكلمة.

ما الذي يعنيه كل هذا؟

يعني أنه لا جدال في وجود طاقة، غريزية، لا واعية كانت أو واعية، ويمكن استثمارها بوضوح خارج نطاق الداخل اللامرئي..

اختلاف التصنيفات والتعريفات والمصادر لهذه الطاقة لا يؤكد غير بديهة لا تحتاج إلى تأكيد، وهي أن **الطاقة الإنسانية تتمثل في أشكال مختلفة، بالضبط كما الطاقة المادية تغير تجلياتها وأشكالها، مرة حرارية، وأخرى حركية، وأحيانا نووية!!**

◆◆◆

الطاقة إذن «**خزين استراتيجي» كامن في أعماقنا اللامرئية ولكن الموجودة حتماً..**

كلنا نستخدم مقداراً من الطاقة ما دمنا نعيش، بعضنا يستخدم أقل القليل، فقط لكي يستمر على قيد الحياة البيولوجية..

البعض الآخر يزيد الاستخدام ليعيش حياة أكثر حيوية، يعمل أكثر، ينشط أكثر، يبذل جهداً أكبر في أي مجال من مجالات الحياة..

لكن كل منا ما دمنا أحياء، ما دمنا نقوم من السرير صباحاً، وبغض النظر عما نفعله بعد ذلك، فإننا نستخدم قدراً متفاوتاً من ذلك المخزون الاستراتيجي من الطاقة الكامنة.

◆◆◆

ما يهمنا من الأمر هنا هو علاقته بالإيمان..

قلنا: إن الإيمان هو **تصديق** مصحوب **بدافع داخلي** شديد القوة..

التصديق هنا هو **بمثابة هيكل عام لسيارة..**

الدافع الداخلي هو بمثابة محرك هذه السيارة..

متانة الهيكل، وجودة التصميم، ودقة تنفيذه لن تنفع دون وجود محرك قوي.. والمحرك القوي - مهما كانت قوته الحصانية فائقة - لن يكون ذا جدوى دون **ذلك السائل الذي تتصارع عليه القوى الكبرى، وتُحتل من أجله بلدان، وتُستعبد**

شعوب.. بعبارة أخرى: «الطاقة»..

لن تتحرك هذه السيارة قيد أنملة دون الطاقة.. دون الوقود..

كذلك الإيمان، لن يكون كاملاً، بل لن يكون إيماناً، ما لم يكتمل بالضلع الثالث..

أي بالطاقة اللازمة لتحريك السيارة..

عفواً، بل اللازمة لتحويل الدافع الداخلي إلى نتيجة في الخارج..

هذه العناصر - أو الأضلاع الثلاثة - هي ما تشكل الإيمان.. من خلال تلاحمها معاً..

◆◆◆

الطاقة موجودة، كامنة في أعماقنا..

لكننا نحتاج إلى استخراجها بحفّارة «الدافع الداخلي»..

يحدث ذلك بدرجات متفاوتة، لكنه يحدث دوماً..

أحياناً يكون الدافع الداخلي شخصياً، ويتعلق بالتفوق الدراسي والمهني.. ويبذل الفرد في سبيل ذلك الجهد.. يسهر الليالي، ويقدم دأبه لسنوات متتالية لكي يصل إلى ما يريد..

أحياناً يكون الدافع شخصياً، لكنه يتخذ اتجاهاً آخر، كاللياقة البدنية مثلاً، يبذل أولئك الذين يريدون أن يظهروا «مفتولي العضلات» جهداً عظيماً، ويقومون بتدريبات شاقة متواصلة، وعلى فترات طويلة.. ويستلزم ذلك إرادة وتصميما ودأبا.. لعل الأشخاص نفسهم ما كانوا سيستطيعون تقديم الجهد نفسه للحصول على شيء آخر غير ما يريدونه من لياقة وعضلات.. إرادتهم لن تكون بنفس الزخم والتصميم، بل لعلها ستكون فاترة خائرة.. فيما لو توجهوا لدراسة أو عمل.. لأن الدافع الداخلي لن يكون متوافراً، ولن يتمكنوا من استخراج الطاقة الكامنة..

نرى أيضاً أشخاصاً يبذلون جهدهم - على سبيل المثال - لتخفيض أوزانهم، يلتزمون بحمية قاسية، ويقومون بتمارين مجهدة، ويتعرضون للجوع، ويحاربون شهوة الطعام.

كذلك نرى الأمر في الحماس لمختلف أنواع الرياضات، تشجيعاً لا ممارسة، والترقب لحضور المباريات، والإعداد لها..

كل هذه الطاقات التي تُبذل في مجالات مختلفة ومتباعدة تملك نسقاً واضحاً يجمع بينها في خطوط عامة..

أولاً - الاقتناع بفكرة معينة (أن التفوق الدراسي درب النجاح في الحياة مثلاً، أو أن الصورة المثالية هي صورة الرجل المفتول العضلات، أو أن القوام الممشوق يمتلك جاذبية أكثر... إلخ).

ثانياً - الربط بين هذه القناعة والشخص نفسه، بحيث يجد الفرد «ذاته» من خلال هذه القناعة، فلا يثبتها مثلاً إلا من خلال التفوق، أو من خلال العضلات، أو اللياقة... إلخ، بل قد يكره ذاته إن لم تتناسق مع تلك القناعة، وتصبح ممثلاً لها، هذا سيساهم بتحولها إلى دافع داخلي ومحفز حقيقي للعمل وفق ما تمليه هذه القناعة.

ثالثاً - استقطاب كل الطاقة الكامنة والخزين الاستراتيجي الذي يُبذل أحياناً في التوافه من الأمور (التوافه بحسب القناعة الجديدة) أو لا يُبذل أصلاً، ويترك خاملاً بلا استخدام، استخدامها واستثمارها لتصب في تحقيق الدافع المترتب على القناعة.. يعاد ترتيب الأولويات كلها، ويعاد ترتيب جدول كل يوم، فتصير هذه القناعة وما يترتب عليها هي أول ما يجب فعله، وبفارق كبير عن بقية الأولويات.

من أعراض الإيمان: حمى الهوس بالقضية

هكذا نجد بعض الأشخاص محمومين بفكرة ما، **إلى حد الهوس**، نعم الهوس، لكنه الهوس الذي يمكنهم من تحقيق ذواتهم، يسهرون، يتنازلون عن متع الحياة الصغيرة، عن لذة الاسترخاء وسلطته، عن حياتهم اليومية العادية.. عن كثير مما قد يعدُّه الآخرون حقوقاً بديهية لا تنازل عنها.. وسيعدون من يحيد عن ذلك ويفرط فيه «غريب الأطوار» - في أحسن الأحوال - أما الشخص المعني نفسه، فهو يعد كل ذاك مجرد «إلهاء» عن هدفه الأساسي، هوسه والحمى المستولية عليه ترى أن **كل نشاط اجتماعي لا يصب في «هوسه» سيصرف كل طاقة يمكن أن يستغلها**.. لذا فهو يقنن كل نشاط جانبي.. يقتصد إلى حد «البخل» في كل ما يبذل مخزونه الاستراتيجي.. من أجل أن ينفق كل ما يمكن في «هوسه».. قضيته.. الحمى التي تأكله.. قناعته التي تماهى معها والتي سيشعر باحتقار لنفسه إن تخلى عنها.. كل هذا يجعله «يفعل».. يستقطب كل ما يمكنه من طاقته في الفعل..

قد يكون هذا الفعل **دراسة أو تخصصاً دقيقاً، وقد يكون عملاً فنياً إبداعياً، قد يكون المزيد من المال، أو المزيد من اللياقة، أو أي شيء آخر..**

لكن هذه هي الخطوات الأساسية اللازمة لتحويل أي قناعة إلى نتيجة عملية..

هذا هو النسق الذي يجمع بين أصحاب مختلف التوجهات والآراء والقضايا..

هناك أولاً **القناعة النظرية المجردة، أسميناها التصديق أولاً وهي كذلك فعلاً، أن تعتقد بصحة نظرية ما أو أن تصدق بمعطيات هذه النظرية..**

ومن ثم هناك الخطوة الأخرى عندما تبدأ **بتعريف نفسك من خلال هذه القناعة أو التصديق**، لا يعود الأمر متعلقاً بعالم خارجي صدقت وجوده، بل يعود الأمر مرتبطاً بك **بشكل شخصي**، تجد لنفسك مكاناً في هذه القناعة أو هذه الفكرة، وتصبح بالتدريج جزءاً من عالمك الداخلي، بل تصبح بالتدريج كل عالمك الداخلي، رؤيتك لذاتك واحترامك لها تقام من خلال هذه القناعة..

وهنا **سيتحول التصديق ليكون دافعاً داخلياً..**

بعد تكوُّن الدافع الداخلي، **سيتجه هذا الدافع إلى استقطاب كل ما يمكن من الطاقة المخزونة لكي يتحول هذا الدافع إلى عمل ونتاج حقيقي..**

التصديق، التعريف، الاستقطاب

كل إيمان، بالمعنى العام للكلمة وليس بالمعنى القرآني، كل قضية يؤمن بها أصحابها وأتباعها، لا بد أن تمر بالمراحل الثلاث السابقة..

من يؤمن بالماركسية أو الشيوعية، من يؤمن بالليبرالية، من تؤمن بقضية المرأة، أو القضية الفلسطينية، أو قضية أي شعب مُضطهَد آخر، كل إيمان، لا بد أن تكون فيه العناصر الثلاث السابقة لكي يكون حقاً..

وإيماننا نحن، أو إيماننا كما يجب أن يكون بالأحرى، لا يختلف عن ذلك..

بل هو تحديداً كذلك..

الفرق الوحيد الأساسي هو أن هذا الإيمان هو «الذي يجب أن يكون»..

أركان الإيمان الستة، من منظور ثلاثي الأبعاد

كيف يمكن تطبيق هذا النسق الثلاثي على مفردات إيماننا؟..

أي الإيمان كما جاء في الحديث النبوي الشريف.. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإيمان. قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ »[٦٤].

الإيمان - حسب الحديث الشريف - يجب أن يكون إيماناً بكل هذه المسميات، وليس بالله عز وجل فقط.. على الرغم من أنها كلها تابعة للإيمان به عزَّ وجل..

لكن السؤال هو: كيف يمكن تطبيق النسق الثلاثي على كل مفردة من هذه؟

الإيمان بالله، أبعاد الثلاثة

الإيمان به عز وجل هو محور إيماننا حتماً، تعالى عن كل موضع تشبيه أو مقارنة..

العنصر الأول من إيماننا به يحتوي على «التصديق» أو «الاقتناع».. أي البناء النظري للإيمان..

والتصديق يتضمن أول ما يتضمن التصديق بوجوده عز وجل.. وبكونه هو الخالق الذي أوجد الكون كله، وخلق فيه كل ما فيه.. كما خلق الإنسان، وجعله على أعلى رتبة من بين المخلوقات في المقدرة والتمكن..

هذا التصديق قد لا يختلف عليه كثيرون.. معظم من يعدُّون أنفسهم اليوم (مؤمنين) - من كل الأديان - هم مجرد مصدقين لما مضى دون أن يتحركوا خطوة واحدة إلى ما هو أبعد من ذلك..

الليبراليون مثلاً، أو كثيرون منهم على الأقل، **يصدقون بوجوده عز وجل، وبكونه الخالق.. وقد يؤدي بعضهم شعائر معينة (وربما بخشوع!)..** لكن وظيفة الشعائر **هنا غالباً تتعلق بإعطائهم راحة نفسية معينة، دفعة روحية تساعدهم على التأقلم مع العالم المعاصر الذي ساهمت في صناعته الليبرالية التي يؤمنون بها (إيمانهم بها بنسق متكامل ثلاثي الأبعاد، بينما الإيمان بالله عز وجل يكون بالتصديق فقط)..**

---

٦٤ متفق عليه.

المحك الأساسي في إيماننا هو ما بعد التصديق.. الخطوة التالية التي يتحول فيها التصديق ليصير دافعاً داخلياً..

◆◆◆

التحول إلى الخطوة الثانية يستلزم أن يصبح **هناك جزء شخصي فيما اقتنعت به من كونه عز وجل هو الخالق الذي خلق الكون كله وكل ما فيه..**

الجزء الشخصي الأول الذي سيتبادر إلى الذهن هو أنه خلقك كما خلق كل شيء، خلق جنس الإنسان وخلقك أنت شخصياً، كفرد، كجزء من ذلك..

لكن هذا لا يكفي!..

ما سيشعل **زناد الدافع الداخلي** المتعلق بالأمر هو أنه عز وجل عندما خلقك بهذه الإمكانات التي لم تكن لسواك من المخلوقات **فإنما وضعك في موضع الائتمان والمسؤولية عن الخلق كله، على الأقل على كل ما في الأرض..**

لقد «**خلقك**» **فيها، و**«**خلفك**» **فيها** في الوقت ذاته لتكون مسؤولاً عنها.. مؤتمناً عليها..

ما وضعه فيك من إمكانات وقدرات لم يكن اعتباطاً، حاشا لله أن يكون في أفعاله ما لا يصدر عن حكمته..

هذا الموضع، **موضع الخليفة من الخلق**، المؤتمن الذي لم تكن إمكاناته وقدراته جائزة أو هدية عرضية في عالم تحكمه الصدفة، بل كانت لهدف هو ذاته الهدف من خلق الإنسان..

هذا الموضع هو الذي يجعل **علاقتك بقضية الخلق قضية شخصية.. شخصية وعقائدية في الوقت نفسه..** لن تكون العقيدة هنا **تتحدث عن غيب بعيد عنك، غيب لا ترى منه شيئاً، بل صار لهذا الغيب امتداد واقعي على الأرض، ليس على أرض الواقع فحسب، بل على أطراف أعصابك وسريرك وخطوات أقدامك وآثارك على الأرض..**

مع هذا الرابط بين **الخلق العظيم وبين شخصك الذي طالما توهمته تافهاً** (أو أوهموك بتفاهته حتى أقنعوك بذلك؟) لا يمكن أن تعود أدراجك لتؤمن بأنك لا شيء..

الآن صرت **جزءاً ظاهراً مرئياً من ذلك الجبل الغاطس في الأعماق** الذي لا يراه أحد، ولكن لا يشكُّ بوجوده أحد، وأنت على الجزء المرئي، على القمة..

ليس أمامك إلا أن تثبت وجودك، أن تؤدِّي أمانتك باعتبارك على هذه القمة.. **أي شيء آخر تهمك فيه، وستنفد طاقتك وخزينك الاستراتيجي من أجله غير هذا الرابط الذي يربطك بالخلق سيكون تقويضاً للرابطة التي «وجدت» أصلاً من خلالها..** أي شيء آخر سيأكل من وجودك الحقيقي بالتدريج.. سيجعلك في منطقة انعدام الوزن الحقيقي.. في منطقة اللاظل واللا أثر..

الوجود من خلال هذه الرابطة هو البعد الوحيد الذي يمكن أن يحسب وجودك فيه، هناك أبعاد أخرى حتماء أبعاد يمكن لوجودك فيها أن يكون واضحاً، ويمكن لها أن تستغرق حياتك بأكملها، وأن تزينها بأهداف وشعارات ستبدو كما لو أنك قد خُلقت من أجلها، الاستمتاع بالحياة، الثراء، إثبات الذات عبر النجاح المادي الذي يحتاج إلى الإعلان عنه عن طريق شراء ما يعلن نجاحك (سيارات فارهة، بيوت ضخمة... إلخ) حتى لو لم تتمكن من إحراز ذلك، ولكنك أهدرت عمرك فيه، فإنك ستبقى في هذا البعد.. حبيساً فيه، وحبيساً خارج البعد الآخر الذي لا يحسب وجودك إلا عبر الوجود به.

علاقتك بقضية خلق الله للكون إذن علاقة شخصية وحميمة، وأنت فيها لست متفرجاً عابراً، أو مجرد شخص على الهامش، أنت «الطرف» الذي جعله الله خليفة له على هذا الخلق..

هنا تتحول العقيدة لتصير قضية..

هنا يولد الدافع الداخلي من رَحِم العقيدة..

يصير حراكاً.. يتسلل إلى الطاقة.. ليصير حركة..

◆◆◆

الإيمان بالله في هذه الحالة سيجعلك تؤمن بنفسك أيضاً..

أنت تؤمن بأنه الخالق القادر العزيز الجبار الحكيم..

وتؤمن أيضاً أنه اختارك لتكون «الخليفة»..

أفلا يعني هذا أنك تؤمن بأن لديك ما يؤهلك لتكون الخليفة؟

إيمانك بالله يعني حتماً أن تؤمن بنفسك.. لا بنفسك كما هي.. بل بنفسك الكامنة، نفسك كما يجب أن تكون، والتي عليك أن تؤمن بوجودها وبإمكانية تحولك إليها..

إيمانك بالله يجب أن يؤدي إلى أن تؤمن بنفسك..

عدم إيمانك بنفسك هو نقص في إيمانك بالله.. هو قدح تضمره (دون أن تعيه) في قدرة الله وحكمته..

ما دمت تؤمن بقدرته وحكمته..

وما دمت تؤمن أنه قد جعلك خليفة في الأرض..

فلا بد أن تؤمن بنفسك..

منطق بسيط.. ولكنه متماسك.

الملائكة بثلاثة أبعاد: اعمل وروح القدس معك!

بَعدَ الإيمان بالله يأتي الإيمان بالملائكة كما حدد الحديث الشريف.

وقد ساهمت الأيقونات والصور التي تنتمي لمنظومات أهل الكتاب السابقة، ومن بعدها الأفلام السينمائية، في تقديم **صورة ذهنية غُرست قسراً في أفكارنا عن الملائكة**، وأعني بذلك تلك الصورة لشخوص تشبه شكل البشر مع أجنحة ذات اليمين والشمال.. (تشبه نجوم السينما بالأحرى! بشرة فاتحة اللون دوماً، وربما عيون زرقاء، وسامة هوليودية الملامح!).. لا علاقة للملائكة طبعاً بنجوم هوليوود (ربما الشياطين علاقتهم بهم أكبر!).. لذا علينا أن نحذف كل ما علق في أذهاننا عن الملائكة من هذه الصور الذهنية، ونؤمن بهم لا كنجوم هوليوديين بأجنحة بيضاء، بل كما وصفهم رب العزة.

(لا يتناقض هذا مع ما ذكره رب العزة عن أجنحة الملائكة في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١] فقد حدد هنا صنفاً معيناً من الملائكة هم الرسل، كما أن معاني لفظة الجناح في لسان العرب لا تقتصر على الجناح بالمفهوم الهوليودي - مثال ذلك «واخفض لهما جناح الذل من الرحمة»، الجناح هنا ليس مادياً بالتأكيد - ولا يمنع ذلك أبداً من كون الملائكة قد تجسدت أحياناً بشكل بشري للرسل والأنبياء، لكن هذا مجرد استثناء خاص لا ينبغي تعميمه).

الملائكة مخلوقات لله ككل شيء، ساجدة لله عز وجل ككل شيء آخر، بمعنى

الانقياد والخضوع التامَّين له..

لكن ما معنى الإيمان بهم هنا؟ هل هو الإيمان بوجودهم؟.. هل هو أن نؤمن بوجودهم فقط وينتهي الأمر هنا؟.. هل يمكن أن يكون ذلك على هذه الدرجة من الأهمية بحيث يكون ترتيب **الإيمان بالملائكة بعده عز وجل وقبل الكتب والرسل**؟ والترتيب ليس فقط في الحديث، بل هو مدعوم أيضاً بآيات قرآنية كما في قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٥٨٢].

فالمغزى لا يمكن أن يقتصر على مجرد الإيمان بوجودهم..

إذن ما هو؟

لا بد أن الأمر يتعلق بوظيفة الملائكة، بالسبب في خلق الله لهم، وهو الغني عن خلقه..

هل وظيفة الملائكة التسبيح المستمر؟ لا.. هذا حالهم دوماً في كل ما يفعلون، ولكل تسبيحه..

لكن الملائكة - مع الإقرار بوجود أنواع وأطياف كثيرة منهم، ومراتب اصطفاء كما في الآية - هم في الغالب **«قوة تنفيذية» لأوامره عز وجل..**

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

فالأمر يصدر منه عز وجل، ونحن نؤمن بأن أمره بين الكاف والنون، لكن حكمته عز وجل اختارت **ألا يكون التنفيذ بين الكاف والنون**، بل عبر مخلوقات - نشدد على عدم معرفتنا لشكلها الحقيقي، ونشدد أيضاً على أن كلمة «مخلوقات» واسعة جداً - تكون أداوت تنفيذية لحكمته وأوامره..

هل يدخل ضمن هذه القوة التنفيذية القوانين الإلهية التي وضعها عز وجل لتسيير شؤون الكون؟

لا شيء يمنع ذلك سوى الصورة الذهنية التي غرست عن الملائكة الوسيمين وأجنحتهم الهوليودية.. لو حذفنا الصورة - التي حرّمها الإسلام أصلاً - **لوجدنا أن الآيات القرآنية التي تتحدث عن الملائكة تنطبق أيضاً على القوانين الإلهية كما**

نسميها اليوم..

فكرتنا عن القوانين أيضاً تحتاج إلى حذف لما رسب في أذهاننا من كونها مجرد معادلات رياضية باردة تتحكم في الكون والعلاقات بين أجزائه..

القوانين هي مخلوقات مثلنا ومثل كل شيء خلقه الله، وقد تعودنا أن يكون للمخلوقات شكل مادي واضح، لأننا نملك شكلاً واضحاً نعيش من خلاله.. لكن هذا لا يعني أن كل ما خلقه الله يجب أن يمتلك هذا الشكل المرئي.. الجاذبية الأرضية لا يمكن إنكار وجودها.. ويمكن حتماً إثبات تأثيراتها المختلفة.. ولكن هل نعرف شكلاً محدداً مرئياً لهذه الجاذبية؟

الكهرباء أو الطاقة الكهربائية كذلك.. لا يمكن اليوم أن نتخيل حياتنا دونها ودون تأثيراتها وتطبيقاتها المتعددة، لكن هل لها شكل «مادي، مرئي» بمعزل عن هذه التطبيقات؟..

عدم وجود «الشكل المرئي المحدد»، أو عدم معرفتنا له لا يعني أن هذه ليست مخلوقات، أو أنها لا تفعل ما تؤمر..

بل إن القوانين تحديداً - أو ما نسميه نحن بالقوانين - هي أكثر ما ينطبق عليه وصف «يفعل ما يؤمر» و«لا يعصون الله ما أمرهم»..

القوانين - بالتعريف - هي ذلك.. الأشخاص الملتزمون بالقوانين يعرفون بأنهم «يفعلون ما يأمرهم القانون» و«لا يعصونه».. **أما القانون نفسه فهو جوهر ذلك، هو معنى الالتزام ذاته..**

هل يمكن تطبيق معنى القوانين (بعد حذف الصورة الذهنية عن المعادلات الرياضية الباردة) على الآيات التي أشارت إلى الملائكة (بعد حذف الصورة الذهنية عن الوسامة الشكلية)؟..

نعم، إلى حد بعيد..

لا أحد ينكر مثلاً ارتباط الموت أو الوفاة بقوانين محددة – تأتمر بأمر الخالق عز وجل -.. في الوقت نفسه فإن الملائكة يَرِدُ ذكرهم في القرآن الكريم كأداة تنفيذية لهذا..

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٢٨].

كما أن حفظ النار على سبيل المثال يتم حتماً عبر قوانين محكمة.. وهذا ما أُشير إليه أيضاً في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

فالملائكة تقوم بتنفيذ ما يأمرها الله عز وجل به، وهم «على» النار.. أي أنهم يقومون بمسؤوليتها وحفظها، ولو حذفنا «صورة» الملائكة من أذهاننا، ووضعنا جانباً الشكل الحصري للمعادلة الرياضية فإننا سنجد ارتباطاً بين المفهومين..

الأمر ذاته سيحدث عندما نلاحظ ارتباط «العذاب الموجه للقرى» (كما مع قوم لوط مثلاً) بوجود ملائكة ينفذون الأمر.. قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الذاريات: ٥٧ -٦٠].

فقوم لوط أُهلكوا بحجارة من سجيل قلبت عاليها سافلها.. مبدئياً يجب أن يرتبط ذلك بمجموعة قوانين، لكن وجود الملائكة في المشهد الذي قدمه القرآن للعذاب يأخذنا مجدداً إلى هذا الربط بين المفهومين: الملائكة والقوانين.

ينسجم ذلك أيضاً مع ما هو موجود في الموروث التراثي عن وظائف الملائكة.. ميكائيل مثلاً يقال تراثياً: إنه موكل بالمطر وإنبات النبات.. ألا يشير ذلك بوضوح إلى ارتباط الملائكة بالقوانين والسنن الإلهية التي تنزل المطر وتنبت النبات؟.. ألا يمكن أن يكون ذلك تماهياً بين الاثنين أصلاً؟.. أليس الفصل بين الاثنين هو مجرد نتيجة لسوء فهم مزدوج:

من الناحية الأولى هو سوء فهم لطبيعة الملائكة الذي ولد من تجارب الأمم السابقة التي قامت بتوثين الملائكة وتحويلهم إلى أيقونات وأصنام..

ومن الناحية الثانية هو سوء فهم لطبيعة القوانين الذي ولد في مختبر الحضارة المادية، والذي جعل **القوانين تبدو كما لو كانت منفصلة عن خالقها..**

لو حاولنا التملص من سوء الفهم المزدوج هذا لوجدنا أن الاسمين يرتبطان بشدة..

العلاقة بين **«الملائكة» و«القوانين» قد تكون أكثر من مجرد الارتباط.**

◆◆◆

سيقودنا ذلك حتماً إلى مناطق خطرة، فماذا نسمي إذن علاقة الملائكة بالوحي،

واستغفارهم للمؤمنين، والملائكة من حملة العرش... إلخ؟

في الحقيقة يجب أن ننتبه هنا إلى أن **الغرور الإنساني قد يزين للإنسان أنه يعرف كل القوانين، ولذا فإنه سيستبعد فوراً علاقة الملائكة بالقوانين.. إذ إنه من الصعب جداً- ومن الخطأ جداً أيضاً - ربط «قانون عام» بمسألة كالوحي مثلاً..**

لكن من قال: إن الإنسانية تعرف كل القوانين؟ من قال: إن ذلك ممكن أصلاً؟ قبل مائة عام فقط كانت الكثير من بديهيات اليوم مجهولة تماماً.. وبعد مائة عام من الآن قد يزيد ذلك أضعافاً مضاعفة.. وربما ستبقى بعض القوانين مجهولة تماماً، دون أن يعني ذلك أنها ليست موجودة.. **هذا أولاً.**

ثانياً: لقد أثبت رب العزة وجود اصطفاء معين للملائكة يجعلهم في مرتبة خاصة ومميزة تقوم بعمل خاص ومميز واستثنائي هو نقل الوحي للرسل من البشر.. مجرد وجود الاصطفاء يعني أن القانون ليس عاماً (ككل القوانين).. بل **إنه قانون خاص**، ويكاد يكون استثنائياً (الأمر كذلك فعلاً ما دام الوحي قد انقطع، والنبوة قد ختمت نهائياً)..

وجود هذه الاصطفاءات والقوانين الخاصة التي لا تخص عالمنا المادي على نحو مباشر (حملة العرش مثلاً) لن ينفي وجودها، **لكنه سيقلل من قطعية البشر في افتراضاتهم..** نعم هناك قوانين يمكن للبشر أن يسبروا أغوارها، ويساهموا من خلالها في بناء عالم أفضل كما أمرهم خالقهم، وهناك قوانين ستكون خارج نطاق الإمكان البشري، وسيكون من غير المجدي بذل الجهود في قهر أسوارها اللامرئية.. فالاستثمار في القوانين الأخرى داخل النطاق الممكن أكثر جدوى ومردوداً..

كنا نتحدث عن الإيمان بالملائكة.. ركن الإيمان الثاني حسب الترتيب القرآني وترتيب الحديث الشريف المعروف..

وقلنا: إن مجرد التصديق بوجودهم لا ينسجم مع هذا الترتيب المهم الذي يلي الإيمان به عز وجل، ويسبق الإيمان بالكتب والرسل..

لكنه ينسجم أكثر مع الإيمان بكونهم أدوات تنفيذية لمشيته عز وجل.. أدوات قد تقترب وظيفياً مما نسميه حالياً «القوانين» التي خلقها عز وجل..

لكن قلنا: إن الإيمان ليس مجرد معرفة وتصديق، **بل لا بد أن يرتبط بدافع شخصي.. لا بد أن يكون لهذه المعرفة «جانب يمسّك بشكل شخصي»..**

فهل هناك جانب شخصي في أمر الملائكة؟ هل يمكن أن يكون هناك ما يربط

بينك - أنت الإنسان الذي طالما أوهموك بضعفك - وبين الملائكة؟

◆◆◆

في الحقيقة السؤال يجب أن يكون معكوساً تماماً.. **فكيف يمكن ألا يكون هناك ربط شخصي بينك بوصفك إنساناً وبين الملائكة، وقد تُوِّجتَ لحظة خلقك بسجودهم للإنسان الأول؟..**

سجود الملائكة للإنسان - بأمره عز وجل - كان لتكريمه حتماً، ولوضعه في موضعه الذي أراده له خالقه أن يكون..

لكن أيضاً كان هذا السجود لتوضيح طبيعة العلاقة التي ستكون بين نوعين مختلفين من المخلوقات.. سجود الملائكة لآدم كان ولا يزال يعني كون هذه الأدوات التنفيذية المرتبطة بالقوانين مُسخَّرة لهذا الإنسان.. وأنه قادر دوماً على استخدامها بناء على ذلك..

◆◆◆

لكن ما هو سائد في علاقاتنا بالملائكة لا يكاد يكون له ارتباط بسجودهم للإنسان الأول!..

أول ما يأتي إلى أذهاننا ملائكة اليمين والشمال الذين يقومون بتسجيل أعمالنا الصالحة والطالحة.. وهذا مهم حتماً، ولا شيء يمنع من وجود قانون للذاكرة الكونية يحفظ أعمالنا وخطواتنا وآثارنا (**دخولنا على الشبكة العالمية والمواقع التي نزورها يبقى محفوظاً ومؤرشفاً لفترات طويلة، فهل نستكثر وجود قانون إلهي يحفظ كل ما نفعله؟)..**

لكن علاقتنا بالملائكة **يجب** أن تكون أقوى وأعمق من مجرد ذلك..

ذلك أن فهمنا «للأدوات التنفيذية» وطرق عملها يساهم على نحو مباشر في تحسين وتطوير أدائنا نحن.. في المهمة التي خُلقنا من أجلها.. فهمنا للقوانين، **وكونها مخلوقة مثلنا، والإيمان بأن الملائكة (كأدوات تنفيذية تقترب من هذه القوانين) قد أسجدها الله لنا يوم خلقنا سيساعدنا حتماً في أن ننفذ مهامنا.. في أن نكون أفضل.. ونعمل على نحو أفضل..**

فهمنا للقوانين سيمدنا بالقوة، ويزيدنا منعة وحصانة ودقة في تنفيذ ما أوكله الله لنا من مهام..

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤ - ١٢٥].

لقد جمع المؤمنون في بدر هنا كل أسباب النصر من مادية (التي تمكنوا منها بأقصى استطاعتهم) وغير مادية، وكان إيمانهم متكاملاً منسجماً مع كل ما سبق، لذا كان من الطبيعي أن يأتي المدد الإلهي من الملائكة كاستحقاق مترتب على إيمانهم العملي.. **واتخذ المدد شكل الملائكة الذين لا أحد يعرف لهم شكلاً مرئياً محدداً.. كما لو أن «القوانين» الكونية كلّها قد حاربت مع الفئة المؤمنة - لتعوضها عن قلة عددها وعدتها - ولتحقق النصر الأول الذي قلب المعادلات التقليدية.**

هل كان المدد في **قوانين نفسية زادت من حماسة المؤمنين؟ في قوة عضلية إضافية جعلت من ضرباتهم أشد؟ في هورمون انتشر في عروقهم وجعلهم أكثر قوة؟**

أم هل كان في الظهير السلبي لذلك، عبر إضعاف الروح المعنوية للمشركين.. أو شعورهم بالضعف واللاجدوى؟

أم كان عبر قوانين أخرى فيزيائية أو فيزيولوجية أو نفسية لم تكتشف بعد.. أو حتى لم يكتشف تصنيفها بعد؟

ربما.. المهم أنه كان هناك مدد حقيقي من الملائكة، يتخذ أشكالاً لا نعرفها، لكن ذلك لا يجعلها أوهاماً أو مجازاً.. بل هو «مدد» حقيقي حقاً..

وكان هناك مؤمنون يستحقونه..

يستحقونه لأنهم أدَّوا المستحقات..!

مستحقات الأسباب المادية التي عملوا على جمعها..

ومستحقات الإيمان التي لم تفارقهم للحظة.. والتي كانت الأسباب المادية من ضمنها..

هذا **المدد** وإن جاء في القرآن في سياق الحديث عن مؤمني بدر، إلا أنه **لا يقتصر عليهم**.. فالقصص القرآني ليس مجرد قصص عن حكايات تاريخية لا يمكن أن

تتكرر، بل إنه يشير دوماً إلى الخطوات التي يمكن أن نقتفيها لنحصل أيضاً على «مدد» ما..

لا أتحدث هنا عن «المدد» بالطريقة الصوفية السلبية.. ولا عن المدد في معركة بالسيوف -علينا أن نقر أن تكرارها الحرفي أمر غير وارد - **بل أتحدث عن المدد الإلهي عبر الملائكة - مختلفي الأشكال، بقوانين هي أيضاً مسخرة من الله - الذي ينزل على مستحقي هذا المدد.. أي على مؤمن حقيقي جهز كل ما يمكن، وأعدَّ أقصى ما يمكن من الأسباب الممكنة.. لم يضع في باله لحظة الإعداد فكرة المدد الإلهي، ولم يعول عليها.. ومن ثم جاءه المدد عبر قوانين لا يعرفها، ولم يدرك كنهها، لكنه يدرك أنها تأتمر بأمره عز وجل، ولا تعصي له أمراً..**

الإيمان بالملائكة يمتلك هذا البعد الشخصي الحميم، من يوم سجدت لأبينا وهي مُسَخَّرة لتسيير شؤون الأرض ونحن الخلفاء فيها، خلال ذلك التسيير يكون مددها كامناً وممكناً لمن يستحقه..

الدافع الشخصي مع الملائكة يتجاوز إذن كونهم «حفظة» لأعمالنا.. بل هو ينصبُّ على **كونهم أدوات تنفيذية لأوامره عز وجل**.. ولكي نتمكن نحن من تنفيذ مهامنا يجب علينا أن نفهم كيفية عمل هذه الأدوات.. كيفية عمل هذه القوانين التي خلقها الله لتسيير هذا الكون..

وهناك عند العمل بهذه القوانين سنكون مستحقين لمدد إضافي من قوانين لا نعرفها، وقد لا تدخل في نطاق إمكاناتنا الإدراكية.. لكنها ستكون هناك.. تقدم لنا العون.. كما لو كانت مكافأة على تواصلنا مع «القانون» بشكل عام.. على فهمنا له.. وتمكننا من سبر أغواره وتسخيره لنا..

◆◆◆

لا يمكن أيضا أن ننسى أن إيماننا بالملائكة يتضمن أيضاً تذكراً لما قالوه يوماً ما، عندما قال لهم الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، لقد كان جوابهم يتضمن تحدياً لنا.. التحدي هو: هل سنفسد في الأرض التي استُخلفنا فيها؟ هل سنسفك الدماء الحرام فيها؟ أم أننا سنكون ضمن ما قاله لهم عز وجل من أنه يعلم ما لا يعلمون؟

أن تؤمن بالملائكة يعني أن تؤمن بوجود ذلك التحدي الذي عليك أن تثبت من

خلاله أن ظن الملائكة فيك لم يكن في محله.. وأنك أفضل بكثير مما توقعوا.. وأنك تستحق ما قلدك الله تعالى إياه..

التحدي مستمر.. ولو قلّبنا نشرات الأنباء لوجدنا الإفساد وسفك الدماء..

وهذا يجعل المسؤولية عليك أكبر..

الإيمان بهذه المخلوقات - الملائكة - سيبقى الثاني ترتيباً بعد الإيمان به عز وجل..

والإيمان بها هو **إيمان بالقانون والسنن بمختلف أشكالها وتجلياتها**.. بالذات في جزء تنفيذي من هذه القوانين، وهو جزء لا يمكن الوصول إلى فهمه دون الوصول إلى الجانب النظري من هذه القوانين..

فهمنا لهذه القوانين سيكون دوماً **امتداداً لتلك اللحظة الخارقة** التي سجدت فيها الملائكة لأبينا آدم..

ونحن دوماً مطالبون بذلك..

أليس أمراً شخصياً جداً أن تطالب بإرث أبيك ومستحقاته؟

أليس أمراً شخصياً جداً أن تثبت أنك ابنه؟ وأنك من صلبه؟

أليس سجود الملائكة لك أكبر دليل على ذلك؟

على أنك ابن أبيك؟

الإيمان بالكتب: لا بد من كتيب الاستعمال!

ركن الإيمان الثالث هو الإيمان بكتبه عز وجل..

ومجرد التصديق بوجود «كتب» منه عز وجل يدخلنا في نطاق مختلف، ويقلل من بعض أنواع المصدقين الذين لا يسمن تصديقهم ولا يغني من جوع..

بعبارة أخرى: **بعض أنواع المصدقين الحداثيين وأشباههم قد يصدق بوجود الله وبكونه الخالق.. كما قد يصدق غيرهم بوجود مخلوقات لا نراها هي الملائكة..**

لكن أمر «الكتب» سيكون دوماً مختلفاً عند هؤلاء..

لا أتحدث هنا عن الإيمان الذي هو درجة أعمق وأعلى من التصديق.. أتحدث عن مجرد «التصديق»..

مجرد «التصديق» بكون هذه الكتب - بلفظها وأحرفها - قد جاءت منه عز وجل سيجعل هؤلاء في زاوية لا يودون الدخول إليها.. لذا فهم حريصون على تجنب ذلك، ربما بقدر حرص بعضهم على تجنب تكذيب ذلك علناً أو صراحة.

لكن الإيمان بأركانه المختلفة كتلة واحدة غير قابلة للتجزئة أو التقسيط.. ومجرد الإخلال بركن واحد سيودي بالإيمان كله.. لا يمكن حقيقة أن تقف لتقول للآية الكريمة أو للحديث الشريف التي تعدد أركان الإيمان: عفواً، سآخذ الركن الأول والثاني والرابع فقط.. لا أحتاج الركن الثالث.. أو الثاني..

الإيمان **كلٌ متكامل لا يمكن تجزئته حسب الطلب**.. ولا يمكن انتقاء ما يناسبنا منه، وترك ما لا يناسب أذواقنا.

لكن هناك نوعا من التصديق لا يرقى ليكون إيماناً، حتى لو كان تصديقاً حقيقياً..

هذا التصديق سائد عند كثير من أنواع المتثاقفين، وهو مغلف بعبارات براقة المظهر مسمومة المضمون.. فمِنْ بين حديث منمق عن «تاريخية النص»[٦٥].. إلى كلمة حق عن مقاصد النص يراد بها باطل هو تعطيل النص[٦٦]، أو تعويمه عبر إغراقه في عموميات.. إلى حديث عام عن "كون الزمن قد تغير"..

لكن هذا كلّه مجرد **تصديق** بوجود كتب منه عز وجل.. بالضبط كما تصدق بنشرة أخبار عن حالة الطقس في أستراليا مثلاً.. **ليس إيماناً.. فقط تصديق..**

كذلك الحديث عن كتبه عز وجل.. لا يمكن أن يكون الأمر مجرد تصديق بحكاية تاريخية لم يعد لها مكان من الإعراب في حياتنا اليومية.. أو صارت مجرد خبر لكان..

الإيمان بكتبه عز وجل أمر آخر غير التصديق المجرد الذي يعتبر أن الموضوع قد انتهى بانتهاء المرحلة التاريخية التي تنزلت فيها هذه الكتب..

بل هو إيمان بأن **هذه الكتب - طالما سلمت من يد التحريف - تبقى حية وفاعلة ومتجاوزة لأطر الزمان والمكان.. تبقى قادرة على أن تقدِّم الحل والإرشاد**

٦٥ تاريخية النص: مفهوم انتشر مع محمد أركون ونصر حامد أبو زيد، وهو معاملة القرآن باعتباره منتجاً تاريخياً، أي نتج ضمن ظروف تاريخية محددة، مع تجنب الألفاظ التي توحي بأن الرسول قام بتأليف الكتاب، لكن مفهوم الوحي لا يتعلق عندهم بشيء نازل من السماء بقدر ما هو متعلق بمنتج «ثقافي».

٦٦ تستخدم عبارة المقاصد القرآنية لتمرير كل ما يخالف نصوص القرآن من قبل البعض، كما لو أن مقاصد القرآن منفصلة عن آياته ونصوصه!.. كما لو أن الله عز وجل يقصد شيئاً غير الذي يقوله.. من الأمثلة على هذا الفهم: جمال البنا.

والدواء والهداية..

⬥⬥⬥

الإيمان بالكتب يمثل امتداداً طبيعياً وحتمياً للركنين السابقين..الإيمان بالله وملائكته..

كيف؟

الإيمان بالله عز وجل تضمن الإيمان به بصفته الخالق الذي خلقك ونصبك لتكون خليفته في الأرض..

والإيمان بالملائكة تضمن الإيمان بالأدوات التنفيذية التي وضعها عز وجل، وعلاقتها بالقوانين والأسباب.. وهو أمر يجعلنا على تواصل مع الأدوات ومع القوانين التي تأتمر بأمره عز وجل.. وهو التواصل الذي يجعلنا «ننفذ» مهمتنا على نحو أكمل..

الإيمان بالكتاب يكون بمثابة تتمة لا بد منها..

لا يمكنك أن تفعل ذلك، أي أن تقوم بمهمتك دون أن يكون هناك «تعليمات» واضحة.. تفصيلية أحياناً وعامة أحياناً أخرى منه عز وجل الذي كلفك أصلاً بالمهمة..

لا يمكن - عقلاً - أن تُكلَّف بمهمة مثل هذه، وأن تكون المخلوق الأهم بين كل المخلوقات دون أن يكون هناك **«كتيب إرشادات» يمنحك ما تحتاج من قواعد عامة.. ومن تعليمات يمكنك أن تتخذها في كل خطوة.. ومن تعليمات خاصة للحالات الطارئة.**

هل يمكن أن يكون قد تركك هكذا.. دون «كتاب» على الأقل؟ كتاب يحمل لك رسالته (ورسالتك!).. كتاب **يوضح لك هدفك، ويحدد لك خطوطاً عامة في رحلتك في الحياة.**

هل يمكن أن يكون قد وضعك على قمة مخلوقاته، وفي هذه المهمة التي تستغرق حياتك بأسرها، دون أن يقدم لك ما يقول لك: إن هناك مهمة ما قد أوكلت إليك..

كل من ينكر كتبه عز وجل.. أو ينكر استمرارية فاعليتها.. **يضع نفسه في هذا الموضع، موضع التناقض مع ركن الإيمان الأول.. الإيمان به عز وجل خالقاً لنا، وواضعاً لنا على قمة مخلوقاته..**

وهذا سيؤكد ما قلتُه سابقاً عن كون الإيمان كتلة واحدة غير قابلة للتجزئة أو التقسيط..

العقل المستقل عن المرجعية مجرد وهم

لكن هناك بعض المتحذلقين سيقدم جواباً آخر يسوغ فيه تخلِّيه عن كتبه عز وجل، مدعياً أن ذلك لا يتناقض مع الإيمان بالخالق..

كيف؟

سيقول هؤلاء: إنه عز وجل قد خلق لنا العقل ليقوم بمهمة الهداية والإرشاد.. وإن هذا العقل يغني عن أي كتاب سماوي؛ لأن صلاحيته لا تنتهي، بينما قد يحدث ذلك مع الكتب السماوية.. (أو هكذا يزعمون)..

وهذا الطرح يمارس نوعاً من التزييف الذي قد ينطلي على البعض.. **فالعقل هنا يمرر كما لو كان بديلاً عن الهداية الإلهية المباشرة عبر الكتب السماوية..** والمقارنة لا تجوز أصلاً، بالضبط كما لا يجوز **أن تساوي بين الكتب السماوية وحاسة السمع والبصر والشم..**

كما أن هذه الحواس **مهمة للإدراك ولتجميع المعطيات**، فإنها تبقى **أدوات لا تتمكن من الحكم على الأشياء بمعزل عن «منظومة» أو مرجعية فوق هذه الحواس..** منظومة تستخدم المعطيات التي تقدمها هذه الحواس، وتحكم عليها..

العقل بدرجة أو بأخرى يشبه هذه الحواس، ولكن بإمكانيات أكبر وقدرات تحليلية أكبر.. الحواس غالباً تكون منصبَّة على «بُعدٍ واحد».. على اتجاه واحد هو محور هذه الحواس وميدان فاعليتها الأساسي..

أما العقل فميدانه أوسع، يضم الحواس، ويضم معها عناصر أخرى من الواقع المحيط، يمتلك قدرات التحليل والتجريد والاستنتاج.. لكن ذلك لا يجعله مستقلاً قط.. إنه يحتاج دوماً إلى منظومة قيمية أعلى من تلك القدرات.. منظومة تحدد «ما هو صواب» و«ما هو خطأ»، بحيث يمكن للمعطيات التي استخرجها العقل أن تقوم بدورها بقيادة هذه المنظومة..

وهكذا **فالعقل نفسه هو مجرد آلة، لن يتمكن من «الحكم» على شيء بمعزل عن هذه المنظومة..** قد تكون هذه المنظومة مجموعة أعراف اجتماعية لحضارة

أو مجتمع ما.. قد تكون منظومة وضعية برجماتية تحدد الصواب والخطأ من خلال مقياس النفع المصلحي الآني..

وقد تكون منظومة كتابية تقدم الخطأ والصواب من الخالق الذي خلق الإنسان، والذي هو دوماً أدرى بما يجب وما لا يجب (طالما حفظت هذه المنظومة من يد التحريف)..

العقل أداة، أداة مهمة ومتطورة، وقد وضعها الله بوصفها الأداة الأهم بلا منازع من بين كل ما وضع من أدوات..

لكن هذه الأداة لا يمكن أن تستقل عن منظومة فوقية، صادرة من الذي صنع العقل..

لذا، فكل ما يقال عن كون العقل كافياً، وكونه قد وُضع من قبله عز وجل لهذا الغرض بالذات، هو ادعاء يهدف غالباً (أو يؤدي على الأقل) **إلى تمرير منظومة قيمية «وضعية» - من وضع البشر - تحت ستار الحديث عن العقل..**

❖❖❖

لكن الإيمان بالكتاب - لكي يكتمل، لكي يكون إيماناً - يحتاج إلى ما هو أكثر من التصديق كما أسلفنا.. يحتاج إلى أن يمتلك دافعاً شخصياً يجعل من ذلك الكتاب قضيتك الشخصية.. قضية حميمة.. قضية تعيش معك لحظة بلحظة في ليلك ونهارك، وصحوك ونومك، ونومك واستيقاظك.. تكون معك في أحلام يقظتك (لكي تحققها لا لكي تتخدر عن واقعك) وتكون معك في كوابيس قلقك وهواجسك كي تزيلها.

الكتاب الذي نتحدث عنه عومل على نحو فوقي.. هناك كثير من الاحترام - لا شك في ذلك - وهناك كثير من مظاهر التقديس والإجلال لهذا الكتاب، أغلبها مظاهر بدعية في أحسن الأحوال، **لكنها لا تؤدي دوراً إيجابياً على الإطلاق في تفعيل دور الكتاب، وفي تحويله إلى «قضية شخصية حميمة» لممارسي هذه المظاهر** (لا غرابة في ذلك.. يجب ألا نتوقع فائدة كثيرة من البدعة في الأساس)..

❖❖❖

من ذلك مثلاً.. تحويل «الكتاب» إلى زينة.. زينة غالية مادياً، وقد تكون جميلة من الناحية الفنية.. لكن مجرد تحويله إلى «زينة» يتضمن حتماً معاني لا مفر من مواجهتها، من ضمنها أنه **صار «ديكوراً».. مجرد قطعة أثاث** تزين مكاناً لن يتغير كثيراً فيما لو قمنا بإزالته منه..

مجرد إكسسوار زائد.. ليس له مكان حقيقي من الإعراب.. (وهو الذي يمكن أن يكون الفعل والفاعل في حياة كل منا)..

تلك النسخ الثمينة المصدَّفة ذات الأغلفة المذهبة التي توضع على الرفوف أو الزوايا في غرف الضيوف هي في حقيقتها بمثابة شواهد ماثلة على ما فعلناه بهذا الكتاب.. **لقد وضعناه على الرف، بينما كان يجب أن يكون في الرؤوس والقلوب والعقول..**

◆◆◆

بدعة أخرى: لقد صرنا نقسم به، صادقين أو كاذبين.. ذلك أمر آخر.. لكننا صرنا نضعه **موضع القسم** عندما نريد أن نؤكد شيئاً ما.. صرنا نجلبه ليكون شاهداً على ما ندعي.. انتبهوا إلى ذلك، لقد جعلناه **شاهداً على التوافه من الأمور أحياناً،** بينما **يجب أن يكون حكماً.. يجب أن يكون هو القاضي والحكم والحاكم.**

حولناه من منصة القضاء إلى منصة الشاهد.. نستغله لصالحنا بدلاً من أن نجعله يصلحنا.. في الوقت ذاته جعلنا بيننا وبينه حواجز مانعة.. تمنع تفاعلنا معه.. (أو تفاعله معنا؟.. لا فرق.. فالتفاعل مشترك.. **وعندما يتوقف التفاعل، فإن طرفاً ما - وليس بالضرورة الطرفان - هو المسؤول عن إيقاف التفاعل..** وفي حالتنا فإننا لا يمكننا اتهام الكتاب بكونه الطرف الذي أوقف التفاعل.. بل نحن واثقون تماماً من مسؤوليتنا عن ذلك..).

◆◆◆

من تعاملنا البدعي معه **أننا اعتبرناه «صيدلية»..** وقررنا أنه عقار لشفاء هذا المرض أو ذاك.. وتعاملنا معه بالضبط كما نتعامل مع حبة الدواء التي نشتريها مصنعة وجاهزة، وما علينا سوى ابتلاعها.. والحقيقة هي أن الكتاب عندما جاء فيه أنه شفاء.. فإن ذلك لم يكن كما لو كان حبة تأخذها ثلاث مرات في اليوم وينتهي الأمر.. بل **كان الشفاء جزءاً من منظومة كاملة يعيشها الفرد والمجتمع بكل يومه،** وليس في - وجبات منفصلة - كما مع حبة الدواء.. كان أقرب لاستنشاق الهواء منه إلى تناول حبات مستقلة..

كما أن قصر معنى الشفاء على الشفاء من الأمراض العضوية يدل على قصور فهم لكل المنظومة القرآنية.. **لأن الأساس هو المرض الاجتماعي الذي جاء القرآن لا لإزالة أعراضه أو تخفيفها.. بل لاجتثاثها من جذورها..** الأمراض العضوية - الصداع والروماتيزم والقلب وضغط الدم... إلخ - كلُّها أمراض خطرة فعلاً.. لكن يمكن للكيمياء أن تجد لها حلولاً وشفاء.. أما أمراض المجتمع – بكل

انعكاساتها على الأفراد - فلا دواء لها، ولا شفاء منها إلا من «الكتاب» و«بالكتاب» وعبر الكتاب.

والذي حدث في تعاملنا البدعي معه هو العكس بالضبط.. ما **كان حصرياً صار مجرد خيار..** صرنا نستورد علاجات أمراض المجتمع وعقاقيرها من «الخارج»، وإن كان هناك توافق جزئي بين علاج الخارج وما جاء في الكتاب، فإننا نصفق ونهلل.. وإن كان هناك تضارب أو تناقض فإننا نغض النظر ونستمر في الاستيراد.

وهكذا فإن تعاملنا معه كما لو كان صيدلية لم يكن في غير موضعه فحسب، بل أدى إلى التشويش على مهمته الأساسية.

◆◆◆

من تعاملنا البدعي أيضاً تعاملنا معه على أنه أداة لجلب الرزق والبركة.. وبأكثر الطرق فجاجة وتناقضاً مع كل ما جاء به.. كما لو أننا ننسى أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن سمساراً في البورصة، أو ثرياً على قائمة فوربس، بل عاش حياة الكفاف، وكانت الأشهر تمر دون أن يدخل بيته غير التمر والماء.. ولو كان يمكن للكتاب أن يكون وسيلة لزيادة «المال» لصار من نزل عليه أغنى من مشى على قدمين.

لكن ماذا نرى في هذا الشأن؟.. نرى محلات تجارية تبيع ملابس فاضحة على سبيل المثال تفتتح يومها بصوت القرآن الكريم ينطلق من المسجل بينما العمال ينظفون المكان، وذلك لكي يزيد «الرزق».. ويكثر الزبائن أو الزبونات.

مثل هذا وأكثر ما يُتداوَل أن تكرار سورة معينة من سور القرآن الكريم - سبع مرات وأحياناً اثنتان وعشرين مرة - سيزيد الرزق.. (أي أن الشخص الذي قد يكون محتاجاً وعاطلاً عن العمل سيقضي بعض وقته في تكرار سورة معينة سبع مرات طلباً لرزق يأتيه بلا سعي.. **بدلاً من أن يطبق ما جاء في هذه السورة، وفي الكتاب كله، ويذهب للعمل..).**

حتى إن بعض الليبراليين الخارجين ليس فقط عن النمط التقليدي من التدين، بل عن كل نمط من أنماط التدين، حتى هؤلاء يمارسون أحياناً طقوساً مماثلة «يترزَّقون» فيها بالكتاب أو بآيات منه.. يضعون آية للبركة في مدخل بيت جديد.. أو مكتب جديد.. أو يدخلون القرآن - بنسخة مذهبة - معهم إلى «عش الزوجية»، وربما كانت مظاهر الرقص واللبس العاري معلنة ومجاهَراً بها قبل ذلك بدقائق.

◆◆◆

ومن بِدعِنا أيضاً في التعامل معه اتخاذه «بوليصة تأمين» ضد الحوادث في الطرق.. وكثيرون يتخذونه كذلك بالفعل.. يضعونه في السيارة في نسخة صغيرة بأحرف لا تقرأ بالعين المجردة، من أجل أن يوفر لهم حماية من حوادث الطرق (أو لسياراتهم من السرقة!).

كذلك الأمر عندما يقصد أحدهم سفراً ما.. فسيكون في حقيبة السفر غالباً «مصحف»... متوسط* الحجم، بأحرف مقروءة هذه المرة، لكن فُرص القراءة قليلة جداً.. لأنه لم يوضع أصلاً لهذا الغرض.. بل وضع «لكي يحفظ المسافر».

وأمام باب صالة العمليات.. نجلس والكتاب بأيدينا، نقرأه هذه المرة بعيون مرتجفة، متعلقة بباب يفتح، وبالخبر الجيد خلفها.. هل هو بوليصة تأمين هذه المرة أم حبة مهدئ للتخفيف من قلقنا بينما ننتظر؟.. أيا كان.. بالتأكيد لم يكن ما أنزل الكتاب من أجله.. من أجل أن يهدئ من روعك أمام باب صالة العمليات.. **ربما يمكن له ذلك فعلاً وحتى في الاستخدام الأمثل.. لكن ذلك يتم من خلال منظومة كاملة تتبناها.. من خلال التزام كل خياراتك بما جاء به.. عندها يكون عاملاً للتهدئة الواعية الثابتة، وليس مجرد حبة مهدئ تأخذها وقت الحاجة الآنية، بينما كل حياتك تسير في اتجاه آخر تماماً.**

◆◆◆

نستخدمه أيضا للمتعة.. يعجبنا صوت هذا القارئ أو ذاك.. فنسمعه كما لو كنا نسمع صوتاً بمعزل عما يقول.. وفي لحظة النهاية، يهتف البعض: «الله.. الله».. أو «آه».. لجمال الصوت وإتقان القفلة، بالضبط كما يفعلون مع قفلات الطرب ونهاياتها السعيدة.

◆◆◆

حتى «الحفظ».. حفظ هذا الكتاب.. اتخذ منحى بعيداً جداً عما كان يجب أن يكون.. فقد عُومل **كما لو كان هدفاً بحد ذاته بمعزل عن العمل به وفهمه وتدبره وتطبيقه وإنزاله حيث يجب أن يكون، في الواقع..**

ليس هناك أي نص قرآني أو نبوي يحض **على «الحفظ» بالمعنى الذي تم لاحقاً استعماله..** كان الحفظ في البداية آلية للحفاظ على النص في ظل عدم تطور آليات الكتابة والطباعة، ومحدودية قابليات النسخ وبطئها بالمقارنة مع سرعة انتشار الدين الجديد وتوسعه.. وكان الحث عليها والتشجيع عليها أمراً حتمياً للحفاظ الحرفي على الكتاب دون أن يؤثر ذلك قط على أهمية التدبر والفهم والوعي، ودون

أن يؤدي قط إلى اختراع نص ينسب فضل معين لهذا النوع من الحفظ.

مع الوقت ظهرت آليات جديدة تتمكن من الحفاظ الحرفي على الكتاب (وهذه الآليات كلها جزء من السنن الإلهية التي تكفل عبرها عز وجل بحفظ كتابه الخاتم من التحريف، وهو الكتاب الوحيد الذي نال هذه الكفالة) ولكن على الرغم من ذلك بقي هناك من يروِّج ويحثُّ على الآلية نفسها، وتآكل في الوقت نفسه التركيز على الفهم والفقه والتدبر الذي كان سائداً في الفترة الأولى.. بل إن لغة القرآن نفسها - التي كانت أقرب إلى التحصيل الحاصل واللغة المحكية شعبياً في صدر الإسلام - لم تعد مفهومة بالدرجة نفسها بعد انتشار الإسلام في أصقاع بعيدة وسيادة لهجات أخرى.. **وهذا جعل كثيراً من الحفظة «الجدد» في مناطق لا تعرف العربية لا يفقهون حرفاً واحداً مما يحفظون.. ولكنهم يحفظونه على الرغم من ذلك!.**

ليس من حق أحد الحكم الأخروي على جهد هؤلاء (وقد فعلوا ما فعلوه رغبة في الأجر والنجاة من النار على الرغم من عدم وجود نص معين يؤيد هذا النوع من الحفظ).. **لكن من المهم أيضاً أن نتنبه هنا وأن ننبه أيضاً إلى أن هذا النوع من الحفظ «الصم» المعزول عن الفهم والفقه لا علاقة له بما أراده الله عز وجل من تعاملنا مع «الكتاب».**

لا نقلل هنا من أهمية الحفظ بالمطلق، لكن نشير إلى أن ما جعله مثمراً في صدر الإسلام لم يعد كذلك اليوم في عهد الطباعة والنسخ.. ومن الضروري إيجاد آليات جديدة تجعل الحفظ مقترناً بالفهم والوعي.. ولا أقصد هنا الفهم المباشر - أي الكلمة ومعناها كما في الكتب المدرسية - **بل الفهم الواعي الذيَ يُمكِّن الشخص الحافظ من الرجوع إلى حافظته لاستخدامها في كل خطوة في حياته..** أي أن يكون «حفظه» مرتبطاً ومفهرساً بالواقع من حوله.. كل ما يدور حوله يجد صدى ورداً وجواباً في هذا الحفظ.. وهنا فقط يكف هذا الحفظ عن أن يكون «أصم».. ويكون حفظاً واعياً يستخدم كل الحواس الممكنة ليصبح فاعلاً متفاعلاً كما أراد له منزله أن يكون..

◆◆◆

كل الأشكال السابقة في تعاملنا مع الكتاب - سواء استخدامه صيدلية أو بوليصة أو وسيلة لجلب الرزق - كلُّها تشترك في شيء واحد، هو أنها لا تعتمد على معاني الكتاب على الإطلاق.. **بل تعد أحرفه وكلماته «فاعلة» بمعزل عن معانيها أو فهم المستخدم لهذه المعاني..** بعبارة أخرى **إنها تعد آيات الكتاب بمثابة**

«حرز» أو «تميمة» لجلب خير أو طرد شر.. وكلماته بمثابة طلاسم لا يوجد فرق كبير في معناها.

وهذا الاستخدام التمائمي هو بالضبط العكس مما أُراد له مُنزل الكتاب.. لقد جاء الكتاب **لينسف كل الأشكال اللاعقلانية التي سادت وشابت الأديان السماوية السائدة،** فضلاً عن المعتقدات الوثنية.. **جاء لكي يعلمك (عبر الكتاب) كيف تستخدم الأدوات الموجودة حولك لكي تكون كما أراد لك أن تكون.. أن تكون ما خلقك لكي تكونه.**

وهذا **الاستخدام التمائمي** يتعارض تماماً مع السنن والقوانين التي أودعها الله في كونه.. والتي منحنا العقل لكي نسبر أغوارها، ونتمكن من تسخيرها لتكون في خدمة ما خُلقنا من أجله..

بعبارة أخرى، هذا الاستخدام التمائمي للكتاب يتعارض مع كل ما أُنزل من أجله.. ولا يمكن أن يحتوي على دافع شخصي في التفاعل معه..

ولهذا فإن كلمة إيمان لا تنطبق على استخدام كهذا.

❖❖❖

كان هذا عن الاستخدام السائد الخاطئ الذي وضع الكتاب في غير موضعه..

لكن ماذا عن الاستخدام الصحيح.. الذي يضعه حيث يجب أن يكون؟ ماذا عن الإيمان به الذي يحتوي على الدافع الشخصي؟

هل يمكن أن يكون هناك دافع شخصي في علاقتنا به؟

في الحقيقة هل يمكن إلا أن يكون كذلك؟

لقد تنزل أصلاً من أجل ذلك.. من أجل أن يكون لديك «دافع شخصي».

❖❖❖

تخيل أن لديك امتحانا مصيريا اليوم.. أسئلته كلُّها مأخوذة من كتاب مُعَدٍّ سلفاً ليجعلك تنجح في الامتحان.. والامتحان على نمط «الكتاب المفتوح».. أي يحق لك أن تدخل الكتاب معك إلى قائمة الامتحان.. وتفتح صفحاته أثناء الامتحان.. وتترك أجوبتك بناء على ما نقلته منه دون أن يُعدَّ ذلك غشاً أو يحرمك من علامة ما.

هل يعقل بعد هذا أن تذهب إلى قاعة الامتحان دون الكتاب المعني بالأمر؟

هل يعقل أن تدخل وتترك الكتاب خارج القاعة؟

هل يعقل أن تبدأ بحل الأسئلة دون أن تفتح الكتاب؟

ألن يكون دافعك الشخصي في ذلك فطرياً، منطقياً، لا يحتاج إلى تسويغ.. أو توضيح؟

حياتك قاعة امتحان.. امتحان من نوع الكتاب المفتوح

حياتنا هي امتحان كبير متواصل..

ما في ذلك من شك.

كل خطوة - مهما تصورناها صغيرة - هي جزء من ذلك الامتحان المتواصل..

كثيرون يدركون ذلك.. بأبعاد مختلفة.. حتى غير المتدينين يدركون أن كل خطوة في الحياة تحتوي على تحدٍّ يجب الاستجابة له سلباً أو إيجاباً..

لكن جلَّهم يجهلون أن هذا الامتحان ينتمي إلى فئة «الكتاب المفتوح»[٦٧]..

بعضهم لا يعرف عن أي كتاب أتحدث.. بعضهم يعرف لكنه يفضِّل أن يتركه على الرف كزينة تجمل المكان.. أو تميمة ضد الحوادث في السيارة.. أو أي شيء آخر.. لكنه لم يفكر فيه بوصفه كتاباً يُستخدم في **امتحان الكتاب المفتوح.**

◆◆◆

تخيل أنك تعيش في مدينة مليئة بالحواجز ونقاط التفتيش.. في كل خطوة يستوقفك حاجز، ويطلب أوراقك الثبوتية.. وقد تغيب وراء الشمس إن لم تحملها معك.

هل يعقل أن تفكر بالخروج من دونها؟

هل يمكن إلا أن تتفقد أوراقك طوال الوقت، مع كل خطوة، خشية أن يقابلك حاجزٍ ما.. ويكتشف أنك «غير موجود».. بل تكتشف أنت أنك غير موجود.. فوجودك كلّه متمحور حول هذه الأوراق.. في نظام كهذا.. لست سوى مجموعة أوراق إن ضاعت منك.. ضعت بكلِّيَّتك.. ضاع منك كل ما يُثبت وجودك حقاً.. إنك - لحظة تنفصل عن هذه الأوراق - تكفُّ عن الوجود.

علاقتك بأوراقك الثبوتية هذه ستكون أكثر من مجرد حيازة.. لن يكون الأمر مجرد

٦٧ امتحان الكتاب المفتوح Open book exam نوع من الاختبارات التي يُسمح فيها بفتح الكتاب أثناء الاختبار، غالباً لأن الأسئلة لا تتخذ حرفية الكتاب بقدر فهمه.

أن تحملها معك.. بل ستحفظ حتى تلك الأرقام الطويلة.. ستعرف كل كلمة فيه.. كل حرف.

كذلك أنت مع هذا الكتاب.. **كل نقطة في حياتك هي نقطة تفتيش**، حتى لو لم تنتبه لها.. كل حجر في الشارع هو حاجز يطالبك بأوراقك الثبوتية.. **بل كل موقف في حياتك هو حاجز يطالبك بأن تثبت نفسك أو لا تثبتها.. أن تكون أو ألا تكون.**

لكن حواجز الحياة ونقاط تفتيشها الحقيقية لا تطلب منك هويتك أو جواز سفرك أو شهادة ميلادك.. فهذه الوثائق لا تثبت غير أنك موجود «بيولوجياً» فحسب.. وهذا الوجود لا فضل لك فيه.. لم تبذل جهداً حقيقياً فيه أكثر مما تبذله القطة أو الكلب أو الضفدع.

الحياة تطلب منك ثبوتيات أخرى.. «ثبوتيات» تتعلق بوجودك الحقيقي الذي تبذل فيه جهداً، والذي يكون من إبداعك ومن صنعك وعرقك.. (لا من عَرَق أمك في مخاضها).

الحياة تطلب منك أن تثبت أنك موجود حقاً كما يجب أن تكون.. كما أراد لك خالقك.. موجود بالمعايير التي حددها لك، وفصَّلها لتكون لك وحدك.. وليس للمعايير التي تشترك فيها مع كل المخلوقات.. معايير الوجود حسبما أراد لك من أوجدك.. وليس حسب هواك، أو ما تعتقد أنه عقلك، وهو مجرد ما أوهمتك به منظومات ثقافية محيطة بك.

هذا الكتاب هو **أوراقك الثبوتية الحقيقية التي لا تطالها مدة انتهاء أو نفاد للصلاحية.. هو شهادة ميلادك الحقيقية.. هو الوثيقة التي تثبت إنسانيتك حقاً، وليس «صلة قربى» بعيدة أو تشابه بالأسماء مع الإنسان.**

تستطيع أن تعلق على الجدران شهاداتك العليا بفخر.. **لكن هذه الشهادات لن تكون فاعلة كما يجب، ومؤثرة كما يجب إن لم يكن هذا الكتاب شهادة معلقة في ذهنك وضميرك ووجدانك**.. هو الشهادة التي تمرر كل الشهادات الأخرى.. وتثبت صلاحيتها من عدمها.

هذا **الكتاب هو صورة قيدك الوحيد الذي يستحق أن تقيد نفسك به.. كل القيود الأخرى قيود تجردك من إنسانيتك ومما خلقت لأجله.. بعضها يكون اسمه «الحرية»، لكنه يلتف حول رقبتك على نحو أشد مما تفعله السلاسل الحديدية.. لكن صورة هذا القيد تُحررك من كل القيود الأخرى.. تُحررك من كل ما يستنزف جهدك وطاقتك.. وتضعك حيث يجب أن تكون.**

هذا الكتاب هو جهاز الملاحة الخاص بك[68]، **لا يمكنك أن تتخلى عنه وأنت في طرق ملتفة متشابكة متداخلة.. إن تخليت عنه أو عن شاشته تراكم ضياعك شارعاً بعد آخر..** الطرق تتغير معالمها كل يوم، وقدراتك على الانتباه لذلك محدودة.. ستضيع حتى دون أن تعرف أنك ضعت.. وسيكون هذا هو الضياع الأخطر.. لأنك لن تستطيع استدراك الطريق.

هذا الكتاب هو شجرة نسبك الحقيقية.. ليس الانتساب الحقيقي هو انتسابك لجد لم تره، ولجينات وراثية لم تتدخل في اختيارها.. **انتسابك الحقيقي هو ما تبذله من جهد لتنتسب حقاً للسلالة الأفضل.. هو ما تبذله حقاً لكي تثبت أنك من صلب من سَجَدَتْ له الملائكة.. وأنك من صلب من وجَدَ الله بعقله، وحطم أوثان الآفلين.. وأنك تنتمي إلى تلك السلالة الإنسانية التي لا تختص بعرق أو لون أو موقع جغرافي.. بل هي أمة مفتوحة الحدود، مشرعة الأبواب لكل من يرغب حقاً في الانتماء، ويقدم فكره وحياته ثمناً لتلك العضوية.**

هناك سيكون **الكتاب شجرة نسب حقيقية تصلك بتلك الشجرة التي تمت عندها البيعة للرسول الكريم.. ستشعر بيدك تمتد - عبر الزمان والمكان - لتكون مع يديه، ومع أيدي الملايين الذين انتموا للشجرة نفسها.**

هذا الكتاب هو جواز سفرك الحقيقي.. ربما لن يسهل حصولك على هذه التأشيرة أو تلك.. كما أنك لن تحصل بموجبه على معاملة خاصة استثنائية عند أبواب المطارات تجعل دخولك بلا تأشيرة مسبقة.. لن يُسَهِّل هذا الجواز ذهابك إلى هذا المنتجع الصيفي أو ذلك المشتى الفاخر.. لكنه سيأخذك إلى ما هو أهم من كل ذلك.. **سيجعلك تسافر إلى ذاتك الحقيقية.. سيرحل بك إلى قعر ذاتك لتنقب عما فيها من أحجار كريمة تعيد بها بناء العالم..** ومعادن ثمينة تسلح بها هيكلك وعمودك الفقري-النفسي.. وموارد طبيعية تمنحك الطاقة على العمل والبذل والبناء.

هذا الكتاب ليس جواز سفر عادي فحسب.. **بل هو جواز "هجرة".. ليس هجرة إلى ذلك العالم "المتقدم" الذي يهرب إليه أبناء جلدتنا بحثاً عن حلم الخلاص.. بل تلك الهجرة الأخرى التي وُلدنا فيها أُمةً..** هجرته عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة.. وهذا الكتاب يمنحك جواز المرور إلى تلك الهجرة.. يجعلك تلحق به عليه الصلاة والسلام وبكل المهاجرين معه.. لقد فتح الكتاب ذلك **عندما وضع شرطاً واحداً للحاق بهم "من اتبعهم بإحسان".**

◆◆◆

[68] GPS, Navigator

لكن هل يعني هذا أن تحمله - ككتاب ورقي - معك أينما ذهبت؟

لا، هذا سيجعله «تميمة» أخرى.. سيجعل تعاملنا معه بالضبط معاكساً لما يجب أن يكون.. لكن الأمر هو **أن يوشم عقلنا بآياته..** تلافيف أدمغتنا يجب أن توشم به حرفاً حرفاً وآية آية.. كل جزئية من كياننا يجب أن تغمس به.. في كل منعطف من حياتنا، كل خطوة، يجب أن نستحضر الكتاب وآياته.. عندما يبدو النصر بعيداً، سيقول لك ليرفع من روحك المعنوية: **﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾**.. لكنه لن يُخدِّرك بأوهام النصر القادم، بل سيقول لك أيضاً: **﴿وأعدوا﴾**.. سيجعلك منصفاً حتى مع أعدائك **﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا﴾**.. سيضبطك متلبساً وأنت تناقض أقوالك بأفعالك **﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾** وسيضعك في سياق اقتران القول والفعل.

في كل موقف، كل حركة، يمكن أن نجد مرجعاً في هذا الكتاب يدلنا على ما يجب أن نفعله.. على الاتجاه الذي يجب أن نتجه نحوه..

دون هذا الكتاب سيكون كل شيء محض تجربة وخطأ..

وأهم من هذا أنه حتى معيار الخطأ قد يكون خاطئا!

◆◆◆

هذا النوع من العلاقة **مع «الكتاب» هو الذي ينتج الدافع الشخصي..** عندما تؤمن بأن هذا الكتاب **هو كل ما سبق..** وأن فيه إمكانية كامنة لأن يقدم لك كل هذا.. فإن الدافع الشخصي في علاقتك به سيكون تحصيل حاصل.

ومع الدافع الشخصي.. سيصبح الإيمان إيماناً حقاً..

لن يعود مجرد تصديق..

بل سيكون حالة فاعلة متفاعلة.

الإيمان بالرسل:

عن أشخاص يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق

الركن الرابع من أركان الإيمان هو الإيمان بالرسل..

ومرة أخرى، الأمر لا علاقة له بالتصديق المجرد، بمجرد أنهم «أُرسلوا»، أو أنهم حملوا لنا رسالة منه عز وجل (كما قد يتصور كثيرون)..

فمجرد التصديق بوجودهم التاريخي - دون أن يترتب على ذلك شيء معين يخصك - لا معنى له ضمن تعريف الإيمان.. لأنك قد صدقت ضمناً بذلك في الركن الثالث المتعلق بالإيمان بالكتب.. مجرد إيمانك بالكتب سيتضمن تصديقاً بوجود من حمل هذه الكتب والرسالات للبشرية..

إذن لا بد أن يتعلق الإيمان بالرسل بأمر آخر غير الكتب التي أنزلت معهم..

ربما يتعلق بسيرتهم ووصاياهم التي لم تكن ضمن الكتاب.. والتي يجب أن نؤمن بها ما دامت موثوقة المصدر ثابتة الانتساب لهم..

ربما يتعلق بالاقتداء بهم وباتباعهم..

وربما يتعلق أيضاً بشيء آخر..

أكثر شخصية وحميمية..

◆◆◆

من بين كل أركان الإيمان.. يمتلك الإيمان بالرسل رابطة أكثر عمقاً وارتباطاً بنا بوصفنا أشخاصاً.. أو بشراً..

كيف؟

لأن الرسل ببساطة **كانوا بشراً أيضاً.. وهي حقيقة قد ننساها في خضم الإطراء والغلو والتقديس الذي تعودنا توجيهه إليهم..**

وهو الغلو والإطراء الذي يَسلب منهم أهم ما فيهم، يَسلب منهم كونهم بشراً.. بل يسلب منا أهم ما يمكن أن نتعلمه منهم ومن سِيَرِهم.. **لقد كانوا بشراً.. وهذا يجعلنا أقارب!.. ننتمي للسلالة البشرية نفسها، وللنوع الإنساني نفسه.. نحمل مكوناتهم الوراثية نفسها، وأعضاءهم نفسها، والهيئة البشرية نفسها إلى حد بعيد.**

لم يأتوا من كوكب آخر.. ولم يتم خلقهم خصيصاً ليكونوا رسلاً.. بل خُلقوا مثلنا جميعاً من طين.. أبوهم آدم، وأمهم زوجة.. كل منهم حملته أمه تسعة أشهر، وولد في مخاض عسير مضمخاً بالدم والرهق.. كل منهم كان يأكل الطعام،

ويمشي في الأسواق، وسيدهم وخاتمهم كان يقول عن نفسه: إنه «ابن امرأة تأكل القديد في بطن مكة»، ويخصف نعليه بيديه.. وتمر الأشهر عليه وهو لا يجد ما يأكل غير التمر والماء.

كان يمكن لو أراد عز وجل أن يخلقهم على نحو مختلف أن يفعل.. لو أراد أن يخلقهم لا يجوعون.. لا يتعرقون.. لا يتعبون ولا يكدحون لما صعب عليه ذلك وهو العزيز القدير.

لكنه أرادهم مثلنا.. بشراً مثلنا.. معجونين بالكدح.. مليئين بالإمكانات.. الجهد رفيقهم الذي لا يفارقهم.. يشهقون ويزفرون.. يحزنون ويفرحون.. يأملون ويتأملون.. يحاولون.. ينجحون حيناً ويفشلون أحياناً.

كان يمكن أن يجعلهم «أشخاصاً خارقين» كالشخصيات الخيالية في قصص المغامرات.. لكن حكمته اللامتناهية أبت إلا أن يجعلهم أشخاصاً مثلك ومثلي ومثل ابن الجيران..

هل كان ذلك مصادفة؟

كلا وحاشا.. بل رأت حكمته أن الدرس في ذلك سيكون لا نهائياً ومتجدداً يتجاوز الزمان والمكان.. **ربما كان نشر الدعوة سيكون أفضل لو كان الأنبياء والرسل شخصيات خارقة.. ربما كان الناس سيؤمنون بسهولة أكبر.. لكن ذلك عابر حتماً**.. الدرس الأبقى والأكثر أهمية وتأثيراً وجدوى هو أن تؤمن بأنهم كانوا بشراً مثلك، **وعلى الرغم من ذلك - بل بسبب ذلك -** وصلوا إلى مرتبة النبوة.. **آمنوا بأن التغيير ممكن.. وكانوا النموذج العملي على نجاح ذلك وإمكانيته.**

كانت نقطة انطلاقهم واحدة مثل نقطة انطلاقنا.. **ولدوا بنفس الإمكانيات، أو قريبة من تلك التي نولد بها.. رضعوا حليباً مشابها لذلك الذي يرضعه الملايين، بل مليارات البشر عبر التاريخ، ويسير في عروقهم دم مشابه لذلك الذي يسير في عروقنا جميعاً.**

بسبب ذلك كله.. فإن الإيمان بالرسل يحتوي على ذلك الدافع الشخصي الذي يمكن له أن يقوم بدور ما في حياتك.. أن تؤمن بإنسانيتهم.. بأنهم صنعوا من الطين نفسه الذي صُنِعْتَ أنت منه.. أن تؤمن بأنهم تميزوا وتفوقوا وتأهلوا لمكانتي الرسالة والنبوة انطلاقاً من الأرضية نفسها التي يمكن لك أن تنطلق منها.. صحيح أن نهاية السباق لم تعد واحدة.. **وأن الوصول لما وصلوا إليه**

أمر مستحيل لأن باب النبوة قد أوصد حتماً.. لكن ذلك أمر يمكن أن يكون في صالحنا نحن.. في صالح من يرغب في التسابق على درب التفوق والتميز.. إذ إن نقطة النهاية - النقطة الهدف.. صارت أكثر سهولة وأقرب منالاً ما دامت أقرب لنا من النقطة التي وصلها هؤلاء البشر الذين استحقوا النبوة بعد وصولهم إلى تلك النقطة.

***

ماذا عن المعجزات إذن؟

كيف يمكن أن نقول: إنهم مثلنا وقد أيدهم عز وجل بالمعجزات؟ كانت المعجزات خوارق تفصح أنهم ليسوا بالضبط مثلنا، حتى وإن بدوا في غير أوقاتها أنهم كذلك..

هذا صحيح من ناحية المبدأ، لكنه لم يكن منذ البداية، بمعنى أن المعجزات لم تأتِ منه عز وجل لتمنحهم **«التغيير» الشخصي..** لم تكن المعجزات لإقناعهم أو لجعلهم مؤمنين بالله كما هو هدفها بالنسبة لغير المؤمنين.. **كانت المعجزات استحقاقاً نالوه بعدما أثبتوا أنهم مؤهلون لاستلام دور النبوة أولاً.. وبعدما أثبت الواقع حولهم الحاجة إلى معجزات كهذه.**

لا استثناء من هذا سوى السيد المسيح الذي ابتدأت حياته بمعجزة.. كل المعجزات التي جاءت على أيدي الرسل والأنبياء الآخرين جاءت **إما «إعلاناً» عن نبوتهم.. أو تأكيداً لها في مرحلة لاحقة..** لكن المعجزة لم تأتِ إلا بعدما أثبت هؤلاء استحقاقهم لاستلام الرسالة.. أي بعدما أثبتوا أنهم بشر قد فعلوا «الممكن إلى أقصى حد ممكن».. لا كمال بشريا هناك.. لكن هناك حتماً مكانات ومراتب وسلم ارتقاء وصل فيه الرسل والأنبياء إلى المرتبة الأعلى الممكنة «قبل» أن يكونوا رسلاً وأنبياء..

لاحقاً جاءت المعجزات تأكيداً لهذا وتوثيقاً له.

***

فلنتذكر هنا أن الرسالة النهائية التي ختمت وبشكل قاطع كل الرسالات الإلهية للبشر كانت قد امتلكت نوعاً مختلفاً من المعجزات التي عبّرت عن طبيعة الرسالة الخاتمة ووسائلها.

لم تكن المعجزة الخاتمة تطابق المعجزات السابقة في طابعها الحسي **الذي يخرق المعتاد، ويعجز العقل، ويجعل المتلقي راضخا أمام ما لا يفهمه..**

على العكس من هذا جاءت المعجزة الخاتمة لتجعل المتلقي يفهم.. لتحفز عقله على الفعل والتفاعل والفهم والمشاركة.. بالذات ليكون خضوعه وانقياده وإيمانه تنبع عن قناعة تامة، وليس عن إبهار مؤقت وعابر قد ينتهي بزوال المؤثر.. (أو عندما يأتي جيل لم يشهد المعجزة، بل سمع عنها فقط).

◆◆◆

ماذا عن العصمة إذن؟

ألم تكن العصمة نعمة ربانية أنعم بها عز وجل على من انتقى من خلقه ليكونوا رسلاً وأنبياء؟ هل يمكن أن ننسى ذلك عندما نتحدث عن الإيمان بالرسل، وعن كون الإيمان بهم يعني وجود الدافع الشخصي لنا للتفوق والتميز والبحث عن الحد الأقصى الممكن من الكمال؟

صحيح أن أمر العصمة مهم في هذا السياق، لكن لو فهمناها أنها قد **نزلت خبط عشواء على أشخاص لم يبذلوا جهداً لتحصيلها نكون قد أسأنا للحكمة والعدل الإلهيين اللذين نؤمن على الإطلاق بهما.**

العصمة ليست طفرة جينية غامضة..ليست منحة ربانية يولد بها شخص ما، ويكون معصوماً، وينتهي الأمر..ليست فطرة جبلية لا إرادية تجعل «المعصوم» عاجزاً عن أداء الذنوب.. إنها ليست جهازاً مانعاً للذنوب يضعه الخالق في هذا الإنسان، وينتهي دور الإنسان عنده..العصمة لا تأتي قط قبل النبوة..بل تأتي بعدها، ولم يكن هناك من تصوَّر أن العصمة تحل على الأنبياء والرسل قبل بعثتهم..أما أنهم يكونون قبل ذلك حريصين على تجنب الذنوب فهذا يعود إلى جهدهم..الجهد الذي لم يمنع سيدنا موسى مثلاً من ارتكاب جريمة قتل غير عمد.

◆◆◆

خلاصة القول في الإيمان بالرسل هو أن هذا الركن يذكرنا بحقيقة تكاد تكون منسية.. حقيقة أن البشر يمكنهم حقاً أن يتغيروا ويغيروا.. وأن يكونوا الأفضل، وأن يكونوا كما أراد لهم خالقهم أن يكونوا.

هذا الركن هو **عمودك الفقري بوصفك إنساناً..** لأنه يجعلك تؤمن بنفسك وقدراتك الشخصية التي يمكن أن تساهم في إعادة بناء العالم.. **هذا الركن يذكرك بأن أشخاصاً مثلك.. يجري فيهم دم مثل دمك.. يتعرقون كما تتعرق، ولديهم احتياجاتك الخاصة والعامة ذاتها.. لكن كل ذلك لم يفلح في أن يجعلها أثقالاً**

تشدهم إلى الأرض.. بل ربما صارت حوافز تشجعهم على الانطلاق بقوة أكبر.

إيمانك بالرسل يؤدي إلى إيمانك بنفسك.. إلى إيمانك بإمكاناتك.. إيمانك بالتغيير الذي يمكن أن تنطلق شرارته من أعماقك.

الخلل في هذا الركن سيؤدي إلى خلل حتمي في علاقتك بنفسك (نفسك على حقيقتها الحقيقية، وليس نفسك التي صنعتها أجهزة الإعلام).. في إيمانك بها.. في إيمانك بإمكاناتك التي وضعها الخالق في داخلك..

خلل في هذا الركن سيؤدي إلى انهياره فوق رأسك.. ربما دون أن تدرك ذلك!

◆◆◆

لا يمكن أن نمرَّ على هذا الأمر دون أن نذكر أن هذا الركن تحديداً قد تعرض إلى خلل كبير من جهتين:

جهة جعلت من الرسل والأنبياء مجرد زعامات تاريخية لها ما لها وعليها ما عليها.. دون أي بُعد يتعلق بالوحي أو الرسالة التي حملت لهم.. وربما لم تمنع نسبة الحيل والجرائم لهم كما يحدث مع الزعامات المعاصرة.

وجهة أخرى بالغت في تقديس هؤلاء الرسل، وفي الغلو فيهم، وفي إطرائهم حتى نَسبتْ لهم ما لم يثبت، وجعلت بينهم وبينه عز وجل نسباً وصهراً.. وجعلتهم - بل جعلت من أتباعهم أحياناً - أوثاناً وأصناماً معبودة من دون الله..

وفي الحالتين هناك نتيجة واحدة تحدث في داخلك، وتقتل دافعك الشخصي الناتج عن الإيمان بالرسل.. في الحالتين - على الرغم من اختلافهما لحد التناقض - لن يكون الأنبياء والرسل حافزاً لك على أن ترتقي بنفسك.

في الحالة الأولى- التي سلبت منهم الرسالة والوحي - وجعلتهم مجرد قادة تاريخيين.. ستجد نفسك بمواجهة **أشخاص يشبهون القادة المعاصرين لك، والذين سمعتَ بهم وبحياتهم الخاصة..** ربما بعضهم أشخاص ناجحون بمقياس تحقيق الأهداف.. لكن هذا دوماً يشوه ويغبش في طريقتهم لتحقيق هذه الأهداف.. سيكون هناك دوماً الطرق الملتوية، والغايات التي تبرر الوسيلة.. **وسينعكس هذا دوماً على صورة الرسل والأنبياء عندما يتم وضعهم في سياق الزعامات والشخصيات التاريخية..** سيتبادر إلى ذهنك أن حديثهم عن القيم والمبادئ والتضحيات كان مثل حديث القادة المعاصرين عن القيم، مجرد شعارات في طريق الوصول إلى السلطة.. وسينعكس ذلك على رؤيتك للرسل والأنبياء.. ستعتقد أنهم

كانوا مثل سواهم يسعون وراء السلطة والجاه بطريقة أو بأخرى.. بعضهم نجح في الوصول إلى ذلك، وبعضهم فشل، **ولكنهم جميعاً نجحوا في إخفاء حقيقة مراميهم على الجماهير..** وستعتقد - حتى لو لم تكن ملحداً - أن **كثيراً مما قاله هؤلاء الرسل إنما كان من أجل «إقناع الجماهير» بالطاعة والاتباع، وأنه قد لا يكون حقيقة بالضرورة.**

هذا ما تنتهي إليه النظرة التي تحول الأنبياء والرسل إلى مجرد قادة تاريخيين..

إنها تقوّض دافعك الشخصي في الارتقاء.. في أن تجسم المثل والقيم في إنسان يتحرك ويبني ويصنع العالم كما يجب أن يكون.

❖ ❖ ❖

الغلو في الإطراء والتقديس يؤدي أيضاً إلى النتيجة نفسها.. إلى تقويض دافعك الشخصي في الارتقاء والاقتداء..

كيف؟

لا يمكنك ببساطة أن تقتدي بشخص تؤمن في قرارة نفسك أنه شخص خارق.. لا يمكنك أن تكونه ما دامت قدراته تأتي من منطقة لا سبيل للوصول إليها.. من منطقة إلهية غيبية لا سبيل إلى الوصول إليها عبر جهد إنساني..

هذا ما سيستقر في الأذهان من كل الإفراطات التي تعود البشر عليها في علاقتهم بالأنبياء والرسل.. هنا رسول هو نصف إله.. وهنا رسول آخر هو ابن لله.. هنا رسول خلق قبل آدم.. وهنا خلق من نور وليس من طين مثلنا جميعاً.. وهنا كتب اسمه على العرش حتى قبل أن يُخلق آدم.. وهنا كان يعلم الغيب وكل ما يمكن أن يخطر على قلب بشر.. **هذه الخرافات المحشوة غلواً وتقديساً وإشراكاً لله ملأت أفهام متبعي كل الديانات السماوية (وغير السماوية من باب أولى)، ولم ينجُ منها حتى بعض المسلمين (إن لم نقل أغلبهم)..** وهي ليست مجرد بِدَع مستندة إلى أحاديث ضعيفة أو موضوعة أو أفهام سقيمة.. بل هي في حقيقتها تمثل النقيض لكل ما جاء به هؤلاء الرسل والأنبياء.. كما أن الإيمان بهذه الخرافات سيجعل الشخص المؤمن عاجزاً عن الاقتداء بهؤلاء الرسل.. **«الاقتداء» بالتعريف يستلزم أن يكون القدوة إنساناً يملك ما تملك من المؤهلات والقابليات ونقاط الضعف والقوة الإنسانية، لكنه تمكن من التغلب على مواطن الضعف واستثمار مواطن القوة للوصول إلى وضع أرقى.**

أما إذا كان القدوة شخصاً خُلق بمواصفات استثنائية لا يمكن أن تشبه مواصفات

خلقك.. فهذا يخرجه فوراً من تعريف القدوة.. كما يخرجك فوراً من إمكانية الاقتداء به..

وهذا هو باختصار شديد ما حدث وما يحدث مع الأنبياء والرسل..

لقد قتل الغلو والإفراط في التقديس ليس فقط معاني التوحيد التي هي جوهر كل الرسالات السماوية.. بل قتل أيضاً «دور القدوة» في سير الرسل والأنبياء.. قتل إمكانية الاتباع.. مهما قال الوعاظ على المنابر عن ضرورة اتباعه عليه الصلاة والسلام.. فإنهم يقتلون ذلك إن زرعوا الغلو في تقديسه في يد أخرى.. الغلو الذي نهى عنه عليه الصلاة والسلام، والذي كانت كل حياته تجسيداً لما يناقضه.

هذا هو الركن الرابع..

عمود فقري لدوافعنا الشخصية في الارتقاء اقتداءً..

أو الاقتداء ارتقاء..

لا فرق..

البعث لأنك لست عبثاً!

الركن الخامس من أركان الإيمان هو الركن الذي كله بلبه وجوهره عبارة عن دافع شخصي لا يمكن الهروب منه إلا عبر حيل كثيرة..

إنه الإيمان بالبعث.. بأنك بعد كل هذا، وفي النهاية جداً، بعد أن تنتهي حياتك.. وتنتهي قائمة إنجازاتك ونجاحاتك وفشلك وخيباتك.. بعد أن ينتهي موتك أيضاً.. سيكون هناك حساب لهذه القائمة وما قدمت فيها.. **لنجاحك وفشلك وأولوياتك والمعايير التي بنيت فيها، من خلالها، على أساسها حياتك.**

الحساب، ومن بعده الجزاء، عقوبة أو مثوبة، هو **الصلب الأقصى للدافع الشخصي..** لا يمكن لشخص يملك الحد الأدنى من العقل والتفكير المنطقي - مهما كان عامياً أو بسيطاً - أن يهرب من الحساب.. لا يمكن الهروب من ذلك، ولا يمكن لشخص ما أن يُسقط الحساب من حساباته.. إلا إذا كان لا يؤمن به.. وعندما لا يؤمن به، **فهو لا يؤمن بالأركان السابقة حتى وإن تصور ذلك.. أركان الإيمان لا يمكن فصلها عن بعضها، ولا يمكن تقسيطها أو تجزئتها..** قد يصدق بعض الليبراليين بوجوده عز وجل، وبخلقه لنا، وبإرساله الرسل، وإنزاله الكتب..

لكن سيكون أمر البعث نقطة حاسمة بالنسبة لهم.. قد يتمكنون من الالتفاف على كل الأركان السابقة.. لكن ليس البعث والحساب.. سيتقاطع هذا بحدة مع كل منهجهم وطريقة رؤيتهم للعالم والحياة.. ربما لن يقولوا ذلك بصراحة لأسباب عديدة.. **لكن الإقرار بالحساب والعقاب والثواب يتعارض منهجياً مع فكرة "الحرية الشخصية" التي هي جوهر العقيدة الليبرالية..**

وهذا أمر ليس بجديد على عقيدة الحساب والثواب.. **لقد كانت دوماً عقيدة فاصلة**، ونقطة فارقة لا يمكن لمن لا يؤمن بها أن يتساهل معها أو يلتف عليها.. كل الأركان لا تقبل المفاصلة والمساومة.. **لكن هذا الركن تحديداً سيجعل "الآخر" في زاوية ضيقة لا يمكن الخروج منها إلا بالإنكار..**

كل ما في عقيدة البعث والحساب يتعلق بالإيمان بوصفه "دافعاً شخصياً".. لا يمكن هنا مع هذا الركن أن تصدق فحسب دون **أن يتحرك دافعك الشخصي بالعمل..** يمكن للبعض أن يصدق بوجود الخالق، وبإرساله الكتب والرسل، **لكنه يحاول أن يحيد تأثيرات ذلك على حياته الشخصية بهذه الحيلة أو ذلك الالتفاف..**

لكن ليس اليوم الآخر.. ليس تلك العقيدة القائمة كلها على محاسبتك ومحاسبة أعمالك.. لأن الإيمان بأنك ستحاسب على كل صغيرة وكبيرة قمت بها في حياتك **سيحيلك فوراً إلى القانون الذي ستحاسب على أساسه..** وهذا القانون بكل تفصيلاته وحيثياته سيحيلك إلى كل الأركان السابقة التي تحايلت عليها (أو تحايلت على نفسك فيها).. يأخذك من كل ما حاولت التهرب منه.

عقيدة اليوم الآخر هي حجر الزاوية في بناء أركان الإيمان.. لو فرضنا عدم وجودها لرأينا كل الأركان في اتحادها ينقصها شيء ما.. **لرأينا الفراغ يفرض نفسه، ويعلن عن الحاجة إلى ركن متمم.**

دون "اليوم الآخر" سيكون هناك لغز في القضية كلها.. سيكون هناك حاجة لأن نفهم أكثر.. ما **معنى كل شيء إن لم يكن هناك حساب لاحق؟.. ما معنى أن تأتي إلى هذه الأرض، وترحل دون أن يكون هناك تقويم وتقييم لما فعلته فيها؟.. ما معنى كل أركان الإيمان السابقة دون وجود هذا الركن؟..** كيف يمكن أن تتفهم كل دوافعك التي تولدت في الأركان السابقة ما لم يكن هناك ركن يلمها جميعاً ويجسدها في حقيقة ستعيشها جهاراً نهاراً.. وتمر فيها على وجه الحقيقة واليقين.. ويجعل كل ما قلت: إنك آمنت به من الأركان السابقة على المحك.. هل حقاً آمنت بذلك كله.. أم **أنك صدقت فقط؟** هل حقاً وَلَّد ذلك عندك دافعاً.. أم

أنك تعاملت معه على أنه مجرد معلومة أخرى لن تغير شيئاً في حياتك وسلوكك وأولوياتك وخططك وهمومك وأحلامك؟

الإيمان باليوم الآخر لا يمكن أن يكون تصديقاً فحسب.. **إنه إما أن يكون إيماناً بالمعنى الذي أشرنا إليه.. بمعنى توليد الدافع الشخصي المُلِحّ.. أو لا يكون بالمرة..** لا يمكنك أن تتعامل مع ما يقول: إنك ستحاسب على كل صغيرة وكبيرة تفعلها، دون أن يؤثر ذلك على ما تفعله.. دوافعك الشخصية كلُّها يجب أن تتأثر بذلك.. الأمر هنا لا يتعلق بمبدأ تعتنقه.. أو بقضية تحملها على كتفيك لتساعد الآخرين.. الأمر هنا يتعلق بك بشكل شخصي جداً.

بعض مفاهيمنا عن العمل الصالح (الطوعي خاصة) ودوافعنا ودوافع العاملين فيه يمكن أن ترتبط بتقييمنا الإيجابي لأنفسنا بسبب مساعدتنا للآخرين.. لكن الأمر مع "البعث" أكثر حسماً ومباشرة وتلقائية.

لا أقلل هنا من أهمية الدوافع التي تنشأ بطرق أخرى غير الإيمان بالبعث، والتي تدفع الناس للعمل لأنهم يؤمنون بقضية ما (وبعضهم لا دينيون تماماً).. فلتلك الدوافع فاعليتها حتماً.. لكن هذه الفاعلية محكومة بحقيقتين:

الأولى: أنها لا تثبت فاعليتها مع الجميع.. بل تعمل مع فئة معينة.. فئة لا تتجاوز نسبة مئوية محدودة العدد، وغير محدودة التأثير.. **يمكن أن نسميها النخبة التي يمكنها أن تعلو فوق همومها الشخصية و"الأنا" التي يتقوقع حولها معظم البشر،** وينسجون فيها ومن خلالها طموحاتهم وخططهم وأحلامهم وسعيهم لتحقيقها.. هذه النخبة الفاعلة يمكن لها أن تعلو فوق ذلك.

لكن معظم البشر لا يمكنهم التفاعل مع ذلك.. ولا يمكن لومهم كثيراً على ذلك.. "تفاعلهم" هو مع ما يمس حياتهم بشكل مباشر، وليس مع القضايا الكبرى التي لا يملكون أن يلاحظوا إسقاطها المباشر على تفاصيل حياتهم اليومية.

الثانية: حتى تلك النخبة الفاعلة التي تملك القدرة على أن تتفاعل بناء على دافع داخلي بحت، **أقول: حتى هذه النخبة، ستجد نفسها أحياناً بحاجة إلى دافع خارجي يقوي من عزيمتها ومن قوة دافعها الداخلي،** الدافع الداخلي غالباً يعمل على قضايا معينة فحسب، قضايا كبيرة وعامة.. لكن هذا الدافع الداخلي قد لا يعمل بنفس الطريقة على قضايا أخرى قد تبدو أقل حجماً، ولكنها ليست أقل أهمية إطلاقا.. **لذا فوجود مُذَكِّر خارجي قوي وبارز سيكون له أثر إيجابي جداً في فاعلية الدافع الداخلي وبوصلته واستمراريته..**

وهذا أمر محسوس ومشاهد عند كثير من العاملين والناشطين في مختلف المجالات، يكون لديهم دافع قوي جداً للعمل على قضية واحدة يقدمون لها أعمارهم.. **لكنهم في الوقت نفسه يكون لديهم تقصير في قضايا أصغر حجماً، ولكنها لا تقل أهمية، وتقصيرهم هذا قد يؤثر حتى في التزامهم بالقضية الكبيرة أو أدائهم فيها.**

◆◆◆

لكن كيف يمكن لأي مصدق باليوم الآخر أن يهرب من حتمية الدافع الخارجي للعمل؟

كيف يمكن لأي كان أن يصدق أنه سيحاسب على أعماله بعد موته، وأن حسابه هذا سيأخذه إما إلى نار وعذاب في جهنم، وإما إلى جنة ونعيم أزلي.. ثم بعد ذلك لا يفعل شيئاً حيال ذلك؟

كيف يمكن لأي منا أن يصدق أن ذلك سيحدث له بعد ساعة، أو بعد ساعتين، أو بعد قرن من الزمان، أو عشرة قرون، وبأثر رجعي يشمل كل ما فعلته منذ أن عقلت.. ثم بعد ذلك لا يفعل شيئاً ليجعله في وضع أفضل في ذلك الحساب؟

غريب جداً، ولكنه رائج جداً في الوقت نفسه كما الكثير من المتناقضات التي تعج بها الطبيعة الإنسانية.

آليات تحويل "اليوم الآخر"" إلى مجرد يوم آخر!

يحدث ذلك عبر ثلاث آليات محتملة تحيد الدافع الناتج عن اليوم الآخر، **وتسكنّه في وضع لا حركي..** (هذا لمن لا ينكر اليوم الآخر بطبيعة الحال).

الآلية الأولى: تعتمد على حقائق لا ينكرها مؤمن، ولكنها تستخدم هذه الحقائق للوصول إلى نتيجة باطلة، وهذا يجب أن ينسف هذه الآلية واستخدامها من الجذر..

هذه الآلية تركز على آيات ومعانٍ قرآنية **محددة ومنتقاة** لكي تصل إلى نتيجة بعينها محضرة مسبقاً.. وهذه النتيجة هي ألا يكون اليوم الآخر دافعاً للعمل.. لذا فالتركيز الانتقائي سيعتمد على آيات الرحمة والمغفرة ليحولها من حقائق قرآنية مشجعة على العمل إلى مثبطات عن العمل، وكوابح تدفع إلى الركون..

الرحمة والمغفرة حقيقتان لا سبيل لإنكارهما، وهما صفتان له عز وجل، نتعلق بهما تعلق الغريق بكل ما يمكن أن ينقذه.. ما في ذلك من شك..

لكن الفرق الكبير بين الانتقاء السلبي لآيات الرحمة والمغفرة وبين القراءة الفاعلة لها، هو أن هذه الآيات وجهت أصلاً لتتعامل مع حقيقة إنسانية لا يمكن إنكارها أيضاً، **وهي حقيقة القصور والتقصير البشري.**

إذا كنا نقر بالتقصير البشري إذن، فما الفرق بين الموقفين؟

الفرق هو أن هذا القصور والتقصير – الذي لا ينكره عاقل، والذي توجه إليه آيات الرحمة والمغفرة - **هو ما يصاحب العمل والفعل الإنساني، وليس ما يصاحب العطالة عن العمل وحالة اللافعل التي يركن إليها البعض.**

لكي تكون **مقصراً يجب أن يكون هناك عمل أصلاً..** عمل قاصر، نعم، لكنه عمل بكل الأحوال.. وعندها يمكن لآيات الرحمة والمغفرة أن تشجعك على المضي في العمل على الرغم من إدراكك بكونك مقصراً.

أما أن تحترف القعود عن العمل وعما خُلقت لأجله.. وتتذرع بآيات الرحمة والمغفرة فهذا بالتأكيد حق يقود إلى الباطل..

أيٌّ قراءة للقرآن الكريم تقود إلى **نتيجة تقعدك عن العمل**، هي قراءة باطلة حتماً.

الآلية الثانية: هي آلية انتقائية أيضاً، لكنها تحاول **تحميل عبء قعودها على الرسول الذي حمل عبء النهوض على كتفيه** عليه الصلاة والسلام، فهي تنتقي وتجتزئ من أقواله ما شاءت، وتغض النظر عن السياقات التي قيلت فيها هذه الأقوال من خلالها.. بل تغض النظر عن كل ما قام به أصلاً.. فإذا بالوصول إلى الجنة - عبر هذه الانتقاءات - عمل ولا أيسر منه، ويمكن أن يمنح لكل من هب ودب بمجرد التلفظ اللساني المجرد عن كل عمل، وأحياناً عن كل معنى.. بل هي الانتقاءات التي تخادع البعض على أن تكون كل أعمالهم مناقضة تماماً لهذه الكلمة التي يفترض أن تؤدي بهم إلى الجنة.

هذا مع العلم بأن هذه الانتقاءات تتجاوز حقيقة أن كلمة التوحيد هذه (التي يقولون: إن التلفظ اللساني بها كافٍ) قد مر عليها حين من الوقت كانت تحارب وبشدة.. وكان التلفظ بها جهراً يواجه بالقهر والتعذيب والإقصاء.. فهل يمكن أن **يكون جزاء من قالها في ظروف كهذه.. كالذي يقولها في وقتنا مثلاً.. مسترخياً مترهلاً بينما كل حياته تقول شيئاً آخر؟**

الآلية الثالثة: هي آلية تسلسل إليها المنطق الليبرالي.. تُعامِل الدين دون النظر في نصوصه، بل كما تعامل الشعارات وعمومياتها.. **لذا سيقال لك: إن الدين محبة وتسامح، وإن المهم فيه أن يكون قلبك نظيفاً وألا تؤذِي أحداً... إلخ.**

هذا الكلام يخلط الحق بالباطل، ويمرر مفاهيم معينة دون تأصيلها، أو حتى محاولة لربطها بمنظومة القيم القرآنية.. فهو لا يحاول أن يتوقف ليبيِّن **معنى الضرر والنفع في القرآن الكريم.. وما هي معايير الضرر والنفع قرآنياً؟ وهل تتوافق مع المعايير السائدة حالياً في حياتنا المعاصرة؟**

على سبيل المثال: المعايير السائدة حالياً تحظر التدخين في الأماكن العامة (المغلقة خاصة).. وتحصرها غالباً في أماكن محددة أو أماكن مفتوحة.. لا اعتراض على هذا، لكن هل يعقل أن نعتقد أن ممارسة التدخين لشخص ما تضر عموم المجتمع.. **بينما ممارسته لأشياء أخرى داخل أماكن مغلقة أيضاً مثل بيته لا تؤثر على المجتمع؟!..** هل يعقل أن نقر بحكاية التدخين السلبي (أي الشخص الذي لا يدخن بنفسه، ولكن يستنشق دخان المحيطين به)، وأن نشرع القوانين والتعليمات ضدها، وفي الوقت نفسه **لا نؤمن بأثر الفحش السلبي، ودمار الأسرة السلبي، والشذوذ السلبي، والعنف السلبي؟!**

كيف يمكن أن نعتقد أن أضرار **النيكوتين على المجتمع تفوق أضرار ما نعتبره «حرية شخصية»، وهو يضم مجموعة من الكبائر حسب تعريف الدين لها؟ وكيف يمكن أن نشرعن لحماية أولادنا وأنفسنا من سموم النيكوتين التي تؤثر على الرئة والقلب والأوعية الدموية.. ولا نحاول فرض الحماية من سموم تؤثر على أنسجة المجتمع كافة؟!**

المنطق اللامنطقي نفسه يفرض مثلاً على خطوط الرحلات الجوية التي تمنع التدخين تماماً على متن طائراتها، ولا تمنع الكحول مثلاً.. هل الكحول أقل ضرراً حتى من الناحية الصحية المجردة؟ ماذا عن النواحي التي لا تخص الصحة الجسمية؟ ماذا عما هو أخطر من تشمع الكبد.. ونسب الكولسترول؟ **ماذا عن تشمع المجتمع وترنحه في غيبوبة الخدر والسكر؟**

كيف يمكن للقانون - المقبول عرفاً في الأوضاع المعاصرة - أن يمنع قيادة السيارة تحت تأثير المسكر.. وفي الوقت نفسه يسمح باتخاذ قرارات حياتية تسمح بقيادة حياته تحت تأثير المسكر؟

كل هذه مفاهيم مقبولة عرفاً في حياتنا المعاصرة.. تحت شعار **مفهوم «الحرية**

الشخصية» التي تصغر كبائر.. وتكبر صغائر.. وهي آلية تعتبر أن الكبائر التي سنحاسب عليها هي فقط ما يضر الآخرين - حسب مفهوم غير قرآني للضرر- أما كل شيء آخر فسيكون ضمن حزمة ما سيعفو الله عنه.. هكذا بلا نص يحدد ذلك بل بالتعارض مع كل النصوص[٦٩].

هذه الآلية هي المنطقة التي يتسلل من خلالها الفهم الليبرالي للدين.. ليعطل واحدة من أهم أركان الإيمان.. الركن الذي يحمل أقوى دوافعك الشخصية للعمل والتغيير..

لكنه يحوله بهذا.. أو بواحدة من الآليتين السابقتين التي يمررها أحيانا المشايخ والوعاظ **من ركن يقوم عليه إيمانك إلى محض هيكل فارغ منزوع الفاعلية والتأثير.**

الإيمان باليوم الآخر: أن يصبح يومك الحالي مختلفاً

كيف نميز إذن بين إيمان حقيقي باليوم الآخر.. وبين مجرد تصديق به..؟ (كيف يمكن أصلاً أن يكون هناك مجرد تصديق بأمر كهذا؟).

الفرق بسيط، ويمكن لك أن تجده في حياتك من ألفها إلى يائها.. نعم أنت تصدق باليوم الآخر.. **لكن الفرق بين التصديق والإيمان هو أن يجعلك «ذلك» تعمل..**

فهل حدث ذلك؟

ستقول طبعاً، بالتأكيد، أليس كل صلاتك وصيامك دليل على ذلك؟

تظن ذلك فقط..

لكن هذه **«الشعائر» هي من ضمن حزمة التصديق أصلاً**.. إن لم تؤدِّها فأنت لم تصدق بالأساس.. إنها ليست الإيمان، بل هي التصديق فقط.. التصديق الأقرب لفعل الأعراب لا أكثر ولا أقل.

الإيمان باليوم الآخر هو **الإيمان الذي يجعل أيامك الحالية أياما مختلفة.. يجعل يومك يوماً آخر بالمقارنة مع ما سبق هذا الإيمان.**

الإيمان باليوم الآخر هو الإيمان الذي سيجعل دنياك مختلفة.. لأنها أولاً وآخراً

٦٩ للمزيد عن النفع والضر حسب المفاهيم القرآنية انظر: كتاب الفردوس المستعار والفردوس المستعاد، للمؤلف

مزرعة ومختبرٌ لآخرتك..

إنها رصيدك كله.. ولكي تصرف هذا الرصيد هناك في اليوم الآخر.. عليك أن تدفع مستحقاته هنا في اليوم الحالي.. بعالم أفضل.. بعمل يدفعك له إيمانك.. بعمل تنطلق شرارته من هذا الإيمان.

الإيمان باليوم الآخر ليس بالمزيد من صلاة وصوم.. لأن هذه تحصيل حاصل.. بل هو بعمل يصنع «اليوم الآخر».. يصنع العالم الآخر.. العالم الأفضل والأكثر عدالة الذي سيتحقق به وبالعمل من أجله.. النجاة في اليوم الآخر لن تمر إلا عبر العمل من أجل النجاة بصنع عالم آخر..

هذا هو الفرق بين أن تؤمن باليوم الآخر.. وأن تصدق به فحسب..

بين أن يكون مجرد وسيلة لأداء شعائر.. وتجنب بعض المحرمات.. وأن يكون طاقة ودافعاً للبناء والتغيير.

الإيمان بالقدر: الرضا بالقدر طريقاً للتغيير

الركن السادس هو الإيمان بالقدر خيره وشره..

وهناك اختلافان أساسيان في هذا الركن عن أركان الإيمان السابقة:

أولهما: أنه لا يدخل نصاً في منطوق الآيات التي حددت أركان الإيمان نصاً كما حددتها الأحاديث في هذا السياق.

وثانيهما: أنه ليس كل ألفاظ الحديث تحتوي على هذا الركن.. فبعض ألفاظ الحديث - في طرق صحيحة[70]- أوردت خمسة أركان فقط.. لكن الزيادة صحيحة أيضاً[71].. ليست صحيحة فحسب.. بل هي مرتبطة بكل ما سبق من أركان، ووجودها هنا، في هذه النقطة بالذات، وفي هذا الترتيب تحديداً بعد كل الأركان السابقة، **يجعل معنى الإيمان بالقدر خيره وشره شديد الإيجابية، وشديد العلاقة بكل الحوافز الموجودة في الأركان السابقة..**

لكن لا مفر أيضاً من أن نقر أولاً أنه كما حدث مع بقية الأركان التي أخرجها فهم ما عن فاعليتها، فإن هذا الركن قد تعرض لما هو أكثر بكثير.. حتى صار كوننا «قدريين» علامة مميزة لنا بين بقية الأمم.

٧٠ صحيح البخاري ٤٧٧٤

٧١ صحيح مسلم ١٠٢ ، سنن الترمذي ٤٦٦٧، السلسلة الصحيحة ٢٤٣٩

سوء الفهم هنا كان أكبر.. وسوء الاستخدام كان أكبر.. والنتائج مرتبطة بكل التحييد الذي حدث للأركان السابقة.. ولكن بشكل أكثر وضوحاً.

عن القدر خيره وشره

وقد أدى الفهم السلبي لهذا الركن دوراً لا يمكن إنكاره في إشاعة روح الاستسلام والتردي التاريخي التي مرت بها أمتنا بالتدريج، وصولاً إلى عصور انحطاطها.. **حيث صارت «القدرية» هي الميزة الأكثر وضوحاً، والتي تلفت انتباه أي غريب عندما يتعامل مع شعوبنا ويتعرف على سلوكياتها..** ليس أي غريب بمعنى الأجنبي الزائر فقط.. **بل لو حدث فرضاً وجدلاً أن تعرف على سلوكياتنا شخص من الجيل الأول.. لاستغرب جداً من ربطها بما فهمه هو من نصوص الدين على نحو مختلف جداً..** بل متناقض جداً.. سيستغرب من رضانا بالقضاء والقدر على أنه وسيلة لعدم العمل، والرضا بالواقع كما هو.. سيستغرب من استخدامنا لعبارة «قدر الله وما شاء فعل» في سياقها التحسري الذي نعبر فيه عن عدم قدرتنا على شيء ما.. قد يصرخ بنا أن لا.. إننا قد فهمنا كل شيء على النحو الخاطئ.. وأنهم لو كان لديهم فهمنا نفسه لبقوا كما هم.. كما كانوا في الجاهلية.. مجرد قبائل متناثرة تعبد أصناماً قبيحة، وتتقاتل لأجل فرس سبقت أخرى.. لو أنهم فهموا الركن السادس من أركان الإيمان كما تم «تلقيننا» إياه لَمَا خرجوا من مكة، ولَمَا بنوا المدينة، ولما فتحوا العالم.

المشكلة إذن ليست في هذا الركن.. ليست في الإيمان بالقدر.. فلا يمكن لأحد أن يجادل وأن يزايد في إيمان هؤلاء الذين غيروا العالم على الرغم من إيمانهم بالقدر.. بل بالطريقة التي فهمنا بها هذا الركن..

ربما يكونون قد فتحوا العالم بسبب هذا الركن.. وليس على الرغم منه..

أما نحن، فقد انتكسنا بسبب فهمنا له.. ضمن أشياء أخرى كثيرة.

◆◆◆

لكن المعضلة موجودة فعلاً.. وعلينا أن نخرج منها..

فللوهلة الأولى - وبالذات لأننا تعودنا على هذا المعنى - فإن الرضا بالقدر سيبدو كما لو أنه يتعارض تلقائياً مع «التغيير».. مع أي محاولة لإحداث «الفرق» في واقع الأمة..

لكن هذا سيكون له معنى معاكس عندما نزيح المعاني السلبية المتراكمة على أذهاننا بفعل التقادم والتقديس.

◆◆◆

فلنتذكر أننا لا يمكن أن نفهم هذا الركن أو سواه بمعزل عن شيئين:

الشيء الأول هو فهمه من خلال **ذكره في القرآن الكريم**.. وليس من خلال فهمنا المتوارث المدعوم من خلال أفهام الآخرين والنصوص المجتزأة والنصوص الضعيفة.

والثاني هو أن يكون ذلك من **خلال تسلسل الأركان** ككل، وليس بمعزل عنها.. وتحديداً ليس بمعزل **عن ترتيبه** بينها.

بعبارة أخرى: المعنى المتكون من أن يكون الركن هو أول الأركان لا يمكن أن يماثل الركن الأخير.. لا يقلل ذلك من أهمية الركن الأخير أو ما قبل الأخير.. لكن المعنى المتولد منهما يكون متراكماً على ما سبق من الأركان، وليس منعزلاً مستقلاً عنها.

القدر قرآنياً

قرآنياً استخدمت لفظة القدر في تسعة مواضع لا غير.. وهو عدد يعكس الفارق الكبير بين دور بقية الأركان المتقدمة وأولويتها، وبين أهمية دور«القدر» في تكوين بنية الفرد المسلم.. ولا يقلل ذلك من أهمية القدر.. لكنه يؤكد على النقطة التي أحاول توضيحها.. **إن دور «الإيمان بالقدر» لن يكون فاعلاً إلا من خلال بقية الأركان**، ومن خلال تسلسل هذه الأركان وحجمها النسبي قرآنياً.

علينا الآن أن نرمي بأفهامنا التقليدية من النافذة، ونقرأ المواضع التسعة بعقل يتشكل بالقراءة.. وليس يفترض مسبقاً ما سيفهم.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧].

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف: ١١].

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٤٠].

﴿وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢].

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

والقدر كما هو واضح في سياق الآيات يرتبط هنا ب**مقدار محدد، بكمية منضبطة من كل شيء وكل نوع**.. كمية محددة سلفاً وفق موازين تؤدي إلى نتيجة – لا يعلمها إلا علام الغيوب - نتيجة لا ترتبط بكمية واحدة، أو بحدث واحد، أو مساق واحد.. **بل بمجموع تراكمي كامل متكامل يؤدي إلى المحصلة النهائية التي قد لا تكون واضحة - بل لا تكون واضحة غالباً - لكل من كان ضمن مساق واحد.**

التقاء الماء على أمر قد قدر في الآية القرآنية الكريمة يقدم لنا صورة تعبيرية دقيقة عن هذا.. جاء الماء من جهات مختلفة.. انهمر من السماء، وتفجر من الأرض.. والتقى حتماً مع بنية تحتية أو طبيعة جغرافية سهلت **الوصول إلى الأمر الذي قدر**.. إلى الطوفان.

استخدام القدر بمعنى الكمية المحددة المضبوطة هو الاستخدام الأكثر وضوحاً في السياقات القرآنية وخاصة مع الماء الذي ينزل بقدر، فيحيي بلدة ميتاً كما جاء في أكثر من آية تصريحاً وتلميحاً.. واستخدام الماء أو المطر هنا له دلالة واضحة.. فدورة الماء في الطبيعة دورة متداخلة.. والماء يمر بمراحل متعددة وأجواء مختلفة، ويمر عبر أقاليم جغرافية مختلفة قبل أن يهطل في مكان قد يكون بعيداً جداً عن نقطة البداية التي تكونت **فيها «قطرة الماء» تلك**.. هذا التداخل **بين الجغرافية والظواهر الطبيعية هو لب القدر.. لا يمكن رؤيته قط من ثقب الباب.. بل يجب أن تفتح رؤيتك على اتساعها لتتمكن من معرفة الحد الأدنى منه..** لو تمسكت بمساق واحد، بجزئية واحدة، بكمية واحدة، وحاولت من خلالها الوصول إلى المحصلة.. فلن تصل إلى شيء، بل ربما انقلب الأمر ضدك.

القدر في قطرة ماء

مَثل الماء المتكرر قرآنياً يدلنا على التداخل السُّنَنِي الحتمي بين مختلف القوانين الطبيعية التي قد لا تبدو مرتبطة للوهلة الأولى.. لكنها تتلاحم وتتداخل لتشكل ذلك التوازن الذي يعم هذا الكون.

مثل الماء ودورته القرآنية يذكرنا بقطرة ماء تساهم في إنبات.. وأخرى في إرواء.. وأخرى في الشفاء.. وأخرى في توليد الكهرباء... إلخ.

وأيضا في الدمار.. في سيل جارف.. في طوفان غامر.. في محيط مغرق.. في دوامة مهلكة.. قطرة الماء في كل الحالات متشابهة.. بل متطابقة.. لكنها تدخل «مساقات» مختلفة، وتتفاعل مع «مواد» أخرى لتؤدي إلى نتائج مختلفة تماماً..

بعض هذه النتائج ثانوية.. ناتجة عن تفاعلات تحدث ضمن التفاعل الأكبر.. وبعضها نتائج أساسية.. ضمن الهدف والتفاعل الرئيسي.

◆◆◆

القدر هو جزء من السنن إذن.. **هو المحصلة النهائية لتفاعلها وتداخلها مع بعضها**.. من البديهي أن من وضع القوانين ابتداء، وحدد لها مساقات تداخلها مع بعضها، سيكون له «العلم المسبق» بكل أطوار التفاعل، وبكل نتائجه الثانوية - العابرة - والنهائية.

الله يحيط بعلمه بكل المساقات الممكنة، والتداخلات الحاصلة.. لذا فإنه يعلم قطعاً علم اليقين كل ما يكون مسبقاً.. وهذا **العلم المسبق لا يعني الجبر** بأي شكل من الأشكال.. لا يعني أن إرادتك قد ألغيت.. **فأنت في مساق معين تملك خيارات معينة تنقلك من مساق إلى آخر**.. معرفته عز وجل بما ستنتج عنه الأمور وتفاصيلها لا تعني أنك مُجبَر على شيء.. فبين مساق وآخر هناك فرصة دوماً للانتقال.. تستطيع أن تقول: لا، هنا.. تستطيع أن ترفض الانحناء.. تستطيع أن تثبت أنك لن تستسلم لهذه الشهوة أو لذاك التهديد.. كل المسار يتغير بخيار واحد.. يمكنك أن تستسلم، أو تنحني، أو تثبت إرادتك وقدرتك.. يمكنك أن تشارك بالاختيار بين أكثر من مسار.. وكل مسار تختاره سيقود إلى مجموعة مسارات تختار أيضاً منها.. ومهما اخترت فالله سيعلم ذلك، لأنه متعال تماماً عن الزمان والمكان الذي تختار فيه خياراتك.

وكل تلك المسارات والمساقات، بتداخلها، بنتائجها الثانوية والنهائية.. تصب

لتقدم ذلك التوازن.. الذي هو «القدر»..

بعض هذه المساقات نكون فيها بلا خيار مسبق منا.. مثل مكان ولادتنا وتاريخها، وآبائنا وأمهاتنا، وما نرثه منهم من صفات شكلية وغير شكلية.. كل ذلك لا يمكن لنا أن نهرب منه، أو يكون لنا الخيار في رفضه.. سيكون لهذه المساقات حتماً تأثير في المساقات الأخرى.. **فنحن نحملها معنا نحو خياراتنا.**

◆◆◆

لمَ إذن الحديث عن الإيمان بالقدر «خيره وشره»؟

هذا لأن بعض المسارات التي سنكون فيها قد تبدو لنا، **وللناظر من خلال ثقب التفاصيل الآنية العابرة أنها شر محض..** قد لا نرى غير التعذيب في السجون.. والاضطهاد في المعتقلات.. والألم الطويل بلا أمل.. لكن ذلك كله قد يكون جزءاً من مشهد أكبر.. حين يؤدي **كل ذلك إلى الثورة على الظلم بكل أشكاله.. ويتغير المساق إلى ما سيبدو للناظر أنه خير.**

إنه تدافع السنن وتداخل المساقات.. **لا خير (محض) ولا شر (محض) في هذه المساقات من حيث كونها جزءا من القدر.**

الخير والشر هو في موقفك منها.. هل ستستسلم لهذا المساق؟ هل سيكون عنوانك الدائم؟ أم أنك ستسهم في القدر عبر اختيار مساق آخر يغير من الصورة الكاملة؟

الأمر المر والصعب هو أن تغيير المساق يتطلب أحياناً جهوداً فردية تتجاوز عمر الأفراد وأطوال أعمارهم.. أي أن النتيجة لكي تكون ملموسة ومرئية بوضوح لن تكون في متناول هؤلاء.. بل لن تنجز إلا عبر تضحيات متراكمة يساهم فيها الأفراد من أجيال مختلفة.. وهذا يتطلب نوعاً من **القبول**، لا بالواقع المر – واقع الحضيض والسكوت عليه - **بل بالقبول بدفع الثمن من أجل تغييره.. القبول بالتضحية من أجل تغيير المساق..** الثمن الذي قد يكون باهظاً تدفعه من حريتك أو من كرامتك أو حتى من حياتك.. لكنه ثمن «**ترضى» به من أجل أن يتغير الواقع الذي لا يرضيك ولا يرضي شريعته عز وجل.**

الرضا بالقدر خيره وشره هو **أن ترضى بدورك الحتمي في التغيير.. أن ترضى بدورك في الاستخلاف.. في كونك الخليفة الذي عَيّنَه عز وجل في الأرض.**

قد يكون دورك في مرحلة صعبة جداً.. في مرحلة تكون فيها التضحيات والواجبات

كثيرة وصعبة دون وجود ثمار وحقوق.. فيكون «الرضا» بذلك صعباً.. لكن لا بد منه..

وقد يكون دورك في مرحلة أخرى.. مرحلة تواجه فيها تحديات من نوع آخر.. أقل ظهوراً دون أن تكون «أقل» فتنة.. لكنها عموماً مختلفة الطابع.. وسيكون الرضا بدورك في هذه المرحلة هو جزء من التوزان الذي يجب أن يحدث.

في الحالتين **الرضا بالقدر - أي بالتوازن العام الشامل - هو جزء من عملية التغيير التي أرادك الله أن تكون جزءاً منها..** بل هو في الصلب والنخاع منها.. لا يمكنك أن تقوم بالتغيير إن لم ترضَ بدورك مهما كان صعباً وشاقاً.. مهما كانت الظروف حولك صعبة.

الرضا بالقدر إذن..

خيره وشره..

هو أن ترضى بتحمل مسؤوليتك في تغيير ما حولك.. في الهدم عند ضرورة الهدم.. في البناء في مرحلة البناء.. في الدفاع في طور.. والهجوم في طور آخر..

تختلف الأدوار باختلاف الأطوار.. والرضا بها هو جزء من إيمانك بالقدر..

قد يضعك قدرك في **«طور» تُفتقَد فيه القدوة، وتضيع فيه الأمانة..** فيكون دورك مضاعفاً في أن تجد بوصلتك للصواب والحق.

قد يضعك قدرك **في طور يعم فيه الظلم والاستبداد** والجور.. فيكون دورك أن تعيد التوازن إلى هذا الاعوجاج.. أن تقومه بكل ما تستطيع من أدوات وأساليب.. وقد تدفع حياتك ثمناً لذلك (من لا يرضون بهذا.. هم يرفضون الإيمان بالركن السادس).

قد يضعك قدرك في طور يعم فيه الكذب والزيف والنفاق.. فتدفع ثمناً لمجرد قولك الحق والصواب.. لكنك بهذا ترضى بقدرك.. ويرفض الصامتون المتواطئون على الكذب قدرهم.. يرفضون أن يقولوا الصواب.. هم من يرفض القدر الذي وضعهم حيث يجب أن يتحدثوا.. أن يقولوا..

قبولك بالقدر - خيره وشره - **هو أن تؤدي دورك المناط بك في مكانك.. مهما كان دورك.. مهما كان الطور والمساق الذي أنت فيه..**

قبولك بالقدر.. هو أن تعمل على قدرك.. قدرك الذي هو جزء من القدر الكامل الشامل.. القدر الذي هو التوازن الذي أراده الله للخليقة كلها..

قبولك بالقدر - خيره وشره - هو أن تقوم بما كلفك الله عز وجل به.. بوصفك خليفة في الأرض.

لكن..!

كيف فهمنا هذا الركن بالعكس مما جاء به؟!

كيف تحول الإيمان بالقدر والرضا به من كونه دافعاً إلى العمل في كل الظروف، أسوئها وأحسنها، خيرها وشرها.. إلى وسيلة للتسكين والتخدير.. وسيلة للقبول بالواقع كيفما كان.. مهما كان سيئاً وبعيداً عما أراده الله؟!

الجواب معقد حتماً، ولعله من غير الممكن تغطيته هنا.. فقد تقاطعت مسارات السياسة والعقيدة في مرحلة مبكرة من التاريخ الإسلامي (في مرحلة ما بعد الخلافة الراشدة)، **وأنتجت فهماً «معيناً» لهذا الركن بالاعتماد على مواقف بعض الشخصيات السياسية الفاعلة في هذه المرحلة..** هذا الفهم تم من خلاله قراءة كل نصوص القرآن بأثر رجعي (رجعي حرفياً!).. وتم أيضاً فهم النصوص النبوية الصحيحة (النادرة بالمناسبة) من خلال هذا الفهم السلبي.. كما تم لاحقاً إنتاج نصوص ونسبتها للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام بمنطوق يتوافق مع هذا الفهم السلبي، الذي هو بالتأكيد من أسباب تدهورنا وتخلفنا، والذي لا علاقة له بحقيقة القدر كما نفهمه من القرآن[٧٢].

◆◆◆

ترتيب هذا الركن كأخير بين أركان الإيمان له معنى ودلالة مهمة..

فهو يأتي بعد كل الأركان التي سبقته، والتي فهمنا كيف أن كلا منها شكل دافعا للعمل..

الإيمان بالقدر بعد كل الأركان السابقة يقول لك: **إن عليك العمل.. عليك أن تستثمر كل إيمانك للعمل بما كلفت به.. وربما بعد كل ذلك لا ترى ثمرة عملك أو نتيجته..**

يقول لك الركن السابق مسبقاً.. كما لو كان لقاحاً يمنحك المناعة ضد اليأس واستعجال النتيجة.

يقول لك هذا الركن: **قدرك هو أن تعمل بالضد من كل الظروف وعلى الرغم من كل المثبطات والعقبات..** ليس بالضرورة أن ترى نتيجة عملك.. بل من النادر جداً

٧٢ للمزيد عن العلاقة بين الفهم السلبي للقدر وتقاطعات السياسة والتاريخ، انظر: البوصلة القرآنية، للمؤلف.

أن ترى نتيجة عملك كلما كان هذا العمل يرتبط أكثر وأكثر بنهوض الأمة، وبدورك في الاستخلاف.

المهم أن تعمل.. أن تغير.. أن تبني عالماً أفضل.. أن تترك أثرك في العالم من حولك بحيث يكون - عند رحيلك - أفضل مما كان عند مجيئك إليه..

هذا هو قدرك.. قدرك الذي عليك أن ترضى به..

كل الباقي مجرد تفاصيل!

كانت هذه هي أركان الإيمان..

كل ما فيها يقود ويحفز للعمل..

وهذا طبيعي جداً..

فلقد تزاوج «الإيمان والعمل الصالح» في القرآن زواجاً لا انفصام فيه.. بل صارا مركباً واحداً لا يمكن تجزئته..

لا إيمان حقاً بلا عمل صالح.. (إذ سيكون مجرد تصديق كما أسلفنا)..

ولا عمل صالحا بلا إيمان.. (كما سنوضح لاحقاً)..

الاثنان معاً بتلاحمهما يؤديان إلى الاستخلاف..

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

هذا الوعد بالاستخلاف لا يتحقق إلا بهذين الشرطين.. **شرطين هما كجناحي طائر الاستخلاف..**

الإيمان (بأركانه التي تبني حقاً.. وليس تلك التي تكون جزءاً من التخدير والفهم السلبي)..

والعمل الصالح **الناتج** عن هذا الإيمان.

❖ ❖ ❖

أبرز ما جاء في فصل "الإيمان منصة انطلاق.. سداسية الأركان"

الإيمان، أي إيمان هو: تصديق، تعريف، واستقطاب.

عملية **التصديق ضرورية لكل إيمان**، وتتعلق على نحو مبسط **بالقبول** بمجموعة من الحقائق على نحو مسلم به واعتبارها أنها بديهيات، **والبعض يخلط بين التصديق والإيمان**، لكنها في الحقيقة **مرحلة أولية** منه، **كل إيمان لا بد أن يتضمن "التصديق"**، لكن العكس ليس صحيحاً بالضرورة، **ليس كل تصديق إيمان.**

التعريف هو العملية التي يقوم الإنسان من خلالها **بتعريف نفسه من خلال ما صدقه** آنفاً، أن يصبح جوهر هذا التصديق **محور وجوده كله..** أن يكون تقييمه لذاته، واحترامه لنفسه، لا يتم إلا من خلال **تحويله** لما صدقه **إلى دافع للعمل**، وأن يكون هذا العمل هو محور حياته.

التعريف يتطلب أن ينتقل الدافع "الخارجي" للعمل ليكون داخلياً.. نابعاً من الفرد نفسه، وإن ارتبط أولاً بمؤثرات خارجية.

الاستقطاب هو **جمع** كل **الطاقة** التي يملكها الإنسان **وتوجيهها نحو العمل من أجل القضية** محور وجود هذا الفرد.

الإيمان بهذا الوصف **لا يخص الإيمان الديني فقط..** كل "قضية" في العالم يكون الإيمان بها على هذا النحو.

وكذلك الإيمان الديني، الإيمان الإسلامي، بفارق **أننا نؤمن أنه الإيمان على نحو مطلق، إنه الإيمان "الصواب" بالقضية الصواب.**

إيماننا أيضاً تصديق، وتعريف، واستقطاب.

وهو **يؤدي إلى "عمل صالح"** حتماً، ولو لم يؤدِّ إلى ذلك لكان ذلك يعني وجود مشكلة ما في "مكوناته الثلاثة".

أداء الشعائر ليس من ضمن هذا "العمل الصالح"، بل هو من ضمن التصديق فحسب، **أي أنه جزء من مكونات الإيمان.**

الإيمان بمكوناته الثلاثة الدافعة والمحفزة للعمل **يمكن فهمه أكثر بتطبيقه على**

كل ركن من **أركان الإيمان الستة** حسب الحديث الشريف.

الإيمان بالله - بكل صفاته وعظمته التي لا يحتويها تصور أو عقل - **لا يمكن أن يكون مجرد "تصديق" لحقائق**، بل هو أمر شخصي جداً.. إله بهذه العظمة وهذه الصفات قد اختارك لتكون "الخليفة" في الأرض.. **لا بد أن يؤدي هذا إلى أن تؤمن بإمكانات وضعها فيك تجعلك مهيئاً لتكون الخليفة**.. الإيمان به عزّ وجل سيتضمن **إيماناً حتمياً بنفسك** أيضاً.. على الأقل **بإمكانات كامنة فيك**.. إمكانات **سيستفزها** مجرد **تصديقك** بوجودها **لتظهر على السطح** من أفعالك.

الإيمان بملائكته عز وجل **يرتبط أيضاً بك وبدوافعك للعمل**، هذه المخلوقات - بمعزل عن شكلها الذي ليس لدينا فكرة عنه - **هي قوة تنفيذية** لأوامر الله عز وجل.. وقد أسجدها يوماً ما لأبيك عندما تمَّ تنصيب النوع الإنساني خليفة في الأرض.

إيمانك بالملائكة هو إيمان بسجودهم لك.. إيمان بالتحدي المترتب على إيمانك بما أخبرك به ربك عنهم عندما عرفوا عنك.. لقد تصورت الملائكة أنك ستفسد في الأرض، وتسفك فيها الدم.. وأنت تعرف أن كثيراً من تاريخ بني آدم كان قريباً من ذلك.. بل إنك تعلم أن تاريخ بني آدم قد يكون منحازاً للرهان الإبليسي ﴿**فبعزتك لأغوينهم أجمعين**﴾. هذا كله سيكون **رصيداً مضافاً يدفعك للعمل**.

إيمانك بالرسل مرة أخرى سيجعلك **تؤمن بنفسك أكثر**.. هؤلاء كانوا **بشراً مثلك**.. لم يخلقهم الله بإمكانات مختلفة مسبقة، بل **عملوا على أنفسهم، ووصلوا لاستحقاق مكانة النبوة**.. لن تصل إلى هذه المكانة مهما حاولت لأنها أغلقت، لكن لا يزال هناك آفاق مفتوحة لك يمكنك أن ترتقي فيها إذا ما عملت اقتداءً بما فعله الأنبياء في درب التغيير والبناء.

إيمانك بالكتب لا يمكن أيضاً أن يكون مجرد تصديق بأنها نزلت من الله عز وجل على رسله وينتهي الأمر.. **إنها بمثابة كتيب استعمال** لا بد من قراءته ككتيب إرشاد قبل استعمال حياتك واستعمالك لنفسك.

إيمانك باليوم الآخر هو الحد الفاصل الذي لا يمكن لأي مؤمن أن يموّه فيه.. أو يتهرب منه.

إن كنت تؤمن بوجود اليوم الآخر حقاً، وبوجود حساب هناك، فإنه لا يمكن لك إلا أن تطابق بين المرجعية التي سيكون الحكم فيها في ذلك اليوم الآخر، والمرجعية التي تتحاكم إليها في حياتك اليومية.

فقط **هذا التطابق سيجعل من يومك الحالي يوماً آخر.. يوماً أفضل.**

الإيمان بالقدر خيره وشره - ضمن هذا الترتيب من الأركان - له مغزاه الخاص.. إيمانك بالقدر **ليس حالة سكونية تكون فيها شخصاً سالباً** لا محل له من الإعراب.. بل على العكس، **فالقدر هو التوازن** الذي بنى الله العالم عليه، **ورضاك بقدرك** - خيره وشره - هو **رضاك بأن تؤدي دورك** في هذا التوازن.. قد تكون في سياق صعب، وسيحتاج ذلك إلى المزيد من الجهد والتضحيات لتحقيق التوازن.

من لا يعمل على تحقيق التوازن.. يتمرد على قدره.

❖ ❖ ❖

الفصل الخامس

والعمل الصالح يرفعه..

والعمل الصالح يرفعه

العمل الصالح..

عبارة العمل الصالح رائجة ومنتشرة، وصارت تستدعي فوراً أنماطاً معينة من النشاطات.. بعضها "شعائرية"، وهي لا تندرج أبداً ضمن المفهوم الحقيقي للعمل الصالح.. (بل ضمن الإيمان كما سبق) وبالتالي لا يمكن أن تكون هنا وهناك في الوقت ذاته.

هناك نشاطات أخرى تندرج ضمن مفهوم العمل الخيري.. سواء أكان منظماً وعبر مؤسسات أو جمعيات.. أو كان فردياً شخصياً.. (أي بعبارة أخرى سواء أكان عبر جمع الصدقات وتوزيعها على عوائل موجودة في قوائم منظمة، أو عبر رمي الصدقة على أقرب متسول على باب الجامع) لكن هذا لا يمكن أن يكون كل المقصود بالعمل الصالح.. **لأن تنسيق الصدقات وتوزيعها ليس هو كل ما جاء به الإسلام.**

العمل من أجل المعاقين أو أصحاب الاحتياجات الخاصة.. مكافحة التدخين.. التوعية بسرطان الثدي.. مكافحة الأمية..

كلها - جزئياً - يمكن أن تندرج ضمن مفهوم العمل الصالح.. **لكن فقط عندما يكون الدافع لها نابعاً من الإيمان.. عندما تكون نابعة من منظومة فكرية واضحة المعالم..** وليس من تقليد أعمى، أو لمجرد قضاء وتزجية الوقت.. أو لإظهار النفس في ساحات الاستعراض الاجتماعي، حيث تقوم سيدات المجتمع بإثبات ثراء أزواجهن بوسيلة غير المجوهرات والملابس والسيارات الفخمة والديكورات الجديدة.

لا أقول: إن كل من يعمل في هذه الجمعيات هو على هذه الشاكلة..

لكن علينا أن نراجع ما يعنيه العمل الصالح حقاً.. قبل أن نربط بينه وبين ما يستدعيه في ذاكرتنا.

لكي نعرف أولاً ما المقصود بالعمل الصالح.. علينا أن نفقه أولاً ما المقصود بكلمة «صالح».. **كيف فهمها الجيل الأول؟ وكيف تفاعلوا معها؟ كيف تشكل معنى «العمل الصالح» في أذهانهم؟ وكيف تشكل عملهم الصالح بالتوازي مع هذا كله؟**

نسبية المعاني وتغييرها

في لسان العرب صلح ضد فسد..[٧٣]

و"فسد" ضد صلح..

أي أن معنى الصلاح والفساد هنا ليس ثابتاً.. **بل لا يعرف إلا بحالة معاكسة.. حالة مضادة..**

وهذا يجعل مفهوم كل من الفساد والصلاح نسبياً ومتغيراً.. فما يكون صالحاً في وقت ما.. قد يكون فاسداً لاحقاً في مرحلة أخرى..

هذا المعنى مهم ومركزي هنا.. وهو ليس صدفة عابرة..

فما قد يكون صالحاً اليوم قد لا يكون كذلك بعد سنوات.. أو عقود.. أو قرون..

الثمرة الطازجة الصالحة.. لا يمكن أن تبقى صالحة إلى الأبد.. بل لها وقتها.. ولها وقت تنتهي صلاحيتها فيه..

الثمرة الصالحة نفسها ستكون فاسدة بعد فترة..

المعنى واضح جداً.. ونراه كل يوم.. في الثلاجة.. في المتجر.. على المائدة..

فلماذا لا نفهمه أيضاً في "العمل الصالح"؟

ولماذا نستغرب عدم وجود "قالب" محدد وواضح يؤطر العمل الصالح.. بينما من الطبيعي ألا يكون هناك شيء كهذا.. لأن هذا القالب سيكون صالحاً لفترة محددة فقط.. ثم ما يلبث أن تنتهي فترة صلاحيته بالتقادم؟!

٧٣ لسان العرب، مادة (صلح).

أما "العمل الصالح" فهو أعلى وأوسع من كل القوالب المحددة..

إنه الشرط الثاني الذي يحقق "الاستخلاف"..

يحقق ما خُلقنا لأجله.

◆◆◆

علينا إذن أن نتذكر هذا عندما نتحدث عن العمل الصالح..

إن صلاحيته مرهونة دوماً بواقع متغير.. لذا يجب أن تراعي الصلاحية هذه، وتتجاوز إمكانية التقادم عبر تقديم آليات ووسائل جديدة لهذا العمل الصالح لكي يكون صالحاً باستمرار..

مثال على ذلك: الصدقة على باب المسجد في عصر ما قد تكون عملاً صالحاً من ناحية المبدأ.. لكن استمرار وجود من يتسوَّل على أبواب المساجد يعني **أن «العمل الصالح» ليس على ما يرام.. لأنه لم يجفف منابع الفقر ولم يحقق العدالة الاجتماعية، ولم يحفظ كرامة الناس..**

أي أن العمل الصالح - لكي يحتفظ بهذا الوصف - يجب أن يرتبط بآليات متغيرة دوماً، توسع من آفاقه، وتَجِدُ لتحقيق الهدف طرقاً لم تطرق من قبل.

هذا أولاً..

ما يهمنا هنا أيضاً هو التذكير بأن الفساد والصلاح المتضادان لا يعنيان «نسبية مطلقة» تطيح بالثوابت.

كيف؟

العلاقة بين **الصلاح والفساد ليست ارتدادية في الاتجاهين..**

الثمرة الصالحة تفسد بعد مرور الوقت..

لكن الفاسدة لن تصلح..

وهذا يعني أن ما هو فاسد سيبقى فاسداً بكل الأحوال..

لكن الصالح ستنتهي صلاحيته.. وسيتطلب أن ينشأ صالح جديد بدلاً عنه.

◆◆◆

ثانياً: نجد في معنى «صلح» في لسان العرب إشارة مهمة إلى **«الكثرة»..**

وهذا يعني أن هذا العمل «الصالح» لا يمكن أن يكون كما يجب.. **إلا عندما يتغلب على العمل الفاسد.. بقاؤه ضمن نسبة محدودة ومهمشة مقابل نسبة غالبة لعمل فاسد ومضاد لا يخرجه عن نطاق تأثيره فحسب، بل عن نطاق تعريفه.**

ماذا يعني هذا؟ وكيف يمكن لأفراد أن يقوموا بعمل صالح (بمعنى غالب وكثير) أمام تيار الفساد والإفساد الجامح الذي يسيطر كالطوفان أحياناً على مجريات الأمور حولهم؟

الجواب هذا سيأتي مفصلاً لاحقاً، لكن جوابه السريع هو **أنهم لكي يقوموا بعمل صالح عليهم أن يكفوا عن أن يكونوا أفراداً.. بل عليهم أن يعملوا على نحو جماعي..** عندها فقط يمكنهم أن يحوِّلوا عملهم «بالنية الصالحة».. إلى عمل صالح.. بالمعنى الذي ذكرناه.

العمل الصالح: العمل بمرتبة "القبلة"..

لكن هناك معنى آخر يمكن استمداده من لسان العرب، يفتح لنا آفاقاً مختلفة تقربنا من المعنى الحقيقي للعمل الصالح.. المعنى الذي فهمه الجيل الأول.. والذي أنجزوا عملهم الصالح على أساسه.

ماذا يقول لسان العرب عن هذا؟

يقول ببساطة ما نسيناه تماماً، وسيكون معلومة جديدة بالنسبة للكثيرين (وأنا منهم إلى أن وجدت هذه المعلومة)..

يقول: إن «صالح» هو اسم علم من أسماء.. مكة..!

◆◆◆

هذا المعنى الأخير يربط الصلاح وكل ما **يرتبط به من معانٍ بقضية «العمران» و«البناء الاجتماعي» بقضية البناء الحضاري..**

العمل الصالح هنا يرتبط بمكة مباشرة.. ومكة ليست مجرد مدينة في وادٍ غير ذي زرع.. فهي **بالنسبة لنا نحن المسلمين القبلة.. المدينة التي نتجه إليها خمس مرات على الأقل كل يوم.. الموقع الذي علينا دوماً أن نعرف موضعنا بالنسبة إليه.. واتجاهنا بالنسبة إليه.**

ليست مجرد مدينة.. **بل مدينة تضم أول تجربة حضارية بُنيت على لا إله إلا الله..** كل المراكز الحضارية المعروفة بُنيت غالباً على تجمع اقتصادي، على حوض نهر أو طريق تجاري أو منطقة تزدهر في الثمار السهلة.

لكن مكة، وحدها مكة قامت على لا شيء من هذا.. قامت على توحيد خالص مخلص من كل شيء آخر.

إنها المدينة الفريدة في هذا المجال.. لا مشكلة طبعاً في أنها تحولت مع الوقت لتجذب طرق التجارة.. لكن حجر الأساس فيها كان التوحيد.. ولهذا فهي ستبقى تمثل هذا الرمز الحضاري المتفرد.. حضارة لا إله إلا الله.

عندما ترتبط كلمة "صالح" بهذه المدينة تحديداً.. **فإن تعبير "العمل الصالح" سيرتبط بمكة المعنى.. مكة الرمز الحضاري.. مكة المدينة التي يجب أن تتجه إليها حضارتنا..**

وهذا سيجعل "العمل الصالح" مرتبطاً فوراً **بمعنى العمل الذي يصب في هذا.. في حضارة لا إله إلا الله..** التي هي ليست بناء شاهقاً على أسس غير متوزانة.. ولا جنة لشراء سلع استهلاكية.. بل هي عدالة اجتماعية، وتحقيق لذات الإنسان وحقيقة هويته في مناخ من التوازن والانسجام..

كل عمل لا يصب في ذلك.. في بناء وعمران وإعمار مجتمع لا إله إلا الله.. لن يكون ضمن "العمل الصالح".

العمل الصالح بثلاثة شروط

هذه المعاني الثلاثة يجب ألا تغيب عن بالنا إذن ونحن نحاول أن نتقصى معنى «العمل الصالح»..

الصلاح والفساد المتضادان، الصلاح الذي تنتهي صلاحيته فيفسد..

الكثرة التي تغلب الفساد..

والعمران.. الحضارة المبنية على لا إله إلا الله..

في كل مرة نتقصى المعنى في العمل الصالح سنجد هذه المعاني تقودنا إلى الجوهر الذي نريد الوصول إليه في العمل الصالح.

الإصلاح.. ما استطعت.. وإلا!

من أهم معاني العمل الصالح تلك المرتبطة بقصة النبي شعيب كما عرضها الخطاب القرآني..

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٤-٨٨].

المشهد يمثل مجتمعاً يعاني من مشاكل «عقائدية» - فكرية.. ولها بطبيعة الحال امتدادات وظلال سلوكية وأخلاقية.. إنهم يعبدون غير الله.. ما الذي يعبدونه؟

لا نعرف تحديداً.. ربما كانوا يعبدون أنفسهم.. ربما كانوا يعبدون سلعهم وبيوتهم وترفهم أو رفاهيتهم.. ربما كانوا يعبدون أوثاناً تمثل كل ذلك.. وربما كانوا أيضاً يقومون بشعائر موجهة لله.. لكن حياتهم كلها موجهة لآلهة أخرى.. المكيال والميزان هنا لم يكن مجرد وسيلة اقتصادية للتعامل مع السلع، بل كان وسيلة اجتماعية في النظر إلى الأشياء وفق عدة مكاييل واعتبارات، دونما عدل ودونما توازن.. كان المجتمع يعامل ما حوله، بل حتى يتعامل مع بعض أجزائه بانتقائية في التعامل.. كيف؟

ربما كانوا مثلاً يعاملون الغني فيهم بمكيال محدد.. مكيال يمنحه من الحقوق والصلاحيات أكثر مما يمنح للفقير الذي يُنتقى له مكيال آخر.. ربما كان مكيال الغني إذا أخطأ مختلف عن مكيال الفقير إذا أخطأ.. حتى لو كان الخطأ واحداً.. ربما كان المكيال يختلف تبعاً لمعيار آخر غير الثراء والفقر.. ربما كان يعامل الذكر غير معاملة الأنثى.. فيغض النظر عن خطيئة الذكر.. ويرجم الأنثى بمختلف أنواع الحجارة.. على الرغم من أنها ما كان يمكن أن ترتكب ما ارتكبته دون شريك ذكر، لكنه عومل بمكيال وميزان مختلف.

ربما كان المكيال مرتبطاً بنسب.. أو بعرق.. أو بقبيلة.. أو بلون.. المهم أن هناك عدة مكاييل وموازيين استخدمها أهل مدين في التعامل مع الأشياء.

بل ربما كان إنسان مدين يستخدم عدة مكاييل وموازيين في التعامل مع نفسه.. ربما كان هناك مكيال واسع يتعامل فيه إنسان مدين مع بعض احتياجاته.. ومكيال آخر ضيق يتعامل فيه مع احتياجات أخرى لا تقل - بل ربما تفوق - أهمية سابقتها.

﴿لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ لا تعني بالضرورة فقط أن «التجار» أو «أصحاب المحلات والدكاكين» في مدين كانوا يعمدون إلى إحداث خلل ما في الميزان أو في تقييمهم لبضائع جاء بها الزبائن.. **بل كانت تعني أيضاً أنهم يقللون من قيمة أشياء معينة قد تكون هي أثمن ما يملكون.. وقد يزيدون من قيمة أشياء أخرى ليست بذات الأهمية حقاً.**

قد يبخسون من صدق إنسان ما، ويزيدون من أهمية فصاحة لسانه.. قد يبخسون من جوهره.. من صفاء نيته.. ويزيدون من قيمه مظهره.. أشيائه.. ملابسه.. سيارته.. «جواله».

مدين هكذا هي مدينة كل زمان ومكان.. إنها موجودة في كثير من المدن من حولنا..

ربما كنا نعيش في مدين أخرى دون أن ندري.

◆◆◆

أمام مجتمع تنخره المكاييل المتناقضة كان لا بد لمصلح ما صادف أنه هذه المرة كان رسولاً، تصادف أنه كان شعيباً.. ليقف ويحاول إيقاف هذا الفساد.

البدء من الإيمان وتصحيح العقائد لم ينعزل **أبداً عن تصحيح الامتدادات التطبيقية لهذه العقائد..** أي الأفعال والسلوكيات الناتجة عن الأفكار الخاطئة والمتمثلة في الكيل بمكاييل مختلفة.. فالعقيدة الخاطئة هي أيضاً كيل بمكيال خاطئ مع الخالق، وعدم تقديره قدره.. ومن لا يقدر الله حق قدره لا بد أن يفعل ذلك أيضاً مع خلقه.

لم يقل شعيب: **إن عليه أولاً أن يهتم ببناء العقيدة، ويترك بقية الأمور لاحقاً.. هذا الفصل النظري يعني شيئاً واحداً فقط.. إنك ستنتظر إلى ما لا نهاية.**

لن تصلح الأمور من تلقاء نفسها بمجرد إصلاح العقيدة أو الفكر.. أو بشرح كم هو خاطئ الفكر الآخر والعقيدة الأخرى.. لا يمكن لذلك أن يتم.. **لا بد من**

تطبيق عملي يصلح الفاسد، ويقدم في الوقت نفسه البديل المرتبط بالعقيدة الصواب.. وإلا كان كل ذلك مجرد محاربة للظلال.. **محاربة لظلال الأوثان بدلاً من محاربة الأوثان نفسها..**

وكان شعيب مثل غيره من المصلحين..

لا يريد إلا الإصلاح..

ما استطاع..

الفهم السلبي للآية الإيجابية

فهمت عبارة ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾.. أن للاستطاعة حدوداً تتوقف بعدها إرادة العمل والرغبة في التغيير..

والحقيقة هي أن هناك حدوداً فعلية.. لكنها ليست للاستطاعة..

بل للإصلاح..

هناك حدود للإصلاح لا يمكن تجاوزها..

ولكنها لا تعني في الوقت نفسه **حدوداً للقدرة البشرية..**

كيف؟.. وما معنى ذلك؟

معناه أن **الإصلاح لم يعد ممكناً في هذه الحالة..**

لكن الإرادة البشرية لا تقف عند ذلك..

فعندما يكون **الوضع غير قابل للإصلاح، لأن النخر والفساد يكون قد وصل للجذور.. للقواعد.. والأسس.. فإن الإصلاح لا يكون حلاً.. لا يكون سوى ترميماً عابراً.. دهاناً لامعاً براقاً على واجهة بناء آيل للسقوط..**

يكون العمل إذن على بناء جديد..

على أنقاض البناء القديم المتهالك..

أو في أرض جديدة..

العبرة: ﴿الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾.. تعني أني أستطيع بعدها شيئاً آخر..

إنها تهديد مبطن للحرس القديم.. **القائم على المؤسسات - غير القابلة للإصلاح - إن لم أستطع الإصلاح.. فسيكون هناك أمر آخر.**

كان يقول لهم: إنه إما الإصلاح أو الدمار.. ويذكرهم بتجارب حضارية مماثلة..

﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٨٩-٩٠].

لكنهم لم يكونوا يفهمون الربط بين الأمثلة التي يقولها.. قوم هود كانوا «جبارين»، وسكنوا مساكن في الجبال، قوم هود كان لديهم مشاكل مع «الناقة».. وقوم لوط لديهم مشاكل من نوع آخر.. لا ربط بين ما تقول أصلاً والوضع عندنا.. الوضع عندنا مختلف قطعاً.. وأنت لا تمثل سوى فئة قليلة مغرضة..

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود: ٩١-٩٢].

الحدود **التي يقف عندها الإصلاح لا تعني أن العمل انتهى.. بل تعني أن العمل على هذا النوع من الإصلاح انتهى ولم يعد يجدي..** وسيكون الاستمرار فيه نوعاً من إضاعة الجهد.. ولكن العمل لن ينتهي.. العمل الصالح سيتخذ طوراً آخر..

﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣].

ثم جاء العذاب، لم يفرق كثيراً في النهاية اختلاف أعراض المرض.. فالسبب الرئيسي كان واحداً.. وكان يرتبط بالفكر الفاسد، بالعقيدة الفاسدة، اختلفت ظلالها وامتداداتها، ولم يختلف جوهرها..

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤].

نجاة شعيب كانت لكي يبدأ في العمل الصالح.. في أرض جديدة.. على أنقاض ما مضى.. بعد أن نُظِّفت الأرض من الجذور الفاسدة.

◆◆◆

قصة مدين هي نموذج لما حدث في كثير من المجتمعات عندما لا يكون الإصلاح ممكناً؛ لأن شبكة الفساد والإفساد تكون مترابطة وتدافع عن كيانها بكل ما أوتيت من قوة.. عندها سيكون العمل من أجل إصلاح الشبكة مجرد محاولة لتطويل عمرها لا أكثر ولا أقل..

ولن تكون مجدية..

سواء كان السقوط يحدث بصاعقة.. بريح.. بزلزال مدمر.. بطوفان كاسح... بانهيار اقتصادي.. بحرب أهلية.. بغزو خارجي.. فإنه يحدث..

وعلى "المصلحين أن يبدؤوا من القواعد.. من الأسس..

أي محاولة للبدء في شيء آخر.. ستكون إضاعة للجهد والوقت..

◆◆◆

كل المجتمعات التي انتهت قصتها بعذاب في القرآن الكريم بعد محاولات إصلاح من قبل أنبياء بعثهم الله لها تمثل هذه الحالة التي لم تجدِ فيها محاولات الإصلاح في أغلب الحالات.. أغلب قصص الرسل مع أقوامهم انتهت هكذا..

لهذا جاء إيمان قرية يونس استثناء لهذه القاعدة..

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

◆◆◆

كل أصحاب الرسالات السماوية من الأنبياء.. ممن حملوا كتباً.. كان هدفهم إصلاح جذري.. يكاد يقتلع الجذور والأسس القديمة الفاسدة.. يكاد يهدم ليبني.. يغيِّر منظومة فكر كاملة فاسدة ليس من أمل لإصلاحها.

العمل الصالح، بهذا المعنى، يستمر حتى عندما نتجاوز الحدود الممكنة للإصلاح..

لكنه يأخذ شكلاً آخر..

بدلاً من الإصلاح الجزئي.. **الممكن فعلاً في بعض الحالات..**

يصبح إصلاحاً شاملاً.. من القاعدة إلى القمة..

ويبقى يحمل عنوان «العمل الصالح»..

كان لا بد من تحديد ذلك.. للتفريق بين إصلاح جزئي ممكن أحياناً عندما لا تكون قوى الفساد قد تشابكت وتضافرت.

الوصفة الصالحة - الوحيدة - للعمل الصالح

ما «العمل الصالح» إذن.. ما دمنا عرفنا أنه ليس مجرد «إصلاح»؟

من حكمة الخطاب القرآني أنه لا يقدم لنا أجوبة جاهزة عن هذا السؤال.. فجواب جاهز ومحدد سيتحول إلى قالب.. والقوالب لا مكان لها في العمل الصالح بالتعريف.. لأن ما هو صالح من عمل محدد في وقت محدد قد تنتهي صلاحيته في وقت لاحق..

الوصفة الصحيحة للعمل الصالح يجب أن تؤكد على أنه **لا وصفة «محددة» هناك.. بل هناك شروط.. ضوابط.. أهداف..**

لا قالب للعمل الصالح، لأن القالب سيفسده مع الوقت..

لذا..

الوصفة القرآنية لم تحدد له هيئة.. أو شكلاً محدداً..

العمل الصالح ليس مثل الصلاة أو الصيام.. لكي يكون له شكل أو وقت..

العمل الصالح يتجدد شكله **بالتعريف**.. إن لم يتجدد، إن لم يأخذ دوماً أشكالاً متجددة تجاري تغيرات الواقع، فهذا سيكون «تجاهلاً» للسنن الإلهية..

أهم ما في الوصفة القرآنية للعمل الصالح هو أن نعي ذلك..

◆◆◆

يدلنا الخطاب القرآني إلى «العمل الصالح» عبر إشارات معينة.. تدلنا على الطريق الذي يمكن «اكتشاف» العمل الصالح عبره.. البحث نفسه هو الذي يعلمنا أن نترك القوالب ونفهم دونما تلقين..

يدلنا على المناجم التي ننقب فيها لكي نجد «الكنوز»..

في الحقيقة هو يدلنا على "منجم" محدد..

أو كهف.. بالأحرى..

الكهف.. الذي نعرفه جيداً..

◆◆◆

سورة الكهف تحتل مركزاً «وسطاً» في القرآن الكريم.. ليس فقط في موقعها في تسلسل السور في المنتصف تقريباً، بل في تسلسل نزولها أيضاً الذي حدث في مرحلة مكية متقدمة.. قبل أن يشرع الجيل الأول من المسلمين في بناء مجتمعهم المستقل.. مجتمعهم الذي يثبت أن النظرية ليست مجرد نظرية.. بل يحولها إلى واقع قابل للتطبيق.

كان الإيمان قد ترسخ في عقول أفراد الجيل الأول خلال هذه الفترة.. لكن الإيمان كما عرفناه كان لا ينفصل عن نتائجه.. عما يؤدي إليه.. ولا ريب أن «العيش» في مجتمع معادٍ مثل مجتمع قريش كان يعرقل نتائج هذا الإيمان: العمل الصالح..

ولعلهم كانوا يتساءلون - كما نفعل اليوم - عن هذا العمل الصالح.. عن ماهيته.. عن آلياته.. لعلهم كانوا يتصورون أنه جزء من فعل الخيرات السائد في الجاهلية.. المروءة.. إكرام الضيف... إلخ.

لكن بوابة الكهف فتحت لهم آفاقاً غير متوقعة للعمل الصالح..

آفاق جعلتهم يتركون كل أمثلة المجتمع الجاهلي.. إلى أمثلة مجتمع جديد، وحضارة جديدة.

◆◆◆

لكن لماذا سورة الكهف تحديداً؟

لأنها ببساطة أكثر سورة تكرر فيها ذكر العمل الصالح والصالحات من بين كل سور القرآن الكريم..

وحاشا لله أن يكون في كتابه الخاتم ما جاء دونما حكمة أو مقصد.

في «الكهف» إذن خطوط عامة لمعنى العمل الصالح.. الذي نحتاج إلى فهمه وتطبيقه واستلهامه في كل مرحلة من مراحل حياتنا..

ما دمنا نعتقد أننا «مؤمنون».. وأن إيماننا يحفزنا لعمل شيء ما.. «صالح».

الباب الأول للكهف لن ينسى أبداً الإطار النظري- الفكري للإيمان.. **فالعمل الصالح سيبقى بحاجة إلى فكر سليم، لعقيدة سليمة لكي يكون صالحاً حقاً..**

﴿قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: ٢-٤].

الإنذار هنا جاء في مرحلة كان المسلمون فيها في وضع استضعاف **لا يسمح لهم بإنذار أي أحد..** بالذات عندما يكون موجهاً لفئة من أهل الكتاب كانوا آنذاك يمثلون حليفاً ممكناً، بالإضافة إلى أنهم كانوا يمثلون إحدى القوتين اللتين تسيطران على العالم آنذاك..

هكذا سيبدو لنا الأمر حسب المعايير السائدة.. لكن المعايير القرآنية للإيمان والعمل الصالح تتجاوز ذلك.. فلكي تحوز يوماً ما مرحلة الاستخلاف والخلافة.. فإن عليك أن تؤمن بأن **«إيمانك» يجب أن يجعلك أعلى وأفضل..** وإن لم يكن ذلك فالخلل فيك وليس في «الإيمان» نفسه.. والإنذار الموجه لأصحاب العقيدة الخاطئة موجه لك أيضاً وضمناً.. **إنه موجه للذين قالوا: اتخذ الله ولداً.. وموجه أيضاً - من باب أولى - لأولئك الذين لا يقولون: اتخذ الله ولداً.. لكنهم في الوقت نفسه لا يفعلون أي شيء بمقتضى ذلك.. لأولئك الذين يتشدقون بعقيدتهم السليمة دون أن يحولوها إلى عمل صالح.. أي أنهم ينزعون من عقيدتهم فاعليتها..** والفاعلية لا تقل أهمية أبداً عن «الصواب».. والتوحيد.

الخروج من كهف الفردية

أول ملمح من ملامح العمل الصالح ستكون **«جماعيته»..**

قصة فتية الكهف - وهي أول محور من محاور السورة - تدلنا على أن العمل الصالح (لكي يؤدي لثمرة ما.. أي لكي يكون صالحاً بالتعريف) يجب أن يكون جماعياً..

يمكن أن يكون هناك **صالحون منفردون.. عباد صالحون كل على حدة..** لكن ذلك استثناء عليهم هم – قبل كل أحد - أن يعملوا على «كسر» هذه الفردية.. على كل «صالح».. لكي يكون صالحاً حقاً.. أن يجد صالحين آخرين.. أن يوجدهم إن لم يجدهم.

لا يمكن لعمل صالح أن يكون وأن يستمر وأن يثمر دون وجود إطار تنسيقي

يجمع الجهود ليضعها في قناة واحدة.. دون هذا ستكون الجهود متناثرة، ولا قيمة حقيقية لها.

الإطار الجماعي يجب أن يتضمن «أفكاراً مشتركة».. إطار عقائدي ونظري فكري مشترك.. فالعمل الصالح ليس **«عملاً تطوعياً» في جمعية لعلاج مرضى السرطان لا يشترك أفرادها في شيء سوى «العمل لصالح مرضى السرطان فقط»..**

فتية الكهف لم **يكونوا متطوعي عمل خيري لا يجمعهم سوى هذا العمل.. بل كانوا أصحاب إيمان وعقيدة تحتم عملهم «الصالح» هذا.. وتحتم تجمعهم في «إطار ما»..**

كل ما في القصة يشير إلى **التنسيق بينهم..** حركاتهم وخططهم مدروسة على نحو مسبق وجماعي.. انسحابهم ومن ثم عودتهم كان بناءً على **«تخطيط» وعمل جماعي..**

كان هذا الإطار الجماعي هو ما جعل عملهم «يتحدى» القرون، ويبقى فعالاً وفاعلاً وقادراً على الإنتاج ولو بعد حين.. ولو أنهم تفرقوا وكانوا «فرادى» لما كان يمكن لعملهم أن يصمد.

وجود إطار تنسيقي تنظيمي، يجمع بين الفكرة والعقيدة الواحدة، هو أول ما تُخبرنا به سورة الكهف عن صفات العمل الصالح.

هذا الإطار هو الخطوة الأولى والأهم التي يجب أن تكون لكي يكون العمل الصالح صالحاً حقاً.. لأنه سيحفظ الجهود ويمنحها الدفق والاستمرارية لكي تتكاثف وتنتج لاحقاً.

◆◆◆

المشكلة التي ستواجهنا هنا هي أن كثيراً من الأنظمة السائدة في مجتمعاتنا تقف وبقوة ضد أي إطار تنظيمي لأنه يحمل في ثناياه «إمكانات» كامنة بتكوين حزب سياسي (يا لطيف!)..

هذه الأنظمة نفسها تشعر أن أي عمل تنظيمي يجب أن يمر عبر قنواتها الرقابية، وربما الاستخباراتية، سواء عبر إجراءات روتينية أو عبر دس عناصر لتلعب دور المخبرين الدائمين في هذا «العمل الجماعي»..

أدى ذلك إلى أن الراغبين في العمل الجماعي صاروا يحرصون على جمع من لا يجتمعون على فكرة ليضعونهم معا في «مجلس إدارة الجمعية».. بل صاروا يحرصون على أن يكون هناك أناس لا دينيين في «الصورة»، وربما لا يكون سواهم

في الصورة أصلاً، فقط لإبعاد تهمة الانتماء لفكر ديني.

ربما ينجحون فعلاً في إبعاد التهمة.. لكنهم في الوقت نفسه **يبعدون هذا الركن الأول من العمل الصالح.. أي جماعية العمل على فكرة وعقيدة واحدة.**

◆◆◆

ما العمل إذن مع أنظمة كهذه؟.. من يلجأ إلى حلول «التفافية» كهذه يحاول على الأقل أن يعمل شيئاً ما.. فما العمل إذا كان هذا يطيح - كما أدّعي - بالركن الأول من العمل الصالح؟

الحل لا بد أن يكون جذرياً..

إن كانت الأنظمة قمعية لهذه الدرجة فلا شيء سيجعلها **تتساهل لاحقاً مع أي عمل صالح - بالمعنى الصالح - وستبقى تحاربه وتحارب العاملين عليه بكل الأحوال..** (في أحد الأنظمة القمعية حوكم أشخاص لمدة عام وأكثر لمجرد أنهم قاموا على نحو جماعي بتنظيف الشوارع في مدينتهم!).

والحل الجذري هو في **دعم كل ما يمكن أن يزيح القمع عن هذه الأنظمة..** أو يزيحها أيضاً بما يتيح لأصحاب أي فكرة الاجتماع للعمل الذي ينتج عنها.. أي فكرة أو عقيدة أو مبدأ مهما كان مخالفاً لما نؤمن به.

الخطوة الأولى للخروج من الكهف هي السماح بالعمل الجماعي - بغض النظر عن تسمية هذا العمل - وبدون هذه الخطوة لا يمكن لعمل صالح أن ينمو وينشأ ويؤتي أُكله..

إذا كانت هذه الخطوة الأولى غير مسموح بها.. **فلا بد من أن تتوجه كل الجهود - سراً وعلانية - نحو العمل على السماح بها..**

مهما كانت هذه الجهود..

جماعية العمل في الإسلام هي من الأمور البديهية.. والنصوص عليها أكثر من أن تعد أو تحصى.. بل إنها تتعدى فكرة «إحصاء نص» إلى اللغة المستخدمة في عموم النصوص.. أي في الاستخدام الدائم لصيغة الجماعة بدلاً من صيغة المفرد التي يمكن استخدامها في كثير من المواضع.. لكنه عز وجل اختار بحكمته أن يضع صيغة الجماعة.. في فاتحة الكتاب مثلاً، لا صلاة بلا فاتحة الكتاب، قد تصليها منفرداً في الصحراء، أو منفرداً وسط الملايين، لكنك في الحالتين ستتحدث بصيغة الجماعة،

ستقول: اهدنا.. وليس اهدني.. ستقول: إياك نعبد وإياك نستعين، وليس: إياك أعبد وإياك أستعين[٧٤]..

العمل الجماعي إذن أمر مفروغ منه، لكن سورة الكهف تُقدم **لنا عملاً جماعياً منظماً يقترب من الصورة النمطية التي في أذهاننا عن العمل الحزبي الذي يمتلك هيكلاً تنظيمياً**.. هل ذلك مخيف؟ هل يستدعي ذلك كل المخاوف التقليدية من الأحزاب؟.. وهل يستدعي ذلك كل سلسلة الأخطاء التي ارتكبت من قبل هذا التنظيم الإسلامي أو ذلك.. والتي تُستدعى غالباً لا من أجل تجنب الأخطاء، بل من أجل تجنب فكرة التنظيم نفسها؟

الأمر مشابه هنا بسخفه وسذاجته لفكرة **من يكفُّ عن أداء الصلاة فقط لأنها ليست بالخشوع المناسب.**

جنتان على الأرض

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٣٢-٤٥].

الصورة الثانية التي تقدمها لنا السورة هي صورة عمل منتج قد يشبه في بعض

٧٤ للمزيد يمكن مراجعة كتاب الفردوس المستعار، فصل الفردية.

الأوجه الصورة التي يمكن أن توجد عند غير المؤمنين..

الفهم المباشر لكلمة الجنة يرتبط بالبستان أو المزرعة المثمرة.. ولا شيء يمكنه أن يلغي هذا، لكن الفهم المتمدد سيجعل من الجنة أي مكان منتج .. الأُكل - الثمار هي هذا المنتج.. والأنهار هي كل المصادر الأولية التي يمكن استثمارها في أي إنتاج..

لكن قوة الإنتاج - أو الثراء المادي - ليست معياراً نهائياً على الإطلاق.. وهي ليست هدفاً بحد ذاته.. بل هي وسيلة.. فإن تحولت إلى هدف حادت وبعدت..

وهكذا فإن من يقول: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾.. يكون قد جعل من المادة والقوة معياراً لقياس الصلاح.. وهذا خطأ فاحش.. **فالعمل الصالح يحتاج إلى المادة، ويحتاج إلى القوة ليحقق ما يريد.. وليس كي يؤدي إلى «المزيد» من المال والقوة..**

هذا المزيد الذي سيؤدي بأصحابه إلى الاعتقاد **أنه كل ما هنالك** من «عمل صالح» سيكون نقطة **الاختلاف الفارقة** بين **العمل الصالح الحقيقي** - الذي يستخدم المادة والقوة - للوصول إلى هدف أعلى ليحقق ما أراده الله من مجتمع متوازن وعادل.. وبين العمل الذي يشبه العمل الصالح لكنه ليس كذلك.

فلننتبه هنا إلى أن المشهد الذي تقدمه لنا هذه الآيات يتحدث عن «الظلم» الذي يقع فيه أولئك الذين يسقطون في هذا المطب.. فهو ظالم لنفسه، **ربما يعتقد هو أنه يحقق عدالة للجميع عبر ما يقدمه من «منتجات» و«سلع»**.. لكن الحقيقة هي أن هذا يتضمن ظلماً للجميع، بمن فيهم هو.. **ظلم لأنه يَحرِمُهم (ويَحرِم نفسه) من «ممارسة» ما خُلق من أجله.. عبر تقديم «أهداف» أخرى تشغلهم، وتصور لهم أن الحياة مجرد لهو وتكاثر وتفاخر بالزينة والأولاد والأموال..**

بينما هدفها الحقيقي **يرتبط بالاستخلاف.. ويمر عبر طريق واحد له خطان: الإيمان والعمل الصالح.**

◆◆◆

هذا الظلم «المقنع» بالثراء ووفرة الإنتاج سرعان ما سيتفتق عن خواء داخلي قد يتجسد في انهيار اجتماعي.. حالات طلاق.. عائلات من أم فقط.. مخدرات.. انتحار.. خواء قد لا يصمد عند أول ضربة موجعة.. فيعود كالهشيم تذروه الرياح..

وهذا يقودنا إلى الآية التالية لهذا المشهد في سورة الكهف:

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأرض فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

المثل هنا يتحدث مرة أخرى عن النبات.. أي عن منتج بشكل عام.. وهو يربط المثل «بالحياة الدنيا».. **عن هذا النمط «المتدني» من الحياة الذي مثله صاحب الجنتين**.. النمط الذي يربط الحياة بزيادة منتجات وتكاثرها.. وزيادة عدد الأفراد المتبعين لهذا النمط دون التفات إلى حقائق أساسية خُلق الإنسان من أجلها..

هذا النمط من الحياة القائم على التكاثر والزيادة سيؤتى من حيث مصدر زيادته وازدهاره..

كيف؟

الماء أصل بالنسبة للنبات والثمار، وهو وسيلة لزيادته وازدهاره.. لن ينمو شيء دون الماء..

لكن حتى الماء عندما يأتي أكثر مما يجب.. أو في غير موعده فإنه يتحول ليكون أداة دمار.. ويتحول الثمر ليكون هشيماً تذروه الرياح..

وهذا يحدث في «الحياة الدنيا» أيضاً..

في مرحلة معينة يتحول ما كان سبباً في ازدهار هذه الحياة - الدنيا، أي بالمعايير الدنيوية المتدنية، يتحول ليصير سبباً في الانهيار.. عندما زادت وتجاوزت الحدود، وكانت بلا قيم كامنة ضامنة..

تزداد معدلات الربح والفائدة، تتراكم السلع، تتراكم الأرصدة في البنوك..

وفجأة..

ينهار كل شيء..

يصبح هشيماً تذروه الرياح.

◆◆◆

لكن السياق لا يتركنا دون أن ينبهنا لما يبقى..

فليس كل عمل، وليس كل إنتاج يتحول إلى هشيم تذروه الرياح.

هناك ما يملك القابلية على الصمود..

على البقاء..

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٦٤].

الزينة دوماً شيء ظاهري.. شيء يوضع على السطح.. أو هي السطح نفسه في بعض الأحيان.. المرأة تتزين (سابقاً فقط المرأة.. الآن تتزين المرأة، ويتزين أيضاً بعض الذكور) وتكون هذه الزينة سطحية.. متعلقة بما هو خارجي تماماً..

وكذلك المال، بل حتى البنون، يكونان **مجرد زينة عندما تكون الحياة بقيم دنيا متدنية.. المال لمجرد الاستمتاع واللهو والمكاثرة.. والبنون «لهو» و« مكاثرة» وطلب للعزوة والقوة..**

لكن ذلك كله يمكن أن يتغير عندما تكون القيم «المحركة» مختلفة..

كل ما يبدو أنه مجرد زينة.. أو وُظف على أنه مجرد زينة.. يمكن أن يجد له وظيفة ما في عالم القيم المحركة الأكثر عمقاً..

المال يبدو مجرد زينة في الحياة الدنيا.. زينة تطفو على السطح، وتقدم ما هو سطحي وعابر..

لكن عندما تتجه القيم المحركة باتجاه آخر.. اتجاه ليس «متدنياً».. فإنه يكفُّ عن أن يكون زينة.. ويذهب ليصنف في «الباقيات الصالحات»..

الباقيات الصالحات: مؤسسة العمل الصالح

لكن ما هي الباقيات الصالحات؟

الصالحات هي أعمال صالحة، ولا زلنا نتابع ما معنى «الصلاح» بالضبط..

لكن من الواضح أن **الباقيات الصالحات هي أعمال صالحة تتجاوز حدود زمان إنتاجها، فتبقى صالحة، وتبقى منتجة، وتبقى فاعلة حتى بعد ذهاب أصحابها..**

كيف يحدث ذلك؟ فلنتذكر هنا ما قالته الصورة الأولى من سورة الكهف، صورة فتية الكهف: جماعية العمل..

جماعية العمل «الصالح» تقود حتماً إلى **تكوين مؤسسات..** أو خطة عمل منهجي..

يؤدي هذا إلى أن يخرج العمل الصالح من الإطار الفردي العابر.. إلى «الباقيات الصالحات»..

مثال على ذلك..

عندما يقوم مؤمن ما بمساعدة فقير ما، فهو يقوم بعمل صالح دون شك..

لكن عندما يقوم مجموعة مؤمنين بمساعدة الفقراء، فإنهم غالباً يضعون منهجية عمل، مؤسسة عمل، حتى لو كانت بدون مكاتب أو بناء، فإنهم يقومون بعمل صالح يقترب أكثر فأكثر من «الباقيات الصالحات»..

«العمل الجماعي» بطبيعته سينتج نواة لعمل يستمر، يذهب مبتكروه ورواده الأوائل، ولكنه يجد من يحمل شعلته، ويجددها ويمضي بها إلى هدفها.. فيصبح ضمن «الباقيات الصالحات»..

لكن الباقيات الصالحات ليست عملاً جماعياً فقط.. فكثيراً ما تترهل المؤسسات، وتحيد عن أهدافها، بل تتحول لتكون عقبة في طريق تحقيق هذه الأهداف..

فما لا يقل أهمية عن «جماعية» العمل و«مؤسسيته» هو تحديد **إطار نظري وفكري واضح لتحديد هذا الهدف..**

عندما يقوم مؤمن ما بعمل **يساعد على تجفيف منابع الفقر،** حتى وإن لم يقم عملياً بتوزيع أموال على الفقراء، فإنه أيضاً يقوم بعمل ينتمي للباقيات الصالحات.. **كأن يضع أسساً لنظرية اقتصادية جديدة تقلص الهوة بين الطبقات في المجتمع، وتقضي على الفقر..**

نظرية كهذه قد تكون «عملاً فردياً» في بدايته، ينتجها مفكر أو باحث ما.. لكن لاحقاً، عندما يعمل الباحثون على التنظير والتفكير بوسائل التطبيق.. فتصبح بالتدريج عملاً جماعياً يحوّل النظرية إلى فئة الباقيات الصالحات.

هكذا يمكن **لكتاب ما أن يكون من ضمن الباقيات الصالحات..** ويمكن لكل من ساهم في نشره أن يكون ضمن من ساهم في ذلك..

الأمر نفسه مع أي نظرية علمية تيسّر أداء الإنسان في هذه الحياة.. في أي عقار طبي.. في أي طريقة علاج.. أو طريقة بناء تجعل درب الإنسان في هذه الحياة أيسر.. توفر له الوقت ليقوم بما خُلق من أجله.

العدل قبل الرخاء دائماً

ما تقوله لنا قصة «صاحب الجنتين» عن «العمل الصالح».. هو **أن الرخاء بحد ذاته ليس هدفاً من أهداف العمل الصالح.. بل إنه يكون مناقضاً للعمل الصالح إذا اختلط بالظلم**، سواء أكان هذا الظلم للآخر (للفقراء.. للطبقات الأقل نصيباً من الثروة) أو ظلم للنفس بإخراجها عما أراد الله بها ولها.

العدل قبل الرخاء، لكن الرخاء بحد ذاته ليس مشكلة ما دام العدل متحققاً.. وما دام بقي وسيلة تمكّن الإنسان من تحقيق ما خُلق من أجله، ولم يكن هدفاً بحد ذاته..

كل عمل منتج لا يؤدي إلى العدل.. أو يساهم في توفير مناخ يؤدي إلى العدل.. لا يمكن أن يكون عملاً صالحاً..

ليس بالضرورة أن يكون عملاً طالحاً..

لكنه ليس عملاً صالحاً بالضرورة.

❖❖❖

ليس غريباً بعد هذا أن تتحدث الآيات اللاحقة عن سجود الملائكة لآدم..

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

فالعمل الصالح، وقدرة الإنسان على أدائه، بخياره واختياره، بإبداعه في تجديده وابتكار صور جديدة غير مكتشفة له، **يعتبر من أهم ما يجعل الإنسان مؤهلاً لهذه المنزلة.. المنزلة التي يُسجد فيها الملائكة له.**

المؤسف هو أن يبذل البشر، بعضهم على الأقل، وربما معظمهم أحياناً، كل جهودهم وطاقاتهم الكامنة، ليقدموا أعمالاً تثبت **أنهم غير مؤهلين لهذه المنزلة.**

الفكرة أن العمل **الصالح لا يمكن أن يُعرف إلا من خلال هذه المنزلة**، منزلة الإنسان العليا التي كرمه الله بها عندما أمر الملائكة بالسجود له..

يوم تساءل الملائكة عن هذا الأمر قالوا: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

الفساد هنا بمواجهة العمل الصالح..

أتجعل فيها من يفسد فيها؟..

يأتي هنا الإنسان بالعمل الصالح ليثبت العكس.. يثبت أنه لم يفسد فيها، **بل أصلح.. بل قدم عملاً صالحاً.**

◆◆◆

لكن ماذا عن أولئك الذين لم يفعلوا هذا ولا ذاك؟

ماذا عن أولئك الذين لم يفسدوا.. لكنهم لم يقوموا بعمل صالح في الوقت ذاته؟

يبدو أن هذا الوضع لا وجود له..

في هذه الحياة إما أن تكون هنا أو هناك.. إما أن تفسد وإما أن تعمل صالحاً.. إذا كنت لا تعمل صالحاً فأنت تفسد أيضاً.. مجرد **البقاء في نقطة ما دون أداء عمل صالح فإنه مساوٍ للفساد.. مجرد تبديد وقتك وطاقتك في اللاشيء هو مساهمة في الإفساد..** لا حياد هناك في العمل.. إما أن تكون مع العمل الصالح..

أو مع الفساد.

وتخريب الخراب عمل صالح أحياناً

الصورة الثالثة من سورة الكهف تقدم لنا سيدنا موسى وصاحبه وهما يجولان في أرض الواقع..

الصورة تقدم لنا واقعاً حوصر فيه العمل الصالح حتى صار من الصعب أداؤه..

وهنا يأتي الفهم الأعمق للنصوص الشرعية الذي يتجاوز الصعوبات والعوائق ليصل إلى نفس النتيجة: العمل الصالح..

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً (٧٣) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً (٧٦) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ

﴿لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧١-٧٧].

في الأحوال العادية سيبدو ما فعله العبد الصالح هنا «عملاً غير صالح».. لقد قام بتخريب السفينة، وقام بقتل شخص ما دون ذنب واضح، وقام أيضاً بالتنازل عن حق موسى في الأجر على الرغم من أن موسى كان بحاجة إليه..

لكن نظرة أخرى أهم وأكثر تحليلاً.. ستكشف لنا عن جانب آخر **من العمل الصالح الذي يتنكر بزي العمل غير الصالح..**

التخريب هنا كان عملية تؤدي إلى الخلاص من طمع المستبد.. كان عملية يلتف فيها المؤمن على العمل الفاسد الذي يقوم به المستبد.. **كان تخريباً إيجابياً إذن..** كان تخريباً من أجل الإصلاح.. هل يمكن أن يحدث شيء كهذا؟.. نعم.. أحياناً **لا يمكنك إلا أن تخرِّب الخراب..** ولا يمكن أن يُعَدَّ ذلك إلا عملاً صالحاً.. لأنه سيؤدي إلى بناء جديد على أسس صالحة.. أما استمرارية الترميم وأداء الأعمال الصالحة على سفينة يغتصبها المستبد بكل الأحوال - أو سفينة اغتصبها فعلاً وقد يكون اسمها الوطن - فهذا لا معنى له..

خرق السفينة كان عملاً إيجابياً موجَّهاً ضد كل من ما يحاول استلابك، والاستبداد بك.. ضد كل النظم والمؤسسات القائمة التي تستغل «أموالك» و«ممتلكاتك» لتكون أنت «ملكها» بالتدريج..

هذا الخرق كان بالتأكيد عملاً صالحاً..

وكذلك هو كل عمل تخريبي، يقوم بتخريب ما هو قائم على الظلم والفساد..

لأنه سيؤدي لاحقاً.. لما يجب أن يكون.

◆◆◆

المثال - وأكثر - سينطبق على حادثة «القتل» التي قام بها العبد الصالح..

لكنه كان عملاً صالحاً أيضاً.. **القتل[٧٥] نفسه عمل صالح عندما يكون القتيل عقبة في طريق العمل الصالح، وفي طريق أن يساهم الناس في هذا العمل الصالح..**

صحيح أن هذا قد يفتح باب القتل والعنف المجاني إن تخلى الفهم عن الضوابط، لكنه مهم أيضاً لكي نؤمن تماماً بأن حياة إنسان ما ترتبط بعمله، الله وهبه هذه الحياة لكي «يستخلف».. (أي يؤمن ويعمل صالحاً).. حياته تفقد كرامتها وأهميتها

٧٥ ليس بسفك دم حلال بطبيعة الحال، وليس لأفراد عابرين أن يقرروا ذلك.

إذا ما كان كماً مهملاً، كصفر على الشمال..

لكن هذا الصفر على الشمال قد يختار أن يكون **عاملاً مؤثراً ليفسد الناس، ليتحول من اللاشيء.. إلى الشيء السالب..**

ونحن نعرف يقيناً عدداً من الأشخاص الفاعلين اجتماعياً، الذين ساهموا قطعاً في نشر الرذيلة والتفاهة، وقاموا بتخدير وعي الناس بشتى أنواع المخدرات (من الجنس، إلى التسلية السطحية الماجنة، إلى الفهم السلبي للدين)..

لا يمكن اتهامهم بكل ما يحدث، ولا يمكن تبرئة من اتبعهم تماماً، **لكن «أئمة الشر» هؤلاء لهم قسط كبير من المسؤولية تجاه انتشار الفساد بشتى أنواعه..**

ونحن نعرف أن إزالتهم من الساحة بهذه الطريقة أو تلك.. هو عمل صالح أيضاً..

حتى لو اتخذ شكلاً «غريباً» علينا.. وعلى سيدنا موسى أيضاً..

الترميم في انتظار الفرصة السانحة

في المشهد الختامي من رحلة العبد الصالح وسيدنا موسى نرى العبد الصالح وهو يتنازل عن حقه وحق موسى في الأجر الذي استحقاه عن عملهما، في الوقت الذي كانا بحاجة ماسة إلى ذلك الأجر بسبب جوعهما ورفض أهل المدينة إطعامهما..

ما فعله العبد الصالح في هذا المشهد كان أنه وموسى قاما ببناء جدار «آيل للسقوط»..

قد يبدو هذا للوهلة الأولى عملاً صالحاً بالمعنى التقليدي.. معنى المساعدة المباشرة، وهو أمر لا مكان له في هذا السياق، لأن كل ما فعله العبد الصالح كان له شكل مختلف عن العمل الصالح التقليدي..

لكن ما هو غير تقليدي هنا **أن العبد الصالح كان يدرك أن هناك كنزاً تحت الجدار، وأن انهيار الجدار كان سيكشف الكنز ويرده لأصحابه الذين هم بحاجة ماسة له.. أي أن العمل الصالح - التقليدي- كان هو المساهمة في كشف الكنز ورده لأصحابه..**

لكن لا.. سيكون ذلك بمثابة تسهيل للملك بأخذ السفينة، سيكون تسهيلاً لمن لا يستحق بالسيطرة على الكنز..

كشف الكنز إذن كان سيؤدي إلى عمل غير صالح..

فهو عمل غير صالح إذن..

والعمل الصالح في هذه الحالة هو ألا نترك الكنز بيد المستبد الناهب.. **بل أن تؤجله لكي يكون بأيدي من يستحقه..**

الهدم قد يكون عملاً صالحاً أحياناً..

والترميم قد يكون عملاً صالحاً في أحيان أخرى..

في الحالتين، بل في كل الحالات يرتبط الأمر بمآلات ما يحدث.. بنتيجة العمل الصالح.. وليس بنقطة انطلاقه مجردة عن الواقع المحيط بها.

قرنان لا قرن واحد

الفصل الختامي لسورة الكهف يكون في ذروة مفهوم العمل الصالح.. التي مثلها «ذو القرنين»..

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَباً (٨٥) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً (٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (٨٩) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً (٩٠) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْماً لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ [الكهف:٨٣-٩٧]

ذو القرنين إذن يمثل النموذج الأعلى الذي تتجلى فيه معاني العمل الصالح.. فماذا نجد في هذا النموذج؟..

يوجد التمكين في الأرض، وهو وسيلة وليس غاية بحد ذاته، إنه حالة «تنتج» عن الحصول على الأسباب، لكنه يبقى أيضاً ضمن نطاق اجتماع الأسباب.

بالتعريف، **التمكين هو امتلاكك أسباب معينة «يمكنك» من خلالها أداء ما خُلقت لأجله إلى الحد الأقصى**.. تنشر العدل، وتنشر التوزان، وترفع الظلم الذي يمارسه البشر بعضهم على بعض وعلى أنفسهم أيضاً..

«التمكين» هو العنوان العريض في مشهد ذي القرنين.. لكنه تمكين من أجل نشر الحق، تمكين محكوم بما يحاول أن يقوم به..

بعبارة أخرى: قرآنياً، فرعون «علا في الأرض».. ولكنه لم ينل التمكين.. لا توجد آية واحدة تشير إلى تمكينه في الأرض..

وإنما التمكين ليوسف..

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأرض وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ١٢].

ولذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأرض وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾[الكهف: ٤٨].

وللذين يؤدون للتمكين حقوقه وأسبابه: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأرض أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ١٤].

لا يعني ذلك أن التمكين يُنال باستحقاق أبدي، فقد يحدث أن ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٦٢] **لكن التمكين، ابتداءً، كان لمجتمع، لحضارة، استخدمت إمكاناتها وأسبابها في السياق الصحيح، في سياق الاستخلاف، في سياق ما خُلقت من أجله.**

قد تنحرف الأمم والحضارات لاحقاً عن أهدافها.. فتنتقل من التمكين إلى العلو والاستكبار.. وقد تبدأ بعض الحضارات الفرعونية طبعاً وطابعاً بالعلو وتنتهي عنده.. ولدينا في حضارات الاستكبار والعلو العالمي المعاصرة أمثلة واضحة.

لكن الأساس أن **التمكين هو وسيلة «تمكنك» من أداء متطلبات معينة.. وليس مجرد امتلاكك الوسائل والأدوات..**

ليس مجرد امتلاك الإمكانات بمعزل عما سيحدث بها..

فما الذي فعله ذو القرنين بما مكنه الله منه من أسباب وإمكانات؟

سنرى منه خطين عريضين بميزان رحلته ومسيرة استخلافه:

العدل الذي لا يتحقق إلا بمعاقبة الظالم ومكافئة المحسن..

﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً﴾ [الكهف: ٨٦-٨٨].

وعزل المفسدين..

﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً﴾ [الكهف: ٩٤-٩٥].

ما الذي يعنيه هذا؟

يعني أن ذا القرنين.. بتفوق إمكاناته.. بحيازته الأسباب.. **لم يجيرها لصالح تحقيق الرفاه والمزيد من الراحة والرخاء..**

بل وضعها في خدمة القيم.. في خدمة تطبيق القيم، في **تحويل تلك المبادئ التي آمن بها فتية الكهف وفروا بها إلى واقع حقيقي..**

وضعها في خدمة تحويل ما كان مجرد **نظرية يتحاور فيها المؤمن مع صاحب الجنتين إلى حقيقة عملية** تدحض أية نظرية لا بالبراهين المنطقية، بل بالوجود المجرد الأفصح والأبلغ من كل نظرية..

وضعها في خدمة فقه الواقع الذي مثله «العبد الصالح» في رحلته مع موسى.. بحثاً عن وسائل مختلفة قد تبدو للوهلة الأولى غير شرعية، لكنها في صلب الشريعة عندما يكون الوضع استثنائياً بما يمنُع «العمل الصالح» بشكله المباشر..

كل من هؤلاء عملوا للوصول إلى مرحلة ذي القرنين..

وذو القرنين احتوى كل ما فعلوه..

تتداخل المراحل، عمل صالح متنوع الأسماء والمواقع..

لكنه يجري ليصب في ذلك المصب النهائي الذي يعبر عنه مشهد ذي القرنين..

حضارة عملاقة تسخِّر أسبابها وإمكانياتها لتحقيق قيمها..

كل عمل صالح مهما كان صغيراً لن يكون صالحاً، ما لم يضع صاحبه هذا التتابع وهذا الهدف النهائي في باله..

حضارة ذي القرنين التي امتلكت الجانبين اللذين نادراً ما تزاوجا عبر التاريخ: **القيم وتطبيقها..**

بعبارة أخرى، أكثر وضوحاً:

حضارة الاستخلاف..

ما الذي قدمته لنا في المجمل سورة الكهف عن العمل الصالح؟

أولاً - إنه عمل «**جماعي**».. حتى لو أُدي من قبل فرد، فإن هذا الفرد يجب أن يفكر لا في مصلحة الجماعة فحسب، فهذا أمر مفروغ منه، ولكن أيضاً في طريقة تحويل هذا العمل إلى عمل جماعي، بكل ما يتطلب ذلك من آليات، طرق عمل، قيادة، مؤسسات... إلخ.

المهم أن يكون «جماعياً»..

دون ذلك سيكون من الصعب جداً الوصول إلى نتائج، وبالتالي فإن تعريف «العمل الصالح» قد لا ينطبق على «العمل الفردي» إلا عندما يكون بقصد مباشرة العمل الصالح جماعياً.

ثانياً - إن هذا «العمل الصالح» قد يكون «**ضد التيار الاجتماعي السائد**».. وهو

كذلك فعلاً في الحالات التي تكون فيها الحاجة إلى «العمل الصالح» في أشد حالاتها.. المهم هنا أن لا تكون هناك **مساومات تفرغ العمل الصالح من مضمونه عبر عزله عن الإيمان**، أي عبر عزله وفصله عن البناء النظري المؤدي له، أي عبر اعتباره مجرد «عمل» يمكن لغير مؤمن أن يؤديه بالنتيجة نفسها والتسمية نفسها.

ثالثاً - العمل الصالح **عمل منتج بالضرورة**.. سواء كان المنتج فكرة أو ثمرة أو عقاراً أو سلعة «حياة يومية»..

لكن هذا **المنتج ليس هدفاً بحد ذاته**، كما أن الربح المتأتي عنه ليس هدف عملية الإنتاج، ولا حتى الرخاء والراحة التي قد توفرها هذه المنتجات، على الرغم من أن كل ذلك قد يحدث عرضاً أو كنتيجةً ثانوية.

المهم أن تيسر هذه المنتجات عمل الإنسان فيما خلق لأجله.. **أن تكون «وسيلة» لنشر العدل والكلمة الحق، لا أن تتحول لتصير عقبة في درب اكتماله وسعيه لفعل ما خُلق من أجله.. لا أن تتحول لتصير «هدفاً» يراكمها الإنسان حتى تصير مقياساً لسعادته وتقديره لذاته.**

رابعاً - العمل الصالح في الأحوال التي يواجه فيها تياراً عاتياً ضده يمكن أن يتخذ شكلاً لا يشبه فكرتنا عن «العمل الصالح».. بل قد يمكن وصفه عند النظرة السطحية **بأنه عمل تخريبي**..

لكن العمل الصالح **يتبع في هذه الأحوال طرقاً غير تقليدية للوصول إلى النتيجة التي ينبغي الوصول إليها**.. وقد يتصوره البعض «تخريباً»، غير مدركين أن إزالة البناء القائم على أسس خاطئة ليس تخريباً أو هدماً.. بل هو جزء من الإعداد اللازم لبناء قادم.

تخريب الخراب ليس تخريباً بالضرورة..

ويكون ذلك أكثر ما يكون وضوحاً عندما يكون **التيار المضاد للعمل الصالح مُسْتَقْوِياً بالاستبداد**.. عندها يجب أن يتخذ العمل الصالح كل ما يمكنه في اتجاهين: نحو أداء كل ما يمكن للعمل الصالح «متخفيا».. وفي الوقت نفسه إزالة الاستبداد نفسه..

خامساً - إن هذا العمل الصالح **يجب أن يتمثل الحضارة - الهدف في كل خطوة..** والحضارة هي **وعاء يضم كل الثقافة والسلوكيات والأمثال والتجارب العملية والمعارف والتقنيات والأساليب والعلوم والأعراف..** إنها تضم ما يشترك به

كل أفراد مجتمع ما، مهما اختلفت درجة تعليمهم.. تتمثل في سلوكهم اليومي وحياتهم وأولوياتهم ونمط تفكيرهم..

العمل الصالح يتجه نحو قيام هذه الحضارة.. نحو أن يكون الهدف منه هو قيام حضارة تتطابق قيمها مع تطبيقاتها.. وشعاراتها تتماثل مع واقعها.. أو تتجه نحو تحقيق ذلك.

سادساً - إن التقدم العلمي والتقني يجب أن يصب في خدمة قيم هذه الحضارة ودعائمها، ولا ينفصل ذلك عن أخلاقيات هذه الحضارة وثوابتها.. بل يكون جزءاً منها وبوصلتها الأساسية.. **لذا فإن تحقيق العدل وعزل الفساد والمفسدين هو من ثوابت هذا التقدم العلمي.. لا يمكن للتقدم العلمي أن ينفصل عن هموم الأمة وتطلعاتها بدواعي «الحياد» و«الاستقلالية»..** لأن هذا سيجعله فريسة سهلة لقوى رأس المال واحتكاراتها، كما يحدث في الغرب (حتى الآن لا يوجد مصل ضد الملاريا مثلاً، لأن دراسة الجدوى الاقتصادية لا تدعم الأبحاث التي تنتج المصل.. أما علاجات البشرة ومواد التجميل فهي تجد الدعم وأكثر).

كل من يطلب العلم، ويتدرب عليه، وينتج فيه، ويبحث فيه، ويقدم ما يمكن أن يشكل ولو بوصة واحدة في درب تقدمه، **يمكنه أن يفعل ذلك من منطلقات العمل الصالح (أي بالتحريض من قبل الإيمان على هذا العمل)، فيأخذ الأجر الذي وعد به عز وجل من آمنوا وعملوا الصالحات.**

ويمكنه أن يؤدي شخص آخر عملاً سيشبه العمل الصالح من نواحٍ كثيرة إلى حد التطابق، لكنه سيؤديه من منطلق آخر.. وليس بتحريك من الإيمان..

لكنه لن يكون الشيء ذاته وإن تشابه في التفاصيل..

فكل منهما جزء من صورة مختلفة..

التروس متشابهة في كل مكان، يشبه بعضها بعضاً إلى حد التطابق.. سواء كانت في آلة قتل ودمار، أو آلة لحراثة الأرض..

لكن هذا التشابه جزئي.. فالترس هنا وهناك يقدم خدمة مختلفة في نهاية الأمر.. التشابه لا يعدو أن يكون تشابهاً عابراً لا موقع له في «الصورة النهائية».

هل نقول: إنها «الرؤية المحركة» عميقاً.. أم نقول: إنه الإيمان.. أم «النية»؟

التسميات هنا مترادفة..

والعمل الذي يقوم به شخص بنية الإيمان وتحقيق ما خُلق لأجله هو عمل صالح..

أما «شبيه» العمل عندما يقوم به شخص لا يشكل الإيمان جزءا من دافعه.. ويقوم به لأسباب إنسانية، أو لدافع التفوق الشخصي، أو حب العلم مثلاً.. **هذا لا يمكن أن يكون عملاً صالحاً حسب المنطق القرآني والمعايير القرآنية.**

◆◆◆

إذن كانت هذه الخطوط العامة للعمل الصالح في سورة الكهف، وهي التي تشكل مفاتيح لفهم ما يعنيه «العمل الصالح» في كل موضع قرآني..

لكن هذا ليس كل شيء مع مفهوم العمل الصالح في سورة الكهف..

فهناك أيضاً سياقات عريضة عامة تجعل العمل الصالح محكوماً بها..

أولاً - السياق الأخروي: السورة بما فيها **«مغمَّسة» بطعم الآخرة ومشاهدها وذكرها..**

بعد قصة فتيان الكهف يأتي هذا المشهد:

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً﴾ [الكهف: ٢٩-٣١].

وبعد صاحب الجنتين:

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً (٤٧) وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً (٤٨) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ [الكهف:٤٧-٤٩]

وبعد ذي القرنين:

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ

﴿يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضاً ۝ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ۝ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً﴾ [الكهف:٩٩-١٠١].

الرؤية الأخروية إذن تحوط «العمل الصالح» من كل الجهات، وهو «العمل الصالح» الذي رأينا في السورة نفسها أنه عمل دنيوي بحت «بأفعاله».. عمل يركز على نتائج دنيوية مباشرة - ثمار الجنة (المنتج).. خرق السفينة (محاربة الاستبداد).. العلم والتقنية (ذو القرنين)... كل هذه النماذج المختلفة من العمل الصالح التي قدمت في سياقات سورة الكهف **كانت تهدف إلى تغيير الواقع، وإحداث أثر إيجابي فيه عبر إعادة تشكيله وفق ما أراده الله**.. كل السياقات تصب في "تغيير الواقع".. في جعل الأرض - الذي نصبت فيها خليفة من دون كل مخلوقاته عز وجل - مكاناً أفضل يليق بمن استخلفك فيها.

لكن هذا «العمل الأرضي» لكي يكون صالحاً حقاً يجب أن يتَّجه أيضاً إلى «الآخرة» بوصفها هدفاً نهائياً.. ويجب ألا يكون ذلك محض تحصيل حاصل، أو مجرد نتيجة ليست في بال أو تخطيط من يعمل، بل على سبق قصد وتصميم، بل يجب أن يكون جزءاً أساسياً من دافع العمل ذاته.. فهذا هو الإيمان كما سبق وبيناه..

إنه **التزاوج الحقيقي الذي لا انفصال فيه بين «الدنيا والآخرة»** .. إنه الانفصال عن كل المفاهيم السلبية التي تجعل الدنيا في سياق آخر تماماً، معاكس للآخرة، وهي المفاهيم التي تراكمت عبر عصور الانحطاط كوسيلة للتعايش مع الواقع السيئ، أو استوردت من أديان وعقائد أخرى وجدت رصيدها الشعبي في تكريس هذا الانفصال، كما هو رصيد الأفيون وبقية أنواع المخدرات.

أما دين **الاستخلاف في الأرض فلا يجد في هذا الانفصال بين الدنيا والآخرة غير "كفر" - أي رفض - للوظيفة التي عينه الله لها.. وكفر - أي رفض - لمكانة الإنسان.. ولما وضعه الله فيه من إمكانات وقدرات..**

دين الاستخلاف في الأرض يجد ذلك خرقاً في مفهوم الإيمان..

خرقاً غير قابل للردم.. **إلا باجتثاث هذا الانفصال.. بين الدنيا والآخرة..**

العمل الصالح يرفعه، ويسجد الملائكة له..

ليس السياق الأخروي وحده هو ما يميز سورة الكهف واتجاهاتها وإشاراتها..

فهناك أيضاً الإشارة إلى أمره عز وجل للملائكة بالسجود لآدم.. وهي الإشارة التي لم تتكرر في القرآن الكريم سوى خمس مرات (البقرة: ٣٤، الأعراف: ١١، الإسراء: ٦١، الكهف: ٥٠، طه: ١١).

لا بد أن يكون هناك معنى ما في اختيار سورة الكهف لتكون واحدة من هذه المواضع الخمسة.

وبعد استعراض كل ما سبق من إشارات ربطت العمل الصالح بالأثر الدنيوي - الأرضي فإنه لا بد أن يكون لهذه الإشارة ـ **لأعظم تكريم ناله النوع الإنساني - ربط بالعمل الصالح..**

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

◆◆◆

نحن الآن أمام حلقات متداخلة..

فلنرتبها..

الحلقة الأولى: استخلاف الله للإنسان: الله عز وجل أخبر الملائكة أنه سيجعل «خليفة» في الأرض، وسط تساؤلات من الملائكة عن الدور الإنساني، وشكوك الملائكة في قدرة هذا المخلوق الجديد على تسلم هذه الأمانة.

الحلقة الثانية: أمر الله الملائكة بالسجود لآدم: وهو سجود تكريمي يضع الإنسان على قمة المخلوقات، للأسباب نفسها التي جعله من أجلها «الخليفة في الأرض».

الحلقة الثالثة: رفض إبليس السجود لآدم وتمرده على أمر الله: وتوعده بأنه سيثبت أن الإنسان لن يكون مؤهلاً لهذه المكانة - الخلافة، ومن ثم السجود.

ما الحلقة التي تربط كل ذلك بالعمل الصالح؟

إنها تلك المعادلة الأساسية التي تشرح شروط الاستخلاف، والتي مر ذكرها..

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

إنها الحلقة الرابعة التي تتداخل فيها الحلقات..

الإنسان خليفة، والملائكة تسجد له ابتداء وقبل أن يتسلم منصبه، لكنه لكي ينال ذلك حقاً عليه **أن يؤمن ويعمل صالحاً..**

هذه الحلقة تربط فيها ما سبق، **فبالإيمان والعمل صالح ينال الإنسان مركز الاستخلاف، وينال استحقاق سجود الملائكة له..**

أما عندما يخفق في تحقيق شَرْطَي الاستخلاف، فهو لا يفقد مكانتي الاستخلاف وسجود الملائكة فحسب.. **بل يجد نفسه تلقائياً بجانب إبليس..** الذي راهن على عدم أهلية الإنسان لتحقيق الاستخلاف..

وهذا يجعل لهذه الإشارة في السورة مكانها الصميمي، وعلاقتها الحميمة بمفهوم العمل الصالح كما توضح في السورة ومشاهدها المختلفة..

سورة الكهف تضع العمل الصالح - الذي يحركه الإيمان بالتعريف - جزءاً من ذلك المشهد الذي حدث فيه التكريم الإلهي للنوع الإنساني..

العمل الصالح - الذي يحركه الإيمان - يربطك بأغلى ما تحقق للنوع الإنساني..

سجود الملائكة له..

عمل "غير المؤمنين" صالح؟

إشارة ثالثة مهمة جداً في سورة الكهف، وهي إشارة ستجيب عن كثير من التساؤلات التي قد تَرِدُ في الأذهان - خصوصاً في الوقت الحالي - حيث يمكن لكثير من غير المؤمنين (من الملاحدة أو اللادينيين أو من المؤمنين بأديان لا نؤمن بكونها كتابية) **أن يقدموا «عملاً» يمكن تسميته بالعمل الصالح بناء على تشابهه «الظاهري» وحتى في نتائجه - ظاهرياً - مع «العمل الصالح»..**

هناك حديث كثير من هذا، **المليونير الفلاني قدَّم مبالغ طائلة لمساعدة الفقراء.. الجمعيات التطوعية في المجتمع الغربي اللاديني تقدم أعمالاً للمنكوبين من**

ضحايا الكوارث في مجتمعات أخرى.. النجمة الفلانية التي عُرفت بخلاعتها وبحياتها المتحللة ساهمت في التبرع لأيتام الصومال ولمجاعة أفريقية..

هذا عدا عن التراكم العلمي الهائل، والمنجزات التي لا يمكن إنكارها، والتي نستغلها اليوم بأقصى ما يمكن.. ومعظم هذه المنجزات قد تم صنعها وابتكارها من قِبَلِ «غير المؤمنين».. فماذا نقول عن ذلك؟

أولاً - لا نقول عنه: «عمل صالح».. قرآنياً هذا اللفظ لا وجود له إلا بتلازمه مع الإيمان.. لذا فلا معنى في فصله عن توأمه - الإيمان - لأن هذا قد يقتلهما معاً **(لا إيمان بلا عمل صالح ناتج عنه، ولا عمل صالح بلا إيمان أدى إليه)..**

ما اسمه إذن؟..

لا بأس أبداً من تسميته باسم إيجابي.. فواجب الإنصاف يجبرنا على ذلك.. يمكن أن يكون «عملاً خيرياً» مثلاً.. أو نفعاً..

لكن «العمل الصالح» - وهو التعبير الذي نحته الخطاب القرآني - هو حصري لما يستوفي شروط العمل الصالح.. ولما كان الإيمان دافعه..

ثانياً - ليس الإيمان - قرآنياً - هو محض تصديق كما مر ذلك.. كما أنه من باب أولى ليس التصديق بأي عقيدة مهما كانت.. بل هو ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

وقد تكرر ذلك ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[المائدة: ٦٩].

البعض - خصوصاً من ظرفاء أدعياء التجديد - **يقول: إن الإلحاد هو إيمان بطريقة ما، الشيوعية أيضاً إيمان، والليبرالية إيمان، والعلمانية إيمان... إلخ..**

لذا فإن كل من آمن (بالإلحاد!) - حسب هذه النظرة - وعمل عملاً صالحاً (أو يبدو أنه كذلك) فإنه سيكون مشمولاً في الآيات القرآنية التي تتحدث عن الأجر الأخروي لمن آمن وعمل صالحاً.. أو هكذا سيقول هؤلاء.

الحقيقة هي أن الخطاب القرآني نفسه يصحح هذا **ويترصده قبل أن يحدث، فليست كل عقيدة هي "إيمان" بالمعني القرآني، حتي لو استخدمنا هذا اللفظ في حياتنا اليومية المعاصرة.. حتى لو قلنا: إن فلاناً آمن بعقيدة ما.. بقضية ما.. وعَمِل لها..**

الإيمان - قرآنياً - هو حصري فقط بالإيمان بالله واليوم الآخر، كما أشارت الآيات الكريمة..

وقد اختير هنا الإيمان بالله وباليوم الآخر من بين كل أركان الإيمان الخمسة لأنه يحتوي كل الأركان بينهما، لا يمكن لمؤمن باليوم الآخر أن يتجاوز الإيمان بالكتب أو الرسل أو الملائكة.. كما يمكن لليبراليين أو العلمانيين أن يقولوا: إنهم "مؤمنون" بالله كما يريدون.. لكن موضوع "اليوم الآخر" والحساب المتضمن فيه سيكون ما يسكت عنه بالنسبة لهم..

الخطاب القرآني يزيح أوهامنا التي قد تنشأ من رؤيتنا لأشخاص غير مؤمنين يعملون ما هو نافع وإيجابي للناس..

ليس هذا إيماناً، وليس عملاً صالحاً ما دام لم ينتج عن إيمان..

وهكذا فإن الجزاء المترتب على هذا العمل (النافع) لا علاقة له بالجزاء المترتب أخروياً على العمل الصالح النابع من الإيمان، والذي أشير إليه في القرآن بتلازم لا فكاك ولا انفصال فيه..

هل ستذهب أعمالهم سدى؟

لا نقول ذلك.. فعملهم يدخل ضمن ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧]..

لكن هذا لن يكون عملاً صالحاً.. بل قد يكون ضمن ما وضحته سورة الكهف أيضاً..

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٥].

سيرون أعمالهم كلها والخير الذي فعلوه.. لكن كفرهم قد يكون سبباً في أن تحبط كل هذه الأعمال.. سبباً في أن تكون أعمالهم لا وزن لها يوم توضع الموازين الحق.. وليس الموازين التي عملوا من خلالها في الحياة الدنيا.

سيقال هنا: ماذا عن الشعوب والأمم المنتجة التي قدمت كثيراً من المنجزات الحضارية، وعلى الرغم من ذلك فهي بعيدة عن الإيمان بالله واليوم الآخر تماماً (أي تلك التي تدين بديانات وثنية تماماً.. مثل اليابان والصين والهند)..

ليس ذلك من شأننا.. ليس من شأننا بتاتاً.. علينا أن نكفَّ عن التفكير فيما سيقرره أحكم الحاكمين..

كل ما نعرفه أنه حكم عدل، وأنه لن يظلمهم.. وأنهم سيرون كل خير فعلوه.. وكذلك كل شر..

وأن أعمالهم لا يمكن أن تندرج ضمن «العمل الصالح».. ما داموا ليسوا مؤمنين..

ليس من مهمتنا أن نحدد «موضعهم» في الآخرة.. حتى لو دلت بعض الدلائل على أنهم سيكونون حطباً لجهنم..

يمكننا أن نسمي تصنيفهم حسب هذه الدلائل.. أن نقول: إنهم «كفار» مثلاً، دون أن يجعلَنا ظرفاءُ «قبول الآخر» نشعر بتأنيب الضمير.. وقد يكون هذا التصنيف ممكناً دون أن نتورط في تحديد موضعهم الأخروي، ودون أن نسقط في أحد الفخين: الانبطاح لهم وتقديسهم، أو رفضهم تماماً وبالمطلق..

لكن الأهم من كل هذا هو العمل على موضعنا في الأرض..

لأن هذا هو ما سيحدد موضعنا في الآخرة.

❖❖❖

وفق كل ما سبق، فإن **العمل الصالح يمكن أن يكون أي عمل قد يبدو صغيراً،** لكنه يكون كبيراً جداً وصالحاً جداً، **ما دام نابعاً بوعي من منظومة إيمانية كاملة..**

تدريس **الأطفال إن رُبط بمنظومة الإيمان التي لا تُعلِّمهم الأبجدية فقط،** بل تعلمهم أبجدية الحياة والإيمان.. سيكون **عملاً صالحاً..**

تنظيف الشوارع عندما يكون عملاً طوعياً نابعاً من الإيمان، ومن مسؤولية الإنسان في هذه الأرض.. فإنه يكون **عملاً صالحاً..**

الإتقان في العمل - أي عمل - سواء كان عملاً إدارياً وظيفياً أو حرفياً، عندما ينبع من الإيمان، ويهدف إلى «إنشاء الحضارة».. فإنه يكون عملاً صالحاً..

الفن، الطب، الهندسة، التصميم، الخدمات، التقنيات، كل ما يمكن أن تتخيله من مهام بشرية، يمكن أن تندرج في العمل الصالح ما دامت نابعة من الإيمان، وملتزمة بتحقيق أهداف واضحة في تمكين الإنسان من تحقيق الاستخلاف.. من تطبيق ما يريده الله في هذا الكون.

لا يمكن لقائمة أن تعد وتحصي أنواع العمل الصالح.. فهي تتغير وتتبدل وتزيد وتتمدد بتبدل الظروف والأماكن.. لكن وجهتها تبقى ثابتة ونقطة انطلاقها ثابتة، تتجه نحو الحضارة التي تقيم العدل (نموذج ذي القرنين) وتنطلق من الإيمان..

المسافة الفاصلة بين الانطلاقة والوجهة ستكون حافلة بمحطات كثيرة أبعد من أن تحصى..

فهي أشبه ما تكون بكلمات الله..

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ [الكهف: ١٠٩].

وتأتي الآية الأخيرة الخاتمة في السورة لتؤكد كل ما سبق:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف: ١١٠].

العمل الصالح.. بمرجعية الإيمان فقط!

مرجعية واحدة لا تقبل شريكاً لها.

◆◆◆

بعد كل هذا..

ليس غريباً أبداً أن تكون هناك إشارة مدنية أخرى للاستخلاف..

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧]..

عندما تفهم شَرْطَي الاستخلاف، الإيمان والعمل الصالح، يكون الإنفاق مما نحن مستخلفين فيه تحصيل حاصل..

ليس غريباً أيضاً أن يكون هذا في سورة اسمها «الحديد».

◆◆◆

أبرز ما جاء في فصل "والعمل الصالح يرفعه"

لكي يكون **العمل** منتمياً إلى **العمل الصالح** يجب أن يحوز ما يلي:

أولاً - أن **يصدر** هذا العمل **من منظومة الإيمان** بالله وبملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر والقدر خيره وشره حصراً.. **وألا يأتي من أي دوافع إنسانية مجردة**

عن هذا الإيمان.

ثانياً - أن يكون **عملاً جماعياً مؤسسياً**، أو أن يسعى على الأقل لكي يكون ذلك.

ثالثاً - أن يكون **متجدد القوالب والصيغ**، على نحو مستمر، **بأهداف ومقاصد ثابتة**، فإن بقاء القوالب ثابتة يعني فشلاً في تحقيق الأهداف.

رابعاً - أن يكون **"منتِجاً"**، ولكن أن يكون **هدف هذا المنتج تسهيل تحقيق الاستخلاف** في الأرض، وليس تحقيق الرخاء والرفاهية بوصفهما هدفين مستقلين.. قد يأتيان نتيجة عرضية لكن اعتمادهما هدفين، أمر لا يدخل ضمن العمل الصالح.

خامساً - العمل الصالح بصيغه المتعددة وأشكاله المختلفة قد يأخذ شكل **تخريب الخراب أحياناً**.. بدلاً من إضاعة الوقت والجهد في ترميم لا طائل من ورائه.

سادساً - النمط الأعلى للعمل الصالح سيكون في **تسخير المنتجات لصالح العدل وعزل المفسدين.**

سابعاً - كل عمل غير نابع من المنظومة الإيمانية أعلاه، وكل عمل صادر عن شخص غير مؤمن، لا يمكن أن يسمى عملاً صالحاً، حتى وإن تشابه مع العمل الصالح ظاهرياً.. ولا يحق لنا أن نحكم على مصير منجزي هذا العمل، لكن لا يحق لنا أن نسميه عملاً صالحاً أيضاً.

◆◆◆

الفصل السادس

كيف قُتل الخليفة؟

كيف قُتل الخليفة؟

نعرف بالتأكيد، ومما لا حاجة له إلى برهان أو دليل، أن أمتنا تخلت عن الاستخلاف، وتخلت بذلك عن أهم مكون من مكوناتها بوصفها أمة.. تخلت عن وجودها كله عندما تخلت عن الاستخلاف.

التفاصيل التي أدت إلى ذلك تاريخياً لا يمكن عرضها هنا، لكن من المؤكد أن هذه التفاصيل مهما كانت قد قادت إلى إحداث **خلل فكري وعقائدي، تمكن من إبطال معادلة الاستخلاف**.. وعندما أتحدث هنا عن "خلل فكري" و"عقائدي" فإني أعني ما أقول تماماً.. فالخلل قد أصاب الطرف الأول للمعادلة وأدى إلى تعطيل طرفها الثاني كتحصيل حاصل.

مر بنا كيف أن الإيمان اختُزل ليكون مجرد تصديق لا يؤدي إلى عمل، ولا يفترض أن يرتبط بعمل (كما تصدق بنشرة الأخبار عن أنباء الطقس قبل عشر سنوات مضت) وأن العمل الصالح شُوِّهَ ليكون مجرد شعائر، وكان هذان هما الطرفين الأساسيين في المعادلة..

وكان من الطبيعي أن يؤدي ذلك إلى عدم تحقق الاستخلاف.. (المقدمات عاطلة ومخربة فلا يمكن للنتائج أن تكون سوى كما كانت: غير موجودة!).

ما ليس طبيعياً هو ألا نتنبه لذلك..

عدم انتباهنا وعدم إدراكنا لذلك كان نتيجة لأن مفاهيم أساسية، مفتاحية، أرساها القرآن في عقل الإنسان المسلم، قد تم تعميتها، وتغييبها، **بل إبدالها بمفاهيم «انغلاقية».. مفاهيم تغلق المدارك، وتقتل كل ما غرسه الإسلام ابتداء..**

هذه المفاهيم السلبية البديلة نشأت على نحو مأساوي كطريقة للتعايش

والتأقلم مع ظروف التدهور التاريخي، لم تنشأ عمداً، كانت فقط وسيلة للتعايش تستمد من النصوص الدينية، وتجد في فهم معين للنصوص وسيلة للتأقلم.. لاحقاً تكرس هذا الفهم «المتعايش مع التدهور» وصار هو «الفهم» المنفرد للنصوص الدينية، وتحول بذلك من كونه وسيلة للتعايش مع الواقع إلى وسيلة للإبقاء على هذا الواقع.. صار هذا الفهم عقبة في طريق الخروج من هذا التدهور.

هذه «المفاهيم» السلبية البديلة تعطل معادلة الاستخلاف وتخرجها عن سياقها الحقيقي.. لن ندعي هنا أن أياً من هذه المفاهيم السلبية قد تم تكوينها وترويجها عمداً ونتيجة لمؤامرة ضد القيم القرآنية الايجابية.. **لكن يمكن فهم ما حدث عند فهم ظاهرة نفسية بشرية تعرف باسم «التحيز السلبي» Negativity Bias.**

ما هو التحيز السلبي؟

رد فعل الإنسان - عموماً - **تجاه ما هو سلبي لا يتساوى مع رد فعله تجاه ما هو إيجابي، فقانون الفعل ورد الفعل يتضخم عندما يكون الفعل سلبياً**، مقارنة بالقانون نفسه عندما يكون الفعل إيجابياً.

ردّ الفعل المتحيز هذا المعروف في علم النفس باسم «**التحيز السلبي**» "Negativity Bias"، **قد يتمظهر أحياناً في الاهتمام البالغ الذي يوجهه الناس لأخبار الكوارث والفواجع، مقارنة باهتمامهم بالأخبار الإيجابية**، واستثمار وسائل الإعلام لذلك، وما نلاحظه شخصياً في مثال معروف يسوقه دارسو علم النفس ممن نحتوا مفهوم «التحيز السلبي» وهو أن رد فعلنا (التقليدي) تجاه خسارة مبلغ من المال لا يمكن أن يقارن برد فعلنا تجاه (ربحنا) المبلغ ذاته، أو أن مرورنا بتجربتين واحدة سلبية والأخرى إيجابية في فترة واحدة لن يكون متعادل الأثر، بل إن الأثر السلبي على الأغلب هو الذي سيكون أقوى، أو أن معلومة سلبية عن شخص لا نعرفه ستترك أثراً أقوى من معلومة إيجابية عن الشخص نفسه.. وبعض الدراسات تشير إلى **أن العامل الإيجابي يجب أن يكون مضاعفاً خمس مرات ليحظى برد فعل مساوٍ لرد فعل العامل السلبي.**

هذا التحيز الإنساني للتفاعل مع ما هو سلبي ظاهرة إنسانية معروفة، ولها إشارات قرآنية كثيرة، وسواء كانت أصيلة داخل النفس البشرية، أو ناتجة عن ظروف معينة تشكل هذا التحيز، **فإن الظاهرة موجودة، وهي عالمية وعريقة.. كما**

أنها مثبتة علمياً من الناحية الفيزيولوجية المجردة عن كل ملاحظات «يمكن أن تكون متحيزة أيضاً»..

فقد ثبت أن الدماغ البشري (الدماغ بوصفه عضواً تشريحياً محدداً، أي ذاك الموجود داخل الجمجمة، وليس العقل بمعنى عام وهلامي) **يتحسس على نحو أكبر، أي يطلق شحنات كهربائية أعلى وبسرعة أكبر، عندما تمر أمامه صور تمثل «حالة سلبية»** (صور لأمور محزنة، أو تحمل ذكريات كارثية أو محزنة) بينما يكون ذلك أقل عندما تمر صور «حالة إيجابية» (أكلة شهية، سيارة فارهة.. أطفال يلعبون... إلخ) وهذا يعني أن الدماغ البشري مركب على ذلك، أي أنه خلق على هذا الأساس كما تقول بعض الدراسات، أو أنه تعود على ذلك عبر تاريخه الطويل من التجارب التي جعلت «الحذر» و«الخوف» من المخاطر حوله، خاصة في تاريخه البدائي، هي طريقه الأساسي للنجاة.. لذا فإن الدماغ «تعوَّد» عبر هذه التجارب على أن يولي لما هو سلبي وخطير أهمية أكبر مما يوليه لما هو إيجابي وآمن...[٧٦]

على المستوى **الفردي أعتقد شخصياً أن (الوعي بالأمر) - بحد ذاته - يكون أحياناً كفيلاً بفتح الباب للخروج من هذا (التحيز)**، كما مع أي مشكلة نفسية يكون تشخيصها جزءاً أساسياً من علاجها.. **وهذا يخص الأفراد طبعاً، ويكون الأمر مرتهناً «بوعي» خاص يشكلهم ويتمكنون عبره من التخلص من هذا التحيز.**

العقل الجمعي منحازاً

لكن الأمر أعقد بكثير عندما يتجاوز الأفراد إلى الأمم.. وعندما يكون من يتأثر به ليس عقل شخص واحد وانفعاله وسلوكه، بل «**عقل جمعي**» يتمثل في رؤية جمعية وسلوك جماعي لمجتمع وأمة كاملة..

هل يمكن هذا؟.. إنه يمكن لأن مثاله (الحي) موجود ومتجسد فينا.. في تاريخنا، وفي وجودنا كله الذي كان فيه **«عقلنا الجمعي» منحازاً في تفاعله للعامل السلبي..** وكان هذا الانحياز ينتج دوماً سلبية في الرؤية، وسلبية في السلوك، وسلبية في واقع لا يمكن لاثنين أن يختلفا في تدنيه وسلبيته..

ما الذي يعنيه هذا؟.. **وكيف يتعامل «العقل الجمعي» لمجتمع كامل بتحيز تجاه العوامل السلبية؟.. وما هذه العوامل السلبية أصلاً؟..**

---

٧٦ http://biopsychiatry.com/depression/negbias.html

يمكن مراجعة Fiske, S.T. (1980). Attention and Weight in Person Perception: The impact of negative and extreme information. Journal of Personality and Social Psychology, 38, 889 - 906.

http://dionysus.psych.wisc.edu/lit/Articles/RozinP2001a.pdf

Negativity Bias, Negativity Dominance, and Contagion Paul Rozin and Edward B. Royzman

لا أقصد هنا ذلك النوع من العوامل السلبية التي يشترك فيها البشر كلهم، مثل الكوارث والفواجع والخسائر عموماً، بل أقصد العوامل السلبية التي تشترك مع غيرها في تكوين ثقافتنا ورؤيتنا للعالم، التي تشكلت - تراكمياً - عبر القرون، والتي ساهم «التراث» في تكوين أركان مفتاحية فيه.

بالتأكيد لا أقصد بالتراث هنا النص الديني الصالح لإصلاح كل زمان ومكان، فكل ما سبق ذكره في الفصول السابقة كان يبحر ويستثمر في حقيقة أن هذا النص «يحث» على النهوض والبناء، بل أقصد **فهماً معيناً لهذا النص، وقراءة تاريخية له، ارتبطت بظروف زمانها ومكانها**، ولكن تعامل الناس مع هذا الفهم وتقادمه منحه القداسة أيضاً، بدلاً من أن يقصر هذه القداسة على النص نفسه.

وتراثنا لا يخلو من قيم إيجابية حتى على صعيد الفهم المتوارث المستقل عن النص، لكن المشكلة في الأمر أن **ظاهرة التحيز للعامل السلبي التي مر ذكرها ستوجه التفاعل الإنساني مع هذا التراث بعيداً عن قيمه الإيجابية، وباتجاه ما فيه من قيم سلبية.**

لدينا ضمن ما هو إيجابي في موروثنا قيم شديدة الفعالية تدور حول محور **مسؤولية الإنسان وموقعه بوصفه خليفة في الأرض، وهي قيم مستندة إلى نصوص ثابتة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.. (وقد أسهبنا بحثاً في الفصول السابقة في ذلك).**

ولكن في الوقت ذاته هناك **ضمن التراكم التراثي نفسه قيم شديدة السلبية، تعتمد إما على فهم «اجتزائي» لنصوص ثابتة، دون ربطها ببقية النصوص، أو على نصوص ضعيفة وأحياناً موضوعة أصلاً..**

فمقابل القيم الإيجابية التي تجعل من الأرض موضعاً لخلافة الإنسان ومزرعة لآخرته، التي سيكون «إعمارها» هو امتحانه الأساسي، فإن هناك قيماً أخرى **«تتفه» الوجود الإنساني كله في الأرض، وتجعل من الدنيا شيئاً دنيئاً**، بل إنها تتجاوز هذا كله لتنغمس أحياناً **في ثقافة تمجيد الفقر، والترويج له.. عبر مفهوم خاطئ للزهد في الدنيا بمعنى تركها تماماً..**[٧٧]

هذه القيم السلبية لها ظروف نشأتها وظروف التصاقها بالنص الديني، وكان بعضها مسوغاً ومفسراً كوسيلة للحد من المبالغة في الترف الباذخ والغرق في

٧٧ يمكن فهم الوضع المعاكس لهذا، أي بسيادة القيم الإيجابية، بمتابعة مفهوم «فائدة السعادة Happiness Advantage" الذي يدرس أثر الرؤية الإيجابية على دفع الأشخاص للنجاح عبر دراسة أجريت في جامعة هارفرد. للمزيد.
The Happiness Advantage: The Seven Principles of Positive Psychology That Fuel Success and Performance at Work , Shawn Achor,2011.

المظاهر الدنيوية.. ولكنها بالتدريج صارت قيماً مطلقة، كما لو أنها مستمدة من النص الديني نفسه.

وهكذا فإن المتلقي اليوم يسمع ويتلقى كلاماً إيجابياً من الدعاة عن مسؤولية الفرد المسلم وإيجابيته وكونه الخليفة في الأرض... إلخ... فتكون كل هذه العوامل الإيجابية بمثابة محفزات على الانطلاق إلى الفعالية.

ولكن هذا المتلقي نفسه سيحصل على كمية لا بأس بها - وربما تزيد كماً - من الكوابح والمثبطات المتنكرة ظلماً خلف الفهم التجزيئي للنصوص الدينية، أو خلف نصوص مفترضة تدعي انتساباً للنبي.. أو خلف مفاهيم متحصنة بكون «علماء مهمين» قد قالوها أو روجوا لها.

ما الذي سيحدث للمتلقي الذي يتلقى عن اليمين مفاهيمَ إيجابية وعن الشمال سلبية؟ الذي سيحدث هو أسوأ من «هذه بتلك» وإلغاء إحداهما الأخرى.. **الذي سيحدث أن الانحياز البشري لكل ما هو سلبي سيأخذ بزمام المبادرة، وسيلغي فاعلية كل ما هو إيجابي في تلك المفاهيم..**

مفهوم الاستخلاف على الرغم من إيجابيته وأهميته وأصالته فإنه يتضمن **«مخاطرة»، يتضمن تجشم عناءٍ وتحملاً للمسؤولية بكل ما يترتب على ذلك وما ينتج عنه.**

أما عندما تقتنع بأنك «عابر سبيل» فإنك تكون في مأمن من كل ذلك، إنك لن تتوقع من نفسك شيئا، ولن يتوقع أحد آخر منك شيئاً، سيعمل انحيازك الدماغي على جعل كل تلك السلبية هي الأساس، وهي العامل الفاعل، حتى لو كنت تعلم نظرياً أنك الخليفة الذي عينه الله في الأرض، وكونك ستنحاز إلى (المعلومة السلبية) ليس فقط خياراً لا واعياً يتخذه بالنيابة عنك دماغك - وعقلك الجمعي - لكنه أيضا **الأسهل**، إنه استمرار الوضع الراهن، حتى لو كان هذا الوضع البقاء في بناء متداعٍ وآيل للسقوط.

لم يكن مستغرباً بعد كل ذلك أن تصبح صيحات كل دعاة النهضة ومفكريها مجرد صيحات في الوديان، ولا رجع لها سوى الصدى، **لقد كانت جل جهودهم تدور حول تأصيل العامل الإيجابي وتكريسه وإحيائه في الأمة، ولسبب أو لآخر تجنبوا الصدام (التفصيلي) مع الجذور السلبية في التراث، وفضلوا التعميم والتركيز على الإيجابية، فكانوا كمن يزرع بذوراً دون استئصال الأعشاب الضارة التي ستأخذ الماء والهواء وكل الغذاء من البذور.. وقد كان ما كان.. مما نراه مجسداً في واقعنا الذي يمكن أن يكون نصباً تذكارياً لكل ما هو سلبي..**

أي أمل بنهضة حقيقية لا يمكن أن يقترب من الواقع ما لم يتم **استئصال كل تلك العوامل السلبية من جذورها، مهما كانت عريقة، مهما كانت محصنة خلف أسماء كبيرة**، وخلف مفاهيم شعبية راسخة، يجب **فعل كل ما يجب فعله من أجل إحداث (قطيعة) مع الجزء السلبي من تراثنا مهما كان ذلك مؤلماً.. ومهما كان ذلك خطراً.**

لقد فضلنا - لقرون طويلة - **أن نضحي بالأمة، وبجنين النهضة، من أجل عدم إقلاق (راحة) بعض المفاهيم الموروثة التي لا تمت بصلة حقيقية للدين، والتي كانت الجاني الحقيقي في قتل الخليفة داخلنا..** ولم يؤدِّ ذلك إلى إبقاء الوضع الراهن وتدهوره فحسب، بل فتح الباب أمام أدعياء التجديد الديني ليحاولوا نسف الإرث كله بكل ما فيه من إيجابي وسلبي تحت ستار التطور..

اليوم صار علينا أن **نختار بين الإبقاء على (الأمة)، وعلى «جنين» نهضتها المنتظر، وبين التضحية بكل ما يمكن أن يعرض هذا الجنين للإجهاض..** ولأن هذه (المجهضات) تمتلك جذوراً قوية ومتشعبة وراسخة، فالتضحية بها قد تكون حرباً ضروساً طاحنة..

لكن لا بد مما ليس منه بد!

مفاهيم سلبية لا بد من اجتثاثها..

ثلاثة مفاهيم أساسية في موروثنا وعقلنا الجمعي هي القاتل المجهول الذي ارتكب الجريمة بحق «الخليفة داخلنا».. ثلاثة مفاهيم تؤدي وظيفة «العامل السلبي» الذي ننحاز إليه تلقائياً دون وعي، ونهمل كل ما في موروثنا ونصوصه الثابتة من إيجابيات لا يمكن الالتفات عنها.. **هذه المفاهيم الأساسية تلعب دور المثبط الرئيسي والكابح الحاسم لأي نهضة حقيقية تحاول الاعتماد والاتكاء على المفاهيم القرآنية النبوية..** لأن هذه المفاهيم السلبية المزيفة تعتمد على نصوص القرآن والسنة، أي أنها تستقي الحصانة والحماية من المرجع نفسه الذي نحاول النهوض من خلاله وبه..

هذه المفاهيم **يجب أن تُجتثَّ تماماً من العقل الجمعي**، أو على الأقل نقول: إنه من دون هذا الاجتثاث سيكون من الصعب جداً - إن لم يكن مستحيلاً - أن نقوم وننهض..

لأنها ستقوم بدورها السلبي.. الكابح المثبط في كل لحظة..

أولاً: الدنيا مكان الفتح ومزرعة الآخرة.. أم المزبلة النتنة؟

أول هذه المفاهيم السلبية التي ساهمت في قتل مفاهيم الاستخلاف أو تحييد دورها هي النظرة إلى الدنيا، تلك النظرة التي سادت وانتصرت وراجت بين الناس..

وأنا أضع هذه الرؤية على رأس قائمة «المتَّهمين»، **لأن الطريقة التي نرى فيها الدنيا تحديداً هي جزء من رؤيتنا لكل شيء آخر.. إنها تؤدي إلى رؤيتنا لوظيفتنا في هذه الدنيا.. ورؤيتنا لأنفسنا.. ورؤيتنا لكل ما يتعلق بهذه الدنيا..**

أصبع الاتهام أوجهه أولاً في محضر جريمة قتل «الخليفة» إلى مفاهيمنا السائدة عن «الدنيا»..

◆◆◆

في عقلنا الجمعي ثقافة كاملة قائمة على «ذم الدنيا» وتحقيرها والحط من مكانتها ومن شأن «المشتغلين» فيها..

هذه الثقافة التي تملأ مكتبات كاملة دون مبالغة، والتي تتمثل في خطب ومواعظ ومرثيات ومناحات لا يزال لها وجود حقيقي فيما يسمى **بأدب الزهد، وأحياناً ما يسمى بالرقائق أو أعمال القلوب (تجاوزاً)**.. وهي موجودة في خطب الجمعة التي يذهب إليها مئات الملايين، وفي الدروس الدينية التي يؤمها الملايين، والبرامج الدينية التي يحضرها الملايين أيضاً.. **لقد أصبحت هذه الثقافة جزءاً لا يتجزأ من «العقل الجمعي»**.. تستحضر تلقائياً وعلى نحو تلقائي كلما دعت الحاجة إليها، راسخة في اللاوعي، تجعل من يخالفها يشعر أنه خارج المنظومة الفكرية التي ينتمي إليها أصلاً..

ثقافة «ذم الدنيا» هذه تجري منا مجرى الدم، نعم، نحن **نخالفها ونركض إلى الدنيا** في كثير من الأحيان، ولكن تلك الثقافة تنغص علينا ذلك، تشعرنا بالذنب.. تجعلنا نشعر أن في نجاحنا «مخالفة شرعية» ما.. أو على الأقل تحليقاً في إطار منظومة ثقافية أخرى..

هل في ذلك مبالغة؟

فلنقرأ أولاً شهادة مهمة عن هذا..

فلنقرأ ما جاء في واحد من أهم كتب التراث، وأكثرها رواجاً.. عن الدنيا، ونعتذر سلفا عن طول المقتطف، وعن فحواه..

(الحمد لله الذي عرف **أولياءه غوائل الدنيا وآفاتها**، وكشف لهم عن عيوبها وعوراتها، حتى نظروا في شواهدها وآياتها، ووزنوا بحسناتها سيئاتها، فعلموا أنه يزيد منكرها على معروفها، ولا يفي مرجوها بمخوفها، ولا يسلم طلوعها من كسوفها، **ولكنها في صورة امرأة مليحة تستميل الناس بجمالها، ولها أسرار سوء قبائح تهلك الراغبين في وصالها**، ثم هي فَرَّارة عن طلابها، شحيحة بإقبالها، وإذا أقبلت لم يؤمن شرها ووبالها، إن **أحسنت ساعة أساءت سَنَة، وإن أساءت مرة جعلتها سُنَّة**، فدوائر إقبالها على التقارب دائرة، وتجارة بنيها خاسرة بائرة، وآفاتها على التوالي لصدور طلابها راشقة، ومجاري أحوالها بِذُلّ طالبيها ناطقة، فكل مغرور بها إلى الذل مصيره، وكل متكبر بها إلى التحسر مسيره، شأنها الهرب من طالبها، والطلب لهاربها، ومن خدمها فاتته، ومن أعرض عنها واتته، لا يخلو صفوها عن شوائب الكدورات، ولا ينفك سرورها عن المنغصات، سلامتها تعقب السقم، وشبابها يسوق إلى الهرم، ونعيمها لا يثمر إلا الحسرة والندم، فهي خدَّاعة مكَّارة، طيَّارة فرَّارة، لا تزال تتزين لطلابها، حتى إذا صاروا من أحبابها، كشرت لهم عن أنيابها، وشوشت عليهم مناظم أسبابها..

أما بعد: فإن **الدنيا عدوة لله، وعدوة لأولياء الله، وعدوة لأعداء الله.** أما عداوتها لله فإنها قطعت الطريق على عباد الله، ولذلك لم ينظر الله إليها منذ خلقها. وأما عداوتها لأولياء الله عز وجل فإنها تزينت لهم بزينتها، وعمتهم بزهرتها ونضارتها، حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها. **وأما عداوتها لأعداء الله فإنها استدرجتهم بمكرها وكيدها، فاقتنصتهم بشبكتها حتى وثقوا بها**، وعولوا عليها، فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها، فاجتنوا منها حسرة تتقطع دونها الأكباد، ثم حرمتهم السعادة أبد الآباد، فهم على فراقها يتحسرون، ومن مكايدها يستغيثون ولا يغاثون، بل يقال لهم: ﴿اخسئوا فيها ولا تكلمون، أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون﴾.

الآيات الواردة في ذم الدنيا وأمثلتها كثيرة، وأكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا، وصرف الخلق عنها، ودعوتهم إلى الآخرة، بل هو مقصود الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولم يبعثوا إلا لذلك، **فلا حاجة إلى الاستشهاد بآيات لقرآن لظهورها،** وإنما نورد بعض الأخبار الواردة فيها. فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على شاة ميتة فقال: «أترون هذه الشاة هينة على أهلها؟» قالوا: من هوانها ألقوها. قال: «والذي نفسي بيده لَلدنيا أهونُ على الله من هذه الشاة على أهلها، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»[٧٨] وقال:

---

٧٨ أخرجه ابن ماجه والحاكم وصحح إسناده من حديث سهل بن سعد وأخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح، ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث المستورد بن شداد دون هذه القطعة الأخيرة، ولمسلم نحوه من حديث جابر.

«الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[٧٩] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها، إلا ما كان لله منها»[٨٠] وقال أبو موسى الأشعري: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى»[٨١] وقال صلى الله عليه وسلم: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»[٨٢] وقال زيد بن أرقم: كنا مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فدعا بشراب، فأتي بماء وعسل، فلما أدناه من فيه بكى حتى أبكى أصحابه، وسكتوا وما سكت، ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لا يقدرون على مسألته قال: ثم مسح عينيه فقالوا: يا خليفة رسول الله ما أبكاك؟ قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيته يدفع عن نفسه شيئاً ولم أر معه أحداً، فقلت: يا رسول الله ما الذي تدفع عن نفسك؟ قال: «هذه الدنيا مثلت لي، فقلت لها: إليك عني، ثم رجعت فقالت: إنك إن أفلت مني لم يفلت مني مَنْ بعدك»[٨٣] وقال صلى الله عليه وسلم: «يا عجباً كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور»[٨٤] وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على مزبلة فقال: «هلموا إلى الدنيا» وأخذ خرقاً قد بليت على تلك المزبلة، وعظاماً قد نخرت، فقال: «هذه الدنيا»[٨٥] وهذه إشارة إلى أن زينة الدنيا ستخلق مثل تلك الخرق، وأن الأجسام التي ترى بها ستصير عظاماً بالية. وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، إن بني إسرائيل لما بسطت لهم الدنيا ومهدت تاهوا في الحلية والنساء والطيب والثياب»[٨٦] .. وقال عليه أفضل الصلاة والسلام: «يا معشر الحواريين إني قد كببت لكم الدنيا على وجهها، فلا تنعشوها بعدي، فإن من خبث الدنيا أن عصي الله فيها، وإن من خبث الدنيا أن الآخرة لا تدرك إلا بتركها، **ألا فاعبروا الدنيا ولا تعمروها**، واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا، ورُبَّ شهوةٍ ساعة أورثت أهلها حزناً طويلاً». وقال أيضاً: «بطحت لكم الدنيا، وجلستم على ظهرها، فلا ينازعنكم فيها الملوك والنساء، فأما الملوك فلا تنازعوهم الدنيا، فإنهم لن يعرضوا لكم ما تركتموهم ودنياهم، وأما النساء فاتقوهن بالصوم والصلاة». وقال موسى بن يسار: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله عز وجل لم يخلق خلقاً أبغض إليه من الدنيا، وإنه منذ خلقها لم ينظر إليها»[٨٧]. وروي

---

٧٩ أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

٨٠ أخرجه الترمذي وحسنه، وابن ماجه من حديث أبي هريرة، وزاد: «إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم».

٨١ أخرجه أحمد والبزار والطبراني وابن حبان والحاكم وصححه.

٨٢ أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا، والبيهقي في شعب الإيمان من طريقه من رواية الحسن مرسلًا.

٨٣ أخرجه البزار بسند ضعيف بنحوه، والحاكم وصحح إسناده، وابن أبي الدنيا والبيهقي من طريقه بلفظه.

٨٤ أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي جرير مرسلًا.

٨٥ أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا، والبيهقي في شعب الإيمان من طريقه من رواية ابن ميمون اللخمي مرسلًا، وفيه بقية بن الوليد وقد عنعنه وهو مدلس.

٨٦ أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي سعيد، دون قوله: «إن بني إسرائيل..» والشطر الأول متفق عليه، ورواه ابن أبي الدنيا من حديث الحسن مرسلاً بالزيادة التي في آخره.

٨٧ أخرجه ابن أبي الدنيا من هذا الوجه بلاغاً، والبيهقي في الشعب من طريقه وهو مرسل.

أن سليمان بن داود عليهما السلام مر في موكبه والطير تظله، والجن والإنس عن يمينه وشماله قال: فمر بعابد من بني إسرائيل فقال: والله يا ابن داود لقد آتاك الله ملكاً عظيماً، قال: فسمع سليمان وقال: لَتسبيحةٌ في صحيفة مؤمن خير مما أُعطي ابن داود، فإن ما أُعطي ابن داود يذهب، والتسبيحة تبقى. وقال صلى الله عليه وسلم: «من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله في شيء، وألزم الله قلبه أربع خصال: همّاً لا ينقطع عنه أبداً، وشغلاً لا يتفرغ منه أبداً، وفقراً لا يبلغ غناه أبداً، وأملاً لا يبلغ منتهاه أبداً»[88] **وقال أبو هريرة: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أبا هريرة ألا أريك الدنيا جميعها بما فيها؟» فقلت: بل يا رسول الله، فأخذ بيده وأتى بي وادياً من أودية المدينة، فإذا مزبلة فيها رؤوس أناس وعذرات وخرق وعظام، ثم قال: «يا أبا هريرة هذه الرؤوس كانت تحرص كحرصكم، وتأمل كأملكم، ثم هي اليوم عظام بلا جلد، ثم هي صائرة رماداً، وهذه العذرات هي ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها، ثم قذفوها في بطونهم، فأصبحت والناس يتحامونها، وهذه الخرق البالية كانت رياشهم ولباسهم، فأصبحت والرياح تصفقها، وهذه العظام عظام دوابهم التي كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد، فمن كان باكياً على الدنيا فليبك»**. قال: فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا.[89] ويروى أن الله عز وجل لما أهبط آدم إلى الأرض قال له: **ابن للخراب ولد للفناء.**

وقال داود بن هلال مكتوب: **في صحف إبراهيم عليه السلام: يا دنيا ما أهونك على الأبرار الذين تصنعت وتزينت لهم، إني قذفت في قلوبهم بغضك والصدور عنك، وما خلقت خلقاً أهون علي منك، كل شأنك صغير وإلى الفناء يصير** قضيت عليك يوم خلقتك أن لا تدومي لأحد، ولا يدوم لك أحد، وإن بخل بك صاحبك وشح عليك، طوبى للأبرار الذين أطلعوني من قلوبهم على الرضا ومن ضميرهم على الصدق والاستقامة، طوبى لهم ما لهم عندي من الجزاء إذا وفدوا إلي من قبورهم إلا النور يسعى أمامهم والملائكة حافون بهم حتى أبلغهم ما يرجون من رحمتي. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الدنيا **موقوفة بين السماء والأرض، منذ خلقها الله تعالى لم ينظر إليها، وتقول يوم القيامة: يا رب اجعلني لأدنى أوليائك اليوم نصيباً. فيقول: اسكتي يا لا شيء، إني لم أرضك لهم في الدنيا أرضاك لهم اليوم**»[90] وروي في أخبار آدم عليه السلام أنه لما أكل من الشجرة تحركت معدته لخروج الثفل، ولم يكن ذلك مجعولاً في شيء من أطعمة الجنة إلا في هذه الشجرة، فلذلك نُهيا عن أكلها، قال: فجعل يدور في الجنة، فأمر الله

٨٨ أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي ذر، دون قوله: «وألزم الله قلبه..» وكذلك رواه ابن أبي الدنيا من حديث أنس بإسناد ضعيف، والحاكم من حديث حذيفة، وروى هذه الزيادة منفردة صاحب الفردوس من حديث ابن عمر، وكلاهما ضعيف.
٨٩ الحديث لا أصل له.
٩٠ تقدم بعضه من رواية موسى بن يسار مرسلاً.

تعالى ملكاً يخاطبه فقال له: قل له: أي شيء تريد؟ قال آدم: أريد أن أضع ما في بطني من الأذى، فقيل للملك: **قل له: في أي مكان تريد أن تضعه أعلى الفرش أم على السرر أم على الأنهار أم تحت ظلال الأشجار؟ هل ترى ههنا مكاناً يصلح لذلك؟ اهبط إلى الدنيا.** وقال صلى الله عليه وسلم: **«ليجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة، فيؤمر بهم إلى النار». قالوا: يا رسول الله مصلين؟ قال: «نعم كانوا يصلون، ويصومون، ويأخذون هنة من الليل، فإذا عرض لهم شيء من الدنيا وثبوا عليه»**[٩١] وقال عيسى عليه السلام: لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد. وروي أن جبريل عليه السلام قال لنوح عليه السلام: يا أطول الأنبياء عمراً كيف وجدت الدنيا؟ فقال: كدار لها بابان، دخلت من أحدهما، وخرجت من الآخر. قيل لعيسى عليه السلام: لو اتخذت بيتاً يكنك. قال: يكفينا خَلَقان من كان قبلها. وقال نبينا صلى الله عليه وسلم: «احذروا الدنيا، فإنها أسحر من هاروت وماروت»[٩٢] وعن الحسن قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على أصحابه فقال: «هل منكم من يريد أن يُذهب الله عنه العمى ويجعله بصيراً؟ ألا إنه من رغب في الدنيا، وطال أمله فيها أعمى الله قلبه على قدر ذلك، ومن زهد في الدنيا وقصر فيها أمله أعطاه الله علماً بغير تعلم، وهديا بغير هداية»[٩٣] وروي أن عيسى عليه السلام اشتد عليه المطر والرعد والبرق يوماً، فجعل يطلب شيئاً يلجأ إليه، فوقعت عينه على خيمة من بعيد، فأتاها، فإذا فيها امرأة، فحاد عنها، فإذا هو بكهف في جبل، فأتاه، فإذا فيه أسد، فوضع يده عليه وقال: إلهي جعلت لكل شيء مأوى، ولم تجعل لي مأوى. فأوحى الله تعالى إليه: مأواك في مستقر رحمتي لأزوجنك يوم القيامة مائة حوراء خلقتها بيدي، ولأطعمن في عرسك أربعة آلاف عام يوم منها كعمر الدنيا، ولآمرن منادياً ينادي: أين الزهاد في الدنيا زوروا عرس الزاهد في الدنيا عيسى ابن مريم. وقال عيسى ابن مريم عليه السلام: ويل لصاحب الدنيا كيف يموت ويتركها وما فيها، وتغره ويأمنها، ويثق بها وتخذله، وويل للمغترين كيف أرتهم ما يكرهون، وفارقهم ما يحبون وجاءهم ما يوعدون. وويل لمن الدنيا همه، والخطايا عمله كيف يفتضح غداً بذنبه؟ وقال المسيح للحواريين: لَأكل خبز الشعير بالملح الجريش، ولبس المسوح، والنوم على المزابل كثير مع عافية الدنيا والآخرة. وقال عيسى عليه السلام: من الذي يبني على موج البحر داراً؟ تلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً. وقيل لعيسى عليه السلام: علمنا واحداً يحبنا الله عليه، قال: **ابغضوا الدنيا يحبكم الله تعالى.** وقال أبو الدرداء: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ولهانت عليكم الدنيا،

---

٩١ أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث سالم مولى أبي حذيفة بسند ضعيف، وأبو منصور الديلمي من حديث أنس وهو ضعيف أيضاً.

٩٢ أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه من رواية أبي الدرداء الرهاوي مرسلًا، وقال البيهقي: إن بعضهم قال: عن أبي الدرداء عن رجل من الصحابة. قال الذهبي: لا يدرى من أبو الدرداء. قال: وهذا منكر لا أصل له.

٩٣ تقدم بعضه من رواية موسى بن يسار مرسلًا.

ولآثرتم الآخرة»[٩٤] ثم قال أبو الدرداء - من قبل نفسه : لو تعلمون ما أعلم لخرجتم إلى الصعدات تجأرون وتبكون على أنفسكم، ولتركتم أموالكم لا حارس لها، ولا راجع إليها إلا ما لا بد لكم منه، ولكن يغيب عن قلوبكم ذكر الآخرة، وحضرها الأمل فصارت الدنيا أملك بأعمالكم، وصرتم كالذين لا يعلمون، فبعضكم شر من البهائم التي لا تدع هواها مخافة مما في عاقبته، ما لكم لا تحابون ولا تناصحون وأنتم إخوان على دين الله ما فرق بين أهوائكم إلا خبث سرائركم، ولو اجتمعتم على البر لتحاببتم؟ ما لكم تناصحون في أمر الدنيا ولا تناصحون في أمر الآخرة؟ ولا يملك أحدكم النصيحة لمن يحبه ويعينه على أمر آخرته، ما هذا إلا من قلة الإيمان في قلوبكم، لو كنتم توقنون بخير الآخرة وشرها كما توقنون بالدنيا لآثرتم طلب الآخرة لأنها أملك لأموركم، فإن قلتم: حب العاجلة غالب، فإنا نراكم تدعون العاجلة من الدنيا للآجل منها، تكدون أنفسكم بالمشقة والاحتراف في طلب أمر لعلكم لا تدركونه، فبئس القوم أنتم ما حققتم إيمانكم بما يعرف به الإيمان البالغ فيكم! فإن كنتم في شك مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فائتونا لنبين لكم ولنريكم من النور ما تطمئن إليه قلوبكم، والله ما أنتم بالمنقوصة عقولكم فنعذركم، إنكم تستبينون صواب الرأي في دنياكم، وتأخذون بالحزم في أموركم، ما لكم تفرحون باليسير من الدنيا تصيبونه، وتحزنون على اليسير منها يفوتكم، حتى يتبين ذلك في وجوهكم، ويظهر على ألسنتكم، وتسمونها المصائب، وتقيمون فيها المآتم، وعامتكم قد تركوا كثيراً من دينهم، ثم لا يتبين ذلك في وجوهكم، ولا يتغير حالكم، إني لأرى الله قد تبرأ منكم، يلقى بعضكم بعضاً بالسرور، وكلكم يكره أن يستقبل صاحبه بما يكره مخافة أن يستقبله صاحبه بمثله، فاصطحبتم على الغل، ونبتت مراعيكم على الدمن، وتصافيتم على رفض الأجل، ولوددت أن الله تعالى أراحني منكم وألحقني بمن أحب رؤيته، ولو كان حياً لم يصابركم، فإن كان فيكم خير فقد أسمعتكم، وإن تطلبوا ما عند الله تجدوه يسيراً، وبالله أستعين على نفسي وعليكم. وقال عيسى عليه السلام: يا معشر الحواريين ارضوا بدنيء الدنيا مع سلامة الدين كما رضي أهل الدنيا بدنيء الدين مع سلامة الدنيا.

وقال عيسى عليه السلام: يا طالب الدنيا لتبر، تركك الدنيا أبر. وقال نبينا صلى الله عليه وسلم: **«لتأتينكم بعدي دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النار الحطب»**[٩٥] وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: **يا موسى لا تركنن إلى حب الدنيا، فلن تأتيني بكبيرة هي أشد منها.** ومر موسى عليه السلام برجل وهو يبكي ورجع وهو يبكي، فقال موسى: يا رب عبدك يبكي من مخافتك، فقال: يا ابن عمران لو سال دماغه مع

---

٩٤ أخرجه الطبراني دون قوله: «ولهانت..» وزاد: «ولخرجتم إلى الصعدات الحديث» وزاد الترمذي وابن ماجه من حديث أبي ذر: «وما تلذذتم بالنساء على الفرش». وأول الحديث متفق عليه من حديث أنس، وفي أفراد البخاري من حديث عائشة.

٩٥ لا أصل له.

دموع عينيه ورفع يديه حتى **يسقطا لم أغفر له وهو يحب الدنيا.**

الآثار عن السلف الصالح: قال علي رضي الله عنه: من جمع فيه ست خصال لم يدع للجنة مطلباً، ولا عن النار مهرباً: أولها: من عرف الله وأطاعه، وعرف الشيطان فعصاه، وعرف الحق فاتبعه، وعرف الباطل فاتقاه، وعرف الدنيا فرفضها، وعرف الآخرة فطلبها. وقال الحسن رحمه الله: من نافسك في دينك، **فنافسه في دنياك، فألقها في نحره.** وقال لقمان عليه السلام لابنه: يا بني إن الدنيا بحر عميق، وقد غرق فيه ناس كثير، فلتكن سفينتك فيه تقوى الله عز وجل، وحشوها الإيمان بالله تعالى، وشراعها التوكل على الله عز وجل، **لعلك تنجو وما أراك ناجياً.** وقال بعض الحكماء: **إنك لن تصبح في شيء من الدنيا إلا وقد كان له أهل قبلك، وسيكون له أهل بعدك، وليس لك من الدنيا إلا عشاء ليلة وغداء يوم، فلا تهلك في أكله، وصم عن الدنيا وأفطر على الآخرة، وإن رأس مال الدنيا الهوى وربحها النار.** وقيل لبعض الرهبان: كيف ترى الدهر؟ قال: يخلق الأبدان، ويجدد الآمال، ويقرب المنية، ويبعد الأمنية. قيل: فما حال أهله؟ قال: من ظفر به تعب، ومن فاته نصب.

قال بعض الحكماء: **كانت الدنيا ولم أكن فيها، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها،** فلا أسكن إليها فإن عيشها نكد، وصفوها كدر، وأهلها منها على وجل، إما بنعمة زائلة أو بلية أو منية قاضية. وقال بعضهم: **من عيب الدنيا أنها لا تعطي أحداً ما يستحق،** لكنها إما أن تزيد وإما أن تنقص. وقال سفيان: أما ترى النعم كأنها مغضوب عليها قد وضعت في غير أهلها. وقال يحيى بن معاذ: **الدنيا حانوت الشيطان، فلا تسرق من حانوته شيئاً فيجيء في طلبه فيأخذك.** وقال الفضيل: **لو كانت الدنيا من ذهب يفنى، والآخرة من خزف يبقى؛ لكان ينبغي لنا أن نختار خزفاً يبقى على ذهب يفنى. فكيف وقد اخترنا خزفاً يفني على ذهب يبقى؟** وقال أبو حازم: إياكم والدنيا، فإنه بلغني أنه يوقف العبد يوم القيامة إذا **كان معظماً الدنيا فيقال: هذا عظم ما حقره الله.** وقال ابن مسعود: ما أصبح أحد من الناس إلا وهو ضيف، وماله عارية، فالضيف مرتحل والعارية مردودة.

وزار رابعة العدوية أصحابها، فذكروا الدنيا فأقبلوا على ذمها، فقالت: اسكتوا عن ذكرها، فلولا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها. ألا من أحب شيئاً أكثر من ذكره. وقال لقمان لابنه: يا بني بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً، ولا تبع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعاً. وقال مطرف ابن الشخير: لا تنظر إلى خفض عيش الملوك ولين رياشهم، ولكن انظر إلى سرعة ظعنهم وسوء منقلبهم. وقال

ابن عباس: إن الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء: جزء للمؤمن، وجزء للمنافق، وجزء للكافر. فالمؤمن يتزود، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع. وقال بعضهم: **الدنيا جيفة، فمن أراد منها شيئاً فليصبر على معاشرة الكلاب.**

وقال أبو الدرداء: من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصى إلا فيها، ولا ينال ما عنده إلا بتركها.

وقال أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه: لما بعث محمد أتت إبليسَ جنودُه فقالوا: قد بعث نبي وأخرجت أمة، قال: يحبون الدنيا؟ قالوا نعم، قال: **لئن كانوا يحبون الدنيا ما أبالي أن لا يعبدوا الأوثان،** وإنما أغدو عليهم وأروح بثلاث: أخذ المال من غير حقه، وإنفاقه في غير حقه، وإمساكه عن حقه، والشر كله من هذا نبع. وقال رجل لعلي كرم الله وجهه: يا أمير المؤمن صف لنا الدنيا، قال: وما أصف لك من دار **من صح فيها سقم، ومن أمن فيها ندم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها افتتن، في حلالها الحساب، وفي حرامها العقاب، ومتشابهها العتاب. وقيل له ذلك مرة أخرى فقال: أطول أم أقصر؟ فقيل: قصر فقال: حلالها حساب، وحرامها عذاب.** وقال مالك بن دينار: **اتقوا السحارة فإنها تسحر قلوب العلماء، يعني الدنيا.** وقال أبو سليمان الداراني: **إذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدنيا تزاحمها، فإذا كانت الدنيا في القلب لم تزاحمها الآخرة، لأن الآخرة كريمة والدنيا لئيمة.** وهذا تشديد عظيم ونرجو أن يكون ما ذكره سيار بن الحكم أصح، إذ قال: **الدنيا والآخرة يجتمعان في القلب، فأيهما غلب كان الآخر تبعاً له.** وقال مالك بن دينار: **بقدر ما تحزن للدنيا يخرج هم الآخرة من قلبك، وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك.** وهذا اقتباس مما قاله علي كرم الله وجهه حيث قال: **الدنيا والآخرة ضَرّتان، فبقدر ما ترضي إحداهما تسخط الأخرى.** وقال الحسن: والله لقد **أدركت أقواماً كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذي تمشون عليه، ما يبالون أشرقت الدنيا أم غربت، ذهبت إلى ذا أو ذهبت إلى ذا؟** وقال رجل للحسن: ما تقول في رجل آتاه الله مالاً فهو يتصدق منه ويصل منه، أيحسن له أن يتعيش فيه؟ - يعني يتنعم - فقال: لا، **لو كانت له الدنيا كلها ما كان له منها إلا الكفاف، ويقدم ذلك ليوم فقره.** وقال الفضيل: لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت علي حلالاً لا أحاسب عليها في الآخرة **لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه.** وقال سعيد بن مسعود: إذا رأيت العبد تزداد دنياه وتنقص آخرته وهو به راض فذلك المغبون الذي يلعب بوجهه وهو لا يشعر. وقال الحسن بعد أن تلا قوله تعالى: ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾: من قال ذا؟ قاله من خلقها، ومن هو أعلم بها، إياكم وما شغل من الدنيا، فإن الدنيا كثيرة الأشغال، **لا يفتح رجل**

على نفسه باب شغل إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب. وقال أيضاً: مسكين ابن آدم يستقل ماله، ولا يستقل عمله، يفرح بمصيبته في دينه، ويجزع من مصيبته في دنياه. وقال بشر: **من سأل الله الدنيا فإنما يسأله طول الوقوف بين يديه**. وقال أبو حازم: ما في الدنيا شيء يسرك إلا وقد ألصق الله إليه شيئاً يسوؤك. وقال الحسن: لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث: أنه لم يشبع مما جمع، ولم يدرك ما أمل، ولم يحسن الزاد لما يقدم عليه. وقيل لبعض العباد: قد نلت الغنى، فقال: إنما نال الغنى من عُتق من رق الدنيا. وقال أبو حازم: **يسير الدنيا يشغل عن كثير الآخرة**، وقال الحسن: **أهينوا الدنيا، فو الله ما هي لأحد بأهنأ منها لمن أهانها**. وقال أيضاً: إذا **أراد الله بعبد خيراً أعطاه من الدنيا عطية ثم يمسك، فإذا نفد أعاد عليه، وإذا هان عليه عبد بسط له الدنيا بسطاً**. وكان بعضهم يقول في دعائه: يا ممسك السماء أن تقع على الأرض **إلا بإذنك أمسك الدنيا عني**. وقال محمد بن المنكدر: أرأيت لو أن رجلاً صام الدهر لا يفطر، وقام الليل لا ينام، وتصدق بماله، وجاهد في سبيل الله، واجتنب محارم الله، غير أنه يؤتى به يوم القيامة فيقال: **إن هذا عظم في عينه ما صغره الله، وصغر في عينه ما عظمه الله كيف ترى يكون حاله؟ فمن منا ليس هكذا الدنيا عظيمة عنده مع ما اقترفنا من الذنوب والخطايا؟** وقال أبو حازم: اشتدت مؤنة الدنيا والآخرة، فأما مؤنة الآخرة فإنك لا تجد عليها أعواناً، وأما مؤنة الدنيا فإنك **لا تضرب بيدك إلى شيء منها إلا وجدت فاجراً قد سبقك إليه**. وقال أبو هريرة: الدنيا موقوفة بين السماء والأرض كالشن البالي تنادي ربها منذ خلقها إلى يوم يفنيها. **يا رب يا رب لم تبغضني؟ فيقول لها: اسكتي يا لا شيء**. وقال عبد الله بن المبارك: حب الدنيا والذنوب في القلب قد احتوشته، فمتى يصل الخير إليه؟ وقال وهب بن منبه: من فرح **قلبه بشيء من الدنيا فقط أخطأ الحكمة**، ومن جعل شهوته تحت قدميه فرق الشيطان من ظله، ومن غلب عليه هواه فهو الغالب. وقيل لبشر: مات فلان فقال: جمع الدنيا وذهب إلى الآخرة، ضيع نفسه، قيل له: **إنه كان يفعل ويفعل - وذكروا أبواباً من البر - فقال: وما ينفع هذا وهو يجمع الدنيا؟** وقال بعضهم: **الدنيا تبغض إلينا نفسها ونحن نحبها، فكيف لو تحببت إلينا؟** وقيل لحكيم: الدنيا لمن هي؟ قال: **لمن تركها**. فقيل: الآخرة لمن هي؟ قال: لمن طلبها. وقال حكيم: **الدنيا دار خراب وأخرب منها قلب من يعمرها**، والجنة دار عمران وأعمر منها قلب من يطلبها. وقال الجنيد: كان الشافعي رحمه الله من المريدين الناطقين بلسان الحق في الدنيا، وعظ أخاً له في الله، وخوفه بالله، فقال: يا أخي إن **الدنيا دحض مزلة، ودار مذلة، عمرانها إلى الخراب صائر**، وساكنها إلى القبور زائر، شملها على الفرقة موقوف، وغناها إلى الفقر مصروف، الإكثار فيها إعسار، والإعسار فيها يسار، فافزع إلى الله، وارض برزق الله لا تتسلف من دار

بقائك إلى دار فنائك، فإن عيشتك فيء زائل، وجدار مائل، أكثر من عملك، وأقصر من أملك. وقال إبراهيم بن أدهم لرجل: أدرهم في المنام أحب إليك أم دينار في اليقظة؟ فقال: دينار في اليقظة. فقال: كذبت، **لأن الذي تحبه في الدنيا كأنك تحبه في المنام، والذي لا تحبه في الآخرة كأنك لا تحبه في اليقظة.** وعن إسماعيل بن عياش قال: كان أصحابنا يسمون **الدنيا خنزيرة فيقولون: إليكِ عنا يا خنزيرة، فلو وجدوا لها أسماء** أقبح من هذا لسموها به. وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله: العقلاء ثلاثة: **من ترك الدنيا قبل أن تتركه،** وبنى قبره قبل أن يدخله، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه. وقال أيضاً: **الدنيا بلغ شؤمها أن تمنيك لما يلهيك عن طاعة الله، فكيف الوقوع فيها.** وقال بكر بن عبد الله: من **أراد أن يستغني عن الدنيا بالدنيا كان كمطفئ النار بالتبن.** وقال بندار: **إذا رأيت أبناء الدنيا يتكلمون في الزهد فاعلم أنهم في سخرة الشيطان.** وقال أيضاً: من أقبل على الدنيا **أحرقته نيرانها** - يعني الحرص - حتى يصير رماداً، ومن أقبل على الآخرة صفته بنيرانها فصار سبيكة ذهب ينتفع به، ومن أقبل على الله عز وجل أحرقته نيران التوحيد فصار جوهراً لا حد لقيمته. وقال علي كرم الله وجهه: إنما الدنيا ستة أشياء: **مطعوم ومشروب وملبوس ومركوب ومنكوح ومشموم، فأشرف المطعومات العسل، وهو مذقة ذباب، وأشرف المشروبات الماء، ويستوي فيه البر والفاجر، وأشرف الملبوسات الحرير، وهو نسج دودة، وأشرف المركوبات الفرس، وعليه يقتل الرجال، وأشرف المنكوحات المرأة، وهي مبال في مبال، وإن المرأة لتزين أحسن شيء منها، ويراد أقبح شيء منها، وأشرف المشمومات المسك، وهو دم.**

ولما ذكرت الدنيا عند الحسن البصري رحمه الله أنشد وقال:

أحلام نوم أو كظل زائل ... إن اللبيب بمثلها لا يخدع

مثال آخر للدنيا من حيث التغرير بخيالاتها ثم الإفلاس منها بعد إفلاتها. تشبه خيالات المنام وأضغاث الأحلام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«الدنيا حلم، وأهلها عليها مجازون ومعاقبون».** [٩٦]

... وهي كامرأة تتزين للخطاب، **حتى إذا نكحتهم ذبحتهم.** وقد روي أن عيسى عليه السلام **كوشف بالدنيا، فرآها في صورة عجوز هتماء عليها من كل زينة، فقال لها: كم تزوجت؟ قالت: لا أحصيهم، قال: فكلهم مات عنك أم كلهم طلقك؟ قالت: بل كلهم قتلت، فقال عيسى عليه السلام: بؤساً لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين! كيف تهلكينهم واحداً بعد واحد ولا يكونون منك**

---
٩٦ لا أصل له.

على حذر!.

اعلم أن الدنيا مزينة الظواهر، قبيحة السرائر، وهي شبه **عجوز متزينة تخدع الناس بظاهرها**، فإذا وقفوا على باطنها، وكشفوا القناع عن وجهها تمثل لهم قبائحها، فندموا على اتباعها، وخجلوا من ضعف عقولهم في الاغترار بظاهرها. وقال العلاء بن زياد: **رأيت في المنام عجوزاً كبيرة متعصبة الجلد عليها من كل زينة الدنيا، والناس عكوف عليها معجبون ينظرون إليها، فجئت ونظرت وتعجبت من نظرهم إليها وإقبالهم عليها، فقلت لها: ويلك من أنت؟ قالت: أو ما تعرفني؟ قلت: لا أدري من أنت؟ قالت: أنا الدنيا، قلت: أعوذ بالله من شرك! قالت: إن أحببت أن تعاذ من شري فابغض الدرهم.** قال أبو بكر بن عياش: رأيت الدنيا في النوم **عجوزاً مشوهة شمطاء** تصفق بيديها وخلفها خلق يتبعونها ويصفقون ويرقصون، فلما كانت بحذائي أقبلت علي فقالت: لو ظفرت بك لصنعت بك مثل ما صنعت بهؤلاء. ثم بكى أبو بكر وقال: رأيت هذا قبل أن أقدم إلى بغداد. وقال الفضيل بن عياض: قال ابن عباس: يؤتى بالدنيا يوم القيامة **في صورة عجوز شمطاء زرقاء، أنيابها بادية ومشوه خلقها، فتشرف على الخلائق فيقال لهم: أتعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه، فيقال: هذه الدنيا التي تناحرتم عليها، بها تقاطعتم الأرحام، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم، ثم يقذف بها في جهنم فتنادي: أي رب أين أتباعي وأشياعي؟ فيقول الله عز وجل: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها.** وقال الفضيل: بلغني أن رجلاً عرج بروحه، فإذا امرأة على قارعة الطريق عليها من كل زينة من الحلي والثياب، وإذا لا يمر بها أحد إلا جرحته، فإذا هي أدبرت كانت أحسن شيء رآه الناس، **وإذا هي أقبلت كانت أقبح شيء رآه الناس،** عجوز شمطاء زرقاء عمشاء، قال: فقلت: أعوذ بالله منك. قالت: لا والله. لا يعيذنك الله مني حتى تبغض الدرهم. قال: فقلت: من أنت؟ قالت: أنا الدنيا.

ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «ما لي وللدنيا! وإنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب سار في يوم صائف، فرفعت شجرة، فقال تحت ظلها ساعة، ثم راح وتركها»[٩٧] ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها، ولم يبال كيف انقضت أيامه في ضر وضيق أو في سعة ورفاهية، بل لا يبني لبنة على لبنة. توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم **وما وضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة**[٩٨] ورأى بعض الصحابة يبني بيتاً من جص فقال: «أرى الأمر أعجل من هذا» وأنكر ذلك[٩٩]. وإلى هذا أشار عيسى

---

٩٧ أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث ابن مسعود بنحوه، ورواه أحمد والحاكم وصححه من حديث ابن عباس.
٩٨ أخرجه ابن حبان في الثقات، وللطبراني في الأوسط من حديث عائشة بسند ضعيف.
٩٩ أخرجه أبو داود والترمذي من حديث عبد الله بن عمرو، وقال: حسن صحيح.

عليه السلام حيث قال: الدنيا **قنطرة، فاعبروها ولا تعمروها.** وهو مثال واضح، فإن الحياة الدنيا معبر إلى الآخرة، والمهد هو الميل الأول على رأس القنطرة، واللحد هو الميل الآخر، وبينهما مسافة محدودة، فمن الناس من قطع نصف القنطرة، ومنهم من قطع ثلثها، ومنهم من قطع ثلثيها، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها. وكيفما كان فلا بد له من العبور، **والبناء على القنطرة وتزيينها بأصناف الزينة وأنت عابر عليها غاية الجهل والخذلان.**

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما مثل **صاحب الدنيا كالماشي في الماء هل يستطيع الذي يمشي في الماء أن لا تبتل قدماه**»[١٠٠] .. فكذلك **ملابسة الدنيا تقتضي علاقة وظلمة في القلب، بل علاقة الدنيا مع القلب تمنع حلاوة العبادة.** قال عيسى عليه السلام: بحق أقول لكم، كما ينظر المريض إلى الطعام فلا يلتذ به من شدة الوجع، كذلك **صاحب الدنيا لا يلتذ بالعبادة، ولا يجد حلاوتها مع ما يجد من حب الدنيا، وبحق أقول لكم، إن الدابة إذا لم تركب وتمتهن تصعب ويتغير خلقها، كذلك القلوب إذا لم ترقق بذكر الموت ونصب العبادة تقسو وتغلظ، وبحق أقول لكم، إن الزق ما لم ينخرق أو يقحل يوشك أن يكون وعاء للعسل، كذلك القلوب ما لم تخرقها الشهوات أو يدنسها الطمع، أو يقسيها النعيم فسوف تكون أوعية للحكمة.** وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنما بقي من الدنيا بلاء وفتنة، وإنما مثل عمل أحدكم كمثل الوعاء إذا طاب أعلاه طاب أسفله، وإذا خبث أعلاه خبث أسفله». [١٠١]

مثال آخر لما بقي من الدنيا وقتلته بالإضافة لما سبق: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثل هذه الدنيا مثل **ثوب شق من أوله إلى آخره، فبقي متعلقاً بخيط في آخره، فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع».** [١٠٢]

مثال آخر لتأدية علائق الدنيا بعضها إلى بعض حتى الهلاك: قال عيسى عليه السلام: مثل طالب الدنيا مثل **شارب ماء البحر،** كلما شرب ازداد عطشاً حتى يقتله.

مثال آخر لمخالفة آخر الدنيا أولها ولنضارة أوائلها وخبث عواقبها، اعلم أن شهوات الدنيا في القلب لذيذة كشهوات الأطعمة في المعدة، وسيجد العبد عند الموت لشهوات **الدنيا في قلبه من الكراهة والنتن والقبح ما يجده للأطعمة اللذيذة إذا بلغت في المعدة غايتها،** وكما أن الطعام كلما كان ألذ طعماً وأكثر دسماً وأظهر حلاوة **كان رجيعه أقذر وأشد نتناً، فكذلك كل شهوة في القلب هي أشهى وألذ**

---

١٠٠ أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من رواية الحسن، قال: بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فذكره، ووصله البيهقي في الشعب وفي الزهد من رواية الحسن عن أنس وضعفه الالباني.

١٠١ أخرجه ابن ماجه من حديث معاوية فرقه في موضعين ورجاله ثقات وصححه الالباني.

١٠٢ أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في الثواب، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أنس بسند ضعيف.

وأقوى، فتنتها وكراهتها والتأذي بها عند الموت أشد، بل هي في الدنيا مشاهدة، فإن من نهبت داره، وأخذ ماله وولده، فتكون مصيبته وألمه وتفجعه في كل ما فقد بقدر لذته به وحبه له وحرصه عليه، فكل ما كان عند الوجود أشهى عنده وألذ فهو عند الفقد أدهى وأمر، ولا معنى للموت إلا فقد ما في الدنيا. وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للضحاك بن سفيان الكلابي: «ألست تؤتى بطعامك وقد ملح وقزح ثم تشرب عليه اللبن والماء؟ قال: بلى. قال: فإلام يصير؟ قال: إلى ما قد علمت يا رسول الله، قال: **فإن الله عز وجل ضرب مثل الدنيا بما يصير إليه طعام ابن آدم**»[١٠٣] وكان بشر بن كعب يقول: **انطلقوا حتى أريكم الدنيا. فيذهب بهم إلى مزبلة فيقول: انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم.**

مثال آخر في نسبة الدنيا إلى الآخرة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل **أحدكم إصبعه في اليم فلينظر أحدكم بم يرجع إليه**».[١٠٤]

مثال آخر للدنيا وأهلها في اشتغالهم بنعيم الدنيا وغفلتهم عن الآخرة وخسرانهم العظيم بسببها: اعلم أن أهل الدنيا مثلهم في غفلتهم مثل قوم ركبوا سفينة، فانتهت بهم إلى جزيرة، فأمرهم الملاح **بالخروج إلى قضاء الحاجة، وحذرهم المقام، وخوفهم مرور السفينة واستعجالها**، فتفرقوا في نواحي الجزيرة، فقضى **بعضهم حاجته**، وبادر إلى السفينة، فصادف المكان **خالياً، فأخذ أوسع الأماكن وألينها وأفقها لمراده.**

◆◆◆

كل النصوص السابقة مأخوذة **من كتاب «ذم الدنيا»، من كتاب «إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالي** [١٠٥].. وهو كتاب من أكثر الكتب رواجاً وتأثيراً في العقل الجمعي، ينهل منه الخطباء ووعاظ المساجد خطبهم ومواعظهم، ويمارس تأثيره حتى على الأميين من الجمهور عبر انتقال ما فيه من قصص وأمثال ومواعظ إلى وعيهم عبر الترداد والتكرار.

اختيار هذه النصوص من هذا الكتاب تحديداً **كان بسبب انتشاره**، علماً بأن كثيراً من كتب الزهد الأخرى لا تختلف كثيراً عن المضمون السابق، بل إن بعض أكثر كتب الزهد رواجاً هي مجرد اختصار لكتاب «الإحياء».

وأبو حامد الغزالي (٤٥٠- ٥٠٥هـ) الملقب بحجة الإسلام، أشهر من أن يعرف، وهو

١٠٣ أخرجه أحمد والطبراني من حديثه بنحوه، وفيه علي بن زيد بن جدعان مختلف فيه.
١٠٤ لأخرجه مسلم من حديث المستورد بن شداد.
١٠٥ إحياء علوم الدين : محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، الناشر : دار المعرفة - بيروت.

أحد المؤسسين للعقل الجمعي بوضعه الحالي، فالتيار الذي ينتمي له (الصوفي-الأشعري) هو التيار الذي **تمَّتْ له الغلبة عشية دخولنا إلى عصر انحطاط الحضارة الإسلامية**، والذي يمكن أن يعد واقعنا المعاصر مجرد امتداد واستمرار له.. وكان انتصار هذا التيار يمثل انحسار بقية التيارات الأخرى الأكثر عقلانية، وربما الأكثر قرباً من القرآن الكريم وصحيح السنة، علماً بأن الغزالي شكَّل إلى حد بعيد «رأس حربة» في الصراع بين هذه التيارات.

وُصف كتابه «إحياء علوم الدين» من قِبل من ينتمي إلى تياره العريض بما يلي من أوصاف التفخيم والتبجيل التي نوردها هنا للدلالة على مركزية هذا الكتاب في «العقل الجمعي»:

قال المحدث عبد الرحيم العراقي في تخريجه للإحياء: **إنه من أجلِّ كتب الإسلام في معرفة الحلال والحرام، جمع فيه بين ظواهر الأحكام، ونزع إلى سرائر دَقَّتْ عن الأفهام، لم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل، ولم يتبحر في اللجة بحيث يتعذر الرجوع إلى الساحل، بل مزج فيه علمي الظاهر والباطن، ومرج معانيها في أحسن المواطن، وسبك فيه نفائس اللفظ وضبطه، وسلك فيه من النمط أوسطه، مقتدياً بقول علي كرم الله وجهه: خير هذه الأمة النمط الأوسط، يلحق بهم التالي، ويرجع إليهم الغالي.**

* قال عبد الغافر الفارسي: إنه من تصانيفه المشهورة التي لم **يسبق إليها.**

* قال النووي: **كاد الإحياء أن يكون قرآناً!**

* قال أبو محمد الكازروني: لو مُحيت جميع العلوم **لاستخرجت من الإحياء.**

* قال عبد الله العيدروس: مكثت سنين أطالع كتاب الإحياء كل فصل وحرف منه، وأعاوده، وأتدبره، فيظهر لي منه في كل يوم علوم وأسرار عظيمة، ومفهومات غزيرة غير التي قبلها. ولم يسبقه أحد، ولم يلحقه أحد. أثنى على كتاب الإحياء بما أثنى عليه، ودعا الناس بقوله وفعله إليه، وحث على التزام مطالعته، والعمل بما فيه.

* ومن كلامه: أنا **أشهد سراً وعلانية أن من طالع كتاب إحياء علوم الدين فهو من المهتدين.**

* ومن كلامه: من **أراد طريق الله وطريق رسول الله وطريق العارفين بالله وطريق العلماء بالله أهل الظاهر والباطن، فعليه بمطالعة كتب الغزالي خصوصاً «إحياء علوم الدين» فهو البحر المحيط.**

* قال علي بن أبي بكر السقاف: **لو قلب أوراق الإحياء كافر لأسلم، ففيه سر خفي يجذب القلوب شبه المغناطيس.**

لم يخل الأمر من انتقادات «عنيفة جدا»[١٠٦] من التيارات الأخرى، لكن - كما قلنا - الغلبة كانت لهذا التيار بالذات، واليوم مجرد انتقادك لجزء مما جاء به الغزالي **سيفتح عليك أبواب الهجوم من قبل أشخاص ربما لم يقرؤوا له قط، لكنهم يدافعون عن مركزيته ومرجعيته في العقل الجمعي السائد، لأنه يمثل - بفكره - جزءاً من موروثهم الذي لا يستطيعون التخلي عنه بسهولة، حتى لو كان هذا الموروث سبباً من أسباب تخلفهم وبعدهم عن موقعهم الذي يجب أن يكون في الريادة في العالم.** لقد صار هذا جزء من «اللامفكر» فيه.. لا يمكن أن يتخيلوا خروجهم عن هذه «المنظومة الثقافية» التي كان الغزالي ركناً فيها.

* أقول هذا وأستدرك: إنهم **عندما يدركون أنهم لن «يكونوا» إلا بالخروج.. وأن البقاء هو انقراضهم الحتمي.. فإنه لن يكون هناك خيار.**

قبل أن نشير إلى ما يجب الإشارة إليه في النص المأخوذ من «إحياء علوم الدين» علينا أن ننبه هنا إلى أن «الغزالي» كفرد لا يمكن أن يكون مسؤولاً عن التدهور الذي أصاب الأمة.. على الأقل ليس في هذا النص المنقول من كتابه.. فهو في هذا النص، كما في كثير من نصوص «الإحياء» كان يجمع الأقوال المتناثرة أكثر مما كان «يؤلفها»، أي أن هذه الآراء والمواقف من الدنيا كانت موجودة فعلاً.. **وإليه يعود الفضل في جمعها وتأصيلها وتقديمها بإطار قابل للتداول والانتقال من عصر إلى آخر.**

نص الإحياء تحت المجهر

أولاً - سننتبه أولاً إلى أن النص المنقول **يستبعد النصوص القرآنية تماماً بدعوى أنها ظاهرة ومعروفة**، وبغض النظر عن «الهدف» من وراء هذا، فإن **ذلك يوهم «المتلقي» بأن أمر النصوص القرآنية - في موضوع ذم الدنيا - محسوم**.. أما عرضها فقد يكشف عن خلل كبير في كل ما سيلي من نصوص لاحقة اعتمد عليها «الغزالي» في تأصيل النظرة الدونية للدنيا.. وسنأتي لاحقا على الموقف القرآني من هذا الأمر.

١٠٦ يراجع مثلا : هذه هي الصوفية ، عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب العلمية، الطبعة الرابعة ١٩٨٤، وقد خصص فيه فصلا كاملا للغزالي، وكذلك كتاب "هل تجنيت على الغزالي؟" للمؤلف نفسه، دار سبيل المؤمنين للنشر والتوزيع. وكذلك كتاب " الحقيقة في نظر الغزالي " للدكتور سليمان دنيا، دار المعارف، الطبعة الرابعة.

ثانياً - إن النسبة الغالبة للأحاديث النبوية المستخدمة في هذا الموضوع هي أحاديث ضعيفة وموضوعة أو لا أصل لها (غير موجودة أصلاً في كتب الحديث).. فمن بين خمسة وعشرين حديثاً نسبت له عليه الصلاة والسلام في هذا النص كان هناك سبعة أحاديث فقط بين الصحيح والحسن، والباقية بين الضعيف والموضوع والحديث الذي «لا أصل له»..

لكن لا أحد من المؤيدين للغزالي ولنتاجه، ومن التيار العريض الذي ساد وانتصر، لديه مشكلة كبيرة في هذه النسبة الغالبة من الأحاديث الضعيفة والموضوعة الموجودة في ثنايا نص الغزالي..

لماذا؟..

للأسف الشديد، فقد انتهى الأمر عند كثير من علماء التيار السائد، وحتى غيرهم في عصور الانحطاط والتردي إلى **القبول بالأحاديث الضعيفة ما دامت في فضائل الأعمال**، أو في «الترهيب والترغيب».. كما لو كنا نعاني نقصاً وأزمة في الأحاديث الصحيحة، مما يجعلنا نضطر إلى القبول بالضعيف !..[107]

ثالثاً - أدى القبول بالأحاديث الضعيفة إلى تحديد **مسبق لماهية «فضائل الأعمال»**.. فقد قرروا أن **«ذم الدنيا» هو من فضائل الأعمال.. وبالتالي فلا بأس من رواية الأحاديث الضعيفة في تحقيرها والحث على تجنبها والبعد عنها..** فالأمر هنا ينطوي على «خطأ» مركب.. **الافتراض المسبق بأن ترك الدنيا فضيلة، ومن ثم رواية أحاديث لا تصح نسبتها إليه عليه الصلاة والسلام.**

أي أن الأمر هنا هو أن الأعمال الفاضلة لم تحدد بناء على «نصوص قرآنية» لا يأتيها الباطل قط، أو أحاديث صحيحة ثابتة النسبة إليه عليه الصلاة والسلام (بدليل استبعاد الأولى تماماً وقلة نسبة الثانية في موضوع مثل ذم الدنيا)، **بل بني الأمر على رؤية مسبقة - تحقيرية - للدنيا وما فيها، واعتبار ذمها من فضائل الأعمال**، وبالتالي فقد تم تمرير الأحاديث الضعيفة في ذلك على الرغم من **عدم وجود ما يثبت أن ذلك فضيلة أصلاً!..**

علماً بأني شخصياً اعتبر أن «اعتقادنا في الدنيا»، ورؤيتنا لها، هي في الحقيقة

---

١٠٧ قال بعض العلماء: "إنه لا يُعمل بالحديث الضعيف في الأحكام والعقائد، ولكن يُعمل به في فضائل الأعمال والترغيب والترهيب بشروط اعتمدها الأئمة الثقات" .. وممن قال بذلك الحافظ ابن حجر العسقلاني، والإمام النووي، والإمام ابن جماعة، والإمام الطيبي، والإمام سراج الدين البقيني، والحافظ زين الدين أبو الفضل العراقي، والإمام ابن دقيق العيد، والحافظ ابن حجر الهيتمي، والإمام ابن الهمام، والإمام ابن علان، والإمام الصنعاني، واختار هذا القول الشيخ ابن باز، والشيخ صالح اللحيدان، والشيخ صالح الفوزان، والشيخ عبد العزيز آل الشيخ، والشيخ صالح آل الشيخ، والشيخ علي حسن الحلبي. وهذه الشروط التي وضعها المحدثون لرواية الحديث الضعيف والعمل به في فضائل الأعمال لخصها الحافظ ابن حجر العسقلاني في ثلاثة شروط كما في (تبيين العجب بما ورد في شهر رجب) (ص٣) أولاً: أن لا يكون الحديث الضعيف موضوعاً. ثانياً: أن يعرف العامل به كون الحديث ضعيفاً. ثالثاً: أن لا يُشهر العمل به .

«عقيدة».. أكثر منها «فضائل أعمال»..

رابعاً - لا يمكن لأي محايد أن يغض النظر عن كثرة الاستشهادات بعيسى عليه السلام في نص يفترض أنه من «إحياء علوم الدين» - الإسلامي!!.. لا نقول هنا: إنه يجب عدم الاستشهاد بنبي سابق على الإسلام، فكل الأنبياء مسلمون.. لكن **كيف يمكن التثبت من نسبة ما يقال إلى السيد المسيح؟..** لا يمكن طبعاً.. (وإذا كانت بعض الأسانيد للرسول عليه الصلاة والسلام لا تخلو من قدح، فكيف بحديث منسوب لعيسى عليه السلام بلا سند أصلاً؟!).

ولكن النص السابق تضمن أكثر من عشرة استشهادات منسوبة إلى عيسى عليه السلام.. وطبعاً لا سند فيها حسب المقاييس الحديثية.. هذا يعني أنها قد أخذت من **المنظومة النصرانية الكنسية، التي لها موقف معين من الدنيا (رهبانية ابتدعوها)..**

هذا التأثر بالمسيحية ومفاهيمها واضح جداً في هذا الموقف ككل.. فقد اختارت المسيحية الكنسية في مرحلة مبكرة، وفي بعض مذاهبها على الأقل، ونتيجة لبعض التفاصيل التاريخية الخاصة بظروف نشأتها، أن **تفصل تماماً بين «ما هو لله، وما هو لقيصر».. وكانت الدنيا لقيصر.. وما سوى الدنيا لله..!** وهكذا نشأت الرهبانية وازدهرت، وصارت علامة «للتقوى» و«التدين» حسب الفهم المسيحي الكنسي.

والزهد في الدنيا بالطريقة التي عرضت في النص السابق، وخصوصاً ذمها وتحقيرها على هذا النحو أمر لا يمكن استبعاد تأثره بالمسيحية، خاصة مع وجود هذه الكثرة من الاستشهادات بالسيد المسيح، دون وجود أي دليل على صحة نسبة الكلام له، صحيح أن تفاصيل الرهبنة - عدم التزاوج مثلاً - لم تدخل قط إلى الإسلام.. **لكن النظرة التحقيرية للدنيا، كانت غريبة تماماً عن الجيل الأول الذي اعتبر أن «الدنيا مزرعة الآخرة».. وأنها دار ابتلاء وامتحان يتحدد على أساس العمل فيها - وإعمارها وإثمارها - موقعهم ومكانتهم في الآخرة..** الجيل الأول الذي انطلق ليفتح «الدنيا» ويبذل جهده **فيها لم يكن ليعتبرها «مزبلة» أو «خنزيرة».. وإلا ما سعى لحظة لفتحها وبنائها وإعمارها..**

هذه النظرة التحقيرية للدنيا **تتعارض تماماً وبحدة مع عقيدة الاستخلاف، مع المسؤولية الإنسانية، ومع اعتبار «الدنيا» هي موضع هذا الاستخلاف..**

لو أن الجيل الأول ومن تبعه من أجيال الفتح كان يحتقر الدنيا، لما كان انطلق

ليصارع كسرى وقيصر على دنياهما.. **ويأخذها منهما ويعيد ترتيبها كما يجب..**

لم يكن الجيل الأول الذي فتح العالم **«لا مبالياً» تجاه الدنيا أو محتقراً لها.. ولو كان كذلك لما تجشم عناء الخروج لفتح مغاليقها، وإصلاح مظالمها، وإعادة بناء الفاسد من أساساتها..**

لكنهم خرجوا.. وغيروا.. وفتحوا.. وأعادوا بناء العالم - الدنيا من جديد..

كانت دنياهم هي جواز مرورهم لآخرتهم..

الدنيا التي فتحوها وبنوها وأشاعوا القيم الجديدة فيها هي التي كانت ستثقل موازين أعمالهم يوم يتقدمون إلى الاختبار الأخير..

ولو كان فهمهم غير هذا.. لكان هناك «كلام آخر» في هذا..

حقنة ذم الدنيا في الوعي المسلم

ما الذي يحدث للفرد المتلقي عندما يحقن في وعيه هذا «الكم من ذم الدنيا» وتحقيرها؟

بل ماذا يحدث للمجتمع عندما تتكون رؤيته للدنيا - أي ما يعتقده فيها، أي عقيدته فيها - من هذا الكم من التحقير والذم والانتقاص من الدنيا؟

ستكون هناك واحدة من عدة احتمالات..

الأولى: أن يكون هذا الفرد - أو المجتمع خاملاً وساقطاً في شراك **البعد عن الإنجاز الدنيوي**، وستكون هذه الرؤية التحقيرية للدنيا سبباً لذلك، أو إعانة للفرد - المجتمع على ذلك..

الثانية: أن يكون هذا الفرد – المجتمع يمتلك من الحوافز للعمل الدنيوي ما يكون أقوى من هذه الرؤية، وهذا يعني أنه سيضطر **للفصل بين «طموحه الدنيوي» و«العقيدة الدينية»** التي يملكها.. دنياه التي يعمل من أجلها ستكون منفصلة عن دينه.. لا يعني هذا أنه سيترك «الدين» بمعنى الإلحاد أو الكفر.. لكن **دينه سيكون لا علاقة له بالدنيا..** سيقتصر على تدين نمطي، شعائري، مفرغ من كل ما له علاقة بحياته اليومية، بواقع دنياه.

الثالثة: أن يكون هناك إنجاز دنيوي فعلاً، ولكن اختلت معاييره ومقاييسه تدريجياً

نحو السرف والترف الفارغ من أي معنى إعماري للأرض.. هنا سيبدو «ذم الدنيا» كما لو كان مجرد رد فعل مسوغ تجاه الفعل المسرف، لكن رد الفعل هذا لا يقل سوءاً وسلبية عن الفعل، لأنه لا **يقوم بالإصلاح، ولا ينجز التوازن، بل يقوم بالهروب فحسب،** الهروب من مواجهة الدنيا عبر انتقاص ما فيها، وذمها، وتحقيرها..

إنه أن لا تحاول أن تصل للعنب..

لأنك تقنع نفسك بأنه حصرم!

وكان لا بد، والحال على واحد من هذه الأوجه.. أن يكون «ذم الدنيا» وانتشاره وترسخه انعكاساً إما لعصر انحطاط يعيشه مجتمع ما، على كافة النواحي.. أو أن يكون رد فعل لحالة من الترف المبالغ بها.

والعصر الذي تم فيه التنظير لذم الدنيا كان عصر الانحطاط لا محالة.. تحولت الدولة الإسلامية فيه إلى دويلات متنازعة متفرقة.. **بل إن كتاب الإحياء الذي جمع وأصَّل فيه لذم الدنيا كتب في واحدة من أحلك فترات الأمة الإسلامية على الإطلاق، حيث كُتب إبان غزو الفرنجة واكتساحهم لبلاد الشام واحتلالهم بيت المقدس، وكان أبو حامد في بلاد الشام آنذاك..**

هل هناك من جرعة من التخدير تخفف من وطأة هذا الواقع القاسي أكثر من جرعة ذم الدنيا وما فيها مرة واحدة وإلى الأبد؟ ما الذي يهمك إن أخذ دنياك الفرنجة، أو السلطان الظالم، أو كائناً من كان؟ الدنيا أصلاً مزبلة منتنة.. فليأخذوها ولتأخذهم إلى جهنم وبئس المصير..

أما نحن.. فَلَدينا الجنة.. بماذا ندخلها؟ بالعمل الصالح طبعاً!

ما هو هذا العمل الصالح؟

الشعائر طبعاً.. المزيد منها، فرائض وسنن ونوافل وبدع وكل ما لم ينزل به الله من سلطان.. أنواع من الصلوات لم يؤدها النبي الكريم، ومع ذلك لا بأس.. «زيادة خير».. المهم أن تشغل وقتك بكل ما يمكن أن يلهيك عن الدنيا.

«محقرو الدنيا» هم العلمانيون الأوائل!

ستقولون: إن النصوص التي جمعها الغزالي في ذم الدنيا لم تقل ذلك بالضبط..

وهذا صحيح، لكنها تؤدي إلى هذا بالضبط في وعي المتلقي.. هذه الكمية من السلبية المدعمة بنصوص دينية (ضعيفة في غالبيتها لكن المتلقي لن يعي ذلك بالضرورة) ستجعله ينحاز (حسب الانحياز السلبي) **على نحو تلقائي إلى هذه السلبية، على حساب كل ما يسمعه ويقرأه من نصوص قرآنية إيجابية لا يلحقها التحريف، ولكن تتراكم عليها هذه الأفهام السلبية.**

ماذا يمكن أن يقنع المتلقي وقد آمن بحقارة الدنيا وتفاهتها؟ ما الذي يمكن أن يقنعه ويجعله يتجشم عناء تحمل مسؤولية إصلاحها والاستخلاف فيها؟.. هل مروره على آية ﴿**إني جاعل في الأرض خليفة**﴾؟

لا حتماً..

لن يحدث..

ولو كان حدث، لحدث..

لكن تفاعل «الانحياز السلبي» - الطبيعي - مع كمية هائلة من الجرعة السلبية التي حقنت في الوعي المسلم، وفي موضوع مهم وفاعل كموضوع «الدنيا» والنظرة إليها، كان كفيلاً بعدم تحقيق أي تفاعل مع ما هو إيجابي بوضوح، ولا يمكن التغطية عليه في ديننا.

لقد تحولت «رؤية العالم» - أي الطريقة التي ينظر بها المسلم إلى العالم - **عبر «ذم الدنيا» إلى وسيلة لفصل دينه عن الحياة..**

فإما نجاح دنيوي بمعايير لا دينية (مع وجود الشعائر وكل شيء حسب الأصول!)..

أو فشل دنيوي.. مزين بعبارات تجعل هذا الفشل زهداً وعملاً مأجوراً عليه..

والنتيجة هي ما عاشته أمتنا منذ قرون..

النتيجة هي كل تلك الظروف المحبطة..

لقد كانت هذه هي أشد وأسوأ أنواع العلمانية، العلمانية بمعنى فصل الدين عن الحياة لا عن الدولة فقط.

◆◆◆

لكن في النهاية هناك نصوص دينية قرآنية تذم الدنيا..

الأمر لا يتعلق بالغزالي..

أليس كذلك؟

لا، ليس كذلك..

لا يتعلق الأمر بالغزالي كشخص حتماً.

لكنه يتعلق بنمط التفكير.

"دنيا" القرآن بمعزل عن القراءة المسبقة

لننسَ الآن كل ما يقال ويتكرر عن ذم القرآن للدنيا..

فلنحاول أن نقرأه بمعزل عن كل ذلك.. لنرَ إن كان فعلاً يذم الدنيا ويحقرها - كما يؤكدون - أم أن هناك في القرآن نظرة مخالفة ومغايرة للدنيا كانت سبباً في «الفتح» الذي حققه المسلمون من الأجيال الأولى.

◆◆◆

ورد ذكر لفظ «الدنيا» في (١١٥) موضعاً في القرآن الكريم..

مرور **سريع** على هذه المواضع سيجعلنا **نتصور** أن «ذم الدنيا» له أصل في القرآن الكريم..

من هذه المواضع:

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٦].

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ

فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧].

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦٠-٦١].

وغيرها كثير من آيات مماثلة..

هل سنقول: إن ما جاء إذن في «ذم الدنيا» كان على حق وصواب وموافقاً للقرآن، ولو كانت هناك أحاديث ضعيفة؟

لا طبعاً..

هذه هي **القراءة المتعجلة التي تريد أن تثبت أن الدنيا مذمومة**، فقط لكي تنسجم مع ما هو سائد في العقل الجمعي..

لكن نظرة أكثر تفحصاً ستدلُّنا على **فرق جوهري يكون بمثابة المفتاح الذي نميز من خلاله بين «الذم» الذي اعتمده وعممه تيار «ذم الدنيا».. وبين موقف آخر ومغاير تماماً..**

لا نحاول هنا أن نقول: إن الذم في الآيات كان «محدداً» أو «مخصصاً»، بينما الذم في كتب ذم الدنيا كان عاماً ومطلقاً..

لا..

بل نقول..

ليس من ذم للدنيا في القرآن.

ليس من ذم!..

◆◆◆

ما يُذم في القرآن الكريم ليس الدنيا على الإطلاق..

ليس هناك في أي من المواضع الـ (١١٥) ذم للدنيا..

الذم في حقيقته عندما نتفحصه موجه **لـ «الحياة الدنيا»** فقط..

أما «الدنيا».. فلا ذم لها..

بل على العكس، هناك التأكيد على تقديرها.

أمثلة على هذا..

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٨].

﴿من كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيراً﴾ [النساء: ١٣٤].

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأرض فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأرض ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤].

﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠].

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤٢].

﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٢٢]

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٦].

﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [التوبة: ٦٩].

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ٧٤].

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥].

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٤].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ۝٨ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٩].

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأرض إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥].

◆◆◆

هذه هي «الدنيا».. كما تقدم من قبل الخطاب القرآني..

أين الذم؟! أين الأوصاف التي تنال منها؟! أين ما تعودناه من الدونية في النظرة والتحذير من الدنيا باعتبارها الفخ الذي يجب الهروب منه إذا أردنا النجاة؟

لا شيء من هذا..

على العكس، ففي الدنيا حسب هذه الآيات **ننال أحياناً رحمة من الله، وهناك ثواب فيها، ثواب دنيوي غير ثواب الآخرة، وفيها ينال من يستحق (عيسى عليه السلام) أن يكون وجيهاً**، كيف سيكون وجيهاً في الدنيا إن كانت الدنيا مزبلة؟!.. **ما أهمية أن يكون وجيهاً فيها إن كانت كما يصفون في أدبيات «ذم الدنيا»؟**

المؤمنون - حسب هذه الآيات - **يريدون حسنة في الدنيا، كما يريدون حسنة في الآخرة**.. لا يفصلون بين هذا وذاك، كما لا يفصلون بين دينهم وحياتهم.. (وهم لا ينالون تقريعاً ولوماً على كونهم يريدون الدنيا، كما يجب أن يحدث ذلك لو كانت الدنيا حقيرة كما أفهمونا).

ليس هذا فقط.. **بل إن من هؤلاء المؤمنين من يريد الدنيا في اختبار معين صعب**

يوم غزوة أحد، ويفضلها على الآخرة على الرغم من ذلك.. لا لوم.. لا توبيخ..!

وهناك، وعلى نحو شديد الوضوح، وفي آيات عديدة، الدنيا **التي ينال فيها المجرم والكافر عقابه وخزيه واللعنة.. إنها موضع لإحقاق الحق والعدل إذن.. وليست داراً للباطل ولأهل الباطل كما أوحت لنا، بل كما صرحت لنا، «أدبيات» ذم الدنيا ومواعظ التزهيد فيها.**

◆◆◆

الذم القرآني إذن مخصص **للحياة الدنيا** فقط.. لا يوجد أبداً وعلى الإطلاق ذم للدنيا وحدها..

أما «الحياة الدنيا» فهي **التي وُجِّه لها الذم، ولم تَرِدْ أصلاً في أغلب المواضع التي وردت فيها في القرآن إلا بصيغة الذم**، إلا مع استثناءات **بصيغة محايدة لا تحتمل المدح مثل:** ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧] (فالمدح هنا للثابتين من المؤمنين وليس للحياة الدنيا).

وأحياناً بصِيَغ تحتمل المدح، مثال ذلك: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٤].

لكن الغالب الأعم في الاستخدام القرآني مع الحياة الدنيا **كان الذم والحط من شأنها، فهي متاع الغرور الزائل.. وهي لعب ولهو وتفاخر.. ومن يؤثرها فقد طغى ونال الجحيم..**

كل ما قرأناه عن «ذم الدنيا» - على الأقل في الصحيح منه - كان **يقصد منه التوجيه إلى الحياة الدنيا..**

وليس الدنيا.

"الدنيا" مقابل "الحياة الدنيا"

الدنيا هي موضع استخلافنا.. هي موقع امتحاننا، ومادة الامتحان في الوقت ذاته، هي ما سنختبر به، **وهي «دنيا» لأنها قريبة منا، قربها محيط بنا كإحاطة السوار بالمعصم.. إنها «قريبة» منا قرب وجودنا إلينا.. هذا القرب هو ما يجعلها «دنيا».. وهو أيضاً ما يمنحنا فرصة لنحقق ما خُلقنا من أجله.**

«الدنيا» بهذا المفهوم، وهو المفهوم الذي حدد قرآنياً، هي فرصتنا الوحيدة لأن نكون في وضع نرغب في الحصول عليه في الآخرة.

إنها المكان الذي نتمكن فيه من إحقاق الحق.. من إبطال الباطل.. من تحقيق العدل.. الكافرون والظالمون ينالون جزاءهم فيه قبل أن ينالوا جزاءهم لاحقاً.. والمحسنون والمؤمنون ينالون نصيبهم من الثواب وحسن العاقبة فيه قبل أن ينالوا أضعافها في الآخرة..

لكن هذه الدنيا - بهذه الصورة - مثالية جداً.. ونادراً ما تتحقق..

هذا صحيح، لكنك لا تحاسب قاعة الامتحان - ولا مادته - إن رسب الطلاب!..

وهكذا فإن **الدنيا هي ما نفعله بها.. يمكننا أن نحقق فيها العدل كما أمرنا العدل.. ويمكننا أن نحقق فيها «مخاوف الملائكة» و«رهان إبليس»..**

في الحالتين فإن الدنيا لا يمكن أن «توصم» بسمة سلبية لأننا فشلنا في جعلها أفضل.. **بل إنك لن تستطيع أن تجعلها أفضل لو كنت تؤمن بأن «الصفات السلبية» أصيلة فيها..** جزء أساسي منها.

كيف ستنجح في اختبار ما إذا كنت تعتقد أن **مادة الاختبار «تافهة»** ولا تستحق الدراسة؟

الدنيا هي موضع استخلافنا.. وضع الله فيها الثروات والموارد لكي يمتحننا فيها.. لكي نرى كيف نعمل.. **ذَمُّ الدنيا هو تطاول على ما خلقه الله فيها.. على سننه وخططه وتدبيره..**

إنها - كما وصفها عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه مسلم - «حلوة خضرة، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون». [١٠٨]

يمكن لك أن **تجعل خضرة هذه الدنيا وسيلة لإنهاء الجوع في العالم، تزرعها قمحاً وشعيراً ونباتاتٍ ومزروعاتٍ يُستخرج منها الغذاء والدواء، وتكون المرعى لما تستدر منه الفوائد للإنسان..**

ولكن.. يمكن أيضاً أن تستخدمها لتجعل **النبتة مخدراً يلهيك عن الواقع.. أو خمراً تسكر بها وتفجُر..**

المشكلة ليست في الدنيا.. بل في استخدامك لها..

وكلما آمنت بإيجابيات كامنة فيها، كان أداؤك فيها أفضل..

١٠٨ صحيح مسلم، رقم الحديث (٧١٢٤).

وعلى العكس، كلما كنت مقتنعاً بسلبياتها، انعكس ذلك حتماً على أدائك فيها.. وربما فضلت الانزواء.. والتهرب من الامتحان بحجة تفاهته وعدم أهميته.

الحياة الدنيا: نمط حياة، بمعايير "متدنية"

فما «**الحياة الدنيا**» إذن؟

«الحياة الدنيا» لا علاقة لها بالدنيا، إلا من حيث إنها «**تحدث**» في الدنيا.. **إنها «نمط حياة».. نمط حياة لا يركز إلا على ما هو «متدنٍّ» من القيم.. متدنٍّ من الشهوات.. متدنٍّ من الأهداف..**

إنه نمط حياة يركز على ما هو ظاهر، ما هو سطحي، شهوة سريعة، مال وفير، زينة ظاهرة.. تفاخر.. لهو..

لكن أبداً ليس ما هو «عميق».. أبداً ليس ما يغوص نحو عمق الأشياء.. ونحو منتهاها أيضاً.. نحو مآلها النهائي.. حصادها النهائي.. في الآخرة..

هذه هي الحياة الدنيا.. وهي تستحق الذم حتماً.. لكنه ذم لنمط حياة موجود منذ القدم في البشرية، وهو نمط حياة يتعارض تلقائياً مع حياة الاستخلاف في الدنيا، الحياة الفاعلة المقبلة على الدنيا باعتبارها موضع الاستخلاف، لا باعتبارها دار اللهو والتفاخر العابر، ولا دار المزبلة المنتنة.

فرق كبير بين «الدنيا».. كقاعة امتحان ومادة امتحان، وبين الحياة الدنيا، **كنمط سلوكي لمجموعة طلاب لاهين عابثين، سيرسبون حتماً عندما تظهر النتائج، على رؤوس الأشهاد.**

لماذا لم يخبرنا القرآن الكريم إذن عن النمط المضاد لهذه الحياة الدنيا؟

كيف لم يخبرنا؟

كل ما فيه كان عن ذلك..

عن بناء وغرس هذا النمط الآخر من الحياة..

الحياة الفاعلة، المتفاعلة مع الدنيا، التي تتعامل معها كموضع للعمل، والبناء، والإعمار، لا كموضع للهو والعبث..

ولا كموضع للهروب والتهرب.

لماذا لم يقولوا لنا إذن عن الفرق بين الحياة الدنيا - الذميمة فعلاً - وبين الدنيا، التي لا يمكن أن تُذم؛ لأن ذمها تطاول على خالقها؟

لم يقولوا ذلك، لأن تلك الرؤية ببساطة وُلدت في عصر انحطاط الأمة..

وكان «**ذم الدنيا**» **وسيلة للتعايش مع هذا الوضع السلبي**.. وسيلة لجعله أقل صعوبة على التحمل.

كانت الدنيا تتسرب من بين أيدينا نحو الأمم الأخرى..

وكان علينا أن نتكيف مع هذا التسرب..

فاقتنعنا أن تسربها خير.. وأنها لا تستحق الاهتمام.

إشكالية التعامل مع الأحاديث النبوية

لكن إذا كان القرآن الكريم قد ميز بين الدنيا و«الحياة الدنيا»، فأثنى على الأولى بما أنها موضع العمل والاستخلاف، وذم الثانية بما تستحق، فإن الأحاديث النبوية لم تفرق بينهما بهذا الوضوح.. صحيح أن النسبة الغالبة من هذه الأحاديث كانت ضعيفة، **إلا أن ذلك لن ينفي وجود أحاديث تذم «الدنيا» صحت نسبتها إليه عليه الصلاة والسلام**.. كتلك التي وردت في كتاب «إحياء علوم الدين»..

هل سيقودنا ذلك إلى تكذيب الأحاديث أو تضعيفها فقط لأنها غير موافقة لما فهمناه من القرآن الكريم؟

لا طبعاً.. فالأمر أعقد من ذلك.

يجب هنا أن نحدد طريقة للتعامل مع الأحاديث النبوية الشريفة (الصحيحة طبعاً، فلا أرى حقيقة داعياً أصلاً للتعامل مع الضعيف منها، ناهيك عن الأقل من ذلك!).

فللأسف سادت مع تراكم الوقت طريقة تعاملت مع الحديث **بطريقة تجعل العلاقة بينه وبين القرآن فيها مساواة.. وهذا الأمر يجعلنا أحياناً «ندخل» القرآن برؤية مستقاة من الحديث الشريف..**

ما المشكلة في أن «ندخل» القرآن من خلال بوابة الحديث النبوي، فنحن ندخله

من خلال فهم الرسول عليه الصلاة والسلام.. وهل هناك أفضل من هذا؟

لا طبعاً، **لكن هذا قد لا يكون متوفراً دوماً في الحديث الصحيح**، ربما عندما يكون هناك **حديث متواتر** (أي نقله عن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام عدد من الصحابة لا يقل عن تسعة، ونقله عنهم عدد مماثل).. عندها سيكون هذا الحديث يمثل ما نثق أنه فهم الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام.

لكن عدد هذا النوع من الأحاديث التي تتوفر فيها هذه الدقة العالية في النقل عنه عليه الصلاة والسلام يبقى **أقل بالنسبة للعدد الكلي للأحاديث.**

الأمر المهم هنا هو أن هذه الأحاديث خاصة في الآحاد منها قد تنقل ضمناً ودون قصد **على الأغلب فهم الصحابي للحديث.. أو تغفل دون قصد ارتباطها بالحادثة المحيطة بها، ذلك أن كثيراً من الأحاديث تصلنا بمعزل عن الأحداث التي أدت لها، مثل أن يقول عليه الصلاة والسلام - الذي لا ينطق عن هوى- تعليقاً مباشراً على حدث مباشر آني، له تفاصيله وثناياه التي قد يجهلها ناقل الحديث - الصحابي، ولكنه ينقل ما قاله عليه الصلاة والسلام بمعزل عن الحادثة، وبمعزل عن التفاصيل التي ربما يجهلها من باب أولى.**

الاجتزاء: نقص عقل ودين!

فلنأخذ مثالاً عن حديث معروف ومتداول بين الناس، وصار يشكل جزءاً من «العقل الجمعي».. الحديث - أو شطره المعروف جداً - هو «ناقصات عقل ودين».. **هذا الشطر أُخِذَ بمعزل عن سياقه، وعومل كما لو كان مطلقاً وعاماً لكل النساء**، ولو كان هذا النص في القرآن لكان هذا الإطلاق صحيحاً، لأن النص القرآني ثابت ونؤمن بإطلاقه، لكن هذا الشطر هو من حديث شريف له ظروف قوله.

ولو تتبعنا النصوص المختلفة التي ورد فيها نص الحديث لوجدنا أن هذا الحديث قيل في سياق محدد، حيث إنه عليه الصلاة والسلام قال ذلك للنساء بعد صلاة العيد، وعندما مر عليهن تحديداً، وقد ذكر في السياق قلة تصدقهن، وكفرهن للعشير.. أي أنه ذكر صفات معينة لهاتيك النسوة تفسر السبب في دخولهن النار.. **ألا يمكن هنا أن يكون يقصد «نسوة» بعينهن شكا أزواجهن من سوء معاملتهن لهم؟.. وكان يوجه كلامه على نهجه في النصح العام (ما بال أقوام يقولون كذا وكذا؟)..**

وهكذا فإنه من الممكن جداً أن يكون المقصود من حديثه عليه الصلاة

والسلام هو بعض النسوة، وليس «جنس النساء» بعمومه، كما ركز ذلك في العقل الجمعي، خاصة أن هذا يتعارض مع نصوص أخرى أكثر قطعية، ففي الترمذي عن أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: ما أرى كل شيء إلا للرجال، وما أرى النساء يُذكرن بشيء، فنزلت هذه الآية ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾[الأحزاب: ٣٥]. وهي آية تدل على المساواة في الدين بمعزل عن جنس المؤمن والمؤمنة.. كما أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يستشير زوجاته، ويأخذ برأيهن، كما أشارت عليه أم سلمة برأي رأته في صلح الحديبية.. ولو كانت «ناقصة عقل ودين» بالمعنى المطلق - فقط لكونها امرأة - لما أخذ عليه الصلاة والسلام مشورتها.. وكذلك يتعارض بصورة قاطعة مع مكانة السيدة عائشة التي كانت من فقيهات الأمة.

الخلاصة هنا أن لكل حديث **نبوي سياقا معينا مفسرا لما قاله عليه الصلاة والسلام، على العكس من القرآن الكريم الذي نزل منجماً على حوادث معينة للتثبيت والنصرة واستلهام الواقع، لكن كل حرف فيه هو مطلق وأزلي وملتحم بعلم الله المسبق بما كان وسيكون.**

وهكذا فإنه من المنطقي جداً، بل من المحتم أن يتم فهم الأحاديث الصحيحة من خلال الرؤية القرآنية، لا العكس، وهذا أيضاً ضمانة لازمة لدرء أي تناقض في فهم القرآن نفسه، وفي فهم الأحاديث النبوية الشريفة.

الرواية بالمعنى: معنى الحديث صحيح، ولكن أحرفه قد تختلف

كما أنه من المهم أن ننوه هنا إلى أن كثيرا من علماء الحديث النبوي قد أقروا أن رواة الحديث **لن يتمكنوا من ضبط ألفاظ الحديث بالضرورة، ولهذا فقد أجاز جمهور المحدثين «الرواية بالمعنى»،** أي أن يؤدي الراوي معنى الحديث بألفاظ من عنده، وفق شروط محددة[١٠٩].

١٠٩ وقال الحافظ ابن حجر في شرح النخبة: وأما الرواية بالمعنى فالخلاف فيها شهير، والأكثر على الجواز أيضاً، ومن أقوى حججهم الإجماع على شرح الشريعة للعجم بلسانهم للعارف به، فإذا جاز الإبدال بلغة أخرى فجوازه باللغة العربية أولى. وقيل: إنما يجوز في

وهذا يعني بوضوح أن **فهم الراوي لمعنى الحديث، أو طريقة فهمه، سيكون متضمناً في «الحديث» الذي يصلنا..**

لا يعني هذا أن الراوي سيكون كاذباً، أو متعمداً لتغيير الألفاظ.. لكنه إنسان في النهاية، ولا يمكنه فصل «فهمه» عما ينقله، خاصة إذا تعسر عليه الحفظ اللفظي المباشر لكل كلمة..

هذا كله **يصب فيما نقوله عن ضرورة الدخول إلى الأحاديث من خلال القرآن الكريم، وقراءتها بعين قرآنية..**

أي فهم ما يريده منا القرآن أن نراه أولاً في موضوع محدد، ومن ثم قراءة «الأحاديث» المتعلقة بالموضوع نفسه، من خلال هذا الفهم «القرآني»..

هذا سيجعل عدستنا تتجاوز فهم «راوي» الحديث لحادثة محددة بعينها إلى المقصد والاتجاه القرآني للموضوع بأسره.

بالتأكيد سيكون الفهم القرآني للحديث أقرب لما قصده عليه الصلاة والسلام.

أحاديث صحيحة في «ذم الدنيا»..

ما علاقة كل هذا بما كنا نتحدث عنه من أحاديث صحيحة تذم الدنيا (على قلتها بالمقارنة بما يتداول من الأحاديث الموضوعة والمنكرة والتي لا أصل لها)؟

علاقته **أننا إذا قرأنا هذه الأحاديث من منظور قرآني**، وهو المنظور الذي فصل تماماً بين «الدنيا» وبين «الحياة الدنيا»، حيث كرم الأولى غالباً وذم الثانية غالباً، **فإننا عندها سنصل إلى نتيجة هي أن ما ذمه الرسول حقاً هو «الحياة الدنيا».. وليس الدنيا التي قال عنها الرسول عليه الصلاة والسلام إن الله إستخلفنا فيها.. وإن الرواة لجواز - الرواية بالمعنى - لم يميزوا كثيراً بين اللفظين..**

هل هذا اتهام لهم بعدم الفهم مثلاً؟ علما بأننا هنا لا نتحدث بالضرورة عن **الحلقة الأولى من سند الحديث، أي الصحابي راوي الحديث، بل ربما يكون في سلسلة من رواة عنه التابعين وتابعي التابعين.**

المفردات دون المركبات. وقيل: إنما يجوز لمن يستحضر اللفظ ليتمكن من التصرف فيه. وقيل: إنما يجوز لمن كان يحفظ الحديث فنسي لفظه وبقي معناه مرتسماً في ذهنه، فله أن يرويه بالمعنى لمصلحة تحصيل الحكم منه، بخلاف من كان مستحضراً للفظه، وجميع ما تقدم يتعلق بالجواز وعدمه، ولا شك أن الأولى إيراد الحديث بألفاظه دون التصرف فيه. قال القاضي عياض: ينبغي سد باب الرواية بالمعنى لئلا يتسلط من لا يحسن ممن يظن أنه يحسن، كما وقع لكثير من الرواة قديماً وحديثاً، والله الموفق. ص ٢٢٤ من شرح النخبة، قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، ص ١٩٨. كما يمكن الاطلاع على كتاب «الرواية بالمعنى في الحديث النبوي وأثرها على الفقه الإسلامي»، للدكتور عبد المجيد بيرم.

ليس من تهمة هنا بعدم الفهم، **فقد قدموا ما قدموه ضمن مجتمع لم تكن له مشكلة حقيقية في التعامل الإيجابي الفاعل مع «الدنيا».. ذلك أن الأجيال الأولى - التي صنعت مجد الأمة - لم تهرب من الدنيا، بل تقدمت لها، وأعادت بناءها كما يجب أن يكون، دنيا تحققت فيها العدالة الاجتماعية، وأزيلت منها الأوثان، وتحررت فيها الشعوب من نير الطغيان.**

الخلاصة: «الرواية بالمعنى»، وفهم الأحاديث الشريفة من خلال المنظور القرآني، هو ما سيجعلنا نزيل اللبس المفترض والتعارض الموجود بين أحاديث صحيحة في «ذم الدنيا»، وآيات قرآنية لا تذم الدنيا، بل تعدّها دار إحقاق حق وإبطال باطل.

بعبارة أخيرة: الأحاديث النبوية الصحيحة **عن «الدنيا».. تقصد «الحياة الدنيا»، حتى لو لم تقل ذلك حرفياً، لأن رواة الحديث رووه بالمعنى في وقت لم يكن هناك مشكلة في تعامل المسلمين إيجابياً مع الدنيا.**

رؤيتك للدنيا عقيدة

الموقف من «الدنيا» الذي يترسب عندك بسبب عقيدتك الدينية هو أمر حاسم في درب حياتك وإنجازاتك الشخصية..

لا يعني أن كل من تعرض «وعيه» لحقنة «ذم الدنيا» سيهرب من الدنيا، أو سيزهد فيها، أو ينعزل عنها..

لا طبعا.. الأمور أعقد من ذلك.. (على الرغم من أن ذلك قد يحدث) **لكن أولئك الناجحين دنيوياً ستكون رؤيتهم للنجاح غير نابعة من الدين (غالباً)، أو أن نجاحهم سيكون بمعايير غير دينية، سيكون نجاحه جزءاً من الفصل المرير بين الدين والحياة..**

فئة محدودة جداً، محدودة العدد أقصد، ستتمكن من الإفلات من الأمر وتحقيق المعادلة..

وأمتنا تحتاج إلى ما هو أكثر من ذلك بكثير.

❖❖❖

العامل السلبي الثاني الذي لن نتمكن من الولوج إلى ما خُلقنا من أجله إلا بعد إزاحته، والذي يجثم على عقولنا وعقيدتنا على نحو يجعل كل حركتنا مقيدة،

تحديداً حركتنا التي يجب أن تحدث، حركتنا التي تحدد كل موقعنا اللاحق..

موقعنا الدنيوي.. وبالتالي موقعنا الأخروي.

◆◆◆

هذا العامل هو إيماننا السلبي بالقضاء والقدر..

◆◆◆

ثانياً - القضاء والقدر: مشروب الطاقة الذي استعمل ليكون مخدراً!

وسط سلسلة من التعقيدات السياسية تسلل مفهوم الجبر الذي كان موجوداً في الجاهلية ليتنكر خلف مفهومي الإيمان بالقضاء والقدر.. ولينتهي بالتدريج، وعبر قرون من التراكم، ليكون من أكثر الظواهر السلبية رسوخاً في العقل الجمعي المسلم، الذي فهم الإسلام استسلاماً لما يحدث، وليس استسلاماً لأوامر الله عز وجل.. والذي رفع الراية البيضاء أمام كل ما يحدث له وبه وفيه.. باعتبار أنها إرادة الله عز وجل، حتى لو كانت تحدث عبر كفار أو ملاحدة أو أشباههم.

بدأ الأمر من السياسة، حدث ذلك في فترة مبكرة، وبالذات عند انتهاء الخلافة الراشدة، حيث استخدمت إرادة الله عز وجل لتكون مبرراً شرعياً لوصول أحد أطراف الصراع إلى قمة السلطة، لا يمكن معرفة مدى اقتناع عامة الناس بالطرح السلطوي، لكنه من المؤكد أن هذا الطرح قد وجد فرقاً ترفضه بالكلية، وأخرى تقبله بحذافيره، وأخرى تعيد إنتاجه وفهمه.. وكل هذا الانقسام الاجتماعي - أو ما وصلنا منه - يدل على أن الأمر لم يتم تمريره بسهولة، وأنه واجه ردود أفعال مختلفة، وأن ما وصلنا منه تأثر حتما بما انتصر وتكرس من اتجاه..[110]

مع الوقت **لم يقتصر الأمر على الجزء السياسي من الأمر، بل صار جزءاً من رؤية اجتماعية عامة تتعامل مع كل الحوادث من المنطلق نفسه، فالاستسلام للسلطان المتغلب باسم الرضا بقضاء الله وقدره هو ذات الاستسلام للفقر، ولغياب العدالة الاجتماعية، ولتداول السلطة بين مجموعة "سلاطين" متغلبين.**

جوهر الاستسلام واحد، وقد **صار علامة اجتماعية "تميزنا" - سلباً - عن أمم أخرى كثيرة كانت دوننا بكثير في كل المجالات، بل كانت مستسلمة لما كنا نحن**

١١٠ للمزيد عن علاقة مفهوم القضاء والقدر بالسياسة وتقلباتها انظر: البوصلة القرآنية.

"ثورة" و"تحدياً" عليه.

صار هذا الاستسلام سمة، علامة، صارت الشعوب تعتبر **عبارة "إن شاء الله" علامة على تركنا للأمور تسير كما تشاء، دون تدخل منا.. بل صارت تعتبر إشارة مسبقة على عدم الفعل..**

يجب ألا ننكر ذلك.

ديننا بريء من ذلك، لكن فهمنا المتراكم له عبر القرون ليس بريئاً من ذلك البتة.

لا يزال سؤال: "هل الإنسان مخير أم مسير؟" يثقل كاهل عقولنا، ولو كان السؤال مطروحاً حقاً في القرون الأولى لما حدث ما حدث من نهوض وبناء.

الأسوأ من ذلك أن الردود على ذلك السؤال لا تزال لا تجيب حقاً على السؤال، بل تناور، تقول ولا تقول، لن تجد من يقول لك بوضوح: إن الإنسان مسير أو مخير.. بل هي لفّ ودوران على المعاني فيما يجب أن يكون قضية واضحة لا تحتمل اللبس أو الغموض..

فلنقرأ بعض ما يقوله الخطاب التقليدي السائد في هذا الشأن بلسانه..

مقتطفات من «اللا وعي» الجمعي

(فمشيئة العبد وإرادته واختياره هي جزء من قدر الله عز وجل الذي كتبه ليجازيه ويحاسبه عليها، ولكنها لا تكون إلا بعد مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن أبداً، كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وصيته لابن عباس: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

فهذه أمور قد قضيت وانتهت، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي له المشيئة، ولا يكون إلا ما شاء، ولو أطبق الثقلان الإنس والجن كافة وكل القوى جميعاً على أن تعمل شيئاً أو توجده أو تنفع به أو تضر ولم يشأ الله عز وجل أن يقع، فلن يقع ذلك على الإطلاق.

وأيضاً لو اجتمعوا جميعاً على أن يردوا شيئاً مما كتبه الله وقدره وقضاه من خير أو شر؛ لا يستطيعون ذلك أبداً؛ لأنهم مقهورون مربوبون بقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى،

وبمشيئته التي لا يردها شيء، ولا يحدها شيء.

(فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالى هو الفعال لما يريد، ولا يكون في خلقه إلا ما يريد وما يشاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالى) [١١١].

(بعد هذا نقول: إن أهل السنة والجماعة قرروا هذا، وجعلوا عقيدتهم ومذهبهم **أن الإنسان يفعل باختياره وأنه يقول كما يريد، ولكن إرادته واختياره تابعان لإرادة الله تبارك وتعالى ومشيئته، ثم يؤمن أهل السنة والجماعة** بأن مشيئة الله تعالى تابعة لحكمته، وأنه سبحانه وتعالى ليست مشيئته مطلقة مجردة، ولكنها مشيئة تابعة لحكمته؛ لأن من أسماء الله تعالى الحكيم، والحكيم هو الحاكم المحكم الذي يحكم الأشياء كوناً وشرعاً ويحكمها عملاً وصنعاً، والله تعالى بحكمته يقدِّر الهداية لمن أرادها لمن يعلم سبحانه وتعالى أنه يريد الحق، وأن قلبه على الاستقامة، ويقدِّر الضلالة لمن لم يكن كذلك لمن إذا عرض عليه الإسلام يضيق صدره كأنما يصعد في السماء، فإن حكمة الله تبارك وتعالى تأبى أن يكون هذا من المهتدين إلا أن يجدد الله له عزماً، ويقلب إرادته إلى إرادة أخرى، والله تعالى على كل شي قدير، ولكن حكمة الله تأبى إلا أن تكون الأسباب مربوطة بمسبباتها). [١١٢]

معنى الإيمان بالقدر:

هو التصديق الجازم بأن كل خير وشر هو بقضاء الله وقدره، وأنه الفعّال لما يريد، لا يكون شيء إلا بإرادته، ولا يخرج شيء عن مشيئته، وليس في العالم شيء يخرج عن تقديره، ولا يصدر إلا عن تدبيره، ولا مَحيد لأحد عن القدر المقدور، ولا يتجاوز ما خُط في اللوح المسطور، **وأنه خالق أفعال العباد والطاعات والمعاصي، ومع ذلك فقد أمر العباد ونهاهم، وجعلهم مختارين لأفعالهم، غير مجبورين عليها، بل هي واقعة بحسب قدرتهم وإرادتهم، والله خالقهم وخالق قدرتهم**، يهدي من يشاء برحمته، ويضل من يشاء بحكمته، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون). [١١٣]

(قَالَ أَهْلُ الْحَقِّ: أَفْعَالُ الْعِبَادِ بِهَا صَارُوا مُطِيعِينَ وَعُصَاةً، وَهِيَ مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ مُنْفَرِدٌ بِخَلْقِ الْمَخْلُوقَاتِ، لَا خَالِقَ لَهَا سِوَاهُ.

فَالْجَبْرِيَّةُ غَلَوْا فِي إِثْبَاتِ الْقَدَرِ، فَنَفَوْا فِعْلَ الْعَبْدِ أَصْلًا.

---

١١١ موقع الشيخ سفر الحوالي: http://www.alhawali.com/index.cfm?method=home.ShowContent&ContentID=٥٧٦&FullContent=١

١١٢ موقع الشيخ ابن العثيمين: http://www.ibnothaimeen.com/all/books/٦٩٧٣.shtm

١١٣ موقع الشيخ ابن العثيمين: http://www.ibnothaimeen.com/all/books/article_١٦٩٧٣.shtm

وَالْمُعْتَزِلَةُ نُفَاةُ الْقَدَرِ جَعَلُوا الْعِبَادَ خَالِقِينَ مَعَ اللَّهِ، وَلِهَذَا كَانُوا مَجُوسَ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

وَهَدَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَهْلَ السُّنَّةِ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ، ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، فَقَالُوا: **الْعِبَادُ فَاعِلُونَ، وَاللَّهُ خَالِقُهُمْ وَخَالِقُ أَفْعَالِهِمْ،** كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، وَإِنَّمَا نَقَلْنَا هَذِهِ الْعِبَارَةَ بِنَصِّهَا؛ لِأَنَّهَا تَلْخِيصٌ جَيِّدٌ لِمَذَاهِبِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الْقَدَرِ وَأَفْعَالِ الْعِبَادِ)[114].

(الخلاصة: يرى أهل السنة أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ومقدَّرة له). [115]

(كان يذهب إلى أن أفعال العباد مخلوقة لله عز وجل، ولا يجوز أن يخرج شيء من أفعالهم عن خلقه، لقوله عز وجل: ﴿خالق كل شيء﴾ ثم لو كان مخصوصاً لجاز مثل ذلك التخصيص في قوله: ﴿لا إله إلا هو﴾ وأن يكون مخصوصاً أنه إله لبعض الأشياء، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه سُئل عن أعمال الخلق التي يستوجبون بها من الله السخط والرضا، **فقال: هي من العباد فعلاً، ومن الله تعالى خلقاً، لا تسأل عن هذا أحدا بعدي).** [116]

(ويقولون: إنه لا خالق على الحقيقة إلا الله عز وجل، وإن أكساب العباد كلَّها مخلوقة لله، وإن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، لا حجة لمن أضله الله عز وجل، ولا عذر، كما قاله الله عز وجل: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وقال: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾، وقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾، وقال: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأرض وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾، ومعنى «نبرأها» أي نخلقها، وبلا خلاف في اللغة، وقال مخبرًا عن أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾، وقال: ﴿أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾، ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾....). [117]

(الركن الثالث **في أفعاله تعالى ومداره على عشرة أصول: وهي أن أفعال العباد مخلوقة لله** تعالى، **وأنها مكتسبة للعباد، وأنها مرادة لله تعالى،** وأنه متفضل بالخلق والاختراع، وأن له تعالى تكليف ما لا يطاق، وأن له إيلام البريء، ولا يجب عليه رعاية الأصلح...).[118]

---

١١٤ شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٢٤٥، تحقيق محمد خليل هراس الطبعة الأولى ١٩٩٢م، الناشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ـ المملكة العربية السعودية.

١١٥ اعتقاد أهل السنة شرح أصحاب الحديث ص ٦٤، المؤلف: محمد بن عبد الرحمن الخميس الطبعة الأولى.الناشر وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية /١٤١٩هـ

١١٦ العقيدة - أحمد بن حنبل ص ١١٣-١١٤ الناشر : دار قتيبة – دمشق، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ

١١٧ اعتقاد أئمة الحديث ص ١١ ، أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي، الناشر دار العاصمة – الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ تحقيق: محمد بن عبد الرحمن الخميس.

١١٨ إحياء علوم الدين ١١٢/١، الناشر: دار المعرفة – بيروت.

(أهل السُّنَّة والجماعة وسَطٌ بين الجبرية الغلاة في الإثبات، والقدرية النفاة، فإنَّهم أثبتوا للعبد مشيئةً، وأثبتوا للربِّ مشيئةً عامَّة، وجعلوا مشيئةَ العبد تابعةً لمشيئة الله، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، فلا يقع في مُلك الله ما لَم يشأه الله، بخلاف القدرية القائلين: إنَّ العبادَ يخلقون أفعالَهم، ولا يُعاقب العباد على أشياء لا إرادة لهم فيها ولا مشيئة، كما هو قول الجبرية، وبهذا يُجابُ عن السؤال الذي يتكرَّر طرحُه، وهو: هل العبدُ مسيَّرٌ أو مُخيَّر؟ فلا يُقال: إنَّه مسَيَّرٌ بإطلاق، ولا مُخيَّرٌ بإطلاق، بل يُقال: **إنَّه مُخيَّرٌ باعتبار أنَّ له مشيئةً وإرادةً، وأعماله كسب له يُثاب على حَسَنها ويُعاقَب على سيِّئها، وهو مسيَّرٌ باعتبار أنَّه لا يحصل منه شيءٌ خارجٌ عن مشيئة الله وإرادته وخلقه وإيجاده.**

وكُلُّ ما يحصلُ من هداية وضلال هو بمشيئة الله وإرادته، وقد بيَّن الله للعباد طريقَ السعادة وطريق الضلالة، وأعطاهم عقولاً يُميِّزون بها بين النافع والضار، فمَن اختار طريقَ السعادة فسلكه انتهى به إلى السعادة، وقد حصل ذلك بمشيئة العبد وإرادته، التابعة لمشيئة الله وإرادته، وذلك فضلٌ من الله وإحسان، ومَن اختار طريقَ الضلالة وسلكه انتهى به إلى الشقاوة، وقد حصل ذلك بمشيئة العبد وإرادته، التابعة لمشيئة الله وإرادته، وذلك عدلٌ من الله سبحانه). [١١٩]

(أهل السنة قالوا: العبد يفعل الفعل حقيقة، والذي خلق فعله هو الله جل وعلا، لأن الله جل وعلا يفعل ما يشاء، ويخلق ما يشاء، وهو جل وعلا خالق كل شيء، وقد قال جل وعلا: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ يعني وعملكم.

فالعبد يفعل الفعل، وفعله له حقيقة لأنه اختار هذا الفعل، وقَدِرَ عليه، فوجه إرادته وقدرته إليه، فالفعل ينسب إليه حقيقة، **لكن ليس ثم خالق إلا الله جل وعلا، فالله هو الذي خلق فعل العبد.**

والعبد مختار ولا يشاء شيئاً فيقع إلا وقد شاءه الله جل وعلا، فليس لأحد في ملكوت الله جل وعلا إجبار ولا اختيار، بل ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وما شاءه العبد إذا شاءه الله كان، وإذا لم يشأه الله لم يكن، كما قال ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

فإذن أهل السنة يثبتون فعل العبد، وأنه يفعل حقيقة، لكن الله جل وعلا هو الخالق). [١٢٠]

١١٩ إحياء علوم الدين ١/١١٢، الناشر: دار المعرفة - بيروت.
١٢٠ شرح العقيدة الواسطية، مصدر سابق، ص٤٥٩.

(**مرَّ معنا أيضاً أنَّ القدر سِرُّ الله عز وجل في خلقه، لم يعطِ حقيقته لملكٍ مقرب ولا لنبي مُرْسَلْ، وإنما هو سبحانه وتعالى الذي يعلم كل شيء**، وهو عز وجل الخالق لكل شيء، وهو سبحانه ذو الحكمة البالغة ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[الأنبياء: ٢٣] ونحو ذلك من المباحث والموضوعات التي سبق الحديث عنها، وسبق تقريرها على ما جاء في كتاب الله عز وجل وفي سنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

ومبحث القَدَرْ من المباحث العظيمة في الملة، ولأجل كونه سراً من أسرار الله عز وجل، وإدراك كُنْهِهِ وحكمة الله عز وجل في عباده غير متحققة من كل وجه، فلذلك صار الخائض في القدر بلا دليل عُرْضَةً لمزلة القدم، بل لم يخض في القدر أحد بغير حجة وبرهان إلا زلَّتْ قدمه، وتَنَكَّبَ سواء الصراط.

ولهذا ينبغي أن يُتَكَلَّمَ في القدر بما جاء في النص دون زيادة لأنَّهُ أمر غيبي، ولا يمكن للعبد أن يخوض في الأمور الغيبية إلا مع الدليل، ودون الدليل فهو كالذي يسير في الظلمات ليس بخارج منها).[١٢١]

◆◆◆

كل هذا عن الفعل الذي نفعله ولا نفعله.. عن المشيئة التي نملكها ولا نملكها، عن أن الله خالق أفعالنا ونحن نفعلها.. **كل هذا يبدو مجرد ألفاظ مفخمة لشيء واحد، هو أننا مجبورون على ما نفعل.. مع تجنب استخدام لفظ «الجبر»**.

هل يمكن لأحد - يملك مقدمات حس منطقي عام وفطري - أن يفهم كل ما سبق، أن يفهم كيف تكون مشيئتنا تابعة لمشيئته عز وجل دون أن نكون «مجبورين»؟.. كيف يمكن لتبعية المشيئة أن تنفصل عن الجبر؟

هل يمكن أن يفسر كل ما سبق **(في مخيلاتنا) إلا بكوننا مبرمجين على ما نفعل عبر آليات «تحكم عن بعد»؟**

هل هناك من فهم ما قيل ويقال في هذا الأمر حقاً؟

بالتأكيد سيدعي كثيرون ذلك، لكنهم على الأغلب حفظوه دون فهم، صار جزءاً من «الأسرار» كما أشار أحد المراجع بصراحة.. كما لو أن هناك «أسرار مقدسة في الإسلام» على غرار الديانات الأخرى.

كانت نظرية الكسب محاولة للخروج من هذا التناقض، لكنها في الحقيقة كانت

١٢١ شرح العقيدة الطحاوية، صالح آل الشيخ، ص٥٥٧، تفريغ نصي من محاضرات، الموسوعة الشاملة.

سقوطاً في جبر أكثر صراحة..

فلنتابع ما قاله الغزالي في «إحياء علوم الدين»..

(إن قلت: فهذا جبر محض، والجبر يناقض الاختيار، وأنت لا تنكر الاختيار، فكيف يكون مجبوراً مختاراً؟ فأقول: لو انكشف الغطاء لعرفت أنه في **عين الاختيار مجبور، فهو إذن مجبور على الاختيار، لأن داعية الإرادة مسخرة بحكم العقل والحس، والقدرة مسخرة للداعية، والحركة مسخرة للقدرة، والكل مقدر بالضرورة فيه من حيث لا يدري، فإنما هو محل ومجرى لهذه الأمور، فأما أن يكون منه فكلا ولا، فإذن معنى كونه مجبوراً أن جميع ذلك حاصل فيه من غيره لا منه، ومعنى كونه مختاراً أنه محل لإرادة حدثت فيه جبراً بعد حكم العقل بكون الفعل خيراً محضاً موافقاً وحدث الحكم أيضاً جبراً فإذا هو مجبور على الاختيار**، ففعل النار في الإحراق مثلاً جبر محض، وفعل الله تعالى اختيار محض، وفعل الإنسان على منزلة بين المنزلتين **فإنه جبر على الاختيار**، فطلب أهل الحق لهذا عبارة ثالثة، لأنه لما كان فناً ثالثاً وائتموا فيه بكتاب الله تعالى، **فسموه كسباً وليس مناقضاً للجبر ولا للاختيار بل هو جامع بينهما عند فهمه**، وفعل الله تعالى يسمى اختياراً بشرط أن لا يفهم من الاختيار إرادة بعد تحير وتردد، فإن ذلك في حقه محال، وجميع الألفاظ المذكورة في اللغات لا يمكن أن تستعمل في حق الله تعالى إلا على نوع من الاستعارة والتجوز، وذكر لا يليق بهذا العلم ويطول القول فيه).[١٢٢]

انتهى..!

نعم، انتهى فعلاً..

فما الذي يبقى لنا من عمل عندما نكتشف أن المذهب الأشعري الأكثر انتشاراً في عالم المسلمين العقائدي الرسمي اليوم، يقول: «**يكون فعل العبد مخلوقاً لله إبداعاً وإحداثاً ومكسوباً للعبد**، والمراد بكسبه إياه مقارنته لقدرته وإرادته من غير أن يكون هناك منه تأثير أو مدخل في وجوده سوى كونه محلاً له. وهذا مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري»[١٢٣].

لسنا سوى «محل» لأفعال الله..

كالجثة الهامدة بين أيدي مغسليها.

◆◆◆

---

١٢٢ إحياء علوم الدين ، مصدر سابق، ٣٤٨/٣.

١٢٣ المواقف، ٣/ ٢١٤، عضيد الدين عبد الرحمن الإيجي دار الجيل - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

وعلى الرغم من أن أغلب المتصوفة تبنَّوا العقيدة الأشعرية التي لن تصرح بالجبر قطعاً، بل تفضل أن تلف وتدور على المعنى.. إلا أنهم صرحوا بما يطابق الجبر في المعنى.. ويقاربه لفظاً..

قال الجنيد: سئل بعض العلماء عن التوحيد، فقال: هو اليقين. فقال السائل: بيّن لي ما هو؟ فقال: هو: **معرفتك أن حركات الخلق وسكونهم فعل الله عزَّ وجلَّ وحده لا شريك له، فإذا فعلت ذلك فقد وحَّدته.** [١٢٤]

وسئل الجنيد عن توحيد الخاص فقال: أن يكون العبد **شبحاً بين يدي الله سبحانه،** تجري عليه تصاريف تدبيره في مجاري أحكام قدرته، في لجج بحار توحيده، بالفناء عن نفسه وعن دعوة الخلق له، وعن استجابته بحقائق وجوده ووحدانيته، في حقيقة قربه بذهاب حسنه وحركته، لقيام الحق سبحانه له فيما أراد منه، وهو أن يرجع آخر العبد إلى أوله، فيكون كما كان قبل أن يكون. [١٢٥]

وقيل: التوحيد: إسقاط الياءات؛ لا تقول: لي وبي ومني وإليّ. [١٢٦]

وقال القشيري في قوله: ﴿ربِّ اجعلني مقيم الصلاة﴾ إشارة إلى أن أفعال العباد مخلوقة، فمعناه اجعل صلاتي، والجَعْلُ والخَلْقُ بمعنى، فإذا جعله مقيمَ الصلاة فمعناه أن يجعل له صلاةً. [١٢٧]

غاية حقيقة التوحيد للواحد **أن يكون العبد كما (لو) لم يكن، ويبقى الله تعالى كما لم يزل.** [١٢٨]

ويمكن أن نلاحظ أن متأخري المتصوفة قد سبقوا الجميع في الترويج للأفكار السلبية، ولعدم العمل، بل لإسقاط التدبير صراحة، وكل ذلك باسم الدين وباسم نصوصه الدينية التي أنزلت لتحقق كل ما يحاولون طمسه.

وهكذا نرى أن ابن عطاء السكندري (المتوفى سنة ٧٠٩ هجرية)، قد ألف كتاباً لا يزال متداولاً (بل ومثنياً عليه بحرارة من قبل البعض!) بعنوان: **التنوير في إسقاط التدبير..** (هكذا!).. علماً بأن ابن عطاء الله السكندري له ألقاب من نوع: **قطب العارفين، ترجمان الواصلين، ومرشد السالكين،** كما أنه هو نفسه صاحب «الحكم العطائية» الشهيرة، التي شرحها ما يقارب عشرة من مشاهير من يعرفون بالعلماء (من ضمنهم محمد سعيد رمضان البوطي في خمسة مجلدات، وعلي جمعة!!)..

---

١٢٤ الرسالة القشيرية، ص٤، أبو القاسم القشيري، ط١، دار الفرفور دمشق، ٢٠٠٢ م.
١٢٥ الرسالة القشيرية ص ١٣٦.
١٢٦ الرسالة القشيرية ص ١٣٧.
١٢٧ تفسير القشيري الجزء الرابع ص ٥٦ مصدر الكتاب : موقع التفاسير: http://www.altafsir.com.
١٢٨ اللمع لأبي نصر السراج الطوسي، ص ٥٠، اللمع في تاريخ التصوف، ط١، تحقيق :كامل مصطفى الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت.

وعلى الرغم من أن عنوان الكتاب (التنوير في إسقاط التدبير) كافٍ للدلالة على مضمونه، إلا أنه من المهم هنا إيراد أمثلة من هذا الكتاب، ونعتذر عن طولها، ولكنها مهمة في هذا السياق..

والعبادة ظاهر العبودية، والعبودية روحها:

وإذ قد فهمت هذا فروح العبودية وسرها إنما هو **ترك الاختيار وعدم منازعة الأقدار، فتبين من هذا أن العبودية ترك التدبير والاختيار مع الربوبية، فإذا كان لا يتم مقام العبودية الذي هو أشرف المقامات إلا بترك التدبير، فحقيق على العبد أن يكون له تاركاً، وللتسليم لله تعالى وللتفويض له سالكاً، ليصل إلى مقام الأكمل، والمنهج الأفضل.**

وأيضاً:

ويناقض (التدبير) أيضاً مقام التوكل، وذلك أن المتوكل على الله من ألقى قياده إليه، واعتمد في كل أموره عليه، **فمن لازم ذلك عدم التدبير والاستسلام لجريان المقادير.**

وتعلق إسقاط التدبير بمقام التوكل والرضا أبين من تعلقه بسائر المقامات.

اعلم أن الذي يحملك على إسقاط التدبير مع الله والاختيار أمور:

الأول: علمك بسابق تدبير الله فيك، وذلك أن تعلم أن الله كان لك قبل أن تكون لنفسك، **فكما كان لك مدبراً قبل أن تكون ولا شيء من تدبيرك معه، كذلك هو سبحانه وتعالى مدبر لك بعد وجودك.**

فكن له كما كنت له، يكن لك كما كان لك.

الثاني: أن تعلم أن **التدبير منك لنفسك جهل منك بحسن النظر لها**، فإن المؤمن قد علم أنه إذا ترك التدبير مع الله، كان له بحسن التدبير منه، لقوله تعالى: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾. **فصار التدبير في إسقاط التدبير**، والنظر للنفس ترك النظر لها، فافهم ها هنا قوله تعالى: ﴿وأتوا البيوت من أبوابها﴾. **فباب التدبير من الله لك، هو إسقاط التدبير منك لنفسك.**

الثالث: علمك بأن القدر لا يجري على حسب تدبيرك، بل أكثر ما يكون ما لا تدبر، **وأقل ما يكون ما أنت له مدبر، والعاقل لا يبني بناء على غير قرار**، فمتى تتم مبانيك والأقدار تهدمها؟

وعن التمام قصدها شعراً:

متى يبلغ البنيان يوما تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

وإذا كان التدبير منك، والقدر يجري على خلاف ما تدبر، **فما فائدة تدبير لا تنصره الأقدار؟ وإنما ينبغي أن يكون التدبير لمن بيده أزمة المقادير.**

الرابع: علمك بأن الله تعالى هو المتولي لتدبير مملكته، علوها وسفلها، غيبها وشهادتها.

وكما سلمت له تدبيره في عرشه وكرسيه، وسماواته وأرضه، فسلم له تدبيره في وجودك (إلى هذه العوالم) فإن نسبة وجودك إلى هذه العوالم نسبة توجب تلاشيك، كما أن نسبة السماوات السبع، والأرضين السبع، بالنسبة إلى الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، والكرسي والسماوات السبع والأرضون السبع، بالنسبة إلى العرش كالحلقة الملقاة في فلاة من الأرض، فماذا عسى أن تكون أنت في مملكته؟ فاهتمامك بأمر نفسك وتدبيرك لها منك جهل بالله، بل الأمر كما قال سبحانه: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾.

فكما سلمت لله تدبيره في سمائه وأرضه، فسلم له تدبيره في وجودك: ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾.

الخامس: علمك بأنك ملك لله، **وليس لك تدبير ما هو لغيرك، فما ليس لك ملكه ليس لك تدبيره، وإذا كنت أيها العبد لا تنازع فيما تملك، ولا ملك لك إلا بتمليكه إياك، وليس لك ملك حقيقي**، وإنما هي نسبة شرعية، أوجبت الملك لك من غير شيء قائم بوصفك تستوجب به أن تكون مالكاً، فأن لا تنازع الله فيما يملكه أولى وأحرى.

لا سيما وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾.

فلا ينبغي لعبد بعد المبايعة تدبير ولا منازعة، لأن ما بعته وجب عليك تسليمه، وعدم المنازعة فيه، فالتدبير فيه نقض لعقد المبايعة.. [١٢٩]

ولعل ذلك يلخص موجزاً في الحكمة الرابعة من الحكم العطائية والتي تقول:

«أرح نفسك من التدبير، فما قام به غيرك عنك، لا تقم به أنت لنفسك».. [١٣٠]

---

١٢٩ التنوير في إسقاط التدبير، ابن عطاء الله السكندري، تحقيق موسى محمد علي الموشى عبد العال أحمد العرابي، طبعة مجمع البحوث الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٩٧١م، كما يتوفر برنامج على الشبكة لعرض الكتاب مفصلاً.

١٣٠ الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري، شرح ابن عباد النفري الرندي، الناشر مركز الأهرام للترجمة والنشر، طبعة أولى، ١٩٨٨م

هل من تعليق يمكن أن يفي هذه المقتطفات حقها؟

هل نستغرب حقاً مما وصلنا إليه.. وأفكار كهذه كانت تنهش جسد أمتنا؟

◆◆◆

يحسمها حجة الإسلام..

وبعد كل هذا فلا عجب أن يفتي حجة الإسلام الغزالي عند سؤاله: هل يلزم العبد طلب الرزق بحال؟

فيرد:

(فاعلم أن الرزق المضمون هو الغذاء والقوام، فلا يمكننا طلبه، إذ هو شيء من فعل الله بالعبد، كالحياة والموت، لا يقدر العبد على تحصيله ولا دفعه.

وأما المقسوم من الأسباب فلا يلزم العبد طلبه، إذ لا حاجة للعبد إلى ذلك، وإنما حاجته إلى المضمون، وهو من الله، وفي ضمان الله.

وأما قوله تعالى: ﴿وابتغوا من فضل الله﴾ المراد به: العلم والثواب، **وقيل: بل هو رخصة، إذ هو أمر وارد بعد الحظر، فيكون بمعنى الإباحة لا الإيجاب والإلزام.**

فإن قيل: لكن لهذا الرزق المضمون أسباب، هل يلزمنا طلب الأسباب؟

قيل: **لا يلزمك ذلك، إذ لا حاجة بالعبد إليه، إذ الله سبحانه يفعل بالسبب وبغير السبب، فمن أين يلزمنا طلب السبب؟**

ثم إن الله تعالى ضمن ضماناً مطلقاً، من **غير شرط الطلب والكسب**، قال تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾.

ثم كيف يصح أن يأمر العبد بطلب ما لا يعرف مكانه فيطلبه؟ إذ لا يعرف أي سبب منها رزقه يتناوله لعرف الذي يصير سبب غذائه وتربيته لا غير، فالواحد منا لا يعرف ذلك السبب بعينه من أنه حصل له، فلا يصح تكليفه، فتأمل راشداً، فإنه بيّن.

ثم حسبك أن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه والأولياء المتوكلين لم يطلبوا رزقاً في الأكثر والأعم، وتجردوا للعبادة، وبإجماع أنهم لم يكونوا تاركين لأمر الله تعالى، ولا عاصين له في ذلك، فسن لك أن تطلب الرزق وأسبابه ليس بأمر

لازم للعبد). [١٣١]

هكذا حسم الأمر حجة الإسلام الغزالي..

لا داعي لطلب السبب.. لا داعي لشيء.. كل شيء مضمون بضمان الله!

قد يدافع عنه موالوه وأتباعه ممن سقط بعضهم سهواً من عصور الانحطاط، فيقولون: إن الكتاب منسوب إليه.. لكن هذا ما لم يقل به أحد من المتقدمين إلا ابن عربي الذي ادعى نسبة الكتاب لأبي الحسن علي المسفر، الذي كان ذا نزعة حلولية بعيدة تماما عن روح كتاب المنهاج، كما أن كثيراً من **تلامذة الغزالي ممن أرّخوا له ذكروا الكتاب ضمن كتبه، وهو في عموم شكله يشبه الكتب والرسائل الوعظية، بل يعتبر حلقة من حلقاتها..** [١٣٢]

لكن لِمَ يكون ذلك غريباً على الغزالي تحديداً؟

ألم يكن هو من نفى علاقة الأسباب بالمسببات في تهافت الفلاسفة؟.. أليس هو القائل: "إن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد، والتثاقل عنها بالكلية طعن في السنة، وقدح في الشرع". [١٣٣]

(يعني لا تركز كثيراً في ملاحظة الأسباب أو التعمق فيها.. ولا تتركها بالكلية.. مشي حالك).

لا يمكن إنكار أن هناك من رد على هذه الفتوى، مثل شيخ الإسلام ابن تيمية، بل لا يمكن إنكار أن هناك مواضع أخرى في كلام الغزالي قد تفهم في سياق مختلف ومعاكس..

ولكن فلنتذكر ما قلناه سابقاً عن الانحياز السلبي، عندما تضع "عقيدة سلبية" فإن أثرها سيكون أكبر وأقوى من أي عقيدة إيجابية في السياق نفسه.. أي أن الأثر السلبي سيلغي الأثر الإيجابي ويحتويه..

فلنقر أن فتوى الغزالي المشار إليها تبدو قليلة الانتشار ظاهرياً على الأقل، ولا تجد لها مطابقة "صريحة" على المنابر اليوم..

لكن...

◆◆◆

١٣١ منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين ، أبو حامد الغزالي، ص ٢٠٤-٢٠٥، تحقيق د. مصطفى جلاد، دار الرسالة، ط١، ١٩٨٩م.

١٣٢ فصّل د. جلاد ذلك في مقدمته للكتاب.

١٣٣ الإحياء الجزء الثالث - ص ٢٣٥.

لكن الفتوى صحيحة!..

لا أقول: إنها صحيحة بمعنى أني أؤمن بها أو بتوافقها مع الإسلام، **بل لأنها متوافقة مع «المسطرة العقائدية» السابقة التي جعلت منا مجرد محل لأفعال الله**، المسطرة التي سلبت منا إرادتنا وجعلت من مشيئتنا تابعة لمشيئته عز وجل حتى في المعاصي والكبائر.. العقيدة التي جعلت منا مجبورين على ما نفعل، حتى لو لم تقل ذلك حرفياً..

إذا كانت العقيدة السابقة صحيحة، فإن فتوى الغزالي مبررة تماماً.. **ما دمنا لا نفعل «حقاً».. فلِمَ علينا أن نسعى لشيء؟.. الله هو من سيفعل ويجعلنا نسعى إن شاء.. وإن لم يشأ لن يحدث شيء.**

لِمَ علينا أن نحاول ما دام الأمر في النهاية محسوما، مضمون، كما رزق الدابة مضمون؟ لم علينا أن نبذل جهداً؟ بل كيف سيكون لدينا الإرادة لكي نبذل جهداً؟

لقد ماتت الإرادة..

فماذا بعد؟!

فهمنا للإسلام.. لا الإسلام كما هو

لا ريب في أن واقع الأمة المر يرتبط بهذه العقيدة التي سلبت إرادة العمل، وحولت قدر الله إلى تكأة للقعود والركون..

لا نحتاج إلى كثير أدلة للبرهنة على ذلك.

نظرة سريعة على واقع الأمة والتدهور التاريخي الذي مرت به، وإلى هبوطها من مرتبة «خير أمة» إلى مرتبة الحضيض واستسلامها لكل هذا يدلنا على وجود خلل كبير في **إرادتها**.

بل إن نظرة سريعة على الواقع الشخصي لكثير ممن نراهم ونقابلهم في حياتنا اليومية، واستسلامهم لواقع حياة ظالم ومجحف يجب أن يثوروا عليه، واحتجاجهم بالقدر والقسمة والنصيب، ووجود ذلك في أمثال شعبية شائعة تكون جزءاً أساسياً من العقل الجمعي.. كل هذا يجعل محاولة البرهنة على وجود مشكلة تتعلق بالإرادة وعلاقة ذلك بمفاهيمنا عن «القضاء والقدر» محاولة غير مجدية، كمن يبحث عن دليل على أن الشمس تشرق كل يوم.

لا مفر من الإقرار بأن ما يتهمنا به الغربيون - وسواهم - من «قدرية» هو حقيقة يومية معاشة لقرون متراكمة.

الخطأ في التهمة هو أن الغربيين يعتقدون أن الإسلام هو الذي كرس هذا الاستسلام.

والحقيقة أننا نحن من كرس ذلك في الإسلام، لقد ألصقت مجموعة من المفاهيم - بعضها جاهلي محض جاء الإسلام ليحاربه - ومفاهيم أخرى تولدت نتيجة ردود الأفعال والمناظرات مع الفرق المختلفة، ألصقت ظلماً وزوراً بالإسلام.. ولأن ذلك كله امتد واستمر منذ قرون، فقد صار هذا يبدو لهم - **ولنا** - أنه «الإسلام» فعلاً.

لا جدوى من اتخاذ الموقف التقليدي للدفاع عن النفس الذي حجزنا أنفسنا به منذ قرون، والذي قادنا دوماً لردود أفعال مزيفة أحياناً، عبر اختراع مصطلحات نهرب بها من "الجبر"، ولكنها في الحقيقة ليست سوى جبر متنكر (لم تكن نظرية الكسب في الحقيقة سوى نوع من هذا التنكر، الله يخلق أفعالنا لكننا نكسبها!.. **هل هناك فرق بين هذا وبين الجبر؟ هل يمكن أن لا نكسبها أصلاً؟!!).**

لا جدوى من الفرار والاستمرار في الفرار..

لا مفر من المواجهة مع كل ما يشدنا إلى دركنا السفلي الذي ولجناه منذ أن تركنا مفاهيمنا الحقيقية، المفاهيم التي بنيت بالقرآن، وتكاملت بالسنة، وليس مفاهيم رد الفعل وعصور التردي والانحطاط ومحاولة «التقبل» و«التعايش» مع الواقع السلبي.

◆◆◆

قبل الدخول في هذا علينا أن نحدد أمرين:

أولاً - عقيدة القضاء والقدر، بالشكل **الذي تقدم فيه حالياً، مفتعلة جداً**، بل هي مفتعلة إلى درجة لا يمكن معرفة «أصولها القرآنية» من كثرة التراكمات التي طرأت على نحو مشوه للحقيقة.

عقيدة القدر في القرآن، - كما مر سابقاً[١٣٤] - **عقيدة موجزة وإيجابية جداً**، وتركز أساساً على التوازن الذي خلق فيه هذا الكون، ويكون الإيمان بهذا التوازن مرتبطاً بالإيمان بدورك فيه، في جعل التوازن حقيقة واقعة معاشة وليست مجرد فرضية مبهمة.

١٣٤ في الفصل الرابع، في أثناء شرح حديث أركان الإيمان.

عقيدة القدر في امتداداتها في صحيح الحديث أكثر تفصيلاً، ولكنها ستبقى بعيدة جداً عن العقيدة التي تراكمت عبر القرون (وستكون قريبة جداً منها، لو أنها قرئت عبر عقل شُكِّلَ عبر تراكمات القرون، لكن النصوص النبوية نفسها بريئة من هذا تماماً).. وسنأتي على هذا لاحقاً بالتفصيل.

ثانيا - أي اقتحام لهذا سيحتم الدخول في مواجهة مفتوحة مع "الحرس القديم" للمؤسسة التقليدية والفكر الديني السائد حالياً الذي هو إرث عصور الانحطاط، والذي يفتقر إلى صلة حقيقية بإسلام النهوض، إسلام الجيل الأول الذي فتح العالم، الإسلام الذي سينقذنا من الدرك الذي سكننا وسكناه منذ قرون.

المواجهة ليست سهلة؛ لأن الحرس القديم مدجج بأسلحة الاتهامات الجاهزة (تتراوح عادة بين العمالة للماسونية العالمية والصهيونية والجهل، وربما الانتماء لإحدى الفرق المنقرضة مثل المعتزلة، أو القدرية وبالتالي استنزال كل ما نالوه من لعن وتبديع وتكفير أحياناً على من يجرؤ على المواجهة).. وستكون المواجهة أحياناً مع رموز تاريخية بعضها حصل على القداسة لأسباب لا مجال للخوض فيها الآن..

لن يكون ذلك يسيراً قط.

لكن لا بد مما لا بد منه.

ومهما كان الثمن باهظاً.

فإن الأمر يستحق.

بالعربي الفصيح: كل أمر أمرك الله به، يتناقض مع القول بأنه خالق فعلك

كل فعل أمر في القرآن الكريم، هو حجة وبرهان ضد كل من يقول إن الله خالق أفعالنا وإننا مجرد "موضع" لتنفيذها.. أو أنه خلقها وقمنا نحن نقوم بكسبها فحسب، كائنا من كان من يقول هذا..

كل فعل أمر أنزله الله تعالى، يتعارض ويتناقض مع القول إنه يخلق أفعالنا ويجردنا من المسؤولية الكاملة تجاهها.

كل **فعل أمر في القرآن يعني أنه يكلفنا بأمر ما، وما دام يكلفنا**، وهو العدل الحق

الحكم، فإنه **لا يمكن إلا أن يترك لنا الخيار في الفعل..**

بل إن نزول الشرع، نزول الكتب السماوية، سيكون بلا معنى لو كنا مقادين إلى أفعالنا، كما يقاد الرجل الآلي عبر البرنامج المعد مسبقاً بلا خيار.

ما معنى نزول الرسالات؟ وما معنى بعث الرسل؟ وما معنى تبليغنا بهذه الرسالات إذا كنا سنفعل بالضبط ما سنفعله لو لم يتم تبلغينا بها؟

بل إن كل خلقنا وكل وجودنا في هذه الحياة، سيكون محض عبث، سيكون لهواً لا معنى له، لو أن كل ما نفعله من معاصي أو فضائل، من منجزات أو مجازر، كنا مبرمجين على فعله دون خيار.

ما معنى أن يكون وجودنا امتحاناً.. أو ابتلاءً.. إذا كنا غير مسؤولين عن أدائنا في هذا الامتحان؟

بل ما معنى أن نحاسب أصلاً.. إذا كنا لا نفعل حقاً ما نكون مجرد "محل" و"موضع" لحدوثه؟!

كل شيء سيكون مثل مسرحية لا معنى لها.. تمثيلية نحن فيها ممثلون نقرأ من نص أُعدَّ مسبقاً دون أن نملك "خروجاً" عن النص.

وهذا كله قدح.. وأي قدح.. بعدله وحكمته.

المعضلة أنه قدح يدعي أنه يمثل العقيدة الصحيحة.

عندما قال عز من قال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

فإنه بالتأكيد لم يقصد أن يكون الكتاب «الذي فيه التبيان» مشفَّراً ولا يمكن فهمه.. لقد بعثه بلغة واضحة، لأن هذا هو هدف أي رسالة «بالتعريف».

وهكذا فعندما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨] فإن مقصد الآية واضح، كل ما نسعى إليه، ونكسبه بعملنا وفعلنا واختيارنا وإرادتنا.. ولا يمكن أن يكون المعنى: كل نفس بما خلق الله لها من فعل - وكسبته! - رهينة!..

وعندما قال: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] فلم يقصد قط أننا لسنا نحن

من يعمل هذا العمل الذي سيراه الله ورسوله والمؤمنون، ولم يكن يقصد أيضاً أننا مجرد «موضع» لما خلقه الله من أفعال.

وعندما قال عز من قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [هود: ٧] فهو يقصد أن هدف الخلق كله هو هذا الابتلاء الذي المحك فيه هو عملنا.. عملنا نحن.. نسبته إلينا واضحة، ولا يمكن أن تحوي ألغازاً افتراضية كتلك التي فرضت فرضاً على أفهامنا.

وعندما قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف: ١١٠] فالبيان واضح، عملنا هنا هو جواب لشرط.. من كان يرجو.. فليعمل عملاً صالحاً.. الخيار واضح، والاختيار واضح، ووجود الإرادة الانسانية أمر محسوم.

بل إن آية: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] تقدم لنا تساؤلاً ملائكياً مبرراً بعدم ثقتهم بقدرة المخلوق الجديد على تحمل المسؤولية.. ولو كان هذا المخلوق سيكون محلاً لأفعال خلقها الله فيه، كرجل آلي مزود بجهاز تحكم عن بعد.. لما كان لتساؤلهم معنى ابتداء.

كل آية، وأشدد هنا على كل آية، فيها ذكر للنوع الإنساني أو خطاب له، حساب، عقاب، ثواب.. تكليف.. كلُّها تقف ضد ما يَدَّعون من جبر، ويغلفونه بأزياء تنكرية.

إذا كان هذا حقا، إذا كانت كل آية تقف ضد ما يدعون.. فكيف وصلنا إلى هذه العقيدة؟

أو كيف وصلت إلينا؟

تقاطع السياسة مع ردود الفعل في قراءة النصوص

الوصول إلى هذه العقيدة بشكلها الذي وصلنا لم يكن قط **مسألة نصوص..** بمعنى أنه لم يكن مسألة بحث في نصوص للوصول إلى العقيدة، بل كان نتيجة ردود أفعال متبادلة ومتراكمة تجاه عقائد أخرى.. **فقد كان هناك من تَطَرَّف فأنكر القدر تماماً، والقدر ثابت كما أوضحت تفصيلاً في أركان الإيمان، وكان هناك**

من تَطَرَّف فأثبت الجبر بألفاظ «أكثر وضوحاً مما يحتمله أحد».. وكان هناك سلطة سياسية أرادت أن تثبت شرعيتها عبر إثبات أن ما حدث من انتصار لها، كان بمشيئة الله أي برضاه عن وصولها تحديداً، بمعنى استحقاقها لهذا الوصول[١٣٥].. وكان هناك أيضاً تيار يريد أن يتعايش مع الواقع ليحقن الدماء التي سالت من أجل تغيير هذا الواقع.

كل هذا اجتمع ليجعل القائلين بالقدر (بالمعنى الجبري ولو كانت التسمية مختلفة) يبحثون عن نصوص تدعم قولهم.. أي أنهم وصلوا أولاً إلى الشكل الذي يرون أنه الأفضل، ثم أخذوا يبحثون عن نصٍ "مؤيد" لها.

ضد كل النصوص القرآنية، التي تقف ضد ما يفهمونه من القدر، وجدوا ثلاثة نصوص فقط، يمكن أن توظف لصالح ما يروجونه عندما تُجتزأ هذه النصوص من سياقها..

ثلاثة نصوص فقط..

الله يخلق أفعالنا؟

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

هذه هي الآية الأساسية التي يعتمد عليها من يروج أن الله خالق أفعالنا.. وهي آية تؤيد ما يذهبون إليه فعلاً للوهلة الأولى، لكن من خلال **الرؤية التجزيئية** فقط التي تعزل النصوص عن سياقاتها، والتعامل مع كل آية كما لو كانت نصاً مستقلاً، علماً بأن الآية جاءت ضمن «حوار» بين إبراهيم وقومه، وكانت الآية توبيخاً لهم على شركهم.

فلنقرأ السياق: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٨٨-٩٦].

إبراهيم يجادل قومه في عبادتهم لأصنام «يصنعونها بأيديهم»..

«**أتعبدون ما تنحتون؟**».. ينحتونها من مواد أولية يستخدمونها في النحت، كالخشب والحجر والحديد.. ومن الذي خلق الخشب والحجر والحديد؟ إنه الله

١٣٥ للمزيد عن هذا الموضوع، وعلاقة السلطة السياسية بالترويج للاستبداد واستغلال القدر، انظر: البوصلة القرآنية، فصل الأمس المستمر.

عز وجل..

هو يوبخهم على شركهم، على عبادتهم لما يصنعون من مواد أولية خلقها كما خلقهم.. والسياق شديد الوضوح.. (هل يمكن أن يوبخهم على شيء فعلوه - عبادة الأصنام - في آية، ثم يقول لهم في الآية التالية: إنه هو **خالق ما يوبخهم عليه؟!)**.

هذا عدا أن **العمل** - وهو اللفظ الذي استخدم في السياق القرآني - أشد خصوصية من لفظ **«الفعل»، فالفعل لفظ عام يشمل العمل، أما العمل، وخاصة في السياق، فهو يشير بوضوح إلى «الصنعة»**.. ولكن لفظ الصنع لا يستخدم في لسان العرب إلا لمن كان مجيداً حاذقاً. [١٣٦]

وقد ذكر نَقل عن أكثر من مفسر هذا التفسير، مثل قتادة وسواه، وقد أوضح الرازي هذا الأمر بإيجاز:

سلمنا أن ذلك ﴿مَا تَعْمَلُونَ﴾ **قد يكون بمعنى المصدر (أي خلقكم وخلق أعمالكم)**، لكنه أيضاً قد يكون بمعنى **المفعول (أي خلقكم وخلق معمولكم، الأصنام في هذه الحالة)** ويدل عليه وجوه:

الوجه الأول: قوله (في الآية السابقة مباشرة): ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾، والمراد بقوله: ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾ المنحوت لا النحت، لأنهم **ما عبدوا النحت، وإنما عبدوا المنحوت**، فوجب أن يكون المراد بقوله: ﴿مَا تَعْمَلُونَ﴾ **المعمول لا العمل**، حتى يكون كل واحد من هذين اللفظين على وفق الآخر.

والثاني: أنه تعالى قال: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧] وليس المراد أنها تلقف **نفس الإفك (أي الكذب)**، بل أراد العصي والحبال التي هي متعلقات ذلك الإفك، فكذا ههنا.

الثالث: أن العرب تسمي **محل العمل عملاً**، يقال في الباب والخاتم: **هذا عمل فلان**، والمراد **محل عمله.**

فثبت بهذه الوجوه الثلاثة أن **لفظة ما مع بعدها كما تجيء بمعنى المصدر فقد تجيء أيضاً بمعنى المفعول**، فكان حمله ههنا على المفعول أولى؛ لأن المقصود في هذه الآية تزييف مذهبهم في عبادة الأصنام، لا بيان أنهم لا يوجدون أفعال أنفسهم، لأن الذي جرى ذكره في أول الآية إلى هذا الموضع هو مسألة عبادة

١٣٦ للمزيد عن الفرق بين العمل والفعل ومعنى كل منهما انظر: الفروق اللغوية، مواد ١٥١٧ و١٥١٨، ص ٣٢٢ ابن سهل العسكري، دار الكتب العلمية.

الأصنام، لا خلق الأعمال.. والله أعلم.[١٣٧]

وقد نقل الطبري الوجهين، ورجح ما قاله قتادة الذي قال: ﴿وخلقكم وما تعملون﴾ بأيديكم.[١٣٨]

وفعل القرطبي الشيء ذاته، حيث قال في تفسير الآية: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾: (ما) في موضع نصب: أي وخلق ما تعملونه من الأصنام، يعني الخشب والحجارة وغيرهما، كقوله: ﴿بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن﴾.[١٣٩]

وقال صاحب البحر المحيط: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾: الظاهر أن (ما) موصولة بمعنى (الذي) معطوفة على الضمير في خلقكم، أي أنشأ ذواتكم وذوات ما تعملون من الأصنام، والعمل هنا هو التصوير والتشكيل، كما يقول: عمل الصائغ الخلخال، وعمل الحداد القفل، والنجار الخزانة، ويحمل ذلك على أن (ما) بمعنى (الذي) يتم الاحتجاج عليهم، بأن كلاً من الصنم وعابده هو مخلوق لله تعالى، والعابد هو المصور ذلك المعبود، فكيف يعبد مخلوق مخلوقاً؟ وكلاهما خلق الله، وهو المنفرد بإنشاء ذواتهما. والعابد مصور الصنم معبوده. و(ما) في: ﴿وَمَا تَنْحِتُونَ﴾ بمعنى تأذى، فكذلك في ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، لأن نحتهم هو عملهم. وقيل: (ما) مصدرية، أي خلقكم وعملكم، وجعلوا ذلك قاعدة على خلق الله أفعال العباد. وقد بدد الزمخشري تقابل هذه المقالة بما يوقف عليه في كتابه.[١٤٠]

وجاء في تفسير اللباب لابن عادل: قوله: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ في (ما) هذه أربعة أوجه:

أجودها: أنها بمعنى الذي، أي وخلق الذي تصنعونه، فالعمل هنا التصوير والنحت، نحو: عمل الصانع السِّوار الذي صَاغَه. ويرجح كونها بمعنى الذي تقدم (ما) قبلها، فإنها بمعنى الذي، أي: أتعبدون الذي تنحتون، والله خلقكم الذي تعملونه بالنحت[١٤١].

وقال صاحب التحرير والتنوير: ومعنى ﴿تَعْمَلُونَ﴾ تنحتون. وإنما عدل عن إعادة فعل ﴿تَنْحِتُونَ﴾ لكراهية تكرار الكلمة، فلما تقدّم لفظ ﴿تَنْحِتُونَ﴾ علم أن المراد بـ ﴿مَا تَعْمَلُونَ﴾ ذلك المعمول الخاص، وهو المعمول للنحت لأن العمل أعمّ. يقال:

---

١٣٧ تفسير الرازي، ١٣٥/١٣، مفاتيح الغيب، مصدر الكتاب موقع التفاسير: http://www.altafsir.com .

١٣٨ تفسير الطبري، ٧٠/٢١، ابن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، المحقق أحمد محمد شاكر، الناشر مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م.

١٣٩ القرطبي، ٩٦/١٥، الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد الله، طبعة مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٦م.

١٤٠ تفسير البحر المحيط، ٣٠٦/٩، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان، مصدر الكتاب موقع التفاسير: http://www.altafsir.com .

١٤١ تفسير اللباب، لابن عادل، ٣١٠/١٣، مصدر الكتاب موقع التفاسير: http://www.altafsir.com.

عملت قميصاً، وعملتُ خاتماً. وفي حديث صنع المنبر: «أرسل رسوُل الله صلى الله عليه وسلم لامرأة من الأنصار أنْ مُري غلامك النجّارَ يعمَلْ لي أعواداً أُكلِّم عليها الناس» خلق الله إياها ظاهر، وخلقه ما يعملونها هو خلق المادة التي تصنع منها من حجر أو خشب، ولذلك جمع بين إسناد الخلق إلى الله بواو العطف، وإسنادِ العمل إليهم بإسناد فعل ﴿تَعْمَلُونَ﴾.

وقد احتج الأشاعرة على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى بهذه الآية على أن تكون (ما) مصدرية، أو تكون موصولة، على أن المراد: ما تعملونه من الأعمال. **وهو تمسك ضعيف لما في الآية من الاحتمالين**، ولأن المقام يرجح المعنى الذي ذكرناه، إذ هو في مقام المحاجّة بأن الأصنام أنفسها مخلوقة لله، فالأولى المصير إلى أدلة أخرى. [١٤٢]

◆◆◆

سياق الآية شديد الوضوح..

الحديث هو عن «أصنام منحوتة» يعبدها قوم إبراهيم..

وسياق الآيات يجرهم إلى **أن يصلوا إلى «سخف» أن تعبد شيئاً «عملته» بيديك، «قمت بنحته» بيديك.. من مواد هي أصلاً موجودة في الطبيعة، ولا بد أن يكون هناك من أوجدها.. لا بد أن يكون هناك من خلق هذه المواد.. خشب.. حجر.. أو أية مادة أخرى تُصنع منها الأصنام.. وهو ذاته «الخالق» الذي خلقك..**

خلقك، وخلق الحجر والخشب، فصنعت منهما صنماً لتعبده من دونه..

أي سخف!..

هذا هو ما تقوله الآيات.. خلقكم وما تعملون.. والعمل هنا هو "نتاج النحت".. كما يقال في لسان العرب، وحتى اليوم، عن "الباب" عمل النجار، و"المفتاح" عمل الحداد..

كل صنعة أو عمل "منتج مادي" يقوم به الإنسان داخلٌ ضمن هذه الآية، لأن هذا العمل يتعامل في الحقيقة مع مواد أولية خلقها الله وتركها "لنغير فيها".. نغير من شكلها، من استخداماتها، ولكن "المواد الأولية" ستبقى من خلقه.

وهذا ما يذكرنا بالحديث عنه عليه الصلاة والسلام: «إن الله خالق كل صانع

١٤٢ التحرير والتنوير، ١٢/١٣٥-١٣٦، ابن عاشور، مصدر الكتاب موقع التفاسير: http://www.altafsir.com .

وصنعته». [١٤٣]

فكل صنعة، أو حرفة، أو إنتاج، ستبقى مرتبطة بخلق الله ما دامت تتعامل مع مواد أولية هي من خلقه سبحانه وتعالى..

أما "الفعل" نفسه، فعل النحت، أو صنع "الصنم".. أو "عمله".. فهو فعل العبد، وهو ما يستحق التوبيخ..

كل جر آخر لهذه الآية إلى حلبة الجدل حول "خلق أفعال العباد" هو بأثر رجعي.. ويرد عليه بالسياق نفسه..

لا يمكن أن يصدق أحد أن إبراهيم كان يوبخهم على أفعالهم، ويقول لهم: إن الله هو من فعلها..

نقطة انتهى!

هذا هو النص الأول الذي يستند عليه القوم..[١٤٤]

معضلة المشيئة

النصان الثاني والثالث يشكلان «تحدياً» أكبر لارتباطهما بسياقات متداخلة..

الآيتان المقصودتان هما:

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

وقد تم استخدامهما بكثافة للتأكيد على أن **«المشيئة البشرية» تابعة «للمشيئة الإلهية»**، وهو ما سيصب مباشرة لصالح «الجبر» المتنكر بألفاظ مختلفة، فظاهر الآيتين، خاصة عند نزعهما من سياقهما **ومن بقية الآيات التي تصب في الموضوع، يشير إلى أن اختياراتنا، إرادتنا، مشيئتنا، تابعة على نحو مباشر لمشيئته عز وجل.**

لكن هذا ما يبدو فقط عندما ننظر إلى الآية بمعزل عن سياقاتها، وبمعزل عن الاستخدام القرآني للألفاظ التي تتعلق بالموضوع.

---

١٤٣ المستدرك على الصحيحين، للحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي. رقم ٨٥ و٨٦.

١٤٤ البعض يحاول التدليل على خلق الأفعال بالآية الكريمة "الله خالق كل شيء"، وهذا الأمر قد يفتح بابا لا يريد هؤلاء الأخوة تحديدا فتحه، فمن الثوابت أن القرآن ليس مخلوقا، فهل هو مشمول بهذه الآية، ردهم في إخراج القرآن من "كل شيء" يمكن أن يستخدم بنفس الطريقة في إخراج الفعل البشري من الأمر.

مشيئة الله أن تكون لنا مشيئة مستقلة!

فلنقر أولاً أن الله مطلق القدرة، وأنه يقدر فعلاً على أن تكون مشيئتنا تابعة لمشيئته.. لا جدال في هذا، بل إن إنكار هذا هو كفر بقدرة الله، وبكل الآيات التي دلت على ذلك..

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٠].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأرض وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

مشيئة الله مهيمنة حتماً على كل شيء.. ولا شيء سيغير من ذلك..

لكن هذا لا يعني أن هذه المشيئة الإلهية في حالة «هيمنة» على كل ما يحدث.

أحياناً تكون المشيئة الإلهية مهيمنة على كل شيء..

وأحياناً يترك الله عز وجل مشيئتنا تفعل وتعمل.. لا لعدم قدرته على «السيطرة» عليها -حاشا لله - بل لأن جوهر وجودنا يعتمد على أن يكون لنا مشيئة وإرادة وفعل.. لأن عدله وحكمته يقتضيان أن تكون مشيئتنا فاعلة لنثبت نجاحنا أو فشلنا في «الاختبار»..

إذن عندما نتحدث هنا عن عدم تبعية مشيئتنا للمشيئة الإلهية، **فنحن لا نتحدث عن قصور في قدرته عز وجل عن احتواء مشيئتنا.. بل نتحدث عن حرية إرادة ومشيئة، قرر عز وجل أن يتركها لنا لأنها هي محور وجودنا..**

لأنها «أصل الاستخلاف».

ولو شاء الله ما «فعلوا»..

على الرغم من أن الأنظار تركزت على الآيتين السابقتين.. إلا أن هناك كثيراً من الآيات الأخرى التي يجب قراءتها للوصول إلى نظرة أكثر شمولاً لمفهوم المشيئة البشرية وعلاقتها بالمشيئة الإلهية..

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

لو شاء الله ما اقتتلوا.. لو شاء ألا يقتتلوا لتدخلت مشيئته لتسيرهم وتتدخل في مشيئتهم وإرادتهم، لكنه ترك الأمر لهم.. فاقتتلوا..

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ١٠٧].

لم يشأ الله ذلك..

تركهم يشاءون.. تركهم يختارون ما يقررونه.. فأشركوا..

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الأرض كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

لكنه لم يشأ ذلك..

تركهم يشاءون.. لم يتدخل في مشيئتهم.. فاختار بعضهم الكفر وآخرون شاءوا الإيمان..

﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أولادهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٧].

لم يشأ شيئاً في هذا.

لو شاء ألا يفعلوا لما فعلوه.. **لكنه ترك الخيار لهم..** ترك لهم «مشيئتهم»..

تعني هذه الآيات السابقة أن هناك حالات متعددة **لا تتدخل فيها المشيئة الإلهية في القرار البشري..**

واحد وعشرون موضعاً في القرآن الكريم استخدم فيها الخطاب القرآني **عبارة «لو شاء» الله عز وجل في شأن إنساني معين.. والمعنى أنه «لم يشأ»..**

صحيح أنه لم يقصد العكس أيضاً.. لكنه ترك ذلك لمشيئة «المعنيين بالأمر».. المحاسبين عليه.. بل الذي يعتمد وجودهم على ما سيفعلونه في ذلك.

جاهليو العرب.. وكثير من مسلمي اليوم

بل إن جاهلي العرب كانوا يتحججون بالمشيئة الإلهية لتسويغ شركهم..

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠].

إذن، ربط المشيئة البشرية بالإلهية والتحجج بها كان **نمطا تفكيريا جاهليا موجودا، يتركز على نفي دور المشيئة البشرية، والإلقاء بتبعات ما يحدث على المشيئة الإلهية، ليتنصل من مسؤولية ما يفعل هو بنفسه..** (هل يذكرنا هذا بشيء؟!)

على الجهة الأخرى ترى الخطاب القرآني صريحا في ترك مشيئة «المخاطب» - أفراداً أو جماعات - تفعل ما تريد..

﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]..

هذا هو الحق من ربكم: من شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر!

إنه هنا يخبرهم بوضوح أن **حريتهم مطلقة، وأن عليهم تحمل مسؤولية أفعالهم ما داموا قد اختاروا فعلها بكامل إرادتهم..**

فهل يظن أحد أنه إنما يخدعهم، وأن مشيئتهم ليست مشيئتهم حقاً، **ولكنه يتحكم بها عن بعد،** أي أنها مشيئته هو، ولكنهم لا يعلمون، والأكثر من ذلك أنهم سيدفعون ثمناً باهظاً في جهنم نتيجة ذلك؟

بالتأكيد لا، حاشا لله، حاشا أن يكون ظالمهم، لقد ترك لهم الخيار والإرادة.. وترك عليهم الحجة البالغة، الكون كلُّه بما فيه من توازن مبهر.. والعقل الذي أودعه فيهم.. والرسالات التي أرسلها عبر رسله وأنبيائه.. كلها كانت حجته البالغة على خلقه..

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

لكنه لم يشأ ذلك.. لم يشأ العكس أيضاً.

لقد شاء فقط أن تعمل مشيئتنا.. أن يترك لها الخيار..

عن الاهتداء والهداية: الشروط

ماذا عن الهداية والضلال؟ ألم يقل عز من قال في أكثر من موضع: إنه «**يهدي من يشاء**»؟

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾

فهم الهداية حقاً يتطلب فهم **مجمل** آياتها، وليس انتقاء واحدة لأي نوع من الأسباب..

ولذلك فإن هناك **شروطاً قرآنية للهداية، كما أن هناك موانع لها**، وبين الشروط والموانع تقع **دائرة الاستحقاق الإنساني لحيازة الهداية، ولو عبر تسلق جبل الهداية الصعب الوعر.**

هناك قبل ذلك حجة الله البالغة، **إنها الأدوات «العقلية» التي ميز بها الله عز وجل الإنسان، وجعله سيد المخلوقات كلها.. والتي تمكنه - نظرياً على الأقل، حتى دون علامات إرشاد - من أن يصل إلى الطريق الصحيح..**

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]..

لكن على الرغم من ذلك، ولأن هذه **الحجة البالغة يمكن أن يتراكم عليها ما يحيدها، وضع الله كل علامات الإرشاد التي نغض البصر عنها أحياناً.**

شرط الهداية الأول كما تحدد في القرآن الكريم هو أن تأتي الهداية نتيجة لجهد

بشري.. ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾ [العنكبوت: ٦٩]..

الهدي الإلهي هنا جاء (نتيجة) لذلك الجهاد في الله، والجهاد هو مفهوم واسع لبذل الجهد في كل ما يتعلق بما أمر الله به، وهذه المجاهدة، بكل المعنى الداخلي الممتلئ زخماً وإصراراً وفاعلية (والتي تكاد تشبه حرباً مع نفسك) هي التي تؤدي إلى ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾ كما تشير الآية..

وهذه المجاهدة أيضاً هي جوهر **عملية الاهتداء** التي يقوم بها الإنسان بنفسه: **﴿قل إن ضللت على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي إنه سميع قريب﴾** [سبأ: ٥٠]..

فالاهتداء هنا هو **الفعل الإنساني تجاه الوحي الإلهي** (وهو الوحي الموجه إلى عموم الإنسانية).. وهو الاهتداء الذي سيؤدي إلى ﴿**وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى**﴾ [مريم: ٧٦].. ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدًى وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ﴾ [محمد: ١٧]..

فالاهتداء البشري يؤدي إلى المزيد من الهدى، لكنه يكون هذه المرة **هدياً إلهياً..**

الاهتداء؟

لكن ما هو هذا الاهتداء؟ لماذا يهتدي البعض ولا يهتدي البعض الآخر؟ لماذا يكون هناك (شيء واحد) يهتدي به البعض، ويضل به البعض الآخر؟

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ ماذا أَرادَ اللَّهُ بِهَذا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَما يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]..

الاهتداء، يعتمد على وجود **الرغبة الجادة لشخص ما في أن يصل إلى الحق والحقيقة.. إنه باختصار مستعد لتقبل الحقيقة حتى لو كانت خارجة عن نمط حياته المعتاد وبيئته المحيطة به.**

ويشبه هذا ذلك التحدي الإبراهيمي الشهير، الذي جمع بين الجدية والإصرار والمجاهدة، في تحديه لكل الحقائق حوله، للوصول إلى الحقيقة الواحدة - **إنه الإصرار على الحصول على الهداية** ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧]..

لم يكن ينتظر الهداية بلا أن يقوم بشيء حيال ذلك، لم يكن يطلبها دون أن يسعى لها حثيثاً، لم يكن يطلبها في دعائه دون أن يستحق الحصول عليها بجهده.. معبود تلو آخر قام إبراهيم بسبره ورفضه، على الرغم من أنهم كانوا يمثلون أعمدة العالم الذي آمن به قومه، لكنه هدها جميعاً، الواحد

تلو الآخر، وهدّ بذلك العالم القديم.. من أجل أن يهديه ربه، إلى عالم آخر، عالم جديد أكثر عدالة..

ولأنه استحق ذلك فقد هداه الله حقاً..

﴿وَحاجَّهُ قَوْمُهُ قالَ أَتُحاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدانِ وَلا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠]..

موانع للهداية؟

وكما أن للهداية شروطاً، فإن **لها موانع**، وهي **موانع تبطل عملية الاهتداء أصلاً، وتبطل التفاعل بين الهداية الربانية، والاهتداء الذي هو فعل بشري..**

وموانع الهداية واضحة، وقد بينها القرآن الكريم.. فالله ﴿لا يهدي الكافرين﴾ في أربعة مواضع في القرآن الكريم: ﴿وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٣٧].

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٧]..

و﴿لا يهدي الظالمين﴾ في عشرة مواضع:

﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

﴿وَجاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]..

﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ

النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٩].

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٧].

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

و ﴿لا يهدي الفاسقين﴾ في خمسة مواضع:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ١٠٨].

﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠].

﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]..

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦].

إذن هناك ثلاثة موانع أساسية للهداية: **وهي الكفر، والظلم، والفسوق..**

والكفر هنا هو بمعناه العام الذي يجعل من الإنسان يتخذ **موقفاً مسبقاً رافضاً معانداً لله عز وجل بالمطلق، إنه الموقف الجاحد الذي لا يرى أي هامش**

للتواصل مع الإيمان بالله عز وجل، وبالتالي للرضوخ له..

أما **الظلم** فهو يمنع عملية الاهتداء، **لأن الاهتداء بالتعريف يتطلب أن تتخلص من الظلم الذي في داخلك تجاه أي شيء، سواء كان ظلماً للآخرين أو لنفسك، أو للأمور بصورة عامة، فالظلم يجعل المقاييس غير متوازنة، يعلمك الانحياز دوماً لجهة ما دون وجه حق، وهذا يتنافى فوراً مع آلية الاهتداء التي تتطلب قدراً من النزاهة يجعلك تتحمل نتائج ما وصلت إليه.**

والفسوق يمنع عملية الاهتداء أيضاً، لأنه ببساطة يجعلك **عازفاً عنها وعن كل ما هو جدي ونافع حقاً، إنه يربطك بمجموعة غرائز ومتع صغيرة، ويجعلها محور عالمك وحياتك، كل ما يتطلبه الاهتداء من جدية والتزام ودأب.** [١٤٥]

وهكذا نرى أن الله لا يهدي هذه الأصناف الثلاثة، طالما كانت هذه الصفات لديهم، لكن إزالتهم لهذه الصفات - الموانع **سيرفع هذا المنع**، أي أن دخولهم في دائرة المشيئة الإلهية للهداية يتطلب منهم **أن يرفعوا هذه الموانع.. يتطلب منهم أولاً وعياً بوجودها.. وجهداً لرفعها..**

إن علينا جمعه وقرآنه!

والجمع بين آيات مثل ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ و﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أو ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ أو ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أمر ليس معقداً، وهو يجعلنا نفهم «المشيئة الإلهية» أكثر.. **فهي مشيئته التي لا يمكن أن تكون اعتباطية أو عبثية، بل لها محددات هو من وضعها عز وجل.**

عبارة ﴿من يشاء﴾ في آية ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[القصص: ٥٦] تفهم عادة كما لو كانت **مشيئته عز وجل عشوائية، تعالى الله عن ذلك..**

لكنها في الحقيقة أبعد ما تكون عن ذلك، فالدخول في مشيئته للهداية **يتطلب مستحقات لا بد من أدائها، يتطلب وجود إرادة بشرية، وبذل جهد بشري لإزالة «موانع الهداية» الكامنة في أعماق النفس البشرية.. ومن ثم يدخل الفرد في نطاق المشيئة الإلهية بالهداية..**

١٤٥ للمزيد من التفصيل حول موانع الهداية انظر: الجزء الثالث من سلسلة (كيمياء الصلاة)، عالم جديد ممكن.

الفرد يعمل على استحقاق الهداية، ومن ثم يحصل عليها..

تتداخل إذن عبر هذا **مشيئة الفرد بالمشيئة الإلهية..**

الفرد يبدأ الخطوة الأولى، عليه أن يكون جزءاً من الهداية **عبر أن يهتدي أولاً**، عبر أن يزيل موانع الهداية من ظلم وفسوق وكفر، ومن ثم تأتي الخطوات اللاحقة لكي يستحق الدخول في نطاق المشيئة الإلهية.

بعدها تصبح مشيئة الفرد مرتبطة بمشيئته عز وجل.. حيث **تقود المشيئة الإلهية مشيئة الفرد في دروب الهداية..**

يشبه الأمر سلسلة **تفاعلات ضخمة ومهمة تبدأ عبر شرارة صغيرة**، وقد يعتبرها كثيرون غير مهمة، **بل وقد يهملها البعض عند النظر في صورة التفاعل الكلية..**[١٤٦]

فلنتذكر إذن بعض ما أثبتناه بخصوص المشيئة الإلهية:

أولاً - المشيئة الإلهية قادرة على الهيمنة على كل شيء. لا شيء يمكنه أن يغير من ذلك.

ثانياً - المشيئة الإلهية **لا تختار أن تهيمن على «المشيئة البشرية»**، بل تترك حرية الخيار والقرار للفرد، لأن هذا هو محور وجوده.

ثالثاً - الهداية الإلهية للبشر ترتبط بالمشيئة الإلهية وبـ«يهدي من يشاء»، لكن **المشيئة والقدرة البشرية هي المكلفة بإزالة موانع الهداية من داخل النفس وسلوكياتها أولاً**.. بعدها يدخل الفرد في دائرة «يهدي من يشاء».

رابعاً - دخول الفرد في دائرة المشيئة الإلهية **يقوي من مشيئته ومن نزوعها نحو ما يريد الله عز وجل «ويزيد الله الذين اهتدوا هدى»**.

عندما ترتبط مشيئتك بمشيئته..

بعد كل هذا، كيف نفهم ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ؟

لا تناقض هناك بين ما أثبتناه عبر مختلف آيات المشيئة، وبين هاتين الآيتين اللتين استخدمتا لنسف المشيئة الإنسانية.. بينما سياقها الحقيقي يصب في العكس من ذلك تماماً..

١٤٦ للمزيد عن الهداية – الجزء الثالث من سلسلة (كيمياء الصلاة)، بعنوان «عالم جديد ممكن». للمؤلف.

كيف؟

الآيتان لم تأتيا في التنزيل الكريم بلا سياق، بل جاءتا في سياق «التذكرة».. و«الذكر»..

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧].

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ [الإنسان: ٢٩].

لمن بالضبط؟ للناس جميعاً؟.. للكفار؟.. لمن يخوض مع الخائضين؟ للفاسقين؟ للظالمين؟ للكافرين؟

لا، قطعاً..

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٩].

﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨].

بعدها تأتي ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾..

الحديث إذن عن **مشيئة الاستقامة، عن مشيئة اتخاذ سبيل إلى الله..**

والحالتان (الاستقامة واتخاذ السبيل إلى الله) تندرجان **حتماً ضمن مدارج ودرجات الهداية..**

والهداية - كما أسلفنا، وكما أثبتت الآيات القرآنية - لها موانع، وعندما تزال الموانع، فإن الفرد الذي أزال الموانع بإرادته سيدخل في نطاق المشيئة الإلهية التي «ستهديه»..

بعبارة أخرى:

من يشاء أن يستقيم لا بد أنه قد اتخذ خطوات سابقة أزالت موانع الهداية، ودخل بالتالي في نطاق المشيئة الإلهية..

من يشاء أن يتخذ درباً في العمل لله لا بد أن يكون قد اتخذ خطوات سابقة أيضاً.. **ودخل أيضاً في دائرة المشيئة الإلهية.. والعلاقة المتداخلة بين مشيئة الفرد ومشيئته عز وجل..**

ليست مشيئتك أنت يا أبا جهل!

ولهذا كان من المنطقي جداً أنه لما نزلت ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾، قال أبو جهل لعنه الله: الأمر إلينا، إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم. قال: فنزلت: ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾.[١٤٧]

أبو جهل تكلم بالمنطق نفسه الذي يتحدث به كثيرون اليوم، حتى لو كانوا مسلمين وملتزمين، منطق اجتزاء الآيات من سياقاتها ومن معانيها، فقال: الأمر إلينا إذن..

كما لو كانت الاستقامة سهلة المنال، يمكن أن ينالها أي أحد، دون جهد سابق ومتراكم ناشئ عن وعي وعن إرادة.. كما لو أنها يمكن أن تكون لأبي جهل بالذات..

فجاءت الآية التالية متممة ومكملة للمعنى: ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾.

◆◆◆

لا تتحدث الآيتان في سياقيهما عن المشيئة الفردية بالمطلق..

عندما كان السياق القرآني عن مطلق الأعمال قال: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠].

وعندما كان السياق القرآني عن العبادة.. قال عز من قال: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ٣٩].

وعندما كان السياق عن الإيمان والكفر قال: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

وعندما كان السياق عن التقدم أو التأخر الذي هو جوهر حياتنا قال: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧].

وعندما كان عن الأكل قال: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٥٨].

وعندما كان السياق عن العلاقة الزوجية قال: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

كل هذه الأمور، وهي أمور أساسية تتعلق بأهم ما في حياتنا (كفر - إيمان، تقدم - تأخر، اختيار المعبود، التفاصيل اليومية في الحياة) **كلها كانت متروكة للمشيئة الفردية دون تدخل**، كلها تُركت للإنسان لكي يثبت من خلالها أهليته أو عدم أهليته للاختيار وللمنصب الذي عينه الله فيه: خليفة الله في الأرض.

---

١٤٧ الإبانة الكبرى لابن بطة - ١٧٩٩ -١٨٨٣، ابن بطة العكبري، مصدر الكتاب موقع جامع الحديث: http://www.alsunnah.com

حرية خياره تتضمن أيضاً أن يتحمل مسؤولية ونتائج أفعاله وخياراته، الثواب إن أصاب، والعقاب إن أخطأ..

لكنه عز وجل عندما تحدث عن سياق الهداية ربط ذلك بالمشيئة الإلهية..

وعندما تحدث عن سياق المشيئة الإنسانية لدرجة عليا من درجات الهداية (الاستقامة، اتخاذ السبيل إلى الله) ربط المشيئة الإنسانية بالإلهية.. فهي ستُقاد هنا بنور الهداية الإلهية لأنها بوصولها إلى هذه المرحلة قد استحقت ذلك فعلاً.

حياتك مجموعة من السلالم

هذا السياق المتداخل يشبه سلالم نقضي حياتنا في ارتقائها وصعودها.. (أو في الهبوط فيها إلى درك أدنى وصولاً إلى القعر).

في البداية علينا أن نحدد على أي سلالم سنضع أقدامنا.. سيكون هناك سلالم كثيرة، وعلينا أن نختار.. هل نختار ما يصعد بنا من الهاوية أم ما يأخذنا إلى القعر؟ أم سنختار ما يرتقي بنا وبمجتمعنا، ومن ثم نبذل جهداً شخصياً في ارتقاء ما اخترناه؟

لاحقاً، ستكون **هناك بعض الأجزاء «المتحركة» من السلالم، مثل السلالم الكهربائية التي ترتقي بنا دون أن نبذل جهداً حقيقياً.. لكننا لن نصل إلى هذه المرحلة ما لم نبذل جهداً قبلها في السلالم الاعتيادية، وفي الاختيار الصحيح لها..**

تقترب قليلاً بإرادتك في البداية..

ثم يأخذ بيدك..

يأخذ بإرادتك.. بيده.. لترتبط بمشيئته..

﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾

في مرحلة من مراحل العمل لله، وفي الدرب إليه.. **تصبح مشيئتك مرتبطة بمشيئته عز وجل.. (مشيئتك في أشياء محددة، هي ضمن طريق الهداية والاهتداء،**

وليس في المطلق)..

وهل يمكن إلا أن يذكرنا كل ذلك بالحديث القدسي الذي يرويه الرسول الكريم عن ربه: « **إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِذَا أَتَانِي مَشْيًا أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً** ».[١٤٨]

أن تبدأ أولاً بإرادتك.. بمشيئتك.. بجهدك..

ثم يقبل هو.. ويأخذ إرادتنا بمشيئته.. نحو المزيد مما يريد..

لـو!

الإيمان بأن مشيئتك تصبح مرتبطة بمشيئته عز وجل **هو في الحقيقة عامل قوة إضافية في حياتك.. قوة دافعة للمزيد من العمل والجهد..** قوة إيجابية يمكن أن تطبع حياتك وحياة من حولك وحياة مجتمعك..

لكن ذلك كله هو مجرد احتمال "كامن"..

وقد دفن هذا للأسف تحت ركام المفاهيم السائدة التي عكست مفهوم المشيئة، وحولته إلى جبر، وسلب للإرادة.. وتحكم عن بعد..

وحولتنا إلى مجرد "محلات" لأفعال خلقها الله فينا..

لكن هذا كله يجب أن ينتهي..

وإلا انتهينا نحن!..

عقيدة القضاء والقدر في الأحاديث النبوية

كل ما يمكن استنتاجه من عقيدة القدر عبر الأحاديث النبوية يندرج ضمن واحد من البنود التالية:

أولاً - العلم الإلهي المسبق بكل ما حدث ويحدث وسيحدث، وهو أمر لا جدال فيه، وهو لا يعني أبداً الجبر، ولا يقترب منه أصلاً.. أن تؤمن بأن ما «حدث» كان في علم الله قبل أن يحدث..

١٤٨. صحيح مسلم، ٧٠٠٦.

مثال ذلك: «إن الله عز وجل خلق آدم، ثم أخذ الخلق من ظهره، وقال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي، فقال قائل: يا رسول الله فعلى ماذا نعمل؟ قال: على مواقع القدر».[١٤٩]

«ذُكر العزل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: وما ذاكم؟ قالوا: الرجل تكون له المرأة ترضع، فيصيب منها، ويكره أن تحمل منه، والرجل تكون له الأمة، فيصيب منها، ويكره أن تحمل منه. فقال: فلا عليكم ألا تفعلوا ذاكم، فإنما هو القدر».[١٥٠]

«لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه».[١٥١]

عنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكًا يَقُولُ: يَا رَبِّ نُطْفَةٌ، يَا رَبِّ عَلَقَةٌ، يَا رَبِّ مُضْغَةٌ. فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهُ قَالَ: أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ شَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟ فَمَا الرِّزْقُ وَالأَجَلُ؟ فَيُكْتَبُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ».[١٥٢]

ثانياً - الإيمان بالقدر بوصفه ركناً من أركان الإيمان، وقد مر ذلك سابقاً (ويمكن أن يقرأ في سياق تعريف الإيمان الذي هو ليس مجرد التصديق، بل هو أن يؤدي هذا التصديق إلى العمل، فيكون مفهوماً مغايراً تماماً لما هو سائد، كما تم توضيحه).

ثالثاً - الإمساك عن الخوض في هذا الشأن، وهو أمر مفهوم تماماً؛ **لأن الأساس هو العمل وتهيئة الفكر لذلك، فعندما يستخدم الفكر والعقيدة للتشويش على العمل**، فالإمساك هو الحل، وأما عندما تتحول العقيدة لتكون رادعاً للعمل (كما هي الآن في شكلها الحالي) فالخوض **فيها ليس خوضاً في القدر، بل في الجبر الذي أطلق عليه بعضهم اسم القدر، ومن المهم هنا أن يتم توضيح الخطأ والخلل في تحويل القدر إلى «جبر»..**

هذا التوضيح يتم عبر قراءة كل الآيات، وليس عبر الاجتزاء الذي يؤدي إلى «قتل» المقصد (وهو ما حدث فعلاً عبر المجادلات والمناظرات التي أنتجت عقيدة القدر بشكلها الحالي).

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم على أصحابه وهم يتنازعون في القدر، هذا ينزع آية، وهذا ينزع آية، فكأنما سفي في جهة حب الرمان، فقال: «ألهذا

١٤٩ السلسلة الصحيحة، ٤٨.
١٥٠ السلسلة الصحيحة، ١٠٣٢.
١٥١ السلسلة الصحيحة، ٢٤٣٩.
١٥٢ صحيح البخاري، ٣١٨.

خلقتم أم بهذا أمرتم؟ لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، انظروا ما أمرتم به فاتبعوه، وما نهيتم عنه فاجتنبوه»[١٥٣].

وعن أبي ذر قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يتذاكرون شيئاً من القدر، فخرج مغضباً كأنما فقئ في وجهه حب الرمان فقال: «أبهذا أمرتم؟ أوما نُهيتم عن هذا؟ إنما هلكت الأمم قبلكم في هذا، إذا ذكر القدر فأمسكوا، وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا». [١٥٤]

رابعاً - أحاديث **الحث على العمل** والتي توضح أن كل ما نفعله هو جزء من ذلك التوازن الذي تسير به السنن الإلهية.. **حتى لو بدا أن ما نفعله يمثل تحدياً لما كان يبدو أنه من القدر..**

عن كعب بن مالك قال: يا رسول الله أرأيت دواء نتداوى به، ورقى نسترقي بها، وأشياء نفعلها هل ترد من قدر الله؟ قال: «يا كعب بل هي من قدر الله». [١٥٥]

أو كما في حديث الوباء في عهد عمر بن الخطاب قالَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ: أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللَّهِ؟ فَقَالَ عُمَرُ: لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ، **نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إلى قَدَرِ اللهِ**، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ: إِحْدَاهُمَا خَصِبَةٌ، وَالأخرى جَدْبَةٌ، أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ، وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ الله؟ قالَ: فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَكَانَ مُتَغَيِّباً فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ، فَقَالَ: إِنَّ عِنْدِي فِي هَذَا عِلْماً، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَاراً مِنْهُ». [١٥٦]

عَنْ عِمْرَانَ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فِيمَا يَعْمَلُ الْعَامِلُونَ؟ قَالَ: «كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ». [١٥٧]

فعندما تؤمن أنك خُلقت لتكون «الخليفة»، **وتؤمن أيضاً أنك ميسر لذلك.. فإن مجرد إيمانك بذلك سيقدم لك مزيداً من الطاقة للعمل، وبذل الجهد فيما خلقت لأجله.**

ماذا عن قول الرسول الكريم: «كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس»[١٥٨]؟

معناه: إن ذلك بقدر.. بعلم الله المسبق.. **بالتوازن الذي يجعل البعض في**

١٥٣ مسند أحمد، صححه شعيب الأرناؤوط، وحسنه الألباني.
١٥٤ الإبانة الكبرى، لابن بطة، ١٢٦٩.
١٥٥ صحيح ابن حبان، ٦٢٠٧.
١٥٦ صحيح البخاري، ٥٧٢٩.
١٥٧ سنن أبي داود، ٤٧٠٩، وصححه الألباني.
١٥٨ متفق عليه.

المقدمة، والبعض في المؤخرة حتماً..

سيكون هناك **عاجزون ومتخلفون وتافهون** في الركب..

وسيكون هناك قادة وعظماء وأشخاص يقومون بما يجب القيام به.. وسيكون هناك من يحاول أن لا يكون مع العاجزين، ويحاول اللحاق بالقادة.. أو على الأقل يتتبع خطواتهم..

سيكون هناك ذلك دوماً..

لكن أحداً من هؤلاء لا يمكنه أن يكون واثقاً بأن موقعه هذا هو نهائي وقاطع فيما هو مكتوب على الجبين.. لأنه ببساطة لا يعرف ما المكتوب على الجبين..

وعندما تقتنع سلفاً بأن قدرك هو العجز.. فإنك **تكون قد قزّمت كل ما هو عملاق فيك.. وحجمت كل ما هو «قادر» فيك..**

لقد اخترت أن تكون عاجزاً.. تحججت بالقدر، لكنك في الحقيقة لم تؤمن به، **لأن الإيمان به هو العمل أصلاً..**

ليس ذلك غريباً.. بعض الناس يختارون جهنم ويصلونها بطرق مختلفة..

الغريب هو أن تختار أمة ما ذلك.. وتستسلم له..

والأغرب من كل ذلك أن يحدث ذلك باسم الدين..

◆◆◆

ماذا عن «**لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه**»[١٥٩]؟

بالتأكيد. هناك ما يحدث لنا في هذا العالم، خارج نطاق إرادتنا، خارج نطاق إرادة أي شخص.. هناك كوارث طبيعية، أمراض، أوبئة، أحداث تاريخية هي بمثابة الكوارث العامة (وإن كانت خياراً شخصياً لطاغية أو فرعون ما).. كلها لا يمكن لنا أن ندفعها.. إنها «تصيبنا».. لا خيار لنا في هذا..

لكن ما **يمكن أن نختاره هو سلوكنا.. هو موقفنا تجاه ما يصيبنا..** يمكن أن نختار الاستسلام لهذه «المصائب» بصفتها قدراً لا رادَّ له..

ويمكن **أن نقف بوجهها كما يجدر بالخليفة أن يفعل، فيقف بوجه الإعصار،**

١٥٩ السلسلة الصحيحة ٢٤٣٩.

ويغيث المتضررين، ويخطط لتفادي كوارث مماثلة مستقبلية، ويبني السدود مثلاً لتحقيق ذلك واحتواء الخطر..

الأوبئة والأمراض هي من قدر الله أيضاً، لكنها في الوقت نفسه امتحان يثبت فيه الإنسان كفاءته وأهليته للخلافة.. كل ما يتخذه من أسباب لوقف هذه الأوبئة أو لعلاجها أو لاقتلاعها من جذورها تندرج ضمن «الامتحان» الذي عليه أن يثبت نفسه من خلاله..

يمكن له أن يستسلم لتلك الكوارث باعتبارها قدراً منه عز وجل، حسب الفهم السلبي الخاطئ للقدر..

ولكن يمكن له أيضاً أن يقف بوجه تلك الكوارث، لا رفضاً للقدر، بل إيماناً منه أنه عز وجل قدرها عليه لتكون امتحاناً يحدد فيه مستحقاته «الأخروية».

المكتوب على الجبين، أم المكتوب في القرآن الكريم؟

أغلب الأحاديث النبوية الصحيحة التي تمس موضوع القضاء والقدر يمكن أن تجد لها مكاناً في واحد من البنود السابقة، وكلها لا تتعارض - بل تعضد - المفهوم الإيجابي للقدر وللمشيئة الإلهية والإنسانية كما قدمت في القرآن الكريم..

لكن ما تراكم لاحقاً من مفاهيم وُلِدَت وتشكلت في تقاطعات السياسة مع العقيدة، جعلنا نقرأ كل شيء بهذا الخصوص بأثر رجعي (رجعي جداً).. **لقد قرأنا نصوص ديننا عبر ثقب صغير في حائط بُنِيَ على أسس خاطئة..** فكان لا بد.. (لا بد) لأن تكون قراءتنا بعيدة جداً عما يجب أن تكون.. كان لا بد من أن تحمل قراءتنا عبء تلك المرحلة التي تراكمت فيها الأخطاء.. ومن ثم ساهمت قراءتنا في جعلنا أكثر سلبية.. وأكثر تهاوناً.. وأكثر استسلاماً.. فصرنا جزءاً من عوامل التدهور بالتدريج..

إلى أن وصلنا إلى ما وصلنا إليه.. مما يبدو أنه لا درك أدنى منه..

على الأقل بين الأمم!

◆◆◆

يقال دوما عبر أمثالنا الشعبية التي تعبر عن «عقلنا الجمعي»: إن المكتوب على

الجبين لا بد أن تراه العين..

قيل ذلك خصوصاً عندما يكون الواقع سيئاً، محبطاً، ويحتاج إلى «أداة» للتعايش والتأقلم معه.. فيكون الواقع السيئ «مكتوباً» على الجبين، ويكون ذلك وسيلة للرضا به على الرغم من مرارته..

لكن من يدري حقاً ما المكتوب على الجبين (أي علم الله المسبق)؟!

ما أدرانا أن لا يكون المكتوب على الجبين هو تغيير ذلك الواقع السيئ، وفعل كل ما يجب فعله لجعل العالم أفضل مما هو عليه؟!

لا أحد يدري حتما..

لكن هذا ما سيحدث **لو أننا تعاملنا مع كل فعل أمر في القرآن على أنه مما يجب فعله، بغض النظر عن ذلك المكتوب على الجبين الذي لا يمكن قراءته حقاً..**

نعم. **«المكتوب على الجبين» كتب بلغة لا نتقن قراءتها.. فلا معنى في التعذر والاحتجاج بها..**

لكن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين.

◆◆◆

يمكن لك أن تتخذ من الفهم الخاطئ للقدر ولمشيئتك التابعة لمشيئة الله حجة لكي لا تفعل شيئاً في حياتك.. أن تردد ما ردده كثيرون، بل ما رددته الجموع من الرضا بالقسمة والمكتوب.. يمكن للقدر أن يكون وسيلة للتعايش مع ما لا يجب التعايش معه..

ويمكن لك على العكس من ذلك.. أن تجعل القدر وسيلة لكي ترتقي فيها عن واقعك نحو واقع أفضل.. يمكن لك عندما تؤمن أن مشيئتك جزء من مشيئته تعالى أن تكون أقوى.. وأكثر عدالة.. وأكثر تماسكاً (عندما تسيء استخدام قوتك نحو ظلم ما، عليك أن تعلم بأن مشيئتك قد خرجت من التبعية له..).

يستطيع إيمانك بالقدر عندما يكون صحيحاً ومبنياً على ما سبق أن يساعدك ليكون قوة إضافية في درب تحقيق الهدف من حياتك الصعب الوعر.. والموحش أحياناً..

ولكنه أيضاً يمكن أن يكون عندما لا يكون صحيحاً وسيلة لتعويدك على كل ما يجب أن تثور عليه وتغيره..

نظرة سريعة لواقعنا ستخبرنا أي خيار كان سائداً.

◆◆◆

لن نخرج من دركنا التاريخي ما لم نحل هذه المشكلة.. مشكلتنا مع الفهم السلبي لعقيدة القدر..

تجاهل الأمر ليس خياراً أصلاً.. لأن الفهم السلبي – الأكثر جاذبية حسب نظرية الانحياز السلبي - سيكون كامناً متربصاً، وسيظهر عند أية أزمة، عند أية محنة أو تحدٍّ تواجهها الأمة.. ليروج للاستسلام.. للرضا بما يجب تغييره.. وسيكون ذلك أيسر من التصدي والتغيير.

إن لم نواجه ذلك ونستأصله أو نجتثه - أو أية لفظة أخرى تعبر عن إزالة ذلك من جذوره - إن لم نواجه هذه المهمة على صعوبتها.. وعلى التحديات والألغام التي تحيطها، فسيظهر ذلك في كل مواجهة حاسمة، في كل تحدٍّ تاريخي.. ليعطل قدرة المواجهة وإرادتها.

◆◆◆

القدر يمكن أن يكون مشروباً للطاقة..

أو حقنة مخدرة..

والخيار لنا..

الخيار لك.

◆◆◆

ثالثاً – ولي الأمر: عن أكاذيب صدقناها..

لا يمكن لنا أن ننهض نحو ما يجب أن نفعله بوصفنا أمة ما لم نحل مشكلتنا مع الاستبداد، ومن جذورها، وبحسم.

شخصياً أؤمن بأن بذور الاستبداد التي تركت في مرحلة مبكرة نسبياً من تاريخنا الإسلامي (بعد انتهاء فترة الخلافة الراشدة[١٦٠]) قد تركت معها **لزاماً بذوراً أخرى لمفاهيم سلبية، ونمط تفكير أدى بدوره إلى مزيد من الأخطاء التي تعاضدت**

١٦٠ حديث «الخلافة ثلاثون سنة، ثم تكون بعد ذلك ملكاً». قال الألباني في «السلسلة الصحيحة»:١ / ٧٤٢: أخرجه أبو داود (٤٦٤٦،٤٦٤٧)، والترمذي (٣٥/٢)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٣١٣/٤)، وابن حبان في «صحيحه» (١٥٣٤، ١٥٣٥- موارد)، وابن أبي عاصم في «السنة» (ق ١١٤/٢)، والحاكم (٧١/٣، ١٤٥)، وأحمد في «المسند» (٢٢٠/٥، ٢٢١)، والروياني في «مسنده» (١/١٣٦/٢٥)، وأبو يعلى الموصلي في «المفاريد» (٢/١٥/٣)، وأبو حفص الصيرفي في «حديثه» (ق١/٢٦١)، وخيثمة بن سليمان في «فضائل الصحابة» (١٠٨/٣-١٠٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١/٨/١)، وأبو نعيم في «فضائل الصحابة» (٢/٢٦١/٢)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (ج٢) من طرق عن سعيد بن جمهان عن سفينة أبي عبد الرحمن مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فذكره مرفوعاً.

مع الاستبداد - المتزايد مع الوقت - على حرف مسار الأمة بفكرها وعقيدتها.

بعبارة أخرى: لم ينبت الاستبداد منفرداً، بل نبتت معه حزمة كاملة من المفاهيم التي جعلته مقبولاً عند أمة كانت قد ودعت للتو خلفاء راشدين كانوا أفضل بكل المقاييس من هؤلاء المستبدين، وعلى الرغم من ذلك كانوا يقولون: "قوموني".. و"وليت عليكم ولست بخيركم"..

ما كان يمكن لهذا الاستبداد أن ينشأ منفرداً، وبمعزل عن الفهم السلبي للقدر، والنظرة التحقيرية للدنيا..

حزمة مفاهيم الاستبداد تضمنت مفهوماً سلبياً للقدر، **بحيث يكون الرضا عن الحاكم المستبد جزءاً من الرضا بقدر الله..** وتضمنت كذلك الإيمان **برؤية تحقيرية للدنيا تسهِّل أن يستولي الحاكم المستبد على الدنيا - الحقيرة، المزبلة..** بينما يستسهل الناس أن يزهدوا فيها..

الاستبداد لم يأتِ منفرداً قط.. بل جاء ومعه مفاهيم أخرى..

فهم الكيفية التي نشأ فيها الاستبداد في تاريخنا يساعدنا حتماً على فهم كيفية الخروج منه..

الخروج منه حقاً، ومن حزمة المفاهيم التي "جاءت" معه..

أبداً ليس "إسقاط نظام".. والإبقاء على المنظومة التي أنتجته أو المجيء باستبداد من نوع آخر، ديني مثلاً..

◆◆◆

عندما ينتقد بعض الإسلاميين أنظمة الحكم الاستبدادية التي يرزحون تحت ظلمها واستبدادها، فإنهم يتعاملون معها كما لو أن الاستبداد قد جاء من كوكب آخر.. كما لو أن عمر بن الخطاب كان القاعدة في تاريخنا الإسلامي.. كما لو أن منظومتهم الفكرية التي يستندون إليها فقهاً وفكراً وعقيدة خالية من الاستبداد، كما لو أنها ترجع إلى عهد عمر، وقد عرضت على عمر، ووقع عليها بالموافقة..

الحقيقة هي أن العدل العمري الذي كان القاعدة الأساسية في عهد دولة الخلافة، مع وجود تفاوتات في التطبيق في عهدي عثمان وعلي رضي الله عنهما، هذا العدل العمري وما يماثله كان يمثل **الحالة المثالية القصوى التي لم تتكرر في أي عهد آخر، والتي تثبت لنا دوماً أنه يمكن تطبيقها لو اتخذت مثالاً ونموذجاً.**

لا يعني هذا أن تاريخنا قد فارق إيجابياته بمجرد أن ترك الخلافة الراشدة، فهو

يبقى على الرغم من كل شيء **الأنصع بين تاريخ الأمم عندما يتعلق بالعلاقة مع الشعوب الأخرى التي دخلت تحت لواء مؤسسة الخلافة أو سيطرتها**، على سبيل المثال كل الإمبراطوريات عبر التاريخ - كلها بلا استثناء - **لم تتوسع إلا على حساب ارتكاب مجازر يذهب ضحيتها الآلاف** من الشعوب المقهورة.

الاستثناء الوحيد هو مع المسلمين الذين التزموا إلى حد كبير بتعاليم دينهم بخصوص التعامل مع المدنيين في أثناء الحروب، وهي تعاليم متطورة جداً بكل المقاييس، لم يدخل المسلمون قائمة المذابح الكبرى إلا لاحقاً وبعد فترة طويلة من تكون دولتهم، بل عندما بدأت بالتفكك والانهيار، وغالباً كانت ردود أفعال على مجازر الصليبيين (هذا لا يسوغ الخطأ، ولكن يفسر وضعه في سياقه التاريخي).

مفارقتنا لقيم العدل التي أرساها ديننا لم تكن مع الشعوب «المقهورة»، **بل كانت مع أنفسنا، مع الصراع على السلطة، ومع علاقة الحاكم بالمحكوم.**

ادعاؤنا أن الأمور كانت على ما يرام، وأن الاستبداد لم يأتِ إلا مع حكومات عميلة أو مدعومة من قبل الاستعمار هو ادعاء مضحك.. نعم لقد دعم «الاستعمار» حكومات مستبدة، لكن **القابلية للاستبداد الموجودة في العقل الجمعي أقدم وأعرق حتى من نشوء الاستعمار نفسه.**

لدينا إرث ضخم من تجارب الاستبداد، **بعضها يُمجد ويُغض النظر عن استبداده فقط لتحقيقه انتصارات عسكرية**، ولدينا **مكتبة ضخمة تكرِّس الاستبداد وتؤصل له**، بعض الأسماء التي قدمت كثيراً لهذه المكتبة لا **تزال فاعلة ومكرَّسة**، ويؤخذ بكلامها على أنه من المسلَّمات التي لا يمكن المساس بها.. إنها أسماء امتلكت الحصانة والقداسة، وصار لقوتها قوة «النص الديني» نفسه بالنسبة للبعض، أسماء يمكن أن تسبق بألقاب مثل شيخ الإسلام أو حجة الإسلام.. بكل ما يعنيه ذلك من رمزية مهيمنة.

◆◆◆

قد يقول قائل: يجب ألا ننقد هؤلاء لأنهم قدموا أفضل ما لديهم وفق مقاييس زمنهم، وحسب المفاهيم السائدة آنذاك، ولا يجب أن نحاكمهم وفق ما نريده اليوم؟

هذا صحيح حتماً.

لكن المشكلة لا يمكن حلها ببساطة على هذا النحو، لا يمكن فصل **«تأصيلهم» للاستبداد أو دفاعهم عنه عن بقية آرائهم الفقهية أو العقائدية أو حتى الوعظية**.. إنها **حزمة واحدة نتعامل معها**، ولا يمكن أن ننتقي ما نغض النظر عنه، ونتعامل مع ما نريده، لأن ما نغض النظر عنه سيكون **لغماً جاهزاً للانفجار،**

ويمتلك كل مؤهلات «الانفجار»، ما دمنا لم نحل المشكلة من جذرها، ومارسنا مجرد انتقاءات وغض نظر موضعي.

الموضوع أعمق من أن يُحل **بغض النظر عن الإرث الذي يؤصل للاستبداد**، أو أن نتعامل معه كما يتعامل بعض الدعاة عندما يتحدثون عن علاقة الإسلام بالحرية على طريقة «البروشورات» السياحية اللطيفة التي تقدم ما يروق للسياح فقط، وتخفي كل ما يؤثر على إعجابهم..

نعم، هناك عبر تاريخنا (أحمد بن حنبل، العز بن عبد السلام، ابن تيمية... إلخ) وحتى حاضرنا اليوم، **مواقف مشرفة لعلماء رفضوا الاستبداد، بل وتصدوا له**.. لكن هذه المواقف كانت في الغالب «شخصية» دون أن تتحول لتكون تأصيلاً علمياً فقهياً يجتث جذور الاستبداد من الفكر الإسلامي، بل إن **بعض هؤلاء ممن وقفوا ضد الاستبداد كانوا ينظّرون لطاعة ولي الأمر والاستبداد على الرغم من مواقفهم الشخصية التي لم تكن مداهنة أو موالية للاستبداد..**

آن لنا أن نتخذ موقفاً حاسماً من كل ذلك الإرث.

آن لنا أن نواجه كل ذلك.. بلا تردد.

وقائع شرعنة الاستبداد

(أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه، وأن طاعته خير من الخروج عليه، لما في ذلك من حقن للدماء وتسكين الدهماء، ولم يستثنوا من ذلك إلا إذا وقع من السلطان **الكفر الصريح** فلا تجوز طاعته، بل تجب مجاهدته لمن قدر عليها). [١٦١]

(**ولا يحل قتال السلطان، ولا الخروج عليه لأحد من الناس**، فمن فعل ذلك فهو مبتدع على غير السنة). [١٦٢]

(واعلم أن **جور السلطان لا ينقض فريضة من فرائض الله التي** افترضها على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم، جوره على نفسه، وتطوعك، وبرّك معه تام، إن شاء الله تعالى، يعني الجماعة والجمعة والجهاد معهم، وكلّ شيء من الطاعات، فشاركهم فيه، فلك نيتك له، وإذا رأيت الرجل يدعو على السلطان فاعلم أنه صاحب هوى،

١٦١ فتح الباري شرح صحيح البخاري، ٧/١٣، ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ. نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، ٣٦١/٧، إدارة الطباعة المنيرية.

١٦٢ أصول السنة، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، ٤٦/١، دار المنار، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ. اعتقاد أهل السنة شرح أصحاب الحديث، مصدر سابق، ١٦١/١

وإذا سمعت الرجل يدعو للسلطان بالصلاح فاعلم أنه صاحب سنة).[١٦٣]

(قال سفيان: يا شعيب لا ينفعك ما كتبت حتى **ترى الصلاة خلف كلّ برّ وفاجر**، والجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، والصبر تحت لواء السلطان، **جار أم عدل**).[١٦٤]

(ومن قال: الصلاة خلف كل برّ وفاجر، والجهاد مع كلّ خليفة، ولم يرَ الخروج على السلطان بالسيف، ودعا لهم بالصلاح، فقد خرج من قول الخوارج).[١٦٥]

(فصل: إذا أمره السلطان بقتل رجل **ظلماً** فقتله المأمور، إن ظنّ أنه يقتله بحق فلا شيء على المأمور، لأن الظاهر أنه لا يأمر إلا بحق، **ولأن طاعة السلطان واجبة فيما لا يعلم أنه معصية**، واستحب الشافعي رحمه الله أن يكفّر لمباشرته القتل).[١٦٦]

(ونعتقد المسح على الخفين ثلاثاً للمسافر، ويوماً وليلة للمقيم، ونعتقد الصبر على السلطان من قريش ما كان من جور أو عدل، ما أقام الصلاة والجمع والأعياد).[١٦٧]

(ونرى الجهاد والجماعة ماضياً إلى يوم القيامة، والسمع والطاعة لولاة الأمر من المسلمين واجباً، في طاعة الله تعالى دون معصية، **لا يجوز الخروج عليهم ولا المفارقة لهم**).[١٦٨]

(مطلب تعظيم أولي الأمر واجب قوله، وذلك أن تقديم الولاة واجب لأن في التقديم عليهم ازدراء بهم، وتعظيم أولي الأمر واجب، كذا في الفتح، وصرح في الإيضاح وغيره بوجوب تقديم السلطان، وعلله في المنبع، بأنه نائب النبي صلى الله عليه وسلم الذي هو أولى من المؤمنين بأنفسهم، فيكون هو أيضاً كذلك).[١٦٩]

(والقول الثالث هو الفرق بين الإمام الأعظم وبين غيره، لأن ذلك لا يمكن عزله إذا فسق إلا بقتال وفتنة، ومتى كان السعي في عزله (الحاكم) مفسدة أعظم من مفسدة بقائه، لم يجز الإتيان بأعظم الفسادين لدفع أدناهما، وكذلك الإمام الأعظم، ولهذا كان المشهور من مذهب أهل السنة أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف، وإن كان فيهم ظلم، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة المستفيضة عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم دون قتال ولا فتنة، فلا يدفع أعظم الفسادين بالتزام

---

١٦٣ شرح السنة، للبربهاري، الحسن بن علي بن خلف البربهاري أبو محمد، ٥١/١، دار ابن القيم - الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ تحقيق: د. محمد سعيد سالم القحطاني.

١٦٤ اعتقاد أهل السنة شرح أصحاب الحديث، مصدر سابق، ١٥٤/١.

١٦٥ شرح السنة، مصدر سابق، ٥٧/١.

١٦٦ روضة الطالبين وعمدة المفتين، النووي، ١٣٩/٩، مصدر الكتاب: موقع الوراق: http://www.alwarraq.com

١٦٧ مجموع الفتاوى - الفتوى الحموية الكبرى، ابن تيمية، ٧٨/٥، مصدر الكتاب: موقع الإسلام: http://www.al-islam.com

١٦٨ اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن قيم الجوزية، ١٠٥/١، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

١٦٩ حاشية ابن عابدين (رد المحتار على الدر المختار)، ٢٢٠/٢، دار الكتب العلمية.

أدناهما، ولعله يكاد لا يعرف طائفة خرجت على ذي سلطان إلا وكان في **خروجها من الفساد ما هو أعظم من الفساد الذي أزالته،** والله تعالى لم يأمر بقتال كلّ ظالم وكلّ باغ كيفما كان، ولا أمر بقتال الباغين ابتداءً، بل قال: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأخرى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ [الحجرات: ٩] فلم يأمر بقتال الباغية ابتداءً، فكيف يأمر بقتال ولاة الأمر ابتداءً). [١٧٠]

(العلة الثانية أن **طاعة السلطان واجبة على الجملة،** كيلا تؤدي مخالفته إلى إثارة الفتنة، ولذلك نقول: **لا ينعزل بالفسق، ولو كان الاستبدال به يثير الفتنة فلا يستبدل).** [١٧١]

قال أبو جعفر الطحاوي: (ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمرنا وإن جاروا، ولا ندعو عليهم، ولا ننزع يداً من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله، ما لم يأمرونا بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والعافية).

قال ابن رجب الحنبلي: (وأما النصيحة لأئمة المسلمين فحب صلاحهم ورشدهم وعدلهم ووجوب إعزازهم في طاعة الله، ومعاونتهم على الحق، وتذكيرهم به، وتنبيههم في رفق ولطف ولين، ومجانبة الوثوق عليهم، والدعاء لهم بالتوفيق، وحث الأخيار على ذلك). [١٧٢]

وقال الإمام ابن تيمية: (المشهور من مذهب أهل السنة أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف وإن كان فيهم ظلم). [١٧٣]

قال الإمام الصنعاني: (من خرج على أمام اجتمعت عليه كلمة المسلمين فإنه قد استحق القتل لإدخاله الضرر على عباده وظاهره سواء كان عادلاً أو جائراً). [١٧٤]

قال الإمام النووي: (لا يجوز الخروج على الخلفاء بمجرد الظلم أو الفسق ما لم يغيروا شيئاً من قواعد الإسلام) [١٧٥].

قال الإمام البر بهاري: (وإذا رأيت الرجل يدعو على السلطان، فاعلم أنه صاحب بدعة وهوى، وإذا سمعت الرجل يدعو للسلطان بالصلاح فاعلم أنه صاحب سنة). [١٧٦]

---

١٧٠ منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، ٣٩٠/٣، ٣٩١، المحقق : د. محمد رشاد سالم.

١٧١ الوسيط، حجة الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، ٢٦٤/٦، دار السلام.

١٧٢ جامع العلوم والحكم، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، ٢٢٢/١، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ

١٧٣ منهاج السنة النبوية، ٣٩٠/٣، مصدر سابق.

١٧٤ منحة الغفار حاشية ضوء النهار للصنعاني، ٢٤٨٧/٤-٢٤٨٨، الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ دار الجيل الجديد، صنعاء.

١٧٥ المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، ١٩٥/١٢، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ

١٧٦ شرح السنة للبر بهاري، ص١٠٧، مصدر سابق.

قال الفضيل بن عياض: (جور ستين سنة خير من هرج ساعة، فلا يتمنى زوال السلطان إلا جاهل مغرور، أو فاسق يتمنى كل محذور، فحقيق على كل رعية أن ترغب إلى الله تعالى في إصلاح السلطان، وأن تبذل له نصحها، وتخصه بصالح دعائها، فإن في صلاحه صلاح العباد والبلاد، وفي فساده فساد العباد والبلاد، وكان العلماء يقولون: إن استقامت لكم أمور السلطان فأكثروا حمد الله تعالى واشكروه، وإن جاءكم منه ما تكرهون وجهوه إلى ما تستوجبونه منه بذنوبكم وتستحقونه بآثامكم، فأقيموا عذر السلطان بانتشار الأمور عليه، وكثرة ما يكابده من ضبط جوانب المملكة، واستئلاف الأعداء ورضاء الأولياء، وقلة الناصح وكثرة المدلس والفاضح). [١٧٧]

◆◆◆

هذه النصوص إذن مدعمة بأسماء قائليها، ومعظمهم ممن تركوا أثراً كبيراً في الفقه والعلم، وداعمة في الوقت نفسه بوضوح للاستبداد، **ولعدم الخروج على «الحاكم» حتى لو كان ظالماً أو فاسقاً..**

لقد ساهم هؤلاء في **تشكيل العقل الجمعي «المسلم»** بصيغته الراهنة.. لا جدال في ذلك، لا ننكر أيضاً أن بعضهم كان له مواقف إيجابية وآراء إيجابية..

لكن آلية الانحياز السلبي لم تُبقِ في العقل الجمعي من هذه الإيجابية شيئاً يذكر..

وأبقت على مثل هذه الآراء.. والفتاوى.

فلنتنبه هنا إلى ما يلي:

أولاً - إن الطاعة للحكام، والاستسلام شبه المطلق لما يريدون، وعدم «الخروج» عليهم مطلقاً، صار **أكثر من أن يكون مجرد «موقف» سياسي تحكمه متطلبات الواقع المتغيرة والمعطيات المختلفة، لقد أصبح «عقيدة».**

ثانياً - ليس كل هؤلاء كانوا بالضرورة من «علماء السلطة» المقربين للسلطان أو التابعين لحاشيته.. بالتأكيد كان هناك منهم، لكن كان هناك أيضاً شخصيات وقفت موقفاً شخصياً مختلفاً، **لكنها لم تخرج في إطارها الفكري عن موقف الطاعة للسلطان على الرغم من كل شيء.**

ثالثاً - الحديث من منطق «الخروج قد يؤدي إلى مفسدة أعظم» ينظر إلى الأمور بزاوية فردية ضيقة جداً، تخص مرحلة زمنية بعينها، وتغفل النظر عن **أن المفسدة الأكبر قد تكون هي في بقاء الحاكم الفاسد دون أن يخرج عليه أحد**، حيث

١٧٧ سراج الملوك، الطرطوشي، ٩٥/١، موقع الوراق: http://www.alwarraq.com

سيتمادى في فساده، وسينتج مفسدين أكبر من نسله وبطانته.

رابعاً - إن الحديث عن الدعاء للسلطان المتغلب، **يشير إلى أن الأمور وصلت إلى نقطة اللا اكتراث عند الفقهاء**، لم يعد الأمر أي سلطان أصلح من آخر، بل صار **الأمر هو تغلبه على الآخر، السلطان المتغلب، هو من يستحق الدعاء، لقد فاز في الصراع، وله أيضاً أن يفوز بدعاء المنابر.**

خامساً - هذه النصوص تمنح الأمان لأي حاكم **ما دام لم يُظهر «الكفر البواح»..** (والذي يعني أنه يمكنه أن يفعل كل ما يريد من الكفر - غير البواح - ويبقى مستحقاً للطاعة حسب ما سبق).

هل هناك أسهل من أن تتجنب إظهار الكفر فقط لكي تحصل على «دعاء المنابر» وحقنة التخدير للجماهير التي تجعلهم يستسلمون لك؟؟

افعل ما تشاء يا مولاي، اظلم، وافجر، وانهب أموال رعاياك سيدي.

كل ما يجب أن تفعله سيدي لكي تحصل على ضمان الطاعة هو أن تستمر بإقامة الصلاة، أي أن تبقى المساجد مفتوحة لصلوات خمس حتى لو كان كل من يدخلها مراقب، وله ملف في الأمن، وأن لا تعلن الكفر شخصياً على لسانك، أو عبر قانون من قوانينك التي هي مجرد حبر على ورق، ولا بأس إن قالها زبانيتك بشكل روتيني، أو قالتها كل أفعالك، وكل قوانينك دون أن تقولها علناً..

كل ما نريده منك سيدي، **كي نبقى في أقفاصنا ولا "نخرج"عليك هو ألا يكون كفرك بواحاً.. ليكن خفياً فقط.. وافعل بعدها ما تشاء..**

صفقة مجزية، أكثر من مجزية، ولقد طبقها الحكام بحذافيرها، إلا في حالات نادرة جداً، كان فيها الكفر بواحاً.. (ليس في عالمنا العربي).

الحكام يفعلون ما يريدون، ولكن **المساجد مفتوحة، الصلاة تقام.**

الكفر نادراً ما يكون بواحاً.. وإن كان فلا يكون على لسان رأس السلطة.. أو يكون على نحو يمكن «تحويره»..

العقل الجمعي تم ترويضه على ذلك.

تم تشكيله على ذلك.. الخروج «قد» يؤدي إلى مفسدة أكبر..

فارض بمفسدتك الحالية..

تستطيع أن تصلي إن شئت، لتخفف من شعورك بالمعاناة تجاه كل ذلك.. أن تستمع لخطبة الجمعة وهي تزيدك بعداً عن عالمك..

صفقة مجزية فعلاً.

◆◆◆

قرآنياً، كل هذا الإرث المؤيد للاستبداد يجد مروجوه و مسوغاته بآية واحدة فقط..

آية واحدة فقط عوملت باجتزاء من سياقها، بل وحتى من معناها المباشر، **لتجير لصالح تأييد الاستبداد بالطريقة الفجة التي رأيناها..**

آية واحدة فقط مقصدها المباشر حتى لو كانت معزولة عن سياقها لا يمكن أن يقود إلى ما قاد إليه، إلا بتعسف جائر، ونية مسبقة للوصول إلى هذا "الحكم المسبق"..

نعرفها جميعاً، استخدمت دوماً في **خدمة الترويج للاستبداد..**

على الرغم من أنها في الحقيقة آية **تقف بحزم ضد الاستبداد.. ضد ما استخدمت للترويج له.**

انزع رأسك القديم، وتعرف على "ولي الأمر" في القرآن

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

تعرضنا لغسيل دماغ فيما يتعلق بهذه الآية..

كلما مرت أمام أبصارنا أو أسماعنا تداعت إلى أذهاننا حزمة من المفاهيم التي حُشرت في رؤوسنا مع الآية، عن ولي الأمر، عن طاعته، عن كون ذلك جزءاً من إيماننا، ومن طاعتنا لله ولرسوله..

لكن الحقيقة **أن الآية إنما تؤسس لشيء آخر تماماً**، لكن لا يمكن لنا أن نكتشف ذلك إلا عندما **نخلع «رأسنا القديم» الذي تأسس عبر عصور من التدهور والانحطاط..**

علينا أن ننزع **مفاهيمنا القديمة لنجعل القرآن يؤسس لمفاهيمنا..** لا العكس كما هو سائد اليوم.

◆◆◆

أول ما يلفت النظر عندما تقرأ الآية بعيداً عن أي مفهوم مسبق، هو أنها لا تتحدث **عن «ولي الأمر» الذي «غسلوا» أدمغتنا به..** لا تتحدث عن ذلك «**الفرد**» الذي تعودنا أن نعتبر أن كلمة «ولي الأمر» ترجع له حصراً.. لا تتحدث عن «القائد الضرورة» أو «الملك المفدى».. أو أي صفة تعودنا أن نلصقها بالحاكم المطلق بأمر نفسه..

الآية لا تتحدث عن "ولي الأمر".. إنها تتحدث عن "**أولي** الأمر".. والفرق كبير، خاصة عندما نفترض أن الآية تتحدث عن الحاكم.. لا يمكن أن يكون المقصود بأولي الأمر الحاكم الفرد المستبد وحاشيته وبطانته، **لأن أولي الأمر تشير إلى مجموعة ممن يتولون "أمراً ما" بطريقة متساوية ومتشاركة..** وهو ما نعلم أنه لا يحدث قط مع الحاكم بأمر نفسه وحاشيته وبطانته، فمستشاروه غالباً ما يكونون مجرد منافقين أو متزلّفين أو مهرجين أو "وعاظ سلاطين".. وليس لهم في حقيقة الأمر أي شيء من الأمر.

الآية لا تتحدث إذن **عن ولي أمر بالمفرد، بل بصيغة الجمع**، كما لو أن الحاكم الفرد - ولي الأمر - لا يمكن أن يكون له وجود حقيقي في مفاهيم تبنى وتتشكل عبر القرآن الكريم.. بل سيكون هناك مجموعة تتولى الأمر بطريقة تجعلها مسؤولة عن ذلك بالتساوي..

مفهوم «ولي الأمر» كله لا وجود له إذن قرآنياً، كل ما غسلت به أدمغتنا عن **الطاعة لولي الأمر كان في الحقيقة يؤسس لمفهوم آخر معاكس، وفي اتجاه مناقض تماماً**، المفهوم الذي يبنى على أن يكون هناك «أولو أمر»، وليس ولي أمر واحد **يؤسس ضمناً لمفاهيم مختلفة، وفي سياقات لا يمكن أن تنسجم مع مفهوم ولي الأمر الواحد الفرد الذي لم تنجب الأمة مثله..** مجرد أن نؤمن أن المسؤولية «جماعية» فإن هذا المستبد الذي تسلط على الصورة الذهنية التي في رؤوسنا عن الحكم سيتلاشى.. لن يكون له وجود «قرآنياً».. وليس ذلك لأن المناخ السائد اليوم هو ضد الاستبداد بفعل استيراد كل شيء من الغرب.. **بل لأنه - قرآنياً - لا مفهوم لولي الأمر«الفرد»، وبالتالي لا شيء هناك عن طاعته.**

◆◆◆

لكن هذا ليس كل شيء.

فالآية التي استُخدمت لتكريس الطاعة لولي الأمر تتضمن ما يمكن أن يكرس ويضمن حق التنازع مع «أولي الأمر»..

الآية تؤسس لحق التنازع، وتحدد مرجعية واضحة عند حدوث هذا التنازع..

أطيعوهم نعم، ولكن تنازعوا معهم أيضاً..

هذه الآية عوملت دوماً لا باجتزاء عن سياق الآيات المحيطة بها، بل **حتى ببترها عن «تتمة الآية نفسها»**.. دوماً يقال: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾.. ثم يسكتون..

لكن الآية الكريمة تكمل.. ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.

التنازع مع «أولي الأمر» إذن حق مشروع.

كانوا يستخدمون الآية لتكريس الطاعة لهم (عفواً، له غالباً.. لولي الأمر الفرد الذي لا وجود له قرآنياً)..

لكن الآية تقرر **حق التنازع والاختلاف معهم..**

وتحدد مرجعية واضحة لحل هذا التنازع..

الرجوع إلى الله (عبر كتابه الخاتم)، وإلى الرسول صلى الله عليه وسلم (عبر سنته).

أي أن إيمان أولي الأمر بهذه المرجعية، والعودة لها عند التنازع، بل عند توليهم للأمر.. هو من نافلة القول..

دون هذا الإيمان بهذه المرجعية.. كمرجعية للتنازع والاختلاف، وللأمر، لن يكون هؤلاء «أولي أمر» أصلاً..

أي أن هؤلاء لن ينطبق عليهم هذا الوصف من الأساس..

وصلت الفكرة؟

◆◆◆

المشكلة التي قد تواجهنا هنا، بل التي ستواجهنا حتماً في الحقيقة، **أن البعض سيحيلنا إلى بعض النصوص لتكريس الطاعة لولي الأمر** (نصوص محسوبة على الحديث الشريف حتماً، فلا سبيل إلى ذلك في القرآن).

بعبارة أخرى: إن البعض سيستخدم الآية التي تحيلنا إلى القرآن والسنة عند الخلاف مع «أولي الأمر» ليجد نصوصاً تمنع الخلاف معهم من الأساس..

هذه الإحالة باطلة أصلاً.

الرجوع إلى القرآن والسنة يجب أن يكون **«مرجعاً» لما نختلف فيه معهم.**

لكن مبدأ الخلاف والتنازع مكفول بهذه الآية.

ولا يمكن لأي نص آخر ما دام كان من رتبة أقل ثبوتاً أن يلغي هذا المبدأ.

محيط الآية

وهذا ليس كل شيء مجدداً.

فسياق الآية الأعم يقول لنا عن مقصدها شيئاً مختلفاً جداً عن دعوى الاستبداد التي استخدمت لها..

الآية التي تسبقها تماماً، آية (٥٨) من سورة النساء.. تقول لنا ما يلي: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

أي أن الحديث عن الطاعة لله وللرسول، ومن ثم لأولي الأمر جاء في سياق: **أداء الأمانات إلى أهلها.. والحكم بالعدل..**

والعدل في لسان العرب هو ضد الجور.. **أي أن السياق الذي وضعت فيه آية «أولي الأمر» كان أصلاً ضد الجور والاستبداد..**

فكيف يمكن أن يستخدم ذلك لتكريس الاستبداد؟

◆◆◆

والحديث عن أداء الأمانة هنا له وجه مزدوج..

فمن باب أداء الأمانة إلى أهلها يجب أن يكون **«أولو الأمر» هم ممن يستحقون أن يكونوا كذلك..**

ومن باب أداء الأمانة، على هؤلاء أن يكونوا على **قدر الأمانة والمسؤولية، عندما يتولونها..**

في الوجهين.. سيكون ذلك ضد الاستبداد..

ضد ما تستخدم الآية له..

"منكم"

من المهم هنا أن نتنبه إلى أن أولي الأمر ذُكروا بصفتهم «**منكم**».. ﴿**وأولي الأمر منكم**﴾..

أي أنهم لم يكونوا أولي أمر بالمطلق، لم يهبطوا من كوكب آخر، ولم يتم استيرادهم من قوم آخرين.. إنهم «منكم».

في المرة الأخرى «الوحيدة» التي تم ذكر فيها لفظ «أولي الأمر»، تكرر ارتباطهم (أي ارتباط أولي الأمر) بكونهم «منكم» (منهم هذه المرة في سياق هذه الآية)..

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

أي أن كونهم **ينتمون إلى هؤلاء الذين «سيطيعونهم» أمر أساسي في كونهم «أولي الأمر»..** لا يمكن أن يكون الانتماء هنا شكلياً، وحاشا لكتاب الله أن يكون فيه لفظ معناه سطحي أو عابر..

لذا ماذا سيحدث لو كفَّ هؤلاء عن الانتماء إليكم؟ ماذا لو كفُّوا عن الانتماء إلى الناس الذين تولوا أمرهم؟ ماذا لو كفُّوا عن الشعور بمشاكل الناس، والتحسس لما يريدون ويواجهون؟ ماذا لو شكَّلوا عالمهم الخاص بهم، وانتموا إليه، وابتعدوا عن «الناس»؟

سيكفُّون فوراً وتلقائياً عن أن يكونوا أولي الأمر. لأن «أولي الأمر» - قرآنياً - منكم ومنهم، وليس لهم أي صفة أخرى، وهم بالتأكيد **ليسوا «أولي الأمر عليكم».. بل هم «منكم»..**

خروجهم من ذلك سيعني خروجاً أكيداً من «الأمر» كله..

سيكون أولاً خروجاً من طاعة الله ورسوله، ومن المرجعية لهما..

وبالتالي سيكون خروجاً من تولي الأمر..

إذن أولو الأمر «يخرجون» من الأمر قبل أن يخرج الناس عليهم..

يخرجون منه إذا **خرجوا من طاعة الله ورسوله..**

ويخرجون منه إذا كفُّوا عن **الرجوع إليهما - كمرجعية - عند التنازع..**

ويخرجون منه **إذا كفُّوا عن الانتماء إلى الناس الذين يتولون أمرهم..**

عندها يكون خروج الناس (هل يسمونهم العامة؟ أو العوام؟) على «أولي الأمر» مجرد رد فعل..

دوماً يحذروننا من الخروج عليهم..

لا أحد يحذرهم من مغبة خروجهم هم عن الأمر.

الشورى خارج منظومتها؟

إذن أولو الأمر يجب أن يكونوا **منتمين** إلى الناس..

وهذا سيقودنا إلى آية أخرى في غاية الأهمية، وَرَدَ فيها لفظ «أمرهم».. وقد هيمنت بمعناها على السورة بأكملها.. حتى صار اسم السورة مرتبطاً بلفظ ورد في هذه الآية..

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

وأمرهم شورى بينهم..

أمرهم إذن شورى، وليس لسلطان متغلب..أو لانقلاب عسكري، وبيان رقم واحد..

أمرهم شورى بينهم..

فكيف لا يكون أولو الأمر قد اختيروا عبر الشورى؟

◆◆◆

هل أتحدث عن الديمقراطية هنا؟

أبداً.

ليس رفضاً لها، بل **رفضاً لهذا الخلط الحاصل بينها وبين الشورى.**

الديمقراطية - على الأقل بشكلها الحالي - تستدعي آليات محددة هي بمثابة «الوسيلة»..

الشورى أوسع، لأنها لا **تتضمن آليات محددة**، بل هي متروكة للمسلمين في اختيارهم لهذه الآليات..

لكنها جزء من منظومة أكبر..

«أمرهم شورى بينهم» جاءت ضمن مجموعة مواصفات أخرى، ضمن **منظومة قيم متكاملة**، الشورى من ضمنها..

﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى:٣٦-٤٣].

الإيمان، التوكل، اجتناب كبائر الإثم والفواحش، المغفرة، إقامة الصلاة..

وبعدها «الشورى»..

أي أن **أمرهم شورى بينهم، لكن هذا لا يمكن أن يكون منفرداً، مستقلاً**، لا يمكن أن تكون هناك **شورى منعزلة عن هذه المنظومة**، منظومة الإيمان واجتناب الفواحش والصفات الأخرى التي ذكرت في السياق..

بعبارة أخرى: **«الشورى ليست فوق هذه القيم.. هذه القيم ليست موضع نقاش في «الشورى».**

لست واثقاً بأن **«الديمقراطية» تعني ذلك بالضبط**.. أو أنها تضع أية قيمة خارج موضع النقاش (عدا آلية الديمقراطية نفسها).

لكني واثق بأن ذلك أمر يمكن تعديله..

تعديله في الآليات بطبيعة الحال.. وليس في الشورى.

ولـي الأمر.. أي أمر؟

فلنتوقف قليلا عند لفظ «الأمر» واستخدامه في القرآن الكريم..

الأمر في لسان العرب[178] هو "ضد النهي".. ويعني كذلك في لسانهم "الحادثة".. فأمر ما يعني "حادثة ما".. واللفظ المعاصر الأقرب الذي نستخدمه في حياتنا اليومية هو "القرار".. ففي حياتنا حوادث وأمور تستلزم أن نتخذ "قرارات" بشأنها.. والقرار هو ما حسمت به تلك الأمور، ووصلت إلى "حكم نهائي" فيه.

وهكذا فإن كلمة "الأمر" لم تأتِ في القرآن الكريم لتعني أمراً محددا بعينه، فقد يكون أمراً يخص الناس، ويمكن لهم أن "يقرروا" فيه..

أو يكون أمراً يتولاه الله عز وجل وحده..

فها هي آيات تتحدث عن الأمر عندما يكون للإرادة البشرية أن تتولاه..

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٦].

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الأنفال: ٤٣].

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١].

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وها هي آيات يكون فيها "الأمر" لله وحده..

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٤].

---

١٧٨ لسان العرب، مادة (أمر)

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأرض ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥].

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

لكن الأمر في الآية التي هي موضع نقاشنا واستدلالنا هنا، تتحدث عن أمر بشري بطبيعة الحال.. عن أمر يمكن للبشر أن يتولوه..

ما هذا الأمر؟

هل هو "الحكم" فقط كما رسخ في أذهاننا؟

هل هناك ما يشير إلى ذلك؟

قطعا لا.

الأمر مفتوح دونما تحديد، والصورة الذهنية التي رسخت عن أن "الأمر هو الحكم" لا تستند لغير التكرار والتلقين والترويض الذي تعرضنا له لقرون..

الأمر يمكن أن يكون مختصاً بجانب سياسي، أي يتمحور حول "الحكم"..

لكنه يمكن أن يكون أيضاً مرتبطاً بأي جانب آخر من جوانب الحياة: اقتصادية، تربوية، صحية، بيئية... إلخ.

تقزيم "**الأمر**" وحصره بالسياسة فقط، ومن ثم تحويله **إلى وسيلة للاستبداد**، كان من الجرائم التي تمت بحق هذه الآية.. أو بحقنا بالأحرى، فكل فهم سلبي لآية من آيات الله عز وجل يقزّم من إنسانيتنا، ويقلل من فرصنا في استثمار هذه الآيات للوصول إلى تحقيق ما خُلقنا من أجله.

"الأمر" في هذا السياق هو كل ما يمكن أن نتولاه نحن البشر، لكننا نختار عبر "الشورى" من يكون الأكثر خبرة فيه، كل أمر على حدة"، من يتمكن من تفعيل **آليات ووسائل للتنفيذ في داخل "منظومة القيم".. منظومة الإيمان والعمل الصالح واجتناب الكبائر.**

أي أن "أولي الأمر" هم من يتولون اختيار **الوسائل والآليات** لتحقيق الأهداف، وتكريس القيم الثابتة والدفاع عنها، تلك القيم التي هي غير قابلة للنقاش..

قيم طاعة الله ورسوله (بكل ما في ذلك من ثوابت) ليست للتشاور، إنها محسومة.

لكن الأساليب والآليات في تنفيذ ذلك هي لأولي الأمر..

(يكونون من الناس، ويُختارون بالشورى)..

وعندما يحدث نزاع، عندما يُعتقد أن هذه الآليات قد اخترقت حدوداً معينة، أو عندما يرفض الناس ما وصل إليه أولو الأمر.. فإن العودة هي لمرجعية الله (عبر كتابه).. والرسول (عبر الثابت من سنته).

بيت "الطاعة" سيئ السمعة!

لأن طاعة «أولي الأمر» تعرضت لتشويه تاريخي، ولأن الفهم السائد حالياً لا يمتلك صلة «قرابة» بالطرح القرآني للمفهوم.. **فإن التعبير بكلمات أخرى قد يساعدنا لفهم المراد القرآني.**

طاعة أولي الأمر، وهم أهل الخبرة، الذين يختارهم الناس من بينهم، **هو التعبير القرآني المرادف «للالتزام بالقانون» بتعبيراتنا المعاصرة.**

القانون هو وسيلة أو آلية لتنفيذ وتحقيق ما قرر مجتمع ما أن يكون أهدافه وثوابته..

وليس لأولي الأمر أن يقرروا **الأهداف والثوابت**، فهذه محددة سلفاً.

لكن هناك آليات ووسائل تتجدد، ومستجدات في واقع متغير دوماً، **وآليات تنتهي صلاحيتها، وأخرى يجب أن تستحدث..**

وكل هذا يجب أن يحدده أولو الأمر..

هل هم أشخاص خارقون لا يأتيهم الباطل من بين أيديهم أو من خلفهم؟

لا طبعاً، الحديث هو عن مجموعة من أصحاب الخبرات أو «الخبراء» ممن يضعون قوانين يمكن أن تطبق وتسهل سبل الوصول إلى ما تؤمن الأمة بأنه هدفها.

بعبارة أخرى: **طاعة أولي الأمر هي طاعة القوانين، هي «الالتزام بالقانون».. وهو أمر علينا أن نقر بأننا نمتلك خللاً كبيراً في فهمه وتطبيقه..**

ربما لأنهم استخرجوا من الطاعة ما يكرس القابلية للاستبداد فينا.. **فأضمرنا ظاهر الطاعة للمستبد طالما كان قوياً، وخرق ما يأمر به كلما غِبْنا عن أعين رقابته، أو كلما ضعف..**

ربما لأننا خلطنا بين القانون وبين «ولي الأمر» (ولي الأمر غير الموجود أصلاً؛ لأن القرآن لم يتحدث بصيغة المفرد).. فكانت النتيجة **أن طاعة القانون حتى في أبسط**

أشكاله (قوانين المرور، أو الانتظام والنظام بشكل عام) ارتبط عند كثيرين منا بطاعة المستبد.. فكان ذلك ممراً إلى عدم احترام القانون إلا بوجود سيف العقوبة مسلطاً على رؤوسنا..

لكن هذا كله يجب أن يتغير..

إن كنا جادين حقاً في «أمر» النهوض من سباتنا وواقعنا السيئ.

جدل خارج التغطية

شيء آخر، الجدل الفقهي عن كون الشورى «ملزمة» أو غير «ملزمة» هو جدل خارج التغطية، **وقد ولد تاريخياً في فترة كان قد تكّرس فيها سوء الفهم الذي جعل من «أولي الأمر» ولياً فرداً مستبداً بالحكم.. بطريقة صار قبول الشورى يبدو كما لو كان منة من ولي الأمر..**

أمرهم شورى بينهم.. نقطة انتهى.

هل يرى أحد منا ما يوحي بأن ذلك ربما لا يكون ملزماً؟

إذا كان غير ملزم فلم أصلاً يُشار إليه في كتاب الله؟

توظيف النصوص النبوية لخدمة الاستبداد..

الأمر مع الأحاديث النبوية مختلف تماماً..

ففي نصوص القرآن لم يكن هناك سوى آية واحدة فقط عوملت على نحو مجتزأ من سياقها، بل وتمت التغطية على جزء من الآية ذاتها (جزء وإن تنازعتم) ليكون المعنى الناتج خادماً للاستبداد.

مع النصوص النبوية الأمر مختلف، خاصة أننا تعاملنا **مع الأحاديث كما لو كانت مساوية للقرآن الكريم،** فصار في إمكاننا حسب علاقة المساواة الجائرة هذه أن نقرأ القرآن ونفهمه حسبما نفهمه من أحاديث متفرقة..

والحقيقة هي **أن العلاقة (في رأيي) يجب أن تكون معكوسة تماماً..**

يجب أن نفهم كيف طرح القرآن أمراً ما في مجمل آياته، ثم نقرأ كيف جاءت الأحاديث التي ترتبط بالأمر نفسه..

بفارق أن النص القرآني قطعي الثبوت، والنص النبوي لا يكون كذلك إلا في حالة التواتر، وقد يكون قد نقله «الراوي» حسب فهمه له (وهو أمر لا يقدح في الراوي، فقد أجمع علماء الحديث على قبول الرواية بالمعنى)..

وهكذا نكّون «صورة مجملة» عما قاله القرآن..

ثم نقرأ ذلك في الأحاديث..

وقد قال القرآن في هذا الشأن: إن ولي الأمر ليس فرداً واحداً ليس من قبله ولا من بعده، بل هم «أولو أمر».. قال أيضاً: إن هناك طاعتين مقدمتين على طاعة «أولي الأمر».. طاعة الله وطاعة رسوله.. وهو ما يجعل طاعة أولي الأمر خاضعة لطاعة الله ورسوله، ويبطل طاعتهم في حالة كونهم خارجين عن طاعة الله ورسوله..

كما أنه يكرس لحق التنازع معهم عبر العودة إلى مرجعية واضحة هي مرجعية الكتاب والسنة..

وهو أيضاً يحدد كونهم «**من**» الناس الذي يتولون أمرهم..

ويحدد أيضاً «الشورى» وسيلة لاختيار هؤلاء..

كل شيء ضد الاستبداد..

◆◆◆

القراءة المعكوسة التي تعتمد على النصوص النبوية تتحفنا بنظرة معكوسة تماماً، غارقة في تأييدها للاستبداد والمستبدين، لدرجة «وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك»..

إما أن تكون قراءتنا للقرآن خاطئة..

أو أن يكون هناك تناقض بين القرآن وسنته عليه الصلاة والسلام..

أو أن يكون هناك «سوء» فهم كبير في فهم الأحاديث وسياقاتها..

علماً بأن بعض الأحاديث المستخدمة في ذلك، بعضها وليس كلها، هي أحاديث ضعيفة وغير صالحة لأي استدلال..

لكن فلنركز على الأحاديث الصحيحة منها..

ففيها يوجد الإشكال والتحدي..

◆◆◆

أشهر الأحاديث التي استُخدمت في ذلك هو حديث حذيفة بن اليمان: «**قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا بِشَرٍّ فَجَاءَ اللَّهُ بِخَيْرٍ فَنَحْنُ فِيهِ، فَهَلْ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: هَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الشَّرِّ خَيْرٌ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: فَهَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: كَيْفَ؟ قَالَ: «يَكُونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لاَ يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ، وَلاَ يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ. قَالَ: قُلْتُ: كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ؟ قَالَ: تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلأَمِيرِ وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ**».[١٧٩]

للوهلة الأولى ستكون هناك صدمة، الحديث في صحيح مسلم، وقد تعودنا أن ننظر إلى الأحاديث في صحيحي البخاري ومسلم على نحو «يقيني».. دون أن نتقصى التفاصيل.. لكن نظرة متفحصة دون ردود أفعال درامية متطرفة (رفض مسلم والبخاري بكل ما فيهما، أو الاقتناع بالسمع والطاعة وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك) ستجعلنا نرى أن في الأمر سعة دون النسف ودون القبول دون فهم.

للحديث صيغ أخرى **متفق عليها**، أي صححها البخاري ومسلم..

عن حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ قال: «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ، مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ. قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ. قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا. قَالَ: هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا. قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ. قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟ قَالَ: فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ».[١٨٠]

إذن هذه هي الصيغة «المتفق عليها» أي **الأكثر قوة من الناحية الإسنادية**، والزيادة الاستبدادية المفترضة، تكون عند لزوم جماعة المسلمين وإمامهم، وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك.. ودون هذه الزيادة، سيكون الحديث عن التزام الجماعة فقط، دون إرهاصات مؤيدة للاستبداد من أي نوع..

لكن هل هذه الزيادة صحيحة أقل من الصيغة الأصلية؟

لا.

١٧٩ صحيح مسلم، ١٨٤٧، ٤٨٩١.
١٨٠ البخاري ٧٠٨٤، ٣٦٠٦، ٣٦٠٧، مسلم ٤٨٩٠

هذه الزيادة ضعيفة، **وقد أوردها مسلم لا لأنها صحيحة، بل للمتابعة فقط..** وقد أوردها بهذه الطريقة بعد أن أورد الصيغة الأولى عن أبي سلام قال حذيفة... إلخ.

وهذا هو ضعف السند، **لأنَّ أبا سلاَّم هذا لم يسمع حذيفة رضي الله عنه،** قال الدارقطني رحمه الله: (**وهذا عندي مرسل لأن أبا سلام لم يسمع حذيفة**).[181]

قال النووي رحمه الله تعليقاً على كلام الدارقطني رحمه الله: (وهو كما قال الدارقطني). لكنه قال بعد ذلك: (لكن المتن صحيح متصل بالطريق الأول، وإنما أتى به مسلم بهذا متابعة كما ترى، وقد قلنا في الفصول وغيرها: إن الحديث المرسل إذا روي من طريق آخر متصلاً تبينَّا صحة المرسل، وجاز الاحتجاج به، ويصير في المسألة حديثان صحيحان). [182]

وليس الأمر محسوماً كما قال رحمه الله، فقد فاتته دقيقة من دقائق علم الحديث نبَّه إليها المحققون من علماء الحديث، وهي أنَّ الطريق التي فيها ضعف يسير (كالإرسال مثلاً) إذا روي من طريق آخر صحيح تبينَّا صحة المرسل شرط **ألا تكون فيه زيادة تضيف حكماً..** نعم أصل الحديث ثابت، لكن **هذه الزيادة لا تصح؛ لأنها جاءت بسند منقطع.**

قال الشيخ مقبل الوادعي رحمه الله محقق الإلزامات والتتبع: (هذا وفي حديث حذيفة هذا زيادة ليست في حديث حذيفة المتـفق عليه، وهي قوله: «وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك» فهذه الزيادة ضعيفة لأنها من هذه الطريق المنقطعة والله أعلم) الحاشية: ص ٢٥٨.

وهذه الطريق أتى بها مسلم رحمه الله متابعة كما قال النووي رحمه الله، لكنه أتى بها ليبين علته، فقد صرح في أول صحيحه أنه سيذكر بعض الأحاديث ليبين علتها، ولعل هذا منها، إذ يبعد أن يغيب عن مسلم رحمه الله أن أبا سلام لم يسمع حذيفة رضي الله عنه، كما إن مسلم في النهاية ليس معصوماً، وقد يكون قد أصابه السهو أو النسيان).

وقد روى الحديث أيضاً أبو داود وأحمد عن **سبيع بن خالد،** وهو كما ذكر ابن حجر رحمه الله مقبول، يعني عندما يتابع، ولا متابع له في هذه الزيادة، فالحديث لا يرقى إلى رتبة الحسن. [183]

◆◆◆

١٨١ الالزامات والتتبع ص٢٥٧ ـ أبو الحسن الدارقطني المحقق : مقبل بن هادي الناشر : دار الكتب العلمية ، ط ٢

١٨٢ شرح النووي على مسلم ج ٦ ، ص ٣٢١. مصدر سابق.

١٨٣ كل هذه الفقرة عن زيادة «وإن ضرب ظهرك» عن دراسة للشيخ إبراهيم العسعس (بتصرف بسيط جدا).
FE٪٢١٩٠٣=http://www.edharalhaq.com/vb/showthread.php?t

إذن زيادة «وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك» ضعيفة..

ليس هذا فقط، بل إن هذه الزيادة تخالف أحاديث صحيحة استند عليها الصحابة ليتخذوا مواقف مخالفة لمبدأ «وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك» فها هما صحابيان جليلان يتهيئان لقتال الأمير كي لا يصادر أرضهما..

أخبرنا الشافعي قال: أخبرنا عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، أو بعض أهله، عن عبد الله بن عمرو، أن معاوية، أو بعض الولاة بعث إلى الوهط ليقصه **فلبس ابن عمرو سلاحه، وجمع من أطاعه وجلس على بابه، فقيل: أتقاتل؟ قال: وما يمنعني أن أقاتل وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من قُتل دون ماله فهو شهيد».** [١٨٤]

حدثنا أبو داود قال: حدثنا ابن أبي ذئب، عن محمد بن زيد بن قنفذ، عن إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله، عن سعيد بن زيد، قال: أراد مروان أن يأخذ أرضه فأبى عليه وقال: **إن أتوني قاتلتهم، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من قتل دون ماله فهو شهيد».** [١٨٥]

لم ينقل لنا أحد أن هناك من جادلهما وقال لهما: وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك عليك السمع والطاعة، علماً بأن حديث «من قتل دون ماله فهو شهيد» بمعزل عن الحادثتين السابقتين حديث متفق عليه.

فضلاً عن أن عدد الصحابة الذين نقلوا هذا الحديث عنه عليه الصلاة والسلام كبير جداً (عبد الله بن عمرو، وسعيد بن زيد، وابن عباس، وعبد الله بن عامر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وأنس بن مالك، وسعد بن ذؤيب، وجابر بن عبد الله، وسويد بن مقرن، وضمرة، وأبو هريرة، وشداد بن أوس، وعبد الله بن مسعود). [١٨٦]

لكن عدا ذلك فلنتذكر هنا بعض ما يجب تسجيله:

أولاً - الحديث كما رواه حذيفة رضي الله عنه يروي ما قاله عليه الصلاة والسلام لحذيفة على نحو شخصي، أي أنه عليه الصلاة والسلام لم يقف على المنبر ليقول **علنا ما قاله لحذيفة حصراً**، ما يهمنا هنا ليس فكرة «وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك».. فهي ليست موضع نقاش لأنها ضعيفة، فضلاً عن مخالفتها لكل منطق، ولأحاديث صحيحة أيضاً كما سلف، ولكن لموضوع **الاعتزال في حالة عدم وجود**

١٨٤ السنن الآثار، للبيهقي، ٥٥١٥.
١٨٥ مسند الطيالسي، ٢٣٣.
١٨٦ صحيح البخاري، ٢٤٨٠، ومسلم، ٣٧٨، وأبو داود، (٢٧٥/٢)، والنسائي، والترمذي (٣١٦/٢) وصححه، وأحمد (١٦٥٢، ١٦٥٣) عن سعيد بن زيد، وسنده صحيح.

«**جماعة مسلمين» وإمام لهم..** هل سيكون جوابه عليه الصلاة والسلام هنا هو نفسه فيما لو كان السائل شخصاً آخر غير حذيفة رضي الله عنه؟.. هل سيقوله لعمر بن الخطاب مثلاً أو لخالد بن الوليد أو لأبي بكر.. أو أي شخص عرف بقدرات قيادية مميزة؟ وهذا لا يقلل من شأن حذيفة رضي الله عنه، فليس من الممكن أن يكون كل الصحابة قياديين، يجب أن يكون في أي مشروع، كما مر في بداية الكتاب، قائد ومفكر ومخطط ومموول ومروج ومنفذ.. لا يمكن للمنفذ أن يكون قيادياً كما لا يمكن للقيادي أن يكون منفذاً، كلاهما يقدمان دوراً يكمل دور الآخر.

مربط الفرس هنا **أن الاعتزال قد لا يكون الجواب الذي يقدم لغير حذيفة، بل سيكون الجواب بأن تقوم بإنشاء جماعة المسلمين، أو أن تكون «إمامهم»..**

ثانياً - إن ألفاظ الحديث قد اختلفت بين «وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك» وبين «وإن ضُرِب ظهرك وأُخِذ مالك».. أي بين فعل مبني للمعلوم فاعله هو الإمام، وفعل مبني للمجهول، **لا نعرف من الفاعل فيه.. ربما كان الحديث هو عن أن تلزم جانب الإمام حتى لو قام منازعوه بضرب ظهرك وأخذ مالك.**

◆◆◆

ماذا عن الأحاديث الأخرى..

هناك مجموعة كبيرة من أحاديث السمع والطاعة للأمير..

مثل حديث متداول جداً عن السمع والطاعة ولو «لعبد حبشي»..

عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**اسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل حبشي كأن رأسه زبيبة**»[١٨٧]، وفي رواية قال: «**عبد حبشي**». [١٨٨]

وفي سند آخر: عن أبي التياح أنه سمع أنس بن مالك يقول: قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذر: «**اسمع وأطع! ولو لحبشي كأن رأسه زبيبة**».[١٨٩]

الاستخدام الحالي لهذا الحديث يكرس ويستغل النظرة الدونية الجاهلية، التي تتعالى على كل من كان أسود اللون، وتعتبره من منزلة أدنى، **فتعتبر أن السمع والطاعة للحاكم واجبة حتى لو كان عبداً أسود، فكيف لو كان غير ذلك؟!**

لكن الحديث ببساطة يقول شيئاً آخر مناقضاً، إنه يقول: **إن «أهلية الحكم» لا**

---

١٨٧ صحيح البخاري، ٦٩٣.
١٨٨ صحيح البخاري، ٧١٤٢.
١٨٩ صحيح البخاري، ٦٩٦.

علاقة لها بلون بشرة الحاكم، أو انتمائه العرقي والاجتماعي..

بل إن الحديث ينقض مفهوماً آخر سائداً عن كون الولاية خاصة بقريش فقط.. أي أنه يكرس أحقية الجميع في تولي المنصب بمعزل عن لونه أو انتمائه القبلي العشائري..

ما المعيار إذن؟

المعيار في حديث آخر، من الواضح أنه ورد في السياق نفسه، وربما في الواقعة نفسها..

عن أم الحصين قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في حجة الوداع: «**إن أُمِّر عليكم عبد مجدع، يقودكم بكتاب الله، فاسمعوا له وأطيعوا**». [١٩٠]

فالمعيار الذي يرتكز عليه السمع والطاعة وكل أحاديثها سيبقى متعلقاً بهذا، حول القانون الذي يستخدمه «الأمير».. أي من يأمر وينهى.. فإذا كان مستنداً على الكتاب، **فالسمع والطاعة هنا جزء من العقد الاجتماعي الذي وافق المجتمع عليه، جزء من الالتزام بالقانون.**

عبر هذا الفهم يجب قراءة كل النصوص التي فيها السمع والطاعة، حتى لو لم يكن فيها إشارة إلى «المعيار».. حديث واحد فقط يكفي لكي نفهم كل إشارة على كونها مرتبطة بهذا المعيار.

بل إن بيعة المؤمنين للرسول عليه الصلاة والسلام مرتبطة بطاعته في معروف فقط، كما في الحديث المتفق عليه: «**تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه**». [١٩١]

إذا كان عليه الصلاة **والسلام يبايعه أتباعه على أن لا يعصوه في معروف**، وهو الذي لن يأمر إلا بمعروف.. فما معنى أن نتصور أن علينا أية طاعة تجاه أي أحد ما لم يكن ما يأمر به معروفاً؟

هذا بالإضافة إلى أن بعض هذه الأحاديث واضحة في كونها تخص وقائع معينة أمّر فيها الرسول عليه الصلاة والسلام بعضاً من أصحابه على المدينة أو على سرية..

---

١٩٠ أخرجه مسلم ٤٨٦٨ ، والنسائي ٧٨١٥ ، وأحمد ٢٧٣٠٤ وابن ماجه ٢٩٧١.

١٩١ متفق عليه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني». [١٩٢]

فالحديث واضح هنا في سياقه **وبلفظ «أميري»** أن المقصود هنا هو شخص تمَّ تأميره شخصياً من قبله عليه الصلاة والسلام في سرية أو مهمة محددة، وليس من جاء بانقلاب، أو ورث الحكم عمن جاء بتغلب أو انتصار... إلخ.

فلنلاحظ مثلاً أن بعض من رووا أحاديث السمع والطاعة أنفسهم لم يلتزموا بها بالطريقة التي تم تكريس فهمها لاحقاً..

فعن أبي ذر قال: إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع وإن كان عبداً مجدع الأطراف[١٩٣]، وفي رواية: عبداً حبشياً مجدع الأطراف. [١٩٤]

هذا هو أبو ذر، **الثائر ضد سرف معاوية، وضد فهم «الأمير» لنصوص القرآن..** لم يقل: إن خليلي أوصاني بالسمع والطاعة حتى لو كان الأمير عبدا حبشيا «**فكيف بقرشي مثل معاوية؟!».. بل فهم أن السمع والطاعة تكون عندما يتناسق الأمير مع أحكام القرآن والسنة وينتظم بها (التي يفترض أن الناس قد قبلوا أصلا اتخاذها مرجعية لهم في علاقتهم بأنظمة حكم يرتضونها لأنفسهم)..**

ومثل هذا كان فهم عبد الله بن عمرو بن العاص: عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ رَبِّ الْكَعْبَةِ قَالَ: دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ جَالِسٌ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ، فَأَتَيْتُهُمْ فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي سَفَرٍ، فَنَزَلْنَا مَنْزِلاً، فَمِنَّا مَنْ يُصْلِحُ خِبَاءَهُ، وَمِنَّا مَنْ يَنْتَضِلُ، وَمِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَشَرِهِ، إِذْ نَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: الصَّلاَةَ جَامِعَةً. فَاجْتَمَعْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلاَءٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي. ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ هَذِهِ. فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ، وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ فَلْيُطِعْهُ إِنِ اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الآخَرِ». فَدَنَوْتُ مِنْهُ فَقُلْتُ لَهُ: أَنْشُدُكَ

١٩٢ متفق عليه.
١٩٣ صحيح مسلم، ١٤٩٩.
١٩٤ صحيح مسلم، ٤٨٦٢.

اللَّهَ آنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم؟ فَأَهْوَى إِلَى أُذُنَيْهِ وَقَلْبِهِ بِيَدَيْهِ وَقَالَ: سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ وَوَعَاهُ قَلْبِي. فَقُلْتُ لَهُ: هَذَا ابْنُ عَمِّكَ مُعَاوِيَةُ يَأْمُرُنَا أَنْ نَأْكُلَ أَمْوَالَنَا بَيْنَنَا بِالْبَاطِلِ، وَنَقْتُلَ أَنْفُسَنَا، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ قَالَ: فَسَكَتَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: أَطِعْهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَاعْصِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ.[١٩٥]

ويحسم ذلك **الحديث المتفق عليه:** عن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يُؤمر بمعصية، فإذا أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**».

السمع والطاعة للمرجعية وليس للحاكم

السؤال هنا: ما معنى أن تسمع وتطيع في ما تكرهه إلا في المعصية؟ وهل يختلف ذلك حقاً عن الاستبداد؟

نعم يختلف، لأن السمع والطاعة هنا هي **التزام بقانون، وليس التزام بمزاج عابر، أو رغبة مفاجئة لحاكم استبد برأيه.**

هل يكون القانون ظالماً؟

لا، لكنه **يمكن أن يكون صارماً.. يمكن أن يكون حاداً..** القانون قد لا يأتي موافقاً لهوى الجميع أو رغباتهم، بل قد يصطدم بها أحياناً لأنه «يضبطها» لما فيه المصلحة التي قد لا تكون آنية أو عاجلة بالضرورة.

لذا قد تلتزم بالقانون على الرغم من أنك كنت تفضل لو كنت «متفلتاً منه».. لكنك عندما تؤمن بأن **المصلحة الأهم هي مصلحة من منظار شمولي يتجاوز فرديتك الضيقة ورغباتها**، فإنك ستلتزم به، **ولو على «كره» في البداية..**

ويعني هذا أن القانون قد لا يروق للكل.

فكيف يطيعونه إن كان لا يروق لهم؟!

بعض التكاليف الشرعية قد تكون مرهقة، وبعض ما «كُتب علينا» قد يكون «كره» ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾ ولكننا ما دمنا قد قبلنا بالشرع غير مكرهين، مؤمنين

١٩٥ صحيح مسلم، ٤٨٨٣.

به ابتداء، فهذا يجعلنا نؤمن به بكلياته، وهو ما «يلزمنا» بقبول بعض التفاصيل التي قد تواجهها نفسنا البشرية «بالكره»..

وهكذا فإن **قبول قانون ما، هو قبول للمرجعية التي أصدرت هذا القانون،** للمصادر الأساسية للتشريع، إن كنت قد قبلت هذه المرجعية، وقبلت مصادر التشريع فيها، وصدر عنها «قانون» لم يرق لك، فعليك أن تراجع إيمانك بمصادر التشريع، هل تؤمن حقاً أن دورك في هذه الحياة ينسجم مع دور الإنسان في مصادر التشريع؟ أم أن إيمانك بها هو من نوع «التصديق» النظري فحسب، وليس الإيمان كما جاء في القرآن، وكما مر سابقاً شرحه؟

الأمر في السمع والطاعة يتعلق بقبولك لدينك كمرجعية ومصدر لتشريعات قد يكون فيها ما «تكرهه» نفسك..

إن كنت لا تقبل دينك كمرجعية، فلا إكراه في «الدين».. **أي لا إكراه في أن تقبله..** ولكن عندما تدخل فيه، تقبله، **فعليك أن تقبله «كله».. دون شروط.. دون استثناءات.. دون إيمان ببعض الآيات «المريحة»، وكفر ببعضها الذي يتطلب «التضحية».**

الفرق إذن بين **السمع والطاعة** الذي ورد في النصوص (التي استُغلت لتكريس الاستبداد) وبين **الاستبداد هو أن العقد بينك وبين الحاكم يجعلك تلتزم بمرجعية معينة قبلتها أنت، وبالتالي عليك «سمعها وطاعتها»، وليس سمعه وطاعته هو، لأنك اخترتها أصلاً..**

يمكنك أن تخرج من هذا العقد، يمكنك أن تفسخه كما يحدث في كل العقود، **لكن سيكون هناك شرط جزائي كما في كل العقود أيضاً،** هذا الشرط يحتم عليك أن تعي أنك قد خرجت من «المرجعية كلها»، خرجت من قبولك لها، حتى لو كنت لا تزال تؤدي الشعائر (التي ستصبح مجرد طقوس مفرغة من أبعادها ومقاصدها الاجتماعية).. وهذا الشرط الجزائي لا علاقة له بمفهوم الردة بالضرورة، بل بحقيقة عليك أن تواجهها مع نفسك.. حقيقة أنك متناقض في خياراتك، وأن هذا التناقض قد يكون نفاقاً مغلّفاً بهذه الحجة أو تلك، وقد تبدو بعض هذه الحجج «فلسفية» و«مبهرجة» و«حداثية».. ولن يملك أحد حق منعك من الإيمان بها، كما لن يملك أحد حق منعك من أن تكفر ﴿من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾.. **لكنك لو كنت متناسقاً ومنضبطاً ومنسجماً وصادقاً مع نفسك، لحاولت أن تزيل هذا التناقض..** بأن تواجه نفسك..

إما أن تكون مع دينك ككل دون شروط، حتى لو تطلب ذلك التضحيات..

أو أن..

موانع التحول إلى الاستبداد

لكن ما المعايير التي تمنع "السمع والطاعة" من التحول إلى استبداد؟

أولاً - يجب أن يكون ما يمكن أن يثير بعض "عدم الراحة" أو "الكراهة" **أمراً ثابتاً** عبر النصوص، ولا شك فيه (أي بنص قرآني أو بحديث متواتر لفظاً أو معنى)..

ثانياً - يجب أن يكون **"أولو الأمر" هم أول من يطبقه، هم ومن حولهم من عوائلهم وناسهم، فإذا كان تشريع القوانين يتطلب تضحيات اقتصادية تتطلب التقشف، فإنهم أول من يجب أن يتقشف..** وإن تطلب الأمر تضحيات من نوع آخر، كانوا كذلك سبّاقين فيها، لا مشرِّعين لقوانين خاصة تعفي أبناءهم وأقاربهم من أدائها.

ثالثاً - أن يكون ذلك ضمن بقية تشريعات من نفس المرجعية والمصدر، أي أن لا يكون **التشريع "المرهق" وحده مسبباً بمصادر الشريعة ومتكئاً عليها**، بينما كل ما قبل ذلك منفصل عنها.

رابعاً - أن يكون واضحاً، معروف الهدف والمقصد من تطبيق "هذا القانون" في وقت محدد بعينه، على نحو يجعل فهم الناس له أكثر يسراً، وبالتالي الالتزام به أكثر فاعلية.

خامساً - أن يبقى الأمر في النهاية متروكاً لخيار الناس، أن يتحملوا هم نتيجة خيارهم بأنفسهم، **وأن يتخلوا عنه حسب شروط العقد بينهم وبين من ولوه على أنفسهم.**

ليس من حق أي كان أن يجبرهم على البقاء "**مؤمنين**" بتلك المرجعية، بغض النظر عن "تصنيفهم" في هذه الحالة.

وبغض النظر عن مصيرهم الأخروي الذي ليس من حقنا أن نحدده بحسم دنيوياً.

الوصول إلى "النهوض" ليس نزهة لصيد الفراشات

من المهم هنا أن نذكر أن "النهوض" قد يتطلب تضحيات جمة، خاصة في بداية الطريق.

ومن المهم أن نذكر أن الناس قد تستعجل النتائج، وقد لا تفرق كثيراً بين **النهوض بوصفه مشروعاً حضارياً فكرياً يتغلغل في عمق البنية التحتية** للفرد وللمجتمع

فيعيد تركيبهما على حد سواء، **وبين مجرد التنمية التي تعني رفع مستوى الدخل وزيادة الرفاهة (ويسهم في هذا الغلط بعض الأحزاب السياسية).**

من الضروري أن يكون الوعي الجماهيري مفرقاً بين الاثنين، على الأقل كي لا يخدع.. كي لا يعتقد أن الدرب سهل، وأن الثمار عند أول منعطف.

من المهم جداً **ألا نخدع الناس بشراء تأييدهم عبر وعود لن تتحقق إلا عبر تضحياتهم**، بل من المهم أن يكون واضحاً عند من يؤيد أنه إنما يؤيد الطريق الأطول، والأكثر وعورة، ولكنه يؤدي إلى نهوض المجتمع حقاً.

قد يكون ذلك مدعاة **لعدم تأييد البعض..**

لكن الوعي العام سيتقبل ذلك بالتأكيد.. بالتدريج.

لكن ذلك كله لا يمكن أن يكون فيه احتمالية صغيرة للحدوث، إذا لم نتخلص من جذور الاستبداد، من ذلك الفهم السلبي للنصوص، لمفهوم «أولي الأمر» وجعلِه حكراً على فرد واحد غير قابل للمراجعة وبمعزل عن أي شروط، وهو ما رأينا أنه مخالف تماماً لكل النصوص..

لكننا لن نتمكن من التخلص من ذلك دون أن نقرأ النصوص بعين جديدة، **عين تشكلها النصوص نفسها..**

وليس الاستبداد إلا حلقة واحدة من الحلقات التي يجب استئصالها..

لكي نتمكن من زراعة ما سيثمر حقاً..

لكي يقوم "الخليفة" بما يجب القيام به.

ثلاث طعنات في قلب الخليفة؟

معادلة الاستخلاف أصيبت بهذه الطعنات الثلاث (حسب رأيي)، وهي المفاهيم السلبية التي تمكنت من أن تستغل التحيز السلبي لتحيد إيجابيات كثيرة في مفاهيمنا الأساسية..

أولاً - تهميش الدنيا، ساحة الامتحان، وتحقيرها حتى صارت تبدو كالزبالة النتنة، بل صارت كذلك فعلاً، في آلية تخدير للإنسان عن دوره الحقيقي، حيث يتم إقناعه أن دوره في هذه الحياة يقتصر على بعض الشعائر و"التجنبات"، ومن ضمنها

الابتعاد عن الدنيا في انتظار الآخرة..

فكان ما كان من ابتعاد حقيقي عن الدنيا للبعض، وإقبال عليها للبعض، ولكن بطرق غير شرعية، أو بكثير من تأنيب الضمير، كما لو كانوا يقترفون إثماً.

وكانت النتيجة أن ابتعدنا عن جيل الفتح، الجيل الذي "فتح العالم".. وتدهورنا حتى صرنا في الدرك الأسفل بين الأمم.

ثانياً - جاء الإيمان السلبي بالقدر ليكون بمثابة الضربة القاضية على معادلة الاستخلاف، فقد تم تسويغ الوضع السلبي المتدني بكونه جزءاً من قضاء وقدر مسبق لا سبيل لتغييره، وتم سلب نسبة الفعل من العبد.. وإرجاعها إليه عز وجل في تناقض صارخ مع محاسبته لنا لاحقاً.

ثالثاً - الفهم السلبي لمفهوم ولي الأمر الذي رسخ الاستبداد، وكبّل الفرد الإنسان - الخليفة بقيود تجاه "خليفة فرد واحد" تربع على قمة الهرم، وفرض سلطته دون وجه حق أو تخويل من الخالق الذي منح حق "الاستخلاف" و"الخلافة" لكل فرد في النوع البشري.. فإذا بهذا الحق يُسلب من الجميع، ويُمنح لشخص واحد فقط عبر فهم سلبي تراكم على النصوص الدينية وطريقة تعاملنا معها.

◆◆◆

مع كل هذا، هل كان يمكن لمعادلة الاستخلاف إلا أن تحبط وتعطل؟

لا.

لم يكن ممكناً إلا أن يحدث ما حدث بنا ولنا.

من بين كل الخلفاء الذين تم اغتيالهم في تاريخنا هناك خليفة واحد لم ينتبه لوفاته أحد.. ولم يتم التحقيق في جريمة قتله قط.. لم يُتهم أحد، وبالتالي لم يُعاقب أحد..

ربما لأن موته كان بطيئاً وبالتدريج، ربما لأنه مات مسموماً، ولأن السم كان من النوع الذي لا يقتل إلا بعد فترة طويلة.

على الرغم من ذلك، كانت نتيجة وفاة هذا الخليفة كارثية بكل المقاييس.. ربما كانت معادلة لنتيجة اغتيال أهم الخلفاء الذين نعرفهم.

كان مقتل هذه الخليفة علامة فارقة سلبية في تاريخنا.

◆◆◆

لم تعرفه؟

انظر إلى المرآة.. وسترى في انعكاسها صورته..

لقد قتلوا «الخليفة» في داخلك..

وبعدها، كان من السهل عليهم أن يفعلوا كل شيء.

◆◆◆

ألم تعرف من قبل أنه كان هناك خليفة في داخلك؟

بالضبط.

كانت هذه هي الجريمة بالضبط.

أنك لا تعرف أنك الخليفة.

لقد قتلوك.. قتلوه.. عندما قتلوا مفاهيم الاستخلاف في داخل رأسك..

◆◆◆

لم يحدث ذلك بالضبط عبر طعنات مباشرة تقضي فوراً على «الخليفة» كما حدث في أهم وأشهر حوادث الاغتيالات..

بل كان الأمر أقرب إلى حوادث السم..

يمكننا أن نقول: إن الأمر ربما كان تسمماً..

أي ربما لم يكن بفعل فاعل محدد.. لكن كانت النتيجة واحدة..

لقد مات الخليفة، ماتت فكرة الخليفة، عقيدة الاستخلاف..

في داخلنا.

◆◆◆

سيرة خليفة قادم؟..

قد تقول الآن، وقد شارفنا على النهاية: أين سيرة «الخليفة» القادم؟! كنا ننتظر رواية مشوقة عن بطل يشق حجب الغيب، ويخرج ليملأ الأرض عدلاً وسعادة كما

مُلئت جوراً وظلماً وبؤساً..

إنها النهاية السعيدة التي ننتظرها منذ قرون.

النهاية التي سنظل ننتظرها دون أن تأتي ما **دام كل ما نفعله هو الانتظار..**

لكن عنوان الكتاب ليس «سيرة الخليفة القادم»..

ليس الحديث عن «الخليفة»..

بل عن «خليفة»..

ما الفرق؟

الفرق كبير.

فالخليفة - مع ال التعريف - هو فرد واحد بعينه.

و«خليفة» - دون ال التعريف - **هو أي أحد، هو أي فرد، وليس فرداً واحداً بعينه..**

والفرق بين الاثنين كبير..

بل هو فرق يلخص جزءاً كبيراً من مشاكلنا.

«الخليفة» القادم هو ذلك البطل الذي نعلق عليه آمالنا.

و«خليفة» قادم هو أي فرد منا، أنت أو أنا أو ابنتك أو ابنك أو ابن الجيران.. إنه فرد يقوم بواجبه الذي خُلق من أجله، لا يؤجل ذلك لأن إرادته قد سلبها حاكم مستبد، بل يعمل على انتزاع هذه الإرادة منه إن هو سلبها.. **لا يعتبر أنه عابر سبيل أو ضيف في هذه الدنيا، بل يعي تماماً أنها دار امتحانه الذي سيحدد موقعه ومكانته في «الآخرة»..** الدنيا التي سيبنيها ستحدد آخرته التي يستحقها.. كم كانت عادلة.. كم كانت عامرة.. كم تحقق فيها من شرع الله، هذا هو ما سيحدد «آخرته»..

وهو لا يعتذر بالقضاء والقدر ليسوغ مكانته المتردية، ووضعه السلبي، وتسلط حكامه وبقية الأمم عليه.. بل يؤمن **أنه جزء من السنن الإلهية في البناء والإعمار** وتحقيق العدل والتوازن في هذا الكون، وأن ما يمنعه من أداء دوره ليس قدر الله، بل مجموعة معوقات هي في الحقيقة جزء من امتحانه في هذه الدنيا، واستسلامه لهذه المعوقات هو فشل أولي سيقود إلى فشل شامل، وتحولها إلى «تحديات»

ومحفزات هو ما يقوده إلى «النجاح» في هذا الامتحان.

هذا هو أي إنسان – خليفة يقوم بدوره، ينشر الوعي بين الناس، أن أفيقوا من سباتكم وخدركم.. سواء كان طالباً، أو مهندساً، أو معلماً، أو طبيباً، أو موظفاً، إدارياً، أو عالماً في أي مجال من مجالات العلوم، أو جندياً، أو إعلامياً، أو رجل دين، أو فناناً مبدعاً.. (وكل هذا يمكن أن تقوم به المرأة أيضاً، فهذه الأدوار ليست حكراً على الرجل، ولا علاقة لها بأعضاء الذكورة أو الأنوثة).

هذا الإنسان الذي يقوم بدوره بوصفه خليفة في الأرض.. والذي يمكن أن يكون أي واحد منا، بلا ملامح أو علامات فارقة غير «أداء الواجب» والالتزام به قضيةً.

هذا الإنسان، وكلما تكرر وجوده في مجتمع ما، هو الذي يمهد الدرب، ويزيل العوائق أمام «الخليفة» القادم (مع ال التعريف)، الذي لن يأتي قط ما لم يكن هناك «خليفة» دون ال التعريف.. ما لم يكن هناك «كثير» من الأفراد الذي صاروا «خلفاء».

سيحدث ذلك نقلة في «العقل الجمعي».. في وعي المجتمع بدوره وما يجب أن يقوم به..

وكل ذلك سيمهد حتماً **للخليفة القادم، للخليفة مع ال التعريف..**

لكنه سيكون **وقتها نتاج مجتمع «خليفة»، سيكون «الخليفة» هنا نتاجاً لظروف موضوعية، وسنن تاريخية ساهم المجتمع فيها بدوره..** سيساهم «الخليفة» أيضاً بدوره في قيادة المجتمع نحو المزيد من الاستخلاف.. لكنه لن يكون البطل الخارق الذي شق حجب الغيب، بل سيكون قد ولد من رحم تغييرات المجتمع، وساهم أيضا فيها، ولن يكون «فرداً» لا يعوض.. بل «خليفة» دون ال التعريف، ولكن «المواصفات القيادية»، والمنعطفات التاريخية تدفعه ليكون «الخليفة».. وسيكون ذلك أيضاً ضمن جماعة من الخلفاء.. مجموعة من البشر الذين قرروا أن يكونوا ما خلقهم الله من أجله.

«الخليفة» - حتى مع ال التعريف - لن يكون وحده.

سيرة الخليفة "الكامن": باختصار، استئصال وتأصيل!

حسنا.

ما هي هذه السيرة.. "سيرة خليفة قادم"؟

"سيرة خليفة قادم" ليست أبداً مرتبطة بتاريخ ولادته ومكانها وسنة تخرجه.

سيرة خليفة قادم ترتبط **بالمخاض (بمخاضك) الصعب الذي تتخلص فيه من كل القيود المتراكمة التي تمنعك من أداء ما خُلقت من أجله.. كل تلك المفاهيم السلبية التي كبلتنا لقرون، ومنعتنا من تأدية ما خُلقنا لأجله، آن لنا أن نتخلص منها، أن ننشق عنها.. أن نلتحم بالنصوص بمعزل عن ذلك الفهم السلبي السرطاني الذي نهش في فاعليتنا، وجعلنا أمة مخدرة مهمشة في الدرك الأسفل بين الأمم.**

سيرة خليفة قادم هي عملية الاستئصال الجراحي التي تقوم بها لاستئصال سرطانات السلبية من أعماقك.. سرطانات المفاهيم التي أخرجتك عن دورك.. وزراعة المفاهيم البديلة في داخلك.

آن لنا أن نبدع سيرتنا، أن نقوم بمخاضنا بأنفسنا.. أن نتخلَّص من قيود ألفناها، حتى تصورنا أنها جزء من أيادينا، تصورنا أيضاً أنها جزء من ديننا.. لذا يبدو التخلص منها عملية صعبة وشاقة.

آن لنا أن نستبدل ذلك البؤس كله بالمفاهيم التي ستعيد لنا مكانتنا، وسترجعنا إلى ذواتنا الحقيقية.. أن نلتحم بها، أن نؤصلها بحيث تصير جزءاً أصيلاً منا.. أن نكون مؤمنين أن هذا الفهم هو الذي أوصل الجيل الأول إلى القمة.. وأننا لن نتحرك خطوة واحدة من دركنا ما لم نسترجع هذا الفهم..

ما لم نقم **بالاستئصال، والتأصيل..**

استئصال الفهم السرطاني العالق على نصوص ديننا، مهما كان ذلك الفهم محصناً بأسماء علماء مهمين ومخلصين قدموا خدمات جليلة في سياق دورهم التاريخي، ومهما كان هذا الفهم سائداً ومنتشراً، ويبدو كما لو كان مقدساً قداسة النص نفسه.

وتأصيل الفهم الإيجابي.. غرسه عميقاً في وجداننا، بعمق النص نفسه..

لا فائدة من الغرس الإيجابي دون استئصال الفهم السلبي..

ما دام السرطان لم يُستأصل، ما دام الفهم السلبي رابضاً.. فلا فائدة.

لا بد من الاستئصال والتأصيل..

مهما كلّف الأمر..

وإلا بقينا فيما لم يعد ممكنا البقاء فيه.

الاستئصال والتأصيل: القطعية الحتمية

الاستئصال والتأصيل يمثلان الطريقة الوحيدة التي يمكن أن نعود فيها إلى الإسلام الحقيقي، **إسلام النص**، أي الإسلام **الذي صنع معجزة النهوض والحضارة في فترة قياسية..**

دون الاستئصال والتأصيل لن تحدث "عودة حقيقية" إلى هذا الدين..

إن حرصنا على العودة إلى نصوصه، إلى منابعه الأولى، إلى الثابت والصحيح من أحاديثه عليه الصلاة والسلام، أي باستئصال "النصوص الدخيلة " فقط - كما حدث فعلاً في واحد من التيارات المهمة حالياً - ودون أن يصاحب ذلك عملية "تأصيل" للفكر الإيجابي المتضمن في النصوص المؤسِسة، فإن **عملية الاستئصال لن تعدو أن تكون عملية شكلية، تركز على ما هو ظاهر فقط، وتهمل الأعمق الذي قد يكون أكثر فاعلية، وله وظائف أهم.**

دون أن يحدث "التأصيل" **ستتم قراءة النصوص - حتى الثابتة منها - بعقلية عصر الانحطاط**، بعقلية البحث عن كل ما يمكن أن يُفسَّر على نحو سلبي، لتثبت هذا التفسير، وتكرس هذه الرؤية، **هذه العقلية هي "عقل جمعي" متراكم ورثتها كل التيارات، وتشاركت فيها، حتى لو كانت مختلفة متناحرة فيما بينها،** ولا يمكن الخروج من هذا العقل الجمعي دون عملية "بتر" - طويلة ومؤلمة بلا شك - لكثير من بديهيات هذا العقل الجمعي، الذي هو ليس مجرد "أفكار"، **بل هو أيضاً "طريقة تفكير".. نمط في "رؤية الأشياء"، في التعامل مع النصوص.. في قراءتها على نحو محدد.**

ولا يمكن **تأصيل "الإيجابي" دون "استئصال" السلبي والضار**، لأن الانحياز السلبي سيقضي "كمحصلة" على ما هو إيجابي.. بالضبط كما لا يمكن أن تبذر بذورك في الأرض دون أن "تجتث" أدغالها وأعشابها الضارة.

دون "الاستئصال والتأصيل" لن نتمكن قط من **قراءة النص كما يجب.**

كيف "كما يجب"؟ هل هناك طريقة لقراءة النص كما يجب؟

نعم، بالتأكيد.. كما قرأه "الجيل الأول"..

الجيل الذي أنجز النهوض ومشروعها الحضاري.. قرؤوا النص القرآني، وتعاملوا مع أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام على النحو الذي جعلهم "بناة النهوض".. و"صانعي الحضارة".. لا **أتحدث هنا عن "التفاصيل الفقهية".. أو التفصيلات والجزئيات عموماً، مع إقراري بأهميتها، ولكن فقط بعد أن تثبت "الكليات".. العموميات.. الثوابت.**

عبر هذه "الثوابت" المستقاة من محكم النصوص ومن مجملاتها يمكن قراءة النصوص الأخرى كلها.. يمكن فهمها كما فهمها "السلف".. وأعني بالسلف هنا ذلك السلف الذي أنجز نهضة الأمة.. وصنع حضارتها، مما لا نزال نأكل على فتات موائدها إلى اليوم.

عبر "الاستئصال والتأصيل" سيمكننا أن نخطو إلى ذلك.. أن نعود إلى الفهم الصحيح الفاعل للقرآن الكريم.. ولأحاديثه عليه الصلاة والسلام.. مجمل سنته ومفصلها أيضاً.

◆◆◆

هل الاستئصال هنا هو بمثابة «القطيعة المعرفية»؟ [196]

بالتأكيد هو كذلك، إنه **قطيعة معرفية مع كل ما قطعَنا عن معرفتنا الحقيقية، عما يجب أن نعرفه ليكون زادنا وبوصلتنا وعدتنا في رحلة حياتنا..**

إنها قطيعة معرفية مع كل ما قطعَنا عما كان يجب أن نكونه.

قطيعة معرفية مع واردات وصادرات عصر الانحطاط بأسره، عصر انحطاط الأمة عن قيمها المؤسسة، ودورها الذي قامت من أجله.

لكن هذه القطيعة **ليست قفزة في الفراغ الذي يمهد لسيطرة "مفاهيم" بديلة تنتشر بقوة الفراغ، أو بقوة "النموذج الغربي" المنتصر..**

بل هي قطيعة تعيدنا إلى جذورنا، إلى بذور نهضتنا وحضارتنا..

---

١٩٦ القطيعة المعرفية epistemological break or Rupture مصطلح نحته الفيلسوف الفرنسي لوي التوسير (١٩١٨-١٩٩٠م)، ويستخدم أيضاً باتجاه ما تتجه الفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار (١٨٨٤-١٩٦٢م) وتعني أن العلم والفكر لا يستمران في خط تراكمي، بل تحدث عمليات قطيعة "معرفية" مع بديهيات في المعرفة السائدة، وتجاوزها تماماً لإنتاج معرفة جديدة.

تعيدنا إلى ثوابتنا.

قطيعة معرفية؟

نعم، لتكن.

لا مشاحة في الاصطلاح.

نسميها "استئصالاً وتأصيلاً".. أو "قطيعة معرفية"..

ويمكن التعبير عنها ببساطة أكبر بأن نقول:

لا إله إلا الله، محمد رسول الله..

الفعل "خلف" يختصر قصة حياتك

عندما لا تكون "خليفة قادماً"..

فأنت ولا بد ستكون شيئاً آخر..

شيئاً آخر مشتقا أيضاً من نفس الفعل الثلاثي الذي اشتُقت منه كلمة "خليفة"..

الفعل هو "خلف"..

ومن الفعل خلف..

يشتق "الخليفة"..

ويشتق أيضاً..

"المُخلَّف"..

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١].

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الفتح: ١١].

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الفتح: ١٥].

المخلفون..

شغلتهم أموالهم.. وأهلوهم..

قاعدون..

كانوا يجدون عذراً هنا وعذراً هناك للقعود والمزيد من القعود.. قعدوا عن التضحية، عن بذل الجهد، وروَّجوا للقعود، ولاموا من قام وضحَّى..

وعندما جاءت الغنائم تراكضوا نحوها مطالبين بما لم يبذلوا جهداً في الحصول عليه..

تراخوا وتقاعسوا عند "الواجبات"..

وتراكضوا عند "الحقوق"..

مخلفون.

◆◆◆

الفعل «خلف» يحاصرك في كل حياتك..

إما أن تتفاعل معه، تشتق منه أفعالاً تجعلك "خليفة"..

أو تجمد الفعل.. لتكون "مخلَّفاً"..

لا خيار ثالثا هناك..

خليفة..

أو مخلَّف..

والخيار حتماً لك..

لك وحدك.

◆◆◆

كل منا سيكتب فصله الخاص من سيرته..

كل منا سيجعل من هذه السيرة سيرته الذاتية..

يكتبها بوعيه، بطموحه، بانسلاخه من قيوده، بفعاليته.. بتمثله للآية (٣٠) من سورة البقرة..

أو..

بلا فعله.. بالتحامه بقيوده.. بتماهيه معها..

كل منا يختار دوراً واحداً فقط من دورين معروضين أمامه..

خليفة، أو مخلف..

ماذا سيحدث الآن؟

لا أدري.

القرار متروك لكم..

لكل واحد منّا.

ابتدأ ٢٠٠٩/٧/١٢م

انتهى ٢٠١١/١٢/٩م

ملحق

الخريطة الجينية للخليفة القادم

الخريطة الجينية للخليفة القادم

كل طفل يولد يحمل معه مورثات "جينات" هي إرثه وحصته من السلالة الإنسانية.

لا تتساوى هذه المورثات في إيجابياتها فبعضها يورث صاحبها قوة ومناعة وبعضها يورثه الضعف.. أو الاستعداد لمرض مميت..

أو الاستعداد لميول إجرامية.

لقرون ظل يحدث ذلك دون تدخل إنساني.. وبدأ الأمر بالتغير مؤخرا مع دخول الهندسة الجينية مجالات عديدة، خاصة في الطب وإنتاج العقاقير والهرمونات، وإجراء تعديلات جينية في حيوانات تجارب تستخدم للبحث في علاجات السرطان.

لا يزال الأمر في بدايته نسبيا.. من الناحية الطبية التطبيقية.

لكنه يجب أن يكون حاسما، بعيدا عن التجارب، عندما نتحدث عن ذلك الجنين القادم.

الجنين الذي سيكبر ليكون خليفة قادما..

أو «المخلف الآخر»..

الجنين الموجود في أحشائنا جميعا..

بغض النظر عن جنسنا.

***

الجنين القادم سيأخذ من المورثات الموجودة فيما يعرف في «حوض الجينات أو بركة الجينات»..

سيأخذ السيئ أو الطالح منها. أو الإيجابي والجيد منها.

عندما نتحدث عن جنين بشري قادم، فالأمر يستحق المخاطرة، ومن ثم مواجهة هذه المخاطر. لقد نجت البشرية عبر قرونها المتطاولة عبر هذا.. عبر المواجهة اللاحقة.

لكننا لا نملك نفس الترف مع جنين الأمة القادم.

لا يمكننا أن نخاطر بأن نتركه مرة أخرى فريسة لما يجده في بركة المورثات..

خاصة أن السلبي منها، قد صار أكثر.

وهو أصلا يملك صفة السيادة والهيمنة. على العكس من المورثات الإيجابية، التي تكون متنحية.

لا يمكننا إلا أن نتدخل في الهندسة الجينية لهذا الجنين القادم..

لكي يكون خليفة قادما.. علينا أن نتدخل..

إن لم نفعل.. سيكون مجرد «مخلف» آخر..

◆◆◆

نتحدث عن قيم العقل الجمعي.. عن مكوناته التي هي بمثابة مورثات تنتقل عبر الأجيال.

حوض الجينات القيمية المتوفر - والذي نأخذ منه قيمنا المشكلة للعقل الجمعي - يضم قيما متعددة. بعضها إنساني مشترك مع كل الأمم، وبعضها نتاج لنصوص دينية مؤسسة، وبعضها نتاج لتجارب مرت بها هذه الشعوب..

بعض هذه القيم سلبي جدا..

وبعضها إيجابي حتما..

وبين هذا وذاك، هناك الإرادة البشرية الواعية..

تختار.. تنتقي.. تستأصل..

وأيضا: تستأصل.. تنفي.. تطرد..

الخريطة الجينية للخليفة القادم، تتطلب أن نفهم ما هو متوفر في بركة الجينات تلك.

لكي نطرد ما يجب طرده.

واستخدام ما يمكن استخدامه.

هذا الجنين لا يمكن لنا أن نخاطر في تركه في الحوض دون أن نطهره..

مفاتيح أساسية لفك الشفرة الوراثية والخارطة الجينية

العقل الجمعي: مجموعة الأعراف والقيم المشتركة التي تميز «مجموعة بشرية» ما عن سواها. لا يمكن إلغاء الفروق الفردية المتوفرة حتما لكل مجموعة ولكن أيضا يجب النظر لها في سياق فاعليتها وتأثيرها ضمن القيم المحركة السائدة. القيم المؤسسة للعقل الجمعي هي تلك التي تؤثر في سلوك جماعة معينة وتؤسس لردود أفعالها المميزة عن ردود أفعال جماعة أخرى.

المؤسسة الدينية التقليدية: رغم عدم تطور تراتبية مؤسسية كهنوتية في الإسلام كما في الأديان السابقة - أي تلك التي يتدرج فيها رجل الدين في مراتب محددة - فإن هذا لم يمنع نشوء مؤسسة دينية تقليدية مرتبطة بالإسلام وممثلة له في كثير من الأحيان.

رغم وجود العديد من المذاهب الفقهية والفروق العقائدية في جسم الأمة بالعموم، إلا أن المؤسسة الدينية التقليدية، التي تحتوي ضمنا على كل هذه المذاهب والفرق تشترك فيما يلي: أولا: احتكار الحديث باسم الدين.

ثانيا: احتكار فهم الدين ونصوصه على نحو يتماشى مع ما تريده هذه المؤسسة.

ثالثا: تحول رموز المؤسسة بالتدريج إلى أسماء مقدسة بحيث تصير لآرائها وأقوالها مكانة النص الديني المقدس نفسه.

رابعا: الجزء الأعظم من التراكم في بناء هذه المؤسسة الدينية نشأ في ظل عصور الانحطاط والتدهور وكان هذا التراكم بطبيعته متأقلما مع التدهور والانحطاط.

الانحياز السلبي: ظاهرة الانحياز السلبي عند البشر ظاهرة علمية معروفة ولها شواهد قرآنية وتتلخص في أن البشر يتأثرون بما هو سلبي من أخبار أو حوادث وقيم ومعطيات أكثر من تأثرهم بما يماثل هذه المعطيات إيجابيا.
وهذا يعني أن القيمة السلبية المثبطة ستكون أكثر تأثيرا على الإنسان من معاكستها الإيجابية..

أي أنه في حال وجود «قيم إيجابية» وأخرى «سلبية» في حديث واحد عن دور الإنسان في العالم، فإن السلبي سيتغلب بتأثيره على الإيجابي.

وبهذا فآلية الانحياز السلبي **تعمل على جعل القيم الإيجابية كما لو كانت «مورثات متنحية» بالمقارنة مع القيم السلبية التي تكون «مورثات سائدة».**

العلاقة بين هذه المفاتيح الثلاثة الآن هي كما يلي: عقلنا الجمعي تأسس جزء كبير وأساس منه من قبل المؤسسة الدينية التقليدية..

والمؤسسة الدينية بدورها نشأت تراكميا في ظروف تدهور تاريخي (على الأقل بالمقارنة مع الفترة الراشدة) ومن ثم تكرس التدهور وصار انحطاطا واستمرت المؤسسة في التعايش معه وتقديم فكر يسهّل التأقلم مع هذا الانحطاط.

لا يعني هذا أن ما قدمته المؤسسة كان سلبيا كله.. كان هناك حتما قيم إيجابية أيضا.

لكن هذا يأخذنا إلى الحلقة الثالثة من المفاتيح وهي آلية الانحياز السلبي.. التي حيدت كل الإيجابيات التي حاولت المؤسسة تقديمها. وأبقت فقط على القيم السلبية في ميدان الفعل والتأثير.

النتيجة النهائية لكل هذا هي عقلنا الجمعي على النحو الذي نحمله اليوم.

مفاتيح الخريطة الجينية لخليفة قادم:

الإيمان: مصدر استخراج الطاقة الأول من داخل كل إنسان.

لا شيء مثل الإيمان يمكنه أن ينظم طاقة الإنسان ويصبها في صالح القضية موضوعِ الإيمان.

أيُّ إيمان هو تصديق وتعريف واستقطاب.

تصديق بمجموعة «مترابطة» من الحقائق وعدُّها بديهيات غير قابلة للنقاش.

تحول هذه الحقائق إلى بديهيات ومسلمات لا تناقش هو التصديق المتعلق بالإيمان.

تصديق يتحول ليكون بمثابة المعرِّف - الهوية - للشخص المعني.

يجد نفسه في هذه المسلمات.. تصير جزءا من «الهوية الشخصية» لهذا الشخص.. يرتبط وجوده - كيانه - بها.

يؤدي ذلك إلى استقطاب واستخراج كل الطاقة الكامنة داخل هذا الشخص لتكون دافعا للعمل من أجل هذا الإيمان.

ما سبق ينطبق على كل إيمان، وعلى الإيمان بأركان الإيمان الستة أيضا، والتي يجب أن تكون دافعا للعمل الصالح كي يصح وصفها بالإيمان.

القرآن: كل ما جاء به القرآن جاء من أجل النهوض.. من أجل أن ينهض الإنسان والمجتمع ويقوم ليمارس ما خلقه الله من أجله.

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾

والأقوم هي الأكثر قياما.. وقام في لسان العرب تعني نهض، ولفظ القيام أوسع وأشمل من لفظ النهضة.. فهو لا يشمل لحظة القيام وحسب بل يحتوى الأداء والتقويم والتقييم أيضا.

كل آية في القرآن تقرأ بوجهها الإيجابي.. بوجهها الدافع للعمل والقيام والنهوض.

أي قراءة تحيد عن هذا وتتجه لتكونَ قراءة «سلبية» تقاعسية تثبيطية للنص القرآني هي قراءة خاطئة حتما بمعزل عن مروجيها أو مبتدعيها.

العلاقة بين القرآن والحديث الشريف:

نقرأ الصحيح من السنة النبوية بعين تتشكل عدستها البؤرية وتتحدد من خلال القرآن فحسب.. وليس العكس.

القرآن.. عندما نجمع آياته في موضوع محدد ومن ثم نصل إلى خلاصة ما قاله لنا يمكن أن نذهب إلى مجمل الأحاديث في نفس الشأن لنعرف بالضبط المقصد النبوي التطبيقي في الموضوع ذاته. وهذا لا يقلل من شأن السنة النبوية ولا من «مرجعيتها» لكنه يضعها في موضع أكثر فاعلية وتأثيرا من الناحية التطبيقية, كما أنه يقلل من تأثير عدم معرفتنا للسياق الذي قال فيه الرسول الكريم هذا الحديث, كما يقلل من تأثير عدم الإلمام المحتمل لراوي الحديث بكل جوانب الموضوع، أو من تأثير روايته للواقعة أو للحديث بالمعنى - كما فهمه ووعاه - وليس بالضبط كما حدث, وهو أمر مقبول من الناحية «الحديثية» ولكن الدخول إلى الحديث من خلال القرآن يقلل من تأثيراته الجانبية المحتملة.

الاستخلاف (العبادة):

صنوان ومترادفان وتسميتان لشيء واحد هو الهدف الذي خلقنا من أجله **﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾** [الذاريات ٥٦]، **﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في**

الأرض خليفة﴾ [البقرة ٣٠].

مظاهر العبادة - الاستخلاف متعددة ومتجددة ولا يمكن حصرها لكنّ جوهرها واحد.

الشعائر: جزء من العبادة.. يسود فهم خاطئ يساوي بينهما.

على العكس من العبادة ذات المظاهر المتعددة والجوهر الواحد، فإن **الشعائر لها شكل وقالب محدد لا يمكن الخروج عنه.**

أداء هذه الشعائر، هو جزء من متطلبات التصديق الذي هو جزء من الإيمان .. أي أن أداء الشعائر شرط من شروط الإيمان ولكنها ليست كافية – وحدها - لذلك.

الشعائر على نحو عام هي بمثابة «دورة تدريبية» لا غنى عنها لكي يكون أداؤنا في «العبادة - الاستخلاف» أفضل.

العمل الصالح: هو العمل الذي ينتج عن منظومة الإيمان بالله وأركان الإيمان الأخرى.

ويكون متجها للمجتمع وإعماره ولو بهدم واستئصال ما هو فاسد فيه.

طبيعة العمل الصالح لا يمكن لها أن تلتزم بقوالب، لكن العمل المؤسسي يمكن له أن يكوّن «الباقيات الصالحات».

الشعائر ليست من العمل الصالح.

العقل والنقل: التناقض المزعوم يفترض أن العقل «مطلق» و«محايد» وبالتالي يمكن أن يكون مؤهلا ليناقض النصوص الدينية.. والحقيقة أن العقل ليس مطلقا فهو نتاج حضاري ويتأثر بالحضارة التي ينشأ فيها.. فنمط التفكير (العقل) الآسيوي (الصيني أو الياباني) مختلف عن العقل «الغربي» ذي الأصول الإغريقية.. بعبارة أخرى: لكل عقل مرجعيته، وعلى أساس هذه المرجعية، يمكن تحديد وجود أو عدم وجود التناقض.

بالنسبة للعقل قرآني، مرجعيته النص القرآني، يتشكل بالنص القرآني، فإن النقل الصحيح لا يمكن أن يعارض هذا العقل وإن بدا هناك تعارض فهذا يعني وجود مشكلة في فهم النص.

التساؤل الإبراهيمي: التساؤل الإبراهيمي هو الخطوة الأولى التي قادت إلى الإيمان حسب المنظور الإسلامي.. إنها ليلة تساؤلات إبراهيم التي سبقت نزول الوحي عليه والتي انفرد القرآن حصريا بذكرها من بين كل الكتب السماوية.

توصل إبراهيم بعقله إلى حقيقة التوحيد المجرد.. وبصفته المسلم الأول وهو من سمانا مسلمين، فإن وصوله للإيمان والتوحيد مرورا بالعقل يمثل «حجر الأساس» في الإيمان الإسلامي الذي لا يجد تناقضا على الإطلاق مع العقل، بل يتكامل معه.

كلمة التوحيد: نفي وإقصاء لكل عقيدة مخالفة لعقيدة الإسلام، سواء كانت هذه العقيدة دينية مخالفة تنتمي لدين آخر أو وضعية إنسانية مثل العلمانية أو الليبرالية أو الشيوعية.

النفي والإقصاء لا يعني عدم إمكانية التعايش مع هذه العقائد المخالفة، بل يعني فقط أنها منفية من عقل وقلب من يقول الشهادة.

فصل الخطاب: مجموعة من الأحكام النهائية الحاسمة التي لا بد أن تتفق عليها الأمة في مطلع نهضتها، كي تتمكن من النهوض بدلا من الضياع في تعدد الآراء ووجهات النظر. بعد أن تنجز الأمة المرحلة الأولى من نهضتها يمكنها أن تختلف وتقبل الاختلاف فيما سوى «المسلمات» التي بنت وجودها عليها.

يمكن لفصل الخطاب أن يكون ثوابت دينية.. كما يمكن أن يكون دستورا تتفق عليه أمة ما ويكون فصل خطابها الخاص بها.

«فصل الخطاب» بالمطلق هو الصادر من المصدر المتعالي عن الزمان والمكان (الوحي).

الحكم: اتخاذ قرار بالاستناد على مرجعية أو منظومة أخلاقية معينة.. لا يشمل هذا الحكم «أنظمة الحكم» السياسي أو القضائي فحسب، بل يشمل كل قرار تتخذه في حياتك.. دوما هناك منظومة ما ترجع لها ولو دون وعي واضح بذلك.

الحق: ما بنى عليه الله عز وجل خلقه من سنن متوازنة.. وما نزل في كتابه من شرائع تمثل سننه في النفس الإنسانية والمجتمع.

الحكم بالحق: الحكم بما جاء في كتاب الله.

التقوى: كل طاعة لأوامر الله هي تقوى.. وهي تزوُّدٌ بالقوة.. سواء أكانت هذه الطاعة لأوامره النازلة في كتبه أو لسننه في كونه..

اتخاذ الأسباب بهذا المعنى هو جزء من التقوى بالاعتماد على سبب نزول آية (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) التي نزلت فيمن كان يقصد الحج دون أن يأخذ بأسباب الطريق.

السنن: القوانين العامة الشاملة التي وضعها عز وجل بقدرته وحكمته لتسيير

شؤون الكون حسب إرادته.. البعض من هذه السنن قوانين مادية سبرها الإنسان تراكميا في دربه إلى «التمكين» وسيتعرف على المزيد منها حتما.

هذه السنن لا تشمل قوانين الفيزياء والكيمياء فقط.. بل تشمل أيضا القوانين التي تتحكم بصعود وانهيار المجتمعات، كما تشمل أيضا قوانين النفس الإنسانية.. صحيح أن هذه السنن لا تعمل بالضرورة وفق معادلات رياضية كما في الفيزياء والكيمياء، لكنها تعمل على نحو آخر نجهله حاليا وقد نبقى له جاهلين أو نتمكن من معرفته وفق نسق معرفي مختلف عن النسق الغربي السائد.

يندرج ضمن هذه السنن بعض ما لا نفهمه إذا فكرنا حسب النسق المعرفي الغربي، مثل إجابة الدعاء.. فقد يكون هناك قانون إلهي وفق معطيات محددة يعمل على تحقيق الإرادة الإلهية في إجابة الدعاء.. سيبقى هذا الجزء من «السنن» غيبا لا نتمكن من سبره.. لكن من المهم جدا أن نؤمن به.

العدل والظلم: ضدان.. العدل والظلم بالمفهوم القرآني قد يختلفان جذريا عن الاستخدام الشائع. كل ما في شرع الله وأوامره عدل.. وكل خروج عنها ظلم يرتكبه الخارج بحق نفسه أولا.

الضر والنفع : ضدان.. اختلط مفهومهما الغربي بالمفهوم الاسلامي.. الضر والنفع في المنظومة الغربية يقاسان على نحو «فردي» - على أساس أن الفرد قبل المجتمع - وعلى المدى القصير المرتبط بمعدل حياة الفرد.. لذا فممارسات فرد ما قد تبدو غير مضرة ما دامت تخصه وحده.. لكن المقياس الإسلامي يحسب الأثر التراكمي لما يفعله الأفراد.

قانون الريادة وقانون الاستمرار: للعمل الصالح قانونان.. **قانون الريادة** المتمثل **بالتين** الذي أقسم به الله عز وجل والذي تسبق ثماره اخضرار أوراقه والذي يمثل فيه الرواد من يشق الطريق أولا ويساهمون في تعبيده.

وقانون الاستمرار المتمثل في **الزيتون** الذي يكون دائم الخضرة ومصدرا أساسيا للطاقة..

يجتمع الاثنان على جبل عليه شجر (الشريعة التي تحمل الريادة والاستمرار).

التمكين - العُـلـوّ: شرط من شروط الاستخلاف ويعني التمكُّن من الأدوات والسنن الموجودة ولكنه في الوقت نفسه مجرد أداة محايدة ولا يحقق الاستخلاف إلا حسب الاستخدام.. استخدام الأدوات في العدل والحق سيؤدي إلى الاستخلاف.

استخدام نفس الأدوات في الظلم وسفك الدماء يقود إلى الاستعلاء في الأرض.

الإصلاح: المنهج الاجتماعي النبوي في التغيير عندما يكون الخراب لم يصل للقواعد ولم يطلها.. نادرا ما لم يحتَج الأمر إلى إعادة بناء من جديد بعد هدم (دمار) شامل كان غالبا يأتي كعقوبة إلهية.

الدنيا مقابل الحياة الدنيا: النص القرآني لم يذمَّ الدنيا قط.. بل تعامل معها غالبا بتوصيف إيجابي وأحيانا محايد.. لكنه لم يذمَّها مطلقا.. الدنيا هي موضع الاستخلاف وموقع الامتحان الذي سيحدد أداؤنا فيه موقعَنا في الآخرة.

أما الذمّ فهو موجَّهٌ للحياة الدنيا، للحياة بنمط متدنٍّ، قريبٍ من إرضاء الشهوات والتشاوف والتفاخر.

الحياة الدنيا هي الحياة التي لا ترتفع لتكون الحياة كما أرداها الله أن تكون.

النهضة[١٩٧] والتنمية:

النهضة: عملية شاملة تنبع من البنية الفكرية لأمة ما تقوم فيها هذه الأمة بتحقيق مقومات وجودها كأمة متمايزة عما سواها.. تجد هذه الأمة منطلقات وجودها وأهدافها في هذا الوجود وتعمل لتحقيقها وتسخير كل طاقاتها لذلك.

التنمية: عملية مرتبطة بالاقتصاد في المرتبة الأولى.. وتكون غالبا مرتبطة بمنظومة اقتصادية غربية رأسمالية.. هاجسها الأول معدلات التصنيع ومعدلات دخل الفرد والدخل القومي بمعزل عن تأثيرات ذلك على المجتمع أو العدالة الاجتماعية وزيادة الهوة بين الطبقات، كما تتجاهل التنمية المشاكل النفسية والأسرية الناتجة عن ذلك وخصوصا على المدى البعيد.

التنمية والنهضة يتقاطعان في بعض النقاط.. ولكن النهضة أكثر شمولا وبأولويات مختلفة.

التنمية تهتم بالتطاول..

النهضة تهتم أكثر بالقواعد السليمة.. وبنمط ومواد البناء وكونها ملائمة للإنسان أكثر.

النهضة مرحلة من مراحل الاستخلاف..

بينما التنمية تعتقد أنها هي الغاية.. هي الاستخلاف.

١٩٧ إن اللفظ "النهضة شوه لكثرة ما زج في مشاريع انتخابية تنموية، وإننا نفضل استخدام مصطلح "القيام" أو "النهوض" للتمييز.

المراجع والمصادر:

١. القرآن الكريم.

٢. لسان العرب لابن منظور.

كتب التفسير:

١. تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥.

٢. تفسير النيسابوري، موقع التفاسير www.altafasir.com

٣. تفسير البحر المحيط، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان، موقع التفاسير: www.altafasir.com

٤. جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٥. تفسير الرازي مفاتيح الغيب، مصدر الكتاب موقع التفاسير: http://www.altafsir.com.

٦. تفسير اللباب، لابن عادل، مصدر الكتاب موقع التفاسير:http://www.altafsir.com.

٧. التحرير والتنوير، ابن عاشور، مصدر الكتاب موقع التفاسير: http://www.altafsir.com

٨. تفسير القشيري، مصدر الكتاب: موقع التفاسير: http://www.altafsir.com

كتب الحديث والسنن والأسانيد:

١. صحيح البخاري.

٢. صحيح مسلم.

٣. السلسلة الصحيحة. محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف - الرياض، التاريخ غير محدد.

٤. سنن الترمذي، الترمذي أبو عيسى، مصدر الكتاب: موقع وزارة الأوقاف المصرية: http://www.islamic-council.com

٥. سنن أبو داود، موقع وزارة الأوقاف المصرية:http://www.islamic-council.com

٦. مسند الإمام أحمد.

٧. سنن ابن ماجه.

٨. سنن النسائي.

٩. المعجم الكبير، الطبراني، مكتبة العلوم والحكم - الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي.

١٠. صحيح ابن حبان **بترتيب ابن بلبان، الناشر:** مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، تحقيق: شعيب **الأرنؤوط.**

١١. مسند الطيالسي، **الناشر:** دار المعرفة - بيروت، التاريخ غير محدد.

١٢. المستدرك على الصحيحين للحاكم، موقع جامع الحديث: http://www.alsunnah.com

١٣. معرفة السنن والآثار للبيهقي، موقع جامع الحديث: http://www.alsunnah.com

١٤. البحر الزخار، مسند البزار موقع جامع الحديث: http://www.alsunnah.com

١٥. المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، الناشر: دار الحرمين - القاهرة، ١٤١٥هـ، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد, عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني.

كتب أخرى:

١. شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد خليل هراس، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م، الناشر: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

٢. اعتقاد أهل السنة شرح أصحاب الحديث، محمد بن عبد الرحمن الخميس، الطبعة الأولى، الناشر وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية/١٤١٩هـ.

٣. العقيدة، أحمد بن حنبل، دار قتيبة - دمشق، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ.

٤. اعتقاد أئمة الحديث، أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي، دار العاصمة - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ تحقيق: محمد بن عبد الرحمن الخميس.

٥. إحياء علوم الدين، محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، الناشر: دار المعرفة - بيروت.

٦. الرسالة القشيرية، أبو القاسم القشيري، ط١، دار الفرفور، دمشق، ٢٠٠٢ م.

٧. كتاب التوحيد للناشئة والمبتدئين، تأليف عبد العزيز بن محمد العبد اللطيف.

٨. اللمع لأبي نصر السراج الطوسي، اللمع في تاريخ التصوف، ط١، تحقيق: كامل مصطفى الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٩. شرح حديث جبريل في تعليم الدين، تأليف عبد المحسن بن حمد العباد البدر، طبعة ابن عفان.

١٠. شرح العقيدة الطحاوية، صالح آل الشيخ، تفريغ نصي من محاضرات، الموسوعة الشاملة.

١١. المواقف، عضيد الدين عبد الرحمن الإيجي، دار الجيل - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

١٢. التنوير في إسقاط التدبير، ابن عطاء الله السكندري، تحقيق موسى محمد علي الموشى عبد العال أحمد العرابي، طبعة مجمع البحوث الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٩٧١م.

١٣. الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري، شرح ابن عباد النفري الرندي، الناشر مركز الأهرام للترجمة والنشر، طبعة أولى، ١٩٨٨م.

١٤. منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين، أبو حامد الغزالي، تحقيق د. مصطفى جلاد، دار الرسالة، ط١، ١٩٨٩م.

١٥. الفروق اللغوية، ابن سهل العسكري، دار الكتب العلمية.

١٦. الإبانة الكبرى لابن بطة العكبري، مصدر الكتاب موقع جامع الحديث: http://www.alsunnah.com

١٧. أصول السنة، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، دار المنار، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

١٨. شرح السنة، للبربهاري، الحسن بن علي بن خلف البربهاري أبو محمد، دار ابن القيم – الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ تحقيق: د. محمد سعيد سالم القحطاني.

١٩. روضة الطالبين وعمدة المفتين، النووي، مصدر الكتاب: موقع الوراق: http://www.alwarraq.com

٢٠. مجموع الفتاوى – الفتوى الحموية الكبرى، ابن تيمية، مصدر الكتاب: موقع الإسلام: http://www.al-islam.com

٢١. اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ

٢٢. حاشية ابن عابدين (رد المحتار على الدر المختار)، دار الكتب العلمية.

٢٣. منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، المحقق: د. محمد رشاد سالم.

٢٤. الوسيط، حجة الإسلام الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، دار السلام.

٢٥. جامع العلوم والحكم، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٢٦. منحة الغفار حاشية ضوء النهار للصنعاني، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ، دار الجيل الجديد، صنعاء.

٢٧. سراج الملوك، الطرطوشي، موقع الوراق: http://www.alwarraq.com

٢٨. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا يحى بن شرف بن مري النووي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.

٢٩. فتح الباري شرح صحيح البخاري، ٧/١٣، ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ، نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، ٣٦١/٧، إدارة الطباعة المنيرية.

٣٠. الموسوعة الفقهية الكويتية www.islam.gov.kw، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

٣١. الإلزامات والتتبع، أبو الحسن الدارقطني، المحقق: مقبل بن هادي الناشر: دار الكتب العلمية، ط ٢.

٣٢. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.

٣٣. الرواية بالمعنى في الحديث النبوي وأثرها على الفقه الإسلامي، للدكتور عبد المجيد بيرم، دار العلوم والحكم – طبعة أولى ٢٠٠٤ م.

٣٤. Fiske, S.T. (1980). Attention and Weight in Person Perception: The impact of negative and extreme information. Journal of Personality and Social Psychology, 38, 889-906.

مواقع الشبكة العالمية:

١. موقع الشيخ سفرالحوالي:

http://www.alhawali.com/index.cfm?method=home.ShowContent&ContentID=576&FullContent=1

٢. موقع الشيخ ابن العثيمين: http://www.ibnothaimeen.com/all/books/article_16973.shtm

٣. دراسة للشيخ إبراهيم العسعس ـ دراسة لحديث ((وإن ضُرب ظهرك وأُخذ مالك)) وبيان ضعفه ونكارته ـ الشيخ إبراهيم العسعس (http://www.edharalhaq.com/vb/showthread.php?t=21903%FE

4. http://dionysus.psych.wisc.edu/lit/Articles/RozinP2001a.pdf

Negativity Bias, Negativity Dominance, and Contagion

Paul Rozin and Edward B. Royzman

5. Succes and Education in South Korea Sorensen,Clark

http://faculty.washington.edu/sangok/education.PDF

٦. suicide rates in South Korea-Wikipedia http://en.wikipedia.org/wiki/Suicide_in_South_Korea

٧. Korean Education edited by

Young-Key Kim-Renaud

R. Richard Grinker

◆◆◆

الفهرس

عن مبادرة قيام - القرآن لأمة قائمة

هذه المبادرة هي المظلة الرسمية الراعية لأعمال الدكتور أحمد خيري العمري.. المقروءة والمسموعة والمرئية والنشاطات الفكرية الملازمة وهي التي تمتلك حقوق نشر وتوزيع أوإعادة نشرو توزيع جميع الأعمال القديمة والصادرة حديثا وبكل اللغات وبكافة أنحاء العالم.

إصدارات الكاتب:

- البوصلة القرآنية
- ليلة سقوط بغداد
- سلسلة ضوء في المجرة (صدر منها):

كش ملك

أدرينالين

يوم، شهر، سَنة

الذين لم يولدوا بعد

تسعة من عشرة

غريب في المجرة

- الفردوس المستعار والفردوس المستعاد
- أبي اسمه ابراهيم (رواية للناشئة)
- سلسلة كيمياء الصلاة (خمس كتب)
- ألواح ودسر
- استرداد عمر من السيرة إلى المسيرة
- سيرة خليفة قادم



د. أحمد خيري العمري

ولد في بغداد عام ١٩٧٠م، وتخرج طبيباً للأسنان من جامعتها، منذ أن أصدر كتابه الأول «البوصلة القرآنية» في عام ٢٠٠٣م وهو يقدم منهجاً مختلفاً عن النمط التقليدي، حيث يعتمد على النصوص الثابتة لإعادة تشكيل العقل المسلم والمفاهيم الإسلامية، بمعزل عن ما تراكم على هذه النصوص من مفاهيم نشأت خلال العصور المتعاقبة.

بين جمود التقليديين، وتفلت بعض التجديديين، قدم العمري منهجاً منضبطاً قد يكون هو الجواب بالنسبة للكثيرين ممن يستشعرون عدم جدوى الاستمرار في الجمود، ويرون الهاوية في التفلت.

له اليوم أكثر من ثمانية كتب مطبوعة وعشرات المقالات التي نالت اهتماماً كبيراً من مختلف الفئات العمرية.

سيرة خليفة قادم

أكبر جريمة ارتكبت بحق مفهوم" الاستخلاف"، هو ذلك الخلط الذي حدث بينه وبين الديكورات التاريخية المصاحبة لدولة الخلافة في التاريخ الإسلامي!.

هذا الخلط يعكس فهماً مختزلاً، بل ومعكوساً للكلمة.. وهو الخلط الذي ساهم في قتل المفهوم الحقيقي للخلافة والاستخلاف...

ماذا لو كان مفهوم الخلافة الحقيقي شخصياً جداً، يمس حياتك الشخصية؟

الاستخلاف قبل كل شيء، هو نمط حياة، أسلوب للعيش، طريقة في النظر إلى الأشياء وإلى العالم وإلى الذات..

قصر الاستخلاف على مفهوم سياسي يجعله يتقزم، ويخرجه عن مساقه ومساره الأصلي .. يخرجه عن تربته القرآنية التي نما فيها، بل ويحمل في ذلك بذرة هلاكه وتدميره...

هذا الكتاب يبحث في مفهوم الاستخلاف قبل أن يُحصر في قالب "الأفلام التاريخية" والديكورات المصاحبة لها والتي يعتقد البعض أنه يمكن استيرادها من الماضي، الكتاب يبحث في القيم والمنطلقات الأساسية التي تكوّن المفهوم وتجعله حقيقة، بغض النظر عن "اللافتات المرفوعة" على هذه الحقيقة...

وهو يبحث أيضاً، في حادثة اغتيال غامضة لأحد الخلفاء، تزامنت وتداخلت مع تقزّم المفاهيم واختزالها..

جريمة قتل ذلك الخليفة الذي لم يبكه أحد، ترتبط مفصلياً بما حدث لمفهوم الاستخلاف الحقيقي –القرآني...

وحل لغز الجريمة، يرتبط بإعادة المفهوم الأصيل إلى نصابه..

عن ذلك الخليفة، الذي لا بواكي له.. وعن مفاهيم في الحقيقة هي نمط للحياة، يتحدث هذا الكتاب....





www.dar-ajial.com
هاتف: 01224242437 (2+)
(مصر - القاهرة)


9 786030 117482